



(الباب الاول فى الفقه)

صحيفة

(الباب الثانى)

(الباب الثالث فى الاخلاق)

(الباب الرابع فى المباحث الادبيه)

صحيفة

(الباب الخامس فى المقامات)

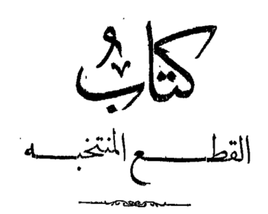
(الباب السادس فى المراسلات والمنشآت)

(الباب السابع فى التاريخ والجغرافيا)

صحيفة

صحيفة

(تمت فهرسة الجزء الاول)



تأليف

حضرة يحيي أفندى ابراهيم
نائب قاضى بمحكمة الاستئناف

وهو

يشتمل على ثلاثة أجزاء

قررت نظارة المعارف العمومية بتاريخ ٨ ابريل سنة ١٨٩٣ نمرة ٣١٣
لزوم طبع هذا الكتاب على نفقتها واستعماله بالمدارس الاميرية

(الطبعة الاولى)
بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية
سنة ١٨٩٣
افرنجيه

الجـــــزء الاول

من كتاب القطـــــع المنتخبـــــه

تأليف

حضرة يحيى افنـــدى ابراهيم
نائب قاضى بمحكمة الاستئناف



الباب الاول في الفقه

فصل

(في فضل القضاء والترغيب في القيام فيه بالعدل وبيان محل التحذير منه وحكم السعي فيه)

اعلم أن أكثر المؤلفين من أصحابنا وغيرهم بالغوا في الترهيب والتحذير من الدخول في ولاية القضاء وشددوا في كراهة السعي فيها ورغبوا في الاعراض عنها والنفور والهرب منها حتى تقرر في أذهان كثير من الفقهاء والصلحاء أن من ولي القضاء فقد سهل عليه دينه وألقى بيده الى التهلكة ورغب عما هو الافضل وساء اعتقادهم فيه وهذا غلط فاحش يجب الرجوع عنه والتوبة منه والواجب تعظيم هذا المنصب الشريف ومعرفة مكانته من الدين فبه بعث الرسل وانزلت الكتب وبالقيام به قامت السموات والارض وقد جعله النبي عليه الصلاة والسلام من النعم التي يباح الحسد عليها فقد جاء من حديث ابن مسعود عنه عليه الصلاة والسلام لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الخير ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال هل تدرون من السابقون الى ظل الله يوم القيامة قالوا الله أعلم ورسوله قال الذين اذا أعطوا الحق قبلوه واذا سئلوه بذلوه واذا حكموا للمسلمين حكموا كحكمهم لانفسهم وفي الحديث الصحيح سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه الحديث فبدأ بالامام العادل وقال صلى الله عليه وسلم المقسطون على منابر من نور يوم القيامة على يمين الرحمن كلتا يديه يمين وقال عبد الله بن مسعود لان أقضي يوما أحب الي من عبادة سبعين سنه ومراده أنه اذا قضى يوما بالحق كان أفضل من عبادة سبعين سنة فكذلك كان العدل بين الناس من أفضل أعمال البر وأعلى درجات الاجر قال الله تعالى وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين فأي شئ أشرف من محبة الله تعالى واعلم أن كل ما جاء من الاحاديث التي فيها تخويف ووعيد فانما هي في حق قضاة الجور والعلماء والجهال الذين يدخلون أنفسهم في هذا المنصب بغير علم ففي هذين الصنفين جاء الوعيد وأما قوله صلى الله عليه وسلم

من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين فقد أورده أكثر الناس فى معرض التحذير من القضاء وقال بعض أهل العلم هذا الحديث دليل على شرف القضاء وعظيم منزلته وأن المتولى له مجاهد لنفسه وهواه وهو دليل على فضيلة من قضى بالحق اذ جعله ذبيح الحق امتحانا لتعظم له التوبة امتنانا فالقاضى لما استسلم لحكم الله وصبر على مخالفة الاقارب والاباعد فى خصوماتهم فلم تأخذه فى الله لومة لائم حتى قادهم الى أمر الحق وكلمة العدل وكفهم عن دواعى الهوى والعناد جعل ذبيح الحق لله وبلغ به حال الشهداء الذين لهم الجنة وقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن أبى طالب ومعاذ بن جبل ومعقل بن يسار رضى الله عنهم القضاء فنعم الذابح ونعم المذبوحون فالتحذير الوارد من الشرع انما هو عن الظلم لا عن القضاء فان الجور فى الاحكام واتباع الهوى فيه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر قال الله تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وقال عليه الصلاة والسلام ان أعتى الناس على الله وأبغض الناس الى الله وأبعد الناس من الله رجل ولاه الله من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم شيأ ثم لم يعدل بينهم وأما قوله صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة قاضيان فى النار وقاض فى الجنة قاض عمل بالحق فى قضائه فهو فى الجنة وقاض علم الحق فجار متعمدا فذلك فى النار وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول لا أعلم فهو فى النار فصح أن ذلك فى الجائر والجاهل الذى لم يؤذن له فى الدخول فى القضاء

(رسالة عمر بن الخطاب الى أبى موسى الاشعرى فيما يتعلق بالقضا)

رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه المعروفة برسالة القضاء ومعانى الاحكام وعليها احتذاء قضاة الاسلام وقد ذكرها كثير من العلماء وصدروا بها كتبهم وهذه الرسالة أصل فيما تضمنته من فصول القضاء وهى

بسم الله الرحمن الرحيم من عمر أمير المؤمنين الى أبى موسى الاشعرى سلام عليك فانى أحمد الله الذى لا إله الا هو أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلى اليك وأنفذ اذا تبين لك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له سو بين الناس فى وجهك ومجالسك وعدلك حتى لا ييأس الضعيف من عدلك ولا يطمع الشريف فى حيفك والبينة على المدعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا لا يمنعك قضاء قضيته بالامس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه رشدك أن تراجع الحق فان الحق ومراجعته خير من الباطل والتمادى فيه والفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما لا يبلغك فى الكتاب والسنة. اعرف الامثال والاشكال وقس الامور عند ذلك واعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى

اجعل للمدعى حقاغائبا أو بينة أجلا ينتهى اليه فان أحضر بينة أخذت بحقه والا وجهت عليه القضاء فان ذلك أجلى للعمى وأبلغ فى العذر والمسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا فى حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أو نسب فان الله تعالى تولى منكم السرائر ورد عنكم بالبينات والايمان واياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم عند الخصومات فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الاجر ويحسن بها الذخر فانه من يصلح ما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بغير ما يعلم الله منه شانه الله فما ظنك بثواب الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام

فصل

(فى الآداب التى يلزم القاضى التمسك بها)

يلزم القاضى أمور منها أنه لا يقبل الهدية من الاجنبى اذا كان لا يهدى اليه قبل القضاء لانه يحتمل أن الاهداء لاجل القضاء حتى يميل اليه متى وقعت الخصومة واذا قبل الهدية ماذا يصنع قالوا يرد على المهدى ان أمكنه الرد وان لم يمكن الرد على صاحبه يضعه فى بيت المال هكذا ذكر محمد فى السير الكبير وان كان يهدى اليه قبل القضاء فان كان له خصومة لا ينبغى له أن يقبل نص عليه الخصاف فان لم يكن له خصومة فان كانت هذه الهدية مثل ذلك أو أقل فانه يقبلها لانه لا يكون آكلا بقضائه لان سابقة المهاداة دلت على أن الاهداء للتودد والتحبب لا للقضاء وان كانت أكثر يرد الزيادة لانه أنما زاد لاجل القضاء ليميل اليه متى وقعت الخصومة ويقبل الهدية من ذى الرحم المحرم من المحيط (قلت) والاصوب فى زماننا عدم القبول مطلقا لان الهدية تورث ادلال المهدى واغضاء المهدى اليه وفى ذلك ضرر بالقضاء والقاضى ودخول الفساد عليه وقيل ان الهدية تطفئ نور الحكمة قال ربيعة اياك والهدية فانها ذريعة الرشوة وكان النبى عليه السلام يقبل الهدية وهذا من خواصه والنبى عليه السلام معصوم مما يخشى على غيره منه ولما رد عمر بن عبد العزيز الهدية قيل له كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها فقال كانت له هدية ولنا رشوة لانه كان يتقرب اليه لنبوته لا لولايته ونحن يتقرب الينا للولاية وقال عليه السلام يأتى على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعظة يقتل البرىء ليتعظ به العامة (ومنها) أنه لا يبيع ولا يشترى فى مجلس القضاء لنفسه لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه كتب الى شريح لا تسار ولا تضار ولا تبع ولا تشترى فى مجلس القضاء ويشهد الجنازة ويعود المريض ويجيب الدعوة ولكن لا يطيل مكثه فى ذلك المجلس ولا يمكن أحدا يتكلم بشىء من الخصومات لان الخصم الآخر يتهمه ويجيب الدعوة

العامة كالعرس والختان (ومنها) أنه لا يجيب الدعوة الخاصة العشرة وما دونها خاصة وما فوقها عامة لان الدعوة العامة ما اتخذت لاجل القاضى بل اتخذت لاجل العامة ولا يصير القاضى آكلا بقضائه (ومنها) أنه ينبغى له التنزه عن طلب الحوائج من ماعون أو دابة (ومنها) أنه لا ينبغى له أن يأتى الى أحد من الناس الا الذى ولاه وحده لان من دونه رعية (ومنها) أنه ينبغى له أن يجتنب بطانة السوء لان أكثر القضاة انما يأتى عليهم من ذلك ومن يلى بذلك عرفه (ومنها) أن يختار له كاتبا يكتب له ويكتب ما يقع فى مجلسه بين الخصوم ولا يجعل كاتب الحكم صبيا ولا عبدا ولا مدبرا ولا مكاتبا ولا محدودا فى قذف ولا ذميا وقد ذكر بعضهم فى أوصافه أربعة وهى العدالة والعقل والرأى والعفة وان لم يكن عالما باحكام الشرع فلا بد أن يكون عالما باحكام الكتابة وقال بعضهم أن يكون كاتبه عدلا فقيها يكتب بين يديه ثم ينظر هو فيه وظاهر كلام المتقدمين أن ذلك على وجه الاستحباب ويقعد حيث يرى ما يكتب لانه أنفى للتهمة والتخليط لانه ربما يخدع بالرشوة فيزيد أو ينقص فيما يكتب فيؤدى الى ابطال حقوق الناس ويكتب ما جرى فى مجلسه من الدعوى والانكار وقيام البينة لاحتمال أن يقع الاختلاف فيما جرى قبل القضاء فتمس الحاجة الى المراجعة اليه فيكتب بحضرة الخصمين لكيلا يتهم بتغرير ويقرأ ما كتب على الشاهدين فان كان فيه خلاف أخبراه به ثم ينظر فيه القاضى فان كان كما جرى وقع بخطه أسفل الكتاب شهدا عندى بذلك (ومنها) أنه ينبغى له أن يتخذ مترجما واذا اختصم اليه من لا يتكلم بالعربية ولا يفهم منه فليترجم عنه ثقة مسلم مأمون والاثنان أحب الينا بعد أن يكون عدلا عند أبى حنيفة وأبى يوسف وقال محمد والشافعى لا يجوز الا رجلان أو رجل وامرأتان فكذلك العدل ورسول القاضى الى العدل الواحد يكفى عندهما من المحيط (ومنها) أنه ينبغى له أن يستبطن أهل الدين والامانة والعدالة والنزاهة ليستعين بهم على ما هو بسبيله ويقوى بهم على التوصل على ما ينو به ويخففوا عنه فيما يحتاج الى الاستعانة فيه من النظر فى الوصايا والاحباس والقسمة وأموال الايتام وغير ذلك مما ينظر فيه (ومنها) أنه يجب أن يكون أعوانه فى زى الصالحين فانه يستدل على المرء بصاحبه وغلامه ويأمرهم بالرفق واللين فى غير ضعف ولا تقصير فلا بد للقاضى من أعوان يكونون حوله ليزجروا من ينبغى زجره من المتخاصمين وينبغى أن يخفف منهم ما استطاع وقد كان الحسن رضى الله عنه ينكر على القضاة اتخاذ الاعوان فلما ولى القضاء وشوش عليه ما يقع من الناس عنده قال لابد للسلطان من وزعة وان استغنى عن الاعوان أصلا كان أحسن قال بعضهم ولا يكون العون الا ثقة مأمونا لانه قد يطلع الخصوم على ما لا ينبغى أن يطلع عليه أحد الخصمين وقد يرشى على المنع والاذن وقد يخاف منه على النساء اذا احتجن الى خصام فكل من يستعين به القاضى على قضائه ومشورته لا يكون الا ثقة مأمونا . معين الحكام

فصـــــل

(فيما يلزم القاضي في خاصة نفسـه)

اعلم أنه يجب على من ولي القضاء أن يعالج نفسه على آداب الشرع وحفظ المروءة وعلو الهمة ويتوقى مايشينه في دينه ومروءته وعقله أو يحطه في منصبه وهمته فانه أهل لان ينظر اليه ويقتدى به وليس يسعه في ذلك مايسع غيره فالعيون اليه مصروفة ونفوس الخاصة على الاقتداء بهديه موقوفة ولا ينبغي له بعد الحصول على هذا المنصب سواء وصل اليه برغبته فيه وطرح نفسه عليه أو امتحن به وعرض عليه أن يزهد في طلب الحظ الاخلص والسنن الاصلح فربما حمله على ذلك استحقار نفسه لكونه ممن لا يستحق المنصب أو زهده في أهل عصره ويأسه من استصلاحهم واستبعاد مايرجو من علاج أمرهم وأمره أيضا لما يراه من عموم الفساد وقلة الالتفات الى الخير فانه ان لم يسع في استصلاح أهل عصره فقد أسلم نفسه وألقى بيده الى التهلكه ويئس من تدارك الله تعالى عباده بالرحمة فيلجئه ذلك الى أن يمشي على ما مشى عليه أهل زمانه ولا يبالي بأي شيء وقع فيه لاعتقاده فساد الحال وهذا أشد من مصيبة القضاء وأدهى من كل مايتوقع من البلاء فليأخذ نفسه بالمجاهدة ويسعى في اكتساب الخير ويطلبه ويستصلح الناس بالرهبة والرغبة ويشد عليهم في الحق فان الله تعالى بفضله يجعل له في ولايته وجميع أموره فرجا ومخرجا ولا يجعل حظه من الولاية المباهاة بالرئاسة وانفاذ الاوامر والتلذذ بالمطاعم والملابس والمساكن فيكون ممن خوطب بقوله تعالى أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا وليجتهد أن يكون جميل الهيئة ظاهر الابهة وقور المشية والجلسة حسن النطق والصمت محترزا في كلامه من الفضول ومالا حاجة به كأنما يعد حروفه على نفسه عدا فان كلامه محفوظ وزلله في ذلك ملحوظ وليقلل عند كلامه الاشارة بيده والالتفات بوجهه فان ذلك من عمل المتكلفين وصنع غير المتأدبين وليكن ضحكه تبسما ونظره فراسة وتوسما واطراقه تفهما وليلزم من السمت الحسن والسكينة والوقار مايحفظ به مروءته فتميل الهمم اليه ويكبر في نفوس الخصوم من الجراءة عليه من غير تكبر يظهره ولا اعجاب يستشعره وكلاهما شين في الدين وعيب في أخلاق المؤمنين . معين الحكام

(كتاب الرهن)

الرهن جائز في الحضر والسفر عند كافة الفقهاء وقال داوود هو مختص بالسفر وعقد الرهن يلزم بالقبول وان لم يقبض عند مالك ولكنه يجبر الراهن على التسليم وقال أبو حنيفة والشافعي وأحمد من شرط صحة الرهن القبض فلا يلزم الرهن الا بقبضه ورهن المشاع مطلقا جائز سواء كان

مما يقسم كعقار أولا كعبد وقال أبو حنيفة لا يصح رهن المشاع واستدامة الرهن عند المرتهن ليست بشرط عند الشافعي وهي شرط عند أبي حنيفة ومالك فتى خرج الرهن من يد المرتهن على أي وجه كان بطل الرهن الا أن أبا حنيفة يقول ان عاد الى الراهن بوديعة أو عارية لم يبطل

(فصل) واذا رهن شيأ على مائة ثم أقرضه مائة أخرى وأراد جعل الرهن على الدينين جميعا لم يجز على الراجح من مذهب الشافعي اذ الرهن لازم بالحق الاول وهو قول أبي حنيفة وأحمد وقال مالك بالجواز وهل يصح الرهن على الحق قبل وجوبه قال أبو حنيفة يصح وقال مالك والشافعي وأحمد لا يصح

(فصل) واذا شرط الراهن في الرهن أن يبيعه عند حلول الحق وعدم دفعه جاز عند أبي حنيفة ومالك وأحمد وقال الشافعي لا يجوز للمرتهن أن يبيع المرهون بنفسه بل يبيعه الراهن أو وكيله باذن المرتهن فان أبى ألزمه الحاكم قضاء الدين أو بيع المرهون والرفع الى الحاكم مستحب عند مالك فان لم يفعل وباعه المرتهن جاز واذا وكل الراهن عدلا في بيع المرهون عند الحلول ووضع الرهن في يده كانت الوكالة عند الشافعي وأحمد صحيحة وللراهن فسخها وعزله كغيره من الوكلاء وقال أبو حنيفة ومالك ليس له فسخ ذلك واذا تراضيا على وضعه عند عدل وشرط الراهن أن يبيعه العدل عند الحلول فباعه العدل فتلف الثمن قبل قبض المرتهن فهو عند أبي حنيفة من ضمان المرتهن كما لو كان في يده وقال مالك ان تلف الرهن في يد العدل فهو من ضمان الراهن بخلاف كونه في يد المرتهن فانه يضمن وقال الشافعي وأحمد تكون الحالة هذه من ضمان الراهن مطلقا الا أن يتعدى المرتهن فان يده يد أمانة واذا باع العدل الرهن وقبض الراهن الثمن ثم خرج المبيع مستحقا فلا عهدة على العدل عند مالك ويأخذ المستحق المبيع من يد المشتري ويرجع المشتري بالثمن على موكل العدل في البيع وهو المرتهن لانه بيع له وقال القاضي عبد الوهاب المالكي لا ضمان عندنا على الوكيل ولا على الوصي ولا على الاب فيما يبيعه من مال ولده وهذا قول الشافعي وأحمد وقال أبو حنيفة العهدة على العدل يغرم للمشتري ثم يرجع على موكله وكذا يقول في الاب والوصي ويوافق مالكا في الحاكم وأمين الحاكم فيقول لا عهدة عليهما ولكن الرجوع على من باع عليه ان كان مفلسا أو يتيما

(فصل) والمغصوب مضمون ضمان غصب فلو رهنه مالكه عند الغاصب من غير قبضه صار مضمونا ضمان رهن وزال ضمان الغصب عند مالك وأبي حنيفة وقال الشافعي وأحمد يستقر ضمان الغصب ولا يلزم الرهن ما لم يمض زمن امكان قبضه

(فصـــل) عند مالك أن المشترى الذى استحق المبيع من يده يرجع بالثمن على المرتهن لا على الراهن ويكون دين المرتهن فى ذمة الراهن كما لو تلف الرهن وكذا عند أبى حنيفة الا أنه يقول العدل يضمن ويرجع على المرتهن وقال الشافعى يرجع المشترى على الراهن لان الرهن عليه بيع لا على المرتهن وكذا يقول مالك وأبو حنيفة فى التفليس اذا باع الحاكم أو الوصى أو الامين شيأ من التركة للغرماء بمطالبتهم وأخذوا الثمن ثم استحق المبيع فان المشترى عندهما يرجع على الغرماء ويكون دين الغرماء فى ذمة غريمهم كما كان والباب كله عند الشافعى واحد والرجوع يكون عنده على الراهن والمديون الذى بيع متاعه

(فصـــل) واذا شرط المشترى للبائع رهنا أو ضمينا ولم يعين الرهن ولا الضمين فالبيع جائز عند مالك وعلى المبتاع أن يدفع رهنا برهن مثله على مبلغ ذلك الدين وكذلك على أن يأتى بضمين ثقة وقال أبو حنيفة والشافعى البيع والرهن باطلان وقال المزنى هذا غلط عندى الرهن فاسد للجهل به والبيع جائز وللبائع الخيار ان شاء أتم البيع بلا رهن وان شاء فسخه لبطلان الوثيقة

(فصـــل) وان اختلف الراهن والمرتهن فى مبلغ الدين الذى حصل به الرهن فقال الراهن رهنته على خمسمائة درهم وقال المرتهن على ألف وقيمة الرهن تساوى الالف أو زيادة على الخمسمائة فعند مالك القول قول المرتهن مع يمينه فاذا حلف وكان قيمة الرهن ألفا فالراهن بالخيار بين أن يعطيه ألفا ويأخذ الرهن أو يترك الرهن للمرتهن وان كانت القيمة ستمائة حلف المرتهن على قيمته وأعطاه الراهن وستمائة وحلف أنه لا يستحق عليه الا ما ذكر وتسقط الزيادة وقال أبو حنيفة والشافعى واحمد القول قول الراهن فيما يذكره مع يمينه فاذا حلف دفع الى المرتهن ما حلف عليه وأخذ رهنه

(فصـــل) زيادة الرهن ونماؤه اذا كانت منفصلة كالولد والثمرة والصوف والوبر وغير ذلك تكون عند مالك ملكا للراهن ثم الولد يدخل فى الرهن دون غيره وقال أبو حنيفه الزيادة مطلقا تدخل فى الرهن مع الاصل وقال الشافعى جميع ذلك خارج عن الرهن وقال احمد هو ملك للمرتهن دون الراهن وقال بعض أصحاب الحديث ان كان الراهن هو الذى ينفق على الرهن فالزيادة له أو المرتهن فالزيادة له

(فصـــل) واختلف العلماء فى الرهن هل هو مضمون أم لا فذهب مالك أن ما يظهر هلاكه كالحيوان والعقار فهو غير مضمون على المرتهن ويقبل قوله فى تلفه مع يمينه وما يخفى هلاكه كالنقد والثوب فلا يقبل قوله فيه الا أن يصدقه الراهن واختلف قوله فيما اذا قامت البينة بالهلاك فروى ابن القاسم وغيره عنه انه لا يضمن ويأخذ دينه من الراهن وروى أشهب وغيره أنه ضامن لقيمته

والمشهور من مذهبه أنه مضمون بقيمته قلت أو كثرت فان فضل للراهن شيء من القيمة على مبلغ الحق أخذه من المرتهن وقال أبو حنيفة الرهن على كل حال مضمون بأقل الامرين من قيمته ومن الحق الذي عليه فاذا كانت قيمته ألف درهم والحق خمسمائة ضمن ذلك الحق ولم يضمن الزيادة ويكون اتلافه من ضمان الراهن وان كان قيمة الرهن خمسمائة والحق ألفا ضمن قيمة الرهن وسقطت من دينه وأخذ باقي حقه وقال الشافعي وأحمد الرهن أمانة في يد المرتهن كسائر الامانات لا يضمنه الا بالتعدي وقال شريح والحسن والشعبي الرهن مضمون بالحق كله حتى لو كان قيمة الرهن درهما والحق عشرة آلاف ثم تلف الرهن سقط الحق كله

(فصل) واذا ادعى المرتهن هلاك الرهن وكان مما يخفى فان اتفقا على القيمة فلا كلام وان اتفقا على الصفة واختلفا في القيمة فقال مالك يسئل أهل الخبرة عن قيمة ما هذه صفته ويعمل عليها وقال أبو حنيفة القول قول المرتهن في القيمة مع يمينه ومذهب الشافعي أن القول قول الغارم مطلقا ولو شرط المتبايعان أن يكون نفس المبيع رهنا قال أبو حنيفة والشافعي لا يصح ويكون البيع مفسوخا وقال القاضي عبد الوهاب وظاهر قول مالك كقولهم ولكنه عندي على طريق الكراهة وأنا أدل على جوازه وأنصر القول به وعندي أن أصول مالك تدل عليه (من كتاب رحمة الامة في اختلاف الائمة)

(كتاب الوكالة)

الوكالة من العقود الجائزة في الجملة بالاجماع وكل ما جازت النيابة فيه من الحقوق جازت الوكالة فيه كالبيع والشراء والاجارة وقضاء الديون والخصومة في المطالبة بالحقوق والتزويج والطلاق وغير ذلك واتفق الائمة على أن اقرار الوكيل على موكله في غير مجلس الحكم لا يقبل بحال فلو أقر عليه بمجلس الحكم قال أبو حنيفة يصح الا ان شرط عليه أنه لا يقر عليه وقال الثلاثة لا يصح واتفقوا على أن اقراره عليه بالحدود والقصاص غير مقبول سواء كان بمجلس الحكم أو غيره

(فصل) ووكالة الحاضر صحيحة عند مالك والشافعي وأحمد وان لم يرض خصمه بذلك اذا لم يكن الوكيل عدوا للخصم وقال أبو حنيفة لا تصح وكالة الحاضر الا برضا الخصم الا أن يكون الموكل مريضا أو مسافرا على ثلاثة أيام فيجوز حينئذ واذا وكل شخصا في استيفاء حقوقه فان وكله بحضرة الحاكم جاز ذلك ولا يحتاج فيه الى بينة وسواء وكله في استيفاء الحق من رجل بعينه أو جماعة وليس حضور من يستوفى منه الحق شرطا في صحة توكيله وان وكله في غير مجلس الحكم فيثبت وكالته بالبينة عند الحاكم ثم يدعي على من يطالبه بمجلس الحكم هذا مذهب مالك والشافعي وأحمد

وقال أبو حنيفة ان كان الخصم الذى وكل عليه واحدا كان حضوره شرطا فى صحة الوكالة أو جماعة كان حضور واحد منهم شرطا فى صحة الوكالة

(فصـــل) وللوكيل عزل نفسه متى شاء بحضرة الموكل وبغير حضرته عند مالك والشافعى وأحمد وقال أبو حنيفة ليس له فسخ الوكالة الا بحضور الموكل وللموكل أن يعزل الوكيل عن الوكالة فينعزل وان لم يعلم بذلك على الراجح عند مالك والشافعى وقال أبو حنيفة لا ينعزل الا بعد العلم بذلك وعن أحمد روايتان

(فصـــل) واذا وكله فى بيع مطلقا فمذهب مالك والشافعى وأحمد وأبى يوسف ومحمد أن ذلك يقتضى البيع بثمن المثل نقدا بنقد البلد فان باعه بما لا يتغابن الناس بمثله أو نساء أو بغير نقد البلد لم يجز الا برضا الموكل وقال أبو حنيفة يجوز أن يبيع كيف شاء نقدا ونساء وبدون ثمن المثل وبما لا يتغابن الناس بمثله وبنقد البلد وغير نقده وأما فى الشراء فاتفقوا أنه لا يجوز للموكل أن يشترى بأكثر من ثمن المثل ولا الى أجل وقول الوكيل فى تلف المال مقبول بيمينه بالاتفاق وهل يقبل قوله فى الرد الراجح من مذهب الشافعى أنه يقبل وبه قال أحمد سواء كان بجعل أو بغيره ومن كان عليه حق لشخص فى ذمته أو له عنده عين كعارية أو وديعة فجاءه انسان وقال وكلنى صاحب الحق فى قبضه منك فصدقه أنه وكيله ولم يكن للوكيل بينة فهل يجبر على الدفع الى الوكيل أم لا قال القاضى عبد الوهاب لست أعرفها منصوصة لنا والصحيح عندنا أنه لا يجبر على تسليم ذلك الى الوكيل وبه قال الشافعى وأحمد وقال أبو حنيفة وصاحباه انه يجبر على تسليم ما فى ذمته وأما العين فقال محمد يجبر على تسليمها كما قال فيما فى الذمة واختلفوا هل تسمع البينة على الوكالة من غير حضور الخصم قال أبو حنيفة لا تسمع الا بحضوره وقال الثلاثة تسمع من غير حضوره وتصح الوكالة فى استيفاء القصاص عند مالك والشافعى على الاصح من قوليه وعلى أظهر الروايتين عن أحمد وقال أبو حنيفة لا تصح الا بحضوره واختلفوا فى شراء الوكيل من نفسه فقال أبو حنيفة والشافعى لا يصح ذلك على الاطلاق وقال مالك له أن يبتاع من نفسه لنفسه بزيادة فى الثمن وعن أحمد روايتان أظهرهما أنه لا يجوز بحال واختلفوا فى توكيل المميز المراهق فقال أبو حنيفة وأحمد يصح وقال القاضى عبد الوهاب لا أعرف فيه نصا عن مالك الا أنه لا يصح وعند الشافعى انه لا يصح والوكيل فى الخصومة لا يكون وكيلا فى القبض الا عند أبى حنيفة وحده (من كتاب رحمة الامة فى اختلاف الائمة)

(كتاب الهبة)

اتفق الأئمة على أن الهبة تصح بالايجاب والقبول والقبض فلابد من اجتماع الثلاثة عند الثلاثة وقال مالك لاتفتقر صحتها ولزومها الى قبض بل تصح وتلزم بمجرد الايجاب والقبول ولكن القبض شرط فى نفوذها وتمامها واحترز مالك بذلك عما اذا أخر الواهب الاقباض مع مطالبة الموهوب له حتى مات وهو مستمر على المطالبة لم تبطل وله مطالبة الورثة فان ترك المطالبة أو أمكنه قبض الهبة فلم يقبضها حتى مات الواهب أو مرض بطلت الهبة وقال ابن أبي زيد المالكى فى الرسالة ولا تتم هبة ولا صدقة ولا حبس الا بالحيازة فان مات قبل أن يحاز عنه فهو ميراث وعن أحمد رواية أن الهبة تملك من غير قبض ولابد فى القبض أن يكون باذن الواهب خلافا لابى حنيفة وهبة المشاع جائزة عند مالك والشافعى كالبيع ويصح قبضه بأن يسلم الواهب الجميع الى الموهوب له فيستوفى منه حقه ويكون نصيب شريكه فى يده وديعة وقال أبو حنيفة ان كان مما لا يقسم كالعبيد والجواهر جازت هبته وان كان مما يقسم لم تجز هبة شئ منه مشاعا

(فصل) ومن أعمر انسانا فقال أعمرتك دارى فانه يكون قد وهب له الانتفاع بها مدة حياته واذا مات رجعت رقبة الدار الى مالكها وهو المعمر هذا مذهب مالك وكذلك اذا قال أعمرتك وعقبك فان عقبه يملكون منفعتها فاذا لم يبق منهم أحد رجعت الرقبة الى المالك لانه وهب المنفعة ولم يهب الرقبة وقال أبو حنيفة والشافعى فى أحد قوليه وأحمد تصير الدار ملكا للمعمر وورثته ولا تعود الى ملك المعطى الذى هو المعمر فان لم يكن للمعمر وارث كانت لبيت المال وللشافعى قول آخر كمذهب مالك والرقبى جائزة وحكمها حكم العمرى عند الشافعى وأحمد وأبى يوسف وقال مالك وأبو حنيفة ومحمد الرقبى باطلة

(فصل) ومن وهب لاولاده شيأ استحب أن يسوى بينهم عند أبى حنيفة ومالك وهو الراجح من مذهب الشافعى وذهب أحمد ومحمد بن الحسن الى أنه يفضل الذكور على الاناث كقسمة الارث وهو وجه فى مذهب الشافعى وتخصيص بعض الاولاد بالهبة مكروه بالاتفاق وكذا تفضيل بعضهم على بعض واذا فضل فهل يلزمه الرجوع الثلاثة على أنه لا يلزمه وقال أحمد يلزمه الرجوع

(فصل) واذا وهب الوالد لابنه هبة قال أبو حنيفة ليس له الرجوع فيها بحال وقال الشافعى له الرجوع بكل حال وقال مالك له الرجوع ولو بعد القبض فيما وهب لابنه على جهة الصلة والمحبة ولا يرجع فيما وهبه على جهة الصدقة وانما يسوغ الرجوع مالم تتغير الهبة فى يد الولد أو يستحدث دينا بعد الهبة أو تتزوج البنت أو يخلط الموهوب له بمال من جنسه بحيث لا يتميز منه والا فليس له

الرجوع وعن احمد ثلاث روايات أظهرها له الرجوع بكل حال كمذهب الشافعي والثانية ليس له الرجوع بحال كمذهب أبي حنيفة والثالثة كمذهب مالك

(فصـــــل) وهل يسوغ الرجوع في غير هبة الابن قال الشافعي له الرجوع في هبة كل من يقع عليه اسم ولد حقيقة أو مجازا كولده لصلبه وولد ولده من أولاد البنين أو البنات ولا رجوع في هبة لاجنبي ولم يعتبر الشافعي طروّ دين وتزويج البنت كما اعتبره مالك لكن شرط بقاءه في سلطنة المتهب فيمتنع عنده الرجوع بوقفه وبيعه لا باجارته ورهنه وقال أبو حنيفة اذا وهب لذي رحم محرم بالنسب لم يكن له الرجوع وان وهب لاجنبي ولم يعوّض عن الهبة كان له الرجوع الا أن يزيد زيادة متصلة أو يموت أحد المتعاقدين أو يخرج عن ملك الموهوب له وليس له عند أبي حنيفة الرجوع فيما وهب لولده وأخيه وأخته وعمه وعمته ولا كل من لو كان امرأة لم يكن له أن يتزوج بها لاجل النسب فأما اذا وهب لبني عمه أو للاجانب كان له أن يرجع في هبته

(فصـــــل) وهب هبة ثم طلب ثوابها وقال انما أردت الثواب نظر فان كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك عند مالك كهبة الفقير للغني وهبة الرجل لاميره ومن هو فوقه وهو أحد قولي الشافعي وقال أبو حنيفة لا يكون له ثواب الا باشتراطه وهو القول الثاني للشافعي وهو الراجح من مذهبه

(فصـــــل) وأجمعوا على أن الوفاء بالوعد في الخير مطلوب وهل هو واجب أو مستحب فيه خلاف ذهب أبو حنيفة والشافعي واحمد وأكثر العلماء الى أنه مستحب فلو تركه فاته الفضل وارتكب المكروه كراهة شديدة ولكن لا يأثم وذهب جماعة أنه واجب منهم عمر بن عبد العزيز وذهبت المالكية مذهبا ثالثا أن الوعد ان اشترط بسبب كقوله تزوج ولك كذا ونحو ذلك وجب الوفاء به ان كان الوعد مطلقا لم يجب (من كتاب رحمة الامة في اختلاف الائمة)

(كتاب اللقطة)

أجمع الائمة على أن اللقطة تعرّف حولا كاملا اذا لم يكن شيأ تافها يسيرا أو شيأ لا بقاء له وأن صاحبها اذا جاء أحق بها من ملتقطها وأنه اذا أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمنه كان له ذلك وأنه ان تصدق بها ملتقطها بعد الحول فصاحبها مخير بين التضمين وبين الرضا بالاجر

(فصـــــل) وأجمعوا على جواز الالتقاط في الجملة ثم اختلفوا هل الافضل ترك اللقطة أو أخذها فعن أبي حنيفة روايتان احداهما الاخذ أفضل والثانية تركه أفضل وعن الشافعي قولان أحدهما أخذها أفضل والثاني وجوب الاخذ والاصح استحبابه لواثق بأمانة نفسه

وقال أحمد تركها أفضل فلو أخذها ثم ردها الى مكانها قال أبو حنيفة ان كان أخذها ليردها الى صاحبها فلا ضمان والا ضمن وقال الشافعي وأحمد يضمن على كل حال وقال مالك ان آخذها بنية الحفظ ثم ردها ضمن وان أخذها مترددا بين أخذها وتركها ثم ردها فلا ضمان عليه

(فصل) ومن وجد شاة فى فلاة حيث لا يوجد من يضمها اليه ولم يكن بقربها شئ من العمران وخاف عليها فله الخيار عند مالك فى تركها أو أكلها ولا ضمان عليه والبقرة اذا خاف عليها السباع كالشاة وقال أبو حنيفة والشافعي وأحمد متى أكلها لزمه الضمان اذا حضر صاحبها

(فصل) واذا عرف اللقطة سنة ولم يحضر مالكها فعند مالك والشافعي للملتقط أن يحبسها أبدا وله التصدق بها وله أن يأكلها غنيا كان أو فقيرا وقال أبو حنيفة ان كان فقيرا جاز له أن يتملكها وان كان غنيا لم يجز ويجوز له عند أبي حنيفة ومالك أن يتصدق بها قبل أن يتملكها على شرط ان جاء صاحبها فان أجاز ذلك مضى وان لم يجزه ضمن له الملتقط وقال الشافعي وأحمد لا يجوز ذلك لانها صدقة موقوفة واذا وجد بعيرا ببادية وحده لم يجز له عند مالك والشافعي أخذه فلو أخذه ثم أرسله فلا شئ عليه عند أبي حنيفة ومالك وقال الشافعي وأحمد عليه الضمان

(فصل) واذا مضى على اللقطة حول وتصرف فيها الملتقط بنفقة أو بيع أو صدقة فلصاحبها اذا جاء أن يأخذ قيمتها يوم تملكها عند أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وقال داود ليس له شئ واذا جاء صاحب اللقطة فأعطى علامتها ووصفها وجب على الملتقط عند مالك وأحمد أن يدفعها اليه ولا يكلفه بينة وقال أبو حنيفة والشافعي لا يلزمه ذلك الا ببينة (من كتاب رحمة الامة فى اختلاف الأئمة)

(هذا ما كتب به أبو يوسف رحمه الله الى أمير المؤمنين هرون الرشيد)

أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام له العز فى تمام من النعمة ودوام من الكرامة وجعل ما أنعم به عليه موصولا بنعيم الآخرة الذى لا ينفد ولا يزول ومرافقة النبى صلى الله عليه وسلم ان أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألنى أن أصنع له كتابا جامعا يعمل به فى جباية الخراج والعشور والصدقات (١) والجوالى وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به وانما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لامرهم وفق الله تعالى أمير المؤمنين وسدده وأعانه على ما تولى من ذلك وسلمه مما يخاف ويحذر وطلب أن أبين له ما سألنى عنه مما يريد العمل به وأفسره وأشرحه وقد فسرت ذلك وشرحته يا أمير المؤمنين ان الله وله الحمد قد قلدك أمرا عظيما ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب قلدك أمر هذه الامة فأصبحت وأمسيت تبنى لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم

---

(١) الجوالى جمع جاليه وهى الجزيه كما فى المصباح اه

وليس يلبث البنيان اذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الامة والرعية فان القوة في العمل باذن الله لا تؤخر عمل اليوم الى غد فانك اذا فعلت ذلك أضعت ان الاجل دون الامل فبادر الاجل بالعمل فانه لا عمل بعد الاجل ان الرعاة مؤدون الى ربهم ما يؤدى الراعى الى ربه فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار فان أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته ولا تزغ فتزيغ رعيتك واياك والامر بالهوى والاخذ بالغضب واذا نظرت الى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا فان الآخرة تبقى والدنيا تفنى وكن من خشية الله على حذر واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء القريب والبعيد ولا تخف فى الله لومة لائم واحذر فان الحذر بالقلب وليس باللسان واتق الله فانما التقوى بالتوقى ومن يتق الله يقه واعمل لاجل مفضوض وسبيل مسلوك وطريق مأخوذ وعمل محفوظ ومنهل مورود فان ذلك المورد الحق والموقف الاعظم الذى تطير فيه القلوب وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه ويخافون عقوبته وكأن ذلك قد كان فكفى بالحسرة والندامة يومئذ فى ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل يوم تزل فيه الاقدام وتتغير فيه الالوان ويطول فيه القيام ويشتد فيه الحساب يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون وقال تعالى هذا يوم الفصل جمعناكم والاولين وقال تعالى ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين وقال تعالى كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار وقال كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها فيالها من عثرة لا تقال ويالها من ندامة لا تنفع انما هو اختلاف الليل والنهار يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود ويجزى الله كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب فالله الله فان البقاء قليل والخطب خطير والدنيا هالكة وهالك من فيها والآخرة هى دار القرار فلا تلق الله غدا وأنت سالك سبيل المعتدين فان ديان يوم الدين انما يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم وقد حذرك الله فاحذر فانك لم تخلق عبثا ولن تترك سدى وان الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به فانظر ما الجواب واعلم أنه لن تزول غدا قدما عبد بين يدى الله تبارك وتعالى الا من بعد المسألة فقد قال صلى الله عليه وسلم لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن علمه ما عمل فيه وعن عمره فيم أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسده فيم أبلاه فاعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها فان ما عملت فأثبت فهو عليك غدا يقرأ فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله فى مجمع الاشهاد وانى أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله وأن لا تنظر فى ذلك الا اليه وله فانك ان لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى وتعمى فى عينك وتتعفى رسومه

ويضيق عليك رحبه وتنكر منه ما تعرف وتعرف منه ما تنكر فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج لها الا عليها فان الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة باذن الله وأورده أماكن الحياة والنجاة فاذا ترك ذلك أضاعه وان تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه أضر واذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ووفاه الله أضعاف ما وفى له فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك ويضيعك بما أضعت أجرك وانما يدعم البنيان قبل أن ينهدم وانما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره وعليك ما ضيعت منه فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تنسى ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يغفل عنك ولا يضيع حظك من هذه الدنيا في هذه الايام والليالي كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحا وتهليلا وتحميدا والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة وامام الهدى صلى الله عليه وسلم وان الله بمنه ورحمته وعفوه جعل ولاة الامر خلفاء في أرضه وجعل لهم نورا يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الامور فيما بينهم ويبين ما اشتبه من الحقوق عليهم واضاءة نور ولاة الامر اقامة الحدود ورد الحقوق الى أهلها بالتثبت والامر البين واحياء السنن التي سنها القوم الصالحون أعظم موقعا فان احياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت وجور الراعي هلاك للرعية واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة فاستتم ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها والتمس الزيادة فيها بالشكر عليها فان الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد وليس شيء أحب الى الله من الاصلاح ولا أبغض اليه من الفساد والعمل بالمعاصي كفر النعم وقل من كفر من قوم قط النعمة ثم لم يفزعوا الى التوبة الا سلبوا عزهم وسلط الله عليهم عدوهم واني أسأل الله يا أمير المؤمنين الذي من عليك بمعرفته فيما أولاك أن لا يكلك في شيء من أمرك الى نفسك وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه واحبائه فانه ولي ذلك والمرغوب اليه فيه وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته لك وبينته فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه فاني قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحا ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه واني لارجو ان عملت بما فيه من البنيان أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم ولا معاهد ويصلح لك رعيتك فان صلاحهم باقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم وكتبت لك أحاديث حسنة فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه مما تريد العمل به ان شاء الله فوفقك الله لما يرضيه عنك وأصلح بك وعلى يديك

(فصل في الفيء والخراج) فأما الفيء يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا خراج الارض والله أعلم لان الله تبارك وتعالى يقول في كتابه ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى

واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايكون دولة بين الاغنياء منكم حتى فرغ من هؤلاء ثم قال عزوجل للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ثم قال تعالى والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ثم قال تعالى والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم فهذا والله أعلم لمن جاء من بعدهم من المؤمنين الى يوم القيامة وقد سأل بلال وأصحابه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام وقالوا اقسم الارضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العساكر فأبى عمر ذلك عليهم وتلا عليهم هذه الآيات وقال قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم فى هذا الفيء فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شئ ولئن بقيت ليبلغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ودمه فى وجهه قال أبو يوسف وحدثنى بعض مشايخنا عن يزيد بن أبى حبيب أن عمر رضى الله عنه كتب الى سعد حين افتتح العراق أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم فاذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به الى العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارضين والانهار بعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شئ وقد كنت أمرتك أن تدعو من لقيت الى الاسلام قبل القتال فمن أجاب الى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له مالهم وعليه ماعليهم وله سهم فى الاسلام ومن أجاب بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين وماله لاهل الاسلام لانهم قد أحرزوه قبل اسلامه فهذا أمرى وعهدى اليك قال أبو يوسف وحدثنى غير واحد من علماء أهل المدينة قالوا لما قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه جيش العراق من قبل سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه شاور أصحاب محمد عليه السلام فى تدوين الدواوين وقد كان اتبع رأى أبى بكر فى التسوية بين الناس فلما جاء فتح العراق شاور الناس فى التفضيل ورأى أنه الرأى فاشار عليه بذلك من رآه وشاورهم فى قسمة الارضين التى أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا فقال عمر رضى الله تعالى عنه فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الارض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ماهذا برأى فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه فما الرأى ما الارض والعلوج الا مما أفاء الله عليهم فقال عمر ماهو الا كما تقول ولست أرى ذلك والله لايفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها

وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق فأكثروا على عمر رضى الله تعالى عنه وقالوا تقف ما أفاء الله علينا باسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا فكان عمر رضى الله عنه لا يزيد على أن يقول هذا رأى قالوا فاستشر قال فاستشار المهاجرين الاولين فاختلفوا فاما عبد الرحمن ابن عوف رضى الله تعالى عنه فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رضى الله عنهم رأى عمر فارسل الى عشرة من الانصار وخمسة من الاوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال انى لم أزعجكم الا لأن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم فانى واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به الا الحق قالوا قل نسمع يا أمير المؤمنين قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم وانى أعوذ بالله أن أركب ظلما لئن كنت ظلمتهم شيأ هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت انه لم يبق شئ يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه وقد رأيت أن أحبس الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيأ للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد لها من أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج فقالوا جميعا الرأى رأيك فنعم ما قلت ومارأيت ان لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر الى مدنهم فقال قد بان لى الامر فمن رجل له جزالة وعقل يضع الارض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون فاجتمعوا له على عثمان ابن حنيف وقالوا تبعثه الى أهم ذلك فان له بصرا وعقلا وتجربة فأسرع اليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جبايته سواد الكوفة قبل أن يموت عمر رضى الله عنه بعام مائة ألف ألف درهم والدرهم يومئذ درهم ودانقان ونصف وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال قال وحدثنى الليث ابن سعد عن حبيب بن أبى ثابت قال ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين أرادوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يقسم الشام كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وانه كان أشد الناس عليه فى ذلك الزبير بن العوام وبلال بن رباح فقال عمر رضى الله تعالى عنه اذن أترك من بعدكم من المسلمين لاشئ لهم ثم قال اللهم اكفنى بلالا وأصحابه قال فرأى المسلمون أن

الطاعون الذى أصابهم بعمواس كان عن دعوة عمر قال وتركهم عمر رضى الله عنه ذمة يؤدون الخراج للمسلمين قال وحدثنى محمد بن اسحق عن الزهرى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه استشار الناس فى السواد حين افتتح فرأى عامتهم أن يقسمه وكان بلال بن رباح من أشدهم فى ذلك وكان رأى عمر رضى الله عنه أن يتركه ولا يقسمه فقال اللهم اكفنى بلالا وأصحابه ومكثوا فى ذلك يومين أو ثلاثة أو دون ذلك ثم قال عمر رضى الله عنه انى قد وجدت حجة قال الله تعالى فى كتابه وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شئ قدير حتى فرغ من شأن بنى النضير فهذه عامة فى القرى كلها ثم قال ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب ثم قال للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون فهذا فيما بلغنا والله أعلم للانصار خاصة ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم فكانت هذه عامة لمن جاء من بعدهم فقد صار هذا الفئ بين هؤلاء جميعا فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من تخلف بعدهم بغير قسم فأجمع على تركه وجمع خراجه قال أبو يوسف والذى رأى عمر رضى الله عنه من الامتناع من قسمة الارضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك توفيق من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم لان هذا لو لم يكن موقوفا على الناس فى الاعطيات والارزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ولما أمن رجوع أهل الكفر الى مدنهم اذا خلت من المقاتلة والمرتزقة والله أعلم بالخير حيث كان (من كتاب الخراج لابى يوسف)

(كتاب الوقف)

هو قربة جائزة بالاتفاق وهل يلزم أم لا قال مالك والشافعى وأحمد يلزم باللفظ وان لم يحكم به حاكم وان لم يخرجه مخرج الوصية بعد موته وهو قول أبى يوسف فيصح عنده ويزول ملك الواقف عنه وان لم يخرجه الواقف عن يده وقال محمد يصح اذا أخرجه عن يده بأن يجعل للوقف وليا ويسلمه اليه وهى رواية عن مالك وقال أبو حنيفة الوقف عطية صحيحة ولكنه غير لازم ولا يزول ملك الواقف عن

الوقف حتى يحكم به حاكم أو يعلقه بموته فيقول اذا مت فقد وقفت داري على كذا واتفقوا على أن مالا يصح الانتفاع به الا باتلافه كالذهب والفضة والمأكول لا يصح وقفه ووقف الحيوان يصح عند الشافعي وأحمد وهي رواية عن مالك وقال أبو حنيفة وأبو يوسف لا يصح وهي الرواية الاخرى عن مالك (فصل) والراجح من مذهب الشافعي أن الملك في رقبة الموقوف ينتقل الى الله عز وجل فلا يكون ملكا للواقف ولا للموقوف عليه وقال مالك وأحمد ينتقل الى الموقوف عليه وقال أبو حنيفة وأصحابه مع اختلافهم اذا صح الوقف خرج عن ملك الواقف ولم يدخل في ملك الموقوف عليه ووقف المشاع جائز كهبته واجارته بالاتفاق وقال محمد بن الحسن بعدم الجواز بناء على أصلهم في امتناع اجارة المشاع (فصل) ولو وقف شيأ على نفسه صح عند أبي حنيفة وأحمد وقال مالك والشافعي لا يصح واذا لم يعين للوقف مصرفا بأن قال هذه الدار وقف فان ذلك يصح عند مالك وكذلك اذا كان الوقف منقطع الآخر كوقفت على أولادي وأولادهم ولم يذكر بعدهم الفقراء فانه يصح عنده ويرجع ذلك بعد انقراض من سمى الى فقراء عصبته فان لم يكونوا فالى فقراء المسلمين وبه قال أبو يوسف ومحمد والراجح من مذهب الشافعي أنه لا يصح مع عدم بيان المصرف والراجح صحة منقطع الآخر (فصل) واتفقوا على أنه اذا خرب الوقف لم يعد الى ملك الواقف ثم اختلفوا في جواز بيعه وصرف ثمنه في مثله وان كان مسجدا فقال مالك والشافعي يبقى على حاله ولا يباع وقال احمد يجوز بيعه وصرف ثمنه في مثله وكذلك في المسجد اذا كان لا يرجى عوده وليس عند أبي حنيفة نص فيها واختلف صاحباه فقال أبو يوسف لا يباع وقال محمد يعود الى مالكه الاول

(من كتاب رحمة الامة في اختلاف الائمة)

(باب بيان ما يجوز وقفه وما لا يجوز وما يدخل تبعا وما لا يدخل وانكار دخول بعض الموقوف فيه ووقف ما يقطعه الامام)

اذا وقف الحر العاقل البالغ أرضه أو داره أو ما جرى التعارف بوقفه من المنقولات وهو غير محجور عليه ولا مرتد يصح لازما عند عامة العلماء وقال أبو حنيفة يجوز جواز الاعارة أو لا يجوز فلو قال أرضي هذه صدقة موقوفة لله عز وجل أبدا ولم يزد تصير وقفا ويدخل فيه ما فيها من الشجر والبناء دون الزرع والثمرة كما في البيع ويدخل فيه أيضا الشرب والطريق استحسانا لانها انما توقف للاستغلال وهو لا يوجد الا بالماء والطريق فكان كالاجارة بخلاف ما لو جعل أرضه أو داره مقبرة وفيهما أشجار عظام وأبنية فانها لا تدخل في الوقف فتكون له ولورثته من بعده ولو قال أرضي هذه صدقة موقوفة بحقوقها وجميع ما فيها ومنها وعلى الشجر ثمرة قائمة يوم الوقف قال هلال في القياس تكون الثمرة له ولا تدخل في الوقف وفي الاستحسان يلزمه التصدق بها على الفقراء على وجه النذر

لا على وجه الوقف لانه لما قال بجميع مافيها ومنها فقد تكلم بما يوجب التصدق فيلزمه التصدق بالثمرة التي كانت متصلة به يوم الوقف وما يحدث بعده يصرف في الوجوه التي سماها لكونه غلة الوقف وذكر الناطفي رجل قال جعلت أرضي هذه وقفا على الفقراء ولم يقل بحقوقها يدخل البناء والشجر الذي فيها تبعا ولا يدخل الزرع النابت فيها حنطة كان أو شعيرا أو غيره وكذلك البقل والآس والرياحين والخلاف والطرفاء ومافي الاجمة من حطب يقطع في كل سنة والورد والياسمين وورق الحناء والقطن والباذنجان وزهر بصل النرجس والرطاب فانها لا تدخل وأما الاصول التي تبقى والشجر الذي لا يقطع الا بعد عامين أو أكثر فانها تدخل تبعا ولو زاد بحقوقها تدخل الثمرة القائمة في الوقف وهذا أولى خصوصا اذا زاد بجميع مافيها ومنها ولو وقف دارا بجميع مافيها وفيها حمامات يطرن أو بيتا وفيه كوارات عسل يدخل الحمام والنحل تبعا للدار والعسل كما لو وقف ضيعة وذكر مافيها من العبيد والدواليب وآلات الحراثة فانها تصير وقفا تبعا لها وان لم يجز أصالة كالماء والهواء والاطراف في بيع الاراضي والعبيد ونفقتهم من غلة الوقف وان لم يذكرها الواقف ولو زوج الحاكم جارية الوقف يجوز وعبده لا يجوز ولو من أمة الوقف لانه يلزمه المهر والنفقة ولو ضعف بعضهم عن العمل يجوز للقيم بيعه وشراء غلام بدله وكذلك الدواليب والآلات يبيعها ويشتري بثمنها ماهو أصلح للوقف وليس للقيم قطع الاشجار المثمرة ولا بيعها وله بيع غيرها بعد القطع لا قبله لانها مادامت متصلة بالارض تكون تبعا لها واذا نبت الفسيل في أصول النخل ان كان في تركه ضرر بالنخل يقطع ويباع وثمنه غلة للوقف كثمن السعف والا يتركه على حاله واذا صار نخلا خرج من أن يكون غلة وصار وقفا وهكذا حكم سائر ماينبت من أصول أشجار الوقف ولو كان في الكرم الوقف شجر يضر ظلها بثماره ان كان ثمرها يزيد على ماينقص من ثمره لا يقطع ولا تقطع وهكذا الحكم لو أضرت بالارض ولو وقف ضيعة له وقال شهرتها تغني عن تحديدها جاز الوقف ثم لو قال عن بعض قطع من الارض انها غير داخلة في الوقف ينظر الى حدودها فان كانت مشهورة وكانت تلك القطع داخلها كانت وقفا والا كان القول فيها قوله وهكذا الحكم لو وقف دارا وقال ان هذه الحجرة لم تدخل في الوقف فانه ينظر الى حدودها وتسئل الجيران عنها فان شهدوا أنها من الدار كانت وقفا والا كان القول قوله فيما أشكل كونه وقفا ولو وقف أرضا أقطعه اياها السلطان فان كانت ملكا له أو مواتا صح وان كانت من بيت المال لا يصح ولا يصح وقف أرض الحوز وهي ماحازها السلطان عند عجز أصحابها عن زراعتها وأداء مؤنها بدفعهم اياها اليه لتكون منفعتها للمسلمين مقام الخراج ورقبة الارض على ملك أربابها فلو وقفها من أدخله السلطان فيها لعمارتها لا يصح لكونه مزارعا ولو وقف أرضا اشتراها بعقد فاسد يصح ان كان بعد القبض لانه استهلكها باخراجها اياها عن ملكه

بالوقف وعليه قيمتها وان كان قبله أو كان البيع باطلا كان الوقف باطلا ولو وهبت له أرض هبة فاسدة فقبضها ثم وقفها اصح وعليه قيمتها ولو استحق ما وقفه لا يلزمه أن يشتري بثمنه الذي يرجع به على البائع أرضا ليقفها بدلا لانه وقف ما لا يملك ولو استحق بعضه مشاعا او أخذه المستحق لا يبطل الوقف في الباقي عند أبي يوسف لانه يجيزه مشاعا ابتداء فبالاولى بقاء ولو اشترى أرضا بالخيار وقبضها ثم وقفها قبل مضي مدته يصح ويكون ذلك ابطالا لخياره وهكذا الحكم في البائع اذا كان الخيار له ووقف ما باع ولو بعد التسليم ولو وقفها المشتري بعد القبض في مدة خيار البائع فامضى البيع لزم وبطل الوقف لان البات اذا طرأ على موقوف أبطله ولو استحقت بعد الوقف فضمن قيمتها جاز شراؤه ووقفه ومثله العتق لاستناد الملك الى زمن الاستيلاء ولو اشترى أرضا فوقفها ثم اطلع فيها على عيب رجع بالنقصان ولا يلزمه أن يشتري به بدلا لعدم دخول نقصان العيب في الوقف ولو وقف ما اشتراه قبل قبضه أو ما رهنه بعد تسليمه صح ويجبره القاضي على دفع ما عليه ان كان موسرا وان كان معسرا أبطل الوقف وباعه فيما عليه بخلاف عتق المرهون لعدم امكان رفعه بعد نزوله وبخلاف الوقف بعد الاجارة والتسليم الى المستأجر لعدم تعلق حقه بماليتها وذكر البقالي في فتاويه اختلافا في جواز وقف البناء بدون الارض وذكر عن محمد رحمه الله انه قال اذا وقف بناءه في أرض الوقف على الجهة التي وقفت الارض عليها جاز وذكر في أوقاف الخصاف ان وقف حوانيت الاسواق يجوز ان كانت الارض باجارة في أيدي الذين بنوها لا يخرجهم السلطان عنها من قبل انا رأيناها في أيدي أصحاب البناء يتوارثونها وتقسم بينهم لا يتعرض لهم السلطان فيها ولا يزعجهم وانما له غلة يأخذها منهم وتداولها خلف عن سلف ومضى عليها الدهور وهي في أيديهم يتبايعونها ويؤاجرونها وتجوز فيها وصاياهم ويهدمون بناءها ويعيدونه ويبنون غيره فكذلك الوقف فيها جائز اهـ وفي فتاوى الناطفي عن محمد بن عبد الله الانصاري من أصحاب زفر رحمه الله أنه يجوز وقف الدراهم والطعام والمكيل والموزون فقيل له وكيف يصنع بالدراهم قال يدفعها مضاربة ويتصدق بالفضل وكذا يباع المكيل والموزون بالدراهم أو الدنانير ويدفع مضاربة ويتصدق بالفضل وقيل على هذا ينبغي ان يجوز اذا قال وقفت هذا الكر على أن يقرض لمن لا بذر له من الفقراء فيدفع اليهم ويبذرونه فاذا حصدوا يؤخذ ويقرض لغيرهم وهكذا دائما ولو وقف رب المال ضيعة من مال المضاربة يصح عند أبي يوسف مطلقا وعند محمد لا يصح ان كان في المال ربح بناء على جواز وقف المشاع وعدمه والله أعلم

(الاسعاف في الاوقاف)

(مطلب اشتمال كتب الفقه الاسلامية على بعض المنافع العمومية)

ومن أمعن النظر في كتب الفقه الاسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية حيث بوّبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للاحكام التجارية كالشركة والمضاربة والقرض والمخابرة والعارية والصلح وغير ذلك ولا شك أن قوانين المعاملات الاوروباوية استنبطت منها كالسفتجة التي عليها مبنى معاملات أوروبا ولم تزل كتب الاحكام الشرعية الى الآن تتلى وتطبق على الحوادث والنوازل علما لا عملا كما ينبغي وانما مخالطات تجار الغرب ومعاملتهم مع أهل الشرق أنعشت نوعا همم هؤلاء المشارقة وجددت فيهم وازع الحركة التجارية وترتب على ذلك نوع انتظام حيث ترتب الآن في المدن الاسلامية مجالس تجارية مختلطة لفصل الدعاوى والمرافعات بين الاهالي والاجانب بقوانين في الغالب أوروبية مع أن المعاملات الفقهية لو نظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق بتوفيقها على الوقت والحال مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة الامور المستيقظين ولكل مجتهد نصيب لا سيما في هذه الازمان التي تكاملت فيها الاسباب وتطبقت على المسببات فشتان بين هذا العهد وعهد الصوريين الذين زاولوا في التجارة الاخطار وركوب البحار فاقتحموا المشاق في تلك الازمان فاتسعت تجارتهم على وجه عجيب حتى عمرت بلادهم بالمنافع العمومية بل خرج منها قبائل عمرت جزيرتي قبرس ورودس وجزيرتي صقليا وسردانيا ووصلوا أيضا الى بلاد الاندلس بل دخلوا البحر المحيط الغربي فصارت مدينة قادس مركز تجارتهم وكانوا يستخرجون من مملكة اسبانيا المكاسب العظيمة والمغانم الجسيمة لكثرة معادنها فنالوا أغراضهم بمنافع بحرى العرب والعجم حتى انفردوا في تلك الاعصر بفوائد التجارات وكانوا مختصين بمنافع البحرين المذكورين يمنعون من سواهم من اجراء التجارة فيهما كما انفرد أهل الهند زمنا طويلا بالانتفاع بهما وبجلب منافع الهند النفيسة الى سواحل بلاد العرب ولما كثرت عند الصوريين الفضة واستثقلوا حملها في بعض الاسفار اتخذوا منها هلوبا لسفنهم بدلا عن الرصاص ليكون حملها في السفن لمنفعتين

وبالجملة فبكثرة الاسفار والتجارات انتفعوا بمنافع غيرهم ونفائسهم وكانوا يبالغون في كتم أسفارهم البحرية وعدم تعريف الطرق والمسالك مخافة أن يزاحمهم غيرهم في اكتساب هذه المنافع فكانوا دائما يجتهدون في أن وطنهم يختص بالتجارة والملاحة ويجعلون ذلك من الحقوق الخصوصية والمزايا الاحتكارية التي لا رخصة فيها للاغراب وليس هذا التحكير كان خاصا بدولة الصوريين بل كان أصلا لجميع الدول السالفة كل فيما يخصه ويظن أن له الحق في أولوية الانتفاع به وانما دولة الصوريين كانت في تلك الازمان ملكة البحار وخبيرة بالمسالك والممالك فكانت مستحوذة بالفعل

على التجارات وكان غيرها من الامم اذذاك معرفتهم بمسالك البحر قليلة جدا فكانوا يحرصون على أن لا يدلوا أحدا عليها فقد حكى بعض المؤرخين أن الصوريين كانوا يسافرون الى جزائر بحر الانكليز المسماة جزائر القزدير لاستخراج معادن القزدير والرصاص منها وأن أحد الصوريين ذهب فى سفرة الى تلك الجزائر القزديرية التى لم تكن معلومة الا للصوريين دون غيرهم فلمح أن وراء سفينته سفينة أخرى رومانية ترود هذه السكة وتتعرفها فاختار الصورى أن يقذف سفينته على رصيف هنالك لتغرق ويهلك أهلها وتغرق السفينة الاخرى بجانبها ففعل ذلك حتى لا تقفو السفينة الاجنبية أثره فأتلف سفينة نفسه وغيره واجتهد فى أن ينجو بنفسه فنجا وذهب الى أهل صور فى نحو قطيرة فكافؤه على ذلك مكافأة عظيمة وجبروا خسارته وأغدقوا عليه بالانعام وأكرموه غاية الاكرام جزاء لما صنعه لمصلحة الوطن الصورى فبعد أن كان لسان حاله ينشد بحسرة

اذا نحن أبنا سالمين بأنفس * كرام رجت أمرا فخاب رجاؤها
فأنفسنا خير الغنائم انها * تؤوب وفيها ماؤها وحياؤها

عاد ينشد بمسرة

كم فرجة مطوية * لك بين أثناء النوائب
ومسرة قد أقبلت * من حيث تنتظر المصائب

فكان أهالى السواحل الشامية لهم فى الوطن محبة مستولية على الطباع مستدعية لشدة الحرص على ثروته وشفاء الاطماع ومن أخبار حب الوطن وأبنائه من أهل الشام لا سيما الانبياء عليهم الصلاة والسلام ان يوسف عليه السلام وصى بأن يحمل تابوته الى مقابر آبائه ومما يؤثر عن الصوريين ما ذكره المؤرخون أن الملك نخوس بن ابسميتكوس أمر جماعة من الصوريين البحريين أن يكشفوا الحدود أفريقة بأسرها فساروا من بحر القلزم ثلاث سنين حتى طافوا حول افريقه واستكشفوا أطرافها وعادوا فى آخر السنة الثالثة من البحر الابيض الشامى ودخلوا مصر من مصب النيل وكان ذلك قبل ميلاد عيسى بنحو ثمانية قرون وهو من أعجب ما وقع من الصوريين حيث استكشفوا سواحل افريقه ولا بد أنهم مروا برأس عشم الخير خصوصا فى زمان كان سير السفن فيه فى وسط تلك البحار يكاد أن يكون مستحيلا مع أنه لم يستكشفه البورتغاليون الا فى آخر القرن التاسع من الهجرة وسموه رأس عشم الخير تفاؤلا والا فهو رأس التلاقيح ومع استكشافهم له فلم يمروا عليه فى سياحاتهم البحرية الا بعد خمس عشرة سنة

ولما أرسل البورتغاليون أناسا من أهاليهم فى هذا الاقليم للاقامة به ولادخاله فى أملاكهم الخارجية أخذه منهم الانكليز واستولوا عليه فمن ذلك الوقت صار هذا الاقليم نافعا للانكليز فى سلوك طريق

الهند ذهابا وايابا وأهله ما بين سود وبيض على التناصف فى قبضة الانكليز فقد أسسوا على هذا الرأس مدينة انكليزية تسمى مدينة الكاب وهى أبعد مدينة أفريقية جهة الجنوب ترسى عليها جميع السفن الذاهبة الى الهند والحاضرة منه

ومن سياحة الصوريين فى أفريقيه بأمر ملك مصر يستنتج نتيجتان عظيمتان يستدل منهما على تقدم دولتين عظيمتين وهما دولة مصر الآمرة بهذه السياحة العظيمة وهى مشروع جسيم فى الاعانة على المنافع العمومية لايخطر الابخاطر دولة متمدنة محبة للتقدم العجيب ودولة مأمورة ذات ملاحة وسياحة بحرية ذات سفن عظيمة تقتحم أخطار البحار وتبحث عن المنافع العامة فى شاسع الاقطار وكل يدل على أن هاتين الدولتين كان عندهما فى تقديم المنافع إعمال الافكار ان فى ذلك لعبرة لأولى الابصار

(تعريف المجتهدين والفقه والرأى)

المجتهدون هم الأئمة أرباب المذاهب الشرعية والمذهب هو الطريق سميت به الاحكام الشرعية الفرعية الاجتهادية التى هى طرائق المجتهدين يعزون فيها باقدام عقولهم الراجحة لتحصيل الظنّ بها فيتفرع على ذلك العمل الصحيح المشروع بحسب مقتضى آرائهم فى مجتهداتهم وان شئت قلت المذهب ما اختص بالمجتهد من الاحكام الشرعية الفرعية الاجتهادية المستفادة من الدلالة الظنية فيشمل جميع المذاهب الاجتهادية المستقلة التى يسمى صاحبها بالمجتهد المطلق لاختصاصه بأحكامه الاجتهادية

فذهب الشافعى مثلا هو ما اختص به من الاحكام الاجتهادية المضافة اليه والمراد بالاحكام الاحكام الشرعية الفرعية فيخرج بقولنا الشرعية الاحكام العقلية والطبيعية ويخرج بقولنا الفرعية الاحكام الاصولية كعقائد التوحيد ويخرج بقولنا الاجتهادية الاحكام الشرعية اليقينية المعلومة من الدين بالضرورة كأركان الاسلام فانها لاتعد من الاجتهادية ولا من مذهب من المذاهب بعينه وان كانت من فروع الدين اذ لا اختصاص لها بمذهب دون آخر بل نسبتها الى الكل على حد سواء لانه لو قال قائل وجوب الصلاة فى كل يوم هو مذهب مالك مثلا لنبا عنه السمع ونفر منه الطبع بخلاف قولنا وجوب التدليك فى الطهارة مذهب مالك ووجوب الوتر مذهب أبى حنيفة ومسح بعض الرأس مذهب الشافعى اذ لايتبادر فى الذهن منه الا وقع الاختصاص دون ما اشترك فيه السلف والخلف

وأما الفقه فهو العلم بالاحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية فهو عبارة عن العلم والمذهب عبارة عن المعلوم وهو رأى المجتهد ولايخلو اختلاف المجتهدين عن فائدة للمجتهد وهو

احياء الذكر وتحصيل الاجر كما لا يخلو عن فائدة للامة وهو التسهيل عليهم فى الدين كما فى حديث الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا مع قوله صلى الله عليه وسلم اختلاف أمتى رحمة حيث قيل ان المراد منه الاختلاف المتعلق بالفقه فى أمر الدين رحمة للعالمين وكل مجتهد يرى فائدة مذهبه ولذلك قيل

مذاهب شتى للمحبين فى الهوى ولى مذهب فرد أقول به وحدى

وقال آخر

ومالى الا مذهب الحق مذهب ومالى الا مطلب الحق مطلب

(رفاعه بيك)

(مطالب أركان الاجتهاد)

وللاجتهاد ركنان مجتهد ومجتهد فيه فالمجتهد من اتصف بصفة الاجتهاد وهو استفراغ الوسع لتحصيل الظن بحكم شرعى والمجتهد فيه هو حكم ظنى شرعى عليه دليل ومداركه الكتاب والسنة والاجماع والقياس وزاد الشافعى الاستصحاب عند عدم الدليل كما زاد أبو حنيفة الاستحسان وعرفوه أى الاستحسان بانه ما ينقدح فى نفس المجتهد العالم بعلل الاحاديث التى هى من أغمض الامور وأدقها على الافهام بحيث انها قد تدرك ذوقا وتعجز عنها العبارات وان مثل ذلك الاستحسان الذوقى لا يحصل الا لاكابر الفن فالآخذون بالاستحسان فى الاجتهاد كابى حنيفة وأصحابه واشتهروا بالاخذ بالقياس والاستحسان فى الاجتهاد لانقداح دليله فى نفس المجتهد مع انضمام الورع الى ذلك فان الورع يقتضى أنه اذا دار الامر بين المنع والجواز فالاحوط الامساك ولذلك قال الصوفية اذا خطر لك أمر فزنه بالشرع فاذا لم تطمئن نفسك اليه فامسك عنه وذلك كما حكى عن أبى حنيفة رضى الله عنه أنه كان يقول لو وضعوا السيف على رأسى أن أقول ان النبيذ حرام ماقلته ولو وضعوه على رأسى على أن أشربه ما شربته والمراد بالنبيذ عصير العنب قبل قذفه بالزبد وماذاك الا لانقداح دليل الحل فى نفسه الذى حمله على القول به كما حمله ما عنده من الورع على الامساك عن تعاطيه فكان ذوقه فى تمييز الادلة واستحسان ما يعمل به منها عند أهل الرأى كنوع من الالهام للوقوف على علل الاحاديث بالممارسة فكانوا يقولون هذا علم رزقنا معرفته كالصيارف فى تمييز الذهب من البهرج وكالجواهرية فى تمييز فص الياقوت من الزجاج فقد حصلت فى نفوس أصحاب الرأى ملكة صحيحة وهيئة نفسانية لا معدل لهم عنها تهجم على قلوبهم فلا يمكنهم ردها فكانوا يستفتون فى الاستحسان قلوبهم فيظهر لهم دلائل الحل أو الحرمه ولاشك أن قلب العالم المراقب لدلائل الاحوال هو الذى تمتحن به خفايا الاحكام وما أعز هذا القلب فى القلوب بخلاف قلب الموسوس والمتساهل فهو يطمئن الى كل شئ ولا عبرة بهذا القلب

و بالجملة فان الاحكام المستنبطة لا تكون مبنية الا على الدلائل القوية التى لا يدرك سرها الا قلوب ممارسة الفقهاء المجتهدين المراقبين للدقائق وليست فى طوق كل عالم وليس كل تدقيق يعدّ ورعا ولذلك لما سأل أهل العراق ابن عمر رضى الله عنه عن دم البعوض قال أتسألون عنه وقد قتلتم الحسين فالعبرة بالقلوب النيرة لا المحجوبة بالظلمات (رفاعه بك)

(تعريف التقليد وتجزى الاجتهاد وما قيل فى اجتهاد الامام تقىّ الدين السبكى وأمثاله ومراتب الاجتهاد)

و يقابل الاجتهاد التقليد وهو العمل بقول الغير من غير حجة و يقال للفقيه مفت ومستدل وللمقلد مستفت ثم اختلف هل لا يجوز تجزى الاجتهاد يعنى أنه يشترط فى المجتهد كونه مجتهدا فى الكل أو يجوز التجزى فعلى الاوّل يكون من ليس مجتهدا فى الكل مستفتيا وعلى الثانى أن المجتهد فى البعض يكون مستفتيا فيما ليس مجتهدا فيه وفقيها فيما هو مجتهد فيه ولا يمتنع ذلك لان شرط التقابل اتحاد الجهات

ومع أن مدارك الاجتهاد السابقة كانت كافية فى زمن الصحابة ومابعده فمنصب الاجتهاد فى الازمان التى بعد انما تحصل بممارسة الفروع الاجتهادية التى صارت من طرق الاجتهاد لاسيما لغير المجتهد المستقل وهو المجتهد المنتسب ومع ذلك فكل من المجتهدين يختلف فى التفقه بالدين حيث ان الله تعالى يعطى كل واحد من الفقه ما أراد لان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء حتى ان غير الصحابىّ قد يستنبط من كلام النبوة مالا يخطر ببال الصحابىّ كما يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين فرب مبلغ أوعى من سامع وفى هذا الحديث بشارة للمشتغل بالفقه من حيث ان فيه اعلاما بسيادته لما أن المراد بالخير الخير الكامل الذى فيه وفى أمته صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة

فالامام تقى الدين السبكى امام مجتهد بدون ريب فى اجتهاده وانما رتبة اجتهاده واجتهاد أمثاله من بعد المجتهدين المتفق عليهم هى محل النظر فقد نقل القطب الشعرانى فى ميزانه عن الجلال السيوطى أن الاجتهاد المطلق على قسمين مطلق غير منتسب كما عليه الائمة الاربعة ومطلق منتسب كما عليه أكابر أصحابهم قال يعنى السيوطى ولم يدع الاجتهاد المطلق غير المنتسب بعد الائمة الاربعة الا الامام محمد بن جرير الطبرى ولم يسلم له ذلك انتهى

ومع ذلك فقد ادّعى الامام السيوطى الاجتهاد المطلق وأثبت هو وغيره أن الاجتهاد فى كل عصر فرض وأنه لا يتأدّى الفرض الا بالاجتهاد المطلق وأن بابه لا زال مفتوحا لا يغلق وعبارة التاج السبكى فى أبيه أنه بقية المجتهدين الاجتهاد المطلق انتهى

(اجتهاد سفيان الثوري وبيان التفاوت في الرتبة بينه وبين التقي السبكي)

قال الصلاح الصفدي الناس يقولون ما جاء بعد الغزالي مثل التقي السبكي وعندي أنهم يظلمونه بهذا وما هو عندي الا مثل سفيان الثوري انتهى وتسويته بسفيان الثوري لا تخلو عن شئ فان سفيان كان أحد الائمة المجتهدين أصحاب المذاهب المدونة ويقال ان الشيخ أبا القاسم الجنيد كان على مذهبه قال سفيان بن عيينة ما رأيت رجلا أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري ويقال كان عمر بن الخطاب في زمانه رأس الناس وبعده عبد الله بن عباس وبعده الشعبي وبعده سفيان الثوري سمع منه الاوزاعي وابن جريج ومحمد بن اسحاق ومالك وتلك الطبقة كلهم أئمة مجتهدون وحكى عن بعض السادة الائمة الاكابر في الحفظ والدين أنه قال اني لاحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الله على الخلق يقال لهم ان لم تدركوا نبيكم عليه الصلاة والسلام فلقد رأيتم سفيان الثوري ألا اقتديتم به وبالجملة فهو مجمع على دينه وورعه وزهده وثقته وإمامته في الحديث وغيره من العلوم وامتناعه من قضاء الكوفة وقذفه في دجلة ورقة عهد قضائها المحررة له من المهدي وهروبه من ذلك معلوم قال بعض الشعراء

لو أن سفيان على حفظه * في بعد همي أنسى الماضي

نفسي وعرسي ثم ضرسي انقرى * في غربتي والشيخ والقاضي

فكيف لا ومذهب سفيان معدود من المذاهب المدونة التي كانت متبعة وأما السبكي فالظاهر أنه من طبقة أخرى وقال ابنه نقلا عن شهاب الدين النقيب صاحب مختصر الكفاية وغيرها من المصنفات جلست بمكة بين طائفة من العلماء وقعدنا نقول لو قدر الله تعالى بعد الائمة الاربعة في هذا الزمان مجتهدا عارفا بمذاهبهم أجمعين يركب لنفسه مذهبا من الاربعة بعد اعتبار هذه المذاهب المختلفة كلها لازدان الزمان به وانقاد الناس له فاتفق رأينا على أن هذه الرتبة لا تعدو الشيخ تقي الدين السبكي ولا يتهيأ لها سواه انتهى كلام التاج السبكي وهذا لا يفيد مساواته لسفيان الثوري

وأما قاضي القضاة التاج السبكي المذكور صاحب جمع الجوامع ومنع الموانع فهو أيضا مجتهد كأبيه فقد نقل عنه أنه كتب ورقة الى نائب الشام ويقول فيها وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الاطلاق لا يقدر أحد يرد على هذه الكلمة انتهى قال السيوطي وهو مقبول فيما قال عن نفسه انتهى وما قيل في اجتهاد أبيه يقال فيه

ثم ان المجتهد المنتسب هو ما يطلق عليه أيضا مجتهد المذهب كما أن المجتهد المطلق يسمى أيضا مجتهدا مستقلا وثم رتبة ثالثة في الاجتهاد وهي اجتهاد الفتوى فأعلى المجتهدين رتبة المجتهد المستقل

ثم المنتسب ثم مجتهد الفتوى وجعل بعضهم بين المستقل والمنتسب المجتهد المطلق فتكون مراتب الاجتهاد أربعة وذلك أن العالم اذا استقل بقواعد يؤصلها وأدلة يحررها وبراهين يقررها وفرع على ذلك وأبان المقاصد والوسائل فهو المستقل الاكمل ودرجة الاستقلال متفاوتة وان اختار طريقة امامه فى استدلاله وتفصيل أمره فى النظر واجماله ومراصد نظره ومقاصد خبره وخبره وفرع على ذلك حسب مايؤدى اليه اجتهاده ويقوى به اعتضاده فمنتسب ويقال مذهبى أيضا ولتخصيص تلك الطريقة بالاتباع والحمل على أصول ذلك الامام فى استخلاص الفروع ومحاسن الانتزاع دعى بهذين الوصفين قال بعض الكبار من أصحاب الامام الشافعى وهذا لايخلو عن رائحة تقليد نظرا الى تقيده بطرق استدلال المستقل واقتفائه فى الاحتجاج به أثر ذلك المستنبط المستدل فبهذا كان مجتهدا منتسبا مذهبيا ولكن يصح أن يقع عليه اسم المطلق أيضا نظرا الى عدم تقييده بالمستقل فى التفريع وعدم تقيده به فى جزئيات المسائل على مايعتريها من تقسيم وتوزيع فحيث وقع اختياره لتلك القواعد الاجتهادية والطرق الاستدلالية فموافقة نظر فقط لا لعجزه عن تأسيس أدلة مستقلة يكون بها تفريعه انضبط فهو مجتهد مطلق منتسب ولا يصل الى رتبة المستقل الذى ظهر من غوصه فى العلوم وجولان نظره فى المنطوق منها والمفهوم استخراج درر المسائل من لجج بحار الكتاب والسنة على أساليب دلت على انفراده فيما تحمله من أعباء تلك المنة بخلاف الذى دعوناه مطلقا منتسبا فان طباق مذهبه لذلك المستقل حيث لايخرج عن قواعده دليل على عدم اتساع باع النظير فان ذلك المستقل كثيرا مايقع له الانفراد فى قواعد وأدلة عن سابقيه ولا كذلك هذا على أنا الناسبيل فى أن نجعل المطلق المنتسب معنى اطلاقه خروجه فى بعض الاحيان عن قواعد المستقل وتقيده بها فى البعض وأن المنتسب فقط هو الخارج عن ترجيح ذلك المستقل وان لم يخرج عن قواعده فالمطلق المنتسب هو مطلق باعتبار ومنتسب باعتبار وهو واسطة بين المجتهد ومجتهد المذهب فهو الثالث وعليه يحمل من قيل فى اجتهادهم انه مطلق وربما كان الواحد من المجتهدين مطلقا فى بعض المسائل ومنتسبا فى البعض بناء على أن المعتمد تجزى الاجتهاد ويقع ذلك كثيرا لاصحاب الوجوه فى المذاهب وانما أحوج الى هذا كله ادّعاء بعضهم أن الرتب أربع والا فالمشهور أنها ثلاث الاولى رتبة المجتهد المطلق وهو الذى يستنبط الاحكام من الكتاب والسنة قال بعضهم وقد انقطع من نحو الثلاثمائة وان ادّعى الجلال السيوطى بقاءه الى آخر الزمان وكذلك ادّعاه من السادة البكرية محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكرى الصدّيق الذى كان فى أثناء القرن العاشر كما نقله عنه ابنه محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكرى الصديق الشافعى سبط آل الحسن حيث قال فى كتاب له يسمى الاقتصاد فى مراتب الاجتهاد وأما والدى رضى الله عنه

فانه كان المنفرد بنشر لواء هـذا الولاء الاجتهادى فى زمانه والواحد بالقيام بوظيفة الاستقلال بين كافة أقرانه وسمعناه يذكر ذلك عن نفسه مرارا وشاهدنا من أمارات صدقه كيف وهو الصادق ابن الصديق آثارا حتى قال يوما وهو يسلك فى تقريره بالمسجد الحرام من المباحث الاجتهادية أعدل المسالك أنا كالشافعى ومالك ولعمر الله انه لكذلك فكم من عمياء أنارها بنظره الصائب ومقفلة فتحها بذهنه الثاقب ومنار أقام صفاه وغامض ألاح مغزاه بحيث تراه الى مرماه فى أقصى رتب الاجتهاد أسرع من سيل صادف المنحدر والسهم فارق الوتر بل ربما يحصل لسامعه اذا كان ممن أحكمت الفضائل حنكته وعدلت العلوم فطرته العلم الضرورى بأنه مجتهد مستقل بلا نزاع وامام قامت به حجة الله بلا دفاع ثم لا ينافى ماقلناه عنه جريه فى التأليف على طرائق المتأخرين فانه انما أراد بذلك عموم النفع للمسلمين فان الهمم راكدة والفطن خامدة والحسد غلب على أهل الازمان والمكابرة كثرت فى أهل الاوان على أنى ربما لا أعدم منهم لمقالتى فى والدى رضى الله عنه جاحدا وعمرا عن الحق حائدا يقول انما حملته الحمية لابيه ونزع به عرق العصبية فى هذا التوصيف والتنويه ومعاذ الله وكيف لى بذلك وأنا عالم بانى أسئل عما رقمته وأحاسب فيما قلته وانما علمت أنى لو لم أعترف له رضى الله عنه بذلك كنت ممن كتم شهادة عنده من الله وعياذا بالله ثم عياذا بالله

وهبنى قلت هذا الصبح ليل   أيعمى العالمون عن الضياء

ومع ذلك كله فقد أراد الله تعالى أنه لم يصل هذا الشيخ فى الشهرة درجة أحد من مشاهير المقلدين كالرملى وابن حجر انتهى . والثانية رتبة مجتهد المذهب وهو من يستنبط الاحكام من قواعد امامه كالمزنى والبويطى والربيع الجيزى من أصحاب الشافعى وان كان المزنى انفرد عن الشافعى بأمور عدّها الاصحاب خارجة عن المذهب بالكلية فلهذا كان فيه شائبة الاطلاق الذى زاده بعضهم وجعله وسطا بين الاستقلال والانتساب وعلى هذا يحمل مانقل عن الرافعى فى قوله ان المزنى صاحب مذهب مستقل . والثالثة رتبة مجتهدى الفتوى وهو المقتدر على الترجيح فى أقوال امامه كالرافعى والنووى قال بعضهم وقد انقطع اجتهاد الفتوى بوفاة النووى رضى الله تعالى عنه وأما أصحاب الاختلافات المعتبرة كالرملى وابن حجر فانهما لم يبلغا مرتبة الترجيح بل هما مقلدان فقط وقال بعضهم بل لهما ترجيح فى بعض المسائل بل وللشبراملسى أيضا فعلى ذلك يكون أمثال الرملى وابن حجر والشبراملسى داخلين فى طبقة مجتهدى الفتيا ان لم نجعلهم مثل السادة الحنفية فى طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين الصحيح والاصح والضعيف وظاهر المذهب وظاهر الرواية والا كانوا طبقة رابعة وهى طبقة محررى الاقوال والآراء وهى أيضا طبقة مثلى (رفاعه بك)

(القسم الاول فى نبذ من الاحاديث والحكم والامثال التى يقوى الشاهد بها)
(و يعظم الاستدلال)

اعلم أن كلام الحكماء أكثر من أن يدركه الاحصاء و يستوفيه الاستقصاء لكنى أورد فى هذا القسم من الحكم المأثورة والامثال المشهورة والفقر المنظومة والمنثورة ما فيه مقنع وكفايه وان كنت لا أدرك من ذلك غايه ولا أبلغ الى نهايه قال بعضهم من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة وان هذه القلوب تمل كما تمل الابدان فابتغوا لها طرائف الحكمة والحكمة شجرة تنبت فى القلب وتثمر فى اللسان وهى موقظة للقلوب من سنة الغفلة ومنقذة للبصائر من سكرة الحيرة ومحيية لها من موت الجهالة ومستخرجة لها من ضيق الضلالة وقد أثنى الله سبحانه على الحكمة فقال ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ووصف بها لقمان عليه السلام فقال عز من قائل ولقد آتينا لقمان الحكمة الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلب ليس فيه من الحكمة شئ كبيت خراب ولا عامر له وقال عليه السلام الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها قيدها ثم ابتغى ضالة أخرى وقال لقمان ان القلب ليحيا بالكلمة من الحكمة كما تحيا الارض بوابل المطر وقال أبان بن سليم كلمة حكمة من أخيك خير لك من مال يعطيك لان المال يطغيك والكلمة من الحكمة تهديك وقال بعض السلف القلوب تحتاج الى قوتها كما تحتاج الابدان الى قوتها من الغذاء وقال بعض الحكماء الحكمة حلة العقل وميزان العدل ولسان الايمان وعين البيان وروضة الارواح ومزاح الهموم عن النفوس وأنس المستوحش وأمن الخائف ومتجر الرابح وحظ الدنيا والآخرة وسلامة العاجل والآجل وقال بعضهم الحكمة نور الابصار وروضة الافكار ومطية الحلم وكفيل النجح وضمين الخير والرشد والداعية الى الصواب والسفير بين العقل والقلوب لا تندرس آثارها ولا تعفو ربوعها ولا يهلك امرؤ بعد عمله بها قال أفلاطون كما أن لهذه الدنيا شمسا يستضاء بها و يعرف بها الليل من النهار والاوقات والاشخاص والاجرام فكذلك للنفس نور تميز به بين الخير والشر وهو الحكمة فان الحكمة أشد ضياء من الشمس وان للنفس صحة وسقما وحياة وموتا فصحتها بالحكمة وسقمها بالجهل وحياتها بأن تعرف خالقها وتتقرب اليه بالبر وموتها أن تجهل خالقها وتتباعد منه بالفجور وقال بقراط من اتخذ الحكمة لجاما اتخذه الناس اماما قال بعض الحكماء صلاح أسقام النفس أفضل من صلاح اسقام البدن لفضل النفس على البدن لان البدن آلة للنفس والنفس باقية والبدن فان مضمحل ومصلحة الباقى والعناية به وتعديله أفضل من اصلاح الفانى ومع ذلك فان اصلاح أنفسنا أسهل وأخف من مؤنة اصلاح أبداننا لان صلاح النفس انما هو بالحكمة واتباع الآداب

العقلية ولزوم العادة الفاضلة المؤدية لمن تمسك بها الى سبيل الفلاح وطرق النجاح لا بدواء مشروب ولا غير ذلك من أصناف العلاجات التى لا تتهيأ الا بالكلفة العظيمة فى البدن والمال وانما هى نتائج العقول والاذهان وفوائد التجارب فى مرور العصور والازمان وأولاها بالتقديم وأحقها بالتكريم والتعظيم ماصدر عن النبى المصطفى الكريم وكذلك أيضا للامثال مواقع فى نفوس الانام ولذلك ضرب الله سبحانه الامثال فى كتابه الكريم

(فصل فيما ابتدئ بان)

فن الحديث الوارد عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الحكمة تزيد الشريف شرفا . ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا . ان للقلوب صداء كصداء الحديد وجلاؤها الاستغفار . ان الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف . ان مكارم الاخلاق من أعمال أهل الجنة . ان حسن العهد من الايمان . ان أحساب أهل الدنيا هذا المال . ان أحسن الحسن الخلق الحسن . ان أشكر الناس لله أشكرهم للناس . ان لكل دين خلقا وان خلق هذا الدين الحياء . ان لكل ملك حمى وان حمى الله محارمه . ان الله يحب الرفق فى الامر كله . ان الله يحب معالى الامور وأشرافها ويكره سفسافها . ان الله لا يرحم من عباده الا الرحماء . ان الله عند لسان كل قائل . ان من موجبات المغفرة ادخال السرور على أخيك المؤمن . ان من أشد الناس عذابا يوم القيامة من اتقاه الناس لشره . ان الله أمرنى بمداراة الناس كما أمرنى باقامة الفرائض . ان الله حى كريم يستحى أن يمد العبد يده اليه فيردها خائبة . ان لله عبادا يفزع الناس اليهم فى حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله . ان من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه . ان لله خزائن للخير والشر مفاتحها الرجال فطوبى لمن جعل الله مفتاحا للخير مغلاقا للشر وويل لمن جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير . ان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله وان العفو لا يزيد العبد الا عزا فاعفوا يعزكم الله وان الصدقة لا تزيد المال الا كثرة فتصدقوا يغنكم الله . ان الناس لم يعطوا شيأ أفضل من العفو والعافية فاسألوهما الله . ان الله حين خلق الخلق كتب بيده على نفسه رحمتى تغلب غضبى . ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم . ان لكل ساع غاية وغاية كل ساع الموت . ان الله يحب الملحين فى الدعاء . ان ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيها . ان الصبر يأتى العبد على قدر المصيبة . ان الله يبغض الخصم الالد . ان لله عند قوم نعما يقرها عليهم ما كانوا فى حوائج الناس فاذا ملوها نقلها من عندهم الى غيرهم . ان العبد ليبدى من نفسه ماستره الله حتى يمقته الله . ان الرجل ليتكلم بالكلمة يرضى بها جلساءه يهوى بها فى نار جهنم . ان من اجلال الله اكرام ذى الشيبة المسلم . ان المؤمن اذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت صدقة . ان الله وملائكته وأهل السموات والارض حتى النملة فى جحرها وحتى الحيتان ليصلون على معلم الناس الخير

(ومن الحكم المأثورة عن السلف وغيرهم)

ان حب الخير فعل وان عجزت عنه القدرة . ان الصواب فى الاسد لا الاشد . ان فى ذهاب الذاهبين لعبرة للقوم الغابرين . ان للامور بغتات فكن منها على حذر . ان ولاية المرء ثوبه فان قصر عنه عرى منه وان طال عليه عثر فيه . ان من قضاء الحاجة تعجيل اليأس اذا أخطأك قضاؤها . ان العدو الشديد الذى لاتقوى له لاترد بأسه عنك بمثل الخضوع له . ان قديم الحرمة وحديث التوبة يمحوان ما بينهما من الاساءة . ان القدرة تذهب الامنية . ان العلم عوض عن كل لذة ومغن عن كل شهوة . ان من السياسة للراعى أن يجز غنمه جزا لايذهب معه الصوف ولاتضيع له الغنم . ان لك فى مالك شريكين الحدثان والوارث فان استطعت أن لاتكون أبخس الشركاء حظا فافعل . ان أضعف الرأى ماسنح فى البديهة . ان أحق ماصبرت عليه مالم تجد سبيلا الى دفعه . ان المصيبة اذا نزلت انما هى واحدة فان جزع صاحبها كانت اثنتين . ان من الدلالة على أن الانسان مصرف مغلوب ومدبر مربوب أن يتبلد رأيه فى بعض الخطوب ويعمى عليه الصواب المطلوب . ان لكل قوم كلبا فلا تكن كلب أصحابك . ان الله عز وجل وسع أرزاق الحمقاء ليعتبر العقلاء وليعلموا أن الدنيا لاينال مافيها بعقل ولا حيلة . ان أشد الناس غما الذى نزل غيره فى المكان الذى هو أحق به منه . ان لكل فضل زكاة وان زكاة المال الصدقة على الفقير المحتاج وان زكاة القوة المدافعة عن الضعيف المظلوم وان زكاة البلاغة القيام بحجة من قد عجز عن حجته وان زكاة الجاه أن يعاد به على من لاجاه له وان زكاة العلم التعليم لمن قصر علمه . ان أهل البيت اذا كثروا كان فيهم الغرر والعرر . ان فى صلاح مالك بقاء عزك ونقاء عرضك . ان من علامة المؤمن قوة فى دين وحزما فى لين وايمانا فى يقين وحكما فى علم وكيسا فى رفق وعطاء فى حق وقصدا فى غنى وغنى فى فاقة واحسانا فى قدرة وطاعة فى نصيحة وتورعا فى رغبة وتعففا فى جهد وصبرا فى شدة . ان الرجل ليكون أمينا فاذا رأى الضياع خان . ان الوعظ الذى لايمجه سمع ولا يعدله نفع مايصمت عنه لسان القول وينطق به لسان الفعل . ان النفس لأمارة بالسوء فاذا جاء العزم من الله كانت هى التى تدعوك الى الخير . ان الآمال قطعت أعناق الرجال كالسراب غر من رآه وأخلف من رجاه . ان الركون الى الدنيا مع مايعاين من الموت جهل وان التقصير فى حسن الاعمال مع معرفة الثواب عليها عجز وان الطمأنينة الى كل أحد قبل الاختبار حمق . ان بقاءك الى فناء نفذ من بقائك الذى لايبقى لفنائك الذى لايفنى . ان الفاسق اذا كان حسن الخلق عاش بخلقه وخف على الناس وأحبوه وان العابد اذا كان سيئ الخلق ثقل على الناس وملوه . ان المرء لن ينال مايحب حتى يصبر على كثير مما يكره

(فصل فيما ابتدئ بمن)

(من الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم)

من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله . من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين . من يرد الله به خيرا يجعل خلقه حسنا . من يغفر يغفر الله له ومن يعف يعف الله عنه . من تأنى أصاب أو كاد ومن عجل أخطأ أو كاد . من يزرع خيرا يحصد رغبة ومن يزرع شرا يحصد ندامة . من أيقن بالخلف جاد بالعطيه . من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله . من أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده . من سره أن يسلم فليلزم الصمت . من رزق من شئ فليلزمه . من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير . من دعا على من ظلمه فقد انتصر . من تشبه بقوم فهو منهم . من طلب العلم تكفل الله برزقه . من لم ينفعه علمه ضره جهله . من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل . من فتح باب خير فلينتهزه فانه لا يدرى متى يغلق عليه . من كف لسانه عن أعراض الناس أقاله الله تعالى عثرته يوم القيامة . من يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة . من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت . من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله فى الدنيا والآخرة . من فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . من ستر على أخيه ستره الله فى الدنيا والآخرة . من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب . من كان وصلة لاخيه المسلم الى ذى سلطان فى منهج بر أو تيسير عسير أعانه على اجازة الصراط يوم تدحض فيه الاقدام . من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها . من أصبح ولم ينو لاحد سوأ غفر له . من أكثر من الاستغفار رزقه الله من حيث لا يحتسب . من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثر خطؤه . من كثر همه سقم بدنه . من كثر ضحكه استخف بحقه . من حفظ ما بين لحييه وبين رجليه دخل الجنة . من ترك معصية مخافة الله أرضاه الله يوم القيامة . من أمسك بركاب أخيه لا يرجوه ولا يخافه غفر الله له . من تنصل اليه فلم يقبل لم يرد على الحوض . من قل علمه قل ورعه . من قل ماله ساء خلقه . من أكرم أخاه المؤمن فانما يكرم الله عز وجل . من كف غضبه كف الله عنه عذابه . من أعان مسلما كان الله فى عونه . من قنع بما رزقه الله دخل الجنة . من شفع شفاعة حسنة آجره الله . من لم تكن له واحدة من ثلاث فلا يحتسب بشئ من عمله تقوى تحجزه عن معاصى الله وحلم يكفه عن السفه وحكمة يعيش بها فى الناس . من أخذه الله بمعصيته فى الدنيا فالله أكرم من أن يعفو عن عبده فى الدنيا ثم يأخذه فى الآخرة . من اعتذر اليه أخوه المسلم فليقبل منه ما لم يعلم كذبه

(ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم)

من عرف قدره علا أمره . من استحى من الناس ولم يستح من نفسه فلا قدر لها عنده . من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر فى العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل ومن لم يحلم ندم ومن صبر غنم ومن خاف أمن ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم . من جالس عدوه حفظ عليه عيوبه . من أخطأ أسهم المنية قيده الهرم . من سره بنوه ساءته نفسه . من استغضب فلم يغضب فانما هو حمار ومن استرضى فلم يرض فانما هو شيطان . من كثر ضحكه سقطت مهابته ومن لاحى الرجال سقطت كرامته . من طلب ما قبل السلطان والنساء بالغلظة لم يزدد منهما الا بعدا من خدم السلطان بلا علم واستقلال وتجربة وكمال كان بمنزلة راكب فيل صعب أو سائر فى بحر قد خب . من طلب الى لئيم حاجة كان كمن طلب صيد السمك فى المفاوز . من استوضع التاجر من رأس ماله فقد استكمل حمقه . من اتقى الحساب تورع فى الاكتساب . من بلغ الستين فقد قطع منه الوتين . من عامل السلطان بالمكر كافأه بالغدر . من حرمك خيره وحملك مؤونته فلا ترغب فى مودته . من أبدى الى الناس فقره فليس له عندهم قدر . من استغنى عن الناس وقروه وعظموه من غضب على من يقدر على ضره طال همه وحزنه . من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا . من قل عقله كثر هزله . من أصلح سريرته أصلح ولابد علانيته ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس . من عمل للآخرة كفاه الله الدنيا . من استغنى بالله افتقر اليه الناس . من خان مان ومن مان خان وتبرأ من الاحسان . من كتم سره جهل عدوه أمره . من نقض عهده ومنع رفده وأظهر حقده فلا خير عنده . من فرح بمدح الباطل فقد أمكن الشيطان من نفسه . من أظهر عيب نفسه زكاها . من طاعت له نفسه طاعت له غيره من أنفق عمره فى جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم . من أحب الحياة لنفسه أماتها من كرمت عليه نفسه صغرت الدنيا فى عينه . من سكر من خمرة الدنيا هلك فى خمار الهوى . من قبل فم اللذة عضته أسنان الندامة . من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . من تجرع اللوائم فى موافقة الحق رد الله تلك اللوائم حمدا ومن آثر المحامد فى موافقة الحق رد الله تلك المحامد ذما من أعجب بنفسه فضحها . من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن أجار جاره أعانه الله وأجاره . من بسطه الادلال قبضه الاذلال . من تناسى مساوى الاخوان دام له ودهم . من بذل ماله أدرك آماله . من عظمت مرافقه أعظمه مرافقه . من قل حياؤه قل احباؤه . من لم يشكر لمنعمه استحق قطع أنعمه . من أنكر الصنيعه استوجب القطيعه . من قل توقيه كثرت مساويه من استغنى بالله اكتفى . من انقطع لغير الله تعرى . من كان بقليل الدنيا لا يقنع لم يغنه منها ما يجمع . من لم يتناه طلبه دام تعبه . من أمات شهوته أحيا مروءته . من صاحب العلماء وقر

ومن جالس السفهاء حقر . من ساس نفسه ساد جنسه . من رضي عن نفسه سخط عليه الناس
من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زل . من أفشى سره المصون كثر عليه المتآمرون . من
كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلافه طابت غيبته . من دام كسله خاب أمله . من أوغرت
صدره استدعيت شره . من أمل أمراً هابه . من فعل ما شاء صبر على ما لا يشاء . من داوم
الرقاد عدم المراد . من عرف معابه فلا يلم من أعابه . من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ
من عرف بالصدق جاز كذبه ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه . من تجبر أسه فقد رجح . من
استرعى الذئب ظلم . من أدب ولده صغيرا سرّ به كبيرا . من أدب ولده أرغم حاسده . من عبس
لك وجهه فلا تطلبن فضله . من كانت ولايته فوق قدره تكبر ومن كانت ولايته دون قدره تواضع
من استعذب المدح استحق القدح ومن ترك الكبر استوجب الشكر . من ذهب ماله هان على أهله
من سأل صاحبه فوق طاقته فقد استوجب الحرمان . من صانع بالمال لم يحتشم من طلب الحاجة
من لم يضن بالحق على أهله فهو الجواد . من لم يصبر على كلمة سمع كلمات . من أراد العز والسلامة فليلزم
ثلاثا أن لا يسأل أحدا حاجة ولا شيأ ولا يأكل طعام أحد ولا يذكر أحدا بسوء . من امتطى دواب
الامل أوردته موارد التلف . من ركب العجلة لم يأمن الكبوة . من لم يواس الاخوان فى دولته
خذلوه فى عزلته . من لم يتعظ بالناس اتعظ به الناس . من أخطأ واعتقد أنه على صواب فقد أخطأ
مرتين . من قل لبه اشتد عجبه . من عرف حق أخيه دام له إخاؤه . من تكبر على الناس ورجا أن
يكون له صديق فقد غرّ نفسه . من لم يكن عونا على نفسه مع خصمه لم يكن عنده شئ من عقدة
الرأى من أقدم على هوى وهو يعلم ما فيه من سوء المغبة سلط على نفسه لسان العذل وضيع الحزم
من لم يقدم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الانس أثمرت مودته ندما . من كساه الحياء ثوبه ستر عن
الناس عيبه . من أصلح ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض . من كرمت عليه نفسه لم يهنها
ومن نازع بها جاهلا لم يصنها . من لم يرض من الدنيا بالقليل وقع منها فى غم طويل . من كثر ملقه
لم يعرف بشره . من أنس بالله استوحش من الناس . من رجى الفرج لديه كثرت غاشيته . من
غضب من غير شئ فسيرضى من غير شئ . من لم يمنع نفسه من الشهوات تسرعت اليه الهلكات
من لم ينتفع بظنه لم ينتفع بيقينه . من زال عن أبصار الملوك زال عن قلوبهم . من ساء خلقه كثر همه
ومن كذب ذهب جمال وجهه . من غض بصره عن عيوب الناس غضوا أبصارهم عنه . من
نهض الى المعالى ظفر بالمكان العالى . من قصر عن شئ عابه . من عز باقبال الدهر ذل بادباره
من لم يركب الاهوال لم ينل الرغائب . من ضاق صدره اتسع لسانه . من قارب الناس فى عقولهم
أمن من غوائلهم . من تكلف ما لا يعنيه فاته ما يعنيه . من عرف تقلب الزمان لم يركن اليه . من
أحب المجد أحسن السيره ومن أبغضه أساءها . من أحرز العفاف لم يعدم الكفاف . من كان

همه بطنه كان قدره ما يحويه . من سلك الجد أمن من العثار . من استغنى كرم على أهله . من لم يداد المشط ينتف لحيته . من ترك القهقهة أكرمه الله بالهيبة . ومن ترك المزاح أكرمه الله بسيما الصالحين . ومن ترك الفضول أكرمه الله بالخشوع . ومن ترك التخليط أكرمه الله بالوقار . ومن ترك التجسس أكرمه الله بالسنة . ومن ترك الكيفية فى الرب برأه الله من الشرك والنفاق ومن بحث عن عورات المسلمين فضحه الله فى بيته . من غرس العلم اجتنى النباهة . ومن غرس التزهد اجتنى العز . ومن غرس الاحسان اجتنى المحبة . ومن غرس الفكرة اجتنى الحكمة . ومن غرس الوقار اجتنى المهابة . ومن غرس المداراة اجتنى السلامة . ومن غرس الكبر اجتنى المقت . ومن غرس الحرص اجتنى الذل . ومن غرس الطمع اجتنى الخزى . ومن غرس الحسد اجتنى الكمد . من رضى من صلة الاخوان بلاشئ فليواخ أهل القبور . من لا ولد له فلاذكر له ومن لا اخوان له فلا أهل له . ومن لا عقل له فلا دنيا له ولا آخرة . من خوفك لتأمن خير ممن أمنك لتخاف ومن سقاك مرا لتبرأ خير لك ممن سقاك حلوا لتسقم . من لاحى الناس وماراهم قلت كرامته . من أكثر من شئ عرف به . من صحب السلطان صبر على قسوته كصبر الغواص على ملوحة بحره . من حدث نفسه بالبقاء ولم يوطنها على المصائب فعاجز الرأى . من أبطره الغنى أذله الفقر . من أوتى نعمة فهو عبدها حتى يعتقه شكرها ومن عرفها فقد شكرها ومن شكرها فقد استوجب مزيدا . من لم يملك غضبه لم ينل أربه . من لم يغض لحاجته لم يبلغ حاجته . من لم تحسن خلائقه لم تؤمن بوائقه . من حسن خلقه أنهج الى الخيرات طرقه وأدرك فى المكرمات من سبقه . من شح على سره فقد أعان على بره . من نظر فى أحواله وحزم فى أفعاله وأقسط فى أحكامه واقتصد فى وفوره واعدامه أعطى الخير بتمامه . من يسر التوبة لم يمنع المغفرة . ومن وفق للدعاء لم يحرم الاجابة . من حكم فعدل وصبر واحتمل وأعطى وبذل فقد احتبى بثوب الفضل واشتمل . من لم يقبل مشورة الصديق ونصيحة الشفيق استوبل عاقبته واستوخم مغبته وعاين سوء ما قدمت يداه وذاق مرارة ماجناه . من لم يأس على مافاته أراح قلبه . ومن قنع بما هو فيه قرت عينه . ومن عتب على الدهر طالت معتبته ومن رضى بالقسم طابت معيشته . ومن ضعف عقله غلبته شهوته . ومن أطاع هواه أعطى عدوه مناه . من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن من أنزل نفسه منزلتها أمن عليها سوء الدوائر . من قلل تعلقه بالدنيا قلت حسرته عند فراقها . من طاوع طرفه تابع حتفه . من استقبل الامور أبصر ومن استدبرها تحير . من لم يعرف الموارد كان بالمصادر أجهل . من أحبك نهاك ومن أبغضك أغراك . من اقتصد فى الغنى والفقر فقد استعد لنائبة الدهر

(فصـــل فيما ابتدئ بثلاثة)

(فن الحديث الوارد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم)

ثلاثة من الموبقات فاحذروهنّ الحرص والحسد والكبر. ثلاثة لاترد دعوتهم الامام المقسط والصائم حتى يفطر والمظلوم. ثلاثة لايضر معهاشئ الدعاء عند الكرب والاستغفار عند الذنب والشكر عند النعمة. ثلاثة لايسئل أحد عنها يوم القيامة ماأنفق فى مرضه وفى افطاره وماأنفق فى قرى ضـيفه. ثلاثة من نعيم الدنيا وان كان لانعيم لها مركب وطئ والمرأة الصالحة والمنزل الواسـع. ثلاثة يبغضهم الله البخيل المنان والشيخ الزانى والفقير المختال. ثلاثة معانون المملك حتى يضم أهله والغازى حتى يقضى غزوه والحاج حتى يقضى حجه. لا كذب فى احدى ثلاث الاصـلاح بين النـاس والحرب فانها خدعة والزوجات فيما يتباعه الزوج. ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة برّ من فاجر وشريف من دنئ وحليم من سـفيه. ثلاثة لايعرفون الا فى ثلاثة مواطن الحليم عند الغضب والشجاع فى الحرب والاخ عند الحاجة. ثلاثة لايلامون على سوء الخلق المريض والصائم والمسافر. ثلاثة يطلبون المرء وان فرّ منهـم الموت والرزق والمصيبة. ثلاثة من كنّ فيه سـتر الله كنفه وأدخله جنته رفق بالضعيف وشفقة على الوالدين والاحسان الى المملوك. ثلاثة من لم يكن فيه واحدة منهن لم يجد طعم الايمان حلم يرده عن جهل الجاهـل وورع يحجزه عن محارم الله وخلق يدارى به الناس. ثلاثة من أخلاق الايمان من اذا غضب لم يدخله غضب فى باطل واذا رضى لم يخرجه رضاه من حق واذا سـئل لم يعط ماليس له. ثلاثة من هذه الامة على منابر يوم القيامة من درّ وياقوت التاجر الصدوق فى تجارته والسلطان العادل فى حكومته والبارّ بوالديه. ثلاثة للمرء المسلم من دعوته اما خير يعجل له فى دنياه واما خير يؤخر له الى آخرته واما يستجاب له. ثلاث علامات للكسلان يتوانى حتى يفرط ويفرط حتى يضيع ويضيع حتى يأثم. ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فأما المنجيات فخشية الله فى السر والعلانية والحكم بالحق عنـد الغضب والرضا والاقتصاد عند الفقر والغنى واما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه. ثلاث ساعات للمؤمن ساعة يناجى فيها ربه وساعة يروم فيها معاشه وساعة يخلى بين نفسـه ولذتها فيما يحل ويجمل. ثلاث من كن فيه فهو منافق من اذا وعد أخلف واذا حدث كذب واذا اؤتمن خان. وثلاث من كن فيه فهو مؤمن اذا قال صـدق واذا وعد وفا واذا اؤتمن لم يخن. ثلاث من رزقهن فقد جمع له خير الدنيا والآخرة الرضا بالقضاء والصبر عند البلاء والدعاء فى الرخاء. ثلاث يصـفين لك ودّ أخيك تسـلم عليـه اذا لقيته وتوسـع له فى المجالس وتدعوه بأحب أسمائه اليه. ثلاث من أعطيهنّ فقد أعطى خير

الدنيا والآخرة الكفاف والقنوع والورع . ثلاث لن ينفع المرء بعد وفاته الا هن صدقة تجرى من بعده وسنة يعمل بها من بعده وولد يدعو له . ثلاث تتبع الميت الى قبره فيرجع عنه اثنان وتتبعه واحدة أهله وماله وعمله فأما أهله وماله فيرجعان ويتبعه عمله . ثلاث نهى الله عز وجل عنهن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال

(ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم)

ثلاثة أشياء لا ينبغي للعاقل تركها علم يحث على عمل نافع فى المعاد وطب يكف به عن البدن الاسقام وصناعة يستعين بها على المعاش . ثلاثة لا يتهمون الخبير عن سقمه والمقر على نفسه والذى يدعو الناس الى الاخذ بما يعمل به . العيش فى ثلاث سعة المال وكثرة الخدم وموافقة الاهل . ليس لثلاث حيلة فقر يخالطه كسل وخصومة يداخلها حسد ومرض يمازجه هرم . ثلاثة لا يستخف بهم عاقل السلطان والعالم والصديق لان من استخف بالسلطان أفسد دنياه ومن استخف بالعالم أفسد دينه ومن استخف بالصديق أفسد مروءته . ثلاثة لا يأنف الكريم من القيام عليهم أبوه وضيفه ودابته . للسفر ثلاث عقبات الاولى العزم والثانية العدة والثالثة الرحيل وأشدهن العزم . ثلاثة مسهرة قرض فار وأنين مريض ووكف بيت . ثلاثة لا راحة لها الا بالمفارقة السن المتآكلة المتحركة والعبد الفاسد على مولاه والمرأة الناشز على زوجها . ثلاث خصال اذا كن فى الرجل فلا تشكن فى صلاحه اذا حمده جاره ورفيقه وقرابته . كدر العيش فى ثلاث الجار السوء والولد العاق والمرأة السيئة الخلق . ثلاثة الاقدام عليها غرر شرب السم للتجربة وركوب البحر للغنى وافشاء السر الى النساء . ثلاثة من عازهم عادت عزته ذلا السلطان والوالد والغريم . ثلاثة تزيد فى المودة الزيارة فى الرحال والمحادثة على الموائد ومعرفة الرجل حشم أخيه وخدمه . مطالع العلوم ثلاثة قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصور . ثلاث من كن فيه فقد أصاب البر سخاء النفس والصبر على الاذى وطيب الكلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا بما قد نال وحسن الصبر على ما قد فات . ثلاث خلال من برئ منهن نال ثلاثة من برئ من الشر نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامه . ثلاث من كن فيه كن عليه البغي والنكث والمكر . الملوك تحتمل كل شئ الا ثلاثة القدح فى الملك وافشاء السر والتعرض للحرم . ثلاثة تدل على عقول أصحابها الرسول والكتاب والهدية . ثلاث من خير خصال النساء وهن من شر خصال الرجال الزهو والجبن والبخل . العيش فى ثلاث اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان . ثلاث من لم يرغب فيهن بلى بست من لم يرغب فى الاخوان بلى

بالعداوة والامتحان ومن لم يرغب فى السلامة بلى بالشدائد والامتهان ومن لم يرغب فى المعروف بلى بالندامة والخسران . أولى الناس بالرحمة ثلاثة البر يكون فى تدبير الفاجر فهو الدهر حزين لما يرى ويسمع والعاقل يكون فى تدبير الجاهل فهو الدهر متعب مغبون والكريم يحتاج الى اللئيم فهو خاضع ذليل . أسباب الفتن ثلاثة عين ناظرة وصورة ناضرة وشهوة قادرة . ثلاثة ان لم تظلمهم ظلموك عبدك وولدك وزوجتك . الكمال فى ثلاثة التفقه فى الدين وبر الوالدين وحسن تدبير العيشة . ثلاثة لا تكون الا فى ثلاثة الغنى فى العفة والشرف فى التواضع والكرم فى التقوى . عليكم بثلاثة جالسوا الكرماء وخالطوا الحكماء وسائلوا العلماء . ثلاثة لا يصلح فسادهن شئ من الحيل العداوة بين الاقارب وتحاسد الاكفاء والركاكة فى العقول . ثلاثة لا يفسد صلاحهن شئ من المكر العبادة فى العلماء والقنوع فى المستبصرين والسخاء فى ذوى الاخطار . ثلاثة لا يشبع منهن الحياة والعافية والمال . ثلاثة أشياء تفسد العقل طول النظر فى المرآة والاستغراق فى الضحك ودوام النظر فى البحر . ثلاثة تبطل مع ثلاثة الشدة مع الحيلة والعجلة مع التأنى والاسراف مع القصد . ثلاثة من الافعال من علامات الاحمق كثرة الالتفات من غير مناد ولا متكلم وسرعة الجواب والمسؤل غيره والضحك فى غير وقته . ثلاثة من حقيقة الايمان الاقتصاد فى الانفاق والابتداء بالسلام والانصاف فى الامور . ثلاث نواطق وان كن خرسا كسوف البال دليل على رقة الحال وحسن البشر دليل على سلامة الصدر والهمة الدنيئة دليل على الغريزة الرديئة . الرجال ثلاثة عاقل وفاجر واحمق فاما العاقل فالكرم شريعته والحكم طبيعته وحسن الرأى سجيته وان كلم أجاب وان نطق أصاب وان سمع العلم وعاه وان اطمأن اليه مطمئن رعاه والفاجر ان ائتمنته خانك وان حاذيته شانك وان علم العلم لم يتعلم وان ذكر بالله لم يتذكر وان وثقت به لم يرعك وان استكتم لم يكتم والاحمق ان تكلم عجم وان حدث أوهم وان استنزل عن رأيه نزل وان حمل على قبيح ركبه وان حدث لم ينقه وان حدث لم ينبه . ثلاثة لا غربة معهن مجانبة الريب وحسن الادب وكف الأذى . ثلاثة أشياء موكل بها ثلاثة أشياء الحرمان على المقدم فى صنعته وتحامل الايام على ذوى الادوات الكاملة ومعاداة العامة لاهل المعرفة . ثلاثة أشياء من أخذها من الديك تم بها أدبه سخاؤه وشجاعته وغيرته . الناس ثلاث طبقات تسوسهم ثلاث سياسات طبقة من خاصة الاحرار تسوسهم بالعطف واللين والاحسان وطبقة من خاصة الاشرار تسوسهم بالغلظة والعنف والشدة وطبقة من العامة تسوسهم باللين والشدة لئلا تحرجهم الشدة ولئلا يبطرهم اللين الرجال ثلاثة فهين عفيف يصدر الامور مصادرها ويوردها مواردها وآخر ينتهى الى رأى ذى اللب والمقدرة فيأخذ بقوله وينتهى الى أمره وآخر حائر بائر لا يأتمر الرشد ولا يطيع المرشد

ثلاثة متقاربة السفر والسقم والقتال فالسفر سفينة الاذى والسقم حريق الجسد والقتال منبت المنايا. الاخوان ثلاثة أخ يخلط لك وده و يبلغ فى همك جهده وأخ ذو نية يقتصر بك على حسن نيته دون رفده ومعونته وأخ يجاملك بلسانه و يتشاغل عنك بشأنه ويوسعك من كذبه وأيمانه. الرقاب ثلاثة رقبة تملك بالمن ورقبة تملك بالصفح ورقبة لا ينفع فيها الا السيف. ثلاثة ما اجتمعت فى حر مباهتة الرجال والغيبة للناس والملل لاهل المودة. ثلاثة ليس لهم رأى صاحب الخف الضيق وصاحب المرأة السوء وحابس البول. الانس فى ثلاثة صديق تأمن منه فى صداقتك ما تصدقه به عدوك وامرأة تسرك ان دخلت عليها وتحفظك اذا غبت ومملوك يأتى كل ما فى نفسك حتى كأنه يطلع على غيبك. ثلاث تعقب العداوة المباهتة والمفاخرة والممازحة. ثلاث تزرى بالمرء الحسد والنميمة والطيش. الخير كله فى ثلاثة فى السكوت والكلام والنظر فكل سكوت لا يكون فكرة فهو سهو وكل كلام لا يكون حكمة فهو لغو وكل نظر لا يكون عبرة فهو لهو. ثلاث تدل على ضعف العقل سرعة الجواب وطول التمنى والاغراق فى الضحك. ثلاث تفسد المروءة الشح والحرص والغضب. الرجال ثلاثة رجل بنفسه ورجل بلسانه ورجل بماله. ثلاثة يصيرون أجن المجانين وان كانوا أعقل العقلاء الغضبان والغيران والسكران. الايادى ثلاث بيضاء وخضراء وسوداء فاليد البيضاء الابتداء بالمعروف واليد الخضراء المكافأة على المعروف واليد السوداء المن بالمعروف. تمام المعروف ثلاثة تعجيله وتصغيره وستره. احذر ثلاثا الكبر والغضب والطمع. خذ من الدنيا ثلاثا من الكنوز العلم ومن الزاد التقوى ومن الاعمال العباده. تلق النعمة من الله بثلاث كثرة الشكر ولزوم الطاعه واجتناب المعصية. افزع الى ثلاث الى الله فى مهمات أمورك والى التوبة من مساوى عملك والى أهل العلم والادب. اهرب من ثلاث من الكذاب ومن الظالم وان كان والدك أو ولدك ومن مواطن الامتحان التى تحتاج فيها الى صبرك. من عرف بثلاث استوجب ثلاثا من عرف بالبخل استوجب الذم ومن عرف بالكذب استوجب المقت ومن عرف بالغيبة استوجب الخزى. ثلاث هن فى ذهاب العقل أسرع من النار فى يابس العرفج اهمال الفكرة وطول التمنى والاستغراق فى الضحك ومن الشعر

ثلاث بها نلت المعالى والغنى ... وأصبحت معتز الجناب مموّلا
طويت على قصد المروءة باطنى ... وفى ظاهرى أبديت فيه التجملا
وأغضيت عما فى يد الخلق ناظرى ... وأبصرت مالله عندى أفضلا

اراء الحكما فى الخلق

الخلق حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية وهذه الحال تنقسم الى قسمين منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالانسان الذى يحركه أدنى شئ نحو غضب ويهيج من أقل سبب وكالانسان الذى يجبن من أيسر شئ كالذى يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه وكالذى يضحك ضحكا مفرطا من أدنى شئ يعجبه وكالذى يغتم ويحزن من أيسر شئ يناله ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا ولهذا اختلف القدماء فى الخلق فقال بعضهم الخلق خاص بالنفس الناطقة وقال بعضهم قد يكون للنفس غير الناطقة فيه حظ ثم اختلف الناس أيضا اختلافا ثانيا فقال بعضهم من كان له خلق طبيعى لم ينتقل عنه وقال آخرون ليس شئ من الاخلاق طبيعيا للانسان ولا نقول انه غير طبيعى وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق بل ننتقل بالتأديب والمواعظ اما سريعا أو بطيأ وهذا الرأى الاخير هو الذى نختاره لانا نشاهده عيانا ولان الرأى الاول يؤدى الى ابطال قوة التمييز والعقل والى رفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين والى ترك الاحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم وهذا ظاهر الشناعة جدا وأما الباقون فظنوا أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون اشرارا بمجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التى لا تقمع بالتأديب فينهمك فيها ثم يتوصل اليها من كل وجه ولا يفكر فى الحسن منها والقبيح وقوم آخرون قبل هؤلاء ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم فهم لاجل ذلك أشرار بالطبع وانما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم الا أن فيهم من هو فى غاية الشر لا يصلحه التأديب وفيهم من ليس فى غاية الشر فيمكن أن ينتقل من الشر الى الخير بالتأديب من الصبا ثم بمجالسة الاخيار وأهل الفضل فأما جالينوس فانه رأى أن الناس فيهم من هو خير بالطبع وفيهم من هو شرير بالطبع وفيهم من هو متوسط بين هذين ثم أفسد المذهبين الاولين اللذين ذكرناهما أما الاول فبأن قال ان كان كل الناس أخيارا بالطبع وانما ينتقلون الى الشر بالتعليم فمن الضرورة أن يكون تعلمهم الشرور اما من أنفسهم واما من غيرهم فان تعلموا من غيرهم فان المعلمين الذين علموهم الشر أشرار بالطبع فليس الناس اذا كلهم أخيارا بالطبع وان كانوا تعلموه من أنفسهم فاما أن يكون فيهم قوة يشتاقون بها الى الشر فقط فهم اذن أشرار بالطبع واما أن يكون فيهم مع هذه القوة التى تشتاق الى الشر قوة أخرى تشتاق الى الخير الا أن القوة التى تشتاق الى الشر غالبة قاهرة للتى تشتاق الى الخير وعلى هذا أيضا يكونون أشرارا بالطبع وأما الرأى الثانى فانه أفسده بمثل هذه الحجة وذلك أنه قال ان كان كل الناس أشرارا بالطبع فاما أن يكونوا تعلموا الخير

من غيرهم أو من أنفسهم ونعيد الكلام الاول بعينه ولما أفسد هذين المذهبين صحح رأى نفسه من الامور البينة الظاهرة وذلك أنه ظاهر جدا أن من الناس من هو خير بالطبع وهم قليلون وليس ينتقل هؤلاء الى الشر ومنهم من هو شرير بالطبع وهم كثيرون وليس ينتقل هؤلاء الى الخير ومنهم من هو متوسط بين هذين وهؤلاء قد ينتقلون بمصاحبة الاخيار ومواعظهم الى الخير وقد ينتقلون بمقاربة أهل الشر واغوائهم الى الشر وأما ارسطوطاليس فقد بين فى كتاب الاخلاق وفى كتاب المقولات أيضا ان الشرير قد ينتقل بالتأديب الى الخير ولكن ليس على الاطلاق لانه يرى أن تكرير المواعظ والتأديب وأخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة لابد أن يؤثر ضروبا من التأثير فى ضروب من الناس فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك الى الفضيلة بسرعة ومنهم من يقبله ويتحرك الى الفضيلة بابطاء ونحن نؤلف من ذلك قياسا وهو هذا كل خلق يمكن تغيره ولا شئ مما يمكن تغيره هو بالطبع فاذن لا خلق بالطبع والمقدمتان صحيحتان والقياس منتج من الضرب الثانى من الشكل الاول أما تصحيح المقدمة الاولى وهى أن كل خلق يمكن تغيره فقد تكلمنا عليه وأوضحناه وهو بين من العيان ومما استدللنا به من وجوب التأديب ونفعه وتأثيره فى الاحداث والصبيان ومن الشرائع الصادقة التى هى سياسة الله لخلقه . وأما تصحيح المقدمة الثانية وهى أنه لا شئ مما يمكن تغيره هو بالطبع فهو ظاهر أيضا وذلك أنا لا نقدر على تغيير شئ مما هو بالطبع أبدا فان أحدا لا يستطيع أن يغير حركة النار التى الى فوق بأن يعودها الحركة الى أسفل ولا أن يعود الحجر حركة العلو يروم بذلك أن يغير حركته الطبيعة التى الى أسفل ولو رامه ما صح له تغيير شئ من هذا وما لا يجرى مجراه أعنى الامور التى هى بالطبع فقد صحت المقدمتان وصح التأليف من الشكل الاول وهو الضرب الثانى منه وصار برهانا فأما مراتب الناس فى قبول هذه الآداب التى سميناها خلقا والمسارعة الى تعلمها والحرص عليها فانها كثيرة وهى تشاهد وتعاين فيهم وخاصة فى الاطفال فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذى انتهى فى نشوه وكماله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والافعال المضادة لما فى طبعه وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الادب أو نفورهم عنه أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ومن الاحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الاخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم البطىء والممتنع والسهل السلس والفظ العسر والخير والشرير والمتوسطون بين هذه الاطراف فى مراتب لا تحصى كثرة واذا أهملت الطباع ولم ترض بالتأديب والتقويم نشأ كل انسان على سوم طباعه وبقى عمره كله على الحال التى كان

عليها فى الطفولية وتبع ما وافقه فى الطبع من الغضب أو اللذة أو الدعارة أو الشره أو غير ذلك من الطباع المذمومة والشريعة هى التى تقوّم الاحداث وتعوّدهم الافعال المرضية وتعدّ نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ الى السعادة الانسية بالفكر الصحيح والقياس المستقيم وعلى الوالدين أخذهم بها وبسائر الآداب الجميلة بضروب السياسات من الضرب اذا دعت اليه الحاجة أو التوبيخات ان صدتهم أو الاطماع فى الكرامات أو غيرها مما يميلون اليه من الراحات أو يحذرونه من العقوبات حتى اذا تعودوا ذلك واستمروا عليه مدة من الزمان كثيرة أمكن حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوه تقليدا وينبهوا على طرق الفضائل واكتسابها والبلوغ الى غاياتها بهذه الصناعة التى نحن بسبيلها والله الموافق (من تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

باب فضل العقل وذم الهوى

اعلم أن لكل فضيلة أسا ولكل أدب ينبوعا وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذى جعله الله تعالى للدين أصلا وللدنيا عمادا فأوجب الدين بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبدهم به قسمين قسما وجب بالعقل فأكده الشرع وقسما جاز فى العقل فأوجبه الشرع فكان العقل لهما عمادا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما اكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه الى هدى أو يرده عن ردى وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل عمل دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه وقال الحسن البصرى رحمه الله ما استودع الله أحدا عقلا الا استنقذه به يوما ما وقال بعض الحكماء العقل أفضل مرجو والجهل أنكى عدو وقال بعض الادباء صديق كل امرئ عقله وعدوه جهله وقال بعض البلغاء خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل وقال بعض الشعراء وهو ابراهيم بن حسان

يزين الفتى فى الناس صحة عقله * وان كان محظورا عليه مكاسبه
يشين الفتى فى الناس قلة عقله * وان كرمت أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل فى الناس انه * على العقل يجرى علمه وتجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقله * فليس من الاشياء شئ يقاربه
اذا أكمل الرحمن للمرء عقله * فقد كملت أخلاقه ومآربه

اعلم أن بالعقل تعرف حقائق الامور ويفصل بين الحسنات والسيئات وقد ينقسم قسمين غريزى ومكتسب فالغريزى هو العقل الحقيقى وله حد يتعلق التكليف به لا يجاوزه الى زيادة ولا يقصر

عنه الى نقصان وبه يمتاز الانسان عن سائر الحيوان فاذا تم فى الانسان سمى عاقلا وخرج به الى حد الكمال كما قال صالح بن عبد القدوس

اذا تم عقل المرء تمت اموره * وتمت أمانيه وتم بناؤه

وروى الضحاك فى قوله تعالى لينذر من كان حيا أى من كان عاقلا واختلف الناس فيه وفى صفته على مذاهب شتى فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات ومن قالوا بهذا القول اختلفوا فى محله فقالت طائفة منهم محله الدماغ لان الدماغ محل الحس وقالت طائفة أخرى منهم محله القلب لان القلب معدن الحياة ومادة الحواس وهذا القول فى العقل بانه جوهر لطيف فاسد من وجهين (أحدهما) ان الجواهر متماثلة فلا يصح ان يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها ولو أوجب سائرها ما يوجب بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله (الثانى) أن الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرا لجاز أن يكون عقل بغير عاقل كما جاز أن يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرا وقال آخرون العقل هو المدرك للاشياء على ماهى عليه من حقائق المعنى وهذا القول وان كان أقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو أن الادراك من صفات الحى والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون متلذذا أو متألما أو مشتهيا وقال آخرون من المتكلمين العقل هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الاجمال وتناوله من الاحتمال والحد ما هو بيان المحدود بما ينفى عنه الاجمال والاحتمال وقال آخرون وهو القول الصحيح ان العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان أحدهما ما وقع عن درك الحواس والثانى ما كان مبتدأ فى النفوس فاما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والاصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والاجسام المدركة باللمس فاذا كان الانسان ممن لو أدرك بحواسه هذه الاشياء ثبت له هذا النوع من العلم لان خروجه فى حال تغميض عينيه من أن يدرك بهما ويعلم لا يخرجه عن أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم وأما ما كان مبتدأ فى النفوس فكالعلم بان الشئ لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم وأن من المحال اجتماع الضدين وأن الواحد أقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفى عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله فاذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل وانما سمى عقلا بذلك تشبيها بعقل الناقة لان العقل يمنع الانسان من الاقدام على شهواته اذا قبحت كما يمنع العقل الناقة من الشرود اذا نفرت ولذلك قال عامر بن قيس اذا عقلك عقلك عما لا ينبغى فانت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول فى العقل وهو ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال

العقل نور فى القلب يفرق بين الحق والباطل وكل من نفى أن يكون العقل جوهرا أثبت محله فى القلب لان القلب محل العلوم كلها قال الله تعالى أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها فدلت هذه الآية على أمرين أحدهما أن العقل علم والثانى أن محله القلب وفى قوله تعالى يعقلون بها تأويلان أحدهما يعلمون بها والثانى يعتبرون بها فهذه جملة القول فى العقل الغريزى واما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزى وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة الفكرة وليس لهذا حد لانه ينمى ان استعمل و ينقص ان أهمل

واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزى لانه نتيجة منه وقد ينفك العقل الغريزى عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل كالانوك الذى لا يجد له فضيلة والاحمق الذى قل ما يخلو من رذيلة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق كالفخار لا يرقع ولا يشعب وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق أبغض خلق الله اليه اذ حرمه أعز الاشياء عليه وقال بعض الحكماء الحاجة الى العقل أقبح من الحاجة الى المال وقال بعض البلغاء دولة الجاهل عبرة العاقل وقال أنوشروان لبزرجمهر أى الاشياء خير للمرء قال عقل يعيش به قال فان لم يكن قال فاخوان يسترون عيبه قال فان لم يكن قال فمال يتحبب به الى الناس قال فان لم يكن قال فعى صامت قال فان لم يكن قال فموت جارف وقال سابور بن ازدشير العقل نوعان أحدهما مطبوع والآخر مسموع ولا يصلح واحد منهما الا بصاحبه فاخذ ذلك بعض الشعراء فقال

رأيت العقل نوعين * فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الادباء العاقل بما فيه من الفضائل والاحمق بما فيه من الرذائل فقال العاقل اذا والى بذل فى المودة نصره واذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله و يعتصم معاديه بعدله ان أحسن الى أحد ترك المطالبة بالشكر وان أساء اليه مسىء سبب له أسباب العذر أو منحه الصفح والعفو والاحمق ضال مضل ان أونس تكبر وان أوحش تكدر وان استنطق تخلف وان ترك تكلف مجالسته مهنة ومعاتبته محنة ومحاورته تعر وموالاته تضر ومقاربته عمى ومقارنته شقاء وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل والاحمق يسىء الى غيره ويظن أنه قد أحسن اليه فيطالبه بالشكر و يحسن اليه فيظن أنه قد أساء فيطالبه بالوتر فساوى الاحمق لا تنقضى وعيوبه لا تتناهى ولا يقف النظر منها الى غاية الا لوحت ما وراءها مما هو أدنى منها وأردى وأمر وأدهى فما أكثر العبر لمن نظر وأنفعها لمن اعتبر وقال الاحنف بن قيس من كل شىء يحفظ الاحمق الا من نفسه وقال بعض البلغاء ان الدنيا ربما أقبلت على الجاهل

بالاتفاق وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق فان أتتك منها سهمة مع جهل أو فاتتك منها بغية مع عقل فلا يحملنك ذلك على الرغبة فى الجهل والزهد فى العقل فدولة الجاهل من الممكنات ودولة العاقل من الواجبات وليس من أمكنه شئ من ذاته كمن استوجبه بآلاته وأدواته وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذى يحن الى النقلة ودولة العاقل كالنسيب الذى يحن الى الوصلة فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل ومنزلة رفيعة حلها بغير فضل فان الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه الى رتبته ويرده الى قيمته بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه هاجيا ووليه معاديا . واعلم أنه بحسب ما ينشر من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثلا فى الغابرين وحديثا فى الآخرين مع هتكه فى عصره وقبح ذكره فى دهره كالذى رواه عطاء عن جابر قال كان فى بنى اسرائيل رجل له حمار فقال يارب لو كان لك حمار لعلفته مع حمارى فهم به نبى من أنبياء الله فأوحى الله اليه انما أثيب كل انسان على قدر عقله . واستعمل معاوية رجلا من كلب فذكر المجوس يوما عنده فقال لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم مانكحت أمى فبلغ ذلك معاوية فقال قبحه الله أترونه لو زادوه فعل وعزله . وولى الربيع العامرى وكان من النوكى فأقاد كلبا بكلب فقال فيه الشاعر

شهدت بأن الله حقا لقاؤه * وأن الربيع العامرى رقيع
أقاد لنا كلبا بكلب ولم يدع * دماء كلاب المسلمين تضيع

وليس لمعار الجهل غاية ولا لمضار الحمق نهاية قال الشاعر

لكل داء دواء يستطب به * الا الحماقة أعيت من يداويها

(فصل) وأما الهوى فهو عن الخير صاد وللعقل مضاد لانه ينتج من الاخلاق قبائحها ويظهر من الافعال فضائحها ويجعل ستر المروءة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما الهوى إله يعبد من دون الله ثم تلا أفرأيت من اتخذ إلهه هواه . وقال عكرمة فى قوله تعالى ولكنكم فتنتم أنفسكم يعنى بالشهوات وتربصتم يعنى بالتوبة وارتبتم يعنى فى أمر الله وغرتكم الامانى يعنى بالتسويف حتى جاء أمر الله يعنى الموت وغركم بالله الغرور يعنى الشيطان وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مرى وان الباطل خفيف وبى وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الامل فان اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الامل ينسى الآخرة

وقال الشعبي انما سمي الهوى هوى لانه يهوي بصاحبه . وقال اعرابي الهوى هوان ولكنه غلط باسمه فأخذه الشاعر وقال

ان الهوان هو الهوى قلب اسمه * فاذا هويت فقد لقيت هوانا

وقيل في منثور الحكم من أطاع هواه أعطى عدوه مناه . وقال بعض الحكماء العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع . وقال بعض البلغاء أفضل الناس من عصى هواه وأفضل منه من رفض دنياه وقال هشام بن عبد الملك بن مروان

اذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى * الى كل ما فيه عليك وبال

قال ابن المعتز رحمه الله لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت . وقال الشاعر

اذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى * فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الاعداء جهلا بنفسه * وقد وجدت فيه مقالا عواذله
وما يردع النفس اللجوج عن الهوى * من الناس الا حازم الرأى كامله

فلما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه رقيبا مجاهدا يلاحظ عثرة غفلته ويدفع بادرة سطوته ويدفع خداع حيلته لان سلطان الهوى قوى ومدخل مكره خفى ومن هذين الوجهين أعنى قوة سلطانه وخفاء مكره يؤتى العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليه فاما الوجه الاول فهو أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى تتوالى عليه جيوش الشهوات فيكل العقل عن دفعها ويضعف عن منعها مع وضوح قبحها فى العقل المتهور بها وهذا يكون فى الاحداث أكثر وعلى الشباب أغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعى الهوى المتسلط عليهم وانهم ربما جعلوا الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن بشير

كل يرى أن الشباب له * فى كل مبلغ لذة عذر

ولذلك قال بعض الحكماء الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم . وقال بعض الادباء الهوى عسوف والعدل مألوف وقال بعض الشعراء

ياعاقلا أردى الهوى عقله * مالك قد سدت عليك الامور
أتجعل العقل أسير الهوى * وانما العقل عليه أمير

وحسم ذلك أن يستعين بالعقل على النفس النفورة فيشعرها ما فى عواقب الهوى من شدة الضرر وقبح الاثر وكثرة الاجرام وتراكم الآثام . فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات أخبر أن الطريق الى الجنة احتمال المكاره والطريق الى النار اتباع الشهوات . قال على بن أبي طالب رضى الله عنه اياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم فان عاجلها ذميم وآجلها وخيم فان لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب فسوّفها بالتأميل والارغاب فان

الرغبة والرهبة اذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت . وقد قال ابن السماك كن لهواك مسوفا ولعقلك مسعفا وانظر الى ماتسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته فان ترك النفس وماتهوى داؤها وترك ماتهوى دواؤها فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء . وقال الشاعر

صبرت على الايام حتى تولت * وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الاحيث يجعلها الفتى * فان طمعت تاقت والا تسلت

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى أن يصير بالعقل مدحورا وبالنفس مقهورا ثم له الحظ الاوفى فى ثواب الخالق وثناء المخلوقين . قال الله تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى . وقال الحسن البصرى أفضل الجهاد جهاد الهوى . وقال بعض الحكماء أعز العز الامتناع من ملك الهوى . وقال بعض البلغاء خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه فى طاعة ربه . وقال بعض الادباء من أمات شهوته فقد أحيا مروءته . وقال بعض العلماء ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم . وقيل لبعض الحكماء من أشجع الناس وأحراهم بالظفر فى مجاهدته فقال من جاهد الهوى طاعة لربه واحترس فى مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه . وقال بعض الشعراء

قد يدرك الحازم ذو الرأى المنى * بطاعة الحزم وعصيان الهوى

وأما الوجه الثانى فهو ان يخفى الهوى مكره حتى تتموه أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعو اليه أحد شيئين اما أن يكون للنفس ميل الى ذلك الشىء فيخفى عنها القبيح لحسن ظنها وتتصوره حسنا لشدة ميلها ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم حبك الشىء يعمى ويصم أى يعمى عن الرشد ويصم عن الموعظة وقال على رضى الله عنه الهوى عمى قال الشاعر

* حسن فى كل عين من تود *

وقال عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه

ولست براء عيب ذى الود كله * ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا
فعين الرضى عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدى المساويا

وأما السبب الثانى فهو اشتغال الفكر فى تمييز ما اشتبه فيطلب الراحة فى اتباع ما استسهل حتى يظن أن ذلك أوفق أمريه وأحمد حاليه اغترارا بان الاسهل محمود والاعسر مذموم فلن يعدم أن يتورط بخدع الهوى وزينة المكر فى كل مخوف حذر ومكروه عسر ولذلك قال عامر بن الظرب الهوى

يقظان والعقل راقد فمن ثم غلب . وقال سليمان بن وهب الهوى أمتع والرأى أنفع . وقيل في المثل العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح . وقال الشاعر

اذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت * ولم ينهها تاقت الى كل باطل

وساقت اليه الاثم والعار بالذى * دعته اليه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الاول أن يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فان العين رائد الشهوة والشهوة من دواعى الهوى والقلب رائد الحق والحق من دواعى العقل. وقال بعض الحكماء نظر الجاهل بعينه وناظره ونظر العاقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه فى صواب ما أحبت وتحسين ما اشتهت ليصح له الصواب ويتبين له الحق فان الحق أثقل محملا وأصعب مركبا فان أشكل عليه أمران اجتنب أحبهما اليه وترك أسهلهما عليه فان النفس عن الحق أنفر وللهوى آثر . وقد قال العباس بن عبد المطلب اذا اشتبه عليك أمران فدع أحبهما اليك وخذ أثقلهما عليك وعلة هذا القول هو أن الثقيل يبطئ النفس عن التسرع اليه فيتضح مع الابطاء وتطاول الزمان صواب ما استعجم وظهور ما استبهم وقد قال على بن أبى طالب من تفكر أبصر والمحبوب أسهل شئ تسرع النفس اليه وتعجل بالاقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه ويفوت استدراكه لتقصير فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل ولا الاستبانة بعد الفوت . وقال بعض الحكماء ما كان عنك معرضا فلا تكن له متعرضا . وقال الشاعر

أليس طلاب ما قد فات جهلا * وذكر المرء ما لا يستطيع

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال الهوى مطية الفتنة والدنيا دار المحنة فانزل عن الهوى تسلم وأعرض عن الدنيا تغنم ولا يغرنك هواك بطيب الملاهى ولا تفتننك دنياك بحسن العوارى فمدة اللهو تنقطع وعارية الدهر ترتجع ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم وتكتسبه من المآثم . وقال على بن عبد الله الجعفرى سمعتنى امرأة بالطواف وأنا أنشد

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى * فكيف لى بهوى اللذات والدين

فقالت هما ضرتان فذر أيهما شئت وخذ الاخرى فأما فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما فى العلة والمعلول واتفاقهما فى الدلالة والمدلول فهو أن الهوى مختص بالآراء والاعتقادات والشهوة مختصة بنيل اللذة فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهى أخص والهوى أصل هو أعم ونحن نسأل الله تعالى أن يكفينا دواعى الهوى ويصرف عنا سبل الردى ويجعل التوفيق لنا قائدا والعقل لنا مرشدا . فقد روى أن الله تعالى أوحى الى عيسى عليه السلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحى منى وقال محمد بن كناسة

ما من روى أدبا فلم يعمل به * ويكف عن زيغ الهوى بأديب
حتى يكون بما تعلم عاملا * من صالح فيكون غير معيب
ولقلما تغني اصابة قائل * أفعاله أفعال غير مصيب

وقال آخر

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى * كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم
فهناك تعذر ان وعظت ويقتدى * بالقول منك ويقبل التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

(من أدب الدنيا والدين)

(علم الادب)

هذا العلم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه أو نفيها وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الاجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه لانه لا تحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه ثم انهم اذا أرادوا حد هذا الفن قالوا الادب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والاخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث اذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لابي علي القالي البغدادي وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة وكان الغناء في الصدر الاول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر اذ الغناء انما هو تلحينه وكان الكتاب والفضلاء من الخواص

في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة وقد ألف القاضي أبو الفرج الاصبهاني وهو ما هو كتابه في الاغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ولعمري انه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو اليها الاديب ويقف عندها والله الهادي الى الصواب (من مقدمة ابن خلدون)

﴿فصل في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد﴾

اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الامصار تحصيلا وتعليما هي على صنفين صنف طبيعي للانسان يهتدي اليه بفكره وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه والاول هي العلوم الحكمية الفلسفية وهي التي يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية الى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يوقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو انسان ذو فكر والثاني هي العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل الا في الحاق الفروع من مسائلها بالاصول لان الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسي الا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الاصل وهو نقلي فرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيؤها للافادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لان المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالاجماع أو بالالحاق فلابد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أولا وهذا هو علم التفسير ثم باسناد نقله وروايته الى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا هو علم القراآت ثم باسناد السنة الى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق باخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث ثم لابد في استنباط هذه الاحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه ثم ان التكاليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالايمان وما يجب أن

يعتقد مما لا يعتقد وهذه هي العقائد الايمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالادلة العقلية هو علم الكلام ثم النظر في القرآن والحديث لابد أن تتقدمه العلوم اللسانية لانه متوقف عليها وهي أصناف فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الادب وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الاسلامية وأهلها وان كانت كل ملة على الجملة لابد فيها من مثل ذلك فهي مشاركة في الجنس البعيد من حيث انها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها وأما على الخصوص فباينة لجميع الملل لانها ناسخة له وكل ما قبلها من علوم الملل مهجورة والنظر فيها محظور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قال صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حيا ما وسعه الا اتباعي ثم ان هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين الى الغاية التي لا فوقها وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق وكان لكل فن رجال يرجع اليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم وما أدرى ما فعل الله بالمشرق والظن به نفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية لكثرة عمرانه والحضارة ووجود الاعانة لطالب العلم بالجراية من الاوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد وبيده التوفيق والاعانة (من مقدمة ابن خلدون)

(العلوم العقلية وأصنافها)

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للانسان من حيث انه ذو فكر فهي غير مختصة بملة بل يوجد النظر فيها لاهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الانساني منذ كان عمران الخليقة وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على أربعة علوم الاول علم المنطق وهو علم يعصم الذهن عن الخطا في اقتناص المطالب المجهولة من الامور الحاصلة المعلومة وفائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره ثم النظر بعد ذلك عندهم اما في المحسوسات من الاجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والاجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو الثاني منها وإما

أن يكون النظر فى الامور التى وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الالهى وهو الثالث منها والعلم الرابع ينظر فى المقادير وهو يشتمل على أربعة علوم وتسمى التعاليم أولها علم الهندسة وهو ينظر فى المقادير على الاطلاق إما المنفصلة من حيث كونها معدودة أو المتصلة وهى إما ذات بعد واحد وهو الخط أو ذات بعدين وهو السطح أو ذات ابعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمى ينظر فى هذه المقادير وما يعرض لها اما من حيث ذاتها أو من حيث نسبة بعضها الى بعض وثانيها علم الارتماطيقى وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذى هو العدد ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة وثالثها علم الموسيقى وهو معرفة نسب الاصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء ورابعها علم الهيئة وهو تعيين الاشكال للافلاك وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ومن رجوعها واستقامتها واقبالها وإدبارها فهذه أصول العلوم الفلسفية وهى سبعة المنطق وهو المقدم منها وبعده التعاليم فالارتماطيقى أولا ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الالهيات ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه فمن فروع الطبيعيات الطب ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ومن فروع الهيئة الازياج وهى قوانين لحسابات حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك ومن فروع النظر فى النجوم علم الاحكام النجومية واعلم أن أكثر من عنى بها فى الاجيال السابقة الذين عرفنا أخبارهم الامتان العظيمتان فى الدولة قبل الاسلام وهما فارس والروم فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم لما كان العمران موفورا فيهم والدولة والسلطان قبل الاسلام لهم فكان لهذه العلوم بحور زاخرة فى آفاقهم وأمصارهم وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطلاسم وأخذ ذلك عنهم كل من فارس ويونان فاختص بها القبط وطمى بحرها فيهم كما وقع فى المتلو من خبر هاروت وماروت وشأن السحرة وما نقله أهل العلم من شأن البرابى بصعيد مصر ثم تتابعت الشرائع بحظر ذلك وتحريمه فدرست علومه وبطلت كأن لم تكن الا بقايا يتناقلها منتحلو هذه الصنائع والله أعلم بصحتها مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها مانعة من اختبارها وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسعا لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك ولقد يقال ان هذه العلوم انما وصلت الى يونان منهم حين قتل الاسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية فاستولى من كتبهم وعلومهم على مالا يأخذه الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتبا كثيرة كتب سعد بن أبى وقاص الى عمر بن الخطاب يستأذنه فى شأنها وتنفيلها للمسلمين فكتب اليه عمر أن اطرحوها فى الماء فان يكن

مافيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وان يكن ضلالا فقد كفانا الله فطرحوها فى الماء أو فى النار وذهبت علوم الفرس فيها فلم تصل الينا وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولا وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم واختص فيها المشاؤون منهم أصحاب الرواق بطريقة حسنة فى التعليم كانوا يقرؤن فى رواق يظلهم من الشمس والبرد على مازعموا واتصل فيها سند تعليمهم على مايزعمون من لدن لقمان الحكيم الى تلميذه بقراط الدن ثم الى تلميذه افلاطون ثم الى تلميذه ارسطو ثم الى تلميذه الاسكندر الافرودسى وتامسطيون وغيرهم وكان ارسطو معلما للاسكندر ملكهم الذى غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم وكان أرسخهم فى هذه العلوم قدما وأبعدهم فيها صيتا وكان يسمى المعلم الاول فطار له فى العالم ذكر ولما انقرض أمر اليونان وصار الامر للقياصرة وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها وبقيت فى صحفها ودواوينها مخلدة باقية فى خزائنهم ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالاسلام وكان لاهله الظهور الذى لا كفاء له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للامم وابتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى اذا استفحل أمر السلطان والدولة وأخذوا من الحضارة بالحظ الذى لم يكن لغيرهم من الامم وتفننوا فى الصنائع والعلوم تشوقوا الى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية بما سمعوا من الاساقفة والقسس المعاهدين بعض مذاكرتها وبما تسمو اليه أفكار الانسان فيها فبعث أبو جعفر المنصور الى ملك الروم أن يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث اليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واطلعوا على مافيها وازدادوا حرصا على الظفر بما بقى منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له فى العلم رغبة بما كان ينتحله فانبعثت همته لهذه العلوم حرصا وأوفد الرسل على ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربى وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب وعكف عليها النظار من أهل الاسلام وحذقوا فى فنونها وانتهت الى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيرا من آراء المعلم الاول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ودونوا فى ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم فى هذه العلوم وكان من أكابرهم فى الملة الاسلامية أبو نصر الفارابى وأبو على بن سينا بالمشرق والقاضى أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالاندلس الى آخرين بلغوا الغاية فى هذه العلوم واختص هؤلاء بالشهرة والذكر واقتصر كثير على انتحال التعاليم وما ينضاف اليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات ووقفت الشهرة فى هذا المنتحل على مسلمة بن أحمد المجريطى من أهل الاندلس وتلميذه ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا اليها وقلدوا آراءها والذنب فى ذلك على من ارتكبه ولو شاء الله مافعلوه

ثم ان المغرب والاندلس لما ركدت ريح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منهما الا قليلا من رسومه تجدها فى تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصا فى عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر وأنهم على ثبج من العلوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازانى منها فى علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة فى هذه العلوم وفى أثنائها ما يدل على أن له اطلاعا على العلوم الحكمية وقدما عالية فى سائر الفنون العقلية والله يؤيد بنصره من يشاء كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الافرنجة من أرض رومة وما اليها من العدوة الشمالية نافقة الاسواق وأن رسومها هنالك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة متوفرة وطلبتها متكثرة والله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار

(من مقدمة ابن خلدون)

﴿فى طبيعة العمران فى الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب﴾

اعلم انه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال فى قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه واذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة قبلت ما يوافقه من الاخبار لاول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع فى قبول الكذب ونقله (ومن الاسباب) المقتضية للكذب فى الاخبار أيضا الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح (ومنها) الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما فى ظنه وتخمينه فيقع فى الكذب (ومنها) توهم الصدق وهو كثير وانما يجىء فى الاكثر من جهة الثقة بالناقلين (ومنها) الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لاجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها وهى بالتصنع على غير الحق فى نفسه (ومنها) تقرب الناس فى الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بها

على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه أو ثروة وليسوا فى الاكثر راغبين فى الفضائل ولا متنافسين فى أهلها (ومن الاسباب) المقتضية له أيضا وهى سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الاحوال فى العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه فى ذاته وفيما يعرض له من أحواله فاذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والاحوال فى الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب وهذا أبلغ فى التمحيص من كل وجه يعرض وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم كما نقله المسعودى عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ تابوت الخشب وفى باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه الى قاع البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية التى رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها وتم له بناؤها فى حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبل اتخاذه التابوت الزجاجى ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه ومن قبل أن الملوك لا تحمل أنفسها على مثل هذا الغرر ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس الى غيره وفى ذلك اتلافه ولا ينتظرون به رجوعه من غروره ذلك طرفة عين ومن قبل أن الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها انما هى قادرة على التشكل وما يذكر من كثرة الرؤس لها فانما المراد به البشاعة والتهويل لا أنه حقيقة وهذه كلها قادحة فى تلك الحكاية والقادح المحيل لها من طريق الوجود أبين من هذا كله وهو أن المنغمس فى الماء ولو كان فى الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعى وتسخن روحه بسرعة تقلبه فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبى ويهلك مكانه وهذا هو السبب فى هلاك أهل الحمامات اذا أطبقت عليهم عن الهواء البارد والمتدلين فى الآبار والمطامير العميقة المهوى اذا سخن هواؤها بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها فان المتدلى فيها يهلك لحينه وبهذا السبب يكون موت الحوت اذا فارق البحر فان الهواء لا يكفيه فى تعديل رئته اذ هو حار بافراط والماء الذى يعدله بارد والهواء الذى خرج اليه حار فيستولى الحار على روحه الحيوانى ويهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين وامثال ذلك ومن الاخبار المستحيلة ما نقله المسعودى أيضا فى تمثال الزرزور الذى برومة تجتمع اليه الزرازير فى يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم وانظر ما أبعد ذلك عن المجرى الطبيعى فى اتخاذ الزيت ومنها ما نقله البكرى فى بناء المدينة المسماة ذات الابواب تحيط باكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب والمدن انما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتى وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودى أيضا فى حديث

مدينة النحاس وانها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير فى غزوته الى المغرب وانها مغلقة الابواب وان الصاعد اليها من أسوارها اذا أشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر فى حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والادلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ثم ان هذه الاحوال التى ذكروا عنها كلها مستحيلة عادة منافية للامور الطبيعية فى بناء المدن واختطاطها وان المعادن غاية الموجود منها ان يصرف فى الآنية والخرثى وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد وامثال ذلك كثير وتمحيصه انما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها فى تمحيص الاخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم ان ذلك الخبر فى نفسه ممكن أو ممتنع وأما اذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر فى التعديل والتجريح ولقد عد أهل النظر من المطاعن فى الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل وانما كان التعديل والتجريح هو المعتبر فى صحة الاخبار الشرعية لان معظمها تكاليف انشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط وأما الاخبار عن الواقعات فلا بد فى صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب ان ينظر فى امكان وقوعها وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة واذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الاخبار بالامكان والاستحالة أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له واذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا فى تمييز الحق من الباطل فى الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهانى لا مدخل للشك فيه وحينئذ فاذا سمعنا عن شئ من الاحوال الواقعة فى العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه

واعلم ان الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة عزيز الفائدة أعثر عليه البحث وادى اليه الغوص وليس من علم الخطابة الذى هو أحد العلوم المنطقية فان موضوع الخطابة انما هو الاقوال المقنعة النافعة فى استمالة الجمهور الى رأى أو صدهم عنه ولا هو أيضا من علم السياسة المدنية اذ السياسة المدنية هى تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه وكأنه علم مستنبط النشأة ولعمرى لم أقف على الكلام فى منحاه لاحد من الخليقة ما أدرى لغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم أو لعلهم كتبوا فى هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا

فالعلوم كثيرة والحكماء فى أمم النوع الانسانى متعددون وما لم يصل الينا من العلوم أكثر مما وصل فأين علوم الفرس التى أمر عمر رضى الله عنه بمحوها عند الفتح وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها وأين علوم القبط ومن قبلهم وانما وصل الينا علوم أمة واحدة وهم يونان خاصة لكلف المأمون باخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الاموال فيها ولم نقف على شىء من علوم غيرهم واذا كانت كل حقيقة متعلقة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه لكن الحكماء لعلهم انما لاحظوا فى ذلك العناية بالثمرات وهذا انما ثمرته فى الاخبار فقط كما رأيت وان كانت مسائله فى ذاتها وفى اختصاصها شريفة لكن ثمرته تصحيح الاخبار وهى ضعيفة فلهذا هجروه والله أعلم وما أوتيتم من العلم الا قليلا

(من مقدمة ابن خلدون)

(فى العمران البشرى على الجملة)

ان الاجتماع الانسانى ضرورى ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الانسان مدنى بالطبع أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم وهو معنى العمران وبيانه ان الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله الا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى هب أنه يأكله حبا من غير علاج فهو أيضا يحتاج فى تحصيله حبا الى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الاولى بكثير ويستحيل أن توفى بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلابد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا فى الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بأبناء جنسه لان الله سبحانه لما ركب الطباع فى الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الانسان فقدرة الفرس مثلا أعظم بكثير من قدرة الانسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل أضعاف من قدرته ولما كان العدوان طبيعيا فى الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعة ما يصل اليه من عادية غيره وجعل

للانسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة والتراس النائبة عن البشرات الجاسية الى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الاعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفي قدرته أيضا باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه ومالم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته ولا يحصل له أيضا دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر واذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فاذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني والا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه اياهم وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع اثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم فليس أيضا من الممنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بفضله ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست الاسلحة التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لانها موجودة لجميعهم فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد الى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للانسان طبيعية ولا بد لهم منها وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرى فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من اشخاصها متميز عنها في خلقه وجثمانه الا ان ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (من مقدمة ابن خلدون)

(في تأثير الهواء في أخلاق البشر)

قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة

أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور مالا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات اذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشيء عن السرور ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم واقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس الى أرواح أهل الاقليم الرابع أشد حرا فتكون أكثر تفشيا فتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطا ويجيء الطيش على اثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة وقد نجد يسيرا من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الاقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لانها عريقة في الجنوب عن الارياف والتلول واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى انهم لايدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مأكلهم من أسواقهم ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين اطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى ان الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الاسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيأ من مدخره وتتبع ذلك في الاقاليم والبلدان تجد في الاخلاق أثرا من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

(من مقدمة ابن خلدون)

باب في المقامات

(المقامات النيلية في الرخاء والغلاء)

(وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد)

لما كانت سنة سبع وتسعين وثمانمائة أوفى النيل في منتصف مسرى وسارت به في البلاد رسائل البشرى وأرسلت منه نعم الله على العباد تترى ورأوا فيه من اياته الكبرى وجدوه وان كانوا

عاجزين عن القيام بحقه شكرا ومازال بحره البسيط المديد يروى عن ثابت ويزيد الى أن زاد من الذراع الثامن عشر سبعة عشر أصبعا وذلك الى الثانى والعشرين من مسرى الموافق ليوم الاربعاء والناس من شأنه فى أمان ومن رخاء السعر فى اطمئنان قد انحلت عرى الاسعار وتناشدت فى ذلك من الادباء الاشعار وذهب العار والشنار وصار القمح كل ثلاثة أوادب بدينار فوقف مد النيل عن الامتداد وبدى فيه النقص بعد الازدياد فانتظر الناس أوبته وترقبوا منه أن يوفى من الزيادة نوبته فاستمر على الوقوف وانكشف لنقصه السواحل والجروف وانكسف بدره الطالع عارقم موجه على الارض من الحروف وتمثل أرباب الاراضى والمزارع وأصحاب المراعى والمراتع والمرابع

وأصبحت من ليلى الغداة كقابض * على الماء خانته فروج الاصابع

لا تفتح ترعة لجرى الماء منها الاوقف ولا يحسر بحجر اسقى الاكف وما وكف بكف وسكت المنادى بزيادته ألفا ونطق خلفا وصارت الروضة النضرة بعد تلك الخضرة موردة الحافا وصب البأس على أهل المقياس وصارت دار النحاس أنحس دار وجرت الاقدار على أهل مصر بالاكدار وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى ويا زيادة النيل من حيث جئت فارجعى وغيض الماء وانقشعت السماء وقضى الامر واستوت القلوب على أحر من الجمر فحينئذ ماج الناس موجا وارتقى سعر القمح من الحبوب أوجا

وازدحمت حلقتا البطان باقوا * م وطارت نفوسهم جزعا

وأصبحوا فى أمرهم حيارى وانهمك على شراء القمح المسلمون واليهود والنصارى وترى الناس سكارى وما هم بسكارى كأنما قامت عليهم القيامة أوسقطت عليهم الغمامة وكل من ورد البحر وصدر يقول فى الشوارع يا ألله السلامه وعاد بعض الناس على بعض بالملامة وعض المتأخر عن شراء القوت على يديه من الندامه وأنشد لسان الحال فى المقامه

وربما فات قوما جل أمرهم * من التأنى وكان الحزم لو عجلوا

وتذكر الناس ما يحكى عن الامامين وذلك أن مالكا أوصى الشافعى اذا سكن مصر بادخار قوت عامين ونسوا ما تقدم فى هذا العام من هول الطاعون وذهلوا عما داروا لهم الواعون وذلك لما عندهم من حرارة الغلاء المتقدم من أمم وما قاسوه فيه من الشدائد وما بالعهد من قدم فخشوا عود مثل ذلك وهابوا حلول تلك المهالك وكاد أن يجف الخليج وصار الناس فى أمر مريج وقالوا قد شرقت البلاد وغربت العباد وشرقت الصدور حين شرقت وأظلمت الابصار والبصائر وما أشرقت وتوهج فى قلوب الناس الحريق وكبروا ولا ينكر التكبير أيام التشريق وألقى فى نفوسهم الرعب والرغب وأشربوا فى قلوبهم من الحب الحب وخلا البر من البر وصار أعز فى الوجود من الدر

ووزنه الوزان وخزنه الخزان وتوقدت الاحزان وقالوا هذه أيام التشريق لكن بغير عيد وهذا السعر هو الطالع لكنه غير سعيد وجاعت الانفس بعد أن كانت شبعى وأصبح كل فى شراء القوت كانه حية تسعى وبذلوا فيه الذهب والمرجان وتدكدك عليهم من الزحمة أمم كأنهم جان وباع من لم يجد نقده لشرائه أعز ما عنده . وقال المقرى ماهذا التعسير بعد التيسير ومالنا عدنا نروى عن قل بن قل بعد ما كنا نروى عن ابن كثير ماهذا الأمر مهم وخطب ملم ولاعاصم اليوم من أمر الله الامن رحم . وقال المحدث هذا خبر معضل عوقب به من ضل أجزعتم مما سيق اليكم انما هى أعمالكم ترد عليكم . وقال الفقيه قد شرقت كل نجوه وضاقت كل فجوه وهذا زمان تأسيس مدّع لاقاعدة مدّعوه . وقال الفرضى قد تكدرت المهاياه وتنكرت المعاياه ووقع العول ونقص الطول وكثر القول وقل النول وعظم الهول فلاحول . وقال الاصولى قد ضاق النطاق وجاء تكليف ما لايطاق . وقال الجدلى هذا البيع فى الصورة مصابرة وفى المعنى مصادره . وقال الصوفى لو اتقيتم الله لازاح عنكم الضير ولو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير . وأصبح النحوى يلتقط الحب كأنه ابن عصفور ويقول السعر ممدود والمال مقصور وأنا وكتبى للبيع جار ومجرور قد كسر ناب الانافه ورفع باب الاضافه لقد لقينا أمرا إمرا وضرب زيد عمرا . وقال التصريفى قد ساءت الاحوال واختلت ونقصت الافعال واعتلت وزاد الغم وفك المدغم ووقعنا فى تعسير وصار جمعنا جمع تكسير . وقال اللغوى رب عجلة تهب ريثا ورب غيث لم يكن غيثا ولايدرى من بسط له حال من عليه قدر ويحسب المطور أن كلا مطر . وقال المعنوى ترى هل نرى للارض من حقل ويقول المؤمن أنبت الربيع البقل وعمد من خيام الملق الاطناب ويوفى الكيل من الزرع بالمساواة والاطناب . وقال البيانى ترى هل تظفر الجسور بالاحراز ويكون للماء الى حقيقة المزارع مجاز . وقال البديعى هذه براعة استهلال تؤذن بالاقلال وتشعر بوضع الاغلال على مخازن الغلال . وقال العروضى هذه الفاصلة الكبرى والدائرة التى دارت على الانام تترى . وقال الشاعر العربى

عسى الكرب الذى أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب

وقال الشاعر المولد

نيروز مصر بلا اكتفاء * يعد صيفا بغير ماء

وقال الكاتب قد رقت الحواشى وضعفت المواشى والامر محقق متلاشى وماتنفع الطوامير ان لم يكن معها مطامير . وقال الطبيب هذه أيام بحران يخشى منها الهلاك ان لم يلتق البحران وان لم تنضج مادة الزيادة لم يحصل الشفا ومالم يبلغ الماء القانون المعتاد فالناس على شفا .

وقال المنطقى هذه قضايا مختلطات ورزايا غير منضبطات ماهذه الا بلية قد أصبح البرهن البر سالبة كلية . وقال الموسيقى قد خف الجواز وجزبين الماء والصعيد حجاز . وقال الميقاتى قد جفت المقنطرات وانشفت المقطرات وندمنا فى الجيب والمرجوما فى الغيب وصرنا كالمثل السائر شهرة فى العالم ومثله وان دار هذا الغلاء الدائر لم تبق معه فضله . وقال المؤذن ياقوم ماهذا التبريح ونحن طائفة نعيش بالتسبيح ودام التوقف سبعة عشر يوما تماما ونقص فيها سبعة عشر أصبعا فبينما الناس فى الياس مترقبين حلول البأساء والباس لم يفجأهم الا أهلة النعمة وقد أهلت وسحب الرحمة وقد انهلت ومن بزيادة البحر البر الرحيم ونادى المنادى زاد النيل المبارك ثلاثة أصابع من عند الكريم فانشرحت الصدور وأيقنت بالحبور والحبور وتبدلت الشرور بالسرور وتباشر الخلق بالرخاء وسمحت الانفس بالسخاء وفاح عرف الزيادة بالارج وقال لسان الحال لامير المقياس حدث عن البحر ولاحرج . وقال المقرى قد بلغنا الامنية من النيل وهو حرز الامانى وهنئنا بتوجهه للزيادة وذلك وجه التهانى وصرنا نروى حديث البحر والبلاد والمزارع عن ابن كثير وابن عامر ونافع وظهر مصداق ما نتلوه ذكرا فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا . وقال المحدث اشكروا الله على بلائكم وانما تنصرون وترزقون بضعفائكم قد زال الرين وصح ماروى لن يغلب عسر يسرين فقيدوا هذه النعمة بسلسلة لطاعة وصلوا المن بتقوى الله تأمنوا انقطاعه . وقال الفقيه قد جاوز الماء القلتين وتلاطمت أمواج البحرين وتيمم الماء الصعيد الطيب وصاب على الشرق والغرب منه صيب . وقال الفرضى قد صلح الرد وصح العد وقاسم الجد وصارت الانصباء مستغرقه وقسم الماء على الفروض طبقه . وقال الاصولى هذا العام المراد به الخصوص وهذا الظاهر القاضى على النصوص وقال الجدلى الآن انفرج المناط وأغنى هذا الوارد عن الاستنباط . وقال الصوفى من انقطع الى الله آواه ومن توكل عليه كان حسبه وكفاه . وضم النحوى اليه كتبه وقال استوى الماء والخشبه قد زال الغم والهم وصار البر الكر قفيز بدرهم وسئل أشعيرا تريد أم برا فقال كلاهما وتمرا . وقال التصريفى قد زال الرك وطاح الشك وقوى الفك وزاد المد وخف الشد وحسن الرد . وقال اللغوى هذا المقبل المبقل واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل قد بان البيان والتقى الثريان ورويت الربى وبلغ الماء الزبى وكن الغيث على العرفجه وأيقنا بكل ألوان بهجة ودعه يعيث ولاتبل فالغيث يصلح ما خبل . وقال المعنوى ما أحسن هذا الاسناد المقصور علينا قصر افراد . وقال البيانى ما أحسن هذا الامداد المؤذن بكثرة الرماد فليثن به المثنى وفى التلويح مايغنى . وقال البديعى قد زال الابهام والايهام وحسن التوشيح والاستخدام فالحمد لله على حسن الختام . وقال العروضى قد زحف المديد الوافر

وجرت السفن حيث يقرع الحافر وقصر الطويل وسكن العويل والزويل وحصل اللطف المتدارك جل الله وتبارك . وقال الشاعر العربى

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما * يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

وقال الشاعر المولد

زادت أصابع نيلنا * وطمت فأكمدت الاعادى
وأتت بكل مسرة * ماذى أصابع ذى أيادى

وقال الكاتب قد شربت البقاع وسيرت الرقاع وأيقن بالرى كل قاع ونسخ غلاء القمح والشعير وانحط السعر نحو الثلث والثلث كثير . وقال الطبيب قد صلح النبض وحصل البسط بعد القبض . وقال المنطقى قد وضح الحد وصح الرسم والحد . وقال الموسيقى قد صرنا فى عراق وصفى الوقت وراق . وقال الميقاتى قد خلا ربع المصيطرات وامتلأ ربع المقنطرات . وقال المؤذن سبحان فالق الاصباح وما حق ذلك الديجور بهذا الصباح ونادى فى الناس حى على الفلاح وأعلن بالصلاة على النبى والسلام واقتفى نداه كل خطيب وامام وابتهل سائر الخلق بالدعاء ودعوا ربهم تضرعا وقالوا اللهم قنا العيث واسقنا الغيث وأنبت لنا الزرع وأدر لنا الضرع وأنزل لنا من بركات السماء وأخرج لنا من بركات الارض وابسط لنا من خزائن رحمتك ما يزول به القبض وتلا لسان الحال على المؤمنين ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين

(مقامة الروضة روضة مصر)

قال الله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين نطق الكتاب والسنة بان أرض مصر أحسن البقاع وتظافرت على ذلك آثار الصحابة والاتباع وانعقد عليه الاجماع وشهد الحسن بان الروضة منها كمركز الدائرة فهى لها كالقطب والاساس وقام النظر على أنها أنزه بقعة فيها فانتج أنها أحسن بقاع الارض بما صح فيها من القياس

شوقتنا الى الجنان فزدنا * فى اجتناب الذنوب والآثام

روضة ذات محاسن فيها أنهار من ماء غير آسن وأشجار تنبت أفانين الاحاسن وأزهار ما بين مفتوح العين ووسن وأطيار ترنم بلغات يعجب منها كل فصيح ولسن

فى روضة نصبت أغصانها وغدا * ذيل الصبا بين مرفوع ومجرور
قد جمعت جمع تصحيح جوانبها * والماء يجمع فيها جمع تكسير
والريح قد أطلقت فيه العنان به * والغصن ما بين تقديم وتأخير

والريح تجري رخاء فوق بحرتها * وماؤها مطلق في زي مأسور
والريح ترقم في أمواجه شبكا * والغيم يرسم أنواع التصاوير
والماء مابين مصروف وممتنع * والظل مابين ممدود ومقصور
والنرجس الغض لم تغضض نواظره * فزهره بين منفض ومزرور
كأنه ذهب من فوق أعمدة * من الزمرد في أوراق كافور

روضة أريضه عيون أزهارها مريضه وأنواع البركات من نهرها مفيضه ونوازع الهموم والغموم بها مغيضه

بلد أعارته الحمامة طوقها * وكساه حلة ريشه الطاووس

روضة هي مجمع البحرين ومختار تقابل مطالع البدرين ومنهاج يسير فيه كل فلك من النواعير وبدر فهي على كل الاحوال ذات النورين

ياحبذا في الحسن ناعورة * كأنها من فلك الشمس
تحمي حمى الروضة من مائها * وشكلها بالسيف والترس

ذات وجهين غير مايجري فيها بالنقل والتخريج فاربت على السبعة الاوجه بما حوته من كل منظر بهيج لم يفز غيرها بحسن الا وكان لها منه قسم قسيم ولم تتقابل وجوه المناظر الا وكان وجهها وسيم فلا غرو ان كانت ملكة المتنزهات فانها أوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم

من مات فيها وهو مغفور له * فمن الجنان الى جنان ينقل

ان فاخرتها مصر بانها القديمة قالت أنا الجديدة ولكل جديد لذه أو ناظرتها الجزيرة الوسطى قابلتها بالكسر وقالت أنا في ملازمة النيل الفردة البذه وان تطاولت نحوها الجزيرة الكبرى أعرضت عن القال والقيل وقالت أنى يقاس بخرطومي المشتهى زلومة الفيل وان قال التاج أنا المرفوع على الروس قالت أنا عروسة الحسن لاسيما في عرس النيل والتاج في خدمة العروس وان قالت السبعة الاوجه قد تعددت منا الوجوه والمناظر قالت رب واحد كألف أو يزيد عند المناظر

أرى المشتهى في روضة الحسن قد بدا * على رصد المعشوق فالقلب واجد
لعمرك ما السبع الوجوه اذا بدت * بمغنية عن وجهه وهو واحد

كأنها بدر والنيل حولها هاله أو شمس في وسط سماء ليس عليها سحابة أو غلاله أو وجه دار عليه طيلسان أو سرير ملك نصب في ميدان أو قلب جيش له مصر والجيزة جناحان تبرجت بانواع الازاهر البهجة لا بالشيح والقيصوم ونادها لسان الربيع ياروضة سنسمك بالخضرة على الخرطوم ونغير الاسلوب ونقول نثرت السماء على أغصانها النجوم وارتشف من خرطومها زلال الريق والرحيق فلم يحتج في كلا الحالين الى خرطوم

وخص البحر منها كل خص * وعم بروضها الزاهي أكامه
فقلت وقد سقى الخرطوم علا * أخرطوم بدا لى أم مدامه

كانت دار ملك وخلافه وسرير سلطنة ورتبة انافه ومسكن علماء أعلام ومجلس قضاة وحكام ومقر صلحاء وعباد ومقر صوفية وزهاد ويكفى فى الرد على المعارض قول الشيخ عمر بن الفارض

جلق جنة من تاه وباها * برباها غيرها لولا وباها
قال غال بردى كوثرها * قلت غال برداها برداها
وطنى مصر وفيها وطرى * ولنفسى مشتهاها مشتهاها
ولعينى غيرها ان سكنت * ياخليلى سلاها ماسلاها

وكم سكن بها من خلفاء وملوك وأمراء وكتاب ورؤساء ووزراء وقراء وأولياء وفقراء وأغنياء وأذكياء وأغبياء وذوى هنات وأتقياء تلاوة قرآن وتدريس أفنان وشعائر وأذان ونغمات وألحان وقضاء أوطار وضرب أوتار كل نفس بما كسبت رهينة وعلى ما حملت من أمانة دينها أمينة فهذا يسعى فى خلاص ذمته وأداء أمانته وهذا أوقعه القدر فى حبائل جنايته بخيانته قل كل يعمل على شاكلته فكان لسان الحال يقضى بان الحريرى انما عناها حيث قال

بها ماشئت من دين ودنيا * واخوان تأسوا فى المعانى
فمشغوف بآيات المثانى * ومفتون برنات المثانى
ومضطلع بتلخيص المعانى * ومطلع الى تخليص عانى
وكم من قارئ فيها وقار * أضرا بالجفون وبالجفان
وكم من معلم للعلم فيها * ونادللندى حلو المجانى
فصل ان شئت فيها من يصلى * واماشئت فادن من الدنان
ودونك صحبة الاكياس فيها * أوالكاسات منطلق العنان

هذا يعدها عونا على تقواه وهذا يعدها للعبه ولهاه هذا يرعى فيها النجوم ويناجى الحى القيوم وهذا يغفل ليله الى الصباح أويقطعه بما هو عليه ملوم هذا ينظر اليها بعين الفكرة والتبصر فى عجائب القدرة وهذا ليس له منها الا الابتهاج بنضارة الزهرة هذا يشهد فيها مشاهد شهوده وهذا يسهد ونوم غيره أفضل من سهوده

رأيت رياض القدس فى روضة الرضى * على نيل مصر بين تلك المناظر
مناظرها للناظرين مشارق * وفيها وجوه كالبدور البوادر
حكين شموسا فى السحاب وقد بدت * وجوه الاغانى فى ستور الاعاجر

وتشبه آفاق السموات فى الدجى * وفيها مصابيح النجوم الزواهر
وتحكى طيورا عاليات رؤسها * على النيل فيها سابحات الشخاتر
ويشبه سيب الماء فيها اصوارما * بايدى الهنا سلت لسلب النواظر
عليها جلال الله جل جلاله * وفيها سرير السمر سر السرائر

يؤكل فيها حيوان البحر زكيا وصيد البحر طريا وثمر الاشجار جنيا ويشرب فيها الماء من شوائب الاقذار عريا ويمر فيها النسيم صحيحا عليلا فيبرئ من الاسقام عليلا ويشفى من الاوار غليلا ساكنها قد وقى السموم والحرور وأعفى من شعث الكثبان والبرور وهى خفضة فى ربوه وجمعية فى خلوه ترى المارين فى البر والبحر وأنت عنهم فى بعد وتشاهد وأنت معتزل من كان فى انحدار أو صعد وأنت متحصن من الثقلاء بقلعة حولها من الماء خنادق ومن تمام حسنها تعدد أبواب بيوتها ففيها المخلص عند مجىء الطارق وكم لله على ساكنها من نعم لا يحصى العاد ضبطه وكم تلا عليه لسان النعمة أن اشكروا الله على ما أولاكم وزادكم فى الخلق بسطه فان قيل لها من الناموس شين فقل لابد منه لدفع العين

يا ليلة غردت فيها البعوض وقد * طاروا الى زرافات ووحدانا
يصرع ذا اللب حتى لا حراك به * وهن أضعف خلق الله أركانا

فان قيل ويخلفه عند انقضائه أذى البراغيث وذلك اذا البرأغيث فقل

لا تكره البرغوث ان اسمه * بر وغوث لك ان تدرى
فبره مص دم فاسد * والغوث ايقاظك فى الفجر

ويحيط بارجائها النيل وما أدراك ما النيل سيد الانهار والمسخر له جميع مياه الارض تمده فى الزيادة كما ورد فى الآثار أصل منبعه من الجنة وسمى فى القرآن باسمه دون غيره ونطقت به السنة وهو فى الجنة نهر العسل ويرفعه جبريل عند رفع القرآن ومن لم يعرف فليسل وهو الذى كاتبه عمر بن الخطاب لما جل أهل مصر الاصر فكتب اليه بطاقة صدرها من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر

ديار مصر هى الدنيا وساكنها * هم الانام فقابلها بتفضيل
يا من يباهى ببغداد ودجلتها * مصر مقدمة والشرح للنيل

وله أصابع ليس فى الايادى من يطاولها ومتى رامت عيون الشام أن تفاخره كان لكل عين اصبع منه يقابلها ولله در القائل

زادت أصابع نيلنا * وطمت فما كذت الاعادى
وأتت بكل مسرة * ماذى أصابع ذى أيادى

وتختص الروضة من بين سائر الاقطار بيوم هو لها عيد طالعه فى برجى السنبلة والحوت للمشترى سعيد وهو يوم الزينة وما أدراك ما يوم الزينة يوم يحشر له الناس ويحج فيه الى المقياس وتطيب من تخليقه وتحليقه الانفاس ويسبل فيه ستر الوفاء بالعفو وفى الحقيقة هو خلعة رضى ولباس وتكمد الحساد وتجتمع الاضداد فيحصل الصفاء اذا انكدر والجبر اذا انكسر ويبلغ الخلق من النيل غاية النيل ويسحب الماء على بساط الارض الذيل ويركب اليه الملك والجنود وتعقد الالوية والبنود ويكون للناس من مائه ولونه المجر ورود ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وله فى كل سنة أجل معدود

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا * كالروض تطفو على نهر أزاهره
وللوفاء عمود من أصابعه * مخلق تملأ الدنيا بشائره

(من مقامات العلامة جلال الدين السيوطى)

(المقامة الثانية الحلوانية)

حكى الحرث بن همام قال كلفت مذ ميطت عنى التمائم ونيطت بى العمائم بان أغشى مغانى الادب وأنضى اليه ركاب الطلب لاعلق منه بما يكون لى زينة بين الانام ومزنة عند الاوام وكنت لفرط اللهج باقتباسه والطمع فى تقمص لباسه أباحث كل من جل وقل وأستسقى الوبل والطل وأتعلل بعسى ولعل فلما حللت حلوان وقد بلوت الاخوان وسبرت الاوزان وخبرت ما شان وزان ألفيت بها أبا زيد السروجى يتقلب فى قوالب الانتساب ويخبط فى أساليب الاكتساب فيدعى تارة أنه من آل ساسان ويعتزى مرة الى أقيال غسان ويبرز طورا فى شعار الشعراء ويلبس حينا كبر الكبراء بيد أنه مع تلون حاله وتبين محاله يتحلى برواء ورواية ومداراة ودراية وبلاغة رائعة وبديهة مطاوعة وآداب بارعة وقدم لاعلام العلوم فارعة فكان لمحاسن آلاته يلبس على علاته ولسعة روايته يصبى الى رؤيته ولخلابة عارضته يرغب عن معارضته ولعذوبة ايراده يسعف بمراده فتعلقت باهدابه لخصائص آدابه ونافست فى مصافاته لنفائس صفاته

فكنت به أجلو همومى وأجتلى * زمانى طلق الوجه ملتمع الضيا
أرى قربه قربى ومغناه غنية * ورؤيته ريا ومحياه لى حيا

ولبثنا على ذلك برهة ينشئ لى كل يوم نزهة ويدرأ عن قلبى شبهة الى أن جدحت له يد الاملاق كاس الفراق وأغراه عدم العراق بتطليق العراق ولفظته معاوز الارفاق الى مفاوز الآفاق ونظمه فى سلك الرفاق خفوق راية الاخفاق فشحذ للرحلة غرار عزمته وظعن يقتاد القلب بأزمته

فما راقني من لاقني بعد بعده * ولا شاقني من ساقني لوصاله
ولا لاح لي مذ ندّ ندّ لفضله * ولا ذو خلال حاز مثل خلاله

واستسر عني حينا لا أعرف له عرينا ولا أجد عنه مبينا فلما أبت من غربتي الى منبت شعبتي حضرت دار كتبها التي هي منتدى المتأدبين وملتقى القاطنين منهم والمتغربين فدخل ذو لحية كثة وهيئة رثة فسلم على الجلاس وجلس في أخريات الناس ثم أخذ يبدي ما في وطابه ويعجب الحاضرين بفصل خطابه فقال لمن يليه ما الكتاب الذي تنظر فيه فقال ديوان أبي عبادة المشهود له بالاجادة فقال هل عثرت له فيما لمحته على بديع استملحته قال نعم قوله

كأنما تبسم عن لؤلؤ * منضد أو برد أو اقاح

فانه أبدع في التشبيه المودع فيه فقال له يا للعجب ولضيعة الادب لقد استسمنت يا هذا ذا ورم ونفخت في غير ضرم أين أنت من البيت الندر الجامع مشبهات الثغر وأنشد

نفسي الفداء لثغر راق مبسمه * وزانه شنب ناهيك من شنب
يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد * وعن أقاح وعن طلع وعن حبب

فاستجاده من حضر واستحلاه واستعاده منه واستملاه وسئل لمن هذا البيت وهل حي قائله أو ميت فقال أيم الله للحق أحق أن يتبع وللصدق حقيق بأن يستمع انه يا قوم لنجيكم منذ اليوم قال فكأن الجماعة ارتابت بعزوته وأبت تصديق دعوته فتوجس ما هجس في أفكارهم وفطن لما بطن من استنكارهم وحاذر أن يفرط اليه ذم فقرأ ان بعض الظن اثم ثم قال يا رواة القريض واساة القول المريض ان خلاصة الجوهر تظهر بالسبك ويد الحق تصدع رداء الشك وقد قيل فيما غبر من الزمان عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان وها أنا قد عرضت خبيئتي للاختبار وعرضت حقيبتي على الاعتبار فابتدر أحد من حضر وقال أعرف بيتا لم ينسج على منواله ولا سمحت قريحة بمثاله فان آثرت اختلاب القلوب فانظم على هذا الاسلوب وأنشد

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت * وردا وعضت على العناب بالبرد

فلم يكن الا كلمح البصر أو هو أقرب حتى أنشد فأغرب

سألتها حين زارت نضو برقعها الـ * ـقاني وايداع سمعي أطيب الخبر
فزحزحت شفقا غشى سنا قمر * وساقطت لؤلؤا من خاتم عطر

فحار الحاضرون لبداهته واعترفوا بنزاهته فلما آنس استئناسهم بكلامه وانصبابهم الى شعب اكرامه أطرق كطرفة العين ثم قال ودونكم بيتين آخرين وأنشد

وأقبلت يوم جد البين في حلل * سود تعض بنان النادم الحصر
فلاح ليل على صبح أقلهما * غصن وضرست البلور بالدرر

فحينئذ استسنى القوم قيمته واستغزر واديمته وأجلوا عشرته وجلوا قشرته (قال المخبر بهذه الحكاية) فلما رأيت تلهب جذوته وتألق جلوته أمعنت النظر في توسمه وسرحت الطرف في ميسمه فاذا هو شيخنا السروجي وقد أقمر ليله الدجوجي فهنأت نفسي بوروده وابتدرت استلام يده وقلت له ما الذي أحال صفتك حتى جهلت معرفتك وأي شيء شيب لحيتك حتى أنكرت حليتك فأنشأ يقول

وقع الشوائب شيب * والدهر بالناس قلب
ان دان يوما لشخص * ففي غـد يتغلب
فلا تثق بوميض * من برقه فهو خلب
واصبر اذا هو أضرى * بك الخطوب وألب
فما على التبر عار * في النار حين يقلب

ثم نهض مفارقا موضعه ومستصحبا القلوب معه (من مقامات الحريري)

(المقامة الرابعة والثلاثون الزبيدية)

(أخبر الحرث بن همام) قال لما حجبت البيد الى زبيد صحبني غلام قد كنت ربيته الى أن بلغ أشده وثقفته حتى أكمل رشده وكان قد أنس بأخلاقي وخبر مجالب وفاقي فلم يكن يتخطى مرامي ولا يخطئ في المرامي لا جرم أن قربه التاطت بصفري وأخلصته لحضري وسفري فألوى به الدهر المبيد حين ضمتنا زبيد فلما شالت نعامته وسكنت نامته بقيت عاما لا أسيغ طعاما ولا أريغ غلاما حتى ألجأتني شوائب الوحده ومتاعب القومة والقعدة الى أن أعتاض عن الدر الخرز وأرتاد من هو سداد من عوز فقصدت من يبيع العبيد بسوق زبيد فقلت أريد غلاما يعجب اذا قلب ويحمد اذا جرب وليكن ممن خرجه الاكياس وأخرجه الى السوق الافلاس فاهتز كل منهم لمطلبي ووثب وبذل تحصيله عن كثب ثم دارت الاهلة دورها وتقلبت كورها وحورها وما نجز من وعودهم وعد ولا سح لها رعد فلما رأيت النخاسين ناسين أو متناسين علمت أن ليس كل من خاق يفري وأن لن يحك جلدي مثل ظفري فرفضت مذهب التفويض وبرزت الى السوق بالصفر والبيض فاني لاستعرض الغلمان وأستعرف الاثمان اذ عارضني رجل قد اختطم بلثام وقبض على زند غلام وقال

من يشترى منى غلاما صنعا * فى خلقه وخلقه قد برعا
يكفيك ان قال وان قلت وعى * بكل ما نطت به مضطلعا
وان تسمه السعى فى النار سعى * وان تصبك عثرة يقل لعا
وان تقنعه بظلف قنعا * وان تصاحبه ولو يوما رعى
ما فاه قط كاذبا ولا ادعى * وهو على الكيس الذى قد جمعا
ولا استجاز نث سر أودعا * ولا أجاب مطمعا حين دعا
وفاق فى النثر وفى النظم معا * وطالما أبدع فيما صنعا
وصبية أضحوا عراة جوعا * والله لولا ضنك عيش صدعا
ما بعته بملك كسرى أجمعا

قال فلما تأملت خلقه القويم وحسنه الصميم خلته من ولدان جنة النعيم وقلت ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم ثم استنطقته عن اسمه لا لرغبة فى علمه بل لانظر أين فصاحته من صباحته وكيف لهجته من بهجته فلم ينطق بحلوة ولا مره ولا فاه فوهة ابن أمة ولا حره فضربت عنه صفحا وقلت له قبحا لعيك وشقحا فغار فى الضحك وأنجد ثم أنغض رأسه الى وأنشد

يا من تلهب غيظه اذلم أبح * باسمى له ماهكذا من ينصف
ان كان لا يرضيك الا كشفه * فأصخ له أنا يوسف أنا يوسف
ولقد كشفت لك الغطاء فان تكن * فطنا عرفت وما اخالك تعرف

قال فسرعينى بشعره واستبى لبى بسحره حتى شدهت عن التحقيق وأنسيت قصة يوسف الصديق ولم يكن لى هم الا مساومة مولاه فيه واستطلاع طلع الثمن لاوفيه وكنت أحسب أنه سينظر شزرا الى ويغلى السيمة على فحاق الى حيث حلقت ولا اعتلق بما به اعتلقت بل قال ان الغلام اذا زرئته وخفت مؤنه تبرك به مولاه والتحف عليه هواه وانى لاوثر تحبيب هذا الغلام اليك بأن أخفف ثمنه عليك فزن مائتى درهم ان شئت واشكر لى ما حبيت فنقدته المبلغ فى الحال كما ينقد فى الرخيص الحلال ولم يخطر لى ببال أن كل مرخص غال فلما تحققت الصفقة وحقت الفرقة هملت عينا الغلام ولا همول دمع الغمام ثم أقبل على صاحبه وقال

خالك الله هل مثلى يباع * لكيما تشبع الكرش الجياع
وهل فى شرعة الانصاف أنى * أكلف خطة لا تستطاع
وأن أبلى بروع بعد روع * ومثلى حين يبلى لا يراع
أما جربتنى فخبرت منى * نصائح لم يمازجها خداع

وكم أرصدتني شركا لصيد * فعدت وفي حبائلي السباع
ونطت بي المصاعب فاستقادت * مطاوعة وكان بها امتناع
وأي كريهة لم أبل فيها * وغنم لم يكن لي فيه باع
وما أبدت لي الايام جرما * فيكشف في مضارمتي القناع
ولم تعثر بحمد الله مني * على عيب يكتم أو يذاع
فأني ساغ عندك نبذ عهدي * كما نبذت براياتها الصناع
ولم سمعت قرونك بامتهاني * وأن أشرى كما يشرى المتاع
وهلا صنت عرضي عنه صوني * حديثك يوم جد بنا الوداع
وقلت لمن يساوم في هذا * سكاب ما يعار ولا يباع
فما أنا دون ذاك الطرف لكن * طباعك فوقها تلك الطباع
على أني سأنشد عند بيعي * أضاعوني وأي فتى أضاعوا

قال فلما وعى الشيخ أبياته وعقل مناغاته تنفس الصعداء وبكى حتى أبكى البعداء ثم قال لي اني أحل هذا الغلام محل ولدي ولا أميزه عن أفلاذ كبدي ولولا خلو مراحي وخبو مصباحي لما درج عن عشي الى أن يتسبع نعشي ولقد رأيت ما نزل به من لوعة البين والمؤمن هين لين فهل لك في تسلية قلبه وتسرية كربه بان تعاهدني على الاقالة فيه متى استقلت وأن لا تستثقلني اذا ثقلت ففي الآثار المنتقاة المروية عن الثقاة من أقال نادما بيعته أقاله الله عثرته قال الحرث بن همام فوعدته وعدا أبرزه الحياء وفي القلب أشياء فاستدنى حينئذ الغلام اليه وقبل ما بين عينيه وأنشد والدمع يرفض من جفنيه

خفض فدتك النفس ما تلاقي * من برحاء الوجد والاشفاق
فما تطول مدة الفراق * ولا تني ركائب التلاقي
بحسن عون القادر الخلاق

ثم قال له أستودعك من هو نعم المولى وشمر ذيله وولى فلبث الغلام في زفير وعويل ريثما يقطع مدى ميل فلما استفاق وكفكف دمعه المهراق قال أتدري لم أعولت وعلام عولت فقلت أظن فراق مولاك هو الذي أبكاك فقال انك لفي واد وأنا في واد ولكم بين مريد ومراد ثم أنشد

لم أبك والله على الف نزح * ولا على فوت نعيم وفرح * وانما سد مع أجفاني سفح
على غبي لحظه حين طمح * ورطه حتى تعنى وافتضح * وضيع المنقوشة البيض الوضح
ويك أما نابتك هاتيك الملح * بانني حر وبيعي لم يبح * اذ كان في يوسف معنى قد وضح

قال فتمثلت مقاله في مرآة المداعب ومعرض الملاعب فتصلب تصلب المحق وتبرأ من طينة الزق فجلنا في مخاصمة اتصلت بملاكمة وأفضت الى محاكمة فلما أوضحنا للقاضي الصوره وتلونا عليه السورة قال ألا الآن من أنذر فقد أعذر ومن حذركمن بشر ومن بصر فاقصر وان فيما شرحتماه لدليلا على أن هذا الغلام قد نبهك فما ارعويت ونصح لك فما وعيت فاستتر داء بلهك واكتمه ولم نفسك ولاتلمه وحذار من اعتلاقه والطمع في استرقاقه فانه حر الاديم غير معرض للتقويم وقد كان أحضره أبوه أمس قبيل أفول الشمس واعترف بانه فرعه الذي أنشاه وأن لا وارث له سواه فقلت للقاضي أوتعرف أباه أخزاه الله فقال وهل يجهل أبو زيد الذي جرحه جبار وعند كل قاض له أخبار واخبار فتحرقت حينئذ وحوقلت وأفقت ولكن حين فات الوقت وأيقنت أن لئامه كان شرك مكيدته وبيت قصيدته فنكس طرفي ما لقيت وآليت أن لا أعامل ملثما ما بقيت ولم أزل أتأوه لخسر صفقتي وافتضاحي بين رفقتي فقال لي القاضي حين رأى امتعاضي وتبين جوى ارتماضي ياهذا ماذهب من مالك ما وعظك ولا أجرم اليك من أيقظك فاتعظ بما نابك واكتم أصحابك ما أصابك وتذكر أبدا ما دهمك لتتقي الذكرى دراهمك وتخلق بخلق من ابتلى فصبر وتجلت له العبر فاعتبر (قال الحرث ابن همام) فودعته لابسا ثوب الخجل والحزن ساحبا ذيل الغبن والغبن ونويت مكاشفة أبي زيد بالهجر ومصارمته يد الدهر فجعلت أتنكب عن ذراه وأتجنب أن أراه الى أن غشيني في طريق ضيق فحياني تحية شيق فازدت على أن عبست وما نبست فقال ما بالك شمخت بانفك على الفك فقلت أنسيت أنك احتلت وختلت وفعلت فعلتك التي فعلت فأضرط بي متهازيا ثم أنشد متلافيا

يامن بدا منه صدو * د موحش وتجهم
وغدا يريش ملاوما * من دونهن الاسهم
ويقول هل حريبا * ع كما يباع الادهم
أقصر فما أنا فيه بد * عا مثل ما نتوهم
قد باعت الاسباط قبـ * ـلي يوسفا وهم هم
هذا وأقسم بالتي * يسرى اليها المتهم
والطائفين بها وهم * شعث النواصي سهم
ما قت ذاك الموقف الـ * ـمخزى وعندى درهم
فاعذر أخاك وكف عنـ * ـه ملام من لا يفهم

ثم قال أما معذرتي فقد لاحت وأما دراهمك فقد طاحت فان كان اقشعرارك مني وازورارك عني لفرط شفقتك على غير نفقتك فلست ممن يلسع مرتين ويوطئ على جمرتين

وان كنت طويت كشحك وأطعت شحك لتستنقذ ما علق باشراكي فلتبك على عقلك البواكي

(قال الحرث ابن همام) فاضطرني بلفظه الخالب وسحره الغالب الى أن عدت له صفيا وبه حفيا

ونبذت فعلته ظهريا وان كانت شيأ فريا (من مقامات الحريري)

أحدوثة طرب تزرى بالانشا آت الفاضليه وأطروفة أدب تهزأ بالنفثات البابليه

بقلم سعادة عبد الله باشا فكري وهي

حدثني صاحب مبارك ليس في فضله يشارك قال كان ببعض الامصار فيما مضى من الاعصار رجل من التجار ذو شرف ويسار قد رزق سعة الغنى وجنى ثمرات المنى وكان حسن المعامله كثير المجامله سليم الفؤاد حلو الوداد فطار صيته في الاقطار وصار في جميع الامصار فانفسح نطاق تجارته واتسعت دائرة ادارته وكثرت أحبابه وأصحابه وغصت باخوانه وخلانه رحابه ورزق بولد سرته سيرته وحسنت علانيته وسريرته فكان له رفيقا وعلى أهله شفيقا

نعم الاله على العباد كثيرة * وأجلهن نجابة الاولاد

وعاش الرجل مدة على هذه الحال رخي العيش ناعم البال قرير العين بكثرة المال وبلوغ الآمال حتى قارب مدى العمر حده وقد بلغ ابنه المذكور أشده فلما أظله يومه الموعود وأحس بانقضاء أمده المحدود دعا ابنه في خلوة عن الاغيار وأوصاه بوصايا البررة الاخيار وقال فيما أودعه سمعه وأراد به نفعه يا بني اني أرى الشمس آذنت بالافول وقد عزم الغريب على القفول واليوم قد أزف الرحيل والبقاء في هذه الدار مستحيل

كل ابن أنثى وان طالت سلامته * يوما على آلة حدباء محمول

وأنا مكاشفك بخبيئة في الضمير ومخبرك بأمر خطير ولا ينبئك مثل خبير ان عندي كنزا أدلك عليه لترجع بعدي عند الحاجة اليه فيكون لك ظهيرا في شدائد الايام وظهيرا في مكايد الانام فافتح لما أقول أقفال لبك واحفظه كسواد عينك وسويداء قلبك وما أردت كنز مال مدفون ولا نفيس جوهر مكنون فان مالي لديك وتجارتي بين يديك والعقار كما علمت واليسار مثل ما فهمت والرزق متيسر وأمر التجارة غير متعسر ولكن قصدت ما هو أعلى وأغلى وأجدر بالرعاية والعناية وأولى وما هو الا صاحب عرفته قديما وعكفت على وده مستديما قد هذبته الليالي بمرها وجرعته كؤس حلوها ومرها وكنت جربته في خيرها وشرها وبلوته في نفعها وضرها وكررت اختباره مرارا فزاده اختباري اختيارا وطول تجربتي منزلة عندي ومقدارا وكان لي كما قيل

ان أخاك الحق من يسعى معك * ومن يضر نفسه لينفعك

ومن اذا ريب الزمان صدعك * شتت فيك شمله ليجمعك

وأنت ترى كثرة الاصحاب حولنا واكثارهم من الزيارة لنا ولكن كل ألف لا تعد بواحد

واذا صفا لك من زمانك واحد * فهو المراد وعش بذاك الواحد

وهذا الرجل الذى ذكرت لا يتردد كما يترددون ولا يبدى من ظاهر الحال والتجمل بالمقال مثل ما يبدون وأنا أزوره المرة والمرتين فى الاسبوع والود فيما بيننا غير متطوع ولا ممنوع فانما الحب فى الصدور لا فى الثغور وفى شغاف الجنان لا فى أطراف اللسان

وليس أخى من ودنى بلسانه * ولكن أخى من ودنى وهو غائب

ومن ماله مالى اذا كنت معدما * ومالى له ان أعوزته النوائب

فهذا هو الكنز الذى قصدت والحرز الذى أردت فأشدد على صحبته العرى ولا تنبذ بمودته فى العرا وأتبع هذا القول بنصائح ارتضاها وأمور أمضاها وكأنها كانت حاجة فى نفس يعقوب قضاها ثم انه ودعه وودع الدنيا معه ونزل مع أعماله فى رمسه والتحق حاضر يومه بغابر أمسه فأقام ابنه مراسم المأتم وقضى من مقتضيات العادة الجارية اللازم وأخذ فى ادارة التجارة كالاول وصار عليه المعول وكأن الحال ما تحول الى أن اجتمع عليه جماعة من أنداده وأظهروا التحقق بوداده وتملكوا بحسن ملاطفتهم أزمة فؤاده وكانوا أتبع له من ظلاله وأطوع من يمينه لشماله وانكف عنه بالضرورة أصحاب الوالد الواحد بعد الواحد حيث رأوه لهؤلاء الاقران أميل ومكانتهم لديه أمثل وامتزاجه معهم أجمل وأكمل وأحاط به هؤلاء الجلساء ولزموا بيته صباح مساء فلما خلا لهم الجو ولم يبق فى الصحبة ليت ولا لو أخذوا يذكرون الشرب والحان ويتذكرون الطرب والالحان والمثالث والمثانى والغوانى والاغانى والصاحب يقتدى بصاحبه ويسرق من طباع مصاحبه

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى

فحركوا من رغبته الساكن وجروه لما يكون فيه ذلك من الاماكن فجرى معهم فى فنون المجون ومجالا بنة الزرجون فما زال حتى قصر على هذه الشؤن ميله وحصر فيها نهاره وليله فلا جرم اختلت تجارته وانحلت ادارته فمال على المال الموجود فى خزينة النقود فبسط الراح للانبساط والراح يكيل بالقدح ولا يبالى بين ذم أو مدح حتى فنيت الصفراء والبيضاء واشتبه جوف صناديقها والفضاء فوضع يده فى الجواهر وأخاير الذخائر يبيع ويضيع ويصرف ويتلف ويلحق دنيها بفاخرها حتى أتى على آخرها ثم انثنى للعقار يبيعه على العقار ويضيعه فى تحصيل لذاته وقضاء شهواته ثم أتبعه المزارع والضياع فعم جميعها بالضياع وتفرق عنه الاتباع والخدم وكان باع الدواب فيما تقدم فلم يبق عنده صاهل ولا ناهق ولا صامت ولا ناطق

اللهم الا دار واحدة كان يسكنها مع الاهل والوالدة وكان حين أخذ فى انحطاط الحال وأشرف على الاقلال صارت جموع اخوانه وزمر أخدانه وخلانه يتسللون قوما بعد قوم ويقلون يوما بعد يوم

الناس اخوان من دامت له نعم * والويل للمرء ان زلت به القدم

وما زالوا كذلك حتى ذهب آخرهم مع آخر المال ولم يبق فى صحبته غير الهم والغم والملال وسوى الندم والسدم والبلبال فضاقت الدنيا فى عينه وتمنى قرب حينه فجلس الى أمه حزينا باكيا ساخطا على دهره شاكيا

نادما سادما يعض يديه * حسرة واستكانة ومهانة

وقال يا أماه قد بلغت الفاقة غايتها وتجاوزت الشدة نهايتها ولم يكن عندنا ما يمسك الرمق ويطفئ هذا الحرق فهل ترين أن نبيع هذه الدار كباقى البيوت ونصرف من ثمنها على القوت ونتجر فى بعضه على بركة الحى الذى لا يموت فقالت يا بنى اذا بعت مأوانا فأين يكون مثوانا وقد ربينا فى العز والسعادة ولم تسبق لنا بالخروج فى الازقة عادة على أنها موقوفة من الاجداد على الاهل والاولاد والاحفاد ولكن أين أنت من صديق الوالد الذى فضله على الطريف والتالد وأخبرك عند مماته فى الاخير من أنفاس حياته أنه صديق حميم وكنز عظيم فامض يا بنى لداره واستضئ فى ليل هذه الشدة بأنواره فعسى أن يساعدك بثرائه أو يسعدك بآرائه فليست وصية الوالد سدى وان طال عليها المدى فقال لعن الله النسيان لقد كنت أنسيته منذ أزمان ولقد أشرت بالرأى السديد وقربت من الخير كل بعيد وهذا هو الوقت الذى يدخر مثله لامثاله ويحتاج فيه الى فضله وافضاله وقد ضاقت النفوس ولا مخبأ لعطر بعد عروس ثم قطع حبل المقال ونهض كأنما انشط من عقال ومضى يحدث نفسه ببلوغ الآمال ويستبشر بخير الحال والمآل ويقول جزى الله الوالدة خيرا وفيا فقد أذكرتنى خلا وفيا ويرحم الله الوالد فانه كان بى حفيا

سأبلغ أسباب العلا باجتهاده * فليس مقال الوالدين يضيع

ويقول فى نفسه الآن أقول له وأقول وأبلغ بفضله وحسن همته المأمول فليس بينى وبين المنى الا رؤية محياه حياه الله تعالى وبياه وهلم جرا من هذه الامانى وما تحدث به نفس العانى من المعانى

اذا ما خلا العانى الضعيف بنفسه * أتته الامانى من جميع الجوانب

وكان قد زاره مرات فى أثناء الحظوظ والمسرات رعاية لابيه لا لرغبة فيه وذلك حين كان فى غمرة لعبه وسكرة لهوه وطربه فكان كلما رآه يجله ويعلو عنده محله ويلقاه بصدر رحيب ويقابله ببشر وترحيب فلما ضربه الدهر بمخالبه وعضه بأنياب نوائبه قصده لكى يجتلى أنواره

ويجتنى من روض فضله الوارف الظلال أنواره ويشكوا اليه من القلة ويستجير به من الذلة وهو واثق بالنجاح جازم بالفلاح مستيقن بان صباح اليسر من ليل العسر قد لاح فوصل الى داره فى حالة رديئة وهيئة مسيئة يكاد يرثى لها الحسود وتصفو لها القلوب السود وكان يجىء فى تجمل وجمال وأبهة وكمال بين أنصار وأشياع وخدم وأتباع والحاصل أنه تقدم البدار ودخل الدار وخدامها عنه منقبضون مغضون ومعرضون لم يخاطبه أحد بينت شفة وكانهم ليس لهم به معرفة

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها * فكلما انقلبت يوما به انقلبوا

يعظمون أخا الدنيا فان وثبت * يوما عليه بما لا يشتهى وثبوا

فخجل من أوضاعهم وسخط من طباعهم الا أنه قال هؤلاء قوم لئام ليس على أمثالهم ملام والآن يعلم رب المنزل فيبادر وينزل ولا بد أنه يؤدبهم والغالب أنه يضربهم ووقف ينتظر من اقباله واستقباله سالف عوائده ويترقب تحقيق ما كان وعاه من قول والده فما كان الا أن أخرج الرجل رأسه من شباك قصى وأرسل اليه على لسان غلام خماسى يقول أنا غير منبسط للكلام فاذهب بسلام فلما سمع الفتى ما سمع كاد فؤاده ينخلع حتى تخيل أن الارض ابتلعته أو الريح اقتلعته أو السماء انطبقت عليه أو النجوم انتثرت حواليه فان النقمة من محل النعمة أضر والصبر من حيث يرجى الشهد أمر

واذا الشر جاء من حيث يرجى * كل خير فذاك شر البلاء

والفتى وان مسه الضر وأصابه الفقر المر الا أنه ابن نعمة وخير تأبى نفسه الضير فكاد أن يسقط على الارض صعقا وينشق صدره حنقا وقلقا الا أنه تماسك تماسك ذوى الالباب وأسرع بالخروج يبتدر الباب وسار ودموعه تسبقه وزفراته تكاد تحرقه وهو يقول تبا لهذا الغادر فانه ألأم من مادر أهذا الذى كنت أرجوه ألا شاهت الوجوه وترب فوه فقد كذب واصفوه

ياليتنى قبل مت جوعا * ولم أؤمل ندى لئيم

فالموت فى نعمة وعز * خير من الذل للكريم

وليت رجلا حملتنى له قطعت وعينا هدتنى سبيله قلعت

ياليتنى مت قبل هذا * أوليتنى لم أكن خلقت

ورجع تضطرم نيران فؤاده وتغلى مراجل أحقاده فقص على الوالدة ما جرى من الرجل وخدمه وما كان من خيبة سعيه وندمه فسلته ببعض الكلام وحكايات ما جرى على الكرام وقالت يا بنى

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه * وليس عليه أن يساعده الدهر

فلا تجزع من تقلب الدهور وعجائب المقدور واصبر على ما أصابك فأنت بالصبر مأمور ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور

دع المقادير تجري في أعنتها * ولا تبيتن الا خالي البال
ما بين غفوة عين وانتباهتها * يقلب الله من حال الى حال

وما أحسن ما قيل

فاصطبر وانتظر بلوغ الاماني * فالرزايا اذا توالت تولت
واذا وهنت قواك وحلت * كشفت عنك جملة وتجلت

وما قيل

وعاقبة الصبر الجميل جميلة * وأحسن أخلاق الرجال التصبر

ثم قالت قم فبع لنا الآن هذه الأثواب وانتظر اللطف من مسبب الاسباب فغيض من عبراته وخفض من زفراته ونهض فباع الثياب وصار يصرف من أثمانها بالحساب وفي خلال ذلك أقبلت عجوز تسأل عن داره وتتقصى من الجيران عن أخباره ثم دخلت على والدته فسلمت واستغفرت لوالده المرحوم وترحمت وقالت حضرت من الغرب منذ أيام وكنت قد حضرت مرات قبل أعوام وأحضرت بعض حلي بعته على يد المرحوم وأخذت ما يسر الله من الربح المقسوم والآن جئت لمثل ذلك الامر ومعي من نفيس الياقوت والماس والدر وفي ابن المرحوم ان شاء الله الخير وهو على كل حال أحق وأولى من الغير فودة الآباء تنتقل للابناء وقصدي حج البيت المحرم وزيارة قبر النبي المكرم صلى الله عليه وسلم

واذا المطي بنا بلغن محمدا * فظهورهن على الرحال حرام

وأريد أن أجاور في الحرم المطهر وأعود ان شاء الله بعد عام أو أكثر وسأترك ما معي ليباع الى أن أعود من تلك البقاع فحضر الفتى فكلمها وأكرمها وأمنها بايمان أكدها وأبرمها فسلمته قدرا صالحا من الاحجار الغاليه وقومتها بأثمان مناسبة غير عاليه لينتفع بما يقسم من الربح المقدر ويحافظ لها على أصل الثمن المقرر وكتب بها وثيقة بالاستلام ثم ودعته وانصرفت بسلام فعمد الفتى الى دكان فاكتراها والى بعض ملابس يسيرة فاشتراها وجلس في دكانه يبيع حتى أتى على الجميع فعزل أصل الثمن جانبا وكان للخيانة مجانبا وصار يتجر في الربح المتاح وفتح عليه الكريم الفتاح وكان في البيع والشراء حازما وللصدق والامانة ملازما فائتمنه التجار على نفائس الاموال وانتظمت له الامور واستقامت الاحوال وفتح الله له أبواب الاكتساب والله يرزق من يشاء بغير حساب فلم يمض عليه نحو سنة الا وقد صار في حالة حسنة وهيئة مستحسنة وكأنما كانت الشدة غفوة أو سنة

اذا تضايق أمر فانتظر فرجا * فاقرب الامر أدناه الى الفرج

وما زال على هذه الحال حتى استحال فساد أحواله صلاحا وعادت خيبة آماله فلاحا فصار يشترى كل ما أمكنه مما كان باعه من الامكنه ويسترد بعض ما أضاع من القرى والضياع والانعام

والدواب والادوات والاثواب وتأخر حضور العجوز جملة أعوام وهو يدعو لها بالخير والسلامة على الدوام ويرى أن طلعتها كانت له طالع سعود وينتظرها السنة بعد السنة أن تعود ولا يعلم لها من خبر يؤثر ولا يرى لها من عين ولا أثر ثم انه لما حسنت حاله وفارقه محاله وزالت نقمته وزادت نعمته ونسي الغمه وادكر بعد أمه تذكر ما كان من أمر الرجل الذي ساءه وحشا بالغيظ والحقد أحشاءه فالتهبت نار غيظه الكامن وبدت آثار غضبه من المكامن وقال لابد أن أقصده وأعرف مقصده وأعنفه على ما حصل وأعرفه بما وصل من لطف الله واتصل وأشفي النفس من ذلك القهر ثم لا أعود اليه مدى الدهر فلبس أفخر أثوابه وركب أحسن دوابه ومضى له على غلوائه في زينته وروائه فقام له الخدم تبجيلا وبادروا ايديه تقبيلا

اذا كنت ذا ثروة في الورى * فانت المعظم في العالم

وحسبك من نسب صورة * تخبر أنك من آدم

وقابله الرجل بقبول واقبال واستقبله بالترحيب أحسن استقبال والفتى عابس المحيا وما سلم ولا حيا بل قال تعلم أني ما جئت لسلام ولا كلام ولا قصدتك الآن لرغبة في مرام ولكن لاذكرك بسوء صنيعك معي حين خاب فيك رجائي ومطامعي حيث قلت ما قلت وفعلت فعلتك التي فعلت ألم تر وقول النبي المرسل أكرموا عزيز قوم ذل ولم تحفظ ما رواه عبد الله بن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الناس أنفعهم للناس أولم يردك يوما على خاطر أنه ما عبد الله بشيء أفضل من جبر الخواطر أولم تسمع قول الشاعر

لا تقطعن يد الاحسان عن أحد * مادمت تقدر والايام تارات

واشكر فضيلة صنع الله اذ جعلت * اليك لا لك عند الناس حاجات

وهلا رددتني الرد الجميل اذا لم تكن موضع التأميل قال الرجل مهلا يا بني مهلا وأهلا بعتابك وسهلا

لعل عتبك محمود عواقبه * فربما صحت الاجسام بالعلل

قال الفتى ليس هذا عتاب محبة ولا استبقاء لصحبة ولكنه اللوم ولا اجتماع بعد اليوم وماذا ينفع العتب على الجفا اذا لم يكن في أصل الطبيعة وفا ويرحم الله من يقول

اذا أنا عاتبت الملول فانما * أخط بأقلامي على الماء أحرفا

ومن يقول

واذا ما القلوب لم تضمر الود * فلن يعطف العتاب القلوبا

قال الرجل يا بني الصلح خير ولا ضرر في العفو ولا ضير

من ذا الذى ماساء قط * ومن له الحسنى فقط

وأى جواد لايكبو وأى صارم لا ينبو

ومن يبغى الصديق بغير عيب * سيبق الدهر ليس له صديق

فانشد الفتى

جربت دهرى وأهليه فما تركت * لى التجارب فى ود امرئ غرضا

وقال لله در أبى العتاهية حيث قال وما أوفقه لصورة الحال

أنت ما استغنيت عن صا * حبك الدهر أخوه

فاذا احتجت اليه * ساعة مجك فوه

لو رأى الناس نبيا * سائلا ماوصلوه

وأى نفع لصديق لا يصدق فيه رجائى وصاحب لا يصحبنى فى شدتى و رخائى

اذا لم تكن ان أدبر الدهر صاحبى * فكل الورى ان أقبل الدهر أصحابى

فقال الرجل يا بنى لا تؤلم بهذا القول مسمعى وراع طول صحبة الوالد معى فطالما اتفقنا فى الاخاء وتقلبنا من حالتى شدة و رخاء

اذا لم تجدنى للمودة موضعا * فراع ودادا من أبيك تقدما

فقال الفتى وهل غرنى بك وضرنى من جانبك الا ما كان حكاه لى أبى من مناقبك حتى حسبت الجمر تمرا وظننت التراب تبرا فأوردتنى شر الموارد وعاملتنى بذلك الوضع البارد

وكنت كالمتمنى أن يرى فرجا * مع الصباح فلما أن رآه عمى

فلا أحب أن تنظر عينى لعينك وهذا فراق بينى و بينك فقال الرجل سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا وأكاشفك بما لم تعرف له خبرا ولا خبرا ان عندى لك خبيئة فاعلمها وأمانة فقم فتسلمها فظن الفتى أنها خبيئة نقود من مال الوالد أو الجدود فقام معه وسار وتبعه فانتهيا لحجرة فى الدار فيها امرأة فى خمار فاستقبلته حين أقبل بالسلام وتأمل الفتى جرس صوتها فى الكلام فاذا هى العجوزة المعهودة صاحبة الجواهر المعدودة فوقف باهتا متحيرا ساكتا وقال الرجل خذ أمانتك أيها الامين وأعطاه الوثيقة التى كان كتبها بخط اليمين وأشهد فيها على نفسه باستلام ذلك الحلى الثمين وقال هذه المرأة أم عيالى وتلك الجواهر التى أعطتك من مالى وما كان ما رأيته من سوء المعاملة التى ذكرتها وردى لك بالصورة التى أنكرتها الا لاقامة أودك وارادة رشدك فانى لما رأيتك فى ثوب رث وفى حال غث علمت انك أتلفت التليد والطارف وخالفت الذى علمك الوالد من المعارف فايقنت أن نصحك وقتها لا يفيد وأن كل ما أعطيك بالسهولة يبيد فانك ربما تضيعه كالذى كان لديك ولا يبقى منه آخر الامر شئ فى يديك فاردت بتلك المعاملة تقويم طبعك وراعيت

من بعد ذلك تتميم نفعك ففعلت ما فعلت وأرسلت الشمع هذه المرأة ما أرسلت فهذه حقيقة ماصار ان فى ذلك لعبرة لأولى الابصار فأكب الفتى على يده يقبلها ويلثمها وأقبل على المرأة يدعو لها ويعظمها وقال للرجل والله لقد أجملت فاجزلت وأكرمت فاتممت وصيرتنى لك عبدا رقيقا ولا أقول صاحبا وصديقا ولقد صدقت فراسة أبى فيك ولست أقدر على أنى أكافيك وهذا ثمن الحلى عندى فى الكيس وأنا عليه الى الآن حافظ أمين فهلم فاستلم مالك بلغك الله آمالك بل جميع مافى يدى ملكك ان أردت أن ينظمه سلكك

ولاشكرنك ماحييت فان أمت * فلتشكرنك فى التراب عظامى

ولست أصلح فاقول لك اتخذنى ولدا فاتخذنى خادما عندك وعبدا ولئن أحيانى الله بعد هذا عمرا فستجدنى صابرا ولا أعصى لك أمرا فقال الرجل سأتخذك ابنا وولدا وان لم أصلح فخدوما وسيدا فقال كيف لا تصلح لذلك وأنت السيد المالك ولم يكن للرجل أولاد فتبناه وشاركه بعد ذلك فى غناه ومناه وأقاما فى غبطة وسرور وحبور وحضور حتى بلغ العمر حد النهاية وكل شئ ينتهى لغاية

باب فى المراسلات والمنشآت

نخبة من كتاب أطواق الذهب فى المواعظ والخطب للزمخشرى

اللهم انى أحمدك على ما أزللت الى من نعمتك وعلى ما أزلت عنى من نقمتك على أنى لم أكن أهلا للاولى وكنت بالثانية أولى لولا فضل منك سابق حمد الحامد وراءه يتطف وان أعنق فكأنه مصفود برسف وكرم باسق شكر الشاكر ينوء تحته بجناح مهيض وان حلق فكأنه لاصق بالحضيض ثم انى أحمدك حمدا بعد حمد عودا على بدء وأجمل توفيقك معى ردا وكفى به من ردء على صنع ماهجس فى ضمير نفس ولا اتصل بوما بظن ولا حدس من تفسير الفيئة التى باحسانك المتظاهر جذبت اليها ضبعى وبسلطانك القاهر قسرت عليها طبعى وبنظرك الصادق خففت على مجاثمها المتعبة وسهلت تكاليفها المتصعبة وفككت من رق التبعات عنقى ومننت بحل اسارى وعتقى ورقيتنى الى رتبة القناعة وهى الرتبة العليا وزهدتنى فى الحرص على زخرف الدنيا وطيبت نفسى بغوار زأخلاقها عن الغزار وترضيتها بعد الدرة بالغرار

(المقالة الاولى) ما يخفض المرء عدمه ويتمه اذا رفعه دينه وعلمه ولا يرفعه ماله وأهله اذا خفضه فجوره وجهله العلم هو الاب بل هو للنأى أرأب والتقوى هى الام بل هى الى اللبان أنم فاحرز نفسك فى حرزهما واشدد يديك بغرزهما يسقك الله نعمة صيبة ويحيك حياة طيبة

(المقالة الثانية) يا ابن آدم أصلك من صلصال كالفخار وفيك ما لا يسعك من التيه والفخار تارة بالاب والجد وأخرى بالدولة والجد ما أولاك بان لا تصعر خديك ولا تفخر بجديك تبصر خليلي هم مركبك والحمأ منقلبك خفض من غلوائك وخل بعض خيلائك

(المقالة الثامنة) ما أسعدك لو كنت في سلامة الضمير كسلاسة الماء النمير وفي النقاء عن الريبة كمرآة الغريبة وفي نفاذ الطية كصدر الخطية وفي أخذ الاهبة كالواقع في النهبة لكنك ذو تكدير كرجرجة الغدير ومتلطخ بالخبائث كالكثير المحانث وذو عجز وتوان ككسال الغواني وتارك للاستعداد كالشاك في المعاد

(المقالة العاشرة) استمسك بحبل مواخيك ما استمسك بأواخيك واصحبه ما أصحب للحق وأذعن وحل مع أشياعه وظعن فان تنكرت أنحاؤه ورشح بالباطل اناؤه فتعوض من صحبته وان عوضت الشسع واصطرف بحبله وان أعطيت النسع فصاحب الصدق أنفع من الترياق النافع وقرين السوء أضر من السم الناقع

(المقالة الحادية عشرة) الشهم الحذر بعيد مطارح الفكر غريب مسارح النظر لا يرقد ولا يكرى الا وهو يقظان الذكرى يستنبط العظة من اللمح الخفي ويستجلب العبرة من الطرف القصي فاذا نظرت الى بنات نعش فاستجلب عبرتك واذا رأيت بني نعش فاستجلب عبرتك واعلم أن من الجوائز أن تروح غدا على الجنائز

(المقالة السادسة عشرة) الكريم اذا ريم على الضيم نبا والسري متى سيم الخسف أبى والرزين المحتبي بحمالة الحلم ينفر نفرة الوحش عن الظلم اشفاقا على ظفره أن يقلم وعلى ظهره أن يكلم وقلما عرفت الانفة والاباء في غير من شرفت منه الآباء ولا خير فيمن لم يطب له عرق وذنب الكلب مابه طرق

(المقالة السابعة عشرة) الوجه ذو الوقاحة من وجوه الرقاحة يفي على صاحبه الانفال ويفتح الاقفال ويلقطه الارطاب ويلقمه ما استطاب ويجسره على قول المنطيق وييسر له فعل ما لا يطيق وكل ذي وجه حيي ذو لسان عيي معتقل لا ينبسط لمقال ولا ينشط من عقال ولا يزال ضيق الذرع بكيء الضرع يشبع غيره وهو طيان ويعطش هو وصاحبه ريان ولكن لا كان من يتوقح لاجل أن يترفه ويترقح فلعمري ما النائل الوتح الا ما ناله الوقح وأيم الله ان الرشحة في الجبين أحسن من الشمم في العرنين ولان تقرع وضك ومافي سقائك جرعة خير من أن علك البحر ومافي وجهك مزعة

(المقالة الثامنة عشرة) عزة النفس وبعد الهمة الموت الاحمر والخطوب المدلهمة ولكن من عرف منهل الذل فعافه استعذب نقيع العز وذعافه ومن لم يصطل بحر الهيجاء لم يصل الى برد المغنم ومن لم يصبر على براثن أسد اللقاء لم يصب أطرافا كالعنم وتحت علم الملك المطاع ذكر السيوف والانطاع ومن لم يقض عليه عسر بقذه لم يقيض له يسر ينقذه وما الحكمة الالهية الاهى وهى القاعدة التى أمر عليها العبد وبنى اليوم عزاء فى كاف وكرب وغدا جزاء بزلف وقرب

(المقالة الحادية والعشرون) خل عن يدك الباطل واللدد واعتنق الجد والزم الجدد ان الله تعالى خلقك جدا لا عبثا وفطرك ابريزا لاخبثا لولا أن نفسك بكسبها الخبيث خبثتك وبلطخ عملها السيئ لوثتك فأرخيت عنانك فيما أنت عنه محجور وتوليت بركنك عما أنت عليه مأجور القاء بيدك الى التهلكة واضاعة لحظك فى عظيم المهلكة

(المقالة الثانية والعشرون) لا تنتفع بما لا تنى أن تبتنى وتقتنى وتعتنى بغرس ما لا تجتنى هلم الى استشارة عقلك فتبصر والى استخارة ذهنك فتدبر وقل لى اذا شق بصرك واشتد حسرك وعاينت الجد فشغلك عن ددك وأوحشك تفريطك فسقط فى يدك مايغنى حينئذ عنك بنيانك وماذا يجدى عليك قنيانك وهل ينفعك نخيلك الصنوان وغير الصنوان أم يدفع عنك مايخرج من طلعها من القنوان

(المقالة الرابعة والعشرون) من لعمل كالظهر الدبر ومن لقلب كالجرح الغبر دووى بكل دواء فلم ينجع واحتيل عليه بكل حيلة فلم ينفع متى رفوت منه جانبا انتقض عليه آخر واذا سددت من فساده منخرا جاش منخر ضاقت عن تدبيره فطن الاناسى وأعضل علاجه على الطبيب النطاسى فياويلتا من هذا السقام وياغوثتا من هذا الداء العقام وما أحق بمثلى أن يبيت بليلة سليم كما تليت الا من أتى الله بقلب سليم

(المقالة الخامسة والعشرون) احرص وفيك بقية على أن تكون لك نفس تقية فلن يسعد الا التقى وكل من عداه فهو شقى قبل أن ترى الشيب الجال والصلب المهل والجلد المتشنن والرأى المتفنن والنوء المتخاذل والوطء المتثاقل والرثية فى المفاصل ناهضة والرعشة للانامل نافضة وقبل أن لا تقدر على ما أنت عليه قادر ولا تصدر عما أنت عنه صادر

(المقالة الحادية والثلاثون) قلبك آمن وجاشك متطامن ورأيك فى الشهوات باتر وشوقك الى ما عند الله فاتر وأنت مترفه مترف أطيب قطف لك مخترف فى أكناف السعة راتع ولاخلاف الدعة راضع وفى تيه الغفلات هائم كأنك احدى البهائم ماهذا خلق المؤمن ولا هكذا صفة الموقن المؤمن راهب راغب مساغب لاغب ذو هيئة بذة محتم من كل لذة ان رآى من نفسه جماحا ألجم وحجر وان أحس منها مطمعا ألقمها الحجر

(المقالة الثالثة والثلاثون) ياعبد الدينار والدرهم متى أنت عتيقهما وياأسير الحرص والطمع متى أنت طليقهما هيهات لاعتاق الا أن تكاتب على دينك الممزق ولا اطلاق أو تفادى بخيرك الملزق يامن يشبعه القرص ماهذا الحرص ويامن ترويه الجرع ماهذا الجزع ستعلم غدا اذا تندمت أن ليس لك الا ماقدمت واذا لقيت المنون لم ينفعك مال ولا بنون مايصنع بالقناطير المقنطرة عابر هذه القنطرة ومايريد من البهجة والفرحة نازل ظل هذه السرحة

(المقالة الثامنة والثلاثون) لم أر فرسى رهان مثل الحق والبرهان لله درهما متخاصرين ولا عدمتهما من متناصرين اصطحبا غير متباينين اصطحاب أبانين من شدّ يده بغرزهما فقد اعتز بعزهما ومن زل عنهما فهو من الزلة أزل ومن القلة أقل

(المقالة التاسعة والثلاثون) أيها الشيخ الشيب ناهيك به ناهيا فمالى أراك ساهيا لاهيا ابق على نفسك واربع فهذه أخرى المراحل الاربع ومن بلغ رابعة المراحل فقد بلغ من الحياة الساحل ومابعدها الا المورد الذى ليس لاحد عنه مصدر ولا زيد من عمرو بوروده أجدر هو لعمر الله مشرع جميع الناس فيه شرع وأحقهم بالاستعداد له من شارفه وأولاهم بالاشفاق منه من قارفه

(المقالة الثالثة والاربعون) ماالعلماء السوء جمعوا عزائم الشرع ودوّنوها ثم رخصوا فيها للامراء السوء وهونوها ليتهم اذ لم يرعوا شروطها لم يعوها واذ لم يسمعوها كما هى لم يسمعوها انما حفظوا وعلقوا وصفقوا وحلقوا ليقمروا المال ويبسروا ويفقروا الايتام ويوسروا اذا أنشبوا أظفارهم فى نشب فمن يخلص وان قالوا لاتفعل أو يزداد كذا فمن ينقص دراريع ختالة ملؤها دراريع قتالة وأكمام واسعة فيها صلال لاسعة وأقلام كأنها أزلام وفتوى يعمل بها الجاهل فيتوى فان وازنت بين هؤلاء والشرط وجدت الشرط أبعد من الشطط حيث لم يطلبوا بالدين الدنيا ولم يشروا الفتنة بالفتيا

(المقالة الرابعة والاربعون) هب أنك اتقيت الكبائر التى نصت وتجنبت العظائم التى قصت ورضت نفسك مع الرائضين على أن لاتخوض مع الخائضين فما قولك فى هنات توجد منك وأنت ذاهل وفى هفوات تصدر عنك وأنت غافل ولعلك تمزق الشلو مأكول والى المؤاخذة باقترافها موكول فثلك مثل الرئبال فى محاماته عن الاشبال يصدعن التصدى لها البطل الحيس بل يردع عن مرابضها الخميس ثم يصبح أبو الشبل والنمل الى ابنه كالحبل وهى بأوصاله مطيفة كأنما كسته قطيفة فما أغنى عنه زياده حتى تم للنمل كياده

(المقالة السابعة والاربعون) الحازم من لم يزل على جده لم يزل عنه الى ضده وذو الرأى الجزل من ليس فى شئ من الهزل وكيف يكون حازما من هو مازح هيهات البون بينهما نازح وكفالك

أن المزح مقلوب الحزم كما أن الحزم مقلوب المزح رب كلمة غمستك فى الذنوب وأفرغت على أخيك مل الذنوب فان كان حرا زرعت الغمر فى سويدائه وان كان عبدا نزعت المهابة من أحشائه وتقول انها مزاحة وعليك فى أن تقولها مزاحة وبحلك يا تلعابه لو علمت ما فى الدعابه لاطعت فى اطراحها نهاتك ولما غرغرت بها لهاتك أسرك أن داعبت الرجل فضحك ولم تشعر أنه بذلك فضحك حيث أعلم لو فطنت لاعلامه انك الشيخ المضحوك من كلامه وذلك ماليس به خفاء أنه من صفات السخفاء

(المقالة الرابعة والستون) شبت وعرامك ماوخط عارضيه مشيب وشخت وغرامك رداء شبابه قشيب مالى أرالث صعب المراس جامح الراس كأن وافد المشيب لم يخطمك وكأن ارتقاء السن لم يحطمك الشيخوخة تكسب أهلها سمتا وأنت ما اكتسبتك الا أمتا لو علمت أى وفد حل بفودك لتبرقعت حياء من وفدك ولكن محياك لم يتعلم الحياء ولم يتهج من حروفها الحاء ولا الياء تثب الى الشر كما تثب الظباء وتلهث الى اللهو كما يلهث الظماء ان جمجم الباطل فاسمع من سمع وان همهم الحق فكأنك بلا سمع جاءت نفسك على الرياضات وهى ريضة ومن يحتلب اللباء من اللبوة المغيضة

مقالة أدبيه

(فى الاشتغال بمباشرة المناصب عن الاحتفال بمسامرة الصديق والصاحب)

نقلت من خزانة الاسرار باحدى مدن الآثار عن حبر أحبار وجهينة أخبار عبارة بالحروف مرقومه تحت صورة فى الكتاب مرسومه تشير باحدى يديها الى المقة والوفاق وبالاخرى الى المقت والشقاق وهى مع ما فيها من اللطافة تعد فى ذاتها خرافة (ونصها) انه كان يوجد بمدينة تلمسان كهل من عفاة بنى ساسان أنهكت جسمه الفاقه ولم يقابله دهره بالطلاقة وكان له وليد نجيب أوحفيد ذكى لبيب انحاز الى مؤدب صبيان ومعلم أطفال وفتيان فتعلم منه القراءة والكتابة وأبدى فى حفظ دروسه النجابة وأخذ عن غيره النحو والصرف وجال فى ميدان الادب باسبق طرف وبلغ من المنطق والبيان والبديع ما يرتفع به قدر الوضيع واستحوذ من العروض والانشاء واللغة وسائر الفنون والحديث والفقه والتوحيد وآداب البحث على ما تقر به العيون وبرع فى معرفة الهيئة والجبر والهندسة والحساب وحل بفكره الوقاد فى كل فن مسائله الصعاب حتى أصبح لا يجاريه مجار ولا يباريه فى مجاله مبار وهاجر فى طلب العلم الى أكثر البلاد وكانت آخر مدينة انتهى اليها بغداد فاجتمع فيها بأقيال البراعة وأبطال البلاغة واليراعة وركب معهم

سفينة المناقشة ورفع فى بحرها شراعه ومد بينهم فى كل فرع من العلوم باعه فلما تبين لهم انه فارس الميدان وأنه أوحد زمانه فى المعارف بين الاخدان مالوا اليه وكثرت فى المدينة خلانه وأثنت على أخلاقه بكل لسان جيرانه وشاع بين البرية ذكر معلوماته الخارجة عن حد القياس حتى طرق مسامع وزير أحد خلفاء بنى العباس حيث قيل له وهو فى محفل من نبلاء الجلاس ان هذا الاستاذ أفصح من قس وأذكى من اياس فقال الوزير لحاجبه ابن جرير أقصد فى غد دار هذا الفاضل الذى دونه فى المباحث كل مناضل والتمس من جنابه أن يزورنا بركابه لعلى أتخذه كاتبا ومشيرا وحاسبا بالديوان وسميرا فقبل الحاجب الارض وأجاب بلبيك وقال انه سيكون عندك وبين يديك فلما كان فى صبيحة يوم الجمعة هيأ بغلة عظيمة السرعة وسعى اليه وسأل عن داره من وجيه كان ساكنا فى جواره ومذ لقيه وجاء به الى مولاه قربه وأكرم مثواه وأنزله برواق من مأواه ورفع درجته على من سواه ولما كان هذا المتفنن حلو الفكاهة حسن المسامرة مجازى النباهة خلب العقول بفصاحته وسلب الالباب بسحر بلاغته وتشبث من عهد نشأته بما ينشر بين الملأ أعلام شهرته ويذهب عنه العسر والباس ويجلب له اليسر بين الناس ويجذب اليه قلوب الورى ويطيع له أسد الشرى ويرغب فيه العباد ويحبب فيه ذوى الرشاد وقد احتفل بذلك فى السر والعلن حتى نال بغيته وفاز بالذكر الحسن ولم يدع من أفعال الخير شيأ الا سارع اليه وانقض بلا توان انقضاض العقاب عليه فكنت تارة تراه بالمساجد كناسك راكع ساجد وتارة يبدو فى المجالس بوجه بشوش غير عابس وطورا يبرز بين الاقران فى حلة الرأفة والاحسان وطالما أحرز قصب السبق فى مضمار نصرة الحق وتمادى على هذا العمل بلا فتور ولا كسل الى أن تقرب بمثل هذا السلوك من هذا الوزير الذى تفتخر به الملوك فقلده فى ديوان الخليفة بوظيفة كاتب الانشا المنيفة ثم تنقل من ايوان الى ايوان حتى استوى على مرتبة رئيس كتاب الديوان وصار يركب فى المواكب بعد انتظامه فى سلك ذوى المراتب ويتقلب فى أودية النعم ويتصرف التصرف التام فيما يتعلق بارباب السيف والقلم ولا زال فى كل يوم يعلو مناره وينمو على الدوام فخاره ويزداد بين الامراء اعتباره ويغرس فى أفئدة الوزراء وقاره الى أن نال من زمانه الامل ووصل بالارادة الازلية الى ما وصل ولاحظته عيون السعادة ففاز بالحسنى وزياده

ألا رب راج حاجة لا ينالها * وآخر قد تقضى له وهو جالس
يجول لها هذا وتقضى لغيره * وتأتى الذى تقضى له وهو آيس

وبعد ان تقلد بهذه الوظيفة الرفيعة وتأهل من بنات أعيان المدينة بحرة فى حسنها بديعة أقبلت عليه الدنيا بخيراتها الجزيلة وامتلأت عليه داره من الخدم والجوارى الروميات الجميلة

واشتغل بمباشرة المناصب عن الاحتفال بمسامرة الصديق والصاحب فثارت عليه طوائف الحساد من كل جانب واتهموه بالانحراف عن أقوم المذاهب وقال فيه شاعرهم النبيه

اذا رفع الزمان وضيع أصل * وألبسه ثياب الاعتبار
فسالم من أردت سواه وانظر * له أبدا بعين الاحتقار

وزعموا أن بشاشته تبدلت بالتقطيب والعبوس وان فظاظته وعدم استقامته قد اشمأزت منهما النفوس وانه اعتزل الاشراف وحاد عن طريق الانصاف وبالغوا في ذمه وتغالوا في هجاء أمه وقال بعضهم في مجالس الوزيران سوء فعله من الادلة القائمة على دناءته وخسة أصله وأنه مبير كذاب ومشير للفتن مرتاب وانه لما نال بغيته بغى وضل بعد الهداية وطغى وتاه على أبناء جنسه ولم يذكر يومه ما لقيه في أمسه وقال آخرون انه بقية من قوم عاد وان حياته مضرة بالانام على القرب والبعاد وانه ظهير لذوى المعايب ونصير للعاكفين على المثالب وليس الباعث لهم على اذاعة هذه الاقاويل الكاذبة واشاعة هذه الاباطيل التى سهامها به صائبة سوى الغيرة والحسد الذى رماهم بنبال الكمد

واذا خشيت من الامور مقدرا * وفررت منه فنحوه تتوجه

وبالجملة فانهم أقاموا على هذه الوتيرة مدة من الزمن غير قصيرة ونسبوا الى بعض أصهاره أنه هجاه بقوله من بديع أشعاره

مالى أراك عدلت لا لضرورة * عن سنة الاشراف والامجاد
أنسيت أنك قد نشأت بلا أب * فى فاقة من معشر أوغاد
من أين كان لك التقدم عنوة * لاعن أبيك ولاعن استعداد

وكان كلما ذكر فى محفل قال أدناه وأعلاه مشيرا الى كبره لو كان فيهما آلهة الا الله وحيث ان كل ذى نعمة عليها محسود اجتهدوا فى تقبيح سيره المحمود حتى أوغروا عليه صدر ولى أمره بعد أن أقاموا له البراهين على اعتزاله وكفره فتنكر له وعزله وعن وظيفته السامية فصله فلما انزوى عقب الطرد بقصره لم يتركوه بلا أذى فى حصره بل اعتدوا عليه وبعثوا اليه

أمسيت ياطير مقصوص الجناح رقد * ألقاك صيادك المحتال فى القفص
لافرج الله عنك الكرب فيه ولا * أخلاك فيه مدى دنياك عن غصص
وأنت لاشك بعد الموت فى سقر * بنص ما أنزل الجبار فى القصص

وكان قد اكتسب من الرزق الحلال بالهمة مالا يحصى من الاموال الوافرة الجمه وادخرها فى داره المضاهية فى زينتها المدينة ارم التى كانت آهلة بالسرارى الحسان والحشم ولولا شغفه

بحب الرئاسة وبولعه باحوال السياسة لعاش عيشة راضية فى يسار وثروة ولذة وافية وزيادة حظوة وكيف لا وقد كان فى هذه الدار المزخرفة الرصينة الاسوار ماتشتهى الانفس وتعجز عن وصفه الالسن مما يشرح الصدور ويسر الاعين من عرب أتراب تسحر بجمالها الالباب وحور عين حسان لم يطمسهن انس قبلهم ولا جان وهو معهن آناء الليل وأطراف النهار فى جنات تجرى من تحتها الانهار ولما توارى عن ذوى الاحقاد وانقطعت عنه ألسنة الحساد كان لا يسمع مايكدر منه الخاطر أو يحرك ما انطوت عليه الضمائر من غيظ وحنق على من بنار النميمة احترق فلو أنه دام على هذه الحال لتنعم منه البال لكنه لما طال عليه المدى وتذكر شماتة العدا عاف الشراب والطعام وانحجم لسانه عن الكلام وضاق منه الخناق وكادت روحه تبلغ التراق وهجر الكواعب وبسر فى وجوه ذوى الملاعب ومج سمعه الانغام والاغانى وأعرض عن مشاهدة الغوانى وتوهم أن بستانه النضير الواسع وروضه المزهر اليانع قد أمسى لتقارب الاطراف أضيق من سم الخياط بلا اختلاف وأظلمت الدنيا فى عينيه وصار لا يبصر مابين يديه وساءت منه الاخلاق واعترض فى سره وعلانيته على الخلاق مع انه كان يستقبح الفسق والفجور ويمقت منكر البعث والنشور ويقضى بكفر اشقى أبناء معرة النعمان حيث قال وهو معرة العميان

أتترك لذة الصهباء عمدا * بما وعدوك من لبن وخمر
حياة ثم موت ثم نشر * حديث خرافة ياأم عمرو

وكان لاحتجابه عن انتشاق نسيم الاخبار يصبح ويمسى فى اختناق على مقالى النار ولقد عيل منه الاصطبار بعد طول الانتظار وأضحى لا يقر له قرار باى مكان من الدار حتى انه فى خلال الدوران دخل قاعة مزخرفة البنيان ووقف تجاه شباك مشرف على شارع ابن الحبالك فوقع بصره على شيخ كبير كأنه لفخامته بعير وهو يتوكأ على عصاه وقد كشف رأسه وقفاه وشرع فى طلب الصدقة من ذوى المروءة والشفقة بقوله ياأهل المراحم والمروة والمكارم الشاملة والفتوة تصدقوا على بعل الشيخة أم طبق بما يستر العورة ويسد الرمق فلما رآه وهو على مابه من الاضطرار الى سؤال الجائز والمار حسده على غدوه ورواحه وتمنى أن يحظى مثله باطلاق سراحه وقال لغلامه وائل على بهذا السائل فانطلق على الفور يهرع خلفه فادركه قبل الانسياب فى أول عطفه وقال له أيها السائل المضطر أجب الرئيس أوحد الدهر فحصل للشيخ من شدة الارتياع ضرب من الخدر والصداع وأوجس منه فى نفسه خيفة لتوهمه أنه من الاعوان الموكلين بضبط كل سائل من الرجال والنسوان وقال له سألتك بالله ياابن الحلال الاماتركتنى أسعى فى طلب رزق العيال فتلطف به حتى لان وأجاب وسار معه وهو على غاية من الارتياب

وأدخله القصر بعد صلاة العصر فاعتراه من هيبة المكان ما زلزل منه الاركان وكادعقله من رأسه يطير عند رؤيته لاعوان هذا الرئيس الخطير ومن شدة ما ناله من الذهول هم بالرجوع من قبل الوصول فمنعه الخادم أبوخف عما أراد بلين ولطف ولازال يسكن عنه بعض روعه وينهاه عن رجوعه ويعده عن مولاه بزوال البوس وامتلاء كيسه بعد الافلاس بالفلوس حتى وقف به أمام سيده بالبستان وقال له أدن من مولانا وقبل راحته بامان فلما عاينه الشيخ جثا على ركبتيه وبادر الى تقبيل مواطئ قدميه فاقامه وعلى متكأ بجواره أجلسه وبش فى وجهه وبعذوبة ألفاظه آنسه وسأله عن أحواله وعن مقر زوجته وعياله ثم أمر غلامه ابن بسام بالتوجه به الى الحمام وبعد تنظيف بدنه وازالة ما عليه من درنه خلع عليه حلة تليق بحاله وغمره من الاحسان بما كفه عن سؤاله وحمله بعد حلق رأسه وقص شاربه الى مولاه فأكرمه وأجلسه بجانبه وقال له أيها الشيخ الذى ألبسه الشيب من الوقار أبهى ثياب أنت صرت الآن عندنا من أجل الاصدقاء والاحباب وقد ربطنا لك ولعيالك من المرتبات ما يستقيم به أودحالك ورفعنا ما بيننا وبينك من الحجاب فادخل علينا بدون استئذان من أى باب وأتحفنا بما تلتقط من الاخبار ولا تخف بعد اقبالنا عليك غائلة الادبار فقال الشيخ متمثلا بما راق وحلا

يا أيها البر الكريم ومن له * منن حللن من الزمان وثاقى

من شاكر عنى ندالك فانه * من عظم ما أوليت ضاق خناقى

منن تخف على يديك وانما * ثقلت مؤنتها على الاعناق

وحضرت المائدة بالاطعمة فدعاه اليها وعلى سواه قدمه فامتنع عنها الشيخ وتأخر وأحجم عند الاقدام وتقهقر وقال معاذ الله أن يأكل السائل المسكين مع حضرة الرئيس الاجل المكين لانه لا يسوغ للصعلوك الذى لا يساوى قلامة ظفر مملوك أن يتجارى على الاكل مع المالك ولو ساقه الجوع الى مهاوى المهالك وكيف يجلس معه على خوان يتعذر الدنو منه على الوجوه والاعيان فقال له الرئيس النبيل هذه عادتنا مع الحقير والجليل ولازال يدعوه الى الزاد وهو يمتنع ولونه من شدة الخجل ينتقع الى أن تقدم لكن على رغم أنفه لانهم كانوا يقودونه من أمامه ويسوقونه من خلفه ولما قعد للاكل ولم يتفق له ذلك من قبل مد يده وهى فى غاية الارتعاش وتناول أول لقمة فسقطت على الفراش وهكذا كان يأكل بخوف ووجل وكان حلقه مسدود بصخرة من جبل مع أنه كان يتأتى له فى غير هذا الخوان ابتلاع مائة رغيف وخمسة خرفان ولاشك أنه ما تحصل من هذه المائدة الكثيرة على شبع بل قام وهو جائع وكان يتمنى أن يأكل مرة أخرى مع التبع الا أنه قد حيل بينه وبين المرام لخوفه من التوبيخ والملام ولما فرغ من غسل يديه

وانتصب أمام الرئيس على رجليه أشار عليه بالقعود فاجاب بالركوع والسجود فالح عليه حتى جلس فوق بساط منقوش فى قاعة بجوار قاعة المائدة مفروش وبعد أن شرب القهوة ازداد فرحا ونشوه وبات الى الصباح فى سرور وانشراح ثم خرج من القصر ولسان حاله يقول وهو فى طريقه يجول

تبدل عسري بيسر وقد * بلغت من الدهر كل المنى
فيارب زدنى قبولا به * أعيش سعيدا حليف الغنى

وكان برفقته أحد غلمان الدار فأخذ معه فى السير الى جهة اليسار حتى أوصله فى عطفة موصله الى المنزل الذى نقلت اليه العائلة ثم تركه وانصرف من حيث أتى ودخل هو على زوجته فسمعها تقول لاحد أولادها يافتى أين أبوك الاقرع بن شعلان فانه لو رأى ما نحن فيه من الخير والاحسان لزال عنه الهم والترح ولبكى من شدة الفرح تالله ياقرة العين وحياة أختك أم بطنين انى أظن أننا الآن فى منام والذى نحن فيه أضغاث أحلام فقال لها وقد لاحت منه التفاتة الى جهة الباب هذا أبى قد أقبل يرفل فى أبهج أثواب فعند ذلك هرولت الشيخة بملابسها الجديدة اليه وقبلت يديه وسلمت باشتياق عليه وقالت له ياأبا الاطفال من أين لنا هذا الاقبال فقال لها يابنت عبد الله هو من عند الله ثم قص عليها ما جرى له من أوله الى آخره وأوقفها على باطنه وظاهره وقال لها وأنت أخبريني كيف كان الانتقال من دويرتنا الحقيرة الى هذا المنزل العال فقالت جاءنى جماعة من الغلمان بالقشة صالحة للبنات والصبيان وقالوا ان الشيخ بعث بها اليكم فالبسوا منها ما اشتهتم فانه فصلها عليكم وسيروا بنا الى الدار التى اشتراها برسمكم وأعدها بجوار قصور الاعيان والامراء الكرام فلما توسطناها وطفنا باعلاها من المناظر والمخادع والاروقة الواسعة المطلة على الدور والجوامع وكان طوافنا فيها بالذكور والاناث وجدناها بديعة الهندمة كاملة الاثاث وألفينا بها من الحنطة والسمن والعسل والفول والزيت والزيتون والثوم والبصل ما يكفى بلا تردد فى القول مدة لا تقص عن نصف حول وهاهى أمامك وبين يديك فطف بها ان لم يكن فى الطواف مشقة عليك فقال لها وقد تبسم وهو يمدح المنعم عليه يترنم قولى معى فى الابتهال بعد الصلاة على النبى والآل اللهم بارك لنا فيما أعطيت ومتعنا بزيارة ساكن طيبة وحج البيت وانظر بعين الرضى والقبول والرعاية الكاملة والشمول الى من عمنا من بحر كرمه بوافر هباته ونعمه وكان الليل بظلامه أقبل والنهار بضيائه تحول فأكلوا حتى اكتفوا مما تهيأ لهم من الطعام الفاخر وحمدوه سبحانه على ما اغترفوا من بحر جوده الذاخر وباتوا فى مسرات وأفراح الى أن أشرقت غرة الصبح الوضاح ثم نهض من نومه كأنما نشط من عقال وصلى المكتوبة وأفرغ عليه ملابسه فى الحال

وأكل مع أولاده ما تيسر وخرج من داره واكترى من السوق حمارا أخضر فركبه وانساب في الازقة والشوارع فالتقط كل خبر شائع وسارع بما جمع الى مولاه فقص عليه ما سمع من الافواه وبالبيه باع كما شرى بل أضاف الى كل لفظة من أمثالها عشرا فحظى عنده بأعلى منزلة وبالغ في احترامه وبجله وقال له أيها الشيخ المعمر ومن هو نعم السمير المدبر اركض بخيلك ورجلك ولوفى الدواوين والمصالح وأتحفنا بأخبار المقيم والغادى والرائح وان لاح لك في مدحى فرصة فانتهزها عسى تزول بها عنى الغصة لاعود يا أبى كما كنت الى منصبى فأجاب الشيخ بالطاعة والسمع لطمعه في الحصول منه على النفع ثم ودعه وانقلب الى داره وأمر كلا من زوجته وأولاده بالتجرد عن أطماره وصعد بهم في الثلث الاخير من الليل على السطح وكان يحفظ من القرآن الشريف سورة الفتح فتلاها بسكينة وخشوع وقد تناثرت من عينه الدموع وقال يا أولادى أنتم تعلمون ما كنا فيه من الفقر وعرى البدن والفاقة التى تقصم الظهر وان هذا الرجل المحسن تكفل لنا بالمؤنة والكسوه ودفع عنا بما وصلنا به من الاحسان ما كان للزمن من الجفوه فارفعوا أكف الضراعة بالخلاص واطلبوا منه جل وعلا انقاذه من ضيق الاقفاص وعودته الى ما كان عليه من الاقبال وامتيازه في الدرجة عن الاقران والامثال وقد استمر معهم على ذلك نحو سنة لا يأخذهم فيها عند السحر نوم ولا سنة فلما كان في أول ليلة من شهر الصيام خلعوا ملابسهم والناس نيام ودعوا وعليهم أمنت الوالدة وكانت أبواب الدعاء مفتحة والايام مساعده فاستجيب دعاء الوالد والافراخ وانتشل الرئيس من وحلة الطرد وماله من الاوساخ وذكر عند الوزير بخير في الديوان فامر برده الى منصبه وانجلت عنه غياهب الحرمان وعند فراغ الشيخ في صبيحة هذه الليلة من عبادته سعى الى خدمته على حسب عادته فتعذر عليه الوصول الى الجناب بسبب ازدحام الحمير والبغال والخيل على الباب ولما أعياه ذلك وضاقت عليه المسالك قال لبعض الخدم وكان اسمه كعب بن قدم كيف السبيل الى لقاء السيد الجليل فقال مستهزئا به وقد رجمه بالحصى وضربه على كتفيه بالعصى من أنت أيها الحقير حتى تحظى بمقابلة الرئيس الخطير انى أظن يا سخيف العقل أنك مجرد عن حلية الفضل أيخطر ببالك أنه باق على عهده القديم أو أنه يجد وقتا يستغرقه في منادمة النديم أما علمت يا خرفان أنه تحول من شان الى شان وأنه أماط عنه جلباب التواضع والفتور واستعد لمباشرة الامور وكانك به وقد أهمل الرفيق وتغافل الاعن الرحيق فقال له الشيخ كذبت فيما ادعيت ولا جرم أنك عليه افتريت وسأقص عليه خبرك ليقطع من الدنيا أثرك فقال الخادم يا شيخ الضلال سترى أن مثلى ما كذب ولا افترى وكان الاقرع قد تعب من طول مدة الوقوف فرجع الى داره بالخيبة والكسوف وبمجرد دخوله من العتبة

قال له ابنه أبو رقبة يا أبتي ان الراتب ما أتى به في هذا اليوم وانه لا قدرة لنا في الليل والنهار على الصوم فسكت الشيخ على مضض وقد اعتراه من شكوى ولده المرض لان عائلته لما كانت كثيرة العدد كان لا يبقى من مرتبها اليومي أدنى شيء الى غد ويقال انهم باتوا في هذه الليلة بلا زاد وان أحوالهم قد تبدلت بعد الصلاح بالفساد ثم انتبه الشيخ من نومه ونهض في يوم الاحد الى ملاقاة مولاه الاوحد فلم يصل بأي حيلة اليه لكثرة الازدحام عليه وقد استمر على ذلك أربعة أيام مضت عليه كأنها لطولها أربعة أعوام وخطر بباله في اليوم الخامس أن يدخل عليه وهو في الديوان جالس لعله يفوز من الاجتماع معه بعد الوحشة بالاستئناس فانتهز فرصة استراحة الحراس وأيقن أنه بزعمه أتقن الحيل واندفع في قاعة جلوسه على عجل وتأمل فيها فوجدها ملونة الجدران واسعة وهي لانواع الظرافة والزخرفة جامعة وشاهد في صدرها شبحا كأنه أسد أو آدميا مشوه الخلقة كالرصد وقبل أن يدنو منه و يفوز بالقصد سمع منه صيحة هائلة كالرعد فانقلب على ظهره وسحبوه وطرحوه على الارض وضربوه وقال له زعيم الاعوان نذير موبخا له على فعله النكير لك الويل يا أغبر يا مهين يا قبيح المنظر كيف خاطرت بنفسك وتجاريت على ارتكاب ما يسوقك الى رمسك ثم تفل في وجهه وصفعه وقال على أبيك اللعنة وعليك مغه اذهب * لا كنت من حيث أتيت وان رجعت بعدها الى هذا البيت أشبعناك ضربا ودفناك بالحياة غصبا تبا لك يا سلالة الانذال ويا حثالة أسافل الجهال كيف تسعى بقدمك الى اراقة دمك فلما انفلت الشيخ من أيدي الاعوان اللئام وقد خف عنه بعض ما كان يجد من الآلام أخذ يمشي الهوينا حتى انتهى الى منزله عند الغروب وهو في ارتباك وقد أشرف من الضرب بالسياط على الهلاك ودخل على زوجته وشقه مائل والدم من رأسه سائل فقالت له من فعل بك هذا يا ابن شعلان قال فعله جماعة من الاعوان بعد ما أفرطوا في السب واللعن وأوعدوني ان لقيني أحدهم بالطعن فقالت له لعلك ما عرفت لزعيمهم حقه ولا استملت معهم في كلامك الرقة فعوقبت على قلة أدبك بما أودى بك الى سوء منقلبك وانه يجب عليك مع فقرك وزيادة فاقتك وعسرك أنك يا أقرع بالنزر اليسير تقتنع فقال لها اني دخلت في قاعة الرئيس الهمام لزعمي أني له من جملة الخدام فسحبوني على وجهي قهرا وعاملوني بضد عدل كسرى هنالك نسيت بما ناله من العذاب الاليم ما كانت فيه مع عائلتها من النعيم وتمثلت وهي على جمر الغضا بقول من مضى

أياويح دهر فيه قد عدم الوفا * فما ينقضي فيه لراجيه مأرب
يكدر عيش المرء بعد صفائه * وان ما كسا ثوبا من العز يسلب

ثم قال لها يا حليلتي ويا صاحبتي وخليلتي ان هذا الرجل قد غدر بي ومكر وجعلني عبرة لمن اعتبر وانقطع عنا كما تعلمين الراتب وزحفت الينا جنود النوائب فاخلعي مع البنات ما عليكن من اللباس ولنقل باجمعنا اللهم يا شديد الباس اشدد وطأتك عليه وافصله عن منصبه ولا تنظر اليه وليكن ذلك سريعا مجلا لا بطيئا مؤجلا

لعن الله من يرى الضر للنا * س ويسعى فى كشف حال الخلائق
رب فانزل عليه سوط عذاب * وارمه الآن فى أشد المضايق
وأذقه نكال بطشك واضرم * عمره فى دياره بالصواعق
يا شديد المحال شدد عليه ال * كرب وانصب له شباك العوائق

وكان دعاؤهم عليه كل ليلة فى وقت الفجر فاستجاب الله منهم فى عامهم وقضى الامر ومنع عن مباشرة وظيفته بعد احالتها على خليفته وكان السبب فى ابعاده على ما قيل فى هذه المره هو أن رموه بقتل خادمه سكران بن خمره لادعاء بعضهم عليه أنه جمع ما جمع من الرشوة وصرفه فى سبيل اللهو والصبوة ولما عاد الى ما كان فيه من الضيق والكرب وكان فى هذه الدفعة قد انتقم من الحساد بالضرب أغضب الصديق والجار وفى حكمه على الجميع جار فازداد عليه حنق العاقل والاحمق ونظر اليه كل واحد منهم بعين العدو الازرق وبعد أن مكث فى سجنه نحو شهر يتقلب وحده على الجمر تذكر الاقرع بن شعلان الذى كان يأتيه بالاخبار فى بعض الاحيان وكان هذا الشيخ عند ذلك يقول وجسمه من السغب فى نحول ليت شعرى هل يسمح الزمان الذميم بالقرب من سدة الرئيس الكريم ويسالمنى بعد ما فعل فعلته وغير فى عبادة الاخلاص قبلته وأبى الآن يصفعنى بخفه ويطأ عنقى بظلفه ويتحول معى من الادب الى السفاهة والقباحة ومن اللين الى الصعوبة والوقاحة وبينما هو يلهج بكيت وكيت ويتعلل بلو وليت ويقول هيهات هيهات أن يرجع ما فات اذ دخل عليه بشير غلام الرئيس الخطير وكان قد بعث به الى هذا الاقرع فانطلق الى منزله كلمح البصر أو أسرع وقال له بعد السلام والتحيه أجب مولانا صاحب السدة السنيه وكان الشيخ لا يعرف هذا الغلام مليح الصورة رشيق القوام فقال له ومن هو هذا الامير الذى تدعونى لمقابلته واليه تشير فقال هو سيدك ونصيرك وعدتك فى شدتك ومجيرك وانى أيها الشيخ الفقير أعتذر لك عنه فى التقصير وقد جاء معى أخى عنبر وهو واقف أمام بابك الاكبر فلثم الشيخ يده اليمين وقال له مرحبا بك أيها الامين وكان الغلام قد هيج فيه شهوة الطمع وأعطاه من النقود كمية اندفع بها عنه الوجع ووعده باموال وضياع ورفاهية أحوال ومتاع فلم تكن الاهنيهة من الزمن أو لحظه حتى نال الشيخ من هذا المطلب حظه وبمرافقة الغلام

الى مولاه سمح وعفا عن دهره المسيء وصفح وبعد صلاة الظهر لبس أطماره البالية وتمنى مفارقة عيشته غير الحالية وسار مع الرسول ولسان حاله يقول

سامح زمانك ان أتى * بعد العناد مسالما
واقبل معاذير امرئ * أولاك منه مكارما

فلما دخل عليه في قاعة الجلوس ودنا منه بوجه غير عبوس وانكب على القدمين وقبلهما بعد اليدين قال له ما الذي قطعك عني وأنت بمنزلة الروح مني فقال له قطعتني عنك السياط وحرماني أنا وعيالي من المرتب للسماط فتأسف عليه وتألم وقال تالله يا أبا مريم اني ما رأيتك من منذ عدة شهور مع احتياجي لك في بعض الامور واني ما أشرت الى أحد بضربك ولا أغريته على شتمك وسبك ولا أمرت بقطع الراتب بعد قيده في سجل الكاتب فقال له يا سبحان ربي أما أنت الذي أشرت بضربي وأمرت بقطع معاشي وقص ريش رياشي فقال لا وحرمة ما لك علي من الخدامة ما وقع مني في حقك ما يوجب الملامة فان كان قد أصابك من الاهانة ما يقضي بالانخفاض بعد علو المكانة فلا تحمله على الاستخفاف بمن هو دونك ولو من الاجلاف بل احمله على رداء ابليس الذي يستر به عين كل رئيس عند قيامه بوظيفة جليلة لينسيه صديقه وخليله ويضرب الحجاب بينه وبين العدو والحبيب حتى لا يميز البعيد من القريب فلما سمع منه الشيخ مقاله عرف أنه صادق المقاله وصفا له وقبل عذره وانقاد له وامتثل أمره وشرع على جري عادته في اتحافه بالاخبار فزال عنه بعض ما نزل به من الاكدار وضاعف له أرزاقه وحل من الفقر وثاقه وكساه حلة جديدة وملأ بطنه الجائع بالثريد والعصيدة وأقطعه ضيعة خصبة ذات بساتين وعيون عذبة يقال ان غلتها لا تنقص في كل سنة عن مائتين من الدنانير المستحسنة ووعده أنه ان عاد الى منصبه الفخيم وانجلت عنه دياجي العزل الوخيم كان أول داخل عليه وآخر خارج من عنده وشاركه في أمره ونهيه وحله وعقده فعند ذلك قال له الشيخ بعد أن أخذ عليه العهود سترجع لمنصبك على رغم الحسود ثم تركه ومضى الى البيت يعدو على رجليه كالجواد الكميت وقال لزوجته أيتها الوليفة ان الرجل تاق الى الوظيفة فاستعدي للدعاء له لا عليه عسى يعود منصبه اليه فقالت له انه ما عرف لك هذه المنقبة لما سالمته الايام وجلس على المرتبة واننا لا نزال بخير ما دام هو في ضير وقد رأيت بالامس ما فعله فقال لا تثريب عليه يغفر الله له ثم دعا فأجيب بعد مدة من الزمن الى ما طلب وفاز الرئيس من دعائه بالارب وكان الشيخ قد احتال حتى خرق سقف مخدع ظريف في الطريق الموصلة الى الديوان المنيف وانتظره الى أن ركب ومن تحته عبر فأدلى من الخرق رداء حجب بصره عن النظر فانزعج الرئيس وقال وهو في حالة الخوف ما هذا الملم

الذى حل منى الجوف فقال له الشيخ يا مولاى لا بأس عليك هذا ردائى قد سبقت به اليك حتى لا يتمكن ابليس من وضع ردائه على وجهك المهاب وأعود أنا الى ما كنت فيه من العذاب فلما عرفه ذهب عنه الروع والاضطراب وأزاله من المخدع وقربه منه كل الاقتراب ووصله واتصل به غاية الاتصال وعاش معه فى أرغد عيش بلا انفصال حتى أدركه الحمام بعد ثمانية أعوام ولم يزل أولاد هذا الشيخ من بعده رافلين عند الرئيس فى حلل رفده ناطقين بشكره الى أن ثوى بقبره تغمده الله برحمته ورضوانه وأسبغ عليه النعمة السرمدية فى جنانه ومتعه فيما بها من القصور بوصال الحور الفائقة فى الحسن على تمام البدور (لحضرة السيد صالح

مجدى بك)

نخبة من رسائل أبى بكر الخوارزمى

كتب الى تلميذ له قطع فى مجلس وكابر واختلط

بلغنى أنك ناظرت فلما توجهت عليك الحجة كابرت ولما وضع نير الحق على عنقك ضجرت وتضاجرت وقد كنت أحسب أنك أعرف بالحق من أن تعقه وأهيب لجلباب الانصاف والعدل من أن تشقه كأنك لم تعلم أن لسان الضجر ناطق بالعجز وأن وجه الظلم مبرقع بالقبح وأنك اذا استدركت على نقد الصيارفة وتتبعت خطأ الحكماء والفلاسفة فقد طرقت الى عيبك لعائبك ونصرت عدوك على صاحبك وقد عجبت من حسن ظنك بك وأنت انسان والله المستعان

وكتب الى رئيس طوس يعزيه عن شقيق له

كتابى عن سلامه وما سلامة من يرى كل يوم ركنا مهدودا ولحدا ملحودا وأخا منقودا وحوضا من المنية مورودا ويعلم أن أيامه مكتوبة وأنفاسه محسوبة وأن شباك المنايا له منصوبة أف لهذه الدنيا ما أكدر صافيها وأخيب راجيها وأغدر أيامها ولياليها وأنغص لذاتها وملاهيها تفرق بين الاحباء والاحباب بالفوات وبين الاحياء والاموات بالرفات وردعلىّ خبر وفاة فلان فدارت بى الارض حيرة وأظلمت فى عينى الدنيا حسرة وملأ الوله والوهل قلبى وساوس وفكره وتذكرت ما كان يجمعنى واياه من سكرى الشباب والشراب فعلمت أنه شرب بكأس أنا شارب من شرابها ورمى بسهم سوف أرمى بها فبكيت عليه بكا الى نصفه وحزنت عليه حزن النفس شطره وسألت الله تعالى فانه أكرم مسؤل وأعظم مأمول أن يفيض عليه من رحمته ما يتم به سهمه من نعمته وأن يتغمد كل زلة ارتكبها برحمته ويضاعف له كل حسنة اكتسبها بمنته وأن يذكر له تلك الاخلاق الكريمة وتلك المروءة الواسعة العظيمة فان الله تعالى يحب السخاء فى المجد

فكيف في الوجد وان سخاء النفس ونصب المائدة خلق من أخلاق الصديقين وشعبة من شعب النبيين ثم تذكرت ما نزل بسيدي من الوحشة لفقده والغمة من بعده والتحسر على قربه ببعده فخلص الى قلبي وجع ثان أنساني الماضي وثالث أنساني الثاني حتى استفرغ ذلك ما في صبري بل ما في صدري وحتى صار الوجع وجعين والمصاب اثنين ثم رجعت الى أدب الله تعالى فقلت انا لله وانا اليه راجعون اللهم لا شكاية لقضائك ولا استبطاء لجزائك ولا كفران لنعمتك ولا مناصبة لقدرتك اللهم ارحم الماضي رحمة تحبب اليه مماته وابق الحي بقاء يهنيه حياته واطبع على قلبه حتى لا يطيع داعية الجزع ولا يضع عنانه بيد الهلع ولا يثلم جانب الاجر والذخر بالاثم والوزر ولا يجد عدوه الشيطان سبيلا اليه ولا سلطانا عليه اقتصرت من تعزية سيدي على هذا المقدار لا جريا على مذهبي في الاقتصار والاختصار ولكني لم أجد من لساني بسطه ولا في قريحتي فضله ويحق لهذه الفادحة الحادثة أن تدع اللسان محصورا والبيان مقصورا أو أن تحدث في العقل خللا وفي البنان شللا وليعرفني سيدي خبر ما هداه الله اليه من جميل العزا الذي لم يعدم جميل الجزا ليكون سكوني الى ما أعرفه من سلوته أضعاف قلقي كان بما ظننته من حرقته وان كنت أعلم أنه لا يخلي ساحة الحلم والعلم ولا يخل بالواجب من التمسك بالحزم ولا يحل عقدة صبره ولا تتداعى أركان صدره ولا يعمى الرشد في جميع أمره وهذه شريطة الكمال وسجية الرجال

وكتب الى أبي محمد العلوي جوابا عن كتابه

ورد كتاب السيد مبشرا من خبر سلامته بالبشرى التي تنسي كل بشرى وبالنعمى التي تلغي كل نعمى وبالفائدة التي تفطم فوائد الاولى والاخرى وفهمته ولما بلغت منه الى ذكر الاعتذار عن تأخر كتابه عني وشمول النعمة بامثاله للناس دوني امتلأت عجبا ورأيت لي في كل جارحة قلبا ورأيت السيد قد سلك بي من التواضع طريقا قد رفعه الله تعالى عنها وجعله بنجوة منها وتكلف ما لو تكلفته له لكنت سالكا طريق الافراط وراكبا مطية الغلو والاشتطاط وكيف به هو وانما كلامه لنا معشر شيعته كنز وذخر وعز وفخر ومال ووفر وكبر وكثر وحياة وعمر فكيف كتابه الينا وسلامه علينا والرئيس اذا أعطى المرؤوس فوق حقه فقد استرجع منه واذا باسطه بما لا يسعه قدره فقد انقض عنه والاشياء اذا أفرطت الى الرجحان عادت الى النقصان ذكر السيد أنه لا يرضى لمكاتبتي عفو كتابته ولا ينزل فيها على حكم بلاغته وهذا كلام لولا أنه قد جرى به بنانه ونطق به لسانه لقلت تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ولقد جئتم شيئا إدا الكتابة أيد الله تعالى السيد صناعة مجانستي بها مجانسة النور للظلام

ومناسبتى لها مناسبة الاوز للنعام ولم أقرع بابها ولم أعلق باسبابها ولم أعاشر أربابها وأصحابها
ولا ادعيتها بقلمى ولا بلسانى ولا ادّعاها الى أصدقائى واخوانى ولا تمنيتها اذ كان المتمنى انما يتعلق
بذنب الامكان ويمشى فى طريق الكيان ولا احتلمت بها اذ كان الانسان انما يتوهم وهو وسنان
ما يتفكر فيه وهو يقظان ولا دعوت الله تعالى بها لانه أمرنا أن نسأله ما لا ينقض العادة ولا يفسد
التكليف والمصلحة ولو كنت أجوز على نفسى شيأ منها لجوزته من طريق اتصالى بجانب السيد
فان المواصلة ربما صارت مقاربه والمقاربة ربما جابت مشاركة ومناسبة وهب أن ذلك كان
فكم وكم مقدار ما يتعلق بذيل المعاير من دراهم الصيرفى وما عسى أن يعبق بثياب الجليس من طيب
العطار والصيدلانى وكم يحضنى فى الكتابة على مجالسة السيد فى كل أسبوع ساعة وعلى روايتى له
فى كل شهر كتابة أو رقعة اللهم الا أن يكون السيد أراد بما ذكره رياضتى لاتهذب والتعرض لى
بذكر الكتابة لكى أكاتب فان هذا من أبواب الحث والبعث وصنف من أصناف الرقى والنفث
قد يقول الاستاذ لتلميذه أحسنت يا سيد الادباء وأصبت يا واحد العلماء ليلمظه طعم التقدم
وليرقيه فى درجات العلم بالتعلم فان كان ذلك هذا السيد أراد فقد بلغ المراد وها أنا بعد اليوم
أقرع باب الكتابة وانساق على خيطان البلاغة وأجمع ما أقدر عليه من رسائل السيد فاحفظها
صدرا صدرا بل سطرا سطرا وأردد كل واحدة منها خمس مرات بل عشرا فان خرجنى ذلك
فالحمد لله تعالى الذى رزقنى ثم للسيد الذى حركنى وان تكن الاخرى فبلغ نفس عذرها
مثل من منح ذكر السيد أن اعتداده بى اعتداد العلوى بالشيعى والمعتزلى بالمعتزلى وأنا أقول مكافيا
لا مباريا ومتابعا لا موازيا اعتدادى بما رزقنيه الله من اعتداد السيد بى اعتداد الصحابة بالنبى
(عليه السلام) واعتداد الشيعة بالوصى واعتداد المعتزلة بالحسن البصرى واعتداد الحجازيين
بالشافعى واعتداد الزيدية بزيد بن على رضى الله تعالى عنه واعتداد الامامية بالمهدى
لا بل اعتداد العاشق باللقاء والظمآن بالرى لا بل هو اعتداد محمد بن العباس الطبرى بالسيد
ابن محمد العلوى وهذا ميدان يحتمل الفرسان وفصل يتسع للتصرف والجولان ولكنى أكره
أن أشق على السيد فى الجواب وأن أكلفه دخول هذا الباب ذكر السيد أن انكفاءه الينا قد قرب
وأن حجم الغيبة قد صغر وذرعها قد قصر وأنا أسأل الله تعالى أن يصدق هذا المقال ويحقق
هذا الفال ويرى تلك الطلعة التى اذا رأيتها لم أتنغص بغيبة الغائبين واذا فقدتها لم أتهنأ بحضور
الحاضرين واذا نظرت اليها فيومى سعيد بل عيد وفصلى مريع بل ربيع واذا تصبحت بها
تصبحت بالنظر الى النبى والوصى عليهما السلام والى البتول ابنة الرسول والى السبطين
الشهيدين الحسن والحسين والى السجاد زين العابدين صلوات الله تعالى عليهم أجمعين

سالني السيد أن أسأله بعض هدايا تلك الناحية لا والله ما أعرف نفيسة ولا طرفة خطيرة تعدل عندي وجهه فليهده الي وليخلع نظري اليه علي وليعلم أنه اذا فعل ذلك فقد زف الى الدنيا في معرض الجمال وأهدى الى السعود بين طبق ومكبة من الاقبال ولم يدع لعين التمني بعد ذلك مطمعا ولا لقوس الاقتراح ولا التحكم بعدها منتزعا لا يكتب الى السيد بخط غيره لاني اذا قرأت كلامه من آثار بنانه فقد جنيت الورد من أغصانه وقليل لمن أدلى بمثل وسيلتي واتسم بمثل سمتي أن تنبعث له البنان والاقلام وأن ينتقى له الخط والكلام وأن ينزل على حكمه والسلام

(كتاب لبديع الزمان الهمذاني الى أبي عامر عدنان الضبي يعزيه ببعض أقاربه)

اذا ما الدهر جر على أناس * حوادثه أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن ما في الدهر عمومه بالنوائب وخصوصه بالرغائب فهو يدعو الجفلى اذا ساء ويختص بالنعمة اذا شاء فلينظر الشامت فان كان أفلت فله أن يشمت ولينظر الانسان في الدهر وصروفه والموت وصنوفه من فاتحة أمره الى خاتمة عمره هل يجد أثرا في نفسه أم لتدبيره عونا على تصويره أم لعمله تقديما لامله أم لحيله تأخيرا لاجله كلا بل هو العبد لم يكن شيأ مذكورا خلق مقهورا ورزق مقدورا فهو يحيا جبرا ويهلك صبرا وليتأمل المرء كيف كان قبلا فان كان العدم أصلا والوجود فضلا فليعلم الموت عدلا والعاقل من رفع من حوائل الدهر ما ساء ليذهب ما ضر بما نفع وان أحب أن لا يحزن فلينظر يمنة هل يرى الا محنة ثم ليعطف يسرة هل يرى الا حسرة ومثل الشيخ الرئيس من تفطن لهذه الاسرار وعرف هذه الديار فاعد لنعيمها صدرا لا يملؤه فرحا ولبؤسها قلبا لا يطيره جزعا وصحب الدهر برأي من يعلم أن للمتعة حدا وللعارية ردا ولقد نعي الي أبو قبيصة قدس الله روحه وبرد ضريحه فعرضت علي آمالي قعودا وأماني سودا وبكيت والسخي بما يملك وضحكت وشر الشدائد ما يضحك وعضضت الاصبع حتى أفنيته وذممت الموت حتى تمنيته والموت خطب قد عظم حتى هان وأمر قد خشن حتى لان ونكر قد عم حتى عاد عرفا والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها وجنت حتى صار أصغر ذنوبها وأضمرت حتى صار أيسر عيوبها وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها ولعل هذا السهم آخر ما في كنانتها وأزكى ما في خزانتها ونحن معاشر التبع نتعلم الادب من أخلاقه والجميل من أفعاله فلا نحثه على الجميل وهو الصبر ولا نرغبه في الجزيل وهو الاجر فليرفيه ما رأيه ان شاء الله تعالى

فى التاريخ والجغرافيـــه

خير مصر وبركاتها

قال بعض من انتصب لتفضيل دمشق لكونها وطنه على مصر عرفنا طيب الديار المصرية ورقة هوائها ولكن نحن لانجفو الوطن حيث حبه من الايمان ومع هذا فلا ننكر أن مصر اقليم عظيم الشان وأن مغلها كثير وأن ماءها غزير وأن سا كنها ملك أو أمير وأن الذهب فيها لايوزن بالمثاقيل ولكن بالقناطير وأن دمشق يصلح أن تكون بستانا لمصر ولاشك أن أحسن ما فى البلاد البستان وهل دمشق الا لمصر مثل الجنان

وقال عبد الله بن عمر أهل مصر أكرم الاعاجم كلها وأسمحهم يدا وأفضلهم عنصرا وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة يشير بهذا الى هاجر أم اسمعيل عليه السلام فانها من قرية أم دينار أو قرية أم دنين وكلاهما بمصر أو يقال انها من بلدة بقرب الفرما والى مارية أم ابراهيم فانها من قرية بصعيدها من اقليم الجيزة . وقد روى عن أبى ذر أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا باهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما فاذا رأيتم رجلين يقتتلان فى موضع لبنة فاخرجوا منها قال فر بربيعة وعبد الرحمن ابنى شرحبيل يتنازعان فى موضع لبنة فخرج منها . ويروى عن عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم منكم صهرا وذمة . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما دعا نوح عليه الصلاة والسلام لولده وولد ولده مصر يم الذى به سميت مصر مصرا فقال اللهم انه قد أجاب دعوتى فبارك فيه وفى ذريته وأسكنه الارض الطيبة المباركة التى هى أم الدنيا فلهذا يقال ان مصر هى اختيار نوح عليه السلام لولده وكذلك صارت اختيار الحكماء لأنفسهم واختيار عمرو بن العاص لنفسه واختيار مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز وهكذا كيف لا وهى بلد العلم والحكمة من قديم الدهر وحديثه ومنها خرج العلماء والحكماء الذين عمروا ممالك الدنيا بتدبيرهم وحكمتهم وفنونهم وصنائعهم ولم تزل الى الآن يسير اليها طلبة العلم وأصحاب الفهم من سائر الاقطار لتحصيل درجة الكمال وكفاها فخرا أنها تسمى خزائن الارض كما حكاه الله تعالى عن يوسف عليه السلام فى قوله لملك مصر اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم ولذلك قال بعضهم ان مصر خزائن الارض كلها وسلطانها سلطان الارض كلها يعنى أن يوسف لما تمكن من أرض مصر يتبوأ منها حيث يشاء كان بسلطانه فيها سلطان جميع الارض كلها لحاجتهم اليه والى ما تحت يديه حتى فى أيام الخلفاء كانت مثرية بالمآثر والمكارم تغنى الوافد عليها والقادم

ومما يدل أيضا على أنها كانت بمكانة من التمدن فى قديم الازمان قوله تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام أنه قال ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا وكذا قوله تعالى مخبرا عن فرعون انه قال أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون قال بعض المفسرين ولم يكن فى الارض ملك أعظم من ملك مصر وكان جميع الارضين يحتاجون الى مصر وأما الانهار فكانت قناطر وجسورا بتقدير وتدبير حتى ان الماء يجرى من تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاؤا انتهى وهذا عين التمدن اذ لا يكون ذلك الا بتقدم الصنائع والفنون ويؤيده بقايا الآثار المشاهدة التى لا كان مثلها فى غير مصر ولا يكون مع ما انمحى منها بشهادة قوله تعالى ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وقد قنع المأمون بهذه الآية حين استصغر مصر فى عينه وذهل عن حقيقة الدراية والرواية فادرك بها من الحكمة الغاية

وبالجملة فهى فرضة الدنيا يحمل خيرها الى ما سواها فيحمل منها من طريق بحر القلزم الى الحرمين واليمن والهند والصين والسند وبلاد أفريقية ومن جهة بحر الروم الى بلاد الروم والقسطنطينية والافرنج وسواحل الشام والثغور الى حدود العراق والى صقلية وكريد وبلاد المغرب ومن جهة الصعيد الى بلاد الغرب والنوبه والسودان والحبشة والحجاز واليمن ولاسيما الآن بوصل البحرين الابيض والاحمر واتصال أفريقة بآسيا على وجه أظهر فبهذا يقرب النقل منها واليها من سائر الاقطار المعمورة والمنظور أنها تصير بمنافع جميع ممالك الدنيا معمورة وتكثر مخالطتها مع جميع الامم فلا غرو أن يأتى لها زمان يصير فيه تمدنها راسخ القدم فان لطالع التمدن دورا مخصوصا من أدوار الجمعيات التأنسية عند حضور الاوان تسطع أنواره على سائر الآفاق والبلدان فكل مملكة تأخذ حظها الاوفر من نير التمدن مدة قرون وأزمان بحمية أهلها ومغالاتهم فى حب الاوطان فقد شبه بعضهم حب الاوطان الحقيقى والغيرة عليها بحرارة جديدة محلية متمكنة من الابدان الاهلية متى حلت ببدن الانسان غلبت على الحرارة الغريزية فلذلك اذا ظهرت الحمية الوطنية فى أبناء الديار المصرية وولعت بالمنافع التمدنية فلا جرم أن تذكو نارها وتغلب على القوة الاولية فيحصل لهذا الوطن من التمدن الحقيقى المعنوى والمادى كمال الامنية فيقدح زناد الكد والكدح والنهض بالحركة والنقلة والاقدام على ركوب الاخطار تنال الاوطان بلوغ الاوطار

فما دامت المنافع متفرقة فى الجهات فلتكن الهمم فى تحصيلها من جهاتها مقتضيا موجهات فلابد لكل انسان وكل مملكة من الحصول على المادة الكافية لبلوغ الوطر لاسيما التى لا يعرى منها بشر قال تعالى وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين فاذا انعدمت المادة التى هى قوام النفس لم تدم الحياة ولم تستقم الدنيا لاهلها فاذا تعذر على الانسان شئ من معايش الدنيا لحقه الوهن والاختلال فى دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشئ القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله

(مناهج الالباب)

ذكر نيـــــــــل مصر

ونيل مصر يفضل أنهار الارض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلها ولا يعلم نهر يزرع عليـه ما يزرع على النيل وليس في الارض نهر يسمى بحرا غيره قال الله تعالى فاذا خفت عليه فألقيه في اليم فسماه يما وهو البحر وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الاسراء الى سدرة المنتهى فاذا في أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وفي الحديث أيضا أن النيل والفرات وسيحان وجيحان كل من أنهار الجنـة ومجرى النيل من الجنوب الى الشمـال خلافا لجميع الانهار ومن عجائبه أن ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الانهار وجفوفها وابتداء نقصه حين زيادة الانهر وفيضها ونهر السند مثله في ذلك وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيـه فاذا بلغت زيادته سـتة عشر ذراعا تم خراج السلطان فاذا زاد ذراعا كان الخصب في العام والصـلاح التام فاذا بلغ ثمانية عشر ذراعا أضر بالضياع وأعقب الوباء وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان وان نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهي النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون وتماثلها أنهار خمسـة أيضا نهر السند ويسمى بنج آب ونهر الهند ويسمى الكنك واليه تحج الهنود واذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه ويقولون هو من الجنة ونهر الجون بالهند أيضا ونهر أتل بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ونهر السرو بأرض الخطا وعلى ضفته مدينـة خان بالق ومنها ينحدر الى مدينة الخنسا ثم الى مدينـة الزيتون بأرض الصين والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسـام ولا يعبر نهر منها الا في السفن شـتاء وصيفا وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فاذا مد ترعها فاضت على المزارع (لابن بطوطة)

ذكر الاهـــــــرام والبرابي

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها وأوليـة بنائها ويزعمون أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الاول السا كن بصعيد مصر الاعلى ويسمى خنوخ وهو ادريس عليه الســلام وأنه أول من تكلم في الحركات الفلكية والجواهر العلوية وأول من بنا الهياكل ومجـد الله تعالى فيها وأنه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الاهرام والبرابي وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ويقال ان دار العلم والملك بمصر مدينة منوف وهي على بريد من الفسـطاط

فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس اليها وصارت دار العلم والملك الى أن أتى الاسلام فاختط عمرو ابن العاص رضى الله عنه مدينة الفسطاط فهى قاعدة مصر الى هذا العهد والاهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهى السمو مستدير متسع الاسفل ضيق الاعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها ومما يذكر فى شأنها أن ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبت عنده أنه بنى تلك الاهرام بالجانب الغربى من النيل لتكون مستودعا للعلوم ولجثة الملوك وأنه سأل المنجمين هل يفتح منها موضع فأخبروا أنها تفتح من الجانب الشمالى وعينوا له الموضع الذى تفتح منه ومبلغ الانفاق فى فتحه فامر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه أنه ينفق فى فتحه واشتد فى البناء فأتمه فى ستين سنه وكتب عليها بنينا هذه الاهرام فى ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك فى ستمائة سنه فان الهدم أيسر من البناء فلما أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فاشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فلج فى ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التى بها الى اليوم ووجدوا بازاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق فى النقب فوجدهما سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا (لابن بطوطه)

ذكر الصنم الذى يقال له أبو الهول

هذا الصنم بين الهرمين عرف أولا ببلهيب وتقول أهل مصر اليوم أبو الهول قال القضاعى صنم الهرمين وهو بلهويه صنم كبير من حجارة فيما بين الهرمين لا يظهر منه سوى رأسه فقط تسميه العامة بابى الهول و يقال بلهيب ويقال انه طلسم للرمل لئلا يغلب على بلاد الجيزة وقال فى كتاب عجائب البنيان وعند الاهرام رأس وعنق بارزة من الارض فى غاية العظم تسميه الناس أبا الهول ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الارض ويقتضى القياس بالنسبة الى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعا فصاعدا وفى وجهه حمرة ودهان يلمع عليه رونق الطراوة وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسما وسئل بعض الفضلاء عن عجيب ما رأى فقال تناسب وجه أبى الهول فان أعضاء وجهه كالانف والعين والاذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة فان أنف الطفل مثلا مناسب له وهو حسن به حتى لو كان ذلك الانف لرجل كان مشوها وكذلك أنف الرجل لو كان لصبى لتشوهت صورته وعلى هذا سائر الاعضاء فكل عضو ينبغى أن يكون على مقدار ما هيته بالقياس الى الصورة وعلى نسبتها والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ التناسب للاعضاء مع عظمها وأنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه ويقابله فى بر مصر قريبا من دار الملك

صنم عظيم الخلقة والهيئة متناسب الاعضاء كما وصف وفى حجره مولود وعلى رأسه ماجور الجميع صوان ماتع يزعم الناس أنه امرأة وأنها سرية أبى الهول المذكور وهى بدرب منسوب اليها ويقال لو وضع على رأس أبى الهول خيط ومد الى سريته لكان على رأسها مستقيما ويقال ان أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن النيل وأن السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر وقال ابن المتوج زقاق الصنم هو الزقاق الشارع أوله بأول السوق الكبير بجوار درب عمار ويعرف الصنم بسرية فرعون وذكر أنه طلسم النيل لئلا يغلب على البلد وقيل ان بلهيب الذى عند الاهرام يقابله وأن ظهر بلهيب الى الرمل وظهر هذا الى النيل وكل منهما مستقبل الشرق وقد نزل فى سنة احدى عشرة وسبعمائة أمير يعرف ببلاط فى نفر من الحجارين والقطاعين وكسروا الصنم المعروف بالسرية وقطعوه أعتابا وقواعد ظنا أن يكون تحته مال فلم يوجد سوى أعتاب من حجر عظيمة فحفر تحتها الى الماء فلم يوجد شئ وجعل من حجره قواعد تحتانية للعمد الصوان التى بالجامع المستجد بظاهر مصر المعروف بالجامع الجديد الناصرى وأزيل عين هذا الصنم من مكانه والله أعلم وفى زماننا كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء قام فى نحو من سنة ثمانين وسبعمائة لتغيير أشياء من المنكرات وسار الى الاهرام وشوه وجه أبى الهول وشعثه فهو على ذلك الى اليوم ومن حينئذ غلب الرمل على أرض كثيرة من الجيزة وأهل تلك النواحى يرون أن سبب غلبة الرمل على الاراضى فساد وجه أبى الهول ولله عاقبة الامور وما أحسن قول ظافر الحداد

تأمل هيئة الهرمين واعجب * وبينهما أبو الهول العجيب
كعماريتين على رحيل * بمحبوبين بينهما رقيب
وماء النيل تحتهما دموع * وصوت الريح عندهما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب * تخلف فهو محزون كئيب

ويقال ان اتريب بن قبط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح أوصى أخاه صا عند موته أن يحمله فى سفينة ويدفنه بجزيرة فى وسط البحر فلما مات فعل ذلك من غير أن يعلم به أهل مصر فاتهمه الناس بقتل اتريب وحاربوه تسع سنين فلما مضى من حربهم خمس سنين مضى بهم حتى أوقفهم على قبر اتريب فحفروه فلم يجدوا به شيأ وقد نقلته الشياطين الى موضع أبى الهول ودفنته هنالك بجانب قبر أبيه وجده بيصر فازدادوا التهمة وعادوا الى مدينة منف وتحاربوا فأتاهم ابليس فدلهم على قبر اتريب حيث نقله فأخرجوه من قبره ووضعوه على سرير فتكلم لهم الشيطان على لسانه حتى افتتنوا به وسجدوا له وعبدوه فيما عبدوا من الاصنام وقتلوا صا ودفنوه على شاطئ النيل فكان النيل اذا زاد لا يعلو قبره فافتتن به طائفة وقالوا قد قتل صا ظلما وصاروا

يسجدون لقبره كما يسجد أوائلك لا تريب فعمد آخرون الى حجر فنحتوه على صورة اشموم وكان يقال له أبو الهول ونصبوه بين الهرمين وجعلوا يسجدون له فصار أهل مصر ثلاث فرق ولم تزل الصابئة تعظم أبا الهول وتقرب له الديكة البيض وتبخره بالصندروس (المقريزى)

ذكر عجائب مصر القديمه

قال الجاحظ وغيره عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة عشرة منها بسائر البلاد وهى مسجد دمشق وكنيسة الرها وقنطرة طنجه وقصر غمدان وكنيسة رومية وصنم الزيتون وايوان كسرى بالمدائن وبيت الريح بتدمر والخورنق بالحيرة والثلاثة أحجار ببعلبك والعشرون الباقية بمصر وهى الهرمان وهما أطول بناء وأعجبه ليس على الارض بناء أطول منهما واذا رأيتهما ظننت أنهما جبلان موضوعان ولذلك قال بعض من رآهما ليس شئ الا وأنا أرحمه من الدهر الا الهرمان فانا أرحم الدهر منهما وصنم الهرمين وهو بلهويه ويقال بلهيب وتسميه العامة أبو الهول ويقال انه طلسم الرمل لئلا يغلب على الجيزة وبربى سمهود قال الكندى رأيته وقد خرب فيه بعض العمال قرطا فرأيت الجمل اذا دنا منه بحمله وأراد أن يدخله سقط كل وتيب من القرط ولم يدخل منه شئ الى البربى ثم خرب عند الخمسين وثلاثمائة وبربى اخميم كان فيه صور الملوك الذين يملكون مصر قال صاحب مباهج الفكر وهى مبنية بحجر المرمر طول كل حجر خمسة أذرع فى سمك ذراعين وهى سبعة دهاليز ويقال ان كل دهليز على اسم كوكب من الكواكب السبعة وجدرانها منقوشة بعلوم الكيميا والسيميا والطلسمات والطب ويقال انه كان بها جميع ما يحدث فى الزمان حتى ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه كان مصورا فيها راكبا على ناقة وبربى دندار كان فيها مائة وثمانون كوة تدخل الشمس كل يوم من كوة منها ثم الثانية ثم الثالثة حتى تنتهى الى آخرها ثم تكر راجعة الى موضع بدأت وحائط العجوز من العريش الى اسوان محيط بارض مصر شرقا وغربا وقد مر ذكره والفيوم وهى مدينة دبرها يوسف عليه الصلاة والسلام بالوحى وكانت ثلثمائة وستين قرية تمير كل قرية منها مصر يوما وكانت تروى من اثنى عشر ذراعا وليس فى الدنيا بلد بنى بالوحى غيرها قاله الكندى ومنف وما فيها من الابنية والدفائن والكنوز وآثار الملوك والانبياء والحكماء وكان فيها البربى الذى لا نظير له الذى بنته الساحرة دلوكة وقد تقدم ذكره وجبل الكهف وجبل الطيلمون وجبل الساحرة فيه حلقة ظاهرة مشرفة على النيل لا يصل اليها أحد يلوح فيه خط مخارق باسمك اللهم وجبل الطير بصعيد مصر الادنى مطل على النيل مقابل منية ابن خصيب قال فى السكردان فيه أعجوبة لم ير مثلها فى سائر الاقاليم وهى باقية الى يومنا هذا

وذلك أنه اذا كان آخر فصل الربيع قدم اليه طيور كثيرة بلق سود الاعناق مطوقات الحواصل سود أطراف الاجنحة فى صياحها بحاحة يقال لها طير البج لها صياح عظيم يسد الافق فتقصد مكانا فى ذلك الجبل فينفرد منها طائر واحد فيضرب بمنقاره فى مكان مخصوص فى شعب الجبل عال لا يمكن الوصول اليه فان علق تفرق الطيور عنه وان لم يعلق تقدم غيره وضرب بمنقاره فى ذلك الموضع وهكذا واحدا بعد واحد الى أن يعلق واحد منهم بمنقاره فتفترق عنه الطيور حينئذ وتذهب الى حيث جاءت فلا يزال معلقا الى أن يموت فيضمحل فى العام القابل فيسقط فتأتى الطيور على عادتها فى السنة القابلة فتعمل العمل المذكور قال صاحب السكردان وقد أخبرنى بهذا غير واحد من المصريين ممن شاهد ذلك وهو مشهور معروف الى يومنا هذا قال أبو بكر الموصلى سمعت من أعيان أهل الصعيد أنه اذا كان العام مخصبا قبض على طائرين وان كان متوسطا قبض على واحد وان كان جدبا لم يقبض على شئ قال فى السكردان وحكى بعضهم أنه رأى فى بعض السنين طيرا تعلق بمنقاره وتفرقت عنه الطيور ثم اضطرب اضطرابا شديدا وأطلق نفسه والتحق بالطيور فدارت عليه وجعلت تنقره بمناقيرها الى أن عاد وتعلق بمنقاره فى ذلك الموضع وعين شمس وهى هيكل الشمس قال صاحب مباهج الفكر وقد خربت وبقى منها عمودان من حجر صلد فكان طول كل عمود منهما أربعا وثمانين ذراعا على رأس كل عمود منهما صورة انسان على دابة وعلى رأسهما شبه الصومعة من نحاس فاذا جرى النيل قطر من رأس كل واحد منهما ماء لا يجاوز نصف العمود والموضع الذى يصل اليه الماء لا يزال أخضر رطبا قال وقد وقع العمودان فى عصرنا بعد الخمسين وستمائة ونشرت حجارتهما وفرشت بها الدور وصنم من نحاس كان على باب القصر الكبير عند الكنيسة المعلقة على خلقة الجمل وعليه رجل راكب عليه عمامة متنكب قوسا وفى رجليه نعلان كانت الروم والقبط وغيرهم اذا تظالموا بينهم واعتدى بعضهم على بعض جاؤا اليه فيقول المظلوم للظالم انصفنى قبل أن يخرج هذا الراكب الجمل فيأخذ الحق لى منك يعنون بالراكب الجمل محمدا صلى الله عليه وسلم فلما قدم عمرو بن العاص غيب الروم ذلك الجمل لئلا يكون شاهدا عليهم والنيل وسيأتى خبره مبسوطا وحوض كان مدورا من حجر يركب فيه الواحد والاربعة ويحركون الماء بشئ فيعدون فى البحر من جانب الى جانب لا يعلم من عمله فاحضره كافور الاخشيدى الى مصر فنظر اليه ثم أخرج من الماء وألقى فى البر وكان فى أسفله كتابة لا يدرى ماهى ثم أعيد الى البحر فغرق وبطل فعله والاسكندرية فانها مدينة على مدينة على مدينة ثلاث طبقات وليس على وجه الارض مدينة على مدينة على هذه الصفة سواها ويقال انها ارم ذات العماد سميت بذلك لان عمدها ورخامها من الديجنا والاصطقيدس المخطط طولا وعرضا والمنارة التى بها ومنارة بناحية

أو بط من بلاد البهنسا محكمة البناء اذا هزها الانسان مالت يميناً وشمالاً لا يرى ميلها ظاهراً وفيء ظلها في الشمس والملعب الذي كان بالاسكندرية يجتمعون فيه فلا يرى أحدمنهم شيأ سوى صاحبه وكل منهم يلقى وجه الآخر ان عمل أحدهم شيأ أو تكلم أوقرأ كتابا أولعب لونا من الالوان سمعه الباقون ونظر القريب والبعيد فيه سواء وكانوا يترامون فيه بالاكرة فمن دخلت كمه ولى مصر قال صاحب مباهج الفكر وقد بقيت منه بقايا عمد قد تكسرت غير عمود منها يسمى عمود السوارى في غاية الغلظ والطول من حجر الصوان الاحمر والمسلتان وهما شخصان من صوان طول أحدهما ثلاثمائة وثمانون ذراعا وهما مسلتا فرعون للشمس منصوبتان فاذا حلت الشمس أول درجة من الجدى وهو أقصر يوم في السنة انتهت الى المسلة الجنوبية وطلعت على قمة رأسها ثم اذا حلت أول درجة من السرطان وهو أطول يوم في السنة انتهت الى المسلة الشمالية وطلعت على رأسها وهي منتهى المسلتين وخط الاستواء في الوسط بينهما ثم تتردد بينهما ذاهبة وجائية سائر السنة فهذه عشرون أعجوبة ويقال انه ليس من بلد فيه شيء غريب الاوفي مصر شبهه أو مثله ثم تفضل مصر على البلدان بعجائبها التي ليست في بلد سواها

(حسن المحاضره في أخبار مصر والقاهره للسيوطي)

ذكر يوم المحمل بمصر

وهو يوم دوران المحمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب قضاة القضاة الاربعة ووكيل بيت المال والمحتسب ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج اليهم المحمل على جمل وأمامه الامير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤون على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينتي القاهرة ومصر والحداة يحدون أمامهم ويكون ذلك في رجب فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الاشواق وتحرك البواعث ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد ثم كان سفري من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجي بالرباط الذي بناه الصاحب تاج الدين بن حنا بدير الطين وهو رباط عظيم بناه على مفاخر عظيمة وآثار كريمة أودعها فيه وهي قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والميل الذي كان يكتحل به والدرفش وهو الاشفا الذي كان يخصف به نعله * ومصحف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي بخط يده رضي الله عنه ويقال ان الصاحب اشترى ما ذكرنا من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة نفعه الله تعالى بقصده المبارك

ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل ثم سرت منها
الى مدينة بوش (وضبطها بضم الباء الموحدة وآخرها شين معجمه) وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا
ومنها يجلب الى سائر الديار المصرية والى أفريقية ثم سافرت منها فوصلت الى مدينه دلاص
(بفتح الدال المهملة وآخرها صاد مهملة) وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا كمثل التي ذكرنا قبلها
ويحمل أيضا منها الى ديار مصر وأفريقية ثم سافرت منها الى مدينة ببا (بباءين موحدتين أولاهما
مكسورة) ثم سافرت منها الى مدينة البهنسه وهي مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة (بفتح الباء
واسكان الهاء وفتح النون والسين) وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة وممن لقيته بها
قاضيها العالم شرف الدين وهو كريم النفس فاضل ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي ونزلت عنده
وأضافني ثم سافرت منها الى مدينة منية ابن خصيب وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة
مبنية على شاطئ النيل وحق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل بها المدارس والمشاهد والزوايا
والمساجد وكانت في القديم منية لخصيب عامل مصر (لابن بطوطه)

ذكر كسوة الكعبه

وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري الى البيت الكريم فوضعت
في سطحه فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في اسبالها على الكعبة الشريفة
وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض
جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما الآية وفي سائر جهاتها طرز مكتوبة بالبياض فيها آيات
من القرآن وعليها نور لائح مشرق من سوادها ولما كسيت شمرت أذيالها صونا عن أيدي الناس
فالملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والائمة
والمؤذنين والفراشين والقومة وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة وفي هذه
الايام تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي
وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام فيكثرون فيها الصدقات على
المجاورين وغيرهم ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين
أعطوه الفضة والثياب وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة وربما وجدوا انسانا نائما
فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من
ذلك كثيرا وأكثروا الصدقات حتى رخص سوم الذهب بمكة وانتهى صرف المثقال الى ثمانية عشر
درهما نقره لكثرة ما تصدقوا به من الذهب وفي هذه السنة ذكر اسم السلطان أبي سعيد ملك العراق
على المنبر وقبة زمزم
(لابن بطوطه)

(فى وصف منظر بجزيرة العرب العام و ريح السموم و رمال الصحراء والندى والامطار الدورية ومعيشة العرب البدويه)

أقول حيث كانت بجزيرة العرب منقسمة على الكيفية السابقة كان منظرها فى جميع امتدادها كهيئة وادمثلث الشكل زاوية رأسه تنتهى بجبل طوروس (أى طورسينا الذى فى تركية آسيا بين نهرها ليس المسمى الآن ايطوصوا ونهر اللادقيه) ونهر الفرات مركب ضلعاه من سلسلتى جبال احداهما ممتدة وسط الشام وفلسطين وتسمى جبل لبنان ومصاقب لبنان ثم ترجع الى داخل بجزيرة العرب فتمتد على ساحل البحر الاحمر الى بوغاز باب المندب والاخرى توازى مجرى نهر الفرات والخليج الفارسى وتنتهى الى بوغاز هرمز والضلع الثالث من ذلك المثلث يتم بخط من أراضى مرتفعة جدا واصل بين البوغازين وأما داخل ذلك الوادى فهو سهل منخفض جدا وحر قطره أضر من حر السواحل وذلك أن بعض الجهات كالسواحل اذا نزل بها الامطار المخصبة تكون الجهات الاخر لا يقاوم سلطنة حرارتها ويبوستها شئ وجو ذلك الوادى مملوء فى الغالب بالابخرة والعفونات المتصاعدة من البحر الميت (أى بحيرة اسفلتيت) ومن بحيرات أخر ملحة وتهب فيه ريح مهولة تسمى بريح السموم ويزعم العرب أنهم يعرفونها عند هبوبها برائحة كبريتية تفوح منها فتتلف النباتات التى لم تكن أشعة الشمس قد أيبستها بالكلية وحيث كانت لا تبقى على الناس ولا على الحيوانات لشدة حرارتها كانت تخنق كل من لا يعرف الاحتراس من تأثيراتها المهلكة وتغطى جثثهم الميتة بالرمال ولا وجود لتلك الريح فيما قرب من سواحل الاقيانوس الهندى ولاسيما فى اليمن فان الهواء هنالك دائم النقاوة وفصل شدة الحرارة هو عين فصل الامطار فان لم تنزل الامطار بها كان من سعادة بختها أن يسد مسدها ندى غزير جدا وأرضها من ابتداء شواطئ البحر ترتفع بالتدريج فيتنوع مزاج الحر فى جميع بقاعها بسبب تفاوت ارتفاعها ويسهل به رى مزارعها وتأثير الشمس الساقطة أشعتها عامودية فى زمن الانقلاب الصيفى يتلطف بعوارض كثيرة من أرضها وكانت تلك الفوائد الطبيعية تقتضى توطن سكان جزيرة العرب فى هذه السواحل اليمانية دون غيرها ومع ذلك فلم يغادروا السكنى فى الصحرا مطلقا ولعيشتهم البدوية التى جبلوا عليها محاسن تجذب قلوبهم اليها فلا يستطيعون تركها وكأنهم قد منحوها فى مقابلة المهالك الدائمة التى تحدق بهم فان أرض البادية رملية محرقة لا تنتج ذرة شامية ولا أرزا ولا برا وشربهم من صهاريج وآبار يفيض ماؤها كل وقت وبها بعض نخيل تجنى ثمارها فى أقرب زمن ومراع تنضر سريعا ومع ذلك فلا شئ يحول أجلاف العربان رعاة الجمال عن تلك المعيشة التى اختاروها

قال المؤلف هردر (١) ان بجميع جزيرة العرب التى هى من أشهر الايالات على الكرة الارضية يتراآى منها أنها معدة بالفطرة الالهية لان تكسب أقوامها طبعا مخصوصا فان صحراءها الكبرى المشابهة لجنوب بلاد التتار والممتدة من حلب الى نهر الفرات ما بين مصر والشام تبدى كثيرا من الفلوات الواسعة والقفار الرحبة لاقوام البدو والرعاة واذا تأملت فى عيشة هذه الامة التى ترى كل مدينة سجنا وفى تكبرها المؤسس على أقدمية أصلها وعلى عظمة أهلها وسعة لغتها وأشعارها وخفة خيلها وعلى بوارق شواكرها ورماحها التى تعتقد أنها متوارثة لديها وأنها كالامانة المقدسة عندها قلت ان جميع هذه الاشياء قد هيأتها من قديم الزمان لان تظهر بالمظهر العظيم الذى سبق لها فى علم الغيب أن تظهر به ذات يوم فى ثلاثة أقسام من الدنيا ظهورا مغايرا جدا لظهور التتار من شمال آسيا انتهى (من كتاب غاية الارب فى خلاصة تاريخ العرب)

مدينة الكوفة

وهى احدى أمهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مثوى الصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة على بن أبى طالب أمير المؤمنين الا أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدى العدوان التى امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها فانهم يقطعون طريقها ولا سور عليها وبناؤها بالآجر وأسواقها حسان وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك وجامعها الاعظم جامع كبير شريف بلاطاته سبعة قائمة على سوارى حجارة ضخمة منحوتة قد صفت قطعا ووضع بعضها على بعض وأفرغت بالرصاص وهى مفرطة الطول وبهذا المسجد آثار كريمة فنها بيت ازاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال ان الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب محلق عليه باعواد الساج مرتفع وهو محراب على بن أبى طالب رضى الله عنه وهنالك ضربه الشقى بن ملجم والناس يقصدون الصلاة به وفى الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضا باعواد الساج يذكر أنه الموضع الذى فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام وفى ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام وازاءه بيت يزعمون أنه متعبد ادريس عليه السلام ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلى من المسجد

---

(١) راجع من صحيفة ٣٩١ الى صحيفة ٤٢٣ من الباب الرابع والباب الخامس من المقالة التاسعة عشرة من الترجمة الفرنساوية لكتاب هردر المسمى بالملحوظات على فلسفة علم التاريخ وكذلك تذكرة المؤلف السنية النفيسة الملقبة بتأثير دين محمد فى القرون الثلاثة الاول بعد تأسيسه فى كل من عقول العرب الذين نشأ فيهم هذا الدين وأخلاقهم وحكومتهم حتى صارت على كيفية أخرى وكان طبع هذه التذكرة فى مدينة باريس سنة ١٨١٠ ميلاديه أى سنة ١٢٢٠ هجريه

يقال انه موضع انشاء سفينة نوح عليه السلام وفى آخر هذا الفضاء دار على بن أبى طالب رضى الله عنه والبيت الذى غسل فيه ويتصل به بيت يقال أيضا انه بيت نوح عليه السلام والله أعلم بصحة ذلك كله وفى الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد اليه فيه قبر مسلم بن عقيل ابن أبى طالب رضى الله عنه وبقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتى الحسين عليه السلام وأما قصر الامارة بالكوفة الذى بناه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فلم يبق منه الا أساسه والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ فى الجانب الشرقى منها وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض ورأيت بغربى جبانة الكوفة موضعا مسودا شديد السواد فى بسيط أبيض فأخبرت أنه قبر الشقى ابن ملجم وان أهل الكوفة يأتون فى كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام وعلى قرب منه قبة أخبرت أنها على قبر المختار بن أبى عبيد ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحة وهى بلدة حسنة بين حدائق نخل ونزلت بخارجها وكرهت دخولها لان أهلها روافض ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة وهى مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات وهى كثيرة العمارة وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجا ودورها بين الحدائق ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة فى كلا الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل وأهل هذه المدينة كلها أمامية اثناعشرية وهم طائفتان احداهما تعرف بالاكراد والاخرى تعرف بأهل الجامعين والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم أبدا وبقربة من السوق الاعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان ومن عادتهم أنه يخرج فى كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلاح وبأيديهم السيوف مشهورة فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر فيأخذون منه فرسا مسرجا ملجما أو بغلة كذلك ويضربون الطبول والانفار والبوقات أمام تلك الدابة ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشى آخرون عن يمينها وشمالها ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون باسم الله ياصاحب الزمان باسم الله اخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم وهذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل ولا يزالون كذلك وهم يضربون الابواق والطبول والانفار الى صلاة المغرب وهم يقولون ان محمد بن الحسن العسكرى دخل ذلك المسجد وغاب فيه وانه سيخرج وهو الامام المنتظر عندهم وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبى سعيد الامير أحمد بن رميثة ابن أبى نمى أمير مكة وحكمها أعواما وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق الى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الاموال والذخائر التى كانت عنده ثم سافرنا منها

الى مدينة كربلاء مشهد الحسين بن على عليهما السلام وهى مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب الروضة الحجاب والقومة لا يدخل أحد الا عن اذنهم فيقبل العتبة الشريفة وهى من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الابواب أستار الحرير وأهل هذه المدينة طائفتان أولاد رخيك وأولاد فائز وبينهما القتال أبدا وهم جميعا أمامية يرجعون الى أب واحد ولاجل فتنهم تخربت هذه المدينة ثم سافرنا منها الى بغداد

(لابن بطوطه)

سفر ابن بطوطه الى القسطنطينيه

وسافرنا فى العاشر من شوّال فى صحبة الخاتون بيلون وتحت حرمتها ورحل السلطان فى تشييعها مرحلة ورجع هو والملكة وولى عهده وسافر سائر الخواتين فى صحبتها مرحلة ثانية ثم رجعن وسافر صحبتها الامير بيدرة فى خمسة آلاف من عسكره وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين والباقون من الترك وكان معها من الجوارى نحو مائتين أكثرهن روميات وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة ونحو ألفى فرس لجرها وللركوب ونحو ثلاثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرها وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ومن الهنديين مثلهم وقائدهم الاكبر يسمى بسنبل الهندى وقائد الروميين يسمى بميخائيل ويقول له الاتراك لؤلؤ وهو من الشجعان الكبار وتركت أكثر جواريها وأثقالها بمحلة السلطان اذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل وتوجهنا الى مدينة اكك (وهى بضم الهمزة وفتح الكاف الاولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخيرات شديدة البرد وبينها وبين السرا حضرة السلطان مسيرة عشر وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة جبال الروس وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر وعندهم معادن الفضة ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهى سبائك الفضة التى بها يباع ويشترى فى هذه البلاد ووزن الصومة منها خمس أواقى ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة الى مدينة سرداق (بضم السين المهملة وسكون الراء وفتح الدال المهملة وآخره قاف). وهى من مدن دشت قفجق على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسى وأحسنها وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصنائع وأكثر بيوتها خشب وكانت هذه المدينة كبيرة فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك وكانت الغلبة للروم فانتصر للترك أصحابهم وقتلوا الروم شر قتلة ونفوا أكثرهم وبقى بعضهم تحت الذمة الى الآن وكانت الضيافة تحمل الى الخاتون فى كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر

والدوقى والقمز وألبان البقر والسفر فى هذه البلاد مضحى ومعشى وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره الى آخر حد بلاده تعظيما لها لاخوفا عليها لان تلك البلاد آمنة ثم وصلنا الى البلدة المعروفة باسم باباسلطوق وبابا عندهم بمعناه عند البربر سواء الأ أنهم يفخمون الباء (وسلطوق بفتح السين المهملة واسكان اللام وضم الطاء المهملة وآخره قاف) ويذكرون أن سلطوق هذا كان مكاشفا لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع وهذه البلدة آخر بلاد الاتراك وبينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما فى برية غير معمورة منها ثمانية أيام لاماء بها يتزود لها الماء ويحمل فى الروايا والقرب على العربات وكان دخولنا اليها فى أيام البرد فلم نحتج الى كثير من الماء والاتراك يرفعون الالبان فى القرب ويخلطونها بالدوقى المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون وأخذنا من هذه البلدة فى الاستعداد للبرية واحتجت الى زيادة أفراس فأتيت الخاتون فاعلمتها بذلك وكنت أسلم عليها صباحا ومساء ومتى أتتها ضيافة تبعث الى بالفرسين والثلاثة وبالغنم فكنت أترك الخيل لاأذبحها وكان من معى من الغلمان والخدام يأكلون مع أصحابنا الاتراك فاجتمع لى نحو خمسين فرسا وأمرت لى الخاتون بخمسة عشر فرسا وأمر وكيلها ساروجة الرومى أن يختارها سمانا من خيل المطبخ وقالت لاتخف فان احتجت الى غيرها زدناك ودخلنا البرية فى منتصف ذى القعدة فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان الى أول البرية تسعة عشر يوما واقمنا خمسة ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوما مضحى ومعشى ومارأينا الاخيرا والحمد لله ثم وصلنا بعد ذلك الى حصن مهتولى وهو أول عمالة الروم (بفتح الميم وسكون الهاء وضم التاء المثناة وواو مد ولام مكسورة وياء) وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها فوصلها الى هذا الحصن كفالى نقوله الرومى فى عسكر عظيم وضيافة عظيمة وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينية وبين مهتولى والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما منها ستة عشر يوما الى الخليج وستة منه الى القسطنطينية ولايسافر من هذا الحصن الا بالخيل والبغال وتترك العربات به لاجل الوعر والجبال وجاء كفالى المذكور ببغال كثيرة وبعثت الى الخاتون بستة منها وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركته من أصحابى وغلمانى مع العربات والاثقال فأمر لهم بدار ورجع الامير بيدرة بعساكره ولم يسافر مع الخاتون الا ناسها وتركت مسجدها بهذا الحصن وارتفع حكم الاذان وكان يؤتى اليها بالخمور فى الضيافة فتشربها وبالخنازير وأخبرنى بعض خواصها انها أكلتها ولم يبق معها من يصلى الا بعض الاتراك كان يصلى معنا وتغيرت البواطن لدخولنا فى بلاد الكفر ولكن الخاتون أوصت الامير كفالى باكرامى ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك وهو بسفح جبل على نهر زخار يقال له اصطفيلى

ولم يبق من هذا الحصن الا آثاره وبخارجه قرية كبيرة ثم سرنا يومين ووصلنا الى الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدنا فيه المد فاقمنا حتى كان الجزر وخضناه وعرضه نحو ميلين ومشينا أربعة أميال في رمال ووصلنا الخليج الثاني فخضناه وعرضه نحو ثلاثة أميال ثم مشينا نحو ميلين في حجارة ورمل ووصلنا الخليج الثالث وقد ابتدأ المد فتعبنا فيه وعرضه ميل واحد فعرض الخليج كله مائيه ويابسه اثنا عشر ميلا وتصير ماء كلها في أيام المطر فلا تخاض الا في القوارب وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة (بفاء مفتوحة ونون وياء مد وكاف مفتوحة) وهي صغيرة لكنها حسنة مانعة وكنائسها وديارها حسان والانهار تخرقها والبساتين تحفها ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة الى الاخرى وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا والخاتون في قصر لابيها هنالك ثم قدم أخوها شقيقها واسمه كفالى قراس في خمسة آلاف فارس شاكين في السلاح ولما أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرسا أشهب ولبس ثيابا بيضاء وجعل على رأسه مظللا مكللا بالجواهر وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض أيضا وعليهم مظللات مزركشة بالذهب وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا عليه شكة فارس من البيضة المجوهرة والدرع والتركش والقوس والسيف وبيده رمح في طرف رأسه راية وأكثر تلك الرماح مسكوة صفائح الذهب والفضة وتلك الخيل المقودة هي مراكب ابن السلطان وقسم فرسانه على أفواج كل فوج فيه مائتا فارس ولهم أمير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين في السلاح وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشرة من العلامات ملونة بأيدي عشرة من الفرسان وعشرة طبول يتقلدها عشرة من الفرسان ومعهم ستة يضربون الابواق والانفار والصرنايات وهي الغيطات وركبت الخاتون في مماليكها وجواريها وفتيانها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لها أيضا النسيج مرصعة بالجوهر وعلى رأسها تاج مرصع وفرسها مجلل بجل حرير مزركش بالذهب وفي يديه ورجليه خلاخل الذهب وفي عنقه قلائد مرصعة وعظم السرج مكسو ذهبا مكلل جوهرا وكان التقاؤهما في بسيط من الارض على نحو ميل من البلد وترجل لها أخوها لانه أصغر سنا منها وقبل ركابها وقبلت رأسه وترجل الامراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعا ركابها وانصرفت مع أخيها وفي غد ذلك اليوم وصلنا الى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا أثبت الآن اسمها ذات أنهار وأشجار نزلنا بخارجها ووصل أخو الخاتون ولي العهد في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه

سواء الا أن الحفل أعظم والجمع أكثر وتلاقت معه أخته في مثل زيها الاول وترجلا جميعا وأوتي بخباء حرير فدخلا فيه فلا أعلم كيفية سلامهما ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ركبانا ومشاة في أحسن زي وأجمل لباس وضربت عند الصبح الطبول والابواق والانفار وركبت العساكر وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بأيديهم عصي طوال في أعلى كل عصا شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصي ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج ولم أقدر على الدخول فيما بينهم فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها خوفا على نفسي وذكر لي أنها لما قربت من أبويها ترجلت وقبلت الارض بين أيديهما ثم قبلت حافري فرسيهما وفعل كبار أصحابها مثل فعلها في ذلك وكان دخولنا عند الزوال أو بعده الى القسطنطينية العظمى وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها ولما وصلنا الباب الاول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانة وسمعتهم يقولون سرا كنو سرا كنو ومعناه المسلمون ومنعونا من الدخول فقال لهم أصحاب الخاتون انهم من جهتنا فقالوا لا يدخلون الا بالاذن فأقمنا بالباب وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك وهي بين يدي والدها فذكرت له شأننا فأمر بدخولنا وعين لنا دارا بقربة من دار الخاتون وكتب لنا أمرا بأن لا نعترض حيث نذهب من المدينة ونودي بذلك في الاسواق وأقمنا بالدار ثلاثا تبعث الينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان (لابن بطوطه)

وصف جزيرة الاندلس

أقول محاسن الاندلس لا تستوفي بعباره ومجاري فضلها لا يشق غباره وأنى تجاري وهي حائزة قصب السبق في أقطار الغرب والشرق قال ابن سعيد انما سميت بالاندلس بن طوبال بن يافث ابن نوح لانه نزلها كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها واليه تنسب سبتة قال وأهل الاندلس يحافظون على قوام اللسان العربي لانهم اما عرب أو معربون انتهى

وقال ابن غالب انه أندلس بن يافث والله أعلم خص الله تعالى بلاد الاندلس من الريع وغدق السقيا ولذاذة الاقوات وفراهة الحيوان ودرور الفواكه وكثرة المياه وتبحر العمران وجودة اللباس وشرف الانية وكثرة السلاح وصحة الهواء وابيضاض ألوان الانسان ونبل الاذهان وفنون الصنائع وشهامة الطباع ونفوذ الادراك واحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الاقطار مما سواها انتهى

وقال أبو عامر السالى فى كتابه المسمى بدرر القلائد وغرر الفوائد الاندلس من الاقليم الشامى وهو خير الاقاليم وأعدلها هواء وترابا وأعذبها ماء وأطيبها هواء وحيوانا ونباتا وهو أوسط الاقاليم وخير الامور أوساطها انتهى

قال أبو عبيد البكرى : الاندلس شامية فى طيبها وهوائها يمانية فى اعتدالها واستوائها هندية فى عطرها وذكائها اهوازية فى عظم جباياتها صينية فى جواهر معادنها عدنية فى منافع سواحلها فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملى الفلسفة وكان من ملوكهم الذين آثروا الآثار بالاندلس هرقلس وله الاثر فى الصنم بجزيرة قادس وصنم جليقية والاثر فى مدينة طركونة الذى لا نظير له

قال المسعودى بلاد الاندلس تكون مسيرة عمائرها ومدنها نحو شهرين ولها من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة انتهى باختصار ونحوه لابن اليسع اذ قال طولها من اربونة الى اشبونة وهو قطع ستين يوما للفارس المجد وانتقد بأمرين أحدهما أنه يقتضى أن اربونة داخلة فى جزيرة الاندلس والصحيح انها خارجة عنها والثانى أن قوله ستين يوما للفارس المجد اعياء وافراط وقد قال جماعة انه شهر ونصف قال ابن سعيد وهذا يقرب اذا لم يكن للفارس المجد والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر وكذا قال الحجازى وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا حسابا بالمراحل الجيدة أفضى الى نحو شهر بنيف قليل

قال الحجازى فى موضع من كتابه ان طول الاندلس من الحاجز الى اشبونة ألف ميل ونيف انتهى وبالجملة فالمراد التقريب من غير مساحة كما قاله ابن سعيد وأطال فى ذلك ثم قال بعد كلام ومسافة الحاجز الذى بين بحر الزقاق والبحر المحيط أربعون ميلا وهذا عرض الاندلس عند رأسها من جهة الشرق ولقلته سميت جزيرة والا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالارض الكبيرة وعرض جزيرة الاندلس فى موسطها عند طليطلة ستة عشر يوما

قال الشيخ احمد بن محمد بن موسى الرازى بلد الاندلس هو آخر الاقليم الرابع الى المغرب وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة طيب التربة خصب الجناب منبجس الانهار الغزار والعيون العذاب قليل الهوام ذوات السموم معتدل الهواء والجو والنسيم ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال وسطة من الحال لا يتولد فى أحدها فصل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص تتصل فواكهه أكثر الازمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة أما الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكوره وأما الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره فمادة الخيرات بالبلد متمادية فى كل الاحيان وفواكهه على الجملة غير معدومة فى كل أوان وله خواص فى كرم النبات توافق فى بعضها

أرض الهند المخصوصة بكرم النبات وجواهره منها أن المحلب وهو المقدم فى الافاويه والمفضل فى أنواع الاشنان لا ينبت بشئ من الارض الا بالهند والاندلس وللاندلس المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع الجليلة ولها البر والبحر والسهل والوعر وشكلها مثلث

وهى معتمدة على ثلاثة أركان الاول هو الموضع الذى فيه صنم قادس المشهور بالاندلس ومنه مخرج البحر المتوسط الشامى الآخذ بقبلى الاندلس والركن الثانى هو بشرق الاندلس بين مدينة بربونة ومدينة برديل مما بأيدى الفرنجة اليوم بازاء جزيرتى ميورقة ومنورقة بمجاورة من البحرين البحر المحيط والبحر المتوسط وبينهما البر الذى يعرف بالابواب وهو المدخل الى بلاد الاندلس من الارض الكبيرة على بلد افرنجة ومسافة بين البحرين مسيرة يومين ومدينة بربونة تقابل البحر المحيط والركن الثالث منها هو ما بين الجوف والغرب من حيز جليقية حيث الجبل الموفى على البحر وفيها الصنم العالى المشبه بصنم قادس وهو الطالع على بلد بريطانيه

قال والاندلس أندلسان فى اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها أندلس غربى وأندلس شرقى فالغربى منهما ما جرت أوديته الى البحر المحيط الغربى ويمطر بالرياح الغربية ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المنارة الخارجة مع الجوف الى بلد شنتمارية طالعا الى حوز أغريطة المجاورة لطليطلة مائلا الى الغرب ومجاورا للبحر المتوسط الموازى لقرطاجنة الحلفاء التى من بلد لورقة والحوز الشرقى المعروف بالاندلس الاقصى وتجرى أوديته الى الشرق وأمطاره بالريح الشرقية وهو من حد جبل البشكنش هابطا مع وادى ابرة الى بلد شنتمارية ومن جوف هذا وغربه البحر المحيط وفى القبلة منه البحر الغربى الذى منه يجرى البحر المتوسط الخارج الى بلد الشام وهو البحر المسمى ببحر تيران ومعناه الذى يشق دائرة الارض ويسمى البحر الكبير انتهى

قال أبو بكر عبد الله بن عبد الحكيم المعروف بابن النظام بلد الاندلس عند علماء أهله أندلسان فالاندلس الشرقى منه ما صبت أوديته الى البحر الرومى المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الاندلس الى المشرق وذلك ما بين مدينة تدمير الى سرقسطة والاندلس الغربى ما صبت أوديته الى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل من ذلك الحد الى ساحل المغرب فالشرقى منهما يمطر بالريح الشرقية ويصلح عليها والغربى يمطر بالريح الغربية وبها صلاحه وجباله هابطة الى الغرب جبلا بعد جبل وانما قسمته الاوائل جزئين لاختلافهما فى حال امطارهما وذلك انه مهما استحكمت الريح الغربية كثر مطر الاندلس الغربى وقحط الاندلس الشرقى ومتى استحكمت الريح الشرقية كثر مطر الاندلس الشرقى وقحط الغربى وأودية هذا القسم تجرى من الشرق الى الغرب بين هذه الجبال وجبال الاندلس الغربى تمتد الى الشرق جبلا بعد جبل تقطع من الجوف الى القبلة

والاودية التي تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها الى القبلة و بعضها الى الشرق وتنصب كلها الى البحر المحيط بالاندلس القاطع الى الشام وهو البحر الرومي وما كان من بلاد جوفي الاندلس من بلاد جليقية وما يليها فان أوديته تنصب الى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف وصفة الاندلس شكل مركن على مثال شكل المثلث ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب حيث اجتماع البحرين عند صنم قادس وركنها الثاني في بلد جليقية حيث الصنم المشبه بصنم قادس مقابل جزيرة بريطانية وركنها الثالث بين مدينة بر بونة ومدينة برديل من بلاد الفرنجة بحيث يقرب البحر المحيط من البحر الشامي المتوسط فكادان يجتمعان في ذلك الموضع فيصير بلد الاندلس جزيرة بينهما في الحقيقة لولا أنه يبقى بينهما برزخ برية صحراء وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب منه المدخل الى الارض الكبيرة التي يقال لها الابواب ومن قبله يتصل بلد الاندلس بتلك البلاد المعروفة بالارض الكبيرة ذات الالسن المختلفة

قال ابن سعيد وميزان وصف الاندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة فتى سافرت من مدينة الى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع والصحارى فيها معدومة ومما اختصت به أن قراها في نهاية من الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها فهي كما قال الوزير ابن الحمارة فيها

لاحت قراها بين خضرة أيكها ❊ كالدر بين زبرجد مكنون

ولقد عجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدر العين بسوادها ويضيق الصدر بضيق أوضاعها وفي الاندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصرة من مثلها والمثال في ذلك أنك اذا توجهت من اشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش وهي في نهاية من الحضارة والنضارة ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ثم مالقة وهذا كثير في الاندلس ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسور من أجل الاستعداد للعدو فحصل لها بذلك التشييد والتزين وفي حصونها ما يبقى في محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة لامتناع معاقلها ودربة أهلها على الحرب واعتيادهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب وكثرة ما تختزن الغلة في مطاميرها فمنها ما يطول صبره عليها نحو من مائة سنة قال ابن سعيد ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح الى الآن وان كان العدو قد نقصها من أطرافها وشارك في أوساطها ففي البقية متعة عظيمة فأرض بقي فيها مثل اشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف الى هذه الحواضر العظيمة الممصرة الرجاء فيها اقوى بحول الله وقوته انتهى

وقال بعضهم في اشبيلية انها قاعدة بلاد الاندلس وحاضرتها ومدينة الادب واللهو والطرب وهي على ضفة النهر الكبير عظيمة الشأن طيبة المكان لها البر المديد والبحر الساكن والوادي العظيم

وهى قريبة من البحر المحيط الى أن قال ولولم يكن لها من الشرف الا موضع الشرف المقابل المطل عليها المشهور بالزيتون الكثير الممتد فراسخ فى فراسخ لكفى وبها منارة فى جامعها بناها يعقوب المنصور ليس فى بلاد الاسلام أعظم بناء منها وعسل الشرف يبقى حينا الا يترمل ولا يتبدل وكذلك الزيت والتين وقال ابن مفلح ان اشبيلية عروس بلاد الاندلس لان تاجها الشرف وفى عنقها سمط النهر الاعظم وليس فى الارض أتم حسنا من هذا النهر يضاهى دجلة والفرات والنيل تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار وتغريد الاطيار أربعة وعشرين ميلا ويتعاطى الناس السرح من جانبيه عشرة فراسخ فى عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة وفيه من أنواع السمك مالا يحصى وبالجملة فهى قد حازت البر والبحر والزرع والضرع وكثرة الثمار من كل جنس وقصب السكر ويجمع منها القرمز الذى هو أجل من اللك الهندى وزيتونها يخزن تحت الارض أكثر من ثلاثين سنة ثم يعتصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طرى انتهى ملخصا

ولما ذكر ابن اليسع الاندلس قال لا يتزود فيها أحد ما حيث سلك لكثرة أنهارها وعيونها وربما لقى المسافر فيها فى اليوم الواحد أربع مدائن ومن المعاقل والقرى مالا يحصى وهى بطاح خضر وقصور بيض قال ابن سعيد وأنا أقول كلا مافيه كفاية منذ خرجت من جزيرة الاندلس وطفت فى بر العدوة ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة ثم طفت فى أفريقية وما جاورها من المغرب الاوسط فرأيت بجاية وتونس ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الاسكندرية والقاهرة والفسطاط ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلب وما بينهما لم أر ما يشبه رونق الاندلس فى مياهها وأشجارها الا مدينة فاس بالمغرب الاقصى ومدينة دمشق بالشام وفى حماة مسحة أندلسية ولم أر ما يشبهها فى حسن المبانى والتشييد والتصنيع الا ما شيد بمراكش فى دولة بنى عبد المؤمن وبعض الاماكن فى تونس وان كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالاسكندرية ولكن الاسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع ومبانى حلب داخلة فيما يستحسن لانها من حجارة صلبه وفى وضعها وترتيبها اتقان انتهى

ومن أحسن ما جاء من النظم فى الاندلس قول ابن سفر المرينى والاحسان له عادة

فى أرض أندلس تلتذ نعماء * ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرها بالعيش منتفع * ولا تقوم بحق الانس صهباء
وأين يعدل عن أرض تحض بها * على المدامة أمواه وأفياء
وكيف لا يبهج الابصار رؤيتها * وكل روض بها فى الوشى صنعاء

أنهارها فضة والمسك تربتها * والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به * من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا * ولا انتشار لآلى الطل أنداء
وانما أرج الند استثار بها * فى ماء ورد فطابت منه أرجاء
وأين يبلغ منها ما أصنفه * وكيف يحوى الذى حازته احصاء
قد ميزت من جهات الارض حين بدت * فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقا أبحر خفقت * وجدا بها اذ تبدت وهى حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب * والطير يشدو وللاغصان اصغاء
فيها خلعت عذارى ما بها عوض * فهى الرياض وكل الارض صحراء

ولله در ابن خفاجة حيث يقول

ان للجنة بالاندلس * مجتلى مرآى وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب * ودجى ظلمتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا * صحت واشواقى الى الاندلس

قال ابن سعيد قال ابن خفاجة هذه الابيات وهو بالمغرب الاقصى فى بر العدوة ومنزله فى شرق الاندلس بجزيرة شقر وقال ابن سعيد فى المغرب ما نصه قواعد من كتاب الشهب الثاقبة فى الانصاف بين المشارقة والمغاربة أول ما نقدم الكلام على قاعدة السلطنة بالاندلس فنقول إنها مع ما بأيدى عباد الصليب منها أعظم سلطنة كثرت ممالكها وتشعبت فى وجوه الاستظهار للسلطان اعانتها وندع كلامنا فى هذا الشأن وننقل ما قاله ابن حوقل النصيبى فى كتابه لما دخلها فى مدة خلافة بنى مروان بها فى المائة الرابعة وذلك أنه لما وصفها قال وأما جزيرة الاندلس فجزيرة كبيرة طولها دون الشهر فى عرض نيف وعشرين مرحلة تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة فى الاحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر الى أسباب التملك الفاشية فيها ولما هى به من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته يملك ذلك منهم مهينهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنتهم وصلاح بلادهم ثم أخذ فى عظم سلطانها ووصف وفور جباياته وعظم مرافقه

وقال فى أثناء ذلك ومما يدل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدراهم والدنانير دخلها فى كل سنة مائتا ألف دينار وصرف الدينار سبعة عشر درهما هذا الى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته والاموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة وغير ذلك وذكر ابن بشكوال ان جباية الاندلس بلغت فى مدة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفا من السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار

ثم قال ابن حوقل ومن أعجب ما فى هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الانجاد والابطال مع علم أمير المؤمنين بمحلها فى نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها قال على بن سعيد لم أرد ابن حوقل من اثبات هذا الفصل وان كان على أهل بلدى فيه من الظلم والتعصب مالا يخفى ولسان الحال فى الرد أنطق من لسان البلاغة وليت شعرى اذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والاراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ومن الذين حموها ببسالتهم من الامم المتصلة بهم فى داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة فى نصرة الصليب وانى لاعجب منه اذا كان فى زمان قد دلفت فيه عباد الصليب الى الشام والجزيرة وعاثوا كل العيث فى بلاد الاسلام حيث الجمهور والقبة العظمى حتى انهم دخلوا مدينة حلب وما أدرك وفعلوا فيها ما فعلوا و بلاد الاسلام متصلة بها من كل جهة الى غير ذلك مما هو مسطور فى كتب التواريخ ومن أعظم ذلك وأشده انهم كانوا يتغلبون على الحصون من حصون الاسلام التى يتمكنون بها من بسائط بلادهم فيسبون و يأسرون فلا تجتمع هممم الملوك المجاورة على حسم الداء فى ذلك وقد يستعين به بعضهم على بعض فيتمكن من ذلك الداء الذى لا يطب وقد كانت جزيرة الاندلس فى ذلك الزمان بالضد من البلاد التى تركها وراء ظهره وذلك موجود فى تاريخ ابن حيان وغيره (من كتاب نفح الطيب)

فى خواص مصر العامة لها

ان أرض مصر من البلاد العجيبة الآثار الغريبة الاخبار وهى وادى تكتنفه جبلان شرقى وغربى والشرقى أعظمهما يبتدآن من اصوان ويتقاربان بأسنا حتى يكادان يتماسان ثم ينفرجان قليلا قليلا وكلما امتدا طولا انفرجا عرضا حتى اذا حاذيا الفسطاط كان بينهما مسافة يوم فما دونه ثم يتباعدان أكثر من ذلك والنيل ينساب بينهما ويتشعب باسافل الارض وجميع شعبه تصب فى البحر المالح

وهذا النيل له خاصتان الاولى بعد مرماه فانا لا نعلم فى المعمورة نهرا أبعد مسافة منه لان مبادئه عيون تأتى من جبل القمر وزعموا أن هذا الجبل وراء خط الاستواء باحدى عشرة درجة وعرض اصوان وهى مبدأ أرض مصر اثنتان وعشرون درجة ونصف درجة وعرض دمياط وهى أقصى أرض مصر احدى وثلاثون درجة وثلث درجة فتكون مسافة النيل على خط مستقيم ثلاثا وأربعين درجة تنقص سدسا ومساحة ذلك تقريبا تسعمائة فرسخ هذا سوى ما يأخذ من التعريج والتوريب فان اعتبر ذلك تضاعفت المساحة جدا

والخاصة الثانية أنه يزيد عند نضوب سائر الانهار ونشيش المياه لانه يبتدئ بالزيادة عند انتهاء طول النهار وتتناهى زيادته عند الاعتدال الخريفى وحينئذ تفتح الترع وتفيض على الاراضى وعلة ذلك أن مواد زيادته أمطار غزيرة دائمة وسيول متواصلة تمده فى هذا الاوان فان أمطار الاقليم الاول والثانى انما تغزر فى الصيف والقيظ

وأما أرض مصر فلها أيضا خواص منها أنه لا يقع بها مطر الا مالا احتفال به وخصوصا صعيدها فاما أسافلها فقد يقع بها مطر جود لكنه لا يفى بحاجة الزراعة وأما دمياط والاسكندرية وما داناهما فهى غزيرة المطر ومنه يشربون وليس بأرض مصر عين ولا نهر سوى نيلها

ومنها أن أرضها رملية لا تصلح للزراعة لكنه يأتيها طين اسود علك فيه دسومة كثيرة يسمى الابليز يأتيها من بلاد السودان مختلطا بماء النيل عند مده فيستقر الطين وينضب الماء فيحرث ويزرع وكل سنة يأتيها طين جديد ولهذا تزرع جميع أراضيها ولا يراح شئ منها كما يفعل فى العراق والشام لكنها تخالف عليها الاصناف وقد لحظت العرب ذلك فانها تقول اذا كثرت الرياح جادت الحراثة لانها تجىء بتراب غريب وتقول أيضا اذا كثرت المؤتفكات زكا الزرع ولهذه العلة تكون أرض الصعيد زكية كثيرة الاتاء والريع اذ كانت أقرب الى المبدأ فيحصل فيها من هذا الطين مقدار كثير بخلاف أسفل الارض فانها اسافة (١) مضوية اذ كانت رقيقة ضعيفة الطين لانه يأتيها الماء وقد راق وصفا ولا أعرف شبيها بذلك الا ما حكى لى عن بعض جبال الاقليم الاول ان الرياح تأتيه وقت الزراعة بتراب كثير ثم يقع عليه المطر فيتلبد فيحرث ويزرع فاذا حصد جاءته رياح أخرى فنسفته حتى يعود أجرد كما كان أولا

ومنها أن الفصول بها متغيرة عن طبيعتها التى لها فان أخص الاوقات باليبس فى سائر البلاد أعنى الصيف والخريف تكثر فيه الرطوبة بمصر بمد نيلها وفيضه لانه يمد فى الصيف ويطبق الارض فى الخريف فأما سائر البلاد فان مياهها تنش فى هذا الاوان وتغزر فى أخص الاوقات بالرطوبة أعنى الشتاء والربيع ومصر اذ ذاك تكون فى غاية القحولة واليبس ولهذه العلة تكثر عفوناتها واختلاف هوائها وتغلب على أهلها الامراض العفنية الحادثة عن أخلاط صفراوية وبلغمية وقلما تجد فيهم أمراضا صفراوية خالصة بل الغالب عليهم البلغم حتى فى الشبان والمحرورين وكثيرا ما يكون مع الصفراء خام وأكثر أمراضهم فى آخر الخريف وأول الشتاء لكنها يغلب عليها حميد العاقبة وتقل فيهم الامراض الحادة والدموية الوحية وأما أصحاؤهم فيغلب عليهم الترهل والكسل وشحوب اللون وكمودته وقلما ترى فيهم مشبوب اللون ظاهر الدم وأما صبيانهم فضاويون

---

(١) أسافة أرض أسافة أى رقيقة أولا تنبت كما فى القاموس .

يغلب عليهم الدمامة وقلة النضارة وانما تحدث لهم البدانة والقسامة غالبا بعد العشرين وأما ذكاؤهم وتوقد أذهانهم وخفة حركاتهم فلحرارة بلدهم الذاتية لان رطوبته عرضية ولهذا كان أهل الصعيد أنحل جسوما وأجف أمزجة والغالب عليهم السمرة وكان ساكنو الفسطاط الى دمياط أرطب أبدانا والغالب عليهم البياض

ولما رأى قدماء المصريين أن عمارة أراضيهم انما هى بنيلها جعلوا أول سنتهم أول الخريف وذلك عند بلوغ النيل الغاية القصوى من الزيادة

ومنها أن الصبا محجوبة عنهم بجبلها الشرقى المسمى المقطم فانه يسترعنها هذه الريح الفاضلة وقلما تهب عليهم خالصة اللهم الا نكباء ولهذا اختار قدماء المصريين أن يجعلوا مستقر الملك منف ونحوها مما يبعد عن هذا الجبل الشرقى الى الغربى واختار الروم الاسكندرية وتجنبوا موضع الفسطاط لقربه من المقطم فان الجبل يستر عما فى حفه أكثر مما يستر عما بعد منه ثم ان الشمس يتأخر طلوعها عليهم فيقل فى هوائهم النضج ويبقى زمانا على نهوة الليل ولذلك تجد المواضع المنكشفة للصبا من أرض مصر أحسن حالا من غيرها ولكثرة رطوبته يتسارع العفن اليها ويكثر فيها الفأر ويتولد من الطين والعقارب تكثر بقوص وكثيرا ما تقتل بلسبها والبق المنتن والذباب والبراغيث تدوم زمانا طويلا

ومنها أن الجنوب اذا هبت عندهم فى الشتاء والربيع وفيما بعد ذلك كانت باردة جدا ويسمونها المريسى لمرورها على أرض المريس وهى من بلاد السودان وسبب بردها مرورها على برك ونقائع والدليل على صحة ذلك أنها اذا دامت أياما متوالية عادت الى حرارتها الطبيعية وأسخنت الهواء وأحدثت فيه يبسا (من كتاب الافاده والاعتبار لعبد اللطيف البغدادى)

(الجامع الازهر)

هذا الجامع أول مسجد أسس بالقاهرة والذى أنشأه القائد جوهر الكاتب الصقلى مولى الامام أبى تميم معد الخليفة أمير المؤمنين المعز لدين الله لما اختط القاهرة وشرع فى بناء هذا الجامع فى يوم السبت لست بقين من جمادى الاولى سنة تسع وخمسين وثلثمائة وكمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة احدى وستين وثلثمائة وجمع فيه وكتب بدائر القبة التى فى الرواق الاول وهى على يمنة المحراب والمنبر ما نصه بعد البسملة مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الاكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى وذلك فى سنة ستين وثلثمائة وأول جمعة جمعت فيه فى شهر رمضان لسبع خلون منه سنة احدى وستين

وثلثمائة ثم ان العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز لدين الله جدد فيه أشياء وفى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس الخليفة العزيز بالله فى صلة رزق جماعة من الفقهاء فأطلق لهم ما يكفى كل واحد منهم من الرزق الناض وأمر لهم بشراء دار وبنائها فبنيت بجانب الجامع الازهر فاذا كان يوم الجمعة حضروا الى الجامع وتحلقوا فيه بعد الصلاة الى أن تصلى العصر وكان لهم أيضا من مال الوزير صلة فى كل سنة وكانت عدتهم خمسة وثلاثين رجلا وخلع عليهم العزيز يوم عيد الفطر وحملهم على بغلات ويقال ان بهذا الجامع طلسما فلا يسكنه عصفور ولا يفرخ به وكذا سائر الطيور من الحمام واليمام وغيره وهو صورة ثلاثة طيور منقوشة كل صورة على رأس عمود فمنها صورتان فى مقدم الجامع بالرواق الخامس منها صورة فى الجهة الغربية فى العمود وصورة فى أحد العمودين اللذين على يسار من استقبل سدة المؤذنين والصورة الاخرى فى الصحن فى الاعمدة القبلية مما يلى الشرقية ثم ان الحاكم بامر الله جدده ووقف على الجامع الازهر وجامع المقس والجامع الحاكمى ودار العلم بالقاهرة رباعا بمصر وضمن ذلك كتابا نسخته هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى على جميع ما نسب اليه مما ذكر ووصف فيه من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة أشهدهم وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبى على الامام الحاكم بامر الله أمير المؤمنين ابن الامام العزيز بالله صلوات الله عليهما على القاهرة المعزية ومصر والاسكندرية والحرمين حرسهما الله وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحى المغرب وسائر أعمالهن وما فتحه الله و يفتحه لامير المؤمنين من بلاد الشرق والغرب بمحضر رجل متكلم انه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة التى يذكر جميع ذلك ويحدد فى هذا الكتاب وانها كانت من أملاك الحاكم الى أن حبسها على الجامع الازهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشدة والجامع بالمقس اللذين أمر بانشائهما وتأسيس بنائهما وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها والكتب التى فيها قبل تاريخ هذا الكتاب منها ما يخص الجامع الازهر والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعا جميع ذلك غير مقسوم ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الازهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة جميع الدار المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة الذى كله بفسطاط مصر ومن ذلك ما تصدق به على جامع المقس جميع أربعة الحوانيت والمنازل التى علاها والمخزنين الذى ذلك كله بفسطاط مصر بالراية فى جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار

ومن ذلك جميع الحصص الشائعة من الاربعة الحوانيت المتلاصقة التي بفسطاط مصر بالراية أيضا بالموضع المعروف بحمام الفار وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسي بحدود ذلك كله وأرضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومن تفقاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجارى مياهه وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة بتلة لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة في هذا الكتاب لا يوهنها تقادم السنين ولا تغير بحدوث حدث ولا يستثنى فيها ولا يتأول ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الاوقات وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الارض والسموات على أن يؤجر ذلك في كل عصر من ينتهى اليه ولايتها ويرجع اليه أمرها بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها من اشهارها عند ذوى الرغبة في اجارة أمثالها فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته من غير اجحاف بما حبس ذلك عليه وما فضل كان مقسوما على ستين سهما فمن ذلك للجامع الازهر بالقاهرة المحروسة المذكور في هذا الاشهاد الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع يصرف ذلك فيما فيه عمارته ومصلحته وهو من العين المعزى الوزان ألف دينار واحدة وسبعة وستون دينارا ونصف دينار وثمن دينار من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون دينارا ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة الى ذلك ومن ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع في كل سنة عند الحاجة اليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها اثنى عشر دينارا ونصف وربع دينار ومن ذلك لثمن عود هندى للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع خمسة عشر دينارا ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلي سبعة دنانير ومن ذلك لكنس هذا الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطة خمسة دنانير ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل الفلفلي دينار واحد ومن ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلي نصف دينار ومن ذلك لثمن أردبين ملحا للقناديل ربع دينار ومن ذلك ما قدر لمؤنة النحاس والسلاسل والتنانير والقباب التي فوق سطح الجامع أربعة وعشرون دينارا ومن ذلك لثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار ومن ذلك لثمن قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ولثمن مائتى مكنسة لكنس هذا الجامع دينار واحد وربع دينار ومن ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء مع أجرة حملها ثلاثة دنانير ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل

ومائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة وثلاثون دينارا ونصف ومن ذلك لارزاق المصلين يعنى الائمة وهم ثلاثة وأربعة قومة وخمسة عشر مؤذنا خمسمائة دينار وستة وخمسون دينارا ونصف منها للمصلين لكل رجل منهم ديناران وثلثا دينار وثمن دينار فى كل شهر من شهور السنة والمؤذنون والقومة لكل رجل منهم ديناران فى كل شهر ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع فى كل سنة أربعة وعشرون دينارا ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد ومن ذلك لمرمة ما يحتاج اليه فى هذا الجامع فى سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون دينارا ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية لعلف رأسى بقر المصنع لهذا الجامع ثمانية دنانير ونصف دينار وثلث دينار ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير ومن ذلك لثمن فدانين قرط لتربيع رأسى البقر المذكورين فى السنة سبعة دنانير ومن ذلك لاجرة متولى العلف وأجرة السقا والحبال والقواديس وما يجرى مجرى ذلك خمسة عشر دينارا ونصف ومن ذلك لاجرة قيم الميضأة ان عملت بهذا الجامع اثنى عشر دينارا والى هنا انقضى حديث الجامع الازهر وأخذ فى ذكر جامع راشده ودار العلم وجامع المقس ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلا فضة فللجامع الازهر تنوران وسبعة وعشرون قنديلا ومنها لجامع راشدة تنور واثناعشر قنديلا وشرط أن تعلق فى شهر رمضان وتعاد الى مكان جرت عادتها أن تحفظ به وشرط شروطا كثيرة فى الاوقاف منها أنه اذا فضل شئ واجتمع يشترى به ملك فان عاز شيء أو استهدم ولم يف الريع بعمارته بيع وعمر به وأشياء كثيرة وحبس فيه أيضا عدة آدر وقياسر لا فائدة فى ذكرها فانها مما خربت بمصر قال ابن عبد الظاهر عن هذا الكتاب ورأيت منه نسخة وانتقلت الى قاضى القضاة تقى الدين بن رزدين وكان بصدر هذا الجامع فى محرابه منطقة فضة كما كان فى محراب جامع عمرو بن العاص بمصر قلع ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب فى حادى عشر ربيع الاول سنة تسع وستين وخمسمائة لانه كان فيها انتهاء خلفاء الفاطميين فجاء وزنها خمسة آلاف درهم نقرة وقلع أيضا المناطق من بقية الجوامع ثم ان المستنصر جدد هذا الجامع أيضا وجدده الحافظ لدين الله وأنشأ فيه مقصورة لطيفة تجاور الباب الغربى الذى فى مقدم الجامع بداخل الرواقات عرفت بمقصورة فاطمة من أجل أن فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها رؤيت بها فى المنام ثم انه جدد فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى قال القاضى محيى الدين ابن عبد الظاهر فى كتاب سيرة الملك الظاهر لما كان يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع الاول سنة خمس وستين وستمائة أقيمت الجمعة بالجامع الازهر بالقاهرة وسبب ذلك أن الامير عز الدين أيدمر الحلى كان جار هذا الجامع من مدة سنين فرعى وفقه الله حرمة الجار ورأى أن يكون كما هو جاره فى دار الدنيا

أنه غدا يكون ثوابه جاره فى تلك الدار ورسم بالنظر فى أمره وانتزع له أشياء مغصوبة كان شئ منها فى أيدى جماعة وحاط أموره حتى جمع له شيأ صالحا وجرى الحديث فى ذلك فتبرع الامير عز الدين له بجملة مستكثرة من المال الجزيل وأطلق له من السلطان جملة من المال وشرع فى عمارته فعمر الواهى من أركانه وجدرانه وبيضه وأصلح سقوفه وبلطه وفرشه وكساه حتى عاد حرما فى وسط المدينة واستجد به مقصورة حسنة وأثر فيه آثارا صالحة يثيبه الله عليها وعمل الامير بيلبك الخازندار فيه مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الامام الشافعى رحمه الله ورتب فى هذه المقصورة محدثا يسمع الحديث النبوى والرقائق ووقف على ذلك الاوقاف الدارة ورتب به سبعة لقراءة القرآن ورتب به مدرسا أثابه الله على ذلك ولما تكمل تجديده تحدث فى اقامة جمعة فيه فنودى فى المدينة بذلك واستخدم له الفقيه زين الدين خطيبا وأقيمت الجمعة فيه فى اليوم المذكور وحضر الاتابك فارس الدين والصاحب بهاء الدين على بن حنا وولده الصاحب فخر الدين محمد وجماعة من الامراء والكبراء وأصناف العالم على اختلافهم وكان يوم جمعة مشهودا ولما فرغ من الجمعة جلس الامير عز الدين الحلى والاتابك والصاحب وقرئ القرآن ودعى للسلطان وقام الامير عز الدين ودخل الى داره ودخل معه الامراء فقدم لهم كل ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين وانفصلوا وكان قد جرى الحديث فى أمر جواز الجمعة فى الجامع وما ورد فيه من أقاويل العلماء وكتب فيها فتيا أخذ فيها خطوط العلماء بجواز الجمعة فى هذا الجامع واقامتها فكتب جماعة خطوطهم فيها وأقيمت صلاة الجمعة به واستمرت ووجد الناس به رفقا وراحة لقربه من الحارات البعيدة من الجامع الحاكمى قال وكان سقف هذا الجامع قد بنى قصيرا فزيد فيه بعد ذلك وعلى ذراعا واستمرت الخطبة فيه حتى بنى الجامع الحاكمى فانتقلت الخطبة اليه فان الخليفة كان يخطب فيه خطبة وفى الجامع الازهر خطبة وفى جامع ابن طولون خطبة وفى جامع مصر خطبة وانقطعت الخطبة من الجامع الازهر لما استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالسلطنة فانه قلد وظيفة القضاء لقاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس فعمل بمقتضى مذهبه وهو امتناع اقامة الخطبتين للجمعة فى بلد واحد كما هو مذهب الامام الشافعى فأبطل الخطبة من الجامع الازهر وأقر الخطبة بالجامع الحاكمى من أجل أنه أوسع فلم يزل الجامع الازهر معطلا من اقامة الجمعة فيه مائة عام من حين استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الى أن أعيدت الخطبة فى أيام الملك الظاهر بيبرس كما تقدم ذكره ثم لما كانت الزلزلة بديار مصر فى ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة سقط الجامع الازهر والجامع الحاكمى وجامع مصر وغيره فتقاسم أمراء الدولة عمارة الجوامع فتولى الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عمارة الجامع الحاكمى وتولى الامير سلار

عمارة الجامع الازهر وتولى الامير سيف الدين بكتمر الجوكندار عمارة جامع الصالح فجددوا مبانيها وأعادوا ما تهدم منها ثم جددت عمارة الجامع الازهر على يد القاضى نجم الدين محمد بن حسين ابن على الاسعردى محتسب القاهرة فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ثم جددت عمارته فى سنة احدى وستين وسبعمائة عندما سكن الامير الطواشى سعد الدين بشير الجامدار الناصرى فى دار الامير فخر الدين أبان الزاهدى الصالحى النجمى بخط الابارين بجوار الجامع الازهر بعد ما هدمها وعمرها داره التى تعرف هنالك الى اليوم بدار بشير الجامدار فأحب لقربه من الجامع أن يؤثر فيه أثرا صالحا فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى عمارة الجامع وكان أثيرا عنده خصيصا به فأذن له فى ذلك وكان قد استجد بالجامع عدة مقاصير ووضعت فيه صناديق وخزائن حتى ضيقته فأخرج الخزائن والصناديق ونزع تلك المقاصير وتتبع جدرانه وسقوفه بالاصلاح حتى عادت كأنها جديدة وبيض الجامع كله وبلطه ومنع الناس من المرور فيه ورتب فيه مصحفا وجعل له قارئا وأنشأ على باب الجامع القبلى حانوتا لتسبيل الماء العذب فى كل يوم وعمل فوقه مكتب سبيل لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز ورتب للفقراء المجاورين طعاما يطبخ كل يوم وأنزل اليه قدورا من نحاس جعلها فيه ورتب فيه درسا للفقهاء من الحنفية يجلس مدرسهم لالقاء الفقه فى المحراب الكبير ووقف على ذلك أوقافا جليلة باقية الى يومنا هذا ومؤذنو الجامع يدعون فى كل جمعة وبعد كل صلاة للسلطان حسن الى هذا الوقت الذى نحن فيه وفى سنة أربع وثمانين وسبعمائة ولى الامير الطواشى بهادر المقدم على المماليك السلطانية نظر الجامع الازهر فتنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق بان من مات من مجاورى الجامع الازهر عن غير وارث شرعى وترك موجودا فانه يأخذه المجاورون بالجامع ونقش ذلك على حجر عند الباب الكبير البحرى وفى سنة ثمانمائة هدمت منارة الجامع وكانت قصيرة وعمرت أطول منها فبلغت النفقة عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم نقرة وكملت فى ربيع الآخر من السنة المذكورة فعلقت القناديل فيها ليلة الجمعة من هذا الشهر وأوقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها الى أسفلها واجتمع القراء والوعاظ بالجامع وتلوا ختمة شريفة ودعوا للسلطان فلم تزل هذه المأذنة الى شوال سنة سبع عشرة وثمانمائة فهدمت لميل ظهر فيها وعمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع البحرى بعد ما هدم الباب وأعيد بناؤه بالحجر وركبت المنارة فوق عقده، وأخذ الحجر لها من مدرسة الملك الاشرف خليل التى كانت تجاه قلعة الجبل وهدمها الملك الناصر فرج بن برقوق وقام بعمارة ذلك الامير تاج الدين التاج الشوبكى والى القاهرة ومحتسبها الى أن تمت فى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة وثمانمائة فلم تقم غير قليل ومالت حتى كادت تسقط فهدمت فى صفر سنة سبع وعشرين وأعيدت

وفى شوّال منها ابتدئ بعمل الصهريج الذى فى وسط الجامع فوجد هنالك آثار فسقية ماء ووجد أيضا رمم أموات وتم بناؤه فى ربيع الاول وعمل باعلاه مكان مرتفع له قبة يسبل فيه الماء وغرس بصحن الجامع أربع شجرات فلم تفلح وماتت ولم يكن لهذا الجامع ميضأة عندما بنى ثم عملت ميضأته حيث المدرسة الاقبغاوية الى أن بنى الامير أقبغا عبد الواحد مدرسته المعروفة بالمدرسة الاقبغاوية هنالك وأما هذه الميضأة التى بالجامع الآن فان الامير بدر الدين جنكل بن البابا بناها ثم زيد فيها بعد سنة عشرة وثمانمائة ميضأة المدرسة الاقبغاوية وفى سنة ثمان عشرة وثمانمائة ولى نظر هذا الجامع الامير سودوب القاضى حاجب الحجاب فجرت فى أيام نظره حوادث لم يتفق مثلها وذلك أنه لم يزل فى هذا الجامع منذ بنى عدة من الفقراء يلازمون الاقامة فيه وبلغت عدتهم فى هذه الايام سبعمائة وخمسين رجلا ما بين عجم وزيالعه ومن أهل ريف مصر ومغاربه ولكل طائفة رواق يعرف بهم فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بانواع العلوم الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر فيجد الانسان اذا دخل هذا الجامع من الانس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده فى غيره وصار أرباب الاموال يقصدون هذا الجامع بانواع البر من الذهب والفضة والفلوس اعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى وكل قليل تحمل اليهم أنواع الاطعمة والخبز والحلاوات لاسيما فى المواسم فأمر فى جمادى الاولى من هذه السنة باخراج المجاورين من الجامع ومنعهم من الاقامة فيه واخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن وكراسى المصاحف زعما منه أن هذا العمل مما يثاب عليه وما كان الا من أعظم الذنوب وأكثرها ضررا فانه حل بالفقراء بلاء كبير من تشتت شملهم وتعذر الاماكن عليهم فساروا فى القرى وتبذلوا بعد الصيانة وفقد من الجامع أكثر ما كان فيه من تلاوة القرآن ودراسة العلم وذكر الله ثم لم يرضه ذلك حتى زاد فى التعدى وأشاع أن أناسا يبيتون بالجامع ويفعلون فيه منكرات وكانت العادة قد جرت بمبيت كثير من الناس فى الجامع ما بين تاجر وفقيه وجندى وغيرهم منهم من يقصد بمبيته البركة ومنهم من لا يجد مكانا يأويه ومنهم من يستروح بمبيته هنالك خصوصا فى ليالى الصيف وليالى شهر رمضان فانه يمتلئ صحنه وأكثر رواقاته فلما كانت ليلة الاحد الحادى عشر من جمادى الآخرة طرق الامير سودوب الجامع بعد العشاء الآخرة والوقت صيف وقبض على جماعة وضربهم فى الجامع وكان قد جاء معه من الاعوان والغلمان وغوغاء العامة ومن يريد النهب جماعة فحل بمن كان فى الجامع أنواع البلاء ووقع فيهم النهب فأخذت فرشهم وعمائمهم وفتشت أوساطهم وسلبوا ما كان مربوطا عليها من ذهب وفضة وعمل ثوبا أسود للمنبر وعلمين مزوقين بلغت النفقة على ذلك خمسة عشر ألف درهم على ما بلغنى فعاجل الله الامير سودوب وقبض عليه السلطان فى شهر رمضان وسجنه بدمشق .

ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالا وأتقنها صناعة وأبدعها حسنا وبهجة وكمالا ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه وكان الذى تولى بناءه واتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ووجه الى ملك الروم بقسطنطينية يأمره أن يبعث له الصناع فبعث اليه اثنى عشر ألف صانع وكان موضع المسجد كنيسة فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد رضى الله عنه من احدى جهاتها بالسيف فانتهى الى نصف الكنيسة ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه من الجهة الغربية صلحا فانتهى الى نصف الكنيسة فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذى دخلوه عنوة مسجدا وبقى النصف الذى صالحوا عليه كنيسة فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة فى المسجد طلب من الروم أن يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤا من عوض فأبوا عليه فانتزعها من أيديهم وكانوا يزعمون أن الذى يهدمها يجن فذكروا ذلك للوليد فقال أنا أول من يجن فى سبيل الله وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم وأكذب الله زعم الروم وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها أنواع الاصبغة الغريبة الحسن وذرع المسجد فى الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة وهى ثلثمائة ذراع وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة وهى مائتا ذراع وعدد شمسات الزجاج الملونة التى فيه أربع وسبعون وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق الى غرب سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثمانى أرجل جصية تتخللها وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون قد صور فيها أشكال محاريب وسواها وهى تقل قبة الرصاص التى أمام المحراب المسماة بقبة النسر كأنهم شبهوا المسجد بنسر طائر والقبة رأسه وهى من أعجب مبانى الدنيا ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة فى الهواء منيفة على جميع مبانى البلد وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاط منها عشر خطا وبها من السوارى ثلاث وثلاثون ومن الارجل أربع عشرة وسعة الصحن مائة ذراع وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنا وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا فمن قارئ ومحدث وذاهب ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة واذا لقى أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبا له أسرع كل منهما نحو صاحبه وحط رأسه وفى هذا الصحن ثلاث من القباب احداها فى غربيه وهى أكبرها وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين وهى قائمة على ثمان سوارى من الرخام مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة مسقفة بالرصاص يقال ان مال الجامع كان يختزن بها وذكر لى أن فوائد مستغلات الجامع ومجابيه نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهبا فى كل سنة والقبة الثانية

من شرق الصحن على هيئة الاخرى الا أنها أصغر منها قائمة على ثمان من سوارى الرخام وتسمى قبة زين العابدين والقبة الثالثة فى وسط الصحن وهى صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الالصاق قائمة على أربع سوارى من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد فى وسطه أنبوب نحاس يمج الماء الى علو فيرتفع ثم ينثنى كأنه قضيب لجين وهم يسمونه قفص الماء ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب وفى الجانب الشرقى من الصحن باب يفضى الى المسجد بديع الوضع يسمى مشهد على ابن أبى طالب رضى الله عنه ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقى البلاطان الغربى والجوفى موضع يقال ان عائشة رضى الله عنها سمعت الحديث هنالك وفى قبلة المسجد المقصورة العظمى التى يؤم فيها إمام الشافعية وفى الركن الشرقى منها ازاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذى وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه الى الشام وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيأ وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ويذكر أهل التاريخ أنه أول محراب وضع فى الاسلام وفيه يؤم أمام المالكية وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم امامهم ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم امامهم ولهذا المسجد ثلاث صوامع احداها بشرقيه وهى من بناء الروم وبابها داخل المسجد وباسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد ويتوضؤن والصومعة الثانية بغربيه وهى أيضا من بناء الروم والصومعة الثالثة بشماله وهى من بناء المسلمين وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنا وفى شرقى المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء وهى لطائفة الزيالعة السودان وفى وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام وعليه تابوت معترض بين اسطوانتين مكسو بثوب حرير أسود معلم فيه مكتوب بالابيض (يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى) وهذا المسجد شهير الفضل وقرأت فى فضائل دمشق عن سفيان الثورى أن الصلاة فى مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة وفى الاثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة ويقال ان الجدار القبلى منه وضعه نبى الله هود عليه السلام وأن قبره به وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له الاحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عامر صلى الله عليه وسلم ومن فضائل هذا المسجد أنه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة الا قليلا من الزمان والناس يجتمعون به كل يوم إثر صلاة الصبح فيقرؤن سبعا من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرون فيها من سورة الكوثر الى آخر القرآن وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجرى لهم وهم نحو ستمائة انسان ويدور عليهم كاتب الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته وفى هذا المسجد

جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلين على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك ويتوضئون من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيأ من ذلك وفي هذا المسجد أربعة أبواب باب قبلي يعرف بباب الزيادة وباعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضي الله عنه ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنه يذهب الى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي من أحسن أسواق دمشق وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ودور قومه وكانت تسمى الخضراء فهدمها بنو العباس رضي الله عنهم وصار مكانها سوقا وباب شرقي وهو أعظم أبواب المسجد ويسمى بباب جيرون وله دهليز عظيم يخرج منه الى بلاط عظيم طويل أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه وبازائه مسجد صغير ينسب الى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبه ماء جار وقد انتظمت أمام البلاط درج ينحدر فيها الى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته أعمدة كالجذوع طوال وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة وفي الرحبة المتصلة بالباب الاول دكاكين لكبار الشهود منها دكانان للشافعية وسائرها لاصحاب المذاهب يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول والعاقد للانكحة من قبل القاضي وسائر الشهود مفترقون في المدينة وبقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد وفي وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تقلها أعمدة رخام وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الانسان يسمونه الفوارة منظره عجيب وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار والابواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة فاذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الاخضر ظاهرا والظاهر الاصفر باطنا ويقال ان بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات والباب الغربي يعرف بباب البريد وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه وباعلاه باب يصعد اليه في درج له أعمدة سامية في الهواء وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان والباب الجوفي يعرف بباب الناطفانيين وله دهليز عظيم وعن يمين الخارج منه خانقاه تعرف بالشميساطية في وسطها صهريج ماء ولها مطاهر يجري فيها الماء

ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وعلى كل باب من أبواب المسجد الاربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجري فيها المياه الكثيرة (لابن بطوطة)

علم التاريخ

ان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا أخبار الايام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وأدوها الينا كما سمعوها ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل والتقليد عريق في الآدميين وسليل والتطفل على الفنون عريض وطويل ومرعى الجهل بين الانام وخيم وبيل والحق لا يقاوم سلطانه والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه والناقل انما هو يملي وينقل والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل هذا وقد دوّن الناس في الاخبار وأكثروا وجمعوا تواريخ الامم والدول في العالم وسطروا والذين ذهبوا بفضل الشهرة والامانة المعتبرة واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الانامل ولا حركات العوامل مثل ابن اسحاق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الاسدي والمسعودي وغيرهم من المشاهير المتميزين عن الجماهير وان كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الاثبات ومشهور بين الحفظة الثقات الا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم فللعمران طبائع في أحواله ترجع اليها الاخبار وتحمل عليها الروايات والآثار ثم ان أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك لعموم الدولتين صدر الاسلام في الآفاق والممالك وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والمتارك ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والامم والامر العمم كالمسعودي ومن نحا منحاه وجاء من بعدهم من عدل عن الاطلاق الى التقييد ووقف في العموم والاحاطة عن الشأو البعيد فقيد شوارد عصره واستوعب أخبار أفقه وقطره واقتصر على أحاديث دولته ومصره كما فعل أبو حيان مؤرخ الاندلس والدولة الاموية بها وابن الرفيق مؤرخ افريقية والدولة التي كانت بالقيراوان ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد وبليد الطبع والعقل أو متبلد ينسج على ذلك المنوال ويحتذي منه بالمثال ويذهل عما أحالته الايام من الاحوال واستبدلت به من عوائد الامم والاجيال فيجلبون الاخبار عن الدول وحكايات الوقائع

في العصور الاول صورا قد تجردت عن موادها وصفاحا انتضيت من أغمادها ومعارف تستنكر للجهل بطارفها وتلادها انما هي حوادث لم تعلم أصولها وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها يكررون في موضوعاتهم الاخبار المتداولة بأعيانها اتباعا لمن عنى من المتقدمين بشأنها ويغفلون أمر الاجيال الناشئة في ديوانها بما أعوز عليهم من ترجمانها فتستعجم صحفهم عن بيانها ثم اذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا محافظين على نقلها وهما أو صدقا لا يتعرضون لبدايتها ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها وأظهر من آيتها ولا علة الوقوف عند غايتها فيبقى الناظر متطلعا بعد الى افتقاد أحوال مبادى الدول ومراتبها مفتشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها باحثا عن المقنع في تباينها أو تناسبها ثم جاء آخرون بافراط الاختصار وذهبوا الى الاكتفاء بأسماء الملوك والاقتصار مقطوعة عن الانساب والاخبار موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار كما فعله ابن رشيق في ميزان العمل ومن اقتفى هذا الاثر من الهمل وليس يعتبر لهؤلاء مقال ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال لما أذهبوا من الفوائد وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد

(ابن خلدون)

(في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام وذكر شيء من أسبابها)

اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الامم في أخلاقهم والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط سيما في احصاء الاعداد من الاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات اذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها الى الاصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني اسرائيل وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها

فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون ويذهل فى ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الارض عنها وبعدها اذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثا أو أزيد فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفين وشئ من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر يشهد لذلك فالماضى أشبه بالآتى من الماء بالماء ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بنى اسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلبة بختنصر لهم والتهامه بلادهم واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس يقال انه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وماوراء النهر والابواب أوسع من ممالك بنى اسرائيل بكثير ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرون ألفا كلهم متبوع على مانقله سيف قال وكانوا فى اتباعهم أكثر من مائتى ألف وعن عائشة والزهرى أن جموع رستم التى زحف بها سعد بالقادسية انما كانوا ستين ألفا كلهم متبوع وأيضا فلو بلغ بنو اسرائيل مثل هذا العدد لاتسع نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم فان العمالات والممالك فى الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها فى قلتها وكثرتها والقوم لم تتسع ممالكهم الى غير الاردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ماهو المعروف وأيضا فالذى بين موسى واسرائيل انما هو أربعة آباء على ماذكره المحققون فانه موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بفتح الهاء وكسرها ابن لاوى بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو اسرائيل الله هكذا نسبه فى التوراة والمدة بينهما على مانقله المسعودى قال دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط وأولادهم حين أتوا الى يوسف سبعين نفسا وكان مقامهم بمصر الى ان خرجوا مع موسى عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ويبعد أن يتشعب النسل فى أربعة أجيال الى مثل هذا العدد وان زعموا أن عدد تلك الجيوش انما كان فى زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضا اذ ليس بين سليمان واسرائيل الا أحد عشر أبا فانه سليمان بن داود بن ايشا بن عوفيذ ويقال ابن عوفذ بن باعز ويقال بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب ويقال حيناذاب بن رم ابن حصرون ويقال حسرون بن بارس ويقال بيرس بن يهوذا بن يعقوب ولا يتشعب النسل فى أحد عشر من الولد الى مثل هذا العدد الذى زعموه اللهم الى المئين والآلاف فربما يكون وأما أن يتجاوز الى مابعدهما من عقود الاعداد فبعيد واعتبر ذلك فى الحاضر المشاهد والقريب

المعروف تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا والذى ثبت فى الاسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثنى عشر ألفا خاصة وأن مقرباته كانت ألفا وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت الى خرافات العامة منهم وفى أيام سليمان عليه السلام وملكه كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من أهل هذا العصر اذا أفاضوا فى الحديث عن عساكر الدول التى لعهدهم أو قريبا منه وتفاوضوا فى الاخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا فى احصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين و بضائع الاغنياء الموسرين توغلوا فى العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الاغراب فاذا استكشفت أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت أحوال أهل الثروة فى بضائعهم وفوائدهم واستجليت عوائد المترفين فى نفقاتهم لم تجد معشار مايعدونه وماذلك الا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ولا يطالبها فى الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها الى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم فى مراتع الكذب لسانه و يتخذ آيات الله هزوا ويشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وحسبك بها صفقة خاسرة ومن الاخبار الواهية للمؤرخين ماينقلونه كافة فى أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن الى أفريقية والبربر من بلاد المغرب وأن افريقش بن قيس بن صيفى من أعاظم ملوكهم الاول وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل غزا أفريقية وأثخن فى البربر وأنه الذى سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ماهذه البربرة فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من حينئذ وأنه لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة وكتامة ومن هذا ذهب الطبرى والجرجانى والمسعودى وابن الكلبى والبيلى الى أن صنهاجة وكتامة من حمير وتأباه نسابة البربر وهو الصحيح وذكر المسعودى أيضا أن ذا الاذعار من ملوكهم قبل افريقش وكان على عهد سليمان عليه السلام غزا المغرب ودوخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده وأنه بلغ وادى الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكا لكثرة الرمل فرجع وكذلك يقولون فى تبع الآخر وهو أسعد أبو كرب وكان على عهد يستاسف من ملوك الفرس الكيانية انه ملك الموصل واذربيجان ولقى الترك فهزمهم وأثخن ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك وأنه بعد ذلك غزا ثلاثة من بنيه بلاد فارس والى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر والى بلاد الروم فملك الاول البلاد الى سمرقند وقطع المفازة الى الصين فوجد أخاه الثانى الذى غزا الى سمرقند قد سبقه اليها فأثخنا فى بلاد الصين و رجعا جميعا بالغنائم وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها الى هذا العهد و بلغ الثالث الى قسطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم و رجع

وهـذه الاخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة فى الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة وذلك أن ملك التبابعة انما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها فبحر الهنـد من الجنوب وبحر فارس الهابط منـه الى البصرة من المشرق وبحر السويس الهابط منـه الى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه فى مصور الجغرافيا فلا يجد السالكون من اليمن الى المغرب طريقا من غير السويس والمسلك هنالك ما بين بحر السويس والبحر الشامى قدر مرحلتين فما دونهما ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم فى عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله هذا ممتنع فى العادة وقد كان بتلك الاعمال العمالقة وكنعان بالشام والقبط بمصر ثم ملك العمالقة مصر وملك بنو اسرائيـل الشام ولم ينقل قط أن التبابعة حاربوا أحدا من هؤلاء الامم ولا ملكوا شـيأ من تلك الاعمـال وأيضا فالشقة من البحر الى المغرب بعيدة والازودة والعلوفة للعساكر كثيرة فاذا ساروا فى غير أعمالهم احتاجوا الى انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرون عليه ولا يكفى ذلك للازودة وللعلوفة عادة وان نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفى لهم الرواحل بنقله فلا بد وأن يمروا فى طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها وان قلنا ان تلك العساكر تمر بهؤلاء الامم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك أبعد وأشـد امتناعا فدل على أن هـذه الاخبار واهيـة أو موضوعة وأما وادى الرمل الذى يعجز السالك فلم يسمع قط ذكـره فى المغرب على كثرة سالكه ومن يقص طرقه من الركاب والقرى فى كل عصر وكل جهة وهو على ما ذكروه من الغرابة تتوفر الدواعى على نقله وأما غزوهم بلاد المشرق وأرض الترك وان كانت طريقه أوسع من مسالك السويس الا أن الشقة هنا أبعد وأمم فارس والروم معترضون فيها دون الترك ولم ينقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم وانمـا كانوا يحـاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما من الاعمـال وقد وقع ذلك بين ذى الاذعار منهم وكيكاوس من ملوك الكيانية وبين تبع الاصغر أبو كرب ويستأسف منهم أيضـا ومع ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من بعدهم بمجاوزة أرض فارس بالغزو الى بلاد الترك والتبت وهو ممتنع عادة من أجل الامم المعترضة منهم والحاجة الى الازودة والعلوفات مع بعد الشقة كما مر فالاخبار بذلك واهية مدخولة وهى لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحا فيها فكيف وهى لم تنقل من وجه صحيح وقول ابن اسحق فى خبر يثرب والاوس والخزرج ان تبعا الآخر سار الى المشرق محمول على العراق وبلاد فارس وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم اليها بوجه لما تقرر فلا تثقن بما يلقى اليك من ذلك وتأمل الاخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه والله الهادى

الى الصواب . ومن الغلط الخفى فى التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال فى الامم والاجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام وهو داء دوى شديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الآحاد من الخليقة وذلك أن أحوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر وانما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك فى الاشخاص والاوقات والامصار فكذلك يقع فى الآفاق والاقطار والازمنة والدول سنة الله التى قد خلت فى عباده وقد كانت فى العالم أمم الفرس الاولى والسريانيون والنبط والتبابعة وبنو اسرائيل والقبط وكانوا على أحوال خاصة بهم فى دولهم وممالكهم وسياستهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع أبناء جنسهم وأحوال اعتمارهم للعالم تشهد بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب فتبدلت تلك الاحوال وانقلبت بها العوائد الى ما يجانسها أو يشابهها والى ما يباينها أو يباعدها ثم جاء الاسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الاحوال أجمع انقلابة أخرى وصارت الى ما أكثره متعارف لهذا العهد يأخذه الخلف عن السلف ثم درست دولة العرب وأيامهم وذهبت الاسلاف الذين شيدوا عزهم ومهدوا ملكهم وصار الامر فى أيدى سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والفرنجة بالشمال فذهبت بذهابهم أمم وانقلبت أحوال وعوائد نسى شأنها وأغفل أمرها والسبب الشائع فى تبدل الاحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال فى الامثال الحكمية الناس على دين الملك وأهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والامر فلابد وأن يفزعوا الى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك فيقع فى عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الاول فاذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضا بعض الشئ وكانت للاولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدريج فى المخالفة حتى ينتهى الى المباينة بالجملة فمادامت الامم والاجيال تتعاقب فى الملك والسلطان لا تزال المخالفة فى العوائد والاحوال واقعة والقياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير مأمونة تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده وتعوج به عن مرامه فربما يسمع السامع كثيرا من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الاحوال وانقلابها فيجريها لاول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شاهد وقد يكون الفرق بينهما كثيرا فيقع فى مهواة من الغلط . فمن هذا الباب ما ينقله المؤرخون من أحوال الحجاج وأن أباه كان من المعلمين مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم فيتشوق الكثير من المستضعفين أهل الحرف والصنائع المعاشية الى نيل الرتب التى ليسوا

لها بأهل ويعدونها من الممكنات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع وربما انقطع حبلها من أيديهم فسقطوا فى مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون استحالتها فى حقهم وأنهم أهل حرف وصنائع للمعاش وأن التعليم فى صدر الاسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة انما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ فكان أهل الانساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبرى لا على وجه التعليم الصناعى اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والاسلام دينهم قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الامم وشرفوا فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للامة لا تصدهم عنه لائمة الكبر ولا يزعهم عاذل الانفة ويشهد لذلك بعث النبى صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام وما جاء به من شرائع الدين بعث فى ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم فلما استقر الاسلام ووشجت عروق الملة حتى تناولها الامم البعيدة من أيدى أهلها واستحالت بمرور الايام أحوالها وكثر استنباط الاحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطا وصار العلم ملكة يحتاج الى التعلم فأصبح من جملة الصنائع والحرف واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة للمعاش وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدى للتعليم واختص انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقرا عند أهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش فى الشرف ما علمت ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الامر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش وانما كان على ما وصفناه من الامر الاول فى الاسلام. ومن هذا الباب أيضا ما يتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ اذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرئاسة فى الحروب وقود العساكر فتترامى بهم وساوس الهمم الى مثل تلك الرتب يحسبون أن الشأن فى خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل ويظنون بابن أبى عامر صاحب هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوائف باشبيلية اذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يتفطنون لما وقع فى رتبة القضاء من مخالفة العوائد وابن أبى عامر وابن عباد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الاموية بالاندلس وأهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معلوما ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرئاسة والملك بخطة القضاء كما هى لهذا العهد بل انما كان القضاء فى الامر القديم لاهل العصبية من قبيل الدولة ومواليها كما هى الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم بالعساكر فى الطوائف وتقليدهم عظائم الامور التى لا تقلد الا لمن له الغنى فيها بالعصبية فيغلط السامع فى ذلك ويحمل الاحوال على غير ما هى وأكثر ما يقع فى هذا الغلط

ضعفاء البصائر من أهل الاندلس لهذا العهد لفقدان العصبية فى مواطنهم منذ أعصار بعيدة لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبيات من البربر فبقيت أنسابهم العربية محفوظة والذريعة الى العز من العصبية والتناصر مفقودة بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدهم القهر ورئموا للمذلة يحسبون أن أنسابهم مع مخالطة الدولة هى التى تكون لهم بها الغلبة والتحكم فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصدين لذلك ساعين فى نيله فأما من باشر أحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة الغربية وكيف يكون التغلب بين الامم والعشائر فقلما يغلطون فى ذلك ويخطؤن فى اعتباره . ومن هذا الباب أيضا ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسق ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونساءه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليد لمؤرخى الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم لاهل الدولة وأبناؤها متشوفون الى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقتفوا آثارهم وينسجوا على منوالهم حتى فى اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط والمراتب لابناء صنائعهم وذويهم والقضاة أيضا كانوا من أهل عصبية الدولة وفى عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون الى ذكر ذلك كله وأما حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بأنفسهم خاصة ونسب الدول بعضها من بعض فى قوتها وغلبتها ومن كان يناهضها من الامم أو يقصر عنها فما الفائدة للمصنف فى هذا العهد فى ذكر الابناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضى والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم انما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الاقدمين والذهول على تحرى الأغراض من التاريخ اللهم الا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخبارهم كالحجاج وبنى المهلب والبرامكة وبنى سهل بن نوبخت وكافور الاخشيدى وابن أبى عامر وأمثالهم فغير نكير الالماع بآبائهم والاشارة الى أحوالهم لانتظامهم فى عداد الملوك . ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا فى هذا الفصل بها وهى أن التاريخ انما هو ذكر الاخبار الخاصة بعصر أو جيل فأما ذكر الاحوال العامة للآفاق والاجيال والاعصار فهو أس للمؤرخ تنبنى عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره وقد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعله المسعودى فى كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الامم والآفاق لعهده فى عصر الثلاثين والثلثمائة غربا وشرقا وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار اماما للمؤرخين يرجعون اليه وأصلا يعولون فى تحقيق الكثير من أخبارهم عليه ثم جاء البكرى من بعده ففعل مثل ذلك فى المسالك والممالك خاصة دون غيرها من الاحوال لان الامم والاجيال لعهده لم يقع فيها كثير انتقال

ولا عظيم تغير وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم عن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب لما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشي والاضمحلال أحوالها وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة والله وارث الارض ومن عليها واذا تبدلت الاحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لاهلها ويقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلا يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده والله الموفق للصواب بمنه وفضله (من مقدمة ابن خلدون)

(ذكر قصة ابراهيم عليه السلام ومن تلا عصره من الانبياء والملوك من بني اسرائيل وغيرهم)

ولما نشأ ابراهيم عليه السلام وخرج من المغارة التي كان بها وتأمل آفاق الارض والعالم وما فيه من دلائل الحدوث والتأثير نظر الى الزهرة واشراقها فقال هذا ربي فلما رأى القمر أنور منها قال هذا ربي فلما رأى الشمس أبهر مما رأى قال هذا ربي هذا أكبر وقد تنازع الناس في قول ابراهيم هذا ربي فنهم من رأى أن ذلك كان على طريق الاستدلال والاستخبار ومنهم من رأى أن ذلك منه كان قبل البلوغ وحال التكليف ومنهم من رأى غير ذلك فاتاه جبريل فعلمه دينه واصطفاه الله نبيا وخليلا وكان قد أوتي رشده من قبل ومن أوتي رشده فقد عصم من الخطأ والزلل وعبادة غير الواحد الصمد فعاب ابراهيم عليه السلام على قومه ما رأى من عبادتهم واتخاذهم المجوفات آلهة لهم فلما كثر عليهم ذم ابراهيم لآلهتهم واستفاض ذلك فيهم اتخذله النمروذ النار وألقاه فيها فجعلها الله عليه بردا وسلاما وخمدت النار على سائر بقاع الارض في ذلك اليوم وولد لابراهيم اسماعيل عليهما السلام وذلك بعد أن مضى من عمره ست وثمانون أو سبع وثمانون سنه وقيل سبعون سنة من هاجر جارية كانت لسارة وكانت سارة أول من آمن بابراهيم عليه السلام وهي ابنة بتوايل بن ناحور وهي ابنة عم ابراهيم وقد قيل غير هذا وآمن به لوط بن هاران بن تارح بن ناحور وهو ابن أخي

ابراهيم عليه السلام وأرسل الله لوطا الى سدوم وقراها الخمس وهى ضبعة وعمره وادماء وصبوغ وبالع وان قوم لوط هم أصحاب المؤتفكة وهذا الاسم مشتق من الافك وهو الكذب على رأى من ذهب الى الاشتقاق وقد ذكرهم الله فى كتابه بقوله والمؤتفكة أهوى وهذه بلاد بين تخوم الشام والحجاز مما يلى الاردن وبلاد فلسطين الا أن ذلك فى حيز الشام وهى مبقاة الى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة خرابا لا أحد بها والحجارة المسومة موجودة فيها يراها الناس السفار سوداء فأقام فيهم لوط بضعا وعشرين سنة يدعوهم الى الله فلم يؤمنوا فاخذهم العذاب على حسب ما أخبر الله من شأنهم ولما ولد اسماعيل هاجر الى مكة فاسكنهم بها وذلك قوله عز وجل يخبر عن ابراهيم رب انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم فاجاب الله دعوته وآنس وحشتهم بجرهم والعماليق وجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وأهلك الله قوم لوط فى عهد ابراهيم لما كان من فعلهم واتضح من خبرهم ثم أمر الله ابراهيم عليه السلام بذبح ولده فبادر الى طاعة ربه وتله للجبين ففداه الله بذبح عظيم ورفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ثم ولد لابراهيم من سارة اسحاق عليه السلام وذلك بعد مضى عشرين ومائة سنة من عمره وقد تنازع الناس فى الذبيح فنهم من ذهب الى انه اسحاق ومنهم من رأى انه اسماعيل فان كان الامر وقع بالذبح بالحجاز فالذبيح اسماعيل لان اسحاق لم يدخل الحجاز وان كان الامر بالذبح وقع بالشام فالذبيح اسحاق لان اسماعيل لم يدخل الشام بعد أن حمل منه وتوفيت سارة . وتزوج ابراهيم بعد ذلك بقنطوراء فولد له منها ستة ذكور وهم مرق ونفس ومدن ومدين وسنان وسرح وتوفى ابراهيم بالشام وكان عمره الى أن قبضه الله عز وجل مائة سنة وخمسا وتسعين سنة وأنزل الله عليه عشرا من الصحف وتزوج اسحاق بعد ابراهيم بوبخا ابنة بتوايل فولدت له العيص و يعقوب فى بطن واحد وكان البادئ منهما الى الفصل عيص ثم يعقوب وكان لاسحاق فى وقت مولدهما ستون سنة وذهب بصر اسحاق فدعا ليعقوب بالرياسة على اخوته والنبوة فى ولده ودعا العيص بالملك فى ولده وكان عمر اسحاق الى أن قبضه الله مائة وخمسا وثمانين سنة ودفن مع أبيه الخليل ومواضع قبورهم مشهورة وذلك على ثمانية عشر ميلا من بيت المقدس فى مسجد هنالك يعرف بمسجد ابراهيم ومراعيه وقد كان اسحاق أمر ولده يعقوب بالمسير الى أرض الشام وبشره بالنبوة ونبوة أولاده الاثنى عشر وهم لاوى ويهوذا ويساخر وزبولون ويوسف وبنيامين ودان ونفتالى وكان واشار وشمعون وروبيل هؤلاء الاسباط والنبوة والملك فى عقب أربعة منهم لاوى ويهوذا ويوسف وبنيامين وكثر جزع يعقوب من أخيه العيص فآمنه الله من ذلك وكان ليعقوب خمسة آلاف وخمسمائة من الغنم فأعطى يعقوب لاخيه العيص العشر من غنمه استكفاء للشر وخوفا من سطوته من بعد أن آمنه الله

عزوجل من خوفه وان لاسبيل له عليه فعاقبه الله فى ولده لمخالفته لوعده فأوحى الله تعالى اليه ألم تطمئن الى قولى فلا جعلن ولد العيص علكون ولدك خمسمائة وخمسين عاما وكانت المدة مدة أخريت الروم بيت المقدس واستعبدت بنى اسرائيل الى أن فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه بيت المقدس وكان أحب ولد يعقوب اليه يوسف فحسده اخوته على ذلك وكان من أمره مع اخوته ماقص الله عزوجل فى كتابه وأخبر على لسان نبيه واشتهر ذلك فى أمته وقبض الله عزوجل يعقوب ببلاد مصر وهو ابن مائة وأربعين سنة فحمله يوسف فدفنه ببلاد فلسطين عند تربة ابراهيم واسحاق وقبض الله يوسف بمصر وله مائة وعشرون سنة وجعل فى تابوت من الرخام وسد بالرصاص وطلى بالاطلية الدافعة للهواء والماء وطرح فى نيل مصر نحو مدينة منف وهنالك مسجده وقيل ان يوسف أوصى أن يحمل فيدفن عند قبر أبيه يعقوب فى مسجد ابراهيم عليه الصلاة والسلام.

وكان فى عصره أيوب النبى صلى الله عليه وسلم وهو أيوب بن موص بن رزاح بن رعوايل بن العيص ابن اسحاق بن ابراهيم عليهما السلام وذلك فى بلاد الشام من أرض حوران والبثنية من بلاد دمشق والجابيه وكان كثير المال والولد فابتلاه الله فى نفسه وماله و ولده فصبر ورد الله عليه ذلك وأقاله عثرته واقتص ما اقتص من أخباره فى كتابه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ومسجده والعين التى اغتسل منها فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة مشهوران ببلاد نوى والجولان فيما بين دمشق وطبريه من بلاد الاردن وهذا المسجد والعين على ثلاثة أميال من مدينة نوى ونحو ذلك والحجر الذى كان يأوى اليه فى حال بلائه هو و زوجته واسمها رحمة فى ذلك المسجد الى هذا الوقت وذكر أهل التوراة والكتب الاولى ان موسى ابن ميشا بن يوسف بن يعقوب نبى قبل موسى بن عمران وانه هو الذى طلب الخضر بن ملكان بن فالغ بن عابور بن شالح بن ارفخشذ بن سام بن نوح وذكر بعض أهل الكتب أن الخضر هو خضرون بن عمائيل بن النفر بن العيص بن اسحاق بن ابراهيم وأنه أرسل الى قومه فاستجابوا له فكان موسى بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بمصر فى زمن فرعون الجبار وهو الوليد بن مصعب بن معاويه بن أبى نمير بن الهلواس بن ليث بن هران بن عمرو ابن عملاق وهو الرابع من فراعنة مصر وقد كان طال عمره وعظم جسمه وكان بنو اسرائيل قد استرقوا بعد مضى يوسف واشتد عليهم البلاء وأخبر أهل الكهانة والنجوم والسحر فرعون أن مولودا سيولد و يزيل ملكه ويحدث ببلاد مصر أمورا عظيمة فجزع لذلك فرعون وأمر بذبح الاطفال وكان من أمر موسى ما أوحى الله عزوجل الى أمه فى أمره أن اقذفيه فقذفته فى اليم الى آخر ما اقتص من خبره وأوضحه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وكان فى ذلك الزمان شعيب صلى الله عليه وسلم وهو شعيب بن نويت بن رعويل بن مر بن عنقاء بن مدين بن ابراهيم فكان لسانه عربيا

وكان مبعوثا من أهل مدين فلما خرج موسى عليه السلام هاربا من فرعون مر بشعيب النبي صلى الله عليه وسلم وكان من أمره معه وتزويجه ابنته ماقد ذكره الله عزوجل فكلم الله موسى تكليما وشد عضده بأخيه هارون وبعثهما الى فرعون فخالفهما فاغرق الله عزوجل فرعون وأمره الله عزوجل بالخروج ببني اسرائيل الى التيه وكان عددهم ستمائة ألف بالغ دون من ليس ببالغ وكانت الالواح التي أنزلها الله على موسى بن عمران على جبل طور سيناء من زمرد أخضر فيها كتابة بالذهب فلما نزل من الجبل رأى قوما من بني اسرائيل قد اعتكفوا على عبادة عجل لهم فارتعد فسقطت الالواح من يده فتكسرت فجمعها وأودعها تابوت السكينة مع غيرها وجعله في الهيكل وكان هارون كاهنا وهو قيم الهيكل وأتم الله عزوجل نزول التوراة على موسى بن عمران وهو في التيه وقبض الله هارون في التيه فدفن في جبل مران من نحو جبل الشراء مما يلي الطور وقبره مشهور في مغارة عادية يسمع منها في بعض الليالي دوى عظيم يجزع منه كل ذي روح وقيل انه غير مدفون بل هو موضوع في تلك المغارة ولهذا الموضع خبر عجيب وكان ذلك قبل وفاة موسى بسبعة أشهر وقبض الله هارون وهو ابن مائة وثلاث وعشرين سنة وقيل انه قبض وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل ان موسى قبض بعد وفاة هارون بثلاث سنين وانه خرج الى الشام وكان له بها حروب من سرايا كانوا يسيرونها من البر الى العماليق والعربانيين والمدينيين وغيرهم ممن كان بالشام وغيرهم من الطوائف على حسب ما في التوراة وأنزل الله عزوجل على موسى عشر صحف فاستتم مائة صحيفة ثم أنزل الله عليه التوراة بالعبرية وفيها الامر والنهي والتحريم والتحليل والسنن والاحكام وذلك في خمسة أسفار والسفر يريدون بها الصحيفة وكان موسى قد ضرب التابوت الذي فيه السكينة من الذهب من ستمائة ألف مثقال وسبعمائة وخمسين مثقالا فصار الكاهن بعد هارون يوشع بن نون من سبط يوسف وقبض الله موسى وهو ابن عشرين ومائة سنة ولم يحدث لموسى ولا لهارون شئ من الشيب ولا حالا عن صفة الشباب ولما قبض الله عزوجل موسى بن عمران سار يوشع بن نون ببني اسرائيل الى بلاد الشام وقد كان غلب عليها الجبابرة من ملوك العماليق وغيرهم من ملوك الشام فاسرى اليهم يوشع بن نون سرايا وكانت له معهم وقائع فافتتح بلاد أريحاء من أرض الغور وهي أرض البحيرة المنتنة التي لا تقبل الغرقاء ولا يتكون فيها ذو روح من سمك ولا غيره وقد ذكرها صاحب المنطق وغيره من الفلاسفة ومن تقدم وتأخر من عصره واليها ينتهي ماء بحيرة طبرية وهو الاردن وبدء ماء بحيرة طبريه من بحيرة كقولى وفرعون من أرض دمشق فاذا انتهى مصب نهر الاردن الى البحيرة المنتنة خرقها وانتهى الى وسطها متميزا عن مائها فيغوص في وسطها وهو نهر عظيم فلا يدري أين غاص من غير أن يزيد من البحيرة ولا ينقص منها ولهذه البحيرة أعني المنتنة أخبار عجيبة

وقصة طويلة وقد ذكرت فى كتاب أخبار الزمان عن الامم الماضية والملوك الداثرة وذكر أخبار الاحجار التى تخرج منها على صورة البطيخ على شكلين و يعرف الواحد منها بالحجر اليهودى وذكرته الفلاسفة واستعملته فى الطب لمن به وجع الحصاة فى المثانة وهو نوعان ذكر وأنثى فالذكر للرجال والانثى للنساء ومن هذه البحيرة يخرج الغبار المعروف بالحمرة وليس فى الدنيا والله أعلم بحيرة لا يتكون فيها ذو روح من سمك وغيره الا هذه البحيرة وبحيرة ركبتها ببلاد اذربيجان بين مدينة أرمينية ومنارة وهى المعروفة هنالك بكنودان وقد ذكر الناس ممن تقدم عذر عدم تكون الحيوان فى البحيرة المنتنة ولم يتعرضوا لبحيرة كنودان و ينبغى على قياس قولهم أن تكون عينهما واحدة وسار ملك الشام وهو السميدع ابن هوبر بن مالك الى يوشع بن نون فكانت بينهم حروب الى أن قتله يوشع واحتوى على جميع ملكه والحق به غيره من الجبابرة والعماليق وشن الغارات بارض الشام وكانت مدة يوشع بن نون فى بنى اسرائيل بعد وفاة موسى بن عمران تسعا وعشرين سنة وهو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف ابن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم وقيل ان يوشع بن نون كان بدء محاربته لملك العماليق وهو السميدع ببلاد ايله نحو مدين وكان بقرية من قرى البلقاء من بلاد الشام رجل يقال له بلعم بن باعوراء بن سنور ابن وسيم بن ناب بن لوط بن هاران وكان مستجاب الدعوة فحمله قومه على الدعاء على يوشع بن نون فلم يتأت له ذلك وعجز عنه فأشار على بعض ملوك العماليق أن يبرزوا الحسان من النساء نحو عسكر يوشع بن نون ففعلوا فتسرعوا الى النساء فوقع فيهم الطاعون فهلك منهم سبعون ألفا وقيل ان يوشع بن نون قبض وهو ابن مائة وعشرين سنة وقام فى بنى اسرائيل بعد يوشع بن نون كالب ابن يوقنا بن بارض بن يهوذا و يوشع وكالب الرجلان اللذان أنعم الله عليهما وقد قيل ان القائم فى بنى اسرائيل بعد وفاة يوشع بن نون وشان الكعرى وانه أقام فيهم ثمانين سنة وهلك وملك عمايل ابن قانم من سبط يهوذا أربعين سنة وقيل كوش جبار كان فى آب من أرض البلقاء وان بنى اسرائيل كفرت بعد ذلك فملك الله عليهم كنعان عشر سنين وهلك فكان على بنى اسرائيل علان الاخبارى أربعين سنة ثم قام سمويه الى أن وليهم طالوت وخرج عليهم جالوت الجبار ملك البربر من أرض فلسطين قال المسعودى فاما على الرواية الاولى التى تقدم ذكرها فالقائم بعده فى بنى اسرائيل والمدبر لهم فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران ثلاثين سنة وكان عمد الى مصاحف موسى بن عمران عليه السلام فجعلها فى خابية نحاس و رصص رأسها وأتى بها صخرة بيت المقدس وذلك قبل بنائه فانفرجت فاذا مغارة فيها صخرة ثانية فوضع الخابية فيها وانضمت الصخرة على ذلك ككونها أولا ولما هلك فنحاص بن العزر دبر أمرهم كوشان بن لاسم ملك الجزيرة فتعبد بنى اسرائيل وأخذهم البلاء ثمان سنين ثم دبرهم عثنيال بن قناز أخو كالاب من سبط يهوذا أربعين سنة ثم دبرهم عفلون

ملك هاب بجهد شديد ثمان عشرة سنة ثم دبرهم أهوز من ولد افرايم خمسا وعشرين سنة ونجس وثلاثين سنة خلت من أيامه تم العالم أربعة آلاف سنة ثم دبرهم ساعان بن اهوذ خمسا وعشرين سنة ثم دبرهم يابين الكنعاني ملك الشام عشرين سنة ثم دبرهم امرأة يقال لها دبورا وقيل انها ابنته وضمت اليها رجلا من سبط نفتالي يقال له بازاق أربعين سنة ثم تداولتهم رؤساء بني اسرائيل وهم عريب وربيب وبرسونا ودارع وصلناع تسع سنين وثلاثة أشهر ثم دبرهم كذعون من آل ميشا أربعين سنة وقيل ملوك مدين ثم ابنه أبيمالخ ثلاث سنين وثلاثة أشهر ثم توبع من آل فراين ثلاثا وعشرين سنة ثم سابه من آل ميشا اثنين وعشرين سنة ثم ملوك عمان ثماني عشرة سنة وثلاثة أشهر ثم يحشون من بيت لحم سبع سنين ثم قهرهم ملوك فاسطين أربعين سنة ثم عالى الكاهن بعد ذلك أربعين سنة وفي زمانه ظفر البابليون ببني اسرائيل وغنموا التابوت وكان بنو اسرائيل يستفتحون به فحملوه الى بابل وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم وكان ما كان من أمر قوم حزقيل وهم الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم وكان قد أصابهم الطاعون فبقي منهم ثلاثة اسباط فلحقت فرقة بالرمل وفرقة بشواهق الجبال وفرقة بجزيرة من جزائر البحر وكان لهم خبر طويل حتى رجعوا الى ديارهم فقالوا لحزقيل هل رأيت قوما أصابهم ما أصابنا قال لا ولا سمعت بقوم فروا من الله فراركم فسلط الله عليهم الطاعون سبعة أيام فماتوا عن آخرهم . ودبر بني اسرائيل بعد غيلام الكاهن شمويل بن برو حان بن ناحورا وبني فمكث فيهم عشرين سنة ووضع الله عز وجل عنهم القتال وصلح أمرهم فخلطوا بعد ذلك فقالوا لشمويل ابعث لنا ملكا يقاتل معنا في سبيل الله فأمر بتمليك طالوت وهو ساود بن بشر بن اينال بن طرون بن بجرون بن أفيح بن سميداح ابن فالح بن بنيامين بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام فملكه عليهم ولم يجمعهم قبل ذلك مثل طالوت وكان بين خروج موسى عليه السلام ببني اسرائيل من مصر الى أن ملك على بني اسرائيل طالوت خمسمائة سنة واثنتان وسبعون وثلاثة أشهر وكان طالوت دباغا يعمل الادم فاخبرهم نبيهم شمويل ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا فقالوا فيه ما أخبر الله عز وجل في كتابه أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم وأخبرهم نبيهم ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة وكان مدة ما مكث التابوت ببابل عشر سنين فسمعوا عند الفجر حفيف الملائكة تحمل التابوت واشتد سلطان جالوت وكثرت عساكره وقواده وبلغه انقياد بني اسرائيل الى طالوت فسار جالوت من فلسطين باجناس من البربر وهو جالوت بن بابول بن ريال بن حطال بن فارس فنزل بساحة بني اسرائيل فأمر شمويل طالوت بالمسير ببني اسرائيل الى حرب جالوت

فابتلاهم الله عز وجل بنهر بين الاردن وفلسطين وسلط الله عليهم العطش وقد قص الله ذلك في كتابه وأمروا كيف يشربون من النهر فولغه أهل الريبة ولغ الكلاب فقتلهم طالوت عن آخرهم ثم فضل من خيارهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا فيهم داود عليه السلام ولحق داود باخوته فتوافق الجيشان جميعا وكانت الحروب بينهما سجالا وندب طالوت الناس وجعل لمن يخرج الى جالوت ثلث ملكه ويتزوج ابنته فبرز داود فقتله بحجر كان في مخلاته رماه بمقلاع نخر جالوت ميتا وقد أخبر الله عز وجل بذلك في كتابه بقوله وقتل داود جالوت وقد ذكر أن الحجر الذي كان في مخلاة داود كان ثلاثة أحجار فاجتمعت وصارت حجرا واحدا وهي التي قتل بها جالوت وان القوم الذين ولغوا في الماء وخالفوا ما أمروا به كان القاتل لهم طالوت وقد أتينا على خبر الدرع التي كان أخبرهم نبيهم أنه لا يقتل جالوت الا من صلحت عليه تلك الدرع اذا لبسها وانها صلحت على داود ورفع الله ذكر داود واخمل ذكر طالوت وأبى طالوت أن يفي لداود بما تقدم من شرطه فلما رأى ميل الناس اليه زوجه ابنته وسلم اليه ثلث الجباية وثلث الحكم وثلث الناس ثم حسده بعد ذلك فاغتاله فمنعه الله عز وجل من ذلك فأبى داود ان ينافسه في ملكه ونما أمر داود فبات طالوت على سرير ملكه فمات من ليلته كمدا وانقادت بنو اسرائيل الى داود عليه السلام وكانت مدة طالوت عشرين سنة وذكر أن الموضع الذي قتل فيه جالوت بيسان من أرض الغور من بلاد الاردن وألان الله عز وجل لداود الحديد فعمل منه الدروع وسخر له الجبال والطير يسبحن معه وحارب داود أهل موات من أرض البلقاء وأنزل الله عز وجل عليه الزبور بالعبرانية خمسين ومائة سورة وجعله ثلاثة أثلاث فثلث ما يكون مع بخت نصر وما يكون من امره في المستقبل وثلث ما يلقون من أهل أثور وثلث موعظة وترغيب ومحبة وترهيب ليس فيه أمر ولا نهي ولا تحليل ولا تحريم واستقامت الامور لداود ولحقت الخوارج من الاكراد باطراف الارض لهيبة داود وبنى داود بيتا للعبادة باورشليم وهي بيت المقدس وهو البيت الباقي لوقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة يدعى بمحراب داود عليه السلام وليس في بيت المقدس أعلى منه في هذا الوقت وقد يرى من أعلاه البحيرة المنتنة ونهر الاردن المقدم ذكره وكان من أمر داود مع الخصمين ما قص الله عز وجل في كتابه من خبره وقوله لاحدهما قبل استماعه من الآخر لقد ظلمك وقد تنازع الناس في خطيئة داود فمنهم من رأى ما وصفنا ونفى عن الانبياء المعاصي وتعمد الفسق وانهم معصومون فكانت الخطيئة ما ذكرنا وذلك قوله عز وجل ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ومنهم من رأى أن ذلك كانت قضية أورياء بن حيان ومقتله وتاب الله عز وجل على داود بعد أربعين يوما كان فيها صائما باكيا وتزوج داود عليه السلام مائة امرأة ونشأ سليمان بن داود عليه السلام وبرع وداخل أباه في قضائه

فآتاه الله فصل الخطاب والحكم على ما أخبر الله عز وجل عنهما بقوله وكلا آتينا حكما وعلما ولما حضرت داود الوفاة أوصى الى ولده سليمان وقبض فكان ملكه أربعين سنة على فلسطين والاردن وكان عسكره ستين ألفا أصحاب سيوف جردا مردا أصحاب بأس ونجدة . وكان ببلاد مدين وأيلة فى عصر داود عليه السلام لقمان الحكيم وهو لقمان بن عنقاء بن مربد بن صاوون وكان نوبيا مولى للقين بن حسر ولد على عشر سنين من ملك داود عليه السلام وكان عبدا صالحا فمن الله عز وجل عليه بالحكمة ولم يزل باقيا فى الارض مظهرا للحكمة والزهد فى هذا العالم الى أيام يونس بن متى حين أرسل الى أهل نينوى من بلاد الموصل . ولما قبض الله داود عليه السلام قام بعده ولده سليمان بالنبوة والحكم وعم عدله رعيته واستقامت له الامور وانقادت له الجيوش وابتدأ سليمان ببنيان بيت المقدس وهو المسجد الاقصى الذى بارك الله عز وجل حوله فلما استتم بناؤه بنى لنفسه بيتا وهو الموضع الذى يسمى فى وقتنا هذا كنيسة القمامة وهى الكنيسة العظمى ببيت المقدس عند النصارى ولهم كنائس غيرها معظمة ببيت المقدس منها كنيسة صهيون وقد ذكرها داود عليه السلام والكنيسة المعروفة بالجسمانية ويزعمون أن فيها قبر داود عليه السلام وأعطى الله عز وجل لسليمان عليه السلام من الملك ما لم يعطه لاحد من خلقه وسخر له الجن والانس والطير والريح على حسب ما ذكره الله عز وجل فى كتابه وكان ملك سليمان بن داود على بنى اسرائيل أربعين سنة وقبض وهو ابن اثنتين وخمسين سنة والله ولى التوفيق (من كتاب مروج الذهب)

(ذكر جمل من أخبار الهند وآرائها وبدء ممالكها وملوكها)

ذكر جماعة من أهل العلم والنظر والبحث الذين وصلوا الغاية بتأمل شأن العالم وبدئه أن الهند كانت قديم الزمان الغرة التى فيها الصلاح والحكمة فانه لما تجيلت الاجيال وتحزبت الاحزاب حاولت الهند أن تضم المملكة وتستولى على الحوزة وتكون الرياسة فيهم فقال كبراؤهم نحن أهل البدء وفينا التناهى ولنا الغاية والصدر والانتهاء ومنا سرى الاب الى الارض فلا ندع أحدا شاقنا ولا عاندنا وأرادنا الا أغمضنا عليه وأبدناه أو يرجع الى طاعتنا فأزمعت على ذلك ونصبت لها ملكا وهو البرهمن الاكبر والملك الاعظم والامام فيها المقدم ظهرت فى أيامه الحكمة وتقدمت العلماء واستخرجوا الحديد من المعادن وضربت فى أيامه السيوف والخناجر وكثيرا من أنواع المقاتل وشيد الهياكل ورصعها بالجواهر المشرقة المنيرة وصور فيها الافلاك والبروج الاثنى عشر والكواكب وبين بالصورة كيفية العالم وأورد بالصورة أيضا أفعال الكواكب فى هذا العالم واحداثها للاشخاص الحيوانية من الناطقة وغيرها وبين حال المدبر الذى هو الشمس وأثبت فى كتابه براهين جميع ذلك وقرب الى عقول العوام فهم ذلك وغرس فى نفوس الخواص دراية ما هو أعلى من ذلك

وأشار الى المبدأ الاول المعطى سائر الموجودات وجودها الفائض عليها بجوده وانقادله الهند وأخصبت بلادها وأراهم وجه مصالح الدنيا وجمع الحكماء فاحدثوا فى أيامه كتاب السندهند وتفسيره دهر الدهور ومنه فرعت الكتب ككتاب الازجهير والمجسطى وفرع من الازجهير الاركند ومن المجسطى كتاب بطليموس ثم عمل منهما بعد ذلك الزيجات وأحدثوا التسعة الاحرف المحيطة بالحساب الهندى وكان أول من تكلم فى أوج الشمس وذكر انه يقيم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة ويقطع الفلك فى ستة وثلاثين ألف سنة والاوج على رأى البرهمن فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة فى برج الثور وانه اذا انتقل الى البروج الجنوبية انتقلت العمارة فصار العامر خرابا والخارب عامرا والشمال جنوبا والجنوب شمالا ورتب فى بيت الذهب حساب الدور الاول والتاريخ الاقدم الذى عليه عملت الهند فى تواريخ البردة وظهورها فى أرض الهند دون سائر الممالك ومن الهند من يذكر ان ابتداء العالم فى كل سبعين ألف سنة هازروان وأن العالم اذا قطع هذه المدة عاد الكون فظهر النسل ومرحت البهائم وتغلغل الماء ودب الحيوان وبقل العشب وخرق النسيم الهواء فاما أكثر الهند فانهم قالوا بكرور منصوبات على دوائر تبتدئ القوى متلاشية الشخص موجودة القوة منتصبة الذات وحدوا لذلك أجلا ضربوه ووقتا نصبوه وجعلوا الدائرة العظمى والحادثة الكبرى وسموا ذلك بعمر العالم وجعلوا المسافة بين البدء والانتهاء مدة ست وثلاثين ألف سنة مكررة فى اثنى عشر ألف عام وهذا عندهم الهازروان الضابط لقوى هذه الاشياء والمدبر لها وان الدوائر تقبض وتبسط جميع المعانى التى تستودعها وان الاعمار تطول فى أول الكر لانفساح الدوائر وتمكن القوى من المحال وتقصر الاعمار فى آخر الكر لضيق الدائرة وكثرة ما يعرض فيها من الاكدار الباترة للاعمار وذلك أن أقوى الاجسام وصفوها فى أول الكر يظهر ويسرح وان الصفو سابق الكدر والصافى يبادر العقل والاعمار تطول بحسب صفاء المزاج وتكامل القوى المدبرة لعناصر اخلاط الكائنات الفاسدات المستحيلات البايدات وان آخر الكر الاعظم وغاية البدء الاكبر تظهر الصور منسوبة والنفوس ضعيفة والامزجة مختلطة وتتناقص القوى وتبيد المواصل وتردا المواد فى الدوائر منعكسة مزدحمة فلا تحظى ذوى الاعصار تمام الاعمار وللهند فيما ذكرنا علل وبراهين فى المبادئ الاول وفيما بسطناه من تفريقهم فى الدوائر الهازروانات ورموز واسرار فى النفوس واتصالها بما علا من العوالم وكيفية بدئها من أعلى الى أسفل وغير ذلك مما رتب لهم البرهمن فى بدء الزمان وكان ملك البرهمن الى أن هلك ثلثمائة سنة وستين سنة وولده يعرفون بالبراهمة الى وقتنا والهند تعظمهم وهم أعلى أجناسهم وأشرفهم ولا يغتذون بشئ من الحيوان وفى رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفر يتقلدون بها كحمائل السيوف فرقا بينهم

وبين غيرهم من أنواع الهند وقد كان اجتمع منهم فى قديم الزمان فى ملك البرهمن سبعة من حكمائهم المنظور اليهم فى بيت الذهب فقال بعضهم لبعض اجلسوا حتى نتناظر فننظر ماقصة العالم وماسره ومن أين أقبلنا والى أين نمر وهل خروجنا من عدم الى وجود حكمة أوضد ذلك وهل خالقنا المخترع لنا والمنشئ لاجسامنا بجتلب بخلقنا منفعة أم هل يدفع بفنائنا عن هذه الدار عن نفسه مضرة أم هل يدخل عليه من الحاجة والنقص مايدخل علينا أم هل هو غنى من كل وجه عن ابقائه ايانا واعدامنا بعد وجودنا وآلامنا ولذاتنا فقال الحكيم المنظور اليه منهم أترى أحدا من الناس أدرك الاشياء الحاضرة والغائبة على حقيقة الادراك فظفر بالبغية واستراح الى الثقة قال الحكيم الثانى لو تناهت حكمة البارئ عز وجل فى أحد العقول كان ذلك نقصا من حكمته وكان الغرض غير مدرك وكان التقصير مانعا من الادراك قال الحكيم الثالث الواجب علينا ان نبتدئ بمعرفة أنفسنا التى هى أقرب الاشياء منا ونحن أولى بها وهى أولى بنا من قبل أن نتفرغ الى علم مابعدمنا قال الحكيم الرابع لوشاء وقوع أمر وقع وقوعا احتاج فيه بنفسه قال الحكيم الخامس من ههنا وجب الاتصال بالعلماء المعدودين بالحكمة قال الحكيم السادس الواجب على المرء المحب لسعادة نفسه أن لايغفل عن ذلك لاسيما اذا كان المقام فى هذه الدنيا ممتنعا والخروج منها واجبا قال الحكيم السابع أنا لا أدرى ماتقولون غير انى أخرجت الى هذه الدنيا مضطرا وعشت فيها حائرا وأخرج منها مكرها فاختلف الهند ممن سلف وخلف فى أراء هؤلاء السبعة وكل قد اقتدى بهم وعم مذهبهم ثم تفرعوا بعد ذلك فى مذاهبهم وتنازعوا فى آرائهم والذى وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة

(من كتاب مروج الذهب)

(ذكر ملوك الموصل ونينوى ولمع من أخبارهم)

نينوى هى مقابلة الموصل وبينهما دجلة وهى بين قردى ومازندى من كور الموصل ونينوى فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة مدينة خراب فيها قرى ومزارع لاهلها والى أهلها أرسل يونس بن متى وآثار الصور فيها من أصنام فى حجارة مكتوبة على وجوهها وظاهر المدينة تل عليه مسجد وهناك عين تعرف بعين يونس النبى عليه السلام ويأوى الى هذا المسجد النساك والعباد والزهاد وكان أول ملك بنى هذه المدينة وسور سورها ملك عظيم قد دانت له الملوك ودانت له البلاد ويقال له سينوس بن بالوس فكانت مدة ملكه اثنتين وخمسين سنة وكان بالموصل رجل آخر محارب لهذا الملك وكانت بينهما حروب ووقائع ويقال ان ملك الموصل كان فى ذلك العصر سابق بن مالك رجل من اليمن ثم ملك أهل نينوى عليهم بعده امرأة يقال لها سميرامون فأقامت عليهم أربعين سنة تحارب ملوك الموصل وملكها من شاطئ دجلة الى بلاد أرمينية ومن بلاد اذربيجان الى حد الجزيرة

والجودى وجبل النبيل الى بلاد الزوزان وغيرها من أرمينية وكان أهل نينوى ممن سميناه نبيطا وسريانيين والجنس واحد واللغة واحدة وانما بان النبط عنها بأحرف يسيرة فى لغتهم والمقالة واحدة ثم ملك بعد هذه المرأة (رسيس) ويقال انه كان ابنها وكان ملكه نحوا من أربعين سنه ورجعت اليه الارمن وقد كانت الحروب بينهم سجالا فى ملكه ثم غلبوا على أهل نينوى فكانت الحروب بين أهل أرمينية وبين ملوك الموصل ويقال ان هذا الملك آخر ملوك نينوى وكان يؤدى الضريبة الى ملك أرمينية ولهؤلاء الملوك أخبار وسير وحروب مذكورة فى كتاب أخبار الزمان

(من كتاب مروج الذهب)

(ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار)

ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم ما الخبر فأخبرونى ان كافرا من الهنود مات وأججت النار لحرقه وامرأته تحرق نفسها معه ولما احترقا جاء أصحابى وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه وبعد ذلك كنت فى تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر والطبول والابواق بين يديها ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود واذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان فى احراقها فيأذن لهم فيحرقونها ثم اتفق بعد مدة انى كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بابجرى وأميرها مسلم من سامرة السند وعلى مقربة منها الكفار العصاة فقطعوا الطريق يوما وخرج الامير المسلم لقتالهم وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار وقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات فاتفقن على احراق أنفسهن واحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب اليه غير واجب لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ونسبوا الى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ولكنها لا تكره على احراق نفسها ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللائى ذكرناهن على احراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا ويأتى اليهن النساء من كل جهة وفى صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته وهى متزينة متعطرة وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها وفى يسراها مرآة تنظر فيها وجهها والبراهمة يحفون بها وأقاربها معها وبين يديها الطبول والابواق والانفار وكل انسان من الكفار يقول لها أبلغى السلام الى أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى وهى تقول نعم وتضحك اليهم وركبت مع أصحابى لارى كيفية صنعهن فى الاحتراق فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال وانتهينا الى موضع مظلم كثير المياه والاشجار متكاثف الظلال وبين أشجاره أربع قباب فى كل قبة صنم من الحجارة وبين القباب صهريج ماء

قد تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الاشجار فلا تتخللها الشمس فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع
جهنم أعاذنا الله منها ولما وصلنا الى تلك القباب نزلن الى الصهريج وانغمسن فيه وجردن ما عليهن
من ثياب وحلى فتصدقن به وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط فربط بعضه
على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع
منخفض وصب عليها روغن كنجت (كنجد) وهو زيت الجلجلان فزاد فى اشتعالها وهنالك نحو خمسة
عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار وأهل الطبول
والابواق وقوف ينتظرون مجىء المرأة وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها
النظر اليها فرأيت احداهن لما وصلت الى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف وقالت لهم
مارا مترسانى ازاطش (آتش) من ميدانم اواطش است رها كنى مارا وهى تضحك ومعنى هذا
الكلام أبالنار تخوفوننى أنا أعلم أنها محرقة ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت بنفسها فيها
وعند ذلك ضربت الطبول والانفار والابواق ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها وجعل
الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الاصوات وكثر الضجيج ولما رأيت ذلك كدت
أسقط عن فرسى لولا أصحابى تداركونى بالماء فغسلوا وجهى وانصرفت وكذلك يفعل أهل الهند
أيضا فى الغرق يغرق كثير منهم أنفسهم فى نهر الكنك وهو الذى اليه يحجون وفيه يرمى برماد هؤلاء
المحرقين وهم يقولون انه من الجنة واذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره لا تظنوا انى أغرق
نفسى لاجل شىء من أمور الدنيا أو لقلة مال انما قصدى التقرب الى كساى (وكساى بضم الكاف
والسين المهملة) اسم الله عز وجل بلسانهم ثم يغرق نفسه فاذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده
فى البحر المذكور ولنعد الى كلامنا الاول فنقول سافرنا من مدينة أجودهن فوصلنا بعد مسيرة
أربعة أيام منها الى مدينة سرستى (وضبط اسمها بسينين مفتوحتين بينهما راء ساكنة ثم تاء مثناة
مكسورة وياء) مدينة كبيرة كثيرة الارز وأرزها طيب يحمل الى حضرة دهلى ولها مجبى كثير جدا
أخبرنى الحاجب شمس الدين البوشنجى بمقداره ثم سافرنا منها الى مدينة حانسى (بفتح الحاء المهملة
وألف ونون ساكنة وسين مهملة مكسورة وياء) وهى من أحسن المدن وأتقنها وأكثرها عمارة ولها
سور عظيم ذكروا أن بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى تورة وله عندهم حكايات وأخبار ومن
هذه المدينة هو كمال الدين صدر الجهان قاضى قضاة الهند وأخوه قطلوخان معلم السلطان وأخواهما
نظام الدين وشمس الدين الذى انقطع الى الله وجاور بمكة حتى مات ثم سافرنا من حانسى فوصلنا
بعد يومين الى مسعود أباد وهى على عشرة أميال من حضرة دهلى وأقمنا بها ثلاثة أيام وحانسى
ومسعود أباد هما للملك المعظم هوشنج (بضم الهاء وفتح الشين المعجمة وسكون النون وبعدها جيم)

ابن الملك كمال كرك (وكرك بكافين معقودتين أولاهما مضمومة) ومعناه الذئب وكان سلطان الهند الذى قصدنا حضرته غائبا عنها بناحية مدينة قنوج وبينها وبين حضرة دهلى عشرة أيام وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جهان وجهان اسم الدنيا وكان بها أيضا وزيره خواجه جهان المسمى بأحمد بن اياس الرومى الاصل فبعث الوزير الينا أصحابه ليتلقونا وعين للقاء كل واحد منا من كان من صنفه فكان من الذين عينهم للقائى الشيخ البسطامى والشريف المازندرانى وهو حاجب الغرباء والفقيه علاء الدين الملتانى المعروف بقنره (بضم القاف وفتح النون وتشديدها) وكتب الى السلطان يخبرنا وبعث الكتاب مع الدواة وهى بريد الرجالة فوصل الى السلطان وأتاه الجواب فى تلك الايام الثلاثة التى أقمناها بمسعود أباد وبعد تلك الايام خرج الى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الامراء وهم يسمون الامراء ملوكا فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها الامير يقولون هم الملك وخرج الى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجانى وهو كبير المنزلة عند السلطان ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بقرية من قرية تسمى پالم (بفتح الباء المعقودة وفتح اللام) وهى للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الاوهرى أحد ندماء السلطان وممن له عنده الحظوة التامة وفى غد ذلك اليوم وصلنا الى حضرة دهلى قاعدة بلاد الهند (وضبط اسمها بكسر الدال المهملة وسكون الهاء وكسر اللام) وهى المدينة العظيمة الشان الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة وعليها السور الذى لا يعلم له فى بلاد الدنيا نظير وهى أعظم مدن الهند بل مدن الاسلام كلها بالمشرق (ابن بطوطه)

(ذكر جوامع من حروب الاسكندر بأرض الهند)

(قال المسعودى) لما قتل الاسكندر فور صاحب مدينة المانكير من ملوك الهند وانقاد اليه جميع ملوك الهند من حمل الاموال والخراج اليه بلغه أن فى أقاصى أرض الهند ملكا من ملوكهم ذا حكمة وسياسة وديانة وانصاف للرعية وانه قد أتى عليه من عمره مئون من السنين وانه ليس بأرض الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله يقال له كند وكان قاهر النفسه مميتا لصفاته من الشهوة الغضبية وغيرها حاملا لها على خلق كريم وأدب زائن فكتب اليه كتابا يقول فيه أما بعد فاذا أتاك كتابى هذا فان كنت قائما فلا تقعد وان كنت ماشيا فلا تلتفت والا مزقت ملكك وألحقتك بمن مضى من ملوك الهند فلما ورد عليه الكتاب أجاب الاسكندر باحسن جواب وخاطبه بملك الملوك وأعلمه أنه قد اجتمع له قبله أشياء لا يجتمع عند غيره مثلها الا من صارت اليه عنه فمن ذلك ابنة له لم تطلع الشمس على أحسن صورة منها وفيلسوف يخبرك بمرادك قبل أن تسأله لحدة مزاجه وحسن قريحته واعتدال بنيته واتساعه فى علمه وطبيب لا تخشى معه داء ولا شيأ من العوارض الا ما يطرأ من الفناء والدثور الواقع بهذه البنية وحل العقدة التى عقدها المبدع لها المخترع لهذا

الجسم الحسى وان كانت بنية الانسان وهيكله قد نصبت فى هذا العالم غرضا للآفات والحتوف والبلايا وقدح عندى اذا أنا ملأته شرب منه عسكرك بجمعه ولا ينقص منه شئ ولا يزيده الوارد عليه الا دهاقا وأنا منفذ جميع ذلك الى الملك وصائر اليه فلما قرأ الاسكندر الكتاب ووقف على ما فيه قال تكون هذه الاشياء الاربعة عندى ونجاة هذا الحكيم من صولتى أحب الىّ من أن لا تكون عندى ويهلك فأنفذ اليه الاسكندر جماعة من حكماء اليونانيين فى عدة من الرجال وتقدم اليهم ان كان صادقا فيما كتب به فاحملوا ذلك الىّ ودعوا الرجل فى موضعه وان تبينتم أن الامر بخلاف ذلك وأنه أخبر عن الشئ على خلاف ما هو به فقد خرج عن حد الحكمة فأشخصوه الى فضى القوم حتى انتهوا الى الملك فتلقاهم بأحسن لقاء وأنزلهم أحسن منزل فلما كان فى اليوم الثالث جلس لهم مجلسا خاصا للحكماء منهم دون من كان معهم من المقاتلة فقال بعض الحكماء لبعض ان صدقنا فى الاول صدقنا فيما بعدها مما ذكر فلما أخذت الحكماء مراتبها واستقرت بها مجالسها أقبل عليهم مباحثا لهم فى أصول الفلسفة والكلام فى الطبيعات وما فوقها من الالهيات وعلى شماله جماعة من حكمائه وفلاسفته فطالت الخطب فى المبادى الاول وتشاح القوم ونظروا فى موضوعات العلماء وترتيبات الحكماء على غير مراء وتناهى بهم الحكماء الى غاية كان اليها صدورهم من العلويات ثم أخرج الجارية فلما ظهرت لابصارهم رمقوها بأعينهم فلم يقع طرف واحد منهم على عضو من أعضائها مما ظهر فأمكنه أن يتعدى ببصره الى غيره وشغله تأمل ذلك وحسنه وحسن شكلها واتقان صورتها فخاف القوم على عقولهم لما ورد عليهم عند النظر اليها ثم ان كل واحد منهم رجع الى نفسه وفهمه وقهر سلطان هواه ودواعى طبعه ثم أراهم بعد ذلك ما تقدم الوعد به وسيرهم وسير الفيلسوف والطبيب والجارية والقدح معهم وشيعهم مسافة من أرضه فلما وردوا على الاسكندر أمر بانزال الطبيب والفيلسوف ونظر الى الجارية فحار عند مشاهدتها وبهرت عقله وأمر قيمة جواريه بالقيام عليها ثم صرف همته الى الفيلسوف والى علم ما عنده والى علم الطبيب ومحله من صنعة الطب وحفظ الصحة وقص الحكماء عليه ما جرى لهم من المباحثة مع الملك الهندى ومن أحضره من فلاسفته وحكمائه فأعجبه ذلك وتأمل أغراض القوم ومقاصدهم والغاية التى اليها كان أصدرهم وأقبل ينظر الى مطاردة الهند فى عللها ومعلولاتها وما يصفه اليونانيون من عللها وصحة قياسها من أوضاعها ثم أراد محنة الفيلسوف على حسب ما أخبر عنه فخلا بنفسه وأجال فكره فسنح له سانح من الفكر بايقاع معنى يختبره به فدعا بقدح فملأه سمنا وأدهقه ولم يجعل للزيادة عليه سبيلا ودفعه الى رسول له وقال له امض به الى الفيلسوف ولا تخبره بشئ فلما ورد الرسول بالقدح ودفعه الى الفيلسوف قال بصحة فهمه وتبينه للامور المتقدمة

الحكمة فى نفسه لامر ما بعث هذا الملك الحكيم بهذا السمن الى وأجال فكره وسبر المراد به ثم دعا بنحو ألف ابرة فغرز أطرافها فى السمن وأنفذها الى الاسكندر فأمر الاسكندر بسبكها كرة مدورة ململمة متساوية الاجزاء وأمر بردها الى الفيلسوف فلما نظر اليها الفيلسوف وتأمل فعل الاسكندر فيها أمر بيسطها وبأن يتخذ منها مرآة بحضرته وصقلها فصارت جسما صقيلا ترد صورة من قابلها من الاشخاص لشدة صفائها وزوال الدرن عنها وأمر بردها الى الاسكندر فلما نظر اليها وتأمل حسن صورته فيها دعا بطست فجعل المرآة فيه وأمر باراقة الماء فيه عليها حتى رسبت وأمر بحمل ذلك الى الفيلسوف فلما نظر الفيلسوف الى ذلك أمر بالمرآة فجعل منها مشربة كالطرجهارة وجعلها فى الطست فوق الماء فطفت فوقه وأمر بردها الى الاسكندر فلما نظر الاسكندر الى ذلك أمر بتراب ناعم فلئت منه وردها الى الفيلسوف فلما نظر الفيلسوف الى ذلك تغير لونه وجزع وتغيرت صفاته وأسبل دموعه على خده وكثر شهيقه وطال أنينه وظهر حنينه وأقام بقية يومه غير منتفع بنفسه . ثم أفاق من ذلك الحال وزجر نفسه وأقبل عليها كالمعاتب لها وقال ويحك يا نفس ما الذى قذف بك فى هذه السدفة وسار بك الى هذه الغمه ووصلك بهذه الظلمه أنسيت وأنت فى النور تسرحين وفى العلوم تمرحين وتنظرين فى الضياء الصادق وتتفسحين فى العالم المشرق أنزلت الى عالم الظلم والمعاندة والغشم والمفاسده تخطفك الخواطف وتنهرك العواصف قد حرمت علم الغيوب والكون فى العالم المحبوب ورميت بشدائد الخطوب ورفضت كل مطلوب أين مصادرك الطيبه وراحتك القويه حللت فى الاجساد فقوى عليك الكون والفساد حللت يا نفس بين السباع القاتلة والافاعى المهلكة والنيران المحرقة والريح العاصفة وصيرتك الاعمار فى قرارات الاجسام لا تشاهدين الا غافلا ولا ترين الا جاهلا قد زهد فى الخيرات وزغب عن الحسنات ثم رفع طرفه نحو السماء فرأى النجوم تزهر فقال بأعلى صوته يا لك من نجوم سائرة وأجسام زاهرة من عالم شريف طلعت ولشئ ما وضعت انك من عالم نفيس قد كانت النفس فى أعاليه ساكنة وفى أكنافه قاطنة فقد أصبحت عنه ظاعنة ثم أقبل على الرسول وقال خذه ورده الى الملك يعنى التراب ولم يحدث فيه حادثة فلما ورد الرسول على الاسكندر أخبره بجميع ما شاهد فتعجب الاسكندر من ذلك وعلم مرامى الفيلسوف ومقاصده وغاية مراده فيما وقع بالنفوس من النقلة مما علا من العوالم الى هذا العالم ولما كان فى صبيحة تلك الليلة جلس له الاسكندر جلوسا خاصا ودعا به ولم يكن رآه قبل ذلك فلما أقبل ونظر الى صورته وتأمل قامته وخلقته نظر الى رجل طويل الجسم رحب الجبين معتدل البنية فقال فى نفسه هذه بنية تضاد الحكمة فاذا اجتمع حسن الصورة وحسن الفهم كان أوحد زمانه ولست أشك أن هذا الشخص قد علم

كل ما راسلته به وأجابنى عنه من غير مخاطبة ولا موافقة ولا مباحثة فليس فى وقته أحد يدانيه فى حكمته ولا يلحقه فى علمه وتأمل الفيلسوف الاسكندر فأدار أصبعه السبابة على وجهه ووضعها على أرنبة أنفه وأسرع نحو الاسكندر وهو جالس على غير سرير ملكه فحياه بتحية الملوك فأشار اليه الاسكندر بالجلوس فجلس حيث أمره فقال له الاسكندر ما بالك حين نظرت الىّ ورميت بطرفك نحوى أدرت أصبعك حول وجهك ووضعتها على أرنبة أنفك قال تأملتك أيها الملك بنورانية عقلى وصفاء مزاجى فتبينت فكرتك فىّ وتأملك لصورتى وأنها قلما تجتمع مع الحكمة فاذا كان ذلك كان صاحبها أوحد زمانه فأدرت أصبعى مصدا قا لما سنح لك وأريتك مثالا شاهدا كما أنه ليس فى الوجه الا أنف واحد فكذلك ليس فى دار مملكة الهند غيرى ولا يلحق أحد من الناس بى فى حكمتى فقال له الاسكندر ما أحسن ما تأتى لك ما ذكرت وانتظم لك بحسن الخاطر ما وصفت فدع عنك هذا ما بالك حين أنفذت اليك قدحا مملوا أسمنا غرزت فيه ابرا ورددته الىّ قال الفيلسوف علمت أيها الملك أنك تقول ان قلبى قد امتلأ وعلمى قد انتهى كامتلاء هذا الاناء من السمن فليس لاحد من الحكماء فيه مستزاد فاخبرت الملك أن علمى يستزيد فى علمه ويدخل فيه دخول هذه الابر فى هذا الاناء قال فاخبرنى ما بالك حين عمل من الابر كرة وأنفذتها اليك صيرتها مرآة وردتها الىّ صقيلة قال علمت أيها الملك أنك تريد أن قلبك قد قسا من سفك الدماء والشغل بسياسة هذا العالم كقسوة هذه الكرة فلا يقبل العلم ولا يرغب فى فهم الغايات والعلوم والحكمة فاخبرتك مجيبا ممثلا بسبك الكرة والحيلة فى أمرها بجعلى منها مرآة صقيلة مؤدية الى الاجسام عند المقابلة لحسن الصفاء قال له الاسكندر صدقت قد أجبتنى عن مرادى فاخبرنى أيها الفيلسوف حين جعلت المرآة فى الطست ورسبت فى الماء جعلتها قدحا فوق الماء طافية ثم رددتها الىّ قال الفيلسوف علمت أنك تريد بذلك أن الايام قد انقضت وقصرت والاجل قد قرب ولا يدرك العلم الكثير فى المهل القليل فاجبت الملك ممثلا أنى سأعمل الحيلة فى ايراد العلم الكثير فى المهل القليل الى قلبه وتقريبه من فهمه كاحتيالى للمرآة من بعد كونها راسبة فى الماء حتى جعلتها طافية عليه قال له الاسكندر صدقت فاخبرنى ما بالك حين ملأت الاناء ترابا رددته الى ولم تحدث فيه حادثة كفعلك فيما سلف قال علمت أنك تقول ثم الموت وانه لا بد منه ثم لحوق هذه البنية بهذا العنصر البارد اليابس المعتدل الذى هو الارض ودثورها وتفرق أجزائها ومفارقة النفس الناطقة الصافية الشريفة اللطيفة لهذا الجسد المرئى قال الاسكندر صدقت ولاحسنن الى الهند من أجلك وأمر له بجوائز كثيرة وأقطعه قطائع واسعة فقال له الفيلسوف لو أحببت المال لما أردت العلم ولست أدخل على علمى ما يضاده وينافيه واعلم أيها الملك أن الغنية توجب الخدمة ولسنا

نجد عاقلا من خدم غيرذاته واستعمل غيرما يصلح نفسه والذى يصلح النفس الفلسفة وهى صقالها وغذاؤها وتناول الحيوانية وغيرها من الموجودات ضدلها والحكمة سبيل الى العلو وسلم اليه ومن عدم ذلك عدم القربة من بارئه واعلم أيها الملك أن بالعدل ركب جميع العالم بجزئياته ولا يقوم بالجور والعدل ميزان البارئ جل وعز فكذلك حكمته مبرأة عن كل ميل وزلل وأشبه الاشياء من أفعال الناس بافعال بارئهم الاحسان الى الناس وقد ملكت أيها الملك بسيفك وصولة ملكك وتأنيك فى أمورك وانتظام سياستك أجسام رعيتك فتحر أن تملك قلوبهم باحسانك اليهم وانصافك لهم وعدلك فيهم فهى خزانة سلطانك فانك ان قدرت أن تقول قدرت أن تفعل فاحترز من أن تقول تأمن من أن تفعل فالملك السعيد من تمت له رياسة أيامه والملك الشقى من انقطعت عنه فمن تحرى فى سيرته العدل استنار قلبه بعذوبة الطهارة (قال المسعودى رحمه الله) وخلا الاسكندر عن الفيلسوف لا يمكنه المقام معه فلحق بأرضه وللاسكندر مع هذا الفيلسوف مناظرات كثيرة فى أنواع من العلوم ومكاتبات ومراسلات جرت بين الاسكندر وبين كند ملك الهند وأما القدح فامتحنه حين أدهقه بالماء وأورد عليه الناس فلم ينقص شربهم منه وكان معمولا بضرب من خواص الهند والروحانية والطبائع التامة والتوهم وغير ذلك من العلم مما يدعيه الهند وقد قيل انه كان لآدم أبى البشر عليه السلام بارض سرنديب من بلاد الهند مبارك له فيها فورث عنه وتداولته الملوك الى أن انتهى لكند هذا الملك العظيم سلطانه وما كان عليه من الحكمة وقيل غير ذلك من الوجوه وللطبيب معه أخبار ظريفة ومناظرات عجيبة فى أوائل المعرفة وصنعة الطب وترقيه الى مبسوط الصنعة من الطبيعيات وغيرها وقد كان للاسكندر فى أسفاره وتوسطه الممالك وقطعه الاقاليم ومشاهدته الامم وملاقاته الحكماء مع تنائى ديارهم وبعد أوطانهم واختلاف لغاتهم وعجائب صورهم وتباينهم فى شيمهم وأخلاقهم أخبار كثيرة من حروب ومكايد وحيل وفنون من السير وما أحدث من الابنية (من المسعودى)

(فصل فى فن الحرب عند الرومانيين)

لما كان الرومانيون دائما متهيئين للحرب ويرون أنه لا فن غيره من الفنون بذلوا جهدهم وصرفوا قريحتهم فى التبحر فيه وابلاغه أعلى درجات الكمال فقد قال المؤرخ ويجيس ان فن الجموع العسكرية المؤلفة من البيادة والخيالة الغير المنتظمة يظهر أنه من اختراعهم بالهام الهى وكانوا يسمونه اللجيون يعنى الالاى المركب

وقد حكموا بانه يجب تسليح عساكر الالاى المذكور باعظم أسلحة المهاجمة والمدافعة ثقلا ومتانة حتى لا يساويها فى ذلك شئ من أسلحة أمة أخرى أيا كانت

ولكن لما كان فى وقت الحرب أشياء يبدو عملها ويظهر لزومها ولا يمكن للالايات المثقلة فعلها أرادوا أن الجيوش يكون محتويا على عساكر مشاة خفيفة بحيث يمكنها الخروج من الالاى لتبتدئ فى التحام القتال واذا دعت الضرورة الى رجوعهم رجعوا اليه وأرادوا أن يكون ذلك الالاى محتويا أيضا من الخيالة على أناس متسلحين بالسهام والحرب وضرابين بالمقاليع ليجدوا فى طلب الهاربين ويتموا النصرة وأن يكون ذلك الالاى محميا ومحصنا بجميع أنواع آلات الحرب التى تكون بمعيته وأن يحصن دائما حتى يكون كما قال المؤلف ويجبس أشبه بمدينة حصينة

ولاجل أن يكون لهؤلاء الرومانيين أسلحة أثقل من أسلحة غيرهم من محاربى الامم الاخر لزم أن يخرجوا عن طور البشر الى طور أعلى منه فى البأس والشهامة فتشبثوا بالشغل الدائم الغير المنقطع لتزيد به قوتهم وبالرياضات التى تكسبهم النشاط والتحيل على الامور الحربية والتيقظ والتنبه الى الفنون الجهادية التى ليست فى الحقيقة الاصرف قواهم فيما أعدت له

وأما نحن فانا نلاحظ فى عهدنا هذا أن جيوشنا تهلك كثيرا بسبب شغل العساكر الخارج عن حد العادة لاسيما حفر الاراضى لاستخراج ما فى باطنها مع أن حفظ الرومانيين لابدانهم وسياسة نفوسهم انما هو من كثرة شغلهم العظيم ولعل الفرق أن كدهم كان لا ينقطع أبدا بخلاف عساكرنا فانها تنتقل دائما من شغل عظيم الى بطالة أعظم منه وهذا أشد الاشياء اعانة على هلاكهم وأخطر ما يكون فى اتلافهم

ولا بأس أن نورد هنا ما نقله المؤلفون فى شأن تربية العساكر الرومانية وتأديبهم فنقول انهم كانوا يمرنونهم على الخطوات العسكرية بمعنى أن الانسان يمشى عشرين ميلا فى خمس ساعات وأحيانا أربعة وعشرين فى هذه المدة وفى مدة مشيهم يلزمونهم بحمل مقدار ستين رطلا ويعودونهم على العدو والوثب متسلحين فكانت أسلحتهم فى التعليم هى السيوف والاسنة والسهام وكانت ضعف الاسلحة المعتادة وكانت تلك الرياضات دائمة لا تنفك عنهم أبدا

ولم يكن التعليم العسكرى مقصورا على العرضى فقط بل كان يوجد أيضا فى المدينة فى محل يذهب اليه الاهالى لاجل التعليم (وهو ميدان المريخ) وبعد التعليم ينزلون فى نهر (التبرة) وهو نهر (رومة) ليأخذوا فى أسباب تعلم العوم والسباحة ويغتسلوا مما لحقهم فى التعليم من الغبار والعرق

وأما نحن فلا نعرف حق المعرفة قيمة رياضات البدن بل نحتقر ونزدرى من الناس من يعتنى بها اعتناء كاملا وذلك أن أغلب تلك الرياضات لم يكن الباعث عليه الا النزهة والتسلى بخلافها عند القدماء فكانت كلها جزأ من فن العسكرية حتى ان الرقص كان جزأ منه

وقد حصل عندنا أيضا أن خفة اليد العظيمة فى استعمال الاسلحة التى تستعملها عند الحرب صارت من قبيل الهزء فكان فن اللعب بالسلاح والمصارعة به فى أوروبا مشهورا بأنه علم الاشرار

وأرباب الخصام منذ ادخال عادة الحروب الغريبة ولعل الذين شنعوا على أوميروس فى مدحه عادة أبطال اليونان على قوتهم وخفتهم وسرعة حركاتهم ونشاط أبدانهم لابد أن يهزؤا بمدائح المؤلف سالوسطه فى جميه أمير الرومانيين بانه كان يعدو ويثب الوثبات العظيمة ويحمل الاثقال كآحاد الناس

وكلما خطر فى بال الرومانيين أنهم على خطر عظيم أو أرادوا تعويض بعض خسارات اجتهدوا واعادة فى تقوية التربية العسكرية التى هى أهم الاشياء عندهم أوليس أنهم لما اقتضى الحال حربهم مع اللاطينيين الذين هم أمم عارفون بأحوال الحرب والقتال مثلهم عزم منليوس على الزيادة فى قوة الحكومة العسكرية والضبط والربط والتربية فقتل ولده لما حارب وانتصر بلا اذن منه ولما غلبوا وانهزموا فى واقعة مدينة نومنسة حرمهم سبيونوس املیانوس أولا من جميع ما أكسبهم الفتور والرخاوة (حيث باع جميع الحيوانات التى كانت معدة لحمل أدوات العرضى وأمر أن كل انسان يحمل من البر ما يكفيه ثلاثين يوما) ولما وقعت الالايات الرومانية أسيرة فى بلاد الجزائر بافريقة محا ميطليوس هذا العار حين أرجعهم الى اتباع القوانين القديمة ولما أراد مريوس أن يحارب السمبرانيين والتوتونيين ابتدأ بتحويل الانهار عن مجاريها وقاصص الامير سيله عساكر جيشه الذين اعتراهم الفزع الاكبر من حرب متريداتوس بالاشغال الشاقة حتى طلبوا منه الحرب لينتهى به تعبهم فى الاشغال

وشغلهم بيليوس نازيقه بانشاء عمارة سفن حربية من غير أن يكون هناك ضرورة تقتضى ذلك وانما كانوا يفزعون من البطالة أكثر من العدو اذ هى أعدى الاعداء عندهم

وقد وجه أولوجيله بتوجيهات غير صحيحة عادة الرومانيين من أنهم كانوا يعاقبون من ارتكب ذنبا من العساكر بفصده حيث قال ان غرضهم بذلك اضعافه وتنقيص قوته والصواب فى التوجيه أن يقال ان القوة هى أعظم صفات العسكرى الاصلية وغرضهم من عقابه بذلك هو انحطاط قدره بين أقرانه لا تنقيص قوته واضعاف بنيته كما ذكره هذا المؤلف

وهؤلاء العساكر المتعودون على مكابدة المشاق والشدائد كانوا دائما على غاية من الصحة وسلامة البنية فلا ترى فى التواريخ ما يفيد أن الجيوش الرومانية التى كثيرا ما حاربت فى أغلب أقطار الارض هلك منها كثير بسبب الامراض بخلاف الآن فانك ترى فى الغالب أن جيوشا كاملة تهلك فى سفرها الى غزوة قبل أن تحارب

والهروب فى هذا العهد بلغ فى الكثرة حد الامزيد عليه وذلك لان عساكر كل أمة تجمع فى الغالب من رعاعها واستوت سائر الامم فى ذلك فقل أن اعتقدت أمة أن لها مزية على الاخرى فى الماضى أو المستقبل بخلاف الرومانيين فكان الهروب عندهم نادرا جدا لان العساكر التى تجمع من أمة

عظيمة ذات كبر وتعاظم متيقنة أنها تحكم من عداها من الامم لا يصلح أن تفعل ما يفضى بها الى المذلة والهوان حتى لا يكونوا رومانيين

ولما كانت جيوشهم محصورة كان يسهل عليهم تحصيل الزاد وغيره مما به قوام حياتهم وكان أميرهم يعرفهم حق المعرفة ويلاحظ بالسهولة ما يقع منهم من الذنوب والهفوات وما يخالف قانون الضبط والربط والتربية العسكرية

وكثرة ممارستهم للتعليمات العسكرية والطرق العظيمة التى أحدثوها أهلتهم لكونهم يقطعون المسافات الطويلة مع غاية السرعة فكان قدومهم الى محل على حين غفلة يدهش العقول ويزعجها لاسيما اذا انهزموا فانهم يكرون على عداتهم كرة مفزعة حين يكون العدو على غرة ووثوق بالنصرة عليهم وينقضون عليهم كالعقبان

وفى عصرنا هذا لا يثق أحد بقوته الا اذا كان فى جمعية كبيرة وجم غفير من العساكر بخلاف الرومانيين فانهم لفرط قوتهم وصلابة أجسامهم وتمرنهم على مكابدة أهوال الحرب والقتال أكثر من اعدائهم كان الرجل منهم لا يثق الا بشجاعته ولا يعول الا على نفسه حيث انه شجاع بالطبع بمعنى أن هذه الصفة العظيمة ذاتية له

ولما كانت جيوشهم دائما تفوق غيرها فى الانتظام والضبط والربط كان لا يعسر عليهم بعد هزيمتهم وتشتتهم أن يجتمعوا ثانيا وينضموا الى بعضهم ويختل نظام عساكر العدو ففى التواريخ ما يدل على انهم كثيرا ما اختلسوا بذلك النصرة من اعدائهم بعد أن ظهر بها العدو عليهم لكثرة عدده وشدة جيشه وشجاعته

وكان أول شئ يلتفتون اليه هو البحث عما يفضلهم العدو به فاذا وقفوا على شئ من ذلك تداركوه وسعوا فى تحصيله وكانوا يعودون أنفسهم على معاينة الدم والجراحات فى ميادين المصارعة وقد أخذوا هذه العادة عن الاطروسقيين فلم تلحقهم الدهشة والعجب من سيوف الغليين الحادة الصارمة ولا من فيلة بيروس ملك ابيرا وهى بلاد الارناؤط الاحرة واحدة ثم جبروا خلل ذلك كما داووا ضعف خيالتهم حيث نزعوا من الخيل ألجمتها حتى لا تردع عن حميتها فى العدو والركض ثم ضموا الى خيالتهم عساكر خفيفة السلاح (وهم عساكر شبان باسلحة خفيفة وكانوا أخف عساكر الطابور حيث كانوا بمجرد اشارة الامير اليهم بالحمل على العدو ينقضون عليه كالعقبان فرسانا أو رجالا) ولما اختبروا السيوف الاندلسية واستحسنوها رغبوا فيها عن سيوفهم كما رغبوا عما تعودوا عليه من الاشتغال بفن معرفة الاهتداء الى الطريق البحرية باختراع الآلة التى تكلم عليها المؤرخ بولوبس وبالجملة فلم يكن الحرب عندهم كما ذكره المؤرخ يوسف الا مجرد فكر ونظر ولا الصلح الا رياضة وتعلما

فاذا كانت أمة من الامم عندها بعض فوائد خاصة بها وهبية كانت أو كسبية بادر الرومان اليها ونسجوا على منوالها ألم تر أنهم بذلوا وسعهم حتى جلبوا من البلاد الاجنبية الخيول المغربية والسهام الاقريطشية نسبة الى اقريطش وهى جزيرة كريد الآن والمقاليع البليارية (وبليار هى جزر تاماريقه ومينورقه) ببلاد اسبانيا والسفن الرودسية

وقصارى الامر أنه ليس ثم أمة من الامم تستعد للحرب مع غاية الحزم وسداد الرأى وتقدم عليه مع الجسارة التامة وقوة الصولة مثل الامة الرومانية (من كتاب برهان البيان وبيان البرهان)

(فصل فى كيفية بلوغ الدولة الرومانية أعلى درجات العظم واتساع الدائرة)

لما كانت أمم بلاد أوروبا فى ذلك العصر تكاد أن تكون متفقة فى الفنون والاسلحة والتربية العسكرية وكيفية الاستعداد للحرب ظهر لنا أن بلوغها الدرجة القصوى فى السعادة وفوقانها على غيرها فى العظم وعلو الشان من الامور العجيبة التى تستغربها العقول ويقف دون ادراكها أذكياء الفحول وأما الآن فلا موافقة بين الدول فى الشوكة والعظم بل تراها متباينة فى ذلك تباينا تاما بحيث لا يمكن لدولة صغيرة كدولة الرومان فى الصدر الاول أن تخرج بواسطة قواها الذاتية دون شئ آخر أجنبى منها من حيز الانحطاط والانخفاض الذى قضت به لها الحكمة الالهية وتصعد الى أوج العلا والعظم

ومثل هذا الامر يستدعى مزيد التأمل وامعان النظر ولولا ذلك لامكن أن نطلع فى التواريخ على حوادث ووقائع من غير أن نقف لها على حقيقة فان الانسان اذا لم يدرك الفرق بين أحوال الامم قديما وحديثا فانه عند مطالعته للتاريخ القديم يتخيل أن أهل ذلك العصر مباينون لاهل عصرنا هذا بالكلية

فقد استبان بكثرة التجربة فى بلاد أوروبا أن الملك اذا لم يكن عنده من الرعايا الا قدر مليون لا يمكنه أن يقوم بمعاش أكثر من عشرة آلاف من العساكر بدون أن يلحقه ضرر فى نفسه ومملكته فاذن لا يمكن أن تكثر العساكر الا فى الدول الكبيرة

وهذا بخلاف ما كان فى الجمهوريات السالفة فان نسبة العساكر الى الاهالى التى هى الآن كنسبة واحد الى مائة كانت فى ذلك العصر كنسبة واحد الى ثمانية وزيادة على ذلك كان مؤسسوا تلك الجمهوريات القديمة يقسمون الاراضى بين الناس على السوية فكان ذلك بمفرده يزيد فى شوكة الامة وقوتها والمراد بالامة هنا الجمعية الجيدة النظام والترتيب كما أنه كان يترتب عليه تجدد جيش عظيم له حمية شديدة فى الذب عن المملكة والمدافعة عنها حيث ان لكل فرد من أفراده مصلحة تبعثه على ذلك بالطبيعة

ولما كان يقع منهم التساهل فى المحافظة على القوانين ولا يراعونها حق المراعاة كان يؤل أمرهم الى الحالة التى عليها أهل عصرنا هذا وذلك لانه كان يترتب على بخل بعض واسراف آخرين نقل تلك الاراضى بالبيع ونحوه الى قليل من الناس فكان أول ما نشأ عن ذلك ادخال الفنون والصنائع فى المملكة لما قام بهم من الضرورة واحتياج الاغنياء والفقراء الى بعضهم فاوجب ذلك أن صار لا وجود لارباب الوطن الا قليلا ولا للعساكر فى المملكة الا ماندر لما أن ملك الاراضى الذى كان أولا معدا لمؤنة العساكر ومرتباتهم صار ايراده يصرف فى مؤنة الارقاء والصناع الذين كانوا الاصحاب الاراضى الذين اشتروها بمنزلة ما يتخذ للزينة والرفاهية ولولا ذلك لتلاشت المملكة فان هذا الامر وان كان من قبيل الاختلال وعدم النظام الا أنه صار به قوامها وعليه مدار بقائها وكانت محصولاتها قبل هذا الاختلال توزع على العساكر وكانوا هم الذين يزرعون الاراضى فلما وقع هذا الخلل فى الجمهورية انتقلت تلك المحصولات الى أغنياء الناس وصاروا يصرفونها على أرقائهم وعلى الصناع وكان يؤخذ منها جزء كالخراج ليصرف على العساكر

فبذلك كانوا غير صالحين لان يكونوا من أرباب الحرب والقتال لما حدث فيهم من الجبن والرخاوة بافراطهم فى الرفاهية والزينة وملازمتهم للمدن بل كان ذلك باشتغالهم بصنائعهم فهى فى الغالب التى أوجبت تلفهم وفساد أخلاقهم وزيادة على ذلك لم يكن هناك ما يلزمهم بالاقامة ببلادهم بحيث يتأسفون على ضياعه أو يهتمون بحفظه لانه لم يكن لهم وطن حقيقى يأوون اليه بل كانوا يتمتعون بثمرات حرفهم وصنائعهم فى أى بلدة نزلوا بها

وقد أحصى بعضهم أهالى مدينة رومه بعد اجلاء الملوك عنها بمدة يسيرة فكان عددهم مساويا تقريبا لاهالى مدينة أثينا الذين أحصى عدتهم دمتريوس دوفاليره حيث كان أهالى رومه أربعمائة وأربعين ألفا وأهالى أثينا أربعمائة وأحدا وثلاثين ألفا غير أن احصاء الرومانيين وقع فى مدة انتظامهم ومحافظتهم على قوانين دولتهم بخلاف الاثينيين فان ذلك لم يقع الا فى زمن اختلالهم وفساد أخلاقهم بالكلية وعدم التفاتهم الى قوانين دولتهم وقد تبين من الاحصاء المذكور أن عدد البالغين بالسن من أهل رومة على الربع من مجموعهم وأما عدد البالغين من أهل أثينا فلم يبلغ نصف عشر مجموعهم فعلى ذلك تكون نسبة شوكة رومة الى شوكة أثينا فى تلك الازمان المختلفة كنسبة الربع الى نصف العشر تقريبا يعنى أن الرومانيين كانوا أضعاف الاثينيين خمس مرات ومما يدل على ذلك أن اجيس وقليومينوس وهما من ملوك أسبرطه لما رأيا أن أهل تلك المدينة الذين كانت عدتهم فى عهد ليكورغ مقنن القوانين اليونانية تسعة آلاف لم يبق منهم الا سبعمائة فقط منهم مائة فأقل أصحاب أملاك وأرض والستمائة لم يكونوا الا رعاعا ضعافا لا يملكون شيأ

من الاراضى أخذا فى وضع قوانين لجبر هذا الخلل فبذلك عادت لقدمونة (اسبرطه) شوكتها الاولى وصار يخشى بأسها جميع بلاد اليونان

ومما أخرج رومة من حيز الحقارة والانخفاض قسمة الاراضى بين أهلها ولم يشعروا بذلك الابعد فساد أخلاقهم واختلال نظامهم بترك هذه القسمة وسلوكهم مسالك الجور والتعدى

وكان الرومانيون جمهورية صغيرة حين امتنع اللاطينيون أن يبعثوا اليهم العساكر التى كانوا ملزومين بها لاجل اعانتهم ومع ذلك جمعوا من مدينتهم فورا عشر ألايات ممن له خبرة بالفنون العسكرية قال المؤرخ تيتليوه قل أن يخرج فى عهدنا هذا وقت فساد الاخلاق من هذه المدينة التى تضيق عن أهلها بلاد الدنيا بأسرها ذلك القدر من العساكر المستعدة اذا فاجأها العدو ودهمها على حين غفلة وهذا أقوى دليل على انا لم نكتسب شيأ من العظم وقوة الشوكة وانما ازددنا فى الرفاهية وجمع الاموال التى هى الباعثة لنا فى الواقع ونفس الامر على الجد والاجتهاد انتهى

وكان طبريوس غراقوس يخطب أشرافهم ويحثهم على الرجوع الى الحالة الحربية قائلا هل يستوى ابن البلد المتأصل بها صاحب الوطن ومسقط الرأس والرقيق المضروب عليه بطابع الرق والعبودية أم هل يستوى العسكرى والصانع الذى لا نفع له فى الحرب أرضيتم بالتقاعد عن فتح باقى بلاد الدنيا ورغبتم عن الاستيلاء عليها بتغلبكم على عدة فدادين من الاراضى زائدة امتزتم بها عن بقية الاهالى وهل يحسن عندكم أن يأتى العدو ويستولى على الاراضى التى تستبدون بها وتقعوا بذلك فى أشد الخطر انتهى (من كتاب برهان البيان وبيان البرهان)

(مطلب أن اختراع العرب لبيت الابرة من المنافع العمومية المتأخرة التى لا يعرفها المتقدمون)

فاختراع العرب للبوصلة من المنافع العمومية المتأخرة التى كان لا يعرفها المتقدمون ومع ذلك فاهتدوا كغيرهم بالنجم ووصلوا الى الاقطار القاصية كالصوريين الذين نحن بصددهم وذلك أنه لما ظهر الاسلام واستولى العرب بالفتوحات على ممالك الدنيا برا وبحرا تأهلوا لقبول التمدن الذى كانت آثاره لم تزل موجودة فى الدنيا عقب انقراض دولة الروم فتصدوا للاسفار البحرية وأظهروا الحروب وفازوا بالظفر الفتوح وكانوا كالرومانيين فى مبدأ أمرهم فركبوا السفن وجندوا الجنود وشنوا الغارات واستداموا فى الازمان والاماكن على تجشم الاخطار واقتحام البحار للتمتع بالتجارة واخترعوا بيت الابرة التى أعانت على الاسفار فكانت تجارتهم فى القرن الثالث فى الاقطار المشرقية تنمو وتزيد فى البحر المتوسط وقد لاحت أعلام الخلفاء على بحر الهند فتصدى تجار العرب للتجارة فى جميع البلاد فامتدت تجارتهم الى جبل الطارق ومثلهم تجار الفرس وجسمت معاملتهم التجارية فى الهند والصين وصار لهم مراكز تجارية فى ثلاث الاقاليم حتى ان من العرب من أقام

فى جزيرة سيلان وفى المدن الهندية والصينية وانتشروا فى أماكن عديدة وفى عهد الدولة العباسية تهذبت العلوم وحسن التمدن وأسست القصبات الجديدة على نهر الدجلة وانتظم أمر التجارة وصارت المراكب العربية الخفيفة تجول فى البلدان وتسير الى جزائر الهند وبوغاز ملقة فكانت تجارتهم فى كل جهة وكل مكان وكانت المراكب الكبيرة تتوجه الى جهة سيراف فى بحر العجم وكثرت السياحات العربية فى سائر البلاد البرية فارتفع شأن التجارة عند العرب حتى كانت أعظم شئ يشتغل به فى اصلاح المعاش وتأسس فى أمور التجارة أصول فى أيام الخلافة المشرقية والمغربية وعقدت المعاهدات مع الدول الاجنبية الاوروباوية فى شأن الملاحة ببلادهم لحسن استقامة أهل الاسلام فى المدن الاجنبية لاسيما مع الممالك التى على البحر واستمر الامر على ذلك حتى حصل حرب أهل الصليب فاضعف ذلك فلما انتهت الحروب الجسيمة بين الاسلام والافرنج عادت التجارة بين الطرفين على حالها ومن المعلوم أن التجارة فى أيام الخلفاء أعلت أحوال الصنائع كلها عند العرب وصار جلب المصنوعات العربية من مصانعها الى أطراف الدنيا جميعها

(من المرشد الامين)

خلافة أبى بكر (من سنة ٦٣٣ الى سنة ٦٣٥)

ثم اجتمع المهاجرون والانصار للمبايعة فارتفعت الاصوات وكثر اللغط فلما أشفق عمر من الاختلاف قال انا والله ما وجدنا أمرا هو أقوى من مبايعة أبى بكر ثم قال لابى بكر ابسط يدك فابايعك فبسط يده فبايعه وبايعه المهاجرون وبايعه الانصار ولما بويع أبو بكر ضرب بعثا على أهل المدينة ومن حولهم وأمّر أسامة بن زيد فقال له الناس ان هؤلاء جل المسلمين على ما ترى نجم فيهم النفاق وانتقضوا بك فليس ينبغى لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين فقال والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لانفذت بعث أسامة الى الشام ولو لم يبق فى القرى غيرى لانفذته ثم خرج أبو بكر الى البعث حتى أتاهم فاشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب فقال له أسامة يا أمير المؤمنين والله لتركبن أو لانزلن فقال لا نزلت ولا أركب وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة

(تاريخ الملوك للطبرى)

خلافة عمر بن الخطاب (من سنة ٦٣٥ الى سنة ٦٤٥)

ثم قام بالامر بعده عمر بن الخطاب بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر فقام بعده بمثل سيرته وجهاده وثباته وصبره على العيش الخشن والقناعة باليسير وفتح الفتوحات الكبار والاقاليم الشاسعة وهو أول من سمى بأمير المؤمنين فأرخ التاريخ ودون الدواوين ومصر الامصار وشهد بدرا وهو أول من عس فى عمله لحفظ الدين والناس وهابه الناس هيبة عظيمة وزاد فى الشدة

فى مواضعها والاين فى مواضعه ولما ولى الامر لم يكن له همة الا العراق فعقد لابى عبيد بن مسعود على زهاء ألف رجل وأمره بالمسير الى العراق فعبروا اليها فزحف اليهم العجم فتناجزوا من وقت الزوال الى أن توارت الشمس بالحجاب فحمل العرب حملة رجل واحد وقتلوا مهران قائدهم فانهزم العجم لاحقين بالمدائن ثم ولى يزدجرد عظيما من عظماء مرازبته له سن وتجربة يقال له رستم وعقد أيضا لرجل آخر يسمى الهرمزان فى جنود كثيرة وعند الالتقاء قتل هذان المرزبانان ومرت العرب فى اثر العجم يقتلون من أدركوا منهم (ابن خلدون)

(ذكر استخلاف أبى بكر لعمر بن الخطاب)

لما نزل بابى بكر رضى الله عنه الموت دعا عبد الرحمن بن عوف فقال أخبرنى عن عمر فقال انه أفضل من رأيك الا أنه فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لانه يرانى رقيقا ولو أفضى الامر اليه لترك كثيرا مما هو عليه وقد رمقته فكنت اذا غضبت على رجل أرانى الرضا عنه واذا لنت له أرانى الشدة عليه ودعا عثمان بن عفان وقال له أخبرنى عن عمر فقال سريرته خير من علانيته وليس فينا مثله فقال أبو بكر لهما لا تذكرا مما قلت لكما شيأ ولو تركته ما عدوت عثمان والخيرة له أن لا يلى من أموركم شيأ ولوددت أنى كنت من أموركم خلوا وكنت فيمن مضى من سلفكم ودخل طلحة بن عبيد الله على أبى بكر فقال استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه وكيف به اذا خلا بهم وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك فقال أبو بكر أجلسونى فأجلسوه فقال أبالله تخوفنى اذا لقيت ربى فسألنى قلت استخلفت على أهلك خير أهلك ثم ان أبا بكر أحضر عثمان بن عفان خاليا ليكتب عهد عمر فقال له اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة الى المسلمين أما بعد ثم أغمى عليه فكتب عثمان أما بعد فانى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس ان مت فى غشيتى قال نعم قال جزاك الله خيرا عن الاسلام وأهله فلما كتب العهد أمر به أن يقرأ على الناس فجمعهم وأرسل الكتاب مع مولى له ومعه عمر فكان عمر يقول للناس أنصتوا واسمعوا لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يألكم نصحا فسكن الناس فلما قرئ عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا وكان أبو بكر أشرف على الناس وقال أترضون بمن استخلفت عليكم فانى ما استخلفت عليكم ذا قرابة وانى قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا فانى والله ما آلوت من جهد الرأى فقالوا سمعنا وأطعنا ثم أحضر أبو بكر عمر فقال له انى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصاه بتقوى الله ثم قال يا عمر ان لله حقا بالليل لا يقبله فى النهار وحقا فى النهار لا يقبله بالليل وانه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ألم تر يا عمر انما ثقلت موازين من ثقلت موازينه

يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه غدا الا الحق أن يكون ثقيلا ألم تر يا عمر انما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل أن يكون خفيفا ألم تر يا عمر انما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغبا راهبا لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه ألم تر يا عمر انما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم فاذا ذكرتهم قلت انى لارجو أن لا أكون منهم وانه انما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لانه تجاوز لهم عما كان من شئ فاذا ذكرتهم قلت أين عملى من أعمالهم فان حفظت وصيتى فلا يكونن غائب أحب اليك من حاضر من الموت واست بمعجزه وتوفى أبو بكر فلما دفن صعد عمر بن الخطاب فخطب الناس ثم قال انما مثل العرب مثل جمل آنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق وكان أول كتاب كتبه الى أبى عبيدة بن الجراح بتولية جند خالد وبعزل خالد لانه كان عليه ساخطا فى خلافة أبى بكر كلها لوقعته بابن نويرة وما كان يعمل فى حربه وأول ما تكلم به عزل خالد وقال لا يلى لى عملا أبدا وكتب الى أبى عبيدة ان أكذب خالد نفسه فهو الامير على ما كان عليه وان لم يكذب نفسه فأنت الامير على ما هو عليه وانزع عمامته عن رأسه وقاسمه ماله فذكر ذلك لخالد فاستشار أخته فاطمة وكانت عند الحرث بن هشام فقالت له والله لا يحبك عمر أبدا وما يريد الا أن تكذب نفسك ثم ينزعك فقبل رأسها وقال صدقت فأبى أن يكذب نفسه فأمر أبو عبيدة فنزع عمامة خالد وقاسمه ماله ثم قدم خالد على عمر بالمدينة وقيل بل هو أقام بالشام مع المسلمين وهو أصلح

خلافة عثمان بن عفان (من سنة ٦٤٥ الى سنة ٦٥٧)

بويع له بالخلافة فى أول يوم من سنة أربع وعشرين وكانت له شفقة ورأفة بالرعية وافتتحت فى أيامه افريقية وغزا معاوية قبرس وأنقرة فافتتحها صلحا وانتزع عثمان عمرو بن العاص عن الاسكندرية فأمر عليها أخاه لامه ثم ان الناس أنكروا على عثمان أشياء منها كلفه بأقاربه فنقمت العرب على ذلك وجمعوا الجموع ونزلوا فرسخا من المدينة وبعثوا الى عثمان من يستعتبه ويقول له إما أن تعتدل أو تعتزل وكان أشد الناس على عثمان طلحة والزبير وعائشة وكتب عثمان اليهم كتابا يقول فيه انى أنزع عن كل شئ أنكرتموه وأتوب الى الله فلم يقبلوا منه ثم اشتد عليه الحصار عشرين يوما حتى تسور محمد بن أبى بكر مع رجلين حائط عثمان فضربه أحدهم بمشقص فى أوداجه وقتله الآخر والمصحف فى حجره وكانت خلافته اثنتى عشرة سنة وعمره نيف وثمانون سنة (للدميرى)

خلافة علي بن أبي طالب (من سنة ٦٥٧ الى سنة ٦٦١)

ولما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والانصار وأتوا عليا يبايعونه فأبى وقال والله لأن أكون وزيرا لكم خير من أن أكون أميرا ومن اخترتم رضيته فألحوا عليه وقالوا لا نعلم أحق منك حتى غلبوه في ذلك ثم ادعى الزبير بن العوام وطلحة الاكراه بعد ذلك وقاما على نقض امارة علي فلحق علي بهم وناجزهم الحرب وقتل الزبير وطلحة وسميت هذه الوقعة وقعة الجمل ولما بلغ معاوية خبر الجمل دعا أهل الشام الى القتال فخرج علي من الكوفة واقتتلوا اقتتالا شديدا في صفين ثم تهادنا وافترقا ثم تعاهد شبيب وابن ملجم على قتل علي وكمنا له في المسجد فلما خرج علي ونادى بالصلاة علاه شبيب بالسيف وضربه ابن ملجم على مقدم رأسه فدعا علي قبل موته الحسن والحسين ابنيه ووصاهما فقال أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تأسفا على شيء زوي منها عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرا ولا تأخذكما في الله لومة ولما حضرته الوفاة كتب وصيته العامة ثم قبض وصفه ضرار بن ضمرة فقال كان علي بعيد المدى شديد القوى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته غزير العبرة طويل الفكرة يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب وكان فينا كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ويأتينا اذا دعوناه ونحن مع تقريبه لا نكاد نكلمه هيبة له لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله (لابن خلدون)

(ذكر الصحابة ومدحهم وعلي والعباس وفضلهما)

دخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش فلما سلم وجلس قال له معاوية اني أريد أن أسألك عن مسائل قال سل عما بدا لك قال ما تقول في أبي بكر قال رحم الله أبا بكر كان والله للقرآن تاليا وعن المنكر ناهيا وبذنبه عارفا ومن الله خائفا وعن الشبهات زاجرا وبالمعروف آمرا وبالليل قائما وبالنهار صائما فاق أصحابه ورعا وكفافا وسادهم زهدا وعفافا فغضب الله على من بغضه وطعن عليه قال معاوية إيه يا ابن عباس فما تقول في عمر بن الخطاب قال رحم الله أبا حفص عمر كان والله حليف الاسلام ومأوى الايتام ومنتهى الاحسان ومحل الايمان وكهف الضعفاء ومعقل الحنفاء قام بحق الله عز وجل صابرا محتسبا حتى أوضح الدين وفتح البلاد وأمن العباد فاعقب الله على من ينقصه اللعنة الى يوم الدين قال فما تقول في عثمان قال رحم الله أبا عمرو كان والله أكرم الحفدة وأفضل البررة هجادا بالاسحار كثير الدموع عند ذكر النار نهاضا عند كل مكرمة سباقا الى كل منحة حييا أبيا وفيا صاحب جيش العسرة وختن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فاعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين الى يوم الدين قال فما تقول في علي

قال رضى الله عن أبى الحسن كان والله علم الهدى وكهف التقى ومحل الحجى وبحر الندى وطود النهى وكهف العلى للورى داعيا الى المحجة العظمى متمسكا بالعروة الوثقى خير من آمن واتقى وأفضل من تقمص وارتدى وأبر من انتعل واسعى وأفصح من تنفس وقرأ وأكثر من شهد النجوى سوى الانبياء والنبى المصطفى صاحب القبلتين فهل يوازيه أحد وأبو السبطين فهل يقارنه بشر وزوج خير النسوان فهل يفوقه قاطن بلد للاسود قتال وفى الحروب ختال لم ترعينى مثله ولن ترى فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد الى يوم التناد قال إيه يا ابن عباس لقد أكثرت فى ابن عمك قال فما تقول فى أبيك العباس قال رحم الله العباس أبا الفضل كان صنو نبى الله صلى الله عليه وسلم وقرة عين صفى الله سيد الاعمام له أخلاق آبائه الاجواد وأحلام أجداده الامجاد تباعدت الاسباب فى فضيلته صاحب البيت والسقاية والمشاعر والتلاوة ولم لا يكون كذلك وقد ساسه أكرم من دب فقال معاوية يا ابن عباس أنا أعلم أنك كلمانى أهل بيتك قال ولم لا أكون كذلك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام يا معاوية ان الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه خص محمدا صلى الله عليه وسلم بصحابة آثروه على الانفس والاموال وبذلوا النفوس دونه فى كل حال ووصفهم الله فى كتابه فقال رحماء بينهم الآية قاموا بمعالم الدين وناصحوا الاجتهاد للمسلمين حتى تهذبت طرقه وقويت أسبابه وظهرت آلاء الله واستقر دينه ووضحت أعلامه وأذل الله بهم الشرك وأزال روحه ومحا دعائمه وصارت كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية والارواح الطاهرة العالية فقد كانوا فى الحياة لله أولياء وكانوا بعد الموت أحياء أصفياء رحلوا الى الآخرة قبل أن يصلوا اليها وخرجوا من الدنيا وهم بعد فيها فقطع عليه معاوية الكلام وقال إيه يا ابن عباس حديثا فى غير هذا (من كتاب مروج الذهب)

(ذكر حروب على رضى الله عنه مع أهل النهروان وما لحق بهذا الباب
من مقتل محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه والاشتر النخعى وغير ذلك)

واجتمعت الخوارج فى أربعة آلاف فبايعوا عبد الله بن وهب الراسبى ولحقوا بالمدائن وقتلوا عبد الله بن خباب عامل على عليها ذبحوه ذبحا وبقروا بطن امرأته وكانت حاملا وقتلوا غيرها من النساء وقد كان على انفصل عن الكوفة فى خمسة وثلاثين ألفا وأتاه من البصرة من قبل ابن عباس وكان عامله عليها عشرة آلاف فيهم الاحنف بن قيس وحارثة بن قدامة السعدى وذلك فى سنة ثمان وثلاثين فنزل على الانبار والتأمت اليه العساكر فخطب الناس وحرضهم على الجهاد وقال سيروا

الى قتلة المهاجرين والانصار قوم طالما سعوا فى اطفاء نور الله وحرضوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه الا أن رسول الله أمرنى بقتال القاسطين وهم هؤلاء الذين سرنا اليهم والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم والمارقين ولم نلقهم بعد فسيروا الى القاسطين فهم أهم علينا من الخوارج سيروا الى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين يتخذهم الناس أربابا و يتخذون عباد الله خولا ومالهم دولا فأبوا أن لا يبدؤا الا بالخوارج فسار على اليهم حتى أتى النهروان فبعث اليهم بالحرث بن مرة العبدى رسولا يدعوهم الى الرجوع فقتلوه وبعثوا الى على ان تبت من حكومتك وشهدت على نفسك بايعناك وان أبيت فاعتزلنا حتى نختار لانفسنا اماما فانا منك برآء فبعث اليهم على أن ابعثوا الى بقتلة اخوانى فاقتلهم ثم أتارككم الى أن أفرغ من قتال أهل المغرب ولعل الله يقلب قلوبكم فبعثوا اليه كلنا قتلة أصحابك وكلنا مستحل لدمائهم مشتركون فى قتلهم وأخبره الرسول وكان من يهود السواد أن القوم قد عبروا نهر طبرستان فى هذا الوقت وهذا النهر عليه قنطرة تعرف بقنطرة طبرستان بين حلوان وبغداد من بلاد خراسان فقال على والله ما عبروه ولا يقطعونه حتى نقتلهم بالرميلة دونه ثم تواترت عليه الاخبار بقطعهم لهذا النهر وعبورهم هذا الجسر وهو يأبى ذلك ويحلف أنهم لم يعبروه وأن مصارعهم دونه ثم قال سيروا الى القوم فوالله لا يفلت منهم الا عشرة ولا يقتل منكم عشرة فسار على فأشرف عليهم وقد عسكروا بالموضع المعروف بالرميلة على ما قال لاصحابه فلما أشرف عليهم قال الله أكبر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فتصاف القوم ووقف عليهم بنفسه فدعاهم الى الرجوع والتوبة فأبوا ورموا أصحابه فقيل له قد رمونا فقال كفوا فكرروا القول عليه ثلاثا وهو يأمرهم بالكف حتى أتى برجل قتيل متشحط بدمه فقال على الله أكبر الآن حل قتالهم احملوا على القوم فحمل رجل من الخوارج على أصحاب على فخرج فيهم وجعل يغشى كل ناحية ويقول

أضربهم ولو أرى عليا * ألبسته أبيض مشرفيا

فخرج اليه على رضى الله عنه وهو يقول

ياأيهذا المبتغى عليا * انى أراك جاهلا شقيا

قد كنت عن كفاحه غنيا * هلم فابرز ههنا اليا

وحمل عليه على فقتله ثم خرج منهم آخر فحمل على الناس ففتك فيهم وجعل يكر عليهم وهو يقول

أضربهم ولو أرى أبا حسن * ألبسته بصارمى ثوب غبن

فخرج اليه على وهو يقول

ياأيهذا المبتغى أبا حسن * اليك فانظر أينا يلقى الغبن

وحمل عليه على وشكه بالرمح وترك الرمح فيه فانصرف على وهو يقول لقد رأيت أبا حسن فرأيت ماتكره وحمل أبو أيوب الانصارى على زيد بن حصن فقتله وقتل عبد الله بن وهب الذى قتل هانئ ابن حاطب الازدى وزياد بن حفصة وقتل حرقوص بن زهير السعدى وكان جملة من قتل من أصحاب على تسعة ولم يفلت من الخوارج الاعشرة وأتى على على القوم وهم أربعة آلاف فيهم المخدج ذو الثدية الامن ذكرنا من هؤلاء العشرة وأمر على بطلب المخدج فطلبوه فلم يعثروا عليه فقام على وعليه أثر الحزن لفقد المخدج فانتهى الى قتلى بعضهم فوق بعض فقال أفرجوا ففرجوا يمينا وشمالا واستخرجوه فقال على رضى الله عنه الله أكبر ما كذبت على محمد وانه لناقص اليد ليس فيها عظم طرفها حلمة مثل ثدى المرأة عليها خمس شعرات أو سبع رؤسها معقفة ثم قال ائتونى به فنظر الى عضده فاذا لحم مجتمع على منكبه كثدى المرأة عليه شعرات سود اذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذى بطن يده الاخرى ثم تترك فتعود الى منكبه فثنى رجله ونزل وخر لله ساجدا ثم ركب ومر بهم وهم صرعى فقال لقد صرعكم من غركم قيل ومن غرهم قال الشيطان وانفس السوء فقال أصحابه قد قطع الله دابرهم الى آخر الدهر فقال كلا والذى نفسى بيده انهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء لاتخرج خارجة الا خرجت بعدها مثلها حتى تخرج خارجة بين الفرات ودجلة مع رجل يقال له الاشمط يخرج اليه رجل منا أهل البيت فيقتلهم ولا يخرج بعدها خارجة الى يوم القيامة وجمع على ما كان فى عسكر الخوارج فقسم السلاح والدواب بين المسلمين ورد المتاع والعبيد والاماء الى أهليهم ثم خطب الناس فقال ان الله قد أحسن اليكم وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا الى عدوكم فقالوا يا أمير المؤمنين قد كلت سيوفنا ونفدت نبالنا ونصلت أسنة رماحنا فدعنا نستعد باحسن عدتنا وكان الذى كلمه بهذا الاشعث بن قيس فعسكر على بالنخيلة فجعل أصحابه يتسللون ويلحقون باوطانهم فلم يبق معه الا نفر يسير ومضى الحرث بن راشد الناجى فى ثلاثمائة من الناس فارتدوا الى دين النصرانية وهم من ولد سامة بن لؤى من عند أنفسهم وقد أبى ذلك كثير من الناس وذكروا أن سامة بن لؤى ما أعقب وقد حكى عن على فيهم ولست ترى ساميا الا منحرفا عن على من ذلك ماظهر عن على بن الجهم الشاعر السامى من التعصب والانحراف ولقد بلغ من انحرافه ونصبه العداوة لعلى عليه السلام انه كان يلعن أباه فسئل عن ذلك وبم استحق اللعن منه فقال بتسميته اياى عليا فسرح عليهم على معقل بن قيس الرياحى فقتل الحرث ومن معه من المرتدين بسيف البحر وسبى عيالهم وذراريهم وذلك بساحل البحرين فنزل معقل بن قيس بعض كور الاهواز بسبى القوم وكان هنالك مصقلة بن هبيرة الشيبانى عاملا لعلى فصاح به النسوة أمنن علينا فاشتراهم بثلثمائة ألف وأعتقهم وأدى من المال مائتى ألف وهرب الى معاوية فقال على قبح الله مصقلة

فعل فعل السيد وفرفرار العبد لو أقام أخذناما قدرنا على أخذه فان أعسر أنظرناه وان عجز لم نؤاخذه بشيء وأنفذ العتق وفي سنة ثمان وثلاثين وجه معاوية عمرو بن العاص الى مصر في أربعة آلاف ومعه معاوية بن خديج وأبو الاعور السلمي واستعمل عمرا عليها حياته وفي له بما تقدم من ضمانه فالتقوا هم ومحمد بن أبي بكر وكان عامل علي عليها بالموضع المعروف بالمسناة فاقتتلوا فانهزم محمد لاسلام أصحابه اياه وتركهم له وصار الى موضع بمصر فاختفى فيه فاحيط بالدار فخرج اليهم محمد ومن معه من أصحابه فقاتلهم حتى قتل فاخذه معاوية بن خديج وعمرو بن العاص وغيرهما فجعلوه في جلد حمار وأضرموه بالنار وذلك بموضع في مصر يقال له كوم شريك وقيل انه فعل به ذلك وبه شيء من الحياة وبلغ معاوية قتل محمد وأصحابه فاظهر الفرح والسرور وبلغ عليا قتل محمد وسرور معاوية فقال جزعنا عليه على قدر سرورهم فما جزعت على هالك منذ دخلت هذه الحرب جزعي عليه كان لي ربيبا وكنت أعده ولدا كان بي برا وكان ابن أخي فعلى مثل هذا نحزن وعند الله نحتسبه وولى علي الاشتر على مصر وأنفذه اليها في جيش فلما بلغ ذلك معاوية دس الى دهقان وكان بالعريش فأرغبه وقال أترك خراجك عشرين سنة فاحتل للاشتر بالسم في طعامه فلما نزل الاشتر العريش سأل الدهقان أي الطعام والشراب أحب اليه قيل العسل فأهدى له عسلا وقال ان من أمره وشأنه كذا وكذا ووصفه للاشتر وكان الاشتر صائما فتناول منه شربة فما استقرت في جوفه حتى تلف وأتى من كان معه على الدهقان ومن كان معه وقيل كان ذلك بالقلزم والاول أثبت فبلغ ذلك عليا فقال لليدين وللفم وبلغ ذلك معاوية فقال ان لله جندا من العسل وقبض أصحابه عن علي في هذه السنة ثلاثة أرزاق على حسب ما كان يحمل اليه من المال من أعماله ثم ورد عليه مال من اصبهان فخطب الناس وقال اغدوا الى عطاء رابع فوالله ما أنا لكم بخازن وكان في عطائه يأخذ كما يأخذ الواحد منهم ولم يكن بين علي ومعاوية من الحرب الا ما وصفنا بصفين وكان معاوية في بقية أعمال علي يبعث سرايا تغير وكذلك علي كان يبعث من يمنع سرايا معاوية من أذية الناس

(قال المسعودي رحمه الله) وقد تكلم طوائف من الناس ممن سلف وخلف من أهل الآراء في الخوارج وغيرهم من فعل علي يوم الجمل وصفين وتباين حكمه فيهما وفيمن قتل من أهل صفين مقبلين ومدبرين واجهازه على جرحاهم ويوم الجمل لم يتبع موليا ولا أجهز على جريح من ألقى سلاحه أو دخل داره كان آمنا وما أجابهم به شيعة علي في تباين حكم علي في هذين اليومين لاختلاف حكمهما وهو أن أصحاب الجمل لما انكشفوا لم يكن لهم فئة يرجعون اليها وانما رجع القوم الى منازلهم غير محاربين ولا منابذين ولالامره مخالفين فرضوا بالكف عنهم وكان الحكم فيهم رفع السيف اذ لم يطلبوا عليه أعوانا وأهل صفين كانوا يرجعون الى فئة مستعدة وامام منتصب يجمع لهم السلاح ويسنى لهم الاعطية ويقسم لهم الاموال ويجبر كسيرهم ويحمل راجلهم ويردهم

فيرجعون الى الحرب وهم الى امامته منقادون ولرأيه متبعون ولغيره مخالفون ولامامته تاركون ولحقه جاحدون وبانه يطلب ماليس له قايلون فاختلف الحكم لما وصفنا وتباين حكماهما كما ذكرنا ولكل فريق من السائل والمجيب كلام يطول ذكره ويتسع شرحه قد أوتى على استيفائه وماذكره كل فريق منهم فيما سلف فأغنى والله أعلم (من مروج الذهب)

باب فى التراجم

(الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت رضى الله عنه ابن زوطى بن ماه الامام الفقيه الكوفى مولى تيم الله بن ثعلبة وهو من رهط حمزة الزيات)

(سنة ٨٠ الى سنة ١٥٠ هجريه)

كان خزازا يبيع الخز وجده زوطى من أهل كابل وقيل من أهل بابل وقيل من أهل الانبار وقيل من أهل نسا وقيل من أهل ترمذ وهو الذى مسه الرق فاعتق وولد ثابت على الاسلام وقال اسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة أنا اسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان من أبناء فارس من الاحرار والله ما وقع علينا رق قط ولد جدى سنة ثمانين وذهب ثابت الى على ابن أبى طالب رضى الله عنه وهو صغير فدعا له بالبركة فيه وفى ذريته ونحن نرجو أن يكون الله تعالى قد استجاب ذلك لعلى فينا والنعمان بن المرزبان أبو ثابت هو الذى أهدى لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه الفالوذج فى يوم مهرجان فقال مهرجونا كل يوم هكذا قال الخطيب فى تاريخه والله تعالى أعلم وأدرك أبو حنيفة أربعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وهم أنس بن مالك وعبد الله بن أبى أوفى بالكوفة وسهل بن سعد الساعدى بالمدينة وأبو الطفيل عامر بن واثلة بمكة ولم يلق أحدا منهم ولا أخذ عنه وأصحابه يقولون لقى جماعة من الصحابة وروى عنهم ولم يثبت ذلك عند أهل النقل وذكر الخطيب فى تاريخ بغداد أنه رأى أنس بن مالك رضى الله عنه وأخذ الفقه عن حماد بن أبى سليمان وسمع عطاء بن أبى رباح وأبا اسحاق السبيعى ومحارب بن دثار والهيثم بن حبيب الصراف ومحمد بن المنكدر ونافعا مولى عبد الله بن عمر رضى الله عنهم وهشام بن عروة وسماك بن حرب وروى عنه عبد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح والقاضى أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى وغيرهم وكان عالما عاملا زاهدا عابدا ورعا نقيا كثير الخشوع دائم التضرع الى الله تعالى ونقله أبو جعفر المنصور من الكوفة الى بغداد فأراده على أن يوليه القضاء فأبى فحلف عليه ليفعله فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل فحلف المنصور ليفعله فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل وقال انى لن أصلح لقضاء فقال الربيع بن يونس الحاجب ألا ترى أمير المؤمنين يحلف فقال أبو حنيفة أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر منى على كفارة أيمانى فأمر به الى الحبس فى الوقت والعوام يدعون أنه تولى

عدد اللبن أياما ليكفر بذلك عن يمينه ولم يصح هذا من جهة النقل وقال الربيع رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة فى أمر القضاء وهو يقول اتق الله ولا ترع فى أمانتك الا من يخاف الله والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ولو اتجه الحكم عليك ثم تهددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو تلى الحكم لاخترت أن أغرق ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك فقال له كذبت أنت تصلح فقال له قد حكمت لى على نفسك كيف يحل لك أن تولى قاضيا على أمانتك وهو كذاب وحكى الخطيب أيضا فى بعض الروايات أن المنصور لما بنى مدينته ونزلها ونزل المهدى فى الجانب الشرقى وبنى مسجد الرصافة أرسل الى أبى حنيفة فجىء به فعرض عليه قضاء الرصافة فأبى فقال له ان لم تفعل ضربتك بالسياط قال أو تفعل قال نعم فقعد فى القضاء يومين فلم يأته أحد فلما كان فى اليوم الثالث أتاه رجل صفار ومعه آخر فقال الصفار لى على هذا درهمان وأربعة دوانق ثمن تور صفر فقال أبو حنيفة اتق الله وانظر فيما يقول الصفار قال ليس له على شىء فقال أبو حنيفة للصفار ما تقول فقال استحلفه لى فقال أبو حنيفة للرجل قل والله الذى لا اله الا هو فجعل يقول فلما رآه أبو حنيفة معتمدا على أن يقول قطع عليه وضرب بيده الى كمه فحل صرة وأخرج درهمين ثقيلين وقال للصفار هذان الدرهمان عوض عن باقى تورك فنظر الصفار اليهما وقال نعم فأخذ الدرهمين فلما كان بعد يومين اشتكى أبو حنيفة فمرض ستة أيام ثم مات وكان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراقين أراده أن يلى القضاء بالكوفة أيام مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية فأبى عليه فضربه مائة سوط وعشرة أسواط كل يوم عشرة أسواط وهو على الامتناع فلما رأى ذلك خلى سبيله وكان أحمد بن حنبل رضى الله عنه اذا ذكر ذلك بكى وترحم على أبى حنيفة وذلك بعد أن ضرب أحمد على القول بخلق القرآن وقال اسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة مررت مع أبى بالكناسة فبكى فقلت له يا أبت ما يبكيك فقال يا بنى فى هذا الموضع ضرب ابن هبيرة أبى عشرة أيام فى كل يوم عشرة أسواط على أن يلى القضاء فلم يفعل والكناسة بضم الكاف موضع بالكوفة وكان أبو حنيفة حسن الوجه حسن المجلس شديد الكرم حسن المواساة لاخوانه وكان ربعة من الرجال وقيل كان طوالا تعلوه سمرة أحسن الناس منطقا وأحلاهم نغمة وذكر الخطيب فى تاريخه أن أبا حنيفة رأى فى المنام كأنه ينبش قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث من سأل ابن سيرين فقال ابن سيرين صاحب هذه الرؤيا يثير علما لم يسبقه اليه أحد قبله قال الشافعى رضى الله عنه قيل لمالك هل رأيت أبا حنيفة فقال نعم رأيت رجلا لو كلمته فى هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته وروى حرملة بن يحيى عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال الناس عيال على هؤلاء الخمسة من أراد أن يتبحر فى الفقه فهو عيال على أبى حنيفة وكان أبو حنيفة ممن وفق له الفقه ومن أراد أن يتبحر فى الشعر فهو عيال على زهير بن أبى سلمى ومن أراد أن يتبحر فى المغازى فهو عيال على محمد

ابن اسحاق ومن أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي ومن أراد أن يتبحر في التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان هكذا نقله الخطيب في تاريخه وقال يحيى بن معين القراءة عندي قراءة حمزة والفقه فقه أبي حنيفة على هذا أدركت الناس وقال جعفر بن ربيع أقمت على أبي حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول صمتا منه فاذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادي وسمعت له دويا وجهارة في الكلام وكان اماما في القياس وقال علي بن عاصم دخلت على أبي حنيفة وعنده حجام يأخذ من شعره فقال للحجام تتبع مواضع البياض فقال الحجام ولا تزد فقال ولم قال لأنه يكثر قال فتتبع مواضع السواد لعله يكثر وحكيت لشريك هذه الحكاية فضحك وقال لو ترك أبو حنيفة قياسه لتركه مع الحجام وقال عبد الله بن رجاء كان لابي حنيفة جار بالكوفة اسكاف يعمل نهاره أجمع حتى اذا جنه الليل رجع الى منزله وقد حمل لحما فيطبخه أو سمكة فيشويها ثم لا يزال يشرب حتى اذا دب الشراب فيه غرد بصوت وهو يقول

أضاعوني وأي فتى أضاعوا * ليوم كريهة وسداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم وكان أبو حنيفة يسمع جلبته كل ليلة وأبو حنيفة كان يصلي الليل كله ففقد أبو حنيفة صوته فسأل عنه فقيل أخذه العسس منذ ليال وهو محبوس فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من الغد وركب بغلته واستأذن على الامير فقال الامير ائذنوا له وأقبلوا به راكبا ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته ففعل ولم يزل الامير يوسع له في مجلسه وقال ما حاجتك فقال لي جار اسكاف أخذه العسس منذ ليال يأمر الامير بتخليته فقال نعم وكل من أخذ في تلك الليلة الى يومنا هذا فأمر بتخليتهم أجمعين فركب أبو حنيفة والاسكاف يمشي وراءه فلما نزل أبو حنيفة مضى اليه وقال يا فتى أضعناك فقال لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرا عن حرمة الجوار ورعاية الحق وتاب الرجل ولم يعد الى ما كان عليه وقال ابن المبارك رأيت أبا حنيفة في طريق مكة وقد شوي لهم فصيل سمين فاشتهوا أن يأكلوه بخل فلم يجدوا شيأ يصبون فيه الخل فتحيروا فرأيت أبا حنيفة وقد حفر في الرمل حفرة وبسط عليها السفرة وسكب الخل على ذلك الموضع فأكلوا الشواء بالخل فقالوا تحسن كل شيء فقال عليكم بالشكر فان هذا شيء ألهمته لكم فضلا من الله عليكم وقال ابن المبارك أيضا قلت لسفيان الثوري يا عبد الله ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة ما سمعته يغتاب عدوا له قط فقال هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها وقال أبو يوسف دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة فقال الربيع صاحب المنصور وكان يعادي أبا حنيفة يا أمير المؤمنين هذا أبو حنيفة يخالف جدك كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول اذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين جاز الاستثناء وقال أبو حنيفة لا يجوز الاستثناء الا متصلا باليمين

فقال أبو حنيفة يا أمير المؤمنين ان الربيع يزعم انه ليس لك فى رقاب جندك بيعة قال وكيف قال يحلفون لك ثم يرجعون الى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم فضحك المنصور وقال يا ربيع لا تتعرض لابى حنيفة فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع أردت أن تسيط بدمى قال لا ولكنك أردت أن تسيط بدمى فخلصتك وخلصت نفسى وكان أبو العباس الطوسى سيء الرأى فى أبى حنيفة وكان أبو حنيفة يعرف ذلك فدخل أبو حنيفة على المنصور وكثر الناس فقال الطوسى اليوم أقتل أبا حنيفة فأقبل عليه فقال يا أبا حنيفة ان أمير المؤمنين يدعو الرجل فيأمره بضرب عنق الرجل لا يدرى ماهو أيسعه أن يضرب عنقه فقال يا أبا العباس أمير المؤمنين يأمر بالحق أم بالباطل فقال بالحق قال أنفذ الحق حيث كان ولا تسأل عنه ثم قال أبو حنيفة لمن قرب منه ان هذا أراد أن يوثقنى فربطته وقال يزيد بن الكميت كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله تعالى فقرأ بنا على ابن الحسين المؤذن ليلة فى العشاء الاخيرة سورة اذا زلزلت وأبو حنيفة خلفه فلما قضى الصلاة وخرج الناس نظرت الى أبى حنيفة وهو جالس يتفكر ويتنفس فقلت أقوم لا يشتغل قلبه بى فلما خرجت تركت القنديل ولم يكن فيه الا زيت قليل فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم وقد أخذ بلحية نفسه وهو يقول يامن يجزى بمثقال ذرة خير خيرا ويامن يجزى بمثقال ذرة شر شرا أجر النعمان عبدك من النار ومما يقرب منها من السوء وأدخله فى سعة رحمتك قال فأذنت واذا القنديل يزهر وهو قائم فلما دخلت قال لى تريد أن تأخذ القنديل قلت قد أذنت لصلاة الغداة فقال اكتم على ما رأيت وركع ركعتين وجلس حتى أقمت الصلاة وصلى معنا الغداة على وضوء أول الليل وقال أسد ابن عمرو صلى أبو حنيفة فيما حفظ عليه صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة وكان عامة ليله يقرأ جميع القرآن فى ركعة واحدة وكان يسمع بكاؤه فى الليل حتى يرحمه جيرانه وحفظ عليه انه ختم القرآن فى الموضع الذى توفى فيه سبعة آلاف ختمة وقال اسمعيل بن حماد بن أبى حنيفة عن أبيه لما مات أبى سألنا الحسن بن عمارة أن يتولى غسله ففعل فلما غسله قال رحمك الله وغفر لك لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسد يمينك فى الليل منذ أربعين سنة وقد أتعبت من بعدك وفضحت القراء ومناقبه وفضائله كثيرة وقد ذكر الخطيب فى تاريخه منها شيأ كثيرا ثم أعقب ذلك بذكر ما كان الاليق تركه والاضراب عنه فمثل هذا الامام لا يشك فى دينه ولا فى ورعه وتحفظه ولم يكن يعاب بشئ سوى قلة العربية فمن ذلك ماروى أن أبا عمرو بن العلاء المقرى النحوى سأله عن القتل بالمثقل هل يوجب القود أم لا فقال لا كما هو قاعدة مذهبه خلافا للامام الشافعى رضى الله عنه فقال له أبو عمرو ولو قتله بحجر المنجنيق فقال ولو قتله بأبا قبيس يعنى الجبل المطل على مكة حرسها الله تعالى وقد اعتذروا عن أبى حنيفة بانه قال ذلك على لغة من يقول ان الكلمات الست المعربة بالحروف وهى أبوه وأخوه وحموه وفوه وذوما ل اعرابها يكون فى الاحوال الثلاث بالالف وأنشدوا فى ذلك

أن أباها وأبا أباها * قد بلغا في المجد غايتاها

وهي لغة الكوفيين وأبو حنيفة من أهل الكوفة فهي لغته والله أعلم وهذا وان كان خروجا عن المقصود لكن الكلام ارتبط بعضه ببعض فانتشر وكانت ولادة أبي حنيفة سنة ثمانين للهجرة وقيل سنة احدى وستين والاول أصح وتوفي في رجب وقيل في شعبان سنة خمسين ومائة وقيل ثلاث وخمسين والاول أصح وكانت وفاته ببغداد في السجن ليلي القضا فلم يفعل هذا هو الصحيح وقيل انه لم يمت في السجن وقيل توفي في اليوم الذي ولد فيه الامام الشافعي رضي الله عنهما ودفن في مقبرة الخيزران وقبره هنالك مشهور يزار وزوطى بضم الزاي وسكون الواو وفتح الطاء المهملة وبعدها ألف مقصورة وهو اسم نبطي وكابل بفتح الكاف وضم الباء الموحدة بعد الالف وبعدها لام وهي ناحية معروفة من بلاد الهند ينسب اليها جماعة من العلماء وغيرهم وأما بابل والانبار فهما معروفان فلا حاجة الى الكلام عليهما وبنى شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ملك شاه السلجوقي على قبر الامام أبي حنيفة مشهدا وقبة وبنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية ولما فرغ من عمارة ذلك ركب اليها في جماعة من الاعيان ليشاهدوها فبيناهم اذ دخل عليهم الشريف أبو جعفر مسعود المعروف بالبياضي الشاعر وأنشده

ألم تر أن العلم كان مبددا * فجمعه هذا المغيب في اللحد
كذلك كانت هذه الارض ميتة * فأنشرها فعل العميد أبي سعد

فأجازه أبو سعد جائزة سنية ولابي سعد هذا مدرسة بمدينة مرو وله عدة ربط وخانات في المفاوز وكان كثير الخير وعمل المعروف وانقطع آخر عمره عن الخدمة ولزم بيته وكانوا يراجعونه في الامور وتوفي في المحرم سنة أربع وستين وأربعمائة باصبهان رحمه الله تعالى وكان بناء المشهد والقبة في سنة تسع وخمسين وأربعمائة ويحكى أن محمدا والد السلطان ملك شاه بنى مشهدا على قبر الامام أبي حنيفة وكذلك وجدته في بعض التواريخ وقد غاب عني الآن من أين نقلته ثم وجدت بعد ذلك ان الذي بنى المشهد والقبة أبو سعد المذكور والظاهر أن أبا سعد بناهما نيابة عن الب ارسلان المذكور وهو كان المباشر كما جرت عادة النواب مع ملوكهم فنسبت العمارة اليه بهذه الطريق ويدل على ذلك أن تاريخ العمارة في أيام الب ارسلان وأبو سعد كان مستوفيا في أيامه ثم استمر على وظيفته في أيام ولده ملك شاه وهذا الذي ذكرته لنجمع بين النقلين والله أعلم

(من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

الامام أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحرث بن غيمان بغين معجمة وياء تحتها نقطتان ويقال عثمان بعين مهملة وثاء مثلثة ابن جثيل بجيم وثاء مثلثة وياء ساكنة تحتها نقطتان وقال ابن سعد هو خثيل بخاء معجمة ابن عمرو بن ذى أصبح واسمه الحرث الاصبحى المدنى
(سنة ٩٥ الى سنة ١٧٩ هجريه)

امام دار الهجرة وأحد الائمة الاعلام أخذ القراءة عرضا عن نافع بن أبي نعيم وسمع الزهرى ونافعا مولى ابن عمر رضى الله عنهما وروى عنه الاوزاعى ويحيى بن سعيد وأخذ العلم عن ربيعة الرأى وأفتى معه عند السلطان وقال مالك قل رجل كنت أتعلم منه ما مات حتى يجيئنى ويستفتينى وقال ابن وهب سمعت مناديا ينادى بالمدينة ألا لا يفتى الناس الا مالك بن أنس وابن أبي ذئب وكان مالك اذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن فى جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث فقيل له فى ذلك فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به الا متمكنا على طهارة وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائما أو مستعجلا ويقول أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لا يركب فى المدينة مع ضعفه وكبر سنه ويقول لا أركب فى مدينة فيها جثة رسول الله صلى الله عليه وسلم مدفونة وقال الشافعى قال لى محمد بن الحسن أيهما أعلم صاحبنا أم صاحبكم يعنى أبا حنيفة ومالكا رضى الله عنهما قال قلت على الانصاف قال نعم قال قلت ناشدتك الله من أعلم بالقرآن صاحبنا أم صاحبكم قال اللهم صاحبكم قال قلت ناشدتك الله من أعلم بالسنة صاحبنا أم صاحبكم قال اللهم صاحبكم قال قلت ناشدتك الله من أعلم بأقاويل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المتقدمين صاحبنا أم صاحبكم قال اللهم صاحبكم قال الشافعى فلم يبق الا القياس والقياس لا يكون الا على هذه الاشياء فعلى أى شئ نقيس وقال الواقدى كان مالك يأتى المسجد ويشهد الصلوات والجمعة والجنائز ويعود المرضى ويقضى الحقوق ويجلس فى المسجد ويجتمع اليه أصحابه ثم ترك الجلوس فى المسجد فكان يصلى وينصرف الى مجلسه وترك حضور الجنائز فكان يأتى أهلها فيعزيهم ثم ترك ذلك كله فلم يكن يشهد الصلوات فى المسجد ولا الجمعة ولا يأتى أحدا يعزيه ولا يقضى له حقا واحتمل الناس له ذلك حتى مات عليه وكان ربما قيل له فى ذلك فيقول ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره وسعى به الى جعفر ابن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس رضى الله عنهما وهو عم أبي جعفر المنصور وقالوا له انه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشئ فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب منه أمرا عظيما فلم يزل بعد ذلك الضرب فى علو ورفعة وكأنما كانت تلك السياط حليا حلى به وذكر ابن الجوزى فى شذور العقود فى سنة سبع وأربعين ومائة وفيها ضرب

مالك بن أنس سبعين سوطا لاجل فتوى لم توافق غرض السلطان والله أعلم وكانت ولادته فى سنة خمس وتسعين للهجرة وحمل به ثلاث سنين وتوفى فى شهر ربيع الاول سنة تسع وسبعين ومائة رضى الله عنه فعاش أربعا وثمانين سنة وقال الواقدى مات وله تسعون سنة وقال ابن الفرات فى تاريخه المرتب على السنين توفى مالك بن أنس الاصبحى لعشر مضين من شهر ربيع الاول سنة تسع وسبعين ومائة وقيل انه توفى سنة ثمان وسبعين ومائة وقيل ان مولده سنة تسعين للهجرة وقال السمعانى فى كتاب الانساب فى ترجمة الاصبحى انه ولد فى سنة ثلاث أو أربع وتسعين والله أعلم بالصواب وحكى الحافظ أبو عبد الله الحميدى فى كتاب جذوة المقتبس قال حدث القعنبى قال دخلت على مالك بن أنس فى مرضه الذى مات فيه فسلمت عليه ثم جلست فرأيته يبكى فقلت يا أبا عبد الله ما الذى يبكيك فقال لى يا ابن قعنب ومالى لا أبكى ومن أحق بالبكاء منى والله لوددت أنى ضربت بكل مسئلة أفتيت فيها برأيى سوطا وقد كانت لى السعة فيما قد سبقت اليه وليتنى لم أفت بالرأى أو كما قال وقد كانت وفاته بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ودفن بالبقيع وكان شديد البياض الى الشقرة طويلا عظيم الهامة أصلع يلبس الثياب العدنية الجياد ويكره حلق الشارب ويعيبه ويراه من المثلة ولا يغير شيبه ورثاه أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج بقوله

سقى جدثا ضم البقيع لمالك * من المزن مرعاد السحائب مبراق
امام موطاه الذى طبقت به * أقاليم فى الدنيا فساح وآفاق
أقام به شرع النبى محمد * له حذر من أن يضام واشفاق
له سند عال صحيح وهيبة * فللكل منه حين يرويه اطراق
وأصحاب صدق كلهم علم فسل * بهم انهم ان أنت ساءلت حذاق
ولو لم يكن الا ابن ادريس وحده * كفاه ألا ان السعادة ارزاق

والاصبحى بفتح الهمزة وسكون الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة وبعدها حاء مهملة هذه النسبة الى ذى أصبح واسمه الحرث بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة وهو من يعرب بن قحطان وهى قبيلة كبيرة باليمن واليها تنسب السياط الاصبحية وقال هشام بن الكلبى فى جمهرة النسب ذو أصبح هو الحرث بن مالك بن زيد بن غوث بن سعد بن عوف بن عدى بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس ابن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن غريب بن زهير بن أيمن بن هميسع ابن حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان واسمه يقطن بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام ابن نوح عليه السلام والذى ذكرناه أولا ذكره الحازمى فى كتاب العجالة والله أعلم بالصواب

(من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

الامام الشافعي أبوعبدالله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي الشافعي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف المذكور وباقي النسب الى عدنان معروف
(سنة ١٥٠ الى سنة ٢٠٤ هجريه)

أتى جده شافع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مترعرع وكان أبوه السائب صاحب راية بني هاشم يوم بدر فأسر وفدى نفسه ثم أسلم فقيل له لم تسلم قبل أن تفدى نفسك فقال ما كنت أحرم المؤمنين مطمعا لهم في" وكان الشافعي كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين اجتمع فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضى الله عنهم وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة والعربية والشعر حتى ان الاصمعي مع جلالة قدره في هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهذليين مالم يجتمع في غيره حتى قال أحمد ابن حنبل رضى الله عنه ماعرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي وقال أبو عبيد القاسم بن سلام مارأيت رجلا قط أكمل من الشافعي وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل قلت لابي أي رجل كان الشافعي فاني سمعتك تكثر من الدعاء له فقال يا بني" كان الشافعي مثل الشمس للدنيا وكالعافية للبدن هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض وقال أحمد مابت منذ ثلاثين سنة الا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له وقال يحيى بن معين كان أحمد بن حنبل ينهانا عن الشافعي ثم استقبلته يوما والشافعي راكب بغلته وهو يمشي خلفه فقلت يا أباعبدالله تنهانا عنه وتمشي خلفه فقال اسكت لو لزمت البغلة لانتفعت وحكى الخطيب في تاريخ بغداد عن ابن عبد الحكم قال لما حملت أم الشافعي به رأت كأن المشترى خرج من فرجها حتى انقض بمصر ثم وقع في كل بلد منه شظية فتأول أصحاب الرؤيا أنه يخرج منها عالم يخص علمه أهل مصر ثم يتفرق في سائر البلدان وقال الشافعي قدمت على مالك بن أنس وقد حفظت الموطأ فقال لي أحضر من يقرأ لك فقلت أنا قارئ فقرأت عليه الموطأ حفظا فقال ان يك أحد يفلح فهذا الغلام وكان سفيان بن عيينة اذا جاءه شئ من التفسير أو الفتيا التفت الى الشافعي فقال سلوا هذا الغلام وقال الحميدى سمعت الزنجي بن خالد يعني مسلما يقول للشافعي أفت يا أباعبدالله فقد والله آن لك أن تفتي وهو ابن خمس عشرة سنة وقال محفوظ بن أبي توبة البغدادى رأيت أحمد بن حنبل عند الشافعي في المسجد الحرام فقلت يا أباعبدالله هذا سفيان بن عيينة في ناحية المسجد يحدث فقال ان هذا يفوت وذاك لا يفوت وقال أبو حسان الزيادى مارأيت محمد بن الحسن يعظم أحدا من أهل العلم تعظيمه للشافعي ولقد جاءه يوما فلقيه وقد ركب محمد بن الحسن فرجع محمد الى منزله وخلا به يومه الى الليل ولم يأذن لاحد عليه

والشافعي أول من تكلم في أصول الفقه وهو الذي استنبطه وقال أبو ثور من زعم أنه رأى مثل محمد ابن ادريس في علمه وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكنه فقد كذب كان منقطع القرين في حياته فلما مضى لسبيله لم يعتض منه وقال احمد بن حنبل ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق الا وللشافعي في رقبته منة وكان الزعفراني يقول كان أصحاب الحديث رقودا حتى جاء الشافعي فأيقظهم فتيقظوا ومن دعائه اللهم يالطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير وهو مشهور بين العلماء بالاجابة وانه مجرب وفضائله أكثر من أن تعد ومولده سنة خمسين ومائة وقد قيل انه ولد في اليوم الذي توفي فيه الامام أبو حنيفة وكانت ولادته بمدينة غزة وقيل بعسقلان وقيل باليمن والاول أصح وحمل من غزة الى مكة ثم عاد الى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها اشهرا ثم خرج الى مصر وكان وصوله اليها في سنة تسع وتسعين ومائة وقيل احدى ومائتين ولم يزل بها الى أن توفي يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين ودفن بعد العصر من يومه بالقرافة الصغرى وقبره يزار بها بالقرب من المقطم رضي الله عنه قال الربيع بن سليمان المرادي رأيت هلال شعبان وأنا راجع من جنازته وقال رأيته في المنام بعد وفاته فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك فقال أجلسني على كرسي من ذهب ونثر علي اللؤلؤ الرطب وذكر الشيخ أبو اسحق الشيرازي في كتاب طبقات الفقهاء مثله وحكى الزعفراني عن أبي عثمان بن الشافعي قال مات أبي وهو ابن ثمان وخمسين سنة وقد اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والاصول واللغة والنحو وغير ذلك على ثقته وأمانته وعدالته وزهده وورعه ونزاهة عرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلو قدره وسخائه وللامام الشافعي أشعار كثيرة فمن ذلك ما نقلته من خط الحافظ أبي طاهر السلفي رحمه الله تعالى

ان الذي رزق اليسار ولم يصب * حمدا ولا أجرا لغير موفق
الجد يدني كل أمر شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق
واذا سمعت بان مجدودا حوى * عودا فأثمر في يديه فصدق
واذا سمعت بأن محروما أتى * ماء ليشربه فغاض فحقق
لو كان بالحيل الغنى لوجدتني * بنجوم أقطار السماء تعلقي
لكن من رزق الحجا حرم الغنى * ضدان مفترقان أي تفرق
ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

(وفيات الاعيان لابن خلكان)

الامام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن ادريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله
ابن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر
ابن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد
ابن عدنان الشيباني المروزي الاصل (سنة ١٦٤ الى سنة ٢٤١ هجريه)

هذا هو الصحيح في نسبه وقيل انه من بني مازن بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة وهو غلط لانه من بني شيبان ابن ذهل لا من بني ذهل بن شيبان وذهل بن ثعلبة المذكور هو عم ذهل بن شيبان فليعلم ذلك والله أعلم . خرجت أمه من مرو وهي حامل به فولدته في بغداد في شهر ربيع الاول سنة أربع وستين ومائة وقيل انه ولد بمرو وحمل الى بغداد وهو رضيع وكان امام المحدّثين صنف كتابه المسند وجمع فيه من الحديث مالم يتفق لغيره وقيل انه كان يحفظ ألف ألف حديث وكان من أصحاب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنهما وخواصه ولم يزل مصاحبه الى أن ارتحل الشافعي الى مصر وقال في حقه خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل ودعي الى القول بخلق القرآن فلم يجب فضرب وحبس وهو مصر على الامتناع وكان ضربه في العشر الاخير من شهر رمضان سنة عشرين ومائتين وكان حسن الوجه ربعة يخضب بالحناء خضبا ليس بالقاني في لحيته شعيرات سود أخذ عنه الحديث جماعة من الاماثل منهم محمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري ولم يكن في آخر عصره مثله في العلم والورع توفي ضحوة نهار الجمعة لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول وقيل بل لثلاث عشرة ليلة بقين من الشهر المذكور وقيل من ربيع الآخر سنة احدى وأربعين ومائتين ببغداد ودفن بمقبرة باب حرب وباب حرب منسوب الى حرب بن عبد الله أحد أصحاب أبي جعفر المنصور والى حرب هذا تنسب المحلة المعروفة بالحربية وقبر أحمد بن حنبل مشهور بها يزار رحمه الله تعالى وحزر من حضر جنازته من الرجال فكانوا ثمانمائة ألف ومن النساء ستين ألفا وقيل انه أسلم يوم مات عشرون ألفا من النصارى واليهود والمجوس وذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتابه الذي صنفه في أخبار بشر بن الحرث الحافي رضي الله عنه في الباب السادس والاربعين ماصورته حدث ابراهيم الحربي قال رأيت بشر بن الحرث الحافي في المنام كأنه خارج من باب مسجد الرصافه وفي كمه شئ يتحرك فقلت مافعل الله بك فقال غفر لي وأكرمني فقلت ماهذا الذي في كمك قال قدم علينا البارحة روح أحمد بن حنبل فنثر عليه الدر والياقوت فهذا مما التقطت قلت فما فعل يحيى بن معين وأحمد بن حنبل قال تركتهما وقد زارا رب العالمين ووضعت لهما الموائد قلت فلم تأكل معهما أنت قال قد عرف هوان الطعام علي فاباحني النظر الى وجهه الكريم وفي أجداده حيان بفتح الحاء المهملة وتشديد الياء المثناة من تحتها وبعد الالف نون

وبقية الاجداد لاحاجة الى ضبط أسمائهم لشهرتها وكثرتها ولولا خوف الاطالة لقيدتها ورأيت فى نسبه اختلافا وهذا أصح الطرق التى وجدتها وكان له ولدان عالمان وهما صالح وعبدالله فأما صالح فتقدمت وفاته فى شهر رمضان سنة ست وستين ومائتين وكان قاضى اصبهان فمات بها ومولده فى ثلاث ومائتين وأما عبدالله فانه بقى الى سنة تسعين ومائتين وتوفى فى يوم الاحد لثمان بقين من جمادى الاولى وقيل الآخرة وله سبع وسبعون سنة وكنيته أبوعبدالرحمن وبه كان يكنى الامام أحمد رحمهم الله أجمعين (من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

أبومحمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى البصرى الحرامى صاحب المقامات

(سنة ٤٤٦ الى سنة ٥١٥ هجريه)

كان أحد أئمة عصره ورزق الحظوة التامة فى عمل المقامات واشتملت على شئ كثير من كلام العرب من لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها ومن عرفها حق معرفتها استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته وكان سبب وضعه لها ما حكاه ولده أبو القاسم عبدالله قال كان أبى جالسا فى مسجده ببنى حرام فدخل شيخ ذوطمرين عليه أهبة السفر رث الحال فصيح الكلام حسن العبارة فسألته الجماعة من أين الشيخ فقال من سروج فاستخبروه عن كنيته فقال أبوزيد فعمل أبى المقامة المعروفة بالحرامية وهى الثامنة والاربعون وعزاها الى أبى زيد المذكور واشتهرت فبلغ خبرها الوزير شرف الدين أبانصر أنوشروان بن محمد بن خالد بن محمد القاشانى وزير الامام المسترشد بالله فلما وقف عليها أعجبته وأشار على والدى أن يضم اليها غيرها فأتمها خمسين مقامة والى الوزير المذكور أشار الحريرى فى خطبة المقامات بقوله فاشار من اشارته حكم وطاعته غنم الى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع وان لم يدرك الظالع شأو الضليع هكذا وجدته فى عدة تواريخ ثم رأيت فى بعض شهور سنة ست وخمسين وستمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات وجميعها بخط مصنفها الحريرى وقد كتب بخطه أيضا على ظهرها انه صنفها للوزير جمال الدين عميد الدولة أبى على الحسن بن أبى العز على بن صدقة وزير المسترشد أيضا ولا شك أن هذا أصح من الرواية الاولى لكونه بخط المصنف وتوفى الوزير المذكور فى رجب سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فهذا كان مستنده فى نسبتها الى أبى زيد السروجى وذكر القاضى الاكرم جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف الشيبانى القفطى وزير حلب فى كتابه الذى سماه أنباء الرواة فى أنباء النحاة أن أبازيد المذكور اسمه المطهر بن سلام وكان بصريا نحويا صاحب الحريرى المذكور واشتغل عليه بالبصرة وتخرج به وروى عنه وروى القاضى أبو الفتح محمد بن أحمد المندائى الواسطى عنه ملحة الاعراب للحريرى وذكر أنه سمعها منه عن الحريرى وقال قدم علينا واسط فى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة فسمعتها منه وتوجه منها مصعدا الى بغداد فوصلها وأقام بها مدة يسيرة وتوفى بها رحمه الله تعالى وكذا ذكر السمعانى فى الذيل

والعماد في الخريدة وقال لقبه فخر الدين وتولى صدرية المشان ومات بها بعد سنة أربعين وخمسمائة وأما تسمية الراوي لها بالحرث بن همام فانما عنى به نفسه هكذا وقفت عليه في بعض شروح المقامات وهو مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم كلكم حارث وكلكم همام فالحارث الكاسب والهمام كثير الاهتمام وما من شخص الا وهو حارث همام لان كل واحد كاسب ومهتم بأموره وقد اعتنى بشرحها خلق كثير فمنهم من طول ومنهم من اختصر ورأيت في بعض المجاميع أن الحريري لما عمل المقامات كان قد عملها أربعين مقامة وحملها من البصرة الى بغداد وادعاها فلم يصدقه في ذلك جماعة من أدباء بغداد وقالوا انها ليست من تصنيفه بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت أوراقه اليه فادعاها فاستدعاه الوزير الى الديوان وسأله عن صناعته فقال أنا رجل منشئ فاقترح عليه انشاء رسالة في واقعة عينها فانفرد في ناحية من الديوان وأخذ الدواة والورقة ومكث زمانا كثيرا فلم يفتح الله سبحانه عليه بشئ من ذلك فقام وهو خجلان وكان في جملة من أنكر دعواه في عملها أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر المقدم ذكره فلما لم يعمل الحريري الرسالة التي اقترحها الوزير أنشد ابن أفلح وقيل ان هذين البيتين لابي محمد بن احمد المعروف بابن جكينا الحريمي البغدادي الشاعر المشهور

شيخ لنا من ربيعة الفرس * ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان كما * رماه وسط الديوان بالخرس

وكان الحريري يزعم أنه من ربيعة الفرس وكان مولعا بنتف لحيته عند الفكرة وكان يسكن في مشان البصرة فلما رجع الى بلده عمل عشر مقامات اخر وسيرهن واعتذر من عيه وحصره في الديوان بما لحقه من المهابة وللحريري تآليف حسان منها درة الغواص في أوهام الخواص ومنها ملحة الاعراب المنظومة في النحو وله أيضا شرحها وله ديوان رسائل وشعر كثير غير شعره الذي في المقامات فمن ذلك قوله وهو معنى حسن

قال العواذل ما هذا الغرام به * أما ترى الشعر في خديه قد نبتا
فقلت والله لو أن المفند لي * تأمل الرشد في عينيه ما ثبتا
ومن أقام بارض وهي مجدبة * فكيف يرحل عنها والربيع أتى

وذكر له عماد الدين الاصبهاني في كتاب الخريدة

كم ظباء بحاجر — فتنت بالمحاجر * ونفوس نفائس — خدرت بالمخادر
وتثني الخاطر — هاج وجد الخاطر * وعذار لاجله — عاذلي عاد عاذري
* وشجون تضافرت — عند كشف الضفائر *

له قصائد استعمل فيها التجنيس كثيرا ويحكى أنه كان دميما قبيح المنظر فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ عنه شيأ فلما رآه استزرى شكله ففهم الحريرى ذلك منه فلما التمس منه أن يملى عليه قال له اكتب

ماأنت أول سار غره قمر * ورائد أعجبته خضرة الدمن
فاختر لنفسك غيرى اننى رجل * مثل المعيدى فاسمع بى ولاترنى

فخجل الرجل منه وانصرف وكانت ولادة الحريرى فى سنة ست وأربعين وأربعمائة وتوفى سنة ست عشرة وقيل خمس عشرة وخمسمائة بالبصرة فى سكة بنى حرام وخلف ولدين وقال أبو المنصور ابن الجواليقى أجازلى المقامات نجم الدين عبد الله وقاضى قضاة البصرة ضياء الاسلام عبيد الله عن أبيهما منشئها ونسبته بالحرامى الى هذه السكة رحمه الله تعالى وهى بفتح الحاء المهملة والراء وبعد الالف ميم وبنو حرام قبيلة من العرب سكنوا فى هذه السكة فنسبت اليهم والحريرى نسبة الى الحرير وعمله أو بيعه والمشان بفتح الميم والشين المعجمة وبعد الالف نون بليدة فوق البصرة كثيرة النخل موصوفة بشدة الوخم وكان أصل الحريرى منها ويقال انه كان له بها ثمانية عشر ألف نخلة وانه كان من ذوى اليسار والوزير أنوشروان المذكور كان نبيلا فاضلا جليل القدر له تاريخ لطيف سماه صدور زمان الفتور وفتور زمان الصدور نقل منه العماد الاصبهانى فى كتاب نصرة الفترة وعصرة الفطرة الذى ذكر فيه أخبار الدولة السلجوقية نقلا كثيرا وتوفى الوزير المذكور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة رحمه الله تعالى وأما ابن المندائى المذكور فهو أبو الفتح محمد بن أبى العباس أحمد ابن بختيار بن على بن محمد بن ابراهيم بن جعفر الواسطى المعروف بابن المندائى وقد أخذ عنه جماعة من الاعيان كالحافظ أبى بكر الحازمى وغيره وكانت ولادته فى شهر ربيع الآخر سنة سبع عشرة وخمسمائة بواسط وتوفى بها فى الثامن من شعبان سنة خمس وستمائة رحمه الله تعالى والمندائى بفتح الميم وسكون النون وفتح الدال المهملة ومد الهمزة والمعيدى بضم الميم وفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة مكسورة وياء مشددة وقد جاء فى المثل تسمع بالمعيدى لاأن تراه وجاء أيضا تسمع بالمعيدى خير من أن تراه وقال المفضل الضبى أول من تكلم به المنذر بن ماء السماء قاله لشقة بن ضمرة التميمى الدارمى وكان قد سمع بذكره فلما رآه اقتحمته عينه فقال له هذا المثل وسار عنه فقال له شقة أبيت اللعن ان الرجال ليسوا بجزر يراد منها الاجسام انما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فأعجب المنذر مارأى من عقله وبيانه وهذا المثل يضرب لمن له صيت وذكر ولا منظر له والمعيدى منسوب الى معد بن عدنان وقد نسبوه بعد أن صغروه وخففوا منه الدال .

(من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم الميدانى النيسابورى الاديب
(سـنة ٥١٨ هجريه)

كان أديبا فاضلا عارفا باللغة اختص بصحبة أبى الحسن الواحدى صاحب التفسير ثم قرأ على غيره وأتقن فن العربية خصوصا اللغة وأمثال العرب وله فيها التصانيف المفيدة منها كتاب الامثال المنسوب اليه ولم يعمل مثله فى بابه وكتاب السامى فى الاسامى وهو جيد فى بابه وكان قد سمع الحديث ورواه وكان ينشد كثيرا وأظنهما له

تنفس صبح الشيب فى ليل عارضى * فقلت عساه يكتفى بعـذارى
فلما فشى عاتبتـه فأجابنى * أيا هـل ترى صبحا بغـير نهـار

وتوفى يوم الاربعاء الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ثمان عشرة وخمسمائة بنيسابور ودفن على باب ميدان زياد والميدانى بفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الدال المهملة وبعد الالف نون هذه النسبة الى ميدان زياد بن عبد الرحمن وهى محلة فى نيسابور وابنه أبو سعد سعيد بن أحمد كان أيضا فاضلا دينا وله كتاب الاسمافى الاسما وتوفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة رحمهما الله تعالى

(من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الاثير الجزرى الملقب عز الدين
(سنة ٥٥٥ الى سنة ٦٣٠ هجريه)

ولد بالجزيرة ونشأ بها ثم سار الى الموصل مع والده وأخويه وسكن الموصل وسمع بها من أبى الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسى ومن فى طبقته وقدم بغـداد مرارا حاجا ورسولا من صاحب الموصل وسمع بها من الشيخين أبى القاسم يعيش بن صـدقة الفقيه الشافعى وأبى أحمد عبد الوهاب ابن على الصوفى وغيرهـما ثم رحل الى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة ثم عاد الى الموصـل ولزم بيتـه منقطعا الى التوفر على النظر فى العـلم والتصنيف وكان بيته مجمع الفضل لاهل الموصـل والواردين عليها وكان اماما فى حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيرا بانساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم صنف فى التاريخ كتابا كبيرا سماه الكامل ابتـدأ فيه من أول الزمان الى آخر سنة ثمان وعشرين وسـتمائة وهو من خيار التواريخ واختصر كتاب الانساب لابى سعد عبد الكريم السمعانى واستدرك عليـه فيه مواضع ونبه على أغلاط وزاد أشياء أهملها وهو كتاب مفيد جدا وأكثر ما يوجد اليوم بايدى الناس هـذا المختصر

وهو فى ثلاث مجلدات والاصل فى ثمان وهو عزيز الوجود ولم أره سوى مرة واحدة بمدينة حلب ولم يصل الى الديار المصرية سوى المختصر المذكور وله كتاب أخبار الصحابة رضوان الله عليهم فى ست مجلدات كبار ولما وصلت الى حلب فى أواخر سنة ست وعشرين وستمائة كان عز الدين المذكور مقيما بها فى صورة الضيف عند الطواشى شهاب الدين طغريل الخادم أتابك الملك العزيز ابن الملك الظاهر صاحب حلب وكان الطواشى كثير الاقبال عليه حسن الاعتقاد فيه مكرما له فاجتمعت به فوجدته رجلا مكملا فى الفضائل وكرم الاخلاق وكثرة التواضع فلازمت التردداد اليه وكان بينه وبين الوالد رحمه الله تعالى مؤانسة أكيدة فكان بسببها يبالغ فى الرعاية والاكرام ثم انه سافر الى دمشق فى أثناء سنة سبع وعشرين ثم عاد الى حلب فى أثناء سنة ثمان وعشرين فجريت معه على عادة الترداد والملازمة وأقام قليلا ثم توجه الى الموصل وكانت ولادته فى رابع جمادى الاولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة بجزيرة ابن عمر وهو من أهلها وتوفى فى شعبان سنة ثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى بالموصل والجزيرة المذكورة أكثر الناس يقولون انها جزيرة ابن عمر ولا أدرى من ابن عمر وقيل انها منسوبة الى يوسف بن عمر الثقفى أمير العراقين ثم انى ظفرت بالصواب فى ذلك وهو أن رجلا من أهل برقعيد من أعمال الموصل بناها وهو عبد العزيز بن عمر فاضيفت اليه ورأيت فى بعض التواريخ أنها جزيرة ابنى عمر أوس وكامل ولا أدرى أيضا من هما ثم رأيت فى تاريخ ابن المستوفى فى ترجمة أبى السعادات المبارك بن محمد أخى أبى الحسن المذكور أنه من جزيرة أوس وكامل ابنى عمر بن أوس الثعلبى (من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

(تم الجزء الاول من كتاب القطع المنتخبه ويليه الجزء الثانى وأوله الباب الاول فى الفقه)

(الباب الاول فى الفقه)

صحيفة

صحيفة

صحيفة

(الباب الثامن فى التراجم)

الجزء الثانى

(من كتاب القطع المنتخبـــــــه)

تأليف

حضرة يحيي أفنـدى ابراهـيم
قاضى بمحكمة الاستئناف

قررت نظارة المعارف العمومية بتاريخ ٨ ابريل سـنة ١٨٩٣ نمرة ٣١٣
لزوم طبع هذا الكتاب على نفقتها واستعماله بالمدارس الاميرية

(الطبعة الاولى)
بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحميـة
سـنة ١٨٩٣
افرنجيه

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الاول في الفقه

(في معرفة عدالة الشاهد)

للعدالة شرائط منها أن يكون معروفا بصحة المعاملة في الدينار والدرهم لان الرجل انما يعرف بالمعاملة لقول عمر رضي الله عنه لا يغرنكم طنطنة الرجل في صلاته انظروا الى حاله عند درهمه وديناره ومنها أن يكون مؤديا للامانة غير مخون فيها لان الشهادة عند الشاهد أمانة فيستدل باداء سائر الامانات على أداء هذه الامانة على وجهها ومنها أن يكون صدوق اللسان قليل اللغو والهذيان حتى اذا اعتاد الكذب وتعود الهذى لا تقبل شهادته لانه لا يؤمن من أن يكذب في الشهادة متى اعتاد الكذب في المقالة فأما اذا كان يقع فيه أحيانا قبلت شهادته لانه لا يسلم أحد من الذنوب ومنها أن لا يكون معاقر النبيذ يعني مداوماله وهو أن لا يشرب مع الناس فأما اذا كان يشرب وحده في السر لاستمراء الطعام لا تسقط عدالته لانه بهذا لا يصير تاركا للمروءة فلا يميل الى الكذب مخافة ذهاب ماء وجهه ومنها أن لا يلعب بشيء من الملاهي وهذا ينظران كانت مستشنعة بين الناس كالمزامير والطنابير لم تجز شهادته وان لم تكن مستشنعة نحو الحداء وضرب القصب جازت شهادته الا أن يتفاحش بان يرقصوا به فيدخل في حد المعاصي والكبائر فحينئذ تسقط العدالة ومنها أن لا يكون قاذفا للمحصنات لان قاذف المحصنات ملعون بالنص فمن كان ملعونا في الدنيا والآخرة كيف يكون مقبول الشهادة (المحيط)

(في القضاء بالصلح بين الخصمين)

الصلح مشروع لقوله تعالى فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وقوله عليه الصلاة والسلام الصلح بين المسلمين جائز الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا أي الا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا فان صالح على خمر لم يجز لانه أحل حراما وكذا لو صالح على عبد على أن لا يبيعه ولا يستخدمه فهذا صلح حرم حلالا فكان مردودا ولأن الصلح سبب لدفع الخصومة وقطع المنازعة والمشاجرة والمنازعة متى امتدت أدت الى الفساد فكان الصلح دفعا لسبب الفساد واطفاء لنائرة

الفتن والعناد وتحقيقا لسبب الاصلاح والسداد وهو الالفة والموافقة فكان حسنا مندوبا اليه شرعا وركنه الايجاب والقبول لانه معاوضة وشرائط جوازه أن يكون المال المصالح عليه معلوما ان كان يحتاج الى قبضه بان صالح على مال فى يد المدعى عليه فتى كان البدل مجهولا تقع بينهما منازعة مانعة من التسليم وأن يكون البدل المصالح عنه حقا يجوز الاعتياض عنه مالا أو لم يكن مالا كالقصاص معلوما كان أو مجهولا فالا يجوز الاعتياض عنه كحق الشفعة وحد القذف والكفالة بالنفس لا يجوز الصلح عنه وحكمه وقوع الملك فى البدل وثبوت الملك فى المصالح عنه ان كان مما يحتمل التمليك كالمال ووقوع البراءة عنه للمدعى عليه ان كان لا يحتمل التمليك كالقصاص هذا اذا كان الصلح على الاقرار وفى الصلح على انكار ثبوت الملك فى البدل ووقوع البراءة للمدعى عليه من الدعوى سواء كان المصالح عنه مالا أو لم يكن مالا واذا خشى القاضى من تفاقم الامر بين المتخاصمين أو كانا من أهل الفضل أو بينهما رحم سوى بينهما وأمرهما بالصلح وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ردوا القضاء بين ذوى الارحام حتى يصطلحوا فان فصل القضاء يورث الضغائن (تنبيه) ولا يأمر بالصلح اذا تبين له وجه الصلح لاحدهما رجاء أن لا يصطلحا الا أن يرى لذلك وجها مثل أن يرى الحكم يوقع فتنة وتهارجا (فرع) قال وينبغى للامام أن يندب الى الصلح اذا أشكل عليه وجه الحكم فان أبيا أو أبى أحدهما لم يلح عليهما الحاحا يشبه الالجاء بل يفصل بينهما بالواجب أو يترك الحكم بينهما (تنبيه) قال بعضهم انما يجوز للقاضى أن يأمر بالصلح اذا تقاربت الحجتان بين الخصمين غير أن أحدهما يكون ألحن بحجته من الآخر أو تكون الدعوى فى أمور درست وتقادمت وتشابهت وأما اذا تبين للقاضى الظالم من المظلوم فلا يسعه من الله الا فصل القضاء (معين الحكام)

(فى القضاء بما يظهر من قرائن الاحوال والامارات وحكم الفراسة والدليل على ذلك من الكتاب والسنة وعمل سلف الامة)

قال بعض العلماء على الناظر أن يلحظ الامارات والعلامات اذا تعارضت فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح وهو قوة التهمة ولا خلاف فى الحكم بها وقد جاء العمل بها فى مسائل اتفق عليها الطوائف الاربع من الفقهاء الاولى ان الفقهاء كلهم يقولون بجواز وطء الرجل المرأة اذا أهديت اليه ليلة الزفاف وان لم يشهد عنده عدلان من الرجال أن هذه فلانة بنت فلان التى عقدت عليها وان لم يستنطق النساء أن هذه امرأته اعتمادا على القرينة الظاهرة المنزلة منزلة الشهادة الثانية أن الناس قديما وحديثا لم يزالوا يعتمدون على قول الصبيان والاماء المرسل معهم بالهدايا وأنها مرسلة اليهم فيقبلون أقوالهم ويأكلون الطعام المرسل به الثالثة أنهم يعتبرون اذن الصبيان فى الدخول الى المنزل الرابعة أن الضيف يشرب من كوز صاحب البيت ويتكئ على وسادته ويقضى حاجته

فى مرحاضه من غير استئذان ولا يعد فى ذلك متصرفا فى ملكه بغير اذنه الخامسة جواز أخذ مايسقط من الانسان اذا لم يعرف صاحبه مما لا يتبعه الانسان كالفلس والتمرة والعصا التافهة الثمن ونحو ذلك السادسة جواز أخذ ما يبقى فى الحوائط والاقرحة من الثمار والحب بعد انتقال أهله عنه وتخليته وتسييبه السابعة جواز أخذ مايسقط من الحب عند الحصاد مما لا يعتنى صاحب الزرع بلقطه الثامنة أن صاحب المنزل اذا قدم الطعام للضيف جاز له الاقدام على الاكل وان لم يأذن لفظا اذا علم أن صاحب الطعام قدمه له خاصة وليس ثم غائب ينتظر حضوره اعتبارا بدلالة الحال الجارية مجرى القطع التاسعة أنه صلى الله عليه وسلم جوز للمار بثمر الغير أن يأكل من ثمره ولا يحمل منه شيأ وحمل ذلك بعضهم على غير المحوط وما ليس له حارس العاشرة جواز قضاء الحاجة فى الاقرحة والمزارع التى فيها الطرقات العظام بحيث لا ينقطع منها المارة وكذلك الصلاة فيها وان كانت مملوكة ولا يكون ذلك غصبا لها ولا تصرفا ممنوعا الحادية عشرة الشرب من المصانع الموضوعة على الطرقات وان لم يعلم الشارب اذن أربابها فى ذلك لفظا اعتمادا على دلالة الحال ولكن لا يتوضأ منها لان العرف لا يقتضيه الا أن يكون هناك شاهد حال يقتضى ذلك فلا بأس بالوضوء حينئذ الثانية عشرة قولهم فى الركاز اذا كان عليه علامة المسلمين ككلمة الشهادة سمى كنزا وهو كاللقطة وان كان عليه شكل الصليب أو الصور أو اسم ملك من ملوك الروم فهو ركاز ونص كلام صاحب الهداية هنا وان وجد ركاز أى كنز وجب الخمس عليه ثم قال فى آخره ثم ان كان على ضرب أهل الاسلام كالمكتوب عليه كلمة الشهادة فهو بمنزلة اللقطة وقد عرف حكمه وان كان على ضرب أهل الجاهلية كالمنقوش عليه اسم الصنم ففيه الخمس على كل حال انتهى فهذا عمل بالعلامات فتأمل ذلك الثالثة عشرة اذا استأجر دابة جاز له ضربها اذا قصرت فى السير وان لم يستأذن مالكها وكذلك ركوبها بالمهاميز الرابعة عشرة جواز اذن المستأجر للدار لاضيافه وأصحابه فى الدخول والمبيت وان لم يتضمن ذلك عقد الاجارة الخامسة عشرة جواز غسل المستأجر الثوب المستأجر اذا اتسخ وان لم يستأذن المؤجر فى ذلك السادسة عشرة اذا وجدنا هديا مشعرا منحورا وليس عنده أحد جاز الاكل منه للقرينة الظاهرة السابعة عشرة لو شرى طعاما أو حبا فى دار رجل فله أن يدخل داره من الدواب والرجال من يحول ذلك وان لم يأذن له المالك الثامنة عشرة القضاء بالنكول واعتباره فى الاحكام وليس الا رجوعا الى مجرد القرينة الظاهرة فقدمت على أصل براءة الذمة التاسعة عشرة قال أصحابنا اذا تنازع الزوجان فى متاع البيت فان للرجل ما يعرف للرجال وللمرأة ما يعرف للنساء العشرون معرفة رضاء البكر بصمتها اعتمادا على القرينة الشاهدة بذلك الحادية والعشرون قال أصحابنا اذا دخل الرجل بامرأته وأرخى الستر عليها ثم طلق وقال لم أمسها وقالت قد وطئنى صدقت

وكان عليه الصداق كاملا الثانية والعشرون اذا وجد فى تركة أبيه بخط أبيه أن له عند زيد كذا جاز له الدعوى بذلك اعتمادا منه على صحة ما يكتبه أبوه لما يعلمه من صدقه وتثبته فيما يضع به خطه الثالثة والعشرون اذا صاد بازيا فى رجليه سامان أوظبيا فى أذنيه قرطان أو فى عنقه سلك جوهر فليس لواجده فيه شئ وعليه أن يعرّفه كاللقطة لان ذلك قرينة على أنه مملوك لغيره الرابعة والعشرون لو اشترى سمكة فوجد فى بطنها جوهرة مثقوبة فعليه تعريفها وان كانت غير مثقوبة مما يعلم أن الملاك لم تتداولها فقال فى المحيط عن النوادر لو اشترى صدفة أو سمكة فوجد فيها لؤلؤة فهى للمشترى لانها تتولد من الصدف فصارت كالبيضة فى بطن الدجاجة والسمك يأكل ما فى البحر فصار تبعا له كما لو وجد سمكة فى بطن سمكة ولو اشترى دجاجة فوجد فى بطنها لؤلؤة فهى للبائع لانها لا تتولد من الدجاجة بل ابتلعتها من ملك الغير (المحيط)

(فى القضاء بالسياسة الشرعية)

اعلم أن السياسة نوعان سياسة ظالمة فالشرعية تحرمها وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم وتدفع كثيرا من المظالم وتردع أهل الفساد ويتوصل بها الى المقاصد الشرعية للعباد فالشرعية يجب المصير اليها والاعتماد فى اظهار الحق عليها وهى باب واسع تضل فيه الافهام وتزل فيه الاقدام واهماله يضيع الحقوق ويعطل الحدود ويجرئ أهل الفساد ويعين أهل العناد والتوسع فيه يفتح أبواب المظالم الشنيعة ويوجب سفك الدماء وأخذ الاموال الغير الشرعية ولهذا سلك فيه طائفة مسلك التفريط المذموم فقطعوا النظر عن هذا الباب الا فيما قل ظنا منهم أن تعاطى ذلك مناف للقواعد الشرعية فسدوا من طرق الحق سبلا واضحة وعدلوا الى طريق من العناد فاضحة لان فى انكار السياسة الشرعية ردا للنصوص الشرعية وتغليطا للخلفاء الراشدين وطائفة سلكت فى هذا الباب مسلك الافراط فتعدوا حدود الله وخرجوا عن قانون الشرع الى أنواع من الظلم والبدع السياسية وتوهموا أن السياسة الشرعية قاصرة عن سياسة الحق ومصلحة الامة وهو جهل وغلط فاحش فقد قال عز من قائل اليوم أكملت لكم دينكم فدخل فى هذا جميع مصالح العباد الدينية والدنيوية على وجه الكمال وقال صلى الله عليه وسلم تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتى وطائفة توسطت وسلكت فيه مسلك الحق وجمعوا بين السياسة والشرع فقمعوا الباطل ودحضوه ونصبوا الشرع ونصروه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

(معين الحكام)

كتاب الحوالة

اتفق الائمة على أنه اذا كان لانسان على آخر حق فاحاله على من له عليه حق لم يجب على المحال قبول الحوالة وقال داود يلزمه القبول وليس للمحال عليه أن يمنع من قبول الحوالة عليه ولا يعتبر رضاه عند أبي حنيفة والشافعي وقال مالك ان كان المحال عدوا للمحال عليه لم يلزمه قبولها وقال الاصطخري من أئمة الشافعية لا يلزم المحال عليه القبول مطلقا عدوا كان المحال أم لا ويحكى ذلك عن داود فاذا قبل صاحب الحق الحوالة على ملىء فقد برئ المحيل على كل وجه وبه قال الفقهاء أجمع الا زفر فقال لا يبرأ (فصل) واختلف الائمة في رجوع المحتال على المحيل اذا لم يصل الى حقه من جهة المحال عليه فذهب مالك أنه اذا غره المحيل بفلس يعلمه من المحال عليه أو عدم فان المحال يرجع على المحيل ولا يرجع في غير ذلك ومذهب الشافعي وأحمد أنه لا يرجع بوجه من الوجوه سواء غره بفلس أو تجدد الفلس أو أنكر المحال عليه أو جحده لتقصيره بعدم البحث والتفتيش فصار كأنه قبض العوض وعن أبي حنيفة أنه يرجع عند الانكار (من كتاب رحمة الامة في اختلاف الائمة)

كتاب الشركة

شركة العنان جائزة بالاتفاق وشركة المفاوضة جائزة عند أبي حنيفة ومالك الا أن أبا حنيفة يخالف مالكا في صورتها فيقول المفاوضة أن يشترك الرجلان في جميع ما يملكانه من ذهب وورق ولا يبقى لواحد منهما شيء من هذين الجنسين الا مثل مال صاحبه فاذا زاد مال أحدهما على مال الآخر لم يصح حتى لو ورث أحدهما مالا بطلت الشركة لان ماله زاد على مال صاحبه وكل ما ربحه أحدهما كان شركة بينهما وكل ما ضمن أحدهما من غصب وغيره ضمن الآخر ومالك يقول يجوز أن يزيد ماله على مال صاحبه ويكون الربح على قدر المالين وما ضمنه أحدهما مما هو لتجارتهما فبينهما وأما الغصب ونحوه فلا ولا فرق عند مالك بين أن يكون رأس مالهما عروضا أو دراهم ولا بين أن يكونا شريكين في كل ما يملكانه ويجعلانه للتجارة أو في بعض ماليهما وسواء عنده اختلط مالهما حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر أو كان متميزا بعد أن يجمعاه وتصير أيديهما جميعا عليه في الشركة وأبو حنيفة قال تصح الشركة وان كان مال كل واحد منهما في يده وان لم يجمعاه ومذهب الشافعي وأحمد أن هذه الشركة باطلة (فصل) وشركة الابدان جائزة عند مالك وأحمد في الصنائع اذا اشتركا في صنعة واحدة وعملا في موضع واحد وقال أبو حنيفة بجوازها وان اختلفت صناعتهما وافترق موضعاهما وجوزها أحمد في كل شيء ومذهب الشافعي أنها باطلة (فصل) وشركة الوجوه جائزة عند أبي حنيفة وأحمد وصورتها أن لا يكون لهما رأس مال ويقول أحدهما للآخر اشتركنا

على أن ما اشترى كل واحد منا فى الذمة كان شركة والربح بيننا ومذهب مالك والشافعى أنها باطلة (فصل) ولا يصح عند الشافعى الا شركة العنان بشرط أن يكون رأس مالهما نوعا واحدا ويخلط كل حتى لا يتميز عين أحدهما من عين الآخر ولا تعرف ولا يشترط تساوى قدر المالين واذا كان رأس مالهما متساويا واشترط أحدهما أن يكون له من الربح أكثر مما لصاحبه فالشركة فاسدة عند مالك والشافعى وقال أبو حنيفة يصح ذلك ان كان المشترط لذلك أحذق فى التجارة وأكثر عملا (من كتاب رحمة الامة فى اختلاف الائمة)

(كتاب التفليس والحجر)

اتفق الثلاثة مالك والشافعى وأحمد على أن الحجر على المفلس عند طلب الغرماء واحاطة الديون بالمدين مستحق على الحاكم وأن له منعه عن التصرف حتى لا يضر بالغرماء وأن الحاكم يبيع أموال المفلس اذا امتنع من بيعها ويقسمها بين غرمائه بالحصص وقال أبو حنيفة لا يحجر على المفلس بل يحبس حتى يقضى الديون فان كان له مال لم يتصرف الحاكم فيه ولا يبيعه الا أن يكون ماله دراهم ودينه دراهم فيقبضها القاضى بغير أمره وان كان دينه دراهم وماله دنانير باعها القاضى فى دينه (فصل) واختلفوا فى تصرفات المفلس فى ماله بعد الحجر عليه فقال أبو حنيفة لا يحجر عليه فى تصرفه وان حكم به قاض لم ينفذ قضاؤه ما لم يحكم به قاض ثان واذا لم يصح الحجر عليه صحت تصرفاته كلها سواء احتملت الفسخ أو لم تحتمل فان نفذ الحجر قاض ثان صح من تصرفاته ما لا يحتمل الفسخ كالنكاح والطلاق والتدبير والعتق والاستيلاد وبطل ما يحتمل الفسخ كالبيع والاجارة والهبة والصدقة ونحو ذلك وقال مالك لا ينفذ تصرفه فى أعيان ماله ببيع ولا هبة ولا عتق وعن الشافعى قولان أحدهما وهو الاظهر كمذهب مالك والثانى تصح تصرفاته وتكون موقوفة فان قضيت الديون من غير نقض التصرف نفذ التصرف وان لم تقض الا بنقضه فسخ منها الاضعف فالاضعف فيبدأ بالهبة ثم البيع ثم العتق وقال أحمد فى أظهر روايتيه لا ينفذ تصرفه فى شئ الا فى العتق خاصة (فصل) ولو كان عند المفلس سلعة وأدركها صاحبها ولم يكن البائع قبض من ثمنها شيأ والمفلس حى قال مالك والشافعى وأحمد صاحبها أحق بها من الغرماء فيفوز بأخذها دونهم وقال أبو حنيفة صاحبها كأحد الغرماء يقاسمونه فيها فلو وجدها صاحبها بعد موت المفلس ولم يكن قبض من ثمنها شيأ قال الشافعى وحده هو أحق بها كما لو كان المفلس حيا وقال الثلاثة صاحبها اسوة الغرماء (فصل) الدين اذا كان مؤجلا هل يحل بالحجر أم لا قال مالك يحل وقال أحمد لا يحل وللشافعى قولان كالمذهبين وأصحهما لا يحل وأبو حنيفة لا حجر عنده مطلقا وهل يحل الدين بالموت الثلاثة على أنه يحل وقال أحمد وحده لا يحل فى أظهر روايتيه اذا وثق الورثة ولو أقر المفلس بدين

بعد الحجر تعلق الدين بذمته ولم يشارك المقر له الغرماء الذين حجر عليه لأجلهم عند الثلاثة وقال الشافعي يشاركهم (فصل) هل تباع دار المفلس التي لا غنى له عن سكناها وخادمه المحتاج اليه قال أبو حنيفة وأحمد لا يباع ذلك وزاد أبو حنيفة فقال لا يباع عليه شيء من العقار والعروض وقال مالك والشافعي يباع ذلك كله (فصل) واذا ثبت اعساره عند الحاكم فهل يحول الحاكم بينه وبين غرمائه أم لا قال أبو حنيفة يخرجه الحاكم من الحبس ولا يحول بينه وبين غرمائه بعد خروجه بل يلازمونه ولا يمنعونه من التصرف ويأخذون فضل كسبه بالحصص وقال مالك والشافعي وأحمد يخرجه الحاكم من الحبس ولا يفتقر اخراجه الى اذن غرمائه ويحول بينه وبينهم ولا يجوز حبسه بعد ذلك ولا ملازمته بل ينظر الى ميسرته (فصل) واتفقوا على أن البينة تسمع على الاعسار بعد الحبس واختلفوا هل تسمع قبله فقال مالك والشافعي وأحمد تسمع قبله وظاهر مذهب أبي حنيفة أنها لا تسمع الا بعده واذا أقام المفلس بينة باعساره فهل يحلف بعد ذلك أم لا قال أبو حنيفة وأحمد لا يحلف وقال مالك والشافعي يحلف بطلب الغرماء (فصل) واتفقوا على أن الاسباب الموجبة للحجر الصغر والرق والجنون وأن الغلام اذا بلغ غير رشيد لم يسلم اليه ماله واختلفوا في حد البلوغ فقال أبو حنيفة بلوغ الغلام بالاحتلام والانزال اذا وطئ فان لم يوجد ذلك فحتى يتم له ثمان عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وبلوغ الجارية بالحيض والاحتلام والحبل أو حتى يتم لها سبع عشرة سنة وأما مالك فلم يحد فيه حدا وقال أصحابه سبع عشرة سنة أو ثمان عشرة سنة في حقهما وفي رواية ابن وهب خمس عشرة سنة وقال الشافعي وأحمد في أظهر روايتيه حده في حقهما خمس عشرة سنة أو خروج المني أو الحيض أو الحبل ونبات العانة هل يقتضي الحكم بالبلوغ أم لا قال أبو حنيفة لا وقال مالك وأحمد نعم والراجح من مذهب الشافعي أنه يحكم بالبلوغ به في حق الكافر لا المسلم (فصل) واذا أونس من صاحب المال الرشد دفع اليه ماله بالاتفاق واختلفوا في الرشد ما هو فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد هو في الغلام اصلاح ماله ونماؤه لتمييزه وعدم تبذيره ولم يراعوا عدالة ولا فسقا وقال الشافعي هو صلاح المال والدين وهل بين الغلام والجارية فرق قال أبو حنيفة والشافعي لا فرق بينهما وقال مالك لا يفك الحجر عنها وان بلغت رشيدة حتى تتزوج ويدخل بها الزوج وتكون حافظة لمالها كما كانت قبل التزويج وعن أحمد روايتان المختارة منهما لا فرق بينهما والثانية كقول مالك وزاد حتى يحول عليها حول عنده أو تلد ولدا واتفق الثلاثة على أن الصبي اذا بلغ وأونس منه الرشد دفع اليه ماله فان بلغ غير رشيد لم يدفع اليه ماله ويستمر محجورا عليه وقال أبو حنيفة اذا انتهى سنه الى خمس وعشرين سنة دفع اليه المال بكل حال واذا طرأ عليه السفه بعد ايناس رشده هل يحجر عليه أم لا قال الشافعي

ومالك وأحمد يحجر عليه وقال أبو حنيفة لا يحجر عليه وإن كان مبذرا ويجوز للاب والوصى أن يشتريا لانفسهما من مال اليتيم وأن يبيعا مال أنفسهما بمال اليتيم اذا لم يحابيا أنفسهما عند مالك (من كتاب رحمة الامة فى اختلاف الائمة)

كتاب الشفعة

تثبت للشريك فى الملك باتفاق الائمة ولا شفعة للجار عند مالك والشافعى وأحمد وقال أبو حنيفة تجب الشفعة بالجوار والشفعة عند أبى حنيفة وعلى الراجح من مذهب الشافعى على الفور فمن أخر المطالبة بالشفعة مع الامكان سقط حقه كخيار الرد وللشافعى قول آخر أنه يبقى حقه ثلاثة أيام وله قول آخر أنه يبقى أبدا لا يسقط الا بالتصريح بالاسقاط وأما مذهب مالك فاذا بيع المشفوع والشريك حاضر يعلم بالبيع فله المطالبة بالشفعة متى شاء ولا تنقطع شفعته الا باحد أمرين الاول بمضى مدة يعلم أنه فى مثلها قد أعرض عن الشفعة ثم روى عن مالك أن تلك المدة سنة وروى خمس سنين الثانى أن يرفعه المشترى الى الحاكم ويلزمه الحاكم بالاخذ أو الترك غير أن الحاصل من مذهب مالك أنها ليست على الفور وعن أحمد روايات احداها على الفور والثانية مؤقتة بالمجلس والثالثة على التراخى فلا تبطل أبدا حتى يعفو أو يطالبه (فصل) والثمرة اذا كانت على النخل وهى بين شريكين فباع أحدهما حصته فهل لشريكه الشفعة أم لا اختلف فى ذلك قول مالك فقال فى رواية له الشفعة وقال فى أخرى لا شفعة له وقال أبو حنيفة له الشفعة وقال الشافعى وأحمد لا شفعة له (فصل) واذا كان ثمن الشفعة مؤجلا فالشفيع عند مالك وأحمد الاخذ بذلك الثمن الى ذلك الاجل ان كان مليا ثقة والا أتى بثقة ملى يضمن الثمن الى ذلك الاجل وبهذا قال الشافعى فى القديم وقال أبو حنيفة والشافعى فى الجديد الراجح من مذهبه للشفيع الخيار بين أن يعجل الثمن ويأخذ الشقص المشفوع أو يصبر الى حلول الاجل فيزن الثمن ويأخذ بالشفعة (فصل) والشفعة مقسومة بين الشفعاء على قدر حصصهم فى المال الذى استوجبوا من جهته الشفعة فيأخذ كل واحد من الشركاء من المبيع بقدر ملكه فيه عند مالك وهو الاصح من قولى الشافعى وقال أبو حنيفة هى مقسومة على الرؤس وهو قول للشافعى واختاره المزنى وعن أحمد روايتان (فصل) والشفعة تورث عند مالك والشافعى ولا تبطل بالموت فاذا وجبت له شفعة فمات ولم يعلم بها أو علم ومات قبل التمكن من الاخذ انتقل الحق الى الوارث وقال أبو حنيفة تبطل بالموت ولا تورث وقال أحمد لا تورث الا أن يكون الميت طالب بها (فصل) ولو بنى مشترى الشقص أو غرس ثم طالبه الشفيع فليس له عند مالك والشافعى وأحمد مطالبة المشترى بهدم ما بنى

ولا قلع ما غرس مضافا الى الثمن وقال أبو حنيفة للشفيع أن يجبر المشترى على القلع والهدم قال فى عيون المسائل وذهب قوم الى أن للشفيع أن يعطيه ثمن الشقص ويترك البناء والغراس فى موضعه (فصل) وكل ما لا ينقسم كالحمام والبئر والرحى والطريق والباب لا شفعة فيه عند الشافعي واختلف قول مالك فقال فيه الشفعة وقال لا شفعة فيه واختار القاضي عبد الوهاب الاول قال وهو قول أبي حنيفة وعهدة الشفيع فى المبيع على المشترى وعهدة المشترى على البائع عند جمهور العلماء فاذا ظهر المبيع مستحقا أخذه مستحقه من يد الشفيع ورجع الشفيع بالثمن على المشترى ثم يرجع المشترى على البائع وقال ابن أبي ليلى عهدة الشفيع على البائع بكل حال (فصل) اختلف الائمة هل يجوز الاحتيال لاسقاط الشفعة مثل أن يبيع بسلعة مجهولة عند من يرى ذلك مسقطا للشفعة أو أن يقر له ببعض الملك ثم يبيعه الباقى أو يهبه له فقال أبو حنيفة والشافعي له ذلك وقال مالك وأحمد ليس له ذلك فاذا وهبه من غير عوض فلا شفعة فيه عند أبي حنيفة والشافعي وكذلك يقول أحمد بل لابد أن يكون قد ملك بعوض واختلف قول مالك فى ذلك فقال لا شفعة فيه وقال فيه الشفعة (فصل) واذا وجبت له الشفعة فبذل له المشترى دراهم على ترك الاخذ بالشفعة جاز له أخذها وتملكها عند الثلاثة وقال الشافعي لا يجوز له ذلك ولا يملك الدراهم وعليه ردها وهل تسقط شفعته بذلك لاصحابه وجهان (فصل) واذا ابتاع اثنان من الشركاء نصيبهما صفقة واحدة كان للشفيع عند الشافعي وأحمد أخذ نصيب أحدهما بالشفعة كما لو أخذ نصيبهما جميعا وقال مالك ليس له أخذ حصة أحدهما دون الآخر بل اما أن يأخذهما جميعا أو يتركهما جميعا وبه قال أبو حنيفة (فصل) ولو أقر أحد الشريكين أنه باع نصيبه من رجل وأنكر الرجل الشراء ولا بينة وطلب الشفيع الشفعة قال مالك ليس له ذلك الا بعد ثبوت الشراء وقال أبو حنيفة تثبت الشفعة وهو الاصح من مذهب الشافعي لان اقراره يتضمن اثبات حق المشترى وحق الشفيع فلا يبطل حق الشفيع بانكار المشترى وتثبت الشفعة للذمى كما تثبت للمسلم عند مالك وأبي حنيفة والشافعي وقال أحمد لا شفعة للذمى

(من كتاب رحمة الامة فى اختلاف الائمة)

(كتاب الوصايا)

الوصية تمليك مضاف الى ما بعد الموت وهى جائزة مستحبة غير واجبة بالاجماع لمن ليست عنده أمانة يجب عليه الخروج منها ولا عليه دين لا يعلم به من هو له أو ليست عنده وديعة بغير اشهاد فان كانت ذمته متعلقة بشىء من ذلك كانت الوصية واجبة عليه فرضا وهى مستحبة لغير وارث بالاجماع وقال الزهرى وأهل الظاهر ان الوصية واجبة للاقارب الذين لا يرثون الميت سواء كانوا عصبة

أو ذوي رحم اذا كان هناك وارث غيرهم (فصل) والوصية لغير وارث بالثلث جائزة بالاجماع ولا تفتقر الى اجازة وللوارث جائزة موقوفة على اجازة الورثة واذا أوصى بأكثر من ثلثه وأجاز الورثة ذلك فمذهب مالك أنهم اذا أجازوا في مرضه لم يكن لهم أن يرجعوا بعد موته أو في صحته فلهم الرجوع بعد موته وقال أبو حنيفة والشافعي لهم الرجوع سواء كان في صحته أو في مرضه (فصل) ومن أوصى له بجمل أو بعير جاز عند الثلاثة أن يعطى أنثى وكذلك ان أوصى له ببدنة أو بقرة جاز أن يعطى ذكرا فالذكر والانثى عندهم سواء وقال الشافعي لا يجوز في البعير الا الذكر ولا في البدنة والبقرة الا الانثى (فصل) اجازة الورثة هل هي تنفيذ لما كان أمر به الموصي أم عطية مبتدأة الثلاثة تنفيذ وللشافعي قولان أصحهما كالجماعة وهل يملك الموصى له بموت الموصي أم بقبوله أم موقوف ثلاثة أقوال للشافعي أرجحها أنه موقوف وعند الثلاثة بقبوله واذا أوصى بشئ لرجل ثم أوصى به لآخر ولم يصرح برجوع عن الاول فهو بينهما نصفين بالاتفاق وقال الحسن وعطاء وطاووس هو رجوع ويكون للثاني وقال داود هو للاول (فصل) والعتق والهبة والوقف وسائر العطايا المنجزة في مرض الموت معتبرة من الثلث بالاتفاق وقال مجاهد وداود هي منجزة من رأس المال واختلف فيما اذا قدم ليقتص منه أو كان في الصف بازاء العدو أو جاء الحامل الطلق أو هاج الموج بالبحر وهو راكب سفينة فأعطى فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد في المشهور عنه ان عطايا هؤلاء من الثلث وعن الشافعي قولان أصحهما من الثلث والثاني من جميع المال وحكي عن مالك أن الحامل اذا بلغت تسعة أشهر لم تتصرف في أكثر من ثلث مالها (فصل) وللوصي أن يوصي بما أوصى به اليه غيره وان لم يكن الموصي جعل ذلك اليه هذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه ومالك ومنع من ذلك الشافعي وأحمد في أظهر الروايتين واذا كان الوصي عدلا لم يحتج الى حكم الحاكم وتنفيذ الوصية اليه ويصح جميع تصرفه عند الثلاثة وقال أبو حنيفة ان لم يحكم له حاكم فجميع ما يشتريه ويبيعه للصبي مردود وما ينفق عليه فقوله فيه مقبول (فصل) ويشترط بيان ما يوصي به وتعيينه فان أطلق الوصية فقال أوصيت اليك لم يصح عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد وكان ذلك لغوا وقال مالك يصح وتكون وصية في كل شئ وعن مالك رواية أخرى أنه لا يكون وصيا فيما عينه واذا أوصى لاقاربه أو عقبه لم يدخل أولاد البنات فيهم عند مالك فان أولاد البنات عنده ليسوا بعقب ويعطى الاقرب فالاقرب وقال أبو حنيفة أقاربه ذو رحمه ولا يعطى ابن العم ولا ابن الخال وقال الشافعي اذا قال لاقاربي دخل كل قرابة وان بعد لا أصلا وفرعا واذا قال لذريتي وعقبي دخل أولاد البنات وقال أحمد في احدى روايتيه من كان يصله في حياته فيصرف اليه والا فالوصية لاقاربه من جهة أبيه ولو أوصى لجيرانه فقال أبو حنيفة هم الملاصقون وقال الشافعي حد الجوار أربعون دارا

من كل جانب وعن أحمد روايتان أربعون وثلاثون ولا حد لذلك عند مالك (فصل) والوصية للميت عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد باطلة وقال مالك بصحتها فان كان عليه دين أو كفارة صرفت فيه والا كانت لورثته ولو أوصى لرجل بألف ولم يكن حاضرا الا ألف وباقي ماله غائب أو باقي ماله عقار أو دين وشح الورثة وقالوا لا ندفع الى الموصى له الا ثلث الالف فعند مالك ليس لهم ذلك وقال أبو حنيفة والشافعي وأحمد له ثلث الالف ويكون بباقي حقه شريكا في جميع ما خلفه الموصي يستوفي حقه (فصل) واذا أوصى غلام لم يبلغ الحلم وكان يعقل ما يوصي به فوصيته جائزة عند مالك وقال أبو حنيفة بعدم الجواز واختلف قول الشافعي والاصح من مذهبه أنها لا تصح وهو مذهب أحمد (فصل) ولو اعتقل لسان المريض فهل تصح وصيته بالاشارة أم لا قال أبو حنيفة وأحمد لا تصح وقال الشافعي تصح والظاهر من مذهب مالك جواز ذلك (فصل) واذا قبل الموصى اليه الوصية في حياة الموصي لم يكن له عند أبي حنيفة ومالك أن يرجع بعد موته قال أبو حنيفة ولا في حياة الموصي الا أن يكون الموصي حاضرا وقال الشافعي وأحمد له الرجوع على كل حال وعزل نفسه متى شاء قال النووي الا أن يتعين عليه أو يغلب على ظنه تلف المال باستيلاء ظالم عليه (فصل) واذا كتب وصية بخطه ويعلم أنه خطه ولم يشهد فيها فهل يحكم بها كما يحكم لو أشهد على نفسه بها الثلاثة على أنه لا يحكم بها وقال أحمد يحكم بها ما لم يعلم رجوعه عنها ولو أوصى الى رجلين وأطلق فهل لاحدهما التصرف دون الآخر قال الثلاثة لا يجوز مطلقا وقال أبو حنيفة يجوز في ثمانية أشياء مخصوصة شراء الكفن وتجهيز الميت واطعام الصغار وكسوتهم ورد وديعة بعينها وقضاء دين وانفاذ وصية بعينها وعتق عبد بعينه والخصومة في حقوق الميت (فصل) واختلفوا هل يصح التزويج في مرض الموت فقال الثلاثة يصح وقال مالك لا يصح للمريض المخوف عليه فان تزوج وقع فاسدا او فسخ سواء دخل بها أو لم يدخل ويكون الفسخ بالطلاق فان برئ من المرض فهل يصح ذلك النكاح أم يبطل عنه في ذلك روايتان ولو كان له ثلاثة أولاد فأوصى لآخر بمثل نصيب أحدهم قال الثلاثة له الربع وقال مالك له الثلث ولو أوصى بجميع ماله ولا وارث له قال أبو حنيفة الوصية صحيحة وهي رواية عن أحمد وقال الشافعي ومالك في رواية عنه وأحمد في الرواية الاخرى لا يصح الا في الثلث ولو وهب أو أعتق ثم أعتق في مرضه وعجز الثلث فقال الثلاثة يتحاصان وقال الشافعي يبدأ بالاول وهي رواية عن أحمد (فصل) هل يجوز للوصي أن يشتري لنفسه شيأ من مال اليتيم قال أبو حنيفة يجوز بزيادة على القيمة استحسانا فان اشتراه بمثل قيمته لم يجز وقال مالك له أن يشتريه بالقيمة وقال الشافعي لا يجوز على الاطلاق وعن أحمد روايتان أشهرهما عدم الجواز والاخرى اذا وكل غيره جاز (فصل) واذا ادعى الوصي دفع المال الى اليتيم بعد بلوغه

قال أبو حنيفة وأحمد القول قول الوصي مع يمينه فيقبل قوله كما يقبل في اتلاف المال وما يدعيه من الاتلاف لكونه أمينا وكذا الحكم في الاب والحاكم والشريك والمضارب وقال مالك والشافعي لا يقبل قول الوصي الا ببينة (فصل) والوصية للقاتل صحيحة عند أبي حنيفة ومالك وأحمد وللشافعي قولان أصحهما الصحة ولو أوصى لمسجد قال مالك والشافعي وأحمد تصح الوصية وقال أبو حنيفة لا تصح الا أن يقول ينفق عليه ولو أوصى لبني فلان لم يدخل الا الذكور بالاتفاق ويكون بينهم بالسوية ولو أوصى لولد فلان دخل الذكور والاناث بالاتفاق بينهم بالسوية (فصل) والوصي مع الغنى هل يجوز له أن يأكل من مال اليتيم عند الحاجة أم لا مذهب أبي حنيفة لا يأكل بحال لا قرضا ولا غيره وقال الشافعي وأحمد يجوز له أن يأكل بأقل الامرين من أجرة عمله وكفايته وهل يلزمه عند الوجود رد العوض للشافعي قولان ولاحمد روايتان وقال مالك ان كان غنيا فليستعفف وان كان فقيرا فليأكل بالمعروف بمقدار نظره وأجرة مثله

(من كتاب رحمة الامة في اختلاف الائمة)

(فصل كيف كان فرض عمر لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم)

قال أبو يوسف رحمه الله تعالى وحدثني ابن أبي نجيح قال قدم على أبي بكر رضي الله تعالى عنه مال فقال من كان له عند النبي صلى الله عليه وسلم عدة فليأت فجاءه جابر بن عبد الله فقال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا يشير بكفيه فقال له أبو بكر رضي الله تعالى عنه خذ فأخذ بكفيه ثم عده فوجده خمسمائة فقال خذ اليها ألفا فأخذ ألفا ثم أعطى كل انسان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعده شيأ وبقي بقية من المال فقسمها بين الناس بالسوية على الصغير والكبير والحر والمملوك والذكر والانثى فخرج على سبعة دراهم وثلث لكل انسان فلما كان العام المقبل جاء مال كثير هو أكثر من ذلك فقسمه بين الناس فأصاب كل انسان عشرين درهما قال فجاء ناس من المسلمين فقالوا يا خليفة رسول الله انك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم قال فقال أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفني بذلك وانما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه وهذا معاش فالاسوة فيه خير من الاثرة فلما كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وجاءت الفتوح فضل وقال لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه ففرض لاهل السوابق والقدم من المهاجرين والانصار ممن شهد بدرا خمسة آلاف خمسة آلاف ولمن لم يشهد بدرا أربعة آلاف أربعة آلاف وفرض لمن كان له اسلام كاسلام أهل بدر دون ذلك أنزلهم

على قدر منازلهم من السوابق قال أبو يوسف وحدثني أبو معشر قال حدثني مولى عمرة وغيره قال لما جاءت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الفتوح وجاءت الاموال قال ان أبا بكر رضي الله تعالى عنه رأى في هذا المال رأيا ولي فيه رأى آخر لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه ففرض للمهاجرين والانصار ممن شهد بدرا خمسة آلاف وفرض لمن كان اسلامه كاسلام أهل بدر ولم يشهد بدرا أربعة آلاف أربعة آلاف وفرض لازواج النبي صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألفا اثني عشر ألفا الا صفية وجويرية فانه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف فأبتا أن يقبلا فقال لهما انما فرضت لهن للهجرة فقالتا انما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لنا مثله فعرف ذلك عمر ففرض لهما اثني عشر ألفا وفرض للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألفا وفرض لاسامة بن زيد أربعة آلاف وفرض لعبد الله ابن عمر ابنه ثلاثة آلاف فقال يا أبت لم زدته علي ألفا ما كان لابيه من الفضل مالم يكن لابي وما كان له مالم يكن لي فقال ان أبا أسامة كان أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك وكان أسامة أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف خمسة آلاف ألحقهما بأبيهما لمكانهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض لابناء المهاجرين والانصار ألفين ألفين فمر به عمر بن أبي سلمة فقال زيدوه ألفا فقال له محمد بن عبد الله بن جحش ما كان لابيه مالم يكن لآبائنا وما كان له مالم يكن لنا فقال اني فرضت له بابيه أبي سلمة ألفين وزدته بامه أم سلمة ألفا فان كان لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفا وفرض لاهل مكة والناس ثمانمائة ثمانمائة فجاءه طلحة بن عبيد الله باخيه عثمان ففرض له ثمانمائة فمر به النضر بن أنس فقال عمر افرضوا له ألفين فقال له طلحة جئتك بمثله ففرضت له ثمانمائة وفرضت لهذا ألفين فقال ان أبا هذا لقيني يوم أحد فقال ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ما أراه الا قد قتل فسل سيفه وكسر غمده فقال ان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل فان الله حي لا يموت فقاتل حتى قتل وأبو هذا يرعى الشاة في مكان كذا وكذا فعمل عمر بهذا خلافته قال وحدثني محمد بن اسحق عن أبي جعفر أن عمر رضي الله عنه لما أراد أن يفرض للناس وكان رأيه خيرا من رأيهم قالوا له ابدأ بنفسك قال لا فبدأ بالاقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرض للعباس ثم لعلي رضي الله تعالى عنهما حتى والى بين خمس قبائل حتى انتهى الى بني عدي بن كعب قال وحدثنا المجالد بن سعيد عن الشعبي عمن شهد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال لما فتح الله عليه وفتح فارس والروم جمع ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما ترون فاني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنة وأجمع المال فانه أعظم للبركة قالوا اصنع ما رأيت فانك ان شاء الله موفق قال ففرض الاعطيات

فدعا باللوح فقال بمن أبدأ فقال له عبد الرحمن بن عوف ابدأ بنفسك فقال لا والله ولكن أبدأ ببنى هاشم رهط النبى صلى الله عليه وسلم فكتب من شهد بدرا من بنى هاشم من مولى أو عربى لكل رجل منهم خمسة آلاف وفرض للعباس بن عبد المطلب اثنى عشر ألفا ثم فرض لمن شهد بدرا من بنى أمية ابن عبد شمس ثم الاقرب فالاقرب الى بنى هاشم ففرض للبدريين أجمعين عربيهم ومولاهم خمسة آلاف وفرض للانصار أربعة آلاف فكان أول أنصارى فرض له محمد بن مسلمة وفرض لازواج النبى صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف عشرة آلاف وفرض لعائشة رضى الله عنها اثنى عشر ألفا وفرض لمهاجرة الحبشة أربعة آلاف أربعة آلاف لكل رجل منهم وفرض لعمر بن أبى سلمة لمكان أم سلمة أربعة آلاف فقال محمد بن عبد الله بن جحش لم تفضل عمر علينا ألهجرة أبيه فقد هاجر آباؤنا وشهدوا بدرا فقال عمر رضى الله تعالى عنه أفضله لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فليأت الذى يستعتب بام مثل أمه أعتبه وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف لمكانهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم فرض للناس ثلاثمائة ثلاثمائة وأربعمائة أربعمائة للعربى والمولى وفرض لنساء المهاجرين والانصار ستمائة ستمائة وأربعمائة أربعمائة وثلاثمائة ثلاثمائة ومائتين مائتين وفرض لاناس من المهاجرين والانصار ألفين ألفين وفرض للرفيل حين أسلم ألفين وقال له دع أرضى فى يدى أعمرها وأؤدى عنها من الخراج ما كانت تؤدى ففعل قال مجالد فكانت عمة لى أعطاها مائتين فلما أمر سعيد بن العاص على الكوفة ألغى أحدهما فلما قدم على كرم الله وجهه دخل على عائذ الجدى فكلمته فيها فأثبتها لها قال أبو يوسف وحدثنى محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قدمت من البحرين بخمسمائة ألف درهم فأتيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ممسيا فقلت يا أمير المؤمنين اقبض هذا المال قال وكم هو قلت خمسمائة ألف درهم قال وتدرى كم خمسمائة ألف درهم قال قلت نعم مائة ألف ومائة ألف خمس مرات قال أنت ناعس اذهب فبت الليلة حتى تصبح فلما أصبحت أتيته فقلت اقبض منى هذا المال قال وكم هو قلت خمسمائة ألف درهم قال أمن طيب هو قال قلت لا أعلم الا ذلك فقال عمر رضى الله عنه أيها الناس انه قد جاءنا مال كثير فان شئتم أن نكيل لكم كلنا وان شئتم أن نعد لكم عددنا وان شئتم أن نزن لكم وزنا لكم فقال رجل من القوم يا أمير المؤمنين دوّن للناس دواوين يعطون عليها فاشتهى عمر ذلك ففرض للمهاجرين خمسة آلاف وللانصار ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ولازواج النبى صلى الله عليه وسلم اثنى عشر ألفا قال فلما أتى زينب ابنة جحش مالها قالت غفر الله لامير المؤمنين لقد كان فى صواحباتى من هو أقوى على قسمة هذا المال منى فقيل لها ان هذا كله لك فأمرت به

فصب وغطته بثوب ثم قالت لبعض من عندها أدخلى يدك لآل فلان وآل فلان فلم تزل تعطى لآل فلان وآل فلان حتى قالت لها التى تدخل يدها الا أراك تذكرينى ولى عليك حق فقالت لك ما تحت الثوب قال فكشفت الثوب فاذا خمسة وثمانون درهما قال ثم رفعت يدها فقالت اللهم لا يدركنى عطاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد عامى هذا أبدا قال فكانت رضى الله تعالى عنها أول أزواج النبى لحوقا به عليه السلام وذكر لنا أنها كانت أسخى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأعطاهن وجعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى زيد بن ثابت عطاء الانصار فبدأ بأهل العوالى فبدأ ببنى عبد الاشهل ثم الاوس لبعد منازلهم ثم الخزرج حتى كان هو آخر الناس وهم بنو مالك بن النجار وهم حول المسجد قال أبو يوسف وحدثنى عبد الله بن الوليد المدنى عن موسى ابن يزيد قال حمل أبو موسى الاشعرى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ألف ألف فقال عمر بكم قدمت فقال بألف ألف قال فأعظم ذلك عمر وقال هل تدرى ماتقول قال نعم قدمت بمائة ألف ومائة ألف حتى عد عشر مرات فقال عمر ان كنت صادقا ليأتين الراعى نصيبه من هذا المال وهو باليمن ودمه فى وجهه قال أبو يوسف وحدثنى شيخ من أهل المدينة عن اسمعيل بن محمد بن السائب عن زيد عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول والله الذى لا اله الا هو ما أحد الا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك وما أنا فيه الا كأحدكم ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فالرجل وتلاده فى الاسلام والرجل وقدمه فى الاسلام والرجل وغناؤه فى الاسلام والرجل وحاجته فى الاسلام والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه يعنى فى طلبه قال وكان ديوان حمير على حدة وكان يفرض لامراء الجيوش والقرى فى العطاء ما بين تسعة آلاف وثمانية آلاف وسبعة آلاف على قدر مايصلحهم من الطعام وما يقومون به من الامور قال وكان للمنفوس اذا طرحته أمه مائة درهم فاذا ترعرع بلغ به مائتين فاذا بلغ زاده قال ولما رأى المال قد كثر قال لئن عشت الى هذه الليلة من قابل لالحقن أخرى الناس بأولاهم حتى يكونوا فى العطاء سواء قال فتوفى رحمه الله قبل ذلك قال أبو يوسف وحدثنى على بن عبد الله عن الزهرى عن سعيد بن المسيب رضى الله تعالى عنه قال لما قدم على عمر رضى الله تعالى عنه بأخماس فارس قال والله لا يجنها سقف دون السماء حتى أقسمها بين الناس قال فأمر بها فوضعت بين صفى المسجد وأمر عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم فباتا عليها ثم غدا عمر رضى الله تعالى عنه بالناس عليه فأمر بالجلابيب فكشفت عنها فنظر عمر الى شئ لم تر عيناه مثله من الجوهر واللؤلؤ والذهب والفضة فبكى فقال له عبد الرحمن بن عوف هذا من مواقف الشكر فما يبكيك فقال أجل

ولكن الله لم يعط قوما هذا الا ألقى بينهم العداوة والبغضاء ثم قال أنحثو لهم أو نكيل لهم بالصاع قال ثم أجمع رأيه على أن يحثو لهم فخالفهم قال وهذا قبل أن يدون الدواوين قال أبو يوسف وحدثنا الاعمش عن ابي اسحق عن جارية بن مضرب أن عمر رضى الله تعالى عنه سأل كم يكفي العيل قال وأمر بجريب يكون سبعة أقفزة فخبز وجمع عليه ثلاثين مسكينا فاشبعهم وفعل بالعشى مثله قال فمن ثم جعل للعيل جريبين فى الشهر قال وحدثنى شيخ لنا قديم قال حدثنى أشياخى قالوا كان لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أربعة آلاف فرس موسومة فى سبيل الله تعالى فاذا كان فى عطاء الرجل خفة أو كان محتاجا أعطاه الفرس وقال له ان أعييته أو ضيعته من علف أو شرب فانت ضامن وان قاتلت عليه فاصيب أو أصبت فليس عليك شئ (من كتاب الخراج لابى يوسف)

(فصل فى موات الارض وفى الصلح والعنوة وغيرهما)

وسالت يا أمير المؤمنين عن الارضين التى افتتحت عنوة أو صولح عليها أهلها وفى بعض قراها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لاحد ما الصلاح فيها فاذا لم يكن فى هذه الارضين أثر بناء ولا زرع ولم تكن فيأ لاهل القرية ولا مسرحا ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم وليست بملك لاحد ولا فى يد أحد فهى موات فمن أحياها أو أحيا منها شيأ فهى له ولك أن تقطع ذلك من أحببت ورأيت وتؤاجره وتعمل فيه بما ترى فيه أنه صلاح وكل من أحيا أرضا مواتا فهى له وقد كان أبو حنيفة رحمه الله يقول من أحيا أرضا مواتا فهى له اذا أجازه الامام ومن أحيا أرضا مواتا بغير اذن الامام فليست له وللامام أن يخرجها من يده ويصنع فيها ما رأى من الاجارة والاقطاع وغير ذلك قيل لابى يوسف ما ينبغى لابى حنيفة أن يكون قد قال هذا الا من شئ لان الحديث قد جاء عن النبى عليه السلام أنه قال من أحيا أرضا مواتا فهى له فبين لنا ذلك الشئ فانا نرجو أن تكون قد سمعت منه فى هذا شيأ يحتج به قال أبو يوسف حجته فى ذلك أن يقول الاحياء لا يكون الا باذن الامام أرأيت رجلين أراد كل واحد منهما أن يختار موضعا واحدا وكل واحد منهما منع صاحبه أيهما أحق به أرأيت ان أراد رجل أن يحيى أرضا ميتة بفناء رجل وهو مقر أن لا حق له فيها فقال لا تحيها فانها بفنائى وذلك يضرنى فانما جعل أبو حنيفة اذن الامام فى ذلك ههنا فصلا بين الناس فاذا أذن الامام فى ذلك لانسان كان له أن يحييها وكان ذلك الاذن جائزا مستقيما واذا منع الامام أحدا كان ذلك المنع جائزا ولم يكن بين الناس التشاح فى الموضع الواحد ولا الضرار فيه مع اذن الامام ومنعه وليس ما قال أبو حنيفة يرد الاثر انما رد الاثر أن يقول وان أحياها باذن الامام فليست له فأما من يقول هى له فهذا اتباع الاثر ولكن باذن الامام ليكون اذنه فصلا فيما بينهم من خصوماتهم واضرار بعضهم ببعض قال أبو يوسف أما أنا فأرى اذا لم يكن فيه ضرر على أحد

ولا لاحد فيه خصومة أن اذن رسول الله صلى الله عليه وسلم جائز الى يوم القيامة فاذا جاء الضرر فهو على الحديث وليس لعرق ظالم حق قال أبو يوسف حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحيا أرضا ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق قال وحدثنا الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أحيا أرضا مواتا فهي له قال وحدثني محمد بن اسحاق عن يحيى بن عروة عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحيا أرضا ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق قال عروة فحدثني من رأى ذلك النخل يضرب في أصله بالفؤس قال وحدثني ليث عن طاوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عادي الارض لله وللرسول ثم لكم من بعد فمن أحيا أرضا ميتة فهي له وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين قال وحدثني محمد بن اسحق عن الزهري عن سالم بن عبد الله أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر من أحيا أرضا ميتة فهي له وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين وذلك ان رجالا كانوا يحتجرون من الارض مالا يعملون قال وحدثني الحسن بن عمارة عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أحيا أرضا ميتة فهي له وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين قال وحدثني سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب قال من أحاط حائطا على أرض فهي له قال أبو يوسف معنى هذا الحديث عندنا على الارض الموات التي لا حق لاحد فيها ولا ملك فمن أحياها وهي كذلك فهي له يزرعها ويزارعها ويؤاجرها ويكري منها الانهار ويعمرها بما فيه مصلحتها فان كانت في أرض العشر أدى عنها العشر وان كانت في أرض الخراج أدى عنها الخراج وان احتفر لها بئرا أو استنبط لها قناة كانت أرض عشر قال أبو يوسف وأيما قوم من أهل الحرب بادوا فلم يبق منهم أحد وبقيت أرضوهم معطلة ولا يعرف أنها في يد أحد ولا أن أحدا يدعي فيها دعوى وأخذها رجل فعمرها وحرثها وغرس فيها وأدى عنها الخراج والعشر فهي له وهذه الموات هي التي وصفت لك في أول المسئلة وليس للامام أن يخرج شيأ من يد أحد الا بحق ثابت معروف وللامام أن يقطع كل موات وكل ما كان ليس لاحد فيه ملك وليس في يد أحد ويعمل في ذلك بالذي يرى أنه خير للمسلمين وأعم نفعا ومن أحيا أرضا مواتا مما كان المسلمون افتتحوه مما كان في أيدي أهل الشرك عنوة وقد كان الامام قسمها بين الجند الذين افتتحوها وخمسها فهي أرض عشر لانه حين قسمها بين المسلمين صارت أرض عشر فيؤدي عنها الذي أحيا منها شيأ العشر كما يؤدي هؤلاء الذين قسمها الامام بينهم وان كان الامام حين افتتحها تركها في أيدي أهلها ولم يكن قسمها بين من افتتحها كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ترك السواد في أيدي أهله فهي أرض خراج يؤدي عنها الذي أحيا منها شيأ الخراج كما يؤدي الذي كان الامام أقرها في أيديهم

وأيما رجل أحيا أرضا من أرض الموات من أرض الحجاز أو أرض العرب التي أسلم أهلها عليها وهي أرض عشر فهي له وان كانت من الارضين التي افتتحها المسلمون مما في أيدي أهل الشرك فان أحياها وساق اليها الماء من المياه التي كانت في أيدي أهل الشرك فهي أرض خراج وان أحياها بغير ذلك الماء بئرا حتفرها فيها أو عين استخرجها منها فهي أرض عشر وان كان يستطيع أن يسوق الماء اليها من الانهار التي كانت في أيدي الاعاجم فهي أرض خراج ساقه أو لم يسقه وأرض العرب مخالفة لارض العجم من قبل أن العرب انما يقاتلون على الاسلام لا تقبل منهم الجزية ولا يقبل منهم الا الاسلام فان عفي لهم عن بلادهم فهي أرض عشر وان قسمها الامام ولم يدعها لهم فهي أرض عشر وليس يشبه الحكم في العرب الحكم في العجم لان العجم يقاتلون على الاسلام وعلى اعطاء الجزية والعرب لا يقاتلون الا على الاسلام فاما أن يسلموا واما أن يقتلوا ولا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدا من أصحابه ولا أحدا من الخلفاء من بعده أخذوا من عبدة الاوثان من العرب جزية انما هو الاسلام أو القتل فاذا ظهر عليهم سبي النساء والذراري كما سبى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ذراري هوازن ونساءهم ثم عفا عنهم بعد وأطلقهم وانما فعل ذلك باهل الاوثان منهم فأما أهل الكتاب من العرب فهم بمنزلة الاعاجم تقبل منهم الجزية كما أضعف عمر رضي الله عنه على بني تغلب الصدقة عوضا من الخراج وكما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل حالم دينارا أو عدله مغافير في أهل اليمن فهذا عندنا كأهل الكتاب وكما صالح أهل نجران على فدية وأما العجم فتقبل الجزية من أهل الكتاب منهم والمشركين وعبدة الاوثان والنيران من الرجال منهم وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس أهل هجر والمجوس أهل شرك وليسوا باهل كتاب وهؤلاء عندنا من العجم ولا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم ووضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه على مشركي العجم بالعراق الجزية على رؤس الرجال على الطبقات المعسر والموسر والوسط وأهل الردة من العرب والعجم الحكم فيهم كالحكم في عبدة الاوثان من العرب لا يقبل منهم الا الاسلام أو القتل ولا توضع عليهم الجزية (من كتاب الخراج لابي يوسف)

(فصل في بيع السمك في الآجام)

وسألت يا أمير المؤمنين عن بيع السمك في الآجام ومواضع مستنقع الماء فلا يجوز بيع السمك في الماء لانه غرر وهو للذي يصيده فان كان يؤخذ باليد من غير أن يصاد فلا بأس ببيعه ومثله اذا كان يؤخذ بغير صيد كمثل سمك في جب والا فاذا كان لا يؤخذ الا بصيد فمثله كمثل ظبي في البرية أو طير في السماء ولا يجوز بيع ذلك لانه غرر وهو للذي صاده وقد رخص في بيع السمك في الآجام أقوام فكان الصواب عندنا والله أعلم

(في قول من كرهـــــه)

حدثنا العلاء بن المسيب عن الحرث العكلي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنـه أنه قال لا تبيعوا السمك في الماء فانه غرر وحدثنا يزيد بن أبي زياد عن المسيب بن رافع عن عبد الله بن مسعود أنه قال لا تبيعوا السمك في الماء فانه غرر قال وحدثنا عبد الله بن علي عن اسحق بن عبد الله عن أبي الزناد قال كتبت الى عمر بن عبد العزيز في بحيرة يجتمع فيها السمك بأرض العراق أنؤاجرها فكتب أن افعلوا قال وحدثنا أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه عن حماد قال طلبت الى عبد الحميد ابن عبد الرحمن فكتب الى عمر بن عبد العزيز يسأله عن بيع صيد الآجام فكتب اليه عمر أن لا بأس به وسماه الحبس قال وحدثنا الحسن بن عمارة عن الحكم بن ابراهيم قال ان اشتريته صيدا محصورا ورأيت بعضه فلا بأس وقد بلغنا عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه وضع على أجمة برس أربعة آلاف درهم وكتب لهم كتابا في قطعة أدم وانما دفعها اليهم على معاملة في قصبها قال أبو يوسف حدثنا ابن أبي ليلى عن عامر الشعبي قال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الغرر (من كتاب الخراج لابي يوسف)

(فصل في غرس الواقف أو غيره الاشجار أو بنائه في الوقف)

رجل غرس فيما وقف أشجارا أو بنى بناء أو نصب بابا قالوا ان غرس من غلة الوقف أو من ماله وذكر أنه غرسها للوقف تكون وقفا ولو لم يذكر شيأ وغرس من ماله تكون ملكا له ولو غرس في المسجد تكون للمسجد لانه لا يغرس فيه ليكون ملكا ثم ان كان لها ثمرة كالتفاح مثلا أباح بعضهم للقوم الاكل منها والصحيح أنه لا يباح لانها صارت للمسجد فتصرف في عمارته بخلاف شجرة على طريق العامة جعلت وقفا عليهم ويستوي فيها الغني والفقير كالماء الموضوع في الفلوات وماء السقاية وسرير الجنازة والمصحف الوقف ولو كانت الثمار على أشجار رباط المارة قال أبو القاسم أرجو أن يكون النزال في سعة من تناولها الا أن يعلم أن غارسها جعلها للفقراء وقال أبو الليث الاحوط أن يحترز عن تناولها من لم يكن ساكنا فيه الا أن تكون ثمرة لا قيمة لها كالتوت مثلا ولو غرس رباطي شجرة في وقف الرباط وتعاهدها حتى كبرت ولم يذكر وقت الغرس أنها للرباط قال الفقيه أبو جعفر ان كان اليه ولاية الارض الموقوفة فالشجرة وقف والا فهي له وله رفعها ولو طرح سرقينا في وقف استأجره وغرس فيه شجرا ثم مات يكون لورثته ويؤمرون بقلعه وليس لهم الرجوع فيما زاد السرقين في الارض عندنا ولو وقف شجرة باصلها على مسجد معين أو على الفقراء فان كان لها ثمرة أو ورق ينتفع به كشجر الفرصاد لا تقطع الا اذا يبست أو يبس بعضها فانه يقطع اليابس ويترك غيره لانه لا ينتفع باليابس وينتفع بالاخضر وان لم يكن لها ثمرة تقطع ويصرف ثمنها في عمارة المسجد

أو يتصدق به مقبرة فيها أشجار عظام وكانت فيها قبل اتخاذ الارض مقبرة ان علم مالك الارض تكون الاشجار له باصولها يصنع بها مايشاء وان كانت مواتا واتخذها أهل القرية مقبرة فالاشجار باصولها على ما كانت عليه قبل جعلها مقبرة ولو نبتت بعد ذلك فهى للغارس ان علم والا فالرأى فيها للقاضى ان رأى بيعها وصرف ثمنها فى عمارة المقبرة جاز له ذلك وهى فى الحكم كأنها وقف ولو جعل أرضه أو داره مقبرة وفيها أشجار أو بناء فهى ومقرها له ولورثته من بعده لان مواضع الاشجار أو البناء كانت مشغولة فلا تدخل فى الوقف ولو غرس أشجارا فى ضفة حوض قرية أو فى جانبى طريق العامة أو على شاطئ نهر العامة كانت له فان قطعها ثم نبت من عروقها أشجار تكون له أيضا لوجودها من ملكه أشجار على حافتى نهر فى الشارع اختصم فيها الشربة ولم يعرف الغارس وهو يجرى أمام باب رجل فى الشارع قالوا ان كان موضع الاشجار ملكا للشربة فما نبت فيه ولم يعرف غارسه يكون لهم وان لم تكن الارض لهم بل للعامة وللشربة حق التسييل فقط فان علم أن الاشجار كانت موجودة فى ذلك المكان حين اشترى الدار صاحبها فانها لا تكون له والا تكون له لان ما نبت فى فناء داره يكون له ظاهرا والله أعلم (الاسعاف فى الاوقاف)

(فصل فى وقف المنقول اصالة)

اختلف أبو يوسف ومحمد رحمهما الله فى وقف المنقول مستقلا فعن أبى يوسف فى النوادر لا يجوز الوقف فى الحيوان والرقيق والمتاع والثياب ما خلا الكراع والسلاح الا بطريق التبع كما تقدم والصحيح ما روى عن محمد رحمه الله من أنه يجوز وقف ما جرى فيه التعارف كالمصاحف والكتب والفاس والقدوم والمنشار والقدر والجنازة لوجود التعارف فى وقف هذه الاشياء وبه يترك القياس كما فى الاستصناع بخلاف ما لا تعارف فيه كالثياب والامتعة لان من شرطه التأبيد كما بينا ولكن تركناه فيما ذكرنا للتعارف وفى السلاح والكراع للجهاد بالنص فان خالد بن الوليد رضى الله عنه وقف دروعا له فى سبيل الله فاجازه النبى صلى الله عليه وسلم وجعل رجل ناقة فى سبيل الله فارادت امرأته أن تحج عليها فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الحج من سبيل الله وطلحة رضى الله تعالى عنه حبس سلاحه وكراعه فى سبيل الله أى خيله والابل كالخيل لان العرب تقاتل عليها وتحمل عليها السلاح فبقى فيما وراءه على الاصل ولو وقف بقرة على رباط بأن يعطى ما يخرج من لبنها وشيرازها وسمنها لابناء السبيل ان كان فى موضع تعارفوا ذلك يصح كما فى ماء السقاية والا فلا ولو وقف ثورا على أهل قرية لينزى على بقرهم لا يصح لانه ليس فيه عرف ظاهر ولا هو قربة مقصودة ولو وضع حبا فى مسجد أو علق فيه قنديلا له أن يرجع به لانه لا يترك فيه دائما ولو كثرت الدواب المربوطة للمرابطين وعظمت مؤنتها يجوز للمتولى بيع ما كبرت سنها وخرجت عن صلاحية

ماربطت له ويمسك الصالح منها ولو باع أهل المسجد نقضه أو غلة وقفه يجوز ان لم يكن ثمة قاض وان كان فالصحيح أنه لا يصح الا باذنه وقد تقدم أن محمد بن عبد الله الانصارى من أصحاب زفر رحمه الله تعالى قال بجواز وقف الدراهم والطعام والله اعلم (من كتاب الاسعاف)

(بيان طبقات فقهاء الحنفية والمقابلة بينهم وبين فقهاء الشافعية فى مجرد العدد)

قد نقل بعض مؤلفى الحنفية عن ابن كمال باشا تقسيم الفقهاء الى سبع طبقات الاولى طبقة المجتهدين فى الشرع كالائمة الاربعة ومن سلك مسلكهم فى تأسيس قواعد الاصول واستنباط أحكام الفروع عن الادلة الاربعة الكتاب والسنة والاجماع والقياس على حسب تلك القواعد من غير تقليد لاحد لا فى الفروع ولا فى الاصول والثانية طبقة المجتهدين فى المذهب كأبى يوسف ومحمد وسائر أصحاب أبى حنيفة القادرين على استخراج الاحكام من الادلة المذكورة على مقتضى القواعد التى قررها امامهم أبو حنيفة وان خالفوه فى بعض أحكام الفروع لكن يقلدون فى قواعد الاصول وبه يمتازون عن المعارضين فى المذهب ويفارقونهم كالائمة الثلاثة المخالفين له فى اجتهاده والثالثة طبقة المجتهدين فى المسائل التى لا رواية فيها عن صاحب المذهب كالطحاوى وقاضى خان وأمثالهم ممن لا يقدرون على المخالفة لشيخ لا فى الاصول ولا فى الفروع لكن يستنبطون الاحكام من المسائل التى لا نص عنه فيها على حسب أصول قررها ومقتضى قواعد بسطها والرابعة طبقة أصحاب التخريج من المقلدين كالرازى الحنفى وأضرابه فانهم لا يقدرون على الاجتهاد أصلا لكنهم لاحاطتهم بالاصول وضبطهم للمآخذ يقدرون على تفصيل مجمل ذى وجهين وحكم مبهم يحتمل الامرين منقول عن صاحب المذهب أو عن أحد من أصحابه المجتهدين برأيهم ونظرهم فى الاصول والقياس على أمثاله ونظرائه فى الفروع ومن هذا القبيل ما وقع فى بعض المواضع من الهداية من قوله كذا فى تخريج الكرخى وتخريج الرازى والخامسة طبقة أصحاب الترجيح من المقلدين كأبى الحسين القدورى وصاحب الهداية وشأنهم تفضيل بعض الروايات على بعض بقولهم هذا أولى وهذا أصح رواية وهذا أرفق بالناس والسادسة طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين الاقوى والقوى والضعيف وظاهر المذهب وظاهر الرواية والرواية النادرة كأصحاب المتون المعتبرة من المتأخرين مثل صاحب الكنز وصاحب الدر المختار وغيرهما ممن شأنهم أن لا ينقلوا فى كتبهم الاقوال المردودة والروايات الضعيفة والسابعة طبقة المقلدين الذين لا يقدرون على ما ذكر ولا يفرقون بين الغث والسمين انتهى ملخص ما نقل عن ابن كمال باشا

وفى الحقيقة هذه الطبقات السبع ترجع الى الطبقات الشافعية الثلاث أو الاربع بتداخل بعضها فى بعض كما يفهم بالتأمل فالتقسيم لها جعلى كمن قسم الفقهاء المشتغلين بالفقه الى ست مراتب الاولى رتبة المبتدى وهو من لم يقدر على تصوير المسألة والثانية رتبة المتوسط وهو من قدر على

تصويرها ولم يقدر على اقامة الدليل عليها والثالثة رتبة المنتهي وهو من قدر على تصوير المسألة
وعلى اقامة الدليل عليها والرابعة رتبة مجتهد الفتوى وهو من قدر على ترجيح الاقوال كالنووى
والرافعي والخامسة رتبة مجتهد المذهب وهو من قدر على استنباط الفروع من قواعد امامه
كالبويطي والمزني والسادسة رتبة المجتهد المستقل وهو من قدر على استنباط الاحكام من الكتاب
والسنة بشروطها المذكورة في الاصول وان زيد المجتهد المطلق المنتسب المنفرد برأى خاصة به
كانت سبعا كالحنفية (من كتاب القول السديد لرفاعه بك)

(الكلام على قول بعضهم ان العصر خلا عن المجتهد)

قال الغزالي والقفال ان العصر خلا عن المجتهد فقال ابن دقيق العيد أما قول الغزالي والقفال
خلا عن المجتهد فالظاهر أنه خلا عن المجتهد القائم بالقضاء فانه لا يمكن الحكم على الاعصار بخلوها
عن المجتهد والقفال نفسه يقول للسائل في مسألة الصبرة أتسألني عن مذهب الشافعي أم ما عندى
وقال هو والشيخ أبو علي والقاضي الحسين والاستاذ أبو اسحق وغيرهم لسنا مقلدين للشافعي
بل وافق رأينا رأيه فما هذا كلام من يدعى زوال رتبة الاجتهاد قال ابن الرفعة لا يختلف اثنان في أن
ابن عبد السلام وابن دقيق العيد بلغا رتبة الاجتهاد انتهى وحمل ابن دقيق العيد كلام الغزالي في قوله
كالقفال ان العصر خلا عن المجتهد أى عن مجتهد القضاء ولعل الاظهر من ذلك أن يقال ان مراده
المجتهد بالمعنى الاكمل الذى هو المجتهد المستقل المطلق وفي الحقيقة لا يدعى أحد أن الزمان لا يخلو من
مجتهد على تلك الصفة لاسيما وان من المعلوم أن مثل الامام الغزالي لا يقول ذلك ولا يجزم به هذا الجزم
الا بعد التتبع والتفحص أو على حسب ما بلغه أو يحمل كلامه على مجتهد تمذهب الناس بمذهبه على
أن القفال قال كما نقله عنه الشيخ محمد الشوبرى في حاشيته على شرح الرملي على المنهاج انه لا يوجد
في زمانه المجتهد المطلق وأما المجتهد المقلد فهو الذى ينتحل مذهب واحد من الائمة وقد عرف مذهبه
وصار حاذقا فيه بحيث لا يشذ عنه شيء من أصول مذهبه أى منصوصاته بحيث اذا سئل عن مسألة
لا يعرف فيها نصا لامامه اجتهد فيها وخرجها على أصوله وأفتى فيها بما أدى اليه اجتهاده فهذا أعز
من الكبريت الاحمر انتهى نقل الشوبرى فيفهم من كلامه أن المجتهد المتبحر الذى هو مجتهد المذهب
أو مجتهد الفتوى له وجود الا أن وجوده نادر فلا عبرة بمن يجترئ على الشريعة ويكذب نسبة هذا
المقام الاجتهادى لبعض أئمتها ويخوض في حق من نسب الاجتهاد من حيث هو للمتأهلين للقيام
بهذه الرتبة من علماء الشريعة فلم يزل هذا المقام معروفا بأناس ومعروفا به أناس ومتخالف الرتبة
تخالف ما بين الشمس وشعلة النبراس وادعاه لنفسهم أقوام ظهرت أمارة صدقهم ظهور شمس
الظهيرة وأصبحت أقطار هذه الرتبة العلية بهم مستنيرة ومن آخرهم الحافظ الجلال السيوطي
(من كتاب القول السديد لرفاعه بك)

(الكلام على ادعاء الجلال السيوطي الاجتهاد المطلق ومستنده في ذلك)

قد ألف الجلال السيوطي في صحة الاجتهاد في أي عصر من الاعصار كتبا وبين لذلك من صادق الاستدلال سببا حتى قال لمن شدد عليه النكير من الحساد ممن حملته المعاصرة على الخصام واللداد انك من انكار الاجتهاد على تمكان وتزعم أنه في حيز الاحالة وعدم الامكان وهذا كلام من خلا عن العلم صدره والفؤاد ومن بينه وبينه ألف واد فان نصوص الائمة بفريضة الاجتهاد في كل عصر طافحة وبتأثيم أهل العصر اذا قصروا في القيام به لائحه وقد جمعتها في الكتاب الذي سميته الرد على من أخلد الى الارض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض وقالوا لا يتأدى الفرض الا بالاجتهاد المطلق وأن يستمر بابه مفتوحا لا يغلق فان قلت ان أحدا الآن لن يناله فقد نسبت كل من في الارض الى المعصية لاغفاله والامة منزهة عن ذلك للحديث الصحيح ان الله عصم هذه الامة من أن تجتمع على ضلال ثم أين أنت من قول سيد المرسلين وامام المتقين ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الامة أمر الدين وفسر العلماء هذا المبعوث برجل يقوم بالاجتهاد ويحيي ما خفاد نوره بين العباد فان آمنت بان النبي صلى الله عليه وسلم لا يخلف خبره وأنه لابد لكل قرن من مجتهد يعمره فقد لزمتك الحجة وسكنت منك الضجة وعرفت خصوصية هذه الامة الشريفة حيث لم تفرط في هذا الواجب ولا حجبها عنه حاجب بخلاف حملة التوراة فانهم قصروا فيه حتى انقرض منهم المجتهدون وخلا زمانهم عن امام به يقتدون ويهتدون وان زعمت خبر رسول الله أخلف وأنه في هذا القرن تخلف فنستفتيك من نفسك على نفسك لنعرف فرق ما بينك وبين أبناء جنسك ثم اذا اعترفت بوجود الاجتهاد فيما مضى وأنكرته الآن وقلت انه قد انقضى فالك الاجواب الشيخ أبي الحسن الشاذلي اذ قيل له هنا قوم بكرامات الاولياء السابقين يعترفون وينكرونها لمن هو موجود ولا يصفون فقال انما هم اسرائيلية فان بني اسرائيل صدقوا نبوة موسى ومن تقدم من الانبياء قبل أوانهم وكذبوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لكونه موجودا في زمانهم انتهى المقصود من كلامه

ولما ادعى الجلال السيوطي رحمه الله مقام الاجتهاد وكان يفتي الناس بالارجح من مذهب الامام الشافعي قالوا له لم لا تفتيهم بالارجح عندك قال لم يسألوني ذلك وانما سألوني عما عليه الامام وأصحابه ومستند ادعاء السيوطي الاجتهاد بناء على بقائه الى آخر الزمان حديث يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الامة أمر دينها أي ما اندرس من أحكام الشريعة وهي من معالم السنن وخفي من المعالم الدينية الظاهرة والباطنة ومستند منع الاستدلال بهذا الحديث أن المراد بمن يجدد أمر الدين من يقرر الشرائع والاحكام لا المجتهد المطلق (من كتاب القول السديد لرفاعه بك)

(الكلام على المجددين لهذه الامة أمر الدين)

يظهر من كلام العلماء أن المجدد على رأس المائة الاولى عمر بن عبد العزيز وعلى رأس المائة الثانية محمد بن ادريس الشافعي وعلى رأس المائة الثالثة أحمد بن عمر بن سريج البازالاشهب قاضي شيراز أفضل أصحاب الشافعي الذي قويت به كل سنة وضعفت به كل بدعة وعلى رأس المائة الرابعة القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد محمد بن محمد الغزالي وعلى رأس المائة السادسة أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ويوازيه الرافعي وعلى رأس المائة السابعة ابن دقيق العيد وعلى رأس المائة الثامنة السراج البلقيني ويوازيه الحافظ العراقي وعلى رأس المائة التاسعة شيخ الاسلام ذكريا الانصاري والسيوطي وعلى رأس المائة العاشرة شمس الدين الرملي كما سيأتي قال السيوطي

والشرط في ذلك أن تمضي المائة * وهو على حياته بين الفئة
يشار بالعلم الى مقامه * وينصر السنة في كلامه
وأن يكون جامعا لكل فن * وأن يعم علمه أهل الزمن
وأن يكون في حديث قد روى * من آل بيت المصطفى وهو قوى
وكونه فردا هو المشهور * قد نطق الحديث والجمهور
وهذه تاسعة المئين قد * أتت ولا يخلف ما الهادي وعد
وقد رجوت أنني المجدد * فيها ففضل الله ليس يجحد

وفي خلاصة الاثر نقلا عن عبد الله بامخرمة من علماء اليمن أنه قال ويقرب عندي أن المجدد للقرن التاسع الذي يرجو السيوطي أن يكون مجدده القاضي زكريا لشهرة الانتفاع به وتصانيفه واحتياج غالب الناس اليه لاسيما فيما يتعلق بالفقه وتحرير المذهب بخلاف كتب السيوطي فانها وان كانت كثيرة فليست بهذه المثابة على أن كثيرا منها مجرد جمع بلا تحرير وأكثرها في الحديث من غير تمييز الطيب من غيره بل كان حاطب ليل وساحب ذيل والله تعالى يرحم الجميع ويعيد علينا من بركاتهم انتهى وكلامه لا يخلو من الجراءة في الخوض في حق الامام السيوطي وان كان في موقعه في حق شيخ الاسلام

وقال بعضهم في مناسبة حديث ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الامة من يجدد لها دينها بدئت بعمر وختمت بعمر يريد بدئت بعمر بن عبد العزيز وختمت بشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني مجتهد عصره وعلم المائة الثامنة فانه كان له ترجيحات في مذهب الامام الشافعي خلاف ما رجحه النووي وله اختيارات خارجة عن المذهب كافتائه بجواز اخراج الفلوس في الزكاة

وله تصانيف فى الفقه والتفسير والحديث منها حواشى الروضة وشرح البخارى وشرح الترمذى وحواشى الكشاف ويليق به قول الشاعر

فى رأس كل مائة يجىء من * يجدد الدين بحسن الوصف
ومثل ذا مجدد للدين لا * يجىء الا واحد فى الالف

وكان أحق الناس من أهل زمانه بالتجديد وقد توفى فى سنة خمس وثمانمائة على رأس القرن اه ببعض تصرف ولكن هذا القول لا يلائم منطوق الحديث المؤذن بالتجديد فى كل قرن والمفيد لتناوب دول المجددين الا أن يحمل على أنه لا يوجد بعد البلقينى مثله وأن المجددين الخلف لا يصلون الى درجة السلف ولا شك أن مرتبة التجديد كرتبة الاجتهاد متفاوتة فقد ذهب جماعة من العلماء الى أن الامام شمس الدين الرملى المتوفى المصرى الانصارى الشهير بالشافعى الصغير مجدد القرن العاشر ووقع الاتفاق على المبالغة فى مدحه وأنه محيى السنة وعمدة الفقهاء فى الآفاق وفيه يقول الشهاب الخفاجى وهو أحد من أخذ عنه

فضائله عدّ الرمال فمن يطق * ليحوى معشار الذى فيه من فضل
فقل لغبى رام احصاء فضله * تربت استرح من جهد عدك للرمل

واختلف فى رأس المائة المذكور فى الحديث هل يعتبر من المولد النبوى أو البعثة أو الهجرة أو الوفاة قال بعضهم ولو قيل بأقربية الثانى لم يبعد انتهى ولعل ترجيحه كونه صلى الله عليه وسلم هو الذى جاء بهذا الدين القويم وهدى الى الصراط المستقيم وكان تقوية هذا الدين بعده بصحبه الكرام والتابعين فصار هذا القرن بعد منسوبا له صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الراشدين ورأس القرن الحقيقى الآتى بيانه يوافق عهد عمر بن عبد العزيز الذى هو خامس الخلفاء الراشدين أو سادسهم فان عمر بن عبد العزيز كان موجودا فى رأس القرن بالحساب من الهجرة وعلى ذلك ففرق القرن بين البعثة والهجرة نحو ثلاث عشرة سنة فكان على رأس القرن يعنى انتهت المائة حال وجوده واحتياج الدين لتجديده لبعد العهد من الصدر الاول فيكون موافقا لما قاله بعضهم ان المراد بالبعث فى كل قرن بعث من انقضى القرن يعنى المائة سنة وهو حى عالم مشار اليه فاذا حسبنا من البعثة نجد أن عمر بن عبد العزيز عاش بعد القرن زمنا طويلا ودخل عليه القرن الثانى وهو حى عالم مشار اليه فهو مجدد لكن صنيع السبكى وغيره مصرح بان المراد اعتبار القرن من الهجرة وعلى كلا القولين فهو اوفق بالكلية بتجديد عمر بن عبد العزيز وقال بعضهم ان تخصيص الرأس انما هو لكونه مظنة انخرام علمائه غالبا وظهور أهل البدع والخارجين والا فقد يكون فى أثناء المائة من هو كذلك موصوفا بالتجديد بل قد يكون أفضل من المبعوث على رأس القرن ولذلك قيل بتعدد المجددين

المقيمين للحجج على تعضيد الدين وفي بعض الروايات زيادة من أهل بيتي قال التاج السبكي وفيها دقيقة ينبغي التنبيه عليها وهي أن عمر بن عبد العزيز والشافعي قرشيان تصدق عليهما الرواية المذكورة قال وبذلك يتعين عندي أن المجدد بعد الشافعي يكون شافعي المذهب فانه هو الذي من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ولذا حمل بعضهم أن المراد بكونه من أهل البيت أهل البيت المعنوى كحديث سلمان منا أهل البيت ولاشك أن الشافعي انما كمل علمه وتقريره للدين في آخر المائة الثانية وأول المائة الثالثة فكان صالحا لان يكون هو المراد بهذا الحديث لانطباقه عليه من وجوه الاول أن الحديث الذي ذكرناه يدل على أنه لابد على رأس المائة من امام يسعى في تقوية الدين مع حديث الائمة من قريش ولم يظهر في رأس المائة امام قرشي يسعى في تقوية الدين ونصرته غيره وهذا في غاية الظهور لان علم مالك وأبي حنيفة لم يظهر في أول المائة الثالثة وأما علوم أبي يوسف ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل فهي وان ظهرت في أول المائة الثالثة الا أنهم لم يكونوا من قريش الثاني وهو يقوى ماذكرناه أن قوله صلى الله عليه وسلم ان الله يبعث الى آخره لايليق به الا من كان له تصرف في علم الدين واستقلال بتقوية أصوله وفروعه وقد علمنا أن مالكا وأبا حنيفة خارجان عن هذا الحديث لظهور علمهما في وسط المائة فبقى معنا أبو يوسف ومحمد وزفر وسائر أصحاب أبي حنيفة ومالك فمثل هذا الحديث لايتناول مثل هؤلاء لانهم أتباع للمجتهدين فالاقرب أن لايتناول الا من كان مستقلا بنفسه في وضع المذهب والاقوال مستبدا باجتهاده وهو الامام الشافعي وأما الامام أحمد بن حنبل فانه وان كان موجودا في أول المائة الثالثة الا أنه ما كان صالحا لان يكون هو المراد وبيانه من جهات الاولى أنه كان مقرا بان المراد بهذا الحديث هو الشافعي فقد روى البيهقي في كتاب المناقب ذلك عنه بطرق كثيرة والثانية أنه ما كان في علم أصول الفقه كالشافعي فان الشافعي كان له أيضا مذهب في الاصول بل هو أول من وضع علم أصول الفقه ودونه أيضا وقال الامام أحمد بن حنبل لولا الشافعي لبقيت أفقه أصحاب الرأى أي الاجتهاد فلما ثبت بالدليل أن من سوى الشافعي من الفقهاء لايصلح واحد منهم أن يكون مرادا بالحديث ثبت أن المراد به ليس الا الامام الشافعي القرشي المطلبي والثالثة أن الائمة قبل الشافعي كانوا فريقين أصحاب الحديث وأصحاب الرأى أي الاجتهاد فكان أصحاب الحديث عاجزين عن المناظرة والمجادلة لمناقضته طريقة أصحاب الرأى فما كان يحصل بسببهم قوة في الدين ولا نصرة للكتاب والسنة على وجه تام وكان أصحاب الاستحسان سعيهم برأيهم وترتيب فكرهم في الاغلب فما كان جهدهم واجتهادهم مصروفا الى نصرة النصوص فلما ظهر الشافعي قوى جانب أهل الحديث وجعل الحديث على تقرير النصوص أولى لان حمل لفظ الدين على النص أولى من الاستحسان

وبهذا كان الحديث أشد انطباقا على من كان أقوى معرفة بالنصوص من القرآن والاخبار وبأصول الفقه وشرائط الاستدلال بتلك النصوص وهو الامام الشافعي فهو الذي وضعها ورتب أصولها وفتح فصولها وكان أيضا قويا في المناظرة والمجادلة وقد رجع كثير من أتباع المذاهب الى مذهبه ولولا ذلك لامتنع في مجارى العادات أن يرجع كثير من الناس عن قول أبي حنيفة وقول مالك بسبب مخالفته لهما فاذا كان الامر كذلك فقد ثبت أنه رضى الله تعالى عنه متعين لان يكون مرادا بهذا الحديث والذى يقوى ذلك أن أصحاب الاجتهاد أظهروا مذاهبهم وكانت الدنيا مملوءة من المحدثين ورواة الاخبار ولم يقدر أحدهم على الطعن في أقاويلهم ثم انه لما قوى مذهبهم واشتهر وعظم وقعد في القلوب اتفق اتصال أبي يوسف ومحمد بخدمة هارون الرشيد فعظمت تلك القوة جدا بنفوذ العلم والسلطنة معا فلما جاء الشافعي وأظهر ما كان معه من الدلائل والبينات رجع كثير من أنصارهم وأشياعهم وما جاء من ذلك الوقت الى الآن من قدر أن يطعن في مذهب الشافعي أو من يبين ضعف قوله في مسألة واحدة ولولا أن الله تعالى قد خص الشافعي بالبينات الواضحة والدلائل اللائحة لكان هذا الامر كالمتعذر فثبت أن الشافعي هو الذى قوى الحق بسبب بيانه وقوة برهانه فوجب الجزم بأنه هو المراد بهذا الحديث لا غيره وأنه المجدد للقرن وكونه هو المجدد لا يقدح شيأ في مراتب غيره من أصحاب المذاهب لاسيما وأن فيهم من أشياخه فأكابر المجتهدين أرباب فضائل ومزايا وخصائص مع ما سيأتى في تميم التجديد

(الكلام على الاجماع على تقليد الاربعة المجتهدين دون غيرهم)

أكابر المجتهدين المستقلون الذين انعقد الاجماع على تقليدهم دون غيرهم هم الائمة الاربعة الذين انتشرت مذاهبهم وضبطت بالتدوين وانعقد الاجماع على تقليدها وجواز العمل بها حيث اختيرت لذلك وهم الامام الاعظم أبو حنيفة النعمان والامام مالك ابن أنس والامام الشافعي محمد بن ادريس والامام أحمد بن حنبل وسبب الاقتصار عليهم انقراض المذاهب ماعداها مما ترتب عن قتل التتار للخليفة المعتصم سنة ٦٥٩ من الهجرة بمكيدة وزيره ابن العلقمي من نكبة بغداد والقاء كتب الائمة المجتهدين وغيرهم في نهر الدجلة فاما أبو حنيفة رحمه الله تعالى فهو امام تقى قيل أدرك في زمانه أربعة من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله ابن أبي أوفى بن علقمة وسهل بن سعد الساعدى وأبا الطفيل عامر بن واثلة وبالجملة فقد قيل انه تابعي وكفاه بذلك فضيلة وانه صاحب ذكاء وفطنة وتوفى ببغداد سنة خمسين ومائة وهو ابن سبعين ودفن في مقبرة الخيزران رحمه الله تعالى ورضى عنه وأما الامام مالك بن أنس فهو امام تقى مجتهد قد أخذ العلم عن ربيعة بن عبد الرحمن وجلس اليه أكثر ممن كان يجلس الى ربيعة فكانت حلقة مالك

فى زمن ربيعة مثل حلقة ربيعة وأكثر روى أن المهدى قدم المدينة فبعث الى مالك بالفى دينار أوستة آلاف دينار ثم أتاه الربيع بعد ذلك فقال له أمير المؤمنين يحب أن تعاد له الى مدينة السلام فقال له مالك رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون والمال عندى على حاله وبالجملة فهو نجم السنة النبوية وفضائله كثيرة فوق الوصف توفى سنة تسع وسبعين ومائة وولد سنة احدى أو أربع أو سبعة وتسعين وأما الامام محمد بن ادريس الشافعى فهو امام جليل القدر مجتهد قد أخذ الفقه عن مسلم بن خالد الزنجى وغيره وهو صاحب الفتوى والتقوى وله مناقب لاتعد ولاتحصى توفى رحمه الله ليلة الخميس آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين بمصر ودفن يوم الجمعة بعد العصر وصلى عليه أميرها وولد سنة خمسين ومائة وأما الامام أحمد بن حنبل فهو امام تقى مجتهد محدث قال عبد الرزاق ما رأيت أفقه ولا أورع من أحمد بن حنبل وقال أبو زرعة كان يحفظ ألف ألف حديث وكان كثيرا ما يقول دبر كل صلاة اللهم كما صنت وجهى عن السجود لغيرك فصن وجهى عن المسألة لغيرك وبالجملة فمناقبه كثيرة جدا توفى ببغداد سنة احدى وأربعين ومائتين وولد سنة أربع وستين ومائة رضى الله عنهم أجمعين ونفعنا بهم فى الدنيا والآخرة وكان بمنزلة هؤلاء المجتهدين أبو عبد الله سفيان بن سعد الثورى الكوفى مات بالبصرة ودفن فيها الاحدى وستين ومائة ولم يزل مقلدوه الى القرن السادس ومن الناس من يعد من أصحاب المذاهب سفيان بن عيينة والاوزاعى امام الشام واسحاق بن راهويه وداود الظاهرى والليث بن سعد بل ومحمد بن جرير الطبرى فان قيل كيف يعد منهم داود الظاهرى وامام الحرمين يقول ان المحققين لايقيمون للظاهرية وزنا وان خلافهم لايعتبر فالجواب عن ذلك أن ابن السبكى حمل قول امام الحرمين على ابن حزم وأمثاله قال وأما داود فمعاذ الله أن يقول امام الحرمين أوغيره ان خلافه لايعتبر فلقد كان جبلا من جبال العلم والدين وله من سداد النظر وسعة العلم ونور البصيرة والاحاطة باقوال الصحابة والتابعين والقدرة على الاستنباط ما يعظم وقعه وقد دوّنت كتبه وكثرت أتباعه وذكره الشيخ أبو اسحاق الشيرازى فى طبقاته من الائمة المتبوعين فى الفروع وقد كان مشهورا فى زمن الشيخ وبعده بكثير لاسيما فى بلاد فارس شيراز وماوالاها الى ناحية العراق وفى بلاد المغرب وأما ابن حزم فقد قال فيه بعضهم بمناسبة تحليله آلات اللهو واللعب

فاجزم على التحريم أى جزم * والرأى أن لاتتبع ابن حزم
فقد أبيحت عنده الاوتار * والعود والطنبور والمزمار

والظاهر أن له بعض تجرى كقوله فى حق أبى حنيفة وأصحابه البيتين المشهورين وهما

ان كنت كاذبة الذى حدثتنى * فعليك اثم أبى حنيفة أو زفر
الواثبين على القياس تمردا * والراغبين عن التمسك بالاثر

حتى اضطر بعض الحنفية الى الرد عليه بقوله

ما كان يحسن يا ابن حزم ذم من * حاز العلوم وفاق فضلا واشتهر
فأبو حنيفة فضله متواتر * ونظيره فى الفضل صاحبه زفر
ان لم تكن قد تبت من هذا فقى * ظنى بانك لا تباعد عن سقر
وقياسه لامع وجود أدلة * للحكم من نص الكتاب أو الخبر
لكن مع عدم تقاس أدلة * وبذاك قد وصى معاذا اذ أمر

(الكلام على الانتقال من مذهب الى آخر)

هل لمقلد امام من الائمة الاربعة الانتقال من مذهب الى آخر أو ليس له ذلك قال الامام الشعرانى فى ميزانه رأيت بخط الجلال السيوطى مانصه الذى أقول به للمنتقل من مذهب الى آخر أحوال أحدها أن يكون الحامل له على الانتقال أمرا دنيويا اقتضته الحاجة الى الرفاهية اللائقة كحصول وظيفة أو مرتب أو قرب من الملوك أو أكابر الدنيا فهذا حكمه حكم مهاجر أم قيس لانه الاعزمن مقاصده ثانيها أن يكون الحامل له على الانتقال أمرا دنيويا كذلك لكنه عامى لا يعرف الفقه وليس له من المذهب سوى الاسم وانما انتقل الى هذا المذهب لكونه عليه العمل حتى يدخل فى إفتاء أو تدريس أو نحوه فمثل هذا أمره خفيف اذا انتقل عن مذهبه الذى كان يزعم أنه متعبد به ولا يبلغ الى حد التحريم لانه الى الآن عامى لا مذهب له فهو كمن أسلم جديدا فله التمذهب باى مذهب شاء من مذهب الائمة ثالثها أن يكون الحامل له أمرا دنيويا كذلك ولكنه من القدر الزائد عادة على مايليق بحاله وهو فقيه فى مذهبه وأراد الانتقال لغرض الدنيا الذى هو من شهوات نفسه المذمومة فهذا أمره أشد وربما وصل الى حد التحريم لتلاعبه بالاحكام الشرعية لمجرد غرض الدنيا مع عدم اعتقاده فى صاحب المذهب الاول أنه على كمال هدى من ربه اذلو اعتقد أنه على كمال هدى ما انتقل عن مذهبه رابعها أن يكون انتقاله لغرض دينى ولكنه كان فقيها فى مذهبه وانما انتقل لترجيح المذهب الآخر عنده لما رآه من وضوح أدلته وقوة مداركه فهذا يجب عليه الانتقال أو يجوز له كما قاله الرافعى وقد أقر العلماء من انتقل الى مذهب الشافعى حين قدم من مصر وكان خلقا كثيرين مقلدين للامام مالك كمحمد بن الحكم وأمثاله خامسها أن يكون انتقاله لغرض دينى لكنه كان عاريا من الفقه وقد اشتغل بمذهبه فلم يحصل منه على شئ ووجد مذهب غيره أسهل عليه بحيث يرجو سرعة ادراكه والتفقه فيه فهذا يجب عليه الانتقال قطعا ويحرم عليه التخلف لان تفقهه

مثله على مذهب امام من الائمة الاربعة خير من الاستمرار على الجهل لانه ليس له من التمذهب سوى الاسم والاقامة على الجهل نقص عظيم فى المؤمن وقل أن تصح منه عبادة قال الجلال السيوطى وأظن أن هذا هو السبب فى تحول الطحاوى حنفيا بعد أن كان شافعيا فانه كان يقرأ على خاله الامام المزنى فتعسر يوما عليه الفهم فحلف المزنى أنه لا يجيء منه شئ فانتقل الى مذهب الامام أبى حنيفة ففتح الله تعالى عليه وصنف كتابا عظيما شرح فيه المعانى والآثار وكان يقول لو عاش خالى ورآنى اليوم لكفر عن يمينه انتهى سادسها أن يكون انتقاله لا لغرض دينى ولا دنيوى بأن كان مجردا عن القصدين جميعا فهذا يجوز للعامى أما الفقيه فيكره له أو يمنع منه لانه قد حصل فقه ذلك المذهب الاول ويحتاج الى زمن آخر ليحصل فيه فقه المذهب الآخر فيشغله ذلك عن الامر الذى هو العمل بما تعلمه قبل ذلك وقد يموت قبل تحصيل مقصوده من المذهب الآخر فالاولى لمثل هذا ترك ذلك انتهى كلام الجلال السيوطى بتصرف (من كتاب القول السديد)

(الباب الثانى فى الاحاديث والحكم)

(فى السودد والمروءة ومكارم الاخلاق ومداراة الناس والتأدب معهم فى حالى الغنى والاملاق)

اعلم أنه يجب على الانسان أن يتخلق بالاخلاق الموجبة للسيادة ويعتنى فى طلب المكارم والجادة وأن لا يتشاغل عنها بسواها ولا يصرف همته الى ما عداها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسرع به عمله لم يبطئ به حسبه ومن أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه قال حكيم لحكيم ما السودد فقال اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة قال فما الشرف فقال كف الاذى وبذل الندى قال فما السناء فقال استعمال الادب ورعاية الحسب قال فما المجد فقال احتمال المغارم وابتناء المكارم قال فما المروءة فقال عرفان الحق وتعاهد الصنيعة قال فما السماحة فقال حب السائل وبذل النائل قال فما الكرم فقال صدق الاخاء فى الشدة والرخاء قال بعض العلماء الكرم هو اسم واقع على كل نوع من أنواع الفضل ولفظ جامع لمعانى السماحة والبذل فكل خصلة من خصال الخير وخلة من خلال البر وشيمة تعزى الى مكارم الاخلاق وسجية تضاف الى محاسن الطبائع والاعراق فهى واقعة على اسم الكرم فالكرم أبدا واقع على كل فعل من الافعال المرضية لازم لكل حال من الاحوال الجليلة السنية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مكارم الاخلاق عشرة تكون فى الرجل ولا تكون فى ابنه وتكون فى الابن ولا تكون فى أبيه وقد تكون فى العبد ولا تكون فى سيده يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة وهى صدق الحديث وصدق البأس وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان واعطاء السائل والمكافأة بالصنائع وحفظ الامانة وصلة الرحم والتذمم للصاحب وقرى الضيف وأسهن الحياء ومن المنقول عن الحكماء الواجب على ذى النسب الشريف

والمجد الرفيع أن لا يجعل ذلك سلما الى التراخي عن الاعمال الموافقة لنسبه والاتكال على آبائه فان أشرف الانساب يحض على أفضل الاعمال والشريف بهذا أولى ان كان الشرف يدعو الى الشرف كما أن الحسن يدعو الى الحسن وأكثر الممدوحين انما مدحوا بأعمالهم دون أنسابهم وقد قال الشاعر فى هاشم بن عبد مناف وهو امام ذوى الانساب

عمرو الذى هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف

فدحه بفعله وان كان شريفا رفيعا واعلم أن الناس أشد تحفظا على السيد الشريف فى قومه وأكثر اجتلاء لافعاله وتصفحا لاخلاقه وتنقيرا عن خصاله منهم عن خامل لا يعبأ به وساقط لا يكترث اليه فيسير عيب الرجل الجليل يقدح فيه وصغير الذنب يكبر منه قال بعضهم وشرف الوالد جزء من ميراثه منتقل الى ولده كانتقال ماله فان رعى وحرس ثبت وازداد وان أهمل وضيع هلك وباد وكذلك شرف الوالد يعم القبيلة وللوالد منه الحظ الاكبر والقسم الاوفر قال أبو على حسن بن رشيق والذى يقع عليه الاختيار عندهم قول المتوكل الليثى

انا وان أحسابنا كرمت * لسنا على الاحساب نتكل

نبنى كما كانت أوائلنا * تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وقول عامر بن الطفيل

وانى وان كنت ابن سيد عامر * وفارسها المشهور فى كل موكب

فما سودتنى عامر عن وراثة * أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكننى أحمى حماها وأتقى * أذاها وأرمى من رماها بمقنب

وأنشد أبو حيان للمنصور أبى عامر محمد بن عامر المعافرى

وانى لمقتاد الجيوش الى الوغى * اسود اتلاقيها اسود خوادر

فسدت بنفسى أهل كل سيادة * وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر

وما شدت بنيانا ولكن زيادة * على ما بنى عبد المليك وعامر

رفعنا المعالى بالعوالى حديثة * وأورثها فى القديم معافر

ومن بديع الافتخار بالسودد وحفظه قول السموأل بن عاديا

صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا * اناث أصابت حملنا وبعول

علونا الى خير الظهور وحطنا * لوقت الى خير البطون نزول

اذا سيد منا خلا قام سيد * قؤول لما قال الكرام فعول

قال أبو على حسن بن رشيق وقد أنكر قدامة أن يمدح الانسان بآبائه دون أن يكون ممدوحا بنفسه قال والذى ذهب اليه حسن وأنكر الجرجانى على ابى الطيب المتنبى قوله

مابقومى شرفت بل شرفوابى * وبنفسى فخرت لابجدودى

قال وهذا معنى سوء يقصر بالممدوح ويغض من نسبه ويحقر من شأن سلفه وانما طريقة المدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه والآباء تزداد شرفا به فيجعل لكل منهم فى الفخر حظا وفى المدح نصيبا قلت واذا كان هذا لا يجمل ولا يحسن فى الشعر ويعد نقصا فى معناه وهو من قبيل المجازات والتخيلات فكيف يجمل بالعاقل أن يرتضى ذلك حقيقة فى ذاته ويهمل تأديب نفسه ويدع اكتساب المحامد واقتناء المكارم اتكالا على حسب آبائه واعتمادا على كرم أسلافه ولو لم يسع آباؤه فى طلب المجد وكانوا كسالى عن ذلك لم يكن له بهم فخر ولاسما لهم ذكر قال

وما المرء الا حيث يجعل نفسه * ففى صالح الاخلاق نفسك فاجعل

وقال بعضهم

تزين الفتى أخلاقه وتشينه * وتذكر أفعال الفتى حيث لايدرى

فالافعال المحمودة والاخلاق الجميلة توجب السودد والرئاسة والافعال المذمومة والاخلاق الدنيه تمنع من ذلك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يحب معالى الاخلاق ويكره سفسافها قال الامام أبو بكر الطرطوشى واعلم أن زهر الفضائل وحسن المناقب وبهاء المحاسن وما ضاد ذلك من قبح المثالب وفحش الرذائل كل ذلك يظهر عليك ويعظم منك بقدر ما أوتيته من علو المنزلة وشرف الحظوة فيكون حسنك أحسن ما يكون وقبحك أقبح قلت فيجب على المرء أن يجهد نفسه فى الاقتداء بصالح سلفه ويرغب فى الاعمال اللائقة بمجده وشرفه وينافس فى المعالى ويسارع الى المكارم ليحفظ مزية آبائه الرفيعة لا أن يجعل تلك المزية للتقصير ذريعة قال أبو الطيب

ولم أر فى عيوب الناس عيبا * كنقص القادرين على التمام

وقال ابن المعلى لابنه تشبه باهل الفضل تكن منهم وتصنع للشرف تدركه واعلم أن كل امرئ حيث يضع نفسه وحسبك الحديث الوارد من تشبه بقوم فهو منهم قال بعضهم اعلموا أن مجدكم الذى بناه آباؤكم متى لم تعمروه بافعالكم خرب وذهب قال الشاعر

المجد ان خان التليد طريفه * للمدعى فخرابه خوان

حسب الفتى عارابه أن لايرى * الابذكر قديمه يزدان

وكفاه نبلا أن يكون لذاته * ان شال وزن قديمه رجحان

وأتم ذلك مفخرا ما طابقت * فى طيهن أرومها الاغصان

قال الامام أبو بكر بن أبى جمرة وما أجدر بالاولاد الاقتداء بالآباء والاجداد اذ الشرف والمجد لا يكونان الا بالآباء يقال رجل شريف ورجل ماجد اذا كان له آباء متقدمون فى الشرف

وأما الحسب والكرم فيكونان فى الرجل وان لم يكن له آباء كرام لهم شرف يقال رجل حسيب ورجل كريم بنفسه فينبغى للرجل أن يطلب خلال آبائه المحمودة ويتبعها ويتعلمها ويعلمها والاصل فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ارموا يا بنى اسماعيل فان أباكم كان راميا واذا كان هذا فى الرمى فما ظنك بغيره قال الله تعالى حاكيا عن الكريم ابن الكريم واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب وعلى الجملة ففى معارج النطف على مدارج السلف فخر الشرف وذلك معتبر فى النسب عند العجم والعرب وفى الخبر المرفوع من نعمة الله على الرجل أن يشبه والده ذكر أبو عثمان الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين أن عمرو بن سعيد دخل على معاوية بعد موت أبيه وعمرو يومئذ غلام فقال له معاوية الى من أوصى بك أبوك يا عمرو قال ان أبى أوصى الى ولم يوص بى فقال باى شئ أوصاك قال أوصانى أن لا يفقد اخوانه منه الا شخصه فقال معاوية لاصحابه ان ابن سعيد هذا لأشرف قال مسلم بن الوليد

واذا جهلت من امرئ أعراقه * وقديمه فانظر الى مايصنع

وقال ابن الرومى

اذا شئت تعرف أصل الفتى * أجل لحظ طرفك فى منظره
فان لم يبن لك فانظر الى * أفاعيله فهى من جوهره
وان غاب عنك بهذا وذا * فلا تطلبن سوى محضره
فان الحاضر سبر الرجال * بها يعرف النذل من مخبره
بلوت الرجال وأخبارهم * فكل يعود الى عنصره

وقال أبو الفتح كشاجم

واذا افتخرت باعظم مقبورة * فالناس بين مكذب ومصدق
فأقم بنفسك لا تنسابك شاهدا * بحديث مجد للقديم محقق

قال بعض الحكماء من جمع الى شرف أصله شرف نفسه فقد استدعى الفضل بالجملة ومن أغفل نفسه واعتمد على شرف آبائه فقد عقهم واستحق ان لا يقدم بهم على غيرهم والافتخار نوعان فخر الانسان بنفسه وفخره بسلفه والكمال فى الجمع بين الامرين قال الشاعر

ما السودد المكسوب الادون ما * يومى اليه السودد المولود
فاذا هما اجتمعا تكسرت القنا * ان غولبا وتضعضع الجلمود

أما فخر الانسان بنفسه فهو الذى تسميه العرب الخارجى يريدون أنه خرج من أولية كانت له قال كثير فى الخارجى

أبا مروان لست بخارجيّ * وليس قديم مجدك بانتحال

وكل من كان خارجية ليس له قديم قيل له عصامى وكذلك من يفخر بالآباء وليس بشريف فى نفسه يقال له عظامى ولذلك قالوا كن عصاميا لا عظاميا أى افتخر بنفسك لا بآبائك الذين ماتوا وبقيت عظامهم قلت وهذا ترغيب فى الافعال الجيدة والاخلاق الجميلة وهو الذى أراد أبو الطيب بقوله

ولست بقانع من كل فضل * بان أعزى الى جده همام

وآنف من أخى لابى وأمى * اذا لم أجده من الكرام

وعصام المذكور هو عصام بن شهبر حاجب النعمان الذى يقول فيه النابغة الذبيانى

فانى لا ألام على دخول * ولكن ما وراءك يا عصام

وقيل فيه

نفس عصام سوّدت عصاما * وعلمته الكر والاقداما

* وجعلته ملكا هماما *

أى انه انما شرف بهمته وقدره لا بقديم كان له قال المأمون لرجل سمعه يفخر بنسبه أنت عظامى لا عصامى أراد المأمون قول الشاعر * نفس عصام سودت عصاما *

وقول الآخر

اذا ما الحى عاش بعظم ميت * فذاك العظم حى وهو ميت

ومن وصية الرشيد للمأمون لا تتكل على أن تقول كان أبى الرشيد واعمل على ما يتكل عليه من يقول كان أبى المأمون وذكر أبو عثمان الجاحظ أن زياد بن ظبيان التميمى قال لابنه عبيد الله ابن زياد وزياد يومئذ يجود بنفسه وعبيد الله غلام يا بنى ألا أوصى بك الامير قال لا قال ولم قال اذا لم يكن للحى الا وصية الميت فالحى هو الميت قال أبو العباس المبرّد فى كتاب الكامل قال الكلبى قال لى خالد بن عبد الله القشيرى ما تعدون للسودد فقلت أما فى الجاهلية فالرياسة وأما فى الاسلام فالولاية وخير من ذا وذاك التقوى فقال لى صدقت كان أبى يقول لم يدرك الاول الشرف الا بالفعل ولا يدركه الآخر الا بما أدركه به الاول وانتسب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ عشرة آباء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حسب الا بالتواضع ولا نسب الا بالتقوى ولا عمل الا بالنية ولا عبادة الا باليقين قال الشاعر

لعمرك ما الانسان الا بدينه * فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

فقد رفع الاسلام سلمان فارس * وقد وضع الشرك الشريف أبا لهب

وقال الراعى

لم أجد عروة الخلائق الا الـ ... ـدين لما اختبرت والحسبا

وقال منصور الفقيه

اذا جمع الفتى حسبا ودينا * فلا تعـدل به أبدا قرينا

قال أبو عمرو بن العلاء كان أهل الجاهلية لا يسودون الا من كانت فيه ست خصال وتمامها فى الاسلام سابعة السخاء والنجدة والصبر والحلم والبيان والحسب وفى الاسلام زيادة العفاف وقيل لقيس ابن عاصم بم سودك قومك قال بكف الاذى وبذل الندى ونصرة المولى قال وجيه الدين أبو المطاع ابن حمدان

ومايدعى باسم السـيادة سـيد * اذا لم تكن فيـه خلائق أربع
يحن الى العليا ويغضى على القذى * ويسخو بما تحوى يداه ويشجع

وقال الاشعث بن قيس يوما لقومه انما أنا رجل منكم ليس لى فضل عليكم لكنى أبسط لكم وجهى وأبذل لكم مالى وأقضى حقوقكم وأحوط حريمكم فمن فعل مثل فعلى فهو مثلى ومن زاد على فهو خير منى ومن زدت عليه فانا خير منه قيل له يا أبا محمد مايدعوك الى هذا الكلام قال حضهم على مكارم الاخلاق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ولما أتى صلى الله عليه وسلم بسبايا طى كانت فى السبايا جارية جميلة فصيحة فقالت يارسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فان رأيت أن تخـلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فانى بنت سـيد قومى كان أبى يفك العانى ويحمى الذمار ويقرى الضيف ويشبع الجائع ويفرج عن المكـروب ولم يرد سائلا قط أنا بنت حاتم طى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه صفة المؤمن ولو كان أبوك مسلما لترحمت عليه خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الاخلاق ولما توفى عبد الله بن طاهر صلى عليه ابنه طاهر بن عبد الله ودفنه وأعتق عند كل زاوية من زوايا قبره رقبة من غلمانه وفعل ذلك اخوته ودفع كل رجل منهم الى كل غلام خمسمائة درهم وكان عبد الله بن طاهر قد خلف أربعين ولدا ذكرا فقال أبو العميثل الاعرابى الشاعر لمصعب بن عبـد الله وكان يختص بطاهر وينادمه ألا أدلك على شئ تفعله فتتقدم به سائر اخوتك عند الامير طاهر قال بلى فانشده هذه الابيات وقال اكتب بها الى الامير

يامن يحاول أن تكون خـلاله * كخلال عبـد الله أنصت واسمع
فلاً نصـحنك بالنصيحة والذى * حج الحجيج اليـه فاقبـل أودع
ان كنت تطمع أن تحـل محله * فى المجـد والشرف الاشم الارفع
فاصدق وعف وبر وانصر واحتمل * واحلم ودار وكاف واصبر واخشع

والطف ولن وتأن وارفق واتئد * واحزم وجدّ وحام واحمل وادفع
هذا الطريق الى المكارم مهيعا * فابصر فقد أسلكت قصد المهيع

فاستحسن طاهر الابيات وقال والله لقد أفدتنى بما يجب به شكرك علىّ فقلده نيسابور وأعمالها ثلاث سنين وأكسبه ألف ألف درهم وقد جمعت هذه الابيات خلال المكارم وموجبات السودد وتفاريق المروءة وكان سلم بن نوفل سيد كنانة فوثب رجل على ابنه وابن أخيه فجرحهما فأتى به اليه فقال له من آمنك من انتقامى قال ما سودناك الا أن تكظم الغيظ وتعفو عن الزلة وتحلم عن الجاهل وتحتمل المكروه قال صدقت وخلى سبيله وفى سلم هذا يقول الشاعر

نسود أقوام وليسوا بسادة * بل السيد المعلوم سلم بن نوفل

قيل لعرابة الاوسى بم سودك قومك قال بأربع خلال أنخدع لهم فى مالى وأذل لهم فى عرضى ولا أحقر صغيرهم ولا أحسد كبيرهم وفى عرابة الاوسى يقول الشاعر

رأيت عرابة الاوسىّ يسمو * الى الخيرات منقطع القرين
اذا ما راية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين

وقال بعضهم

ان السيادة فاعلمنّ مؤنة * لولا صعوبتها الساد الرذل
ما كل من طلب السيادة نالها * ما نالها الا الجواد المفضل
يمسى ويصبح بالهموم موكلا * وأخو المكارم بالهموم موكل
وتراه من طلب المعالى ناحلا * وكذاك من طلب المعالى ينحل

وقال أبو الطيب

اذا لم يكن للمرء فضل ولم يكن * يدافع عن اخوانه لم يسود
وكيف يسود الناس من كان دهره * بلا منة منه عليهم ولا يد

وكان أسماء بن خارجة الفزارى سيد أهل الكوفة فقال له يوما عبد الملك بن مروان ما أشياء تبلغنى عنك يا أسماء فقال يحدثك غيرى عنى يا أمير المؤمنين فقال له عبد الملك وعلى ذلك فأحب ان أسمعها منك يا أسماء فقال نعم يا أمير المؤمنين ما مددت رجلى بين يدى جليس لى قط مخافة أن يرى أنى تكبرت عليه ولا سألنى رجل قط حاجة فكان أكبر همى من الدنيا الا قضاء حاجته ولا أكل رجل عندى قط أكلة الا كان له الفضل علىّ أيام حياتى ولا ظلمنى رجل قط بظلامة الا رأيت عقوبته العفو عنه فقال عبد الملك حسبك بهذا شرفا يا أسماء ثم أنشد عبد الملك يقول

اذا ما مات خارجة بن حصن * فلا مطرت على الارض السماء

ولا رجع الوفود بغنم عيش * ولا حملت على الطهر النساء
ليوم منك خير من أناس * كثير حولهم نعم وشاء
فبورك في بنيك وفي بنيهم * اذا ذكروا ونحن لك الفداء

وهذه الابيات لعبد الله بن الزبير الاسدى فى مدح أسماء بن خارجة المذكور ولها حكاية تتعلق بها ليس هذا الباب موضع ذكرها قال الشاعر

والابن ينشا على ما كان والده * ان العروق عليها ينبت الشجر

قال جميل بن معمر

أرى كل عود نابتا فى أرومة * أبى منبت العيدان أن يتغيرا
بنو الصالحين الصالحون ومن يكن * لآباء صدق يلقهم حيث سيرا

وقال زهير بن أبى سلمى فى قصيدته التى مدح بها قوم سنان بن حارثة المرى

لأرتحلن بالفجر ثم لأدأبن * الى الليل الا أن يعرجنى طفل
الى معشر لا يورث اللؤم جدهم * أصاغرهم بل كل مجد له نجل
فما يك من خير أتوه فانما * توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطى الا وشيجه * وتغرس الا فى منابتها النخل

وهذا البيت من أشرد مثل قيل فى شبه البنين بالآباء ان مجدا فمجد وان لؤما فلؤم

(فصل فى المروءة)

اعلم أن المروءة دالة على كرم الأعراق باعثة على مكارم الاخلاق وهى مراعاة الاحوال التى يكون الانسان على أفضلها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته وقال عليه السلام لا دين الا بمروءة وقال عليه السلام المروءة فى الاسلام استحياء المرء من الله أولا ثم من نفسه آخرا قال ابن سلام حد المروءة رعى مساعى البر ورفع دواعى الضر والطهارة من جميع الادناس والتخلص من عوارض الالتباس حتى لا يتعلق بحاملها لوم ولا يلحق به ذم ومامن شئ يحمل على صلاح الدين والدنيا ويبعث على شرف الممات والمحيا الا وهو داخل تحت المروءة قيل لبعض الحكماء ما المروءة قال طهارة البدن والفعل الحسن وقال بعضهم من سلك المروءة سبيلا أصاب الى كل خير دليلا وسئل بعضهم أى الخلال أجمع للخير وأبعد من الشر وأحمد للعقبى فقال الجنوح الى التقوى والتحيز الى فئة المروءة وقال بعض العلماء اتق مصارع الدنيا بالتمسك بحبل المروءة واتق مصارع الاخرى بالتعلق بحبل التقوى تفز بخير الدارين وتحل أرفع المنزلتين وقال بعضهم اذا طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهما مروءة قال الشاعر

كمال المروءة صدق الحديث * وستر القبيح عن الشامتينا

قيل للاحنف بن قيس ما المروءة قال صدق اللسان ومواساة الاخوان وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال رفع رجل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى جرم اقترفه فاراد معاقبته فاخبر أن له مروءة فقال استوهبوه من صاحبه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجافوا عن عقوبة ذى المروءة مالم تبلغ حدا واذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وأسباب المروءة انما هى مرتبطة بشرف النفس وعلو الهمة اذا اجتمعا ولم يتفرقا قال بعض الحكماء المروءة سجيه جبلت عليها النفوس الزكيه وشيم طبعت عليها الهمم العليه وضعفت عنها الطباع الدنيه فلم تطق حمل أشراطها السنيه وقال غيره لايدرك المروءة الامن حوى خصالها وجمع خلالها وفى ذلك يقول الشاعر

ان المروءة ليس يدركها امرؤ * ورث المكارم عن أب فاضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا * ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فاذا أصاب من المكارم خلة * يبنى الكريم بها المكارم باعها

قال ابن عائشة القرشى لولا أن المروءة صعب محملها لماترك الائام للكرام منها بيتة ليلة وللمروءة وجوه وآداب لايحصرها عدد ولاحساب وقلما اجتمعت شروطها قط فى انسان ولا كملت وجوهها فى بشر فان كان ففى الانبياء صلوات الله عليهم دون سائرهم وأما الناس فيها فعلى مراتب بتة ربما أحرز كل واحد منهم من خصالها واحتوى عليه من خلالها قال بعض الحكماء لاتفارق الصبر فتعظم عليك البلوى ولا المروءة فتشمت بك الاعدا قال الشاعر

من فارق الصبر والمروه * أمكن من نفسه عدوه

قيل لعبد الملك بن مروان كان مصعب بن الزبير يشرب الطلا قال لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ماشربه قال الشاعر

أعف عن الامر القبيح تكرما * وان لم أكن حبرا ولامتخشعا
وأمنع نفسى ماتلذ وتشتهى * اذا أنا يوما خفت عينا ومقرعا
ولو خلت أن الماء يوما يشيننى * لمت ولم أجرع من الماء مجرعا

قيل لسفيان بن عيينة قد استنبطت من القرآن كل شئ فاين المروءة فيه فقال فى قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ففيه المروءة وحسن الآداب ومكارم الاخلاق فجمع فى قوله خذ العفو صلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين وغير ذلك من أخلاق المطيعين ودخل فى قوله وأمر بالعرف صلة الارحام وتقوى الله فى الحلال والحرام وغض الابصار

والاستعداد لدار القرار ودخل فى قوله وأعرض عن الجاهلين الحض على التخلق بالحلم والاعراض عن أهل الظلم والتنزه عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة والاغبياء وغير ذلك من الاخلاق الحميدة والافعال الرشيدة وقال الله عزوجل حكاية عن قوم قارون وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض وفيها عين المروءة وحقيقتها وقال بهرام بن بهرام المروءة اسم جامع للمحاسن كلها وقال أنوشروان المروءة أن لا تعمل عملا فى السر تستحى منه فى العلانية وكان يحيى بن خالد يقول المروءة سعة المنزل وكثرة الخدم ووطاءة الفرش وطيب الرائحة والاحسان الى الحاشية والافضال على الاخوان وكان الحسن بن سهل يقول المروءة والشرف فى البشر ولا يصلح للصدر الا واسع الصدر وكان الفضل البلعمى يقول المروءة الجمع بين الدين والدنيا والتوقى من سخط الخالق وذم المخلوقين وكان عبد الله ابن أحمد بن يوسف يقول المروءة الكبرى اطعام الطعام ومجالسة الكرام وقال المهلب المروءة عشرة أجزاء تسعة منها فى المائدة وجزء منها فى سائر الاشياء وقال يحيى اذا أردت أن تنظر مروءة المرء فانظر الى مائدته فان كانت حسنة فاحكم له بالشرف وان رأيت تقصيرا فما وراءها خير وقال أبو منصور الثعالبى لا مروءة لمن لا يجتمع الاخوان على خوانه ولا تقع الاجفان على جفانه وقال بعضهم المروءة ادامة الاهداء وترك الاستهداء قال بعض السلف المروءة اصلاح المال وحسن التدبير وتعاهد الصنيعة والافضال على الاخوان وقال أبو منصور المروءة أن تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا قال مسلمة بن عبد الملك ما أعان على مروءة المرء كالمرأة الصالحة قال الشاعر

اذا لم يكن فى منزل المرء حرة * مدبرة ضاعت مروءة داره

وسئل عبد الله الفارسى عنها فقال هى التألف والتظرف والتنظف وترك التكلف وأنشد أبو بكر الاسماعيلى

واذا جلست وكان مثلك قائما * فمن المروءة أن تقوم وان أبى

واذا اتكأت وكان مثلك جالسا * فمن المروءة أن تزيل المتكا

واذا ركبت وكان مثلك ماشيا * فمن المروءة أن مشيت كما مشى

قال الامام أبو الحسن الماوردى الفرق بين العقل والمروءة أن العقل يأمر بالانفع والمروءة تأمر بالأجمل ولا ينقاد للمروءة الا من سهلت عليه المشاق رغبة فى الحمد ولذلك سيد القوم أشقاهم قال أبو الطيب

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والاقدام قتال

وقال أيضا

واذا كانت النفوس كبارا * تعبت فى مرادها الاجسام

والداعي الى استسهال المشاق علو الهمة وشرف النفس فعلو الهمة يبعث على التقدم وبشرف النفس يكون قبول التأديب والتهذيب وبه تعرف النفس قدرها وشروط المروءة وحقوقها لا تكاد تحصى لانتشارها وخفاء أكثرها ولكن الاظهر منها ينحصر في قسمين شروط مروءة المرء في نفسه وهي العفة والنزاهة والصيانة وشروط مروءة المرء في غيره وهي المعاونة والمياسرة والافضال

(العفة)

وهي اما عن المحارم واما عن المآثم فالعفة عن المحارم ضبط الفرج وكف اللسان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من وقي شر ذبذبه ولقلقه وقبقبه فقد وقي والذبذب الفرج واللقلق اللسان والقبقب البطن وقال عليه السلام أحب العفاف الى الله عفاف البطن والفرج والعفة عن المآثم كالكف عن الظلم والخيانة والمكر ولا يحيق المكر السيء الا بأهله والباعث على الظلم الجرأة والقسوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح ولم ينو ظلم أحد غفر له ما اجترم وقال لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه اتق دعوة المظلوم فانه يسأل حقه وان الله لا يمنع ذا حق حقه والخيانة مما تعجل عقوبتها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك وقال خالد الربعي قرأت في بعض الكتب ان مما تعجل عقوبته الامانة تخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغي على الناس

(النزاهة)

وهي اما عن المسامع الدنية أو عن مواقف الريبة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم اني أعوذ بك من طمع يهدي الى طبع وفي المعنى قال الشاعر

لا تضرعن لمخلوق على طمع * فان ذلك نقص منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه * فانما هو بين الكاف والنون

والباعث على الطمع الشره وقلة الانفة فلا يقنع بما أوتي ولا يستنكف مما منع وحسم الطمع باليأس والقناعة ومواقف الريبة التردد بين منزلتي حمد وذم والوقوف بين حالتي سلامة وسقم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك والمانع مما يريب الحياء والحذر وقد تنتفي الريبة بحسن الثقة وترتفع التهمة بطول الخبرة والصلاح كما حكي أن بعض الحواريين رأى عيسى عليه السلام وقد خرج من منزل ذات فجور فقال يا روح الله ما تصنع هنا قال الطبيب انما يداوي المرضى ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجده يحادثها وكان معتكفا فمر بهما رجلان من الانصار فأسرعا فقال لهما على رسلكما انها صفية بنت حيي فقالا سبحان الله أيتخالجنا فيك شك يا رسول الله فقال مه ان الشيطان يجري من ابن آدم

مجرى لحمه ودمه فخشيت أن يقذف فى قلوبكما سوأ وقال صلى الله عليه وسلم اذا لم يشن المرء عمل فقد سعد قال أبو بكر الصولى

حسنت ظنى باهل دهرى * فحسن ظنى بهم دهانى
لا آمن الناس بعد هـذا * ماالخوف الا من الامان

(الصـــــيانة)

وهى اما بالاقتصاد أو بالاستغناء عن الناس أما الاقتصاد فلان المحتاج مهتضم ولكن لابد مما يسد الخلة وشروطه ثلاثة أحدها أخذه من حله الثانى عدم ابتذال العرض فيه لان العرض لا يبتذل فى كسبه الثالث حسن التدبير لان سوء التدبير فساد وقيل الكمال فى ثلاث الفقه فى الدين والصبر على النوائب وحسن التدبير فى المعيشة وما فضل من الكفاية مجلبة للشغب والتعب وأما الاستغناء عن الناس فلان تحمل منن الناس ذل والاسترسال فى الاستعانة بهم تثقيل عليهم قال بعضهم من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لك عزته وأنشد ثعلب

من عف خف على الصديق لقاؤه * وأخو الحوائج وجهه مبذول
وأخوك من وفرت ما فى كيسه * فاذا استعنت به فأنت ثقيل

ومن دعاه الى الاستعانة اضطرار ألم أو حادث هجم فلا لوم على مضطر وقد اقترض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قضى فأحسن وقال من أعياه رزق الله حلالا فليستدن على الله ورسوله قال البحترى

ان لا يكن مال ففضل عطية * يبلغ بها باغى الرضى بعض الرضى
أو لا تكن هبة فقرض يسرت * أسبابه وكواهب من أقرضا

(المعاونة)

تكون بالجاه والمال والبدن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلق كلهم عيال الله فأحب خلق الله اليه أحسنهم صنيعا الى عياله وقال عليه السلام من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يتحمل تلك المؤنة عرض للزوال تلك النعمة وعلى المعاون التلقى بالبشر ومجانبة الامتنان وترك التعرض للتقريع بما كان وقال الشاعر

ألم تعلما أن الملامة نفعها * قليل اذا ما الشئ ولى فادبرا

قال عليه السلام أقيلوا ذوى الهيآت عثراتهم قال عدى بن زيد

كفى زاجرا للمرء أيام دهره * تروح له بالواعظات وتغتدى

وقال عليه السلام خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله والمعاونة واجبة للاهل والاخوان والجيران وتبرع لغيرهم

(المياســــــرة)

وهى العفو عن الهفوات والمسامحة فى الحقوق والواجبات فاما العفو عن الهفوات فشيمة أهل الفضل وعنوان ذوى العقل وقد قيل لاصديق لمن أراد صديقا لاعيب فيه وقيل لانوشروان هل من أحد لاعيب فيه قال من لاموت له قال أبو العتاهية

وشر الاخلاء من لم يزل * يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقا * ويبريك فى السر برى القلم

والهفوات صغائر وكبائر فالصغائر مغفورة لتعذر الاحتراس منها والكبائر منها ما يقع سهوا وهو هدر ومنها ما يقع عمدا فان كان مجازاة فاللائمة على البادى قال بعض الحكماء من نالته اساءتك همته مساءتك وان كان لكف عدو فالشر لا يطفأ الا بالشر وان كان اطفاؤه بالخير أولى قال جعفر بن محمد كفاك من الله نصرا أن ترى عدوك يعصى الله فيك وقال البحترى

فأقسم لا أجزيك بالشر مثله * كفى بالذى جازيتنى لك جازيا

وان كان لكف لئيم كان التغافل أولى وقيل شرف الكريم تغافله عن اللئيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس كشجرة ذات جنى ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات شوك ان ناقدتهم ناقدوك وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يارسول الله وكيف المخرج قال أقرضهم من عرضك ليوم فاقتك وقال شر ما فى الكريم أن يمنعك خيره وخير ما فى اللئيم أن يكف عنك شره قال ابن بقيلة

والخير والشر مقرونان فى قرن * فالخير متبع والشر محذور

وان كان تنكرا من صديق عولج بالاغضاء ويقال دواء المودة كثرة التعاهد قال كشاجم

أقل ذا الود عثرته وقفه * على سنن الطريق المستقيمه
ولا تسرع بمعتبة اليه * فقد يهفو ونيته سليمه

ومن الناس من يرى متاركة من تنكر كالعضو يقطع اذ فسد لان رغبتك فيمن يزهد فيك ذل وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة قيل للمهلب بن أبى صفرة ما تقول فى العفو والعقوبة قال هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بأيهما شئت ومن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة وهو اما ملل أو زلل فالملل مودة صاحبه ظل غمام وحلم منام فيترك لملله فيميل ويرجع والزلل ينبغى أن يؤول كما فعل خالد بن صفوان وقد مر به صديقان عرج أحدهما وطواه الآخر فقيل له فى ذلك فقال عرج الواحد لفضيلته وطوانا الآخر لثقته فان لم يقبل الزلل تأويلا ووقع عليه ندم فالندم توبة ولا ذنب لتائب ولا يكلف التائب عذرا وقال عليه السلام اياكم والمعاذر فانها مفاجر

وقال علي رضي الله عنه كفى بما يعتذر منه تهمة ومن عجل العذر قبل توبته قبل عذره فالعذر توبة قال الشاعر

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا * ان بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره * وقد أجلك من يعصيك مستترا
واحلم عن الناس اذ ما كنت مقتدرا * فالسيد الحر من يعفو اذا قدرا

وتارك التوبة والاعتذار ان كف عن الاساءة فالكف احدى التوبتين والاقلاع أحد العذرين وان استمر على اساءته فان أمكن استصلاحه استصلح والا فآخر الداء الكي ومن سل سيف البغي أغمد في رأسه وأما المسامحة في الحقوق الواجبات فلان الاستقصاء منفر وذلك لمقت الطباع لمن شاحها وحب من سامحها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجملوا في طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها وقال عليه السلام ألا أدلكم على شيء يحبه الله ورسوله قالوا بلى يارسول الله قال التغابن في الضعيف واشترى عمرو بن عبيد ازارا للحسن البصري وكان بستة دراهم ونصف فأعطى التاجر سبعة دراهم فقال التاجر انما ثمنه ستة ونصف قال هو لرجل لا يقاسم أخاه درهما والمسامحة في الاموال اسقاط وتخفيف وانظار وفي كلها احسن الثناء وجزيل الاجر قال محمود

المرء بعد الموت احدوثة * يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرئ * تطيب بعد الموت أخباره

(الافضال)

وهو اصطناع واستكفاف فأما الاصطناع فهو ما أعطاه المرء جود الشكور أو تألف به نبوة نفور ومن قلت صنائعه في الشاكرين وأعرض عن تألف النافرين بقي محقورا وفرد امهجورا قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ماطاوعني الناس على شيء أردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيا قال اسحاق بن ابراهيم الموصلي

يبقى الثناء وتذهب الاموال * ولكل دهر دولة ورجال
ما نال محمدة الرجال وشكرهم * الا الجواد بماله المفضال
لاترض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدق مايقول فعال

قال الاحنف ما ادخرت الآباء للابناء ولا أبقت الموتى للاحياء أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الاحساب وأما الاستكفاف فكل ما كف به لسان حاسد واستدفع به ضرر معاند وقال عليه الصلاة والسلام ماوقى المرء به عرضه فهو صدقة وامتدح الزهري رجل فأعطاه قميصه فقيل له تعطي في مثل هذا فقال ان من ابتغاء الخير اتقاء الشر وشرط عطاء الاستكفاف اخفاؤه

حتى لا يطمع فى مثله السفهاء وأن يظهر المعطى لما يعطيه وجها يقرن الاعطاء به وليغتنم المرء غناه وليأخذ من دنياه لآخراه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك

(من كتاب عين الادب والسياسة وزين الحسب والرئاسة)

(الباب الثالث فى الاخلاق)

أدب العلم

اعلم أن العلم أشرف مارغب فيه الراغب وأفضل ماطلب وجدّ فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب لان شرفه يثمر اصاحبه وفضله ينمى لطالبه قال الله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فنفى المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم وقال تعالى وما يعقلها الا العالمون فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا أو يفهم منه زجرا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الى ابراهيم عليه السلام انى عليم أحب كل عليم وروى أبو أمامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الناس أبناء ما يحسنون وقال مصعب بن الزبير تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يا بنىّ تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطا سدتم وان كنتم سوقة عشتم وقال بعض الحكماء العلم شرف لاقدر له والادب مال لاخوف عليه وقال بعض الادباء العلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف وقال بعض البلغاء تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح زيغك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك وأملك وقال على رضى الله تعالى عنه قيمة كل امرئ مايحسن فأخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لا يكون العلىّ مثل الدنىّ * لا ولا ذو الذكاء مثل الغبىّ
قيمة المرء قدر ما يحسن المر * ء قضاء من الامام علىّ

وليس يجهل فضل العلم الا أهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا أبلغ فى فضله لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذى به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا أهله وتوهموا أن ماتميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناة والطرف المشتهاة أولى أن يكون اقبالهم عليها وأحرى أن يكون اشتغالهم بها وقد قال ابن المعتز فى منثور الحكم العالم يعرف الجاهل لانه كان

جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله انصرفوا عن العلم وأهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين لان من جهل شيأ عاداه وأنشدني ابن لنكك لابي بكر بن دريد

جهلت فعاديت العلوم وأهلها * كذاك يعادي العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى أن يرى متصدرا * ويكره لا أدري أصيبت مقاتله

وقيل لبزرجمهر العلم أفضل أم المال فقال بل العلم قيل فما بالنا نرى العلماء على أبواب الاغنياء ولا نكاد نرى الاغنياء على أبواب العلماء فقال ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الاغنياء بفضل العلم وقيل لبعض الحكماء لم لا يجتمع العلم والمال فقال لعز الكمال فانشدت لبعض أهل هذا العصر

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله * فاجسامهم قبل القبور قبور
وان امرأ لم يحيى بالعلم ميت * فليس له حتى النشور نشور

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا يسقم نفسا فاخرج له طعاما ونفقة فقال فاقتي الى كلامكم أشد من فاقتي الى طعامكم اني طالب هدى لا سائل ندى فاذن له العالم وأفاده من كل ما سأل عنه فخرج جذلا فرحا وهو يقول علم أوضح لبسا خير من مال أغنى نفسا واعلم أن كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه في غير منزلته التي وصفه الله بها حيث يقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا وقال بعض العلماء لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدأنا العلم بالنقيصة ولكنا نطلبه لننقص في كل يوم من الجهل ونزداد في كل يوم من العلم وقال بعض العلماء المتعمق في العلم كالسابح في البحر ليس يرى أرضا ولا يعرف طولا ولا عرضا وقيل لحماد الراوية أما تشبع من هذه العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ منها المحدود فنحن كما قال الشاعر * اذا قطعنا علما بدا علم * وأنشد الرشيد عن المهدي بيتين وقال أظنهما له

يا نفس خوضي بحار العلم أو غوصي * فالناس ما بين معموم ومخصوص
لا شئ في هذه الدنيا نحيط به * الا احاطة منقوص بمنقوص

واذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة أهمها والعناية بأولاها وأفضلها وأولى العلوم وأفضلها علم الدين لان الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون اذ لا يصح أداء عبادة جهل فاعلها صفات آدائها ولم يعلم شروط اجزائها ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة وانما كان كذلك لان العلم يبعث على فضل العبادة

والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وفيه تأويلان أحدهما علم مالا يسع جهله من العبادات والثاني جملة العلم اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية واذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض بعضه على الاعيان وفرض جميعه على الكافة كان أولى مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكافة قال الله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون وروى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فاذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير وأحدهما أحب الى من صاحبه أما هؤلاء فيسألون الله تعالى ويذكرونه فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وانما بعثت معلما وجلس الى أهل الفقه وروى مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خيار أمتي علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها وروى معاذ ابن رفاعة عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المطلين وتأويل الجاهلين وبين الشافعي رضى الله عنه فضيلة كل واحد منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم العربية رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ولعمرى ان صيانة النفس أصل الفضائل لان من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذل لان القبيح أنم من الجميل والرذيلة أشهر من الفضيلة لان الناس لما في طباعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوى فلا ينصفون محسنا ولا يحابون مسيئا لاسيما من كان بالعلم موسوما واليه منسوبا فان زلته لا تقال وهفوته لا تعذر اما لقبح أثرها واغترار كثير من الناس بها وقد قيل فى منثور الحكم ان زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام من أشد الناس فتنة قال زلة العالم اذا زل بزلته عالم كثير وإما لان الجهال بذمه أغرى وعلى تنقصه أحرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص عنادا لما جهلوه ومقتا لما باينوه لان الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما كما أن العالم يرى الجهل تخلفا وذما وأنشدت عن الربيع للشافعي رضى الله عنه

ومنزلة السفيه من الفقيه * كمنزلة الفقيه من السفيه

فهذا زاهد فى قرب هذا * وهذا فيه أزهد منه فيه
اذا غلب الشقاء على سفيه * تقطع فى مخالفة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو ما جهل وأنا أكره أن تكون عدو شىء من العلم وأنشد

تفنن وخذ من كل علم فانما * يفوق امرؤ فى كل فن له علم
فانت عدو للذى أنت جاهل * به ولعلم أنت تتقنه سلم

واذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها أمن تعيير الموالى وتنقيص المعادى وجمع الى فضيلة العلم جميل الصيانة وعز النزاهة فصار بالمنزلة التى يستحقها بفضائله وروى أبو الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال العلماء ورثة الانبياء لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للانبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة وقال بعض البلغاء ان من الشريعة أن تجل أهل الشريعة ومن الصنيعة أن ترب حسن الصنيعة فينبغى لمن استدل بفطرته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل أن ينفى عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعاناة ويرغب فى العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجده ولا نفوذ أمر وعلو منزلة فان من نفذ أمره فهو الى العلم أحوج ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق وروى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك وقد قال بعض الادباء كل عز لا يوطده علم مذله وكل علم لا يؤيده عقل مضله وقال بعض علماء السلف اذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم فى ملوكهم والملك فى علمائهم وربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره فى صغره أن يتعلم فى كبره فرضى بالجهل أن يكون موسوما به وآثره على العلم أن يصير مبتدئا به وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل لان العلم اذا كان فضيلة فرغبة ذوى الاسنان فيه أولى والابتداء بالفضيلة فضيلة ولان يكون شيخا متعلما أولى من أن يكون شيخا جاهلا حكى أن بعض الحكماء رأى شيخا كبيرا يحب النظر فى العلم ويستحى فقال له ياهذا أتستحى أن تكون فى آخر عمرك أفضل مما كنت فى أوله وذكر أن ابراهيم ابن المهدى دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون فى الفقه فقال ياعم ما عندك فيما يقول هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين شغلونا فى الصغر واشتغلنا فى الكبر فقال لم لا تتعلمه اليوم قال أو يحسن بمثلى طلب العلم قال نعم والله لان تموت طالبا للعلم خير من أن تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن بى طلب العلم قال ما حسنت بك الحياة ولان الصغير أعذر وان لم يكن فى الجهل عذر لانه لم تطل به

مدة التفريط ولا استمرت عليه أيام الاهمال وقد قيل فى منثور الحكم جهل الصغير معذور وعلمه محقور فأما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه عليه أفضح لان علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكانت أيامه فى الجهل ماضيه ومن الفضل خاليه كان الصغير أفضل منه لان الرجاء له أكثر والامل فيه أظهر وحسبك نقصا فى رجل يكون الصغير المساوى له فى الجهل أفضل منه وأنشدت لبعض أهل الادب

اذا لم يكن مر السنين مترجما * عن الفضل فى الانسان سميته طفلا
وما تنفع الايام حين يعدها * ولم يستفد فيهن علما ولا فضلا
أرى الدهر من سوء التصرف مائلا * الى كل ذى جهل كأن به جهلا

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة وشغله اكتسابها عن التماس العلم وهذا وان كان أعذر من غيره مع أنه قلما يكون ذلك الا عند ذى شره وعيب وشهوة مستعبدة فينبغى أن يصرف الى العلم حظا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة ومن صرف كل نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها فراغا الى غيره فهو من عبيد الدنيا وأسراء الحرص وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شئ فترة فمن كانت فترته الى العلم فقد نجا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى وقال بعض العلماء من أحب العلم أحاطت به فضائله وقال بعض الحكماء من صاحب العلماء وقر ومن جالس السفهاء حقر وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته وبعد غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوى النقص وخيفة أهل العجز لان الاخبار قبل الاختبار جهل والخشية قبل الابتلاء عجز وقد قال الشاعر

لا تكونن للامور هيوبا * فالى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لابى هريرة رضى الله عنه أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال كفى بترك العلم اضاعة وليس وان تفاضلت الاذهان وتفاوتت الفطن ينبغى لمن قل منها حظه أن ييأس من نيل القليل وادراك اليسير الذى يخرج به من حد الجهالة الى أدنى مراتب التخصيص فان الماء مع لينه يؤثر فى صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الزكى فى نفس راغب شهى وطالب خلى لا سيما وطالب العلم معان قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصور فى نفسه حرفة أهله وتضايق الامور مع الاشتغال به حتى يسمهم بالادبار ويتوسمهم بالحرمان فان رأى محبرة تطير منها وان رأى كتابا أعرض عنه

وان رأى متحليا بالعلم هرب منه كأنه لم ير عالما مقبلا ولا جاهلا مدبرا ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوي منازل وأحوال كنت أخفي عنهم ما يصحبني من محبرة وكتاب لئلا أكون عندهم مستثقلا وان كان البعد عنهم مؤنسا ومصلحا والقرب منهم موحشا ومفسدا فقد قال بزرجمهر الجهل في القلب كالنز في الارض يفسد ما حوله لكن اتبعت فيهم الحديث المروي عن أبي الاشعث عن أبي عثمان عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خالطوا الناس باخلاقهم وخالفوهم في أعمالهم ولذلك قال بعض البلغاء رب جهل وقيت به علما وسفه حميت به حلما وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها اصلاح ولا يؤمل لها فلاح لان من اعتقد أن العلم شين وان تركه زين وان للجهل اقبالا مجديا وللعلم ادبارا مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا وكان هو الخامس الهالك الذي قال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه أغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك وقد رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مسندا وليس لمن هذه حاله في العذل نفع ولا في الاصلاح مطمع وقد قيل لبزرجمهر مالكم لا تعاتبون الجهال فقال انا لا نكلف العمي أن يبصروا ولا الصم أن يسمعوا وهذه الطائفة التي تنفر من العلم هذا النفور وتعاند أهله هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنفر من العقلاء هذا النفور وتعتقد أن العاقل محارف وأن الاحمق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده في العقل والعلم هل يكون لخير اهلا أو لفضيلة موضعا وقد قال بعض البلغاء أخبث الناس المساوي بين المحاسن والمساوي وعلة هذا انهم ربما رأوا عاقلا غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا أن العلم والعقل هما السبب في قلة حظه ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان اكثر النوكى وادبار أكثر الجهال لان في العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سمة ولذلك قيل العلماء غرباء لكثرة الجهال فاذا ظهرت سمة فضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنوهوا بالتميز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين بايماء الشامتين والجهال والحمق لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت ولا قصد المجدود منهم باشارة عائب فلذلك ظن الجاهل المرزوق ان الفقر والضيق مختص بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبال في أكثرهم ولو اختبرت أمور الجهال والحمق مع كثرتهم لوجدت الحرمان في أكثرهم وانما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهرا لان حظه عجيب واقباله مستغرب كما أن حرمان العاقل العالم غريب واقلاله عجيب ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجمهر ما أعجب الاشياء فقال نجح الجاهل واكداء العاقل لكن الرزق بالحظ والجد لا بالعلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته واجراء الامور على مشيئته وقد قالت الحكماء لو جرت الاقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمه أبو تمام فقال

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل * ويكدى الفتى من دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجرى على الحجى * هلكن اذن من جهلهن البهائم

وقال كعب بن زهير بن أبى سلمى

لو كنت أعجب من شئ لأعجبنى * سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لامور ليس يدركها * والنفس واحدة والهم منتشر

على أن العلم والعقل سعادة واقبال وان قل معهما المال وضاقت معهما الحال والجهل والحمق حرمان وادبار وان كثر معهما المال واتسعت فيهما الحال لان السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقى ومقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغنى سعيدا والجهل يضعه أم كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه وقد قيل فى منثور الحكم كم من ذليل أعزه علمه ومن عزيز أذله جهله وقال عبد الله بن المعتز الجاهل كروضة على مزبلة وقال بعض الحكماء كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحا وقال بعض العلماء لبنيه يابنى تعلموا العلم فان لم تنالوا به من الدنيا حظا فلأن يذم الزمان لكم أحب الى من أن يذم الزمان بكم وقال بعض الادباء من لم يفد بالعلم مالا كسب به جمالا وأنشد بعض أهل الادب لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفى أنينه * ويضحى كئيب البال عندى حزينه
يلوم على أن رحت للعلم طالبا * أجمع من عند الرواة فنونه
فاعرف أبكار الكلام وعونه * وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم ان العلم لايكسب الغنى * ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لائمى دعنى أغالى بقيمتى * فقيمة كل الناس مايحسنونه

وأنا أستعيذ بالله من خدع الجهل المذله وبوادر الحمق المضله وأسأله السعادة بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدى به من ضل فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم فينبغى لمن زهد فى العلم أن يكون فيه راغبا ولمن رغب فيه أن يكون له طالبا ولمن طلبه أن يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه أن يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا وقد قال الشاعر

فلا تعذرانى فى الاساءة انه * شرار الرجال من يسئ فيعذر

ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا ولكل زمان عذرا وقال الشاعر

نروح ونغدو لحاجاتنا * وحاجة من عاش لاتنقضى
تموت مع المرء حاجاته * وتبقى له حاجة مابقى

(أدب النفس)

اعلم ان النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة لا يستغنى محمودها عن التأديب ولا يكتفى بالمرضى منها عن التهذيب لان لمحمودها اضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان أغفل تأديبها تفويضا الى العقل أو توكلا على أن تنقاد الى الاحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الادب عاطلا وفى صورة الجهل داخلا لان الادب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وزكى الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الادب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين وبعقولهم مكتفين وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام من أدبك قال ما أدبنى أحد ولكنى رأيت جهل الجاهل فجانبته وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها وقال أزدشير بن بابك من فضيلة الادب انه ممدوح بكل لسان ومتزين به فى كل مكان وباق ذكره على أيام الزمان وقال مهبود شبه العالم الشريف العديم الادب بالبنيان الخراب الذى كلما علا سمكه كان أشد لوحشته وبالنهر اليابس الذى كلما كان أعرض وأعمق كان أشد لوعورته وبالارض الجيدة المعطلة التى كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافا وصار للهوام مسكنا وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا الى الادب الذى هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة فى الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها الا بالماء الذى يعود اليها من مستودعها وحكى الاصمعى رحمه الله تعالى أن اعرابيا قال لابنه يا بنى الادب دعامة أيد الله بها الالباب وحلية زين الله بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغنى وان صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغنى الارض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها وقال بعض الحكماء الادب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت وقال آخر العقل بلا أدب كالشجر العاقر ومع الادب كالشجر المثمر وقيل الادب أحد المنصبين وقال بعض البلغاء الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والحسب لان من ساء أدبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل أصله وقال بعض الادباء ذك قلبك بالادب كما تذكى النار بالحطب واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرتجيك راغب ويخاف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويرجى عدلك وقال بعض العلماء الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة وقال بعض الفصحاء الادب يستر قبيح النسب وقال بعض الشعراء فيه

فما خلق الله مثل العقول * ولا اكتسب الناس مثل الادب
وما كرم المرء الا التقى * ولا حسب المرء الا النسب
وفى العلم زين لاهل الحجا * وآفة ذى الحلم طيش الغضب

وأنشد الاصمعى رحمه الله

وان يك العقل مولودا فلست أرى * ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب
انى رأيتهما كالماء مختلطا * بالترب تظهر منه زهرة العشب
وكل من أخطأته فى مولده * غريزة العقل حاكى البهم فى الحسب

والتأديب يلزم من وجهين أحدهما ما لزم الوالد لولده فى صغره والثانى ما لزم الانسان فى نفسه عند نشوه وكبره فاما التأديب اللازم للاب فهو أن يأخذ ولده بمبادى الآداب ليأنس بها وينشو عليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستئناسه بمباديها فى الصغر لان نشو الصغير على الشئ يجعله متطبعا به ومن أغفل فى الصغر كان تأديبه فى الكبر عسيرا وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما نحل والد ولده نحلة أفضل من أدب حسن يفيده اياه أو جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه وقال بعض الحكماء بادروا بتأديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال وقال بعض الشعراء

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت * ولا يلين اذا قومته الخشب
قد ينفع الادب الاحداث فى صغر * وليس ينفع عند الشيبة الادب

وقال آخر

ينشو الصغير على ما كان والده * ان الاصول عليها تنبت الشجر

وأما الادب اللازم للانسان عند نشوه وكبره فادبان أدب مواضعة واصطلاح وأدب رياضة واستصلاح فاما أدب المواضعة والاصطلاح فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان الادباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيآت اللباس حتى ان الانسان الآن اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا للادب مستوجبا للذم لان فراق المألوف فى العادة ومجانبة ما صار متفقا عليه بالمواضعة مفض الى استحقاق الذم بالعقل ما لم يكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقد كان جائزا فى العقل أن يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسنا ويرون ما سواه قبيحا فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفا له من حيث انه كان جائزا فى العقل أن يوضع على خلافه وأما أدب الرياضة والاستصلاح

فهوما كان مجبولا على حال لا يجوز فى العقل أن يكون بخلافها ولا أن تختلف العقلاء فى صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما يأتى من ذلك شاهد ألهمها الله تعالى ارشادا لها قال الله تعالى فألهمها فجورها وتقواها قال ابن عباس رضى الله عنه بين لها ما تأتى من الخير وتذر من الشر وسنذكر تعليل كل شئ فى موضعه فانه أولى به وأحق فاول مقدمات أدب الرياضة والاستصلاح أن لا يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوى أخلاقه لان النفوس بالشهوات آمرة وعن الرشد زاجرة قال الله تعالى ان النفس لامارة بالسوء وقال صلى الله عليه وسلم أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالك ودعت أعرابية لرجل فقالت كبت الله كل عدو لك الا نفسك فاخذه بعض الشعراء فقال

قلبى الى ما ضرنى داعى * يكثر أسقامى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدوى اذا * كان عدوى بين أضلاعى

فاذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها وتحكيمها داع الى سلاطتها وفساد الاخلاق بها فاذا صرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هى عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه العاجز من عجز عن سياسة نفسه وقال بعض الحكماء من ساس نفسه ساد ناسه فاما سوء الظن بها فقد اختلف الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد مناصحتها فان النفس وان كان لها مكر يردى فلها نصح يهدى فلما كان حسن الظن بها يعمى عن محاسنها ومن عمى عن محاسن نفسه كان كمن عمى عن مساويها فلم ينف عنها قبيحا ولم يهد اليها حسنا وقد قال الجاحظ فى كتاب البيان يجب أن يكون فى التهمة لنفسه معتدلا وفى حسن الظن بها مقتصدا فانه ان تجاوز مقدار الحق فى التهمة ظلمها فاودعها ذلة المظلومين وان تجاوز بها الحق فى مقدار حسن الظن أودعها تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل وقال الاحنف ابن قيس من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ومن هدم دينه كان لمجده أهدم وذهب قوم الى أن سوء الظن بها أبلغ فى صلاحها وأوفر فى اجتهادها لان للنفس جورا لا ينفك الا بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف الا بالتهمة لها لانها محبوبة تجور ادلالا وتغر مكرا فان لم يسئ الظن بها غلب عليه جورها وتموه عليه غرورها فصار بميسورها قانعا وبالشبهة من أفعالها راضيا وقد قالت الحكماء من رضى عن نفسه أسخط عليه الناس وقال كشاجم

لم أرض عن نفسى مخافة سخطها * ورضا الفتى عن نفسه اغضابها

ولو أني عنها رضيت لقصرت * عما تزيد بعلة آدابها
وتبينت آثار ذاك فاكثرت * عذلى عليه فطال فيه عتابها

وقد استحسن قول أبي تمام الطائي

ويسىء بالاحسان ظنا لا كمن * هو بابنه وبشعره مفتون

فلم يروا اساءة ظنه بالاحسان ذما ولا استقلال عمله لوما بل رأوا ذلك أبلغ فى الفضل وأبعث على الازدياد فاذا عرف من نفسه ما تجن وتصور منها ما تكن ولم يطاوعها فيما تحب اذا كان غيا ولا صرف عنها ما تكره اذا كان رشدا فقد ملكها بعد أن كان فى ملكها وغلبها بعد أن كان فى غلبها وقد روى أبو حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشديد من غلب نفسه وقال عون بن عبد الله اذا عصتك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما أحبت ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك وقال بعض البلغاء من قوى على نفسه تناهى فى القوة ومن صبر عن شهوته بالغ فى المروءة فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما أكنت وخبرة ما أجنت بتقويم عوجها واصلاح فاسدها وقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه ثم يراعى منها ما صلح واستقام من زيغ يحدث عن اغفال أو ميل يكون عن اهمال ليتم له الصلاح وتستديم له السعادة فان المغفل بعد المعاناة ضائع والمهمل بعد المراعاة زائغ

(من أدب الدنيا والدين)

(الباب الرابع فى المباحث الادبية)

فى أن اللغة ملكة صناعية

اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هى ملكات فى اللسان للعبارة عن المعانى وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب فاذا حصلت الملكة التامة فى تركيب الالفاظ المفردة للتعبير بها عن المعانى المقصودة ومراعاة التأليف الذى يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة والملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال لان الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أى صفة راسخة فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم فى مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبى استعمال المفردات فى معانيها فيلقنها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد فى كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة

ويكون كأحدهم هكذا صارت الالسن واللغات من جيل الى جيل وتعلمها العجم والاطفال وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أى بالملكة الاولى التى أخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الاعاجم وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع فى العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التى كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليه الامر وأخذ من هذه وهذه فاستحدثت ملكة وكانت ناقصة عن الاولى وهذا معنى فساد اللسان العربى ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسد وبنى تميم وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان واياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لامم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الاعاجم وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق (من مقدمة ابن خلدون)

(فى أن العلم والتعليم طبيعى فى العمران البشرى)

وذلك أن الانسان قد شاركته جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك وانما تميز عنها بالفكر الذى يهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الانبياء عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه فهو مفكر فى ذلك كله دائما لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم والصنائع ثم لاجل هذا الفكر وما جبل عليه الانسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطباع يكون الفكر راغبا فى تحصيل ما ليس عنده من الادراكات فيرجع الى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو ادراك أو أخذه ممن تقدمه من الانبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه ثم ان فكره ونظره يتوجه الى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحدا بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير الحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا وتتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ الى تحصيل ذلك فيفزعون الى أهل معرفته ويجيئ التعليم من هذا فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبيعى فى البشر (من مقدمة ابن خلدون)

(فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع)

وذلك أن الحذق فى العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه انما هو بحصول ملكة فى الاحاطة بمباديه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق فى ذلك الفن المتناول حاصلا وهذه الملكة هى غير الفهم والوعى لانا نجد فهم المسئلة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركا بين من شدا فى ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه وبين العامى الذى لم يحصل علما وبين العالم النحرير والملكة انما هى للعالم أو الشادى فى الفنون دون من سواهما فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعى والملكات كلها جسمانية سواء كانت فى البدن أو فى الدماغ من الفكر وغيره كالحساب والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند فى التعليم فى كل علم أو صناعة الى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل أهل أفق وجيل ويدل أيضا على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه فلكل امام من الائمة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم والا لكان واحدا عند جميعهم ألا ترى الى علم الكلام كيف تخالف فى تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتاخرين وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه الى مطالعته تجد الاصطلاحات فى تعليمه متخالفة فدل على أنها صناعات فى التعليم والعلم واحد فى نفسه واذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتى المغرب والاندلس واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب الا قليلا كان فى دولة الموحدين بمراكش مستفادا منها ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحدية فى أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها فلم تتصل أحوال الحضارة فيها الا فى الاقل وبعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل الى المشرق من أفريقية القاضى أبو القاسم بن زيتون لعهد أواسط المائة السابعة فأدرك تلاميذ الامام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق فى العقليات والنقليات ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالى كان ارتحل اليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع الى تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيدا فأخذ عنهما أهل تونس واتصل سند تعليمهما فى تلاميذهما جيلا بعد جيل حتى انتهى الى القاضى محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلاميذه وانتقل من تونس الى تلمسان فى ابن الامام وتلاميذه فانه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفى مجالس بأعيانها وتلاميذ ابن عبد السلام بتونس

وابن الامام بتلمسان لهذا العهد الا أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشدالي وأدرك تلاميذ أبي عمرو بن الحاجب وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في العقليات والنقليات ورجع الى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها وربما انتقل الى تلمسان عمران المشدالي من تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها وتلاميذه لهذا العهد بجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه ان فاوض أو ناظر أو علم وما أتاهم القصور الا من قبل التعليم وانقطاع سنده والا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لاجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك وأما أهل الاندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين ولم يبق من رسم العلم فيهم الا فن العربية والادب اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين وأما العقليات فلا أثر ولا عين وما ذاك الا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها الا قليلا بسيف البحر شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها والله غالب على أمره وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وان كانت الامصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة الا أن الله تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك وانتقل العلم منها الى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما يليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها متصلا وسند التعليم بها قائما فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع حتى انه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب الى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل

من عقول أهل المغرب وانهم أشد نباهة وأعظم كيسا بفطرتهم الاولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا و بينهم فى حقيقة الانسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم فى العلوم والصنائع وليس كذلك وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذى هو تفاوت فى الحقيقة الواحدة اللهم الا الاقاليم المنحرفة مثل الاول والسابع فان الامزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر وانما الذى فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل فى النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم فى الصنائع ونزيده الآن تحقيقا وذلك أن الحضر لهم آداب فى أحوالهم فى المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم فلهم فى ذلك كله آداب يوقف عندها فى جميع ما يتناولونه و يتلبسون به من أخذ وترك حتى كأنها حدود لا تتعدى وهى مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الاول منهم ولاشك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس أثر يكسبها عقلا جديدا تستعد به لقبول صناعة أخرى ويتهيأ بها العقل لسرعة الادراك للمعارف ولقد بلغنا فى تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحمر الانسية والحيوانات العجم من الماشى والطائر مفردات من الكلام والافعال يستغرب ندورها ويعجز أهل المغرب عن فهمها وحسن الملكات فى التعليم والصنائع وسائر الاحوال العادية يزيد الانسان ذكاء فى عقله واضاءة فى فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس اذ قدمنا أن النفس انما تنشأ بالادراكات وما يرجع اليها من الملكات فيزدادون بذلك كيسا لما يرجع الى النفس من الآثار العلمية فيظنه العامى تفاوتا فى الحقيقة الانسانية وليس كذلك ألا ترى الى أهل الحضر مع أهل البدو كيف تجد الحضرى متحليا بالذكاء ممتلئا من الكيس حتى ان البدوى ليظنه أنه قد فاته فى حقيقة انسانيته وعقله وليس كذلك وما ذاك الا لاجادته فى ملكات الصنائع والآداب فى العوائد والاحوال الحضرية ما لا يعرفه البدوى فلما امتلأ الحضرى من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكمال فى عقله وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته وليس كذلك فانا نجد من أهل البدو من هو فى أعلى رتبة من الفهم والكمال فى عقله وفطرته انما الذى ظهر على أهل الحضر من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم فان لها آثارا ترجع الى النفس كما قدمناه وكذا أهل المشرق لما كانوا فى التعليم والصنائع أرسخ رتبة وأعلى قدما وكان أهل المغرب أقرب الى البداوة لما قدمناه ظن المغفلون فى بادئ الرأى أنه لكمال فى حقيقة الانسانية اختصوا به عن أهل المغرب وليس ذلك بصحيح فتفهمه والله يزيد فى الخلق ما يشاء وهو اله السموات والارض

(من مقدمة ابن خلدون)

(فى أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية أصل العمران والامصار مدد لهما)

البدو هم المقتصرون على الضرورى فى أحوالهم العاجزون عما فوقه والحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال فى أحوالهم وعوائدهم ولاشك أن الضرورى أقدم من الحاجى والكمالى وسابق عليه لان الضرورى أصل والكمالى فرع ناشئ عنه فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لان أول مطالب الانسان الضرورى ولا ينتهى الى الكمال والترف الا اذا كان الضرورى حاصلا فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ولهذا نجد التمدن غاية للبدوى يجرى اليها وينتهى بسعيه الى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذى يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج الى الدعة وأمكن نفسه الى قياد المدينة وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم والحضرى لا يتشوف الى أحوال البادية الا لضرورة تدعوه اليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته ومما يشهد لنا من أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا اذا فتشنا أهل مصر من الامصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفى قراه وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذى فى الحضر وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فافتهمه ثم ان كل واحد من البدو والحضر متفاوت الاحوال من جنسه فرب حى أعظم من حى وقبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر ومدينة أكثر عمرانا من مدينة فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والامصار وأصل لها بما أن وجود المدن والامصار من عوائد الترف والدعة التى هى متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية والله أعلم (من مقدمة ابن خلدون)

(فى أن أهل البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضر)

والسبب فى ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا فى النعيم والترف ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم الى واليهم والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم واستناموا الى الاسوار التى تحوطهم والحرز الذى يحول دونهم فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبى مثواهم حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحى وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الاسوار والابواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها الى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون من كل جانب فى الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غرارا فى المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ويتوجسون للنبآت والهيعات ويتفردون فى القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون اليها متى دعاهم داع أو استنفرهم

صارخ وأهل الحضر مهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيأ من أمر أنفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك ما شرحناه وأصله أن الانسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي ألفه في الاحوال حتى صار خلقا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرا صحيحا والله يخلق ما يشاء (من مقدمة ابن خلدون)

(في أن الأمة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع اليها الفناء)

والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف التناسل والاعتمار انما هو عن جدة الامل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فاذا ذهب الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليه من الاحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له والرئيس اذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كبده وهذا موجود في أخلاق الاناسي ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وأنها لا تسافد اذا كانت في ملكة الآدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال الى أن يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير وأكثر من الكثير يقال ان سعدا أحصى من وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفا منهم سبعة وثلاثون ألفا رب بيت ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم الا قليلا ودثروا كأن لم يكونوا ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم فملكة الاسلام في العدل ما علمت وانما هي طبيعة في الانسان اذا غلب على أمره وصار آلة لغيره ولهذا انما تذعن للرق في الغالب أمم السودان لنقص الانسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم أو من يرجو بانتظامه في ربقة الرق حصول رتبة أو افادة مال أو عز كما يقع لمماليك الترك بالمشرق والعلوج من الجلالقة والافرنجة بالاندلس فان العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

(من مقدمة ابن خلدون)

(الباب الخامس فى المقامات)

المقامة العاشرة وتعرف بالكوفية

حكى سهيل بن عباد قال كلفت منذ الصبا بعلم الادب وشغفت[1] باستقراء[2] لغة العرب فكنت أنضى[3] اليها المطايا[4] وأتفقد الخبايا فى الزوايا حتى كنت يوما بالكوفة[5] وأنا أتعهد[6] معاهدها المألوفة وأشهد[7] مشاهدها[8] الموصوفة فمررت بعصبة[9] من العلماء كأنهم من بنى ماء السماء[10] وهم قد جلسوا الى شيخ أغبر الشيبه ابلج[11] الهيبه وهو يشير تارة بالبنان وطورا بالصولجان فجعلت أروح تلقاءهم وأجى وأقول ليس هذا بعشك فادرجى[12] حتى حدتنى[13] القطربية[14] على الاشعبيه[15] فالقيت دلوى فى الدلاء[16] طمعا فى اجتلاء الجلاء[17] وتطفلت على تلك الحضرة الجلى[18] وان كنت ممن عبس وتولى[19] فلما تخللت المقام حييت القوم بالسلام وتفرست فى الشيخ فاذا هو ميمون بن خزام فقلت لله الامر كله قد عرف النخل أهله[20] وجعل القوم يخوضون فى حديث العربيه ومسائلها الاعرابيه حتى حلت الحبى[21] وبلغ السيل الربى[22] والشيخ ينظر من طرف خفى الى الناس والقلم فى يده يجرى على قرطاس[23] الى أن نفد[24] ما عند الجماعه من أسرار الصناعه وهم يرون أنه يلتقط اللآلى

---

(١) مجهول شغف من قولهم شغفه الحب أى بلغ شغاف قلبه وهو غلافه (٢) تتبع (٣) أى أهزلها بكثرة السفر (٤) الركائب (٥) مدينة بالعراق (٦) أتفقد (٧) أحضر (٨) محاضرها (٩) جماعة ما بين العشرة الى الاربعين (١٠) هى ماويه بنت عوف بن جشم وقيل بنت ربيعة النغابى وهى أم المنذر ملك العراق وكانت تلقب بماء السماء لجمالها (١١) ظاهر (١٢) اذهبى وهو مثل يضرب لمن يريد الدخول فيما ليس من أهله (١٣) أى حملتنى (١٤) نسبة الى قطرب وهو محمد بن المستنير كان يبكر الى سيبويه ليأخذ عنه علم النحو فكان سيبويه كلما فتح بابه وجده لدى الباب فقال ما أنت الا قطرب ليل فلقب بذلك والقطرب ذباب يطير بالليل ولا ينام (١٥) نسبة الى أشعب وهو رجل من أهل المدينة كان مولى لعثمان بن عفان وكان يكنى بابى العلاء توفى سنة أربع وخمسين من الهجرة وكان شديد الطمع حتى ضرب به المثل فيقال هو أطمع من أشعب يقول سهيل ان الرغبة فى العلم حملته على الدخول فى الطماعية الاشعبية (١٦) أى بين الدلاء وهو مثل يضرب للدخول مع الناس فيما هم عليه (١٧) استكشاف الامر الجلى (١٨) تأنيث الاجل (١٩) أدبر (٢٠) مثل يضرب عند وصول الامر الى أهله وأصله أن بنى عبد القيس ساروا يطلبون السعة والريف حتى بلغوا أرض هجر والبحرين فوجدوا بلادا أفضل من بلادهم فنزلوا هنالك وجاوروا بنى اياد والازد وشدوا خيولهم بكرانيف النخل وهى ما يبقى فى جذوعه بعد قطع السعف فقالت اياد عرف النخل أهله فذهبت مثلا (٢١) جمع حبوة وهى أن يجمع الرجل ظهره وساقيه بيديه فى جلوسه يكنى بذلك عن التمكن فى الامر (٢٢) مثل يضرب فى بلوغ الامر الى غايته ويروى بلغ السيل الزبى بالزاى جمع زبية وهى الرابية التى لا يعلوها الماء (٢٣) ورق (٢٤) فرغ

و ينظم في سمط(1) الأمالي(2) فقالوا أيها الشيخ نراك تجمع مما تسمع قال ان لكل ساقطه لاقطه(3)
ولكن أريد أن تنظروا ما كتبت لترواهل أخطأت أم أصبت فتناولوا الرقعة بيديها واذا هو يقول فيها
ما الفرق بين التمييز والحال(4) وبين عطف البيان والابدال(5) وأين يستوفى حق الاسناد ولا يخرج
ركنيه عن حكم الافراد(6) وأي الضمير يتردد بين التعريف والتنكير(7) وأين يراعى ما يقدر ولا يبالى
بما يذكر(8) وأي اسم يجتمع فيه خمس من موانع الصرف(9) وأي لفظ يشارك الاسم والفعل والحرف(10)
وفي أي الاماكن يجتمع ثلاثة من السواكن(11) وأي فعل يعطى ما للاسماء ويمنع مما للافعال(12) وأي
اسم يجرى مع قبيلته على هذا المنوال(13) قال فلما وقفوا على تلك المسائل رأوها من المشاكل
فقالوا لله أنت فقد أحسنت ولكن لو أبنت فعبس حتى ما نبس(14) وصارت مقلتاه كالقبس(15)
فأشفقوا من غضبه(16) وسألوه عن محتضبه(17) فقال قد تكلفت لكم الخطاب ثم أتكلف الجواب

---

(١) خيط القلادة (٢) جمع املاء وهو تلقين الكاتب أي أنه يلتقط الفوائد و يكتبها في تلك الصحيفة
(٣) مثل أي لكل كلمة ساقطة أذن لاقطه (٤) يشترك الحال والتمييز في كونهما اسمين نكرتين فضلتين
منصوبتين رافعتين للابهام ولكنهما يفترقان في سبعة أمور الاول أن الحال تأتي جملة نحو جاء زيد يركض أو وهو
ضاحك والتمييز لا يكون الا اسما مفردا والثاني أن الحال قد يتوقف معنى الكلام عليها نحو لا تقربوا الصلاة وانتم
سكارى بخلاف التمييز والثالث أن الحال تبين الصفة والتمييز يبين الذات والرابع أن الحال تأتي متعددة نحو
جاء زيد راكبا ضاحكا بخلاف التمييز والخامس ان الحال تتقدم على عاملها المتصرف نحو خشعا أبصارهم يخرجون
وليس التمييز كذلك في الصحيح والسادس ان الحال حكمها الاشتقاق وحكم التمييز الجمود والسابع أن الحال تقع
مؤكدة لعاملها نحو تبسم ضاحكا ولا يقع التمييز كذلك (٥) يفترق عطف البيان عن البدل بأنه لا يكون ضميرا
ولا تابعا للضمير ولا جملة ولا تابعا للجملة ولا فعلا ولا تابعا للفعل ولا بلفظ متبوعه ولا مخالفا له في التعريف والتنكير
ولا في نية احلاله محله ولا من جملة أخرى في التقدير بخلاف البدل في كل ذلك (٦) ذلك في اسم الفاعل ونحوه فانه
يشتمل على المسند والمسند اليه وهو الضمير المستتر فيه ولا يكون جملة بل يبقى على افراده (٧) هو ضمير الغائب
فانه اذا عاد على معرفة كان معرفة نحو جاء زيد فاكرمته واذا عاد على نكرة كان نكرة نحو رب رجل لقيته (٨) ذلك
في نحو يا سيبويه الكريم فان الكسرة الظاهرة في آخر سيبويه لا يعتد بها حتى تكسر الصفة حملا عليها وانما يعتد بالضمة
المقدرة للنداء فترفع الصفة لاجلها (٩) هو اذربيجان اسم مقاطعة من بلاد الفرس فان فيه العلمية والتأنيث
والعجمة والتركيب وزيادة الالف والنون (١٠) هو اسم الفعل فانه يشارك الاسم في التنوين والفعل في المعنى
والحرف في البناء (١١) ذلك في نحو موادّ اذا وقعت في الوقف فان الالف والدال المدغمة والدال المدغم فيها سواكن
(١٢) هو أفعل التعجب فانه يصغر كالاسماء ولا يتصرف كالافعال (١٣) هو أفعل التفضيل فانه يمنع من الكسر
والتنوين كالافعال ولا يثنى ولا يجمع كالاسماء (١٤) نطق بكلمة (١٥) شعلة النار (١٦) ارتاعوا
(١٧) يقال احتضب النار اذا أوقدها

ولعلى فوق ذلك أتكلف الكم الثواب[1] قالوا لا وأيدك[2] الله بل ان جئت بالبينة السافرة[3] وجلوت الشرود النافره فالنقد عند الحافره[4] فلما آنس الندى[5] ووجد على النار هدى فتح خزانة أسراره وسمح بمكنونات أفكاره حتى امتلأت حقائب[6] الملا[7] وقالوا هكذا هكذا والا فلا بيد أنهم[8] مالوا الى استملاء[9] ما أبان حرصا على ثباته فى الاذهان فقال اكتب يا سهيل واندفق فى املائه كالسيل حتى اذا أترع[10] الكؤس وفاد الشموس[11] بالشموس[12] قال لا مخبأ لعطر بعد عروس[13] ثم أشار الى وأنشد

العلم خير من صلاة النافله[14] * به الى الله العباد واصله

فاحرص عليه والتقط مسائله * ودع كنوز المال فهى باطله

ولا تبع آجله بعاجله[15] * ولا تضع واصلة[16] بحاصله

واعرض عن الليلة نحو القابله * فذاك مشرب الثقات الكامله

وليس خير فى النفوس العاقله * ان غفلت عن القلوب الغافله

والناس ان كانت طغاما[17] جاهله * فما يكون الفرق يا ابن الفاعله

* بين الرجال وبغال القافله *

---

(١) الجزاء (٢) الواو زائدة لدفع الايهام لان تركها يوهم أن المراد الدعاء عليه بنفى التأييد (٣) الظاهرة (٤) مثل يضرب لسرعة القبض (٥) أى شعر بالعطاء (٦) أوعية تشد الى الرحال (٧) الجماعة (٨) أى غير أنهم (٩) استكتاب (١٠) ملأ (١١) الخمور (١٢) أى الالفاظ الباهرة (١٣) مثل قالته أسماء بنت عبد الله العذريه وكان لها زوج من قومها يقال له عروس فمات وتزوج بها رجل آخر يقال له نوفل وكان بخيلا دميما أبخر أى خبيث رائحة الفم أعسر اليدين بخلاف الاول فلما رحل بها مرت على قبر عروس وجلست تبكى وترثيه بقولها

أبكى عليك يا عروس الاعراس * يا ثعلبا فى أهله للايناس

وأسدا بين الاعادى فراس * كان عن الهمة غير نعاس

ويعمل السيف صبيحة الباس * ثم أمور ليس تدريها الناس

فقال نوفل وما هى تلك الامور فقالت

كان عيوفا للخنا والمنكر * وطيب النكهة غير أبخر * وأيسر اليدين غير أعسر

فعلم نوفل أنها تعرض به فأمرها بالنهوض فلما نهضت سقطت منها قارورة العطر فقال لها نوفل خذى عطرك فقالت المثل وقيل انها قالت لا عطر بعد عروس والمراد هنا أنه لا امكان لهذه المسائل بعد هذا المجلس (١٤) الزيادة عن الفرض وهو من الحديث (١٥) أى لا تبع الآخرة بالدنيا (١٦) قادمة (١٧) أوباشا

قال فلما فرغ من سحره السحري[1] انهال عليه الشمسي[2] والقمري[3] فأشار نحوي وقال اسق أخاك النمري[4] قالوا علم الله أن سيكون[5] ولكن السابقون السابقون[6] حتى اذا قضوا فريضة المكتوبه عادوا الى سنتي المندوبه[7] فخرجنا نجر الذلاذل[8] ونحمد البذل والباذل[9]

(المقامة الثلاثون وتعرف بالطبيه)

حكى سهيل بن عباد قال خرجت على فرس جموح[10] الى نية[11] طروح[12] فازعجني اهماجا وخببا[13] وأرهقني صعدا وصببا[14] حتى نهكني اللغوب[15] وأعياني الركوب[16] فنزلت لاقيل[17] واستقبل[18] واذا ناقة ترعى وهي تنساب كالافعي فوقفت أستشرف[19] الهضاب[20] والوهاد[21] وأنا أريد أن أبدلها بالجواد واذا شيخ قد انقض[22] على كنسر لقمان بن عاد[23] وقال هلكت ولو كنت سهيل بن عباد[24] فتوسمته[25] من تحت اللثام وقلت قاتلك الله ولو كنت ميمون بن خزام فضحك ثم كبر[26] وقال الاجتماع مقدر[27] ثم قال الطعام يا غلام فاحضر ماتسنى[28] ثم اندفع فتغنى قال فكان عندي أنس ذلك اللقاء أطرب

---

(١) أي الواضح كالسحر (٢) كناية عن الدينار (٣) كناية عن الدرهم (٤) مثل أصله أن كعب بن مامة الايادي خرج في ركب معهم رجل من بني النمر بن قاسط وكان ذلك في معظم الصيف فضلوا وقل ماؤهم فكانوا يتصافنون الماء وذلك أن يطرح في القعب حصاة ثم يصب فيه من الماء بقدر ما يغمر الحصاة فيشرب كل واحد قدر ما يشرب الآخر ولما نزلوا للشرب ودار القعب بينهم حتى انتهى الى كعب رأى الرجل النمري يحدد النظر اليه فآثره بمائه وقال للساقي اسق أخاك النمري فشرب النمري نصيب كعب من الماء ذلك اليوم ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر فتصافنوا بقية مائهم فنظر اليه النمري كنظرته أمس وقال كعب كقوله أمس وارتحل القوم وقالوا يا كعب ارتحل فلم يكن له قوة للنهوض وكانوا قد قربوا من الماء فقالوا له رد يا كعب انك وراد فعجز عن الجواب ولما يئسوا منه خيلوا عليه بثوب يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه مكانه فمات فذهب ذلك مثلا في تفضيل الرجل صاحبه على نفسه (٥) أي علم الله أننا سنعطيه (٦) أي الاول فالاول (٧) مادون الفرض من الاعمال الدينيه (٨) ما يلي الارض من أسافل الثوب (٩) أي العطاء والمعطي (١٠) يغلب فارسه (١١) جهة ينوي السفر اليها (١٢) بعيدة (١٣) الاهماج أشد الركض والخبب ركض مضطرب (١٤) أي حملني فوق طاقتي صعودا وانحدارا (١٥) أي أضعفني التعب الشديد (١٦) أي عجزت عنه (١٧) أنام نصف النهار (١٨) أطلب الاقالة من الجهد (١٩) أنظر ويداي فوق حاجبي (٢٠) التلال (٢١) الاراضي المنخفضة (٢٢) هجم (٢٣) يقال ان لقمان كان يعتني بتربية النسور فربى سبعة منها وهلكت الا واحدا كان أشدها وهو لبد المذكور في المقامة الخطيبية (٢٤) قال ذلك وهو قد عرفه وعلم أنه يريد أن يأخذ الناقة (٢٥) أي عرفته بعلاماته (٢٦) قال الله أكبر (٢٧) أي أنه يكون بأمر الله وقضائه (٢٨) تهيأ

من شدو[1] سلامة الزرقاء[2] وبت معه ليلة من ليالى الدهر[3] أحسبها خيرا من ألف شهر حتى اشتعل رأسها شيبا وعط[4] الصباح لديجورها[5] جيبا[6] فاستوى الشيخ على القتب وقال أجيبوا داعى الله الى ما كتب فأوفضنا[7] فى مفازة صلده حتى أفضينا[8] الى بلده بها مدرسة للطب عن الحرث ابن كلده[9] خلالناها حلول النون[10] فى القفار أو الضب[11] فى البحار ولما انجابت[12] وعكة[13] السفر خرج الشيخ[14] فى ارتياد[15] الظفر حتى أتينا المدرسة وهى حافلة بالطلبة وقد قام فى صدرها شيخ طويل الارنبه[16] عظيم العرتبه[17] فقال الحمد لله الذى شرف علم الابدان حتى قدم على علم الاديان[18] أما بعد فان هذا العلم أفضل علوم الدنيا جميعا[19] لأنه أشرفها موضوعا وهو أدقها نظرا وأجلها خطرا[20] وأقدمها وضعا وأعظمها نفعا وأغمضها سريرة[21] وأوسعها حظيرة[22] وهو يستطاع الخبايا ويستوضح الخفايا[23] حتى قيل انه وحى قد هبط على الاطباء كما هبط الوحى على الانبياء وصاحب هذه الصناعة أروج[24] الناس بضاعه وأربحهم تجاره وأشهاهم زياره وأكسبهم أجرة وأجرا وأنفذهم نهيا وأمرا[25] وعليه مدار الاعمال والمهن[26] وقيام الفروض والسنن فان كل ذلك لا يتم الا بصحة البدن وطالما كان هذا الفن أعز من جبهة الاسد[27] حتى اغتاله الجهلاء فاوثقوا جيده[28] بحبل من مسد[29] فواها[30] له كيف ثل[31] عرشه[32] وآها[33] العليلهم[34] كيف قل[35] نعشه قال وكان فى الحضرة فتى باهر اللطافه ظاهر القضافه[36] فقال يا مولاى انى قد منيت[37] بجهل المتطببين[38] الرعاع[39] الذين لا يعرفون الصافن[40]

---

(1) غناء (2) هى جارية كانت لجعفر بن سليمان بن عبد العزيز الاموى اشتراها بثمانين ألف درهم وكانت توصف بحسن الصوت وطيب الغناء قيل انها غنت يوما بحضرة معن بن زائدة الشيبانى وروح بن حاتم المهلبى وابن المقفع فأفرغ معن بين يديها بدرة من المال وفعل روح كذلك ولم يكن عند المقفع مال فاعطاها صكا فيه عهدة ضيعة له (3) أى من لياليه المعدودة (4) شق (5) ظلامها (6) زيق القميص من أعلاه (7) أى أسرعنا فى فلاة صلبة (8) انتهينا (9) هو رجل من بنى ثقيف كان طبيب العرب وكان حاذقا فى صناعته أخذ الطب عن الفرس فبرع فيه وكانت وفاته فى خلافة الامام عمر (10) الحوت (11) دويبة برية (12) يعنى انا نزلنا بها غرباء لانها ليست مكا ئلنا (13) انكشفت وزالت (14) أثر التعب (15) طلب (16) طرف الانف (17) طرف الحجاب الذى بين المنخرين (18) اشارة الى ما ورد فى الحديث من قوله العلم علمان علم الابدان وعلم الاديان (19) أى العلوم الدنيوية احترازا عن العلوم الدينية (20) شرفا (21) لانه يتعلق بالخفايا المكنونة فى بواطن الاجسام (22) هى فى الاصل ساحة تحاط بسياج للغنم ثم استعملت لغير ذلك (23) لانه يكشف الامراض الباطنة بالدلائل الخارجية ويهتدى به الى قوى الادوية وطرق المعالجات (24) أنفق (25) أى على المرضى (26) الصنائع (27) مثل فى العزة والمنعة (28) عنقه (29) ليف (30) كلمة تعجب (31) كسر او هدم (32) كرسيه أى كيف ذهب عزه وهو مثل (33) كلمة تحسر (34) أى العليل الذى يعالجونه (35) رفع (36) نحافة الجسم (37) بليت (38) المدعين معرفة الطب (39) الاحداث السفله (40) عرق فى الرجل

من حبل الذراع[1] فلعلك توصيني بما يكون غنية اللبيب عند غيبة الطبيب[2] فاطرق هنيهة للترويه[3] ثم هب في التوصيه[4] فقال يا بني لا تجلس على الطعام الا وأنت جائع وقم وأنت بما دون الشبع[5] قانع وباكر في الغداء ولا تناس في العشاء والزم الرياضة[6] على الخلاء واجتنبها عند الامتلاء ولا تدخل طعاما على طعام[7] ولا تشرب بعد المنام ولا تكثر من الألوان[8] على الخوان[9] ولا تعجل في المضغ والازدراد[10] واجتنب كل ما لم ينضج[11] وما بات من الطعام فهو مجلبة للفساد[12] واذا أمكنك الوجبه[13] فهي أفضل نخبه واقطع العادة المضره مرة بعد مره[14] وعليك بتنقية الفضول[15] في معتدلات الفصول واذا مرضت فقابل السبب[16] واحرص على القوة فانها الى الحياة سبب[17] وبالغ في الدواء ما شعرت بالداء ودعه متى وثقت بالشفاء[18] واذا استغنيت بالمفردات[19] فلا تعدل الى المركبات واذا اكتفيت بالاغذيه فلا تتجاوز الى الادويه[20] واذا تعاظم العرض فاشتغل به عن المرض[21] واعتمد الحمية الواقية مادامت العلة باقيه واحذر دواعي النكس[22] فانه شر من العلة بالامس[23] واعلم أن التجربة خطر[24] فكن منها على حذر والعلاج بين استفراغ الحاصل وقطع الواصل[25] والصحة تحفظ بالشبه وتسترد بالنقيض[26] والحمية للصحيح كالتخليط[27] للمريض واستعمال الدواء

(١) عرق في اليد (٢) أي يكون غنية للعاقل عند غيبة الطبيب الصحيح وهو اسم كتاب في الطب وضعه الشيخ شمس الدين محمد بن برهان الدين الاكفاني (٣) التفكر (٤) شرع (٥) اسم لما يشبع من الطعام (٦) الحركة المؤثرة تعبا (٧) أي لا تأكل قبل الهضم لان الطعام الثاني يشغل المعدة عن هضم الاول فيفسد (٨) أي أصناف الطعام (٩) المائدة (١٠) المضغ طحن الطعام بين الاضراس والازدراد البلع يريد أن العجلة فيهما ترد بالطعام على المعدة جافيا فيشق عليها هضمه (١١) يشمل مالم ينضج من الطعام والثمر (١٢) أي لفساد الطعام في المعدة لعسر هضمه فلا تحسن التصرف فيه (١٣) الاكل مرة واحدة في النهار (١٤) أي بالتدريج قال الشيخ الرئيس في أرجوزته

وكل عادة تضر أهلها ✽ فاقطع بتدريج الزمان أصلها

(١٥) الاخلاط (١٦) أي انظر الى السبب وعالجه بضده كما اذا كان المرض عن حرارة فعالجه بالبارد (١٧) وسيلة قالوا ان القوة للمريض كالزاد للمسافر (١٨) اتركه (١٩) أي بالدواء المفرد البسيط (٢٠) أي اذا وجدت غذاء ينفع من المرض فهو أفضل من الدواء لانه لا يفعل بالطبيعة ما يفعله الدواء من القهر والنكايه (٢١) أي اذا حدث عرض شديد يخشى منه سقوط القوة فاشتغل بعلاجه حتى يزول ثم ارجع الى علاج المرض (٢٢) الرجوع الى المرض بعد التخلص منه وهو بالضم في الاصل والفتح لغة فيه كما في الصحاح (٢٣) أي المرض الذي كان قبلا (٢٤) يريد تجربة الادوية المجهول أمرها فانها خطر على المريض يخشى هلاكه بها أحيانا (٢٥) أي أن العلاج يكون باستفراغ ما قد تولد منه المرض أولا ومنع تجدده ثانيا (٢٦) أي أن الصحيح يحفظ صحته بما يوافق مزاجه واذا زالت يسترجعها بما يناقض مزاج المرض (٢٧) ضد الحمية قالوا اثنان لا يصحان المريض المخلط والصحيح المحتمي

حيث لا يحتاج كتركه عند حاجة العلاج والمضر اليسير خير من النافع الكثير وكل ما عسر قضمه[١] شق هضمه[٢] ومن كثرت تخمه[٣] تفاقم[٤] سقمه وأكثر الاوصاب[٥] يكون من الطعام أو الشراب فاحفظ عنى هذه المواعظ واحتفظ بها والله الحافظ قال فلما فرغ من كلامه الموضون[٦] برز شيخنا الميمون وقال انى لاراك من أهل الفضل والفصل وأرباب العقل والنقل ولقد عثرت على مسائل فى كتب الاوائل فهل تأذن بدفع الظنه ولك المنه قال حبذا فقل اذا[٧] قال ماهو الدشبذ[٨] وكم هى الدلائل التى تؤخذ[٩] وماهو أعدل الاعضاء بالنسبة الى بقية الاجزاء[١٠] فأخذ الاستاذ فى تقليب رأيه حتى أفرط فى لائيه[١١] ثم قال ان الانسان موضع النسيان[١٢] فهل من مسائل أخرى لعلى أصادف بها الذكرى قال قد رميتك بالفصيح فاستعجم فهل تفرق[١٣] من صوت الغراب وتفرس الاسد المشيم[١٤] هيهات ان العلم بتحقيق القضايا لا بتنميق[١٥] الوصايا فغلب على الرجل الوجوم[١٦] ولعبت بالقوم الرجوم[١٧] حتى قالوا للشيخ مثلك من يستحق الامامه[١٨] فهل لك عندنا من إقامه قال قد علمتم أن النقل ثقله ولا سيما مع تطارح الشقه[١٩] وتطاوح[٢٠] المشقه[٢١] فان خففتم عنى بالامداد[٢٢] أتيتكم كورى الزناد[٢٣] فنفحوه[٢٤] بعدة من الدنانير وقالوا استعن بالله والله على كل شئ قدير قال سهيل فلما فصلنا عن المكان أخذ الشيخ مجلسا مكتوما ثم برز فناولنى طرسا[٢٥] مختوما وقال اذا أصبحت فألقه الى القوم ولا تثريب[٢٦] عليك ولا لوم فأجبته الى ما طلب واذا به قد كتب

---

(١) مضغه (٢) عسر (٣) جمع تخمة وهى فساد الطعام فى المعدة (٤) تكاثر (٥) الامراض (٦) المسرود (٧) أى فقل اذن قلبت نونها ألفا للوقف (٨) هو مادة غضروفية تنبت على طرف العظم المكسور ليلتحم بها (٩) قالوا ان الدلائل ثلاث احداها المذكرة وهى التى تذكر الطبيب بما مضى من الاعراض فيستدل به على سبب المرض وكميته والثانية الحاضرة وهى التى تدل على حقيقة المرض الحاصل والثالثة المنذرة وهى التى تدل على ما سيحدث (١٠) قالوا ان أعدل الاعضاء مزاجا بالنسبة الى غيره من أجزاء البدن هو الجلدة التى على طرف السبابة من اليد خلقت كذلك لانها معرضة غالبا للمس فتحتاج الى الاعتدال فى نفسها لادراك ما تلاقيه من الملموسات فيفرق بها بين الخشونة والملاسة ونحوهما (١١) ابطائه (١٢) مثل (١٣) تخاف (١٤) من الشبام وهو عود يعرض فى فم الجدى لئلا يرضع استعمل ذلك للاسد كناية عن شدة الجوع وهو مثل يضرب لمن يقدم على الامر الخطير ويتزعج من اليسير قيل أصله أن امرأة افترست أسدا ثم سمعت صوت غراب فانذعرت منه (١٥) زخرفة (١٦) السكوت حزنا (١٧) الظنون (١٨) أن يكون اماما (١٩) تباعد المسافه (٢٠) تقاذف (٢١) التعب (٢٢) الاسعاف يريد الاسعاف بالمال ليستعين به على مهمات السفر (٢٣) سقوط الشرار من الزند عند اقتداحه (٢٤) اعطوه (٢٥) قرطاسا مكتوبا (٢٦) توبيخ

أناذاك الطبيب وان طبي * لنفسي لا لزيد أو لعمرو
وماعالجت سقم الناس يوما * ولكني أعالج سقم دهري
اذا مامسني ضنك[1] فعندي * جوارش[2] حيلة وشراب مكر

فلما وقفوا على أبياته تعوذوا بالله من آفاته وقالوا ان لم يكن طبيبا فكفى به لبيبا[3] فهل لك أن ترده علينا لظرفه[4] ان لم يكن اعرفه[5] قلت ذاك مما لايقرب فأنه أجول من قطرب[6] ورجعت الى موعدنا[7] أمس فوجدت أنه قد أفل[8] قبل الشمس (من مجمع البحرين)

(١) ضيق (٢) سفوف (٣) عاقلا (٤) ظرافته (٥) علمه (٦) دويبة تجول الليل كله لاتنام وهو مثل (٧) مكان اجتماعنا (٨) غاب

(المقامة الثلاثون الصوريه)

(حكى الحارث بن همام) قال ارتحلت من مدينة المنصور الى بلدة صور فلما حصلت بها

(شرح المقامة الثلاثين الصوريه للشريشي)

(قوله مدينة المنصور) هي بغداد والمنصور هو أمير المؤمنين أبو جعفر بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس استخلف بعد أخيه السفاح وبويع له يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة وهو ابن احدى وأربعين سنة وعشرة أشهر وكان حاجا وقت وفاة السفاح فعقد له البيعة عمه موسى بن علي بن عبد الله بالانبار وورد الخبر على المنصور في أربعة عشر يوما وقد بشر به النبي صلى الله عليه وسلم ونظر الى عمه العباس فقال هذا عمي أبو الخلفاء الاربعين أجود قريش كفا ومن ولده السفاح والمنصور والمهدي وقال المنصور رأيت في المنام كأني في المسجد الحرام فنودي أين عبد الله فقمت أنا وعبد الله بن يحيي نستبق حتى وصلنا الى الدرجة العليا فجلس هو وأخذ بيدي فأصعدت وأدخلت الكعبة فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أبو بكر وعمر وبلال قال فأقعدني وأوصاني بامته وعممني فكان كورها ثلاثا وعشرين كورا وقال خذها اليك أبا الخلفاء الى يوم القيامة وقال المنصور الخليفة لايصلحه الا التقوى والسلطان لايصلحه الا الطاعة والرعية لايصلحها الا العدل وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه وولد المنصور في سنة خمس وتسعين في اليوم الذي مات فيه الحجاج ومات بمكة ببئر ميمون لست خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة

(صور) مدينة بالشام بينها وبين دمشق ثلاثون فرسخا وقال شيخنا ابن جبير مدينة صور يضرب بها

ذا رفعة وخفض وما لك رفع وخفض تقت الى مصر توقان السقيم الى

المثل فى الحصانة لا يلقى لطالبها بـطاعة ولا استكانة قد أعدها الافرنج مفزعا لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لامانهم وحصانتها ومناعتها أعجب ما يحدث به وذلك أنها راجعة الى بابين أحدهما فى البر والثانى فى البحر والبحر يحيط بها الا من جهة واحدة فالبرى يفضى اليها بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها فى ستار مشيدة محيطة بالباب والبحرى يدخل اليه بين برجين مشيدين الى مرسى له ليس فى البلاد أعجب منه وصفا يحيط به سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق به من جانب آخر جدار معقود بالجص والسفن تدخل تحت السور وترسى فيه وتعرض من البرجين المذكورين سلسلة عظيمة معقودة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ولا مجال للمراكب الا عند ازالتها وعلى الباب حراس لا يدخل الداخل ولا يخرج الا على أعينهم فشأن هذا المرسى شأن عظيم وعند الباب البرّى عين معينة تنحدر اليها على أدراج والآبار والجباب بها كثيرة لا تخلو دار منها ولا بساتين بها انما تجلب لها الفواكه من أقطارها التى بالقرب منها ولها أعمال متصلة والجبال التى بالقرب منها معمورة بالضياع ومنها تجئ الثمرات اليها وللمسلمين الباقين بها مسجدان وأعلمنى أحد أشياخنا أنها أخذت من أيديهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة بعد محاصرة طويلة وبها كانت دار الصنعة ومنها تخرج مراكب المسلمين للغزو (قوله ذا رفعة) أى عزة ومكانة (خفض) طيب عيش ومعنى (مالك رفع وخفض) أى صاحب أجمال ترفع على الابل فى السفر وتحط عنها للنزول ويريد أنه ذو قدرة وتمكن يخفض ويرفع من أراد (قوله تقت) أى اشتقت (مصر) قال الهمدانى سميت بمصر بن هرمس بن هروس جد الاسكندر وقال أهل اللغة المصر الحد فسميت مصرا لانها حد بين المشرق والمغرب * ابن دريد كل بلد عظيم مصر نحو البصرة والكوفة طول مصر من الشجرتين اللتين بين أبج والعريش الى اسوان وعرضها من برقة الى ايله فهى مسيرة أربعين ليلة وافتتحت كلها فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه على يدى عمرو بن العاص بن وائل السهمى ولما افتتحت مصر أتى أهلها الى عمرو فقالوا له أيها الامير ان لنيلنا هذا سنة لا يجرى الا بها فقال لهم ماذاك فقالوا له اذا كان ائنتا عشرة ليلة تخلو من بؤنة من أشهر العجم عمدنا الى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والحلل أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى النيل فقال لهم عمرو ان هـذا لا يكون فى الاسلام وان الاسلام يهدم ما قبله فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهى أسماء ثلاثة أشهر للقبط لا يجرى النيل فيها الا قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء عنها فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب عمر بطاقة وكتب الى عمرو انى بعثت اليك ببطاقة فألقها فى النيل فأخذ عمرو البطاقة فاذا فيها من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت

انما تجرى من قبلك فلا تجر وان كان الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك فالقى البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء فلما ألقى البطاقة فى النيل أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة فقطع الله تعالى تلك السنة السوء من أهل مصر قال ابن جبير ومدينة مصر كبيرة عامرة مختلفة الاسواق من المدن التى سارت باوصافها الرفاق وهى على شط النيل وعلى النيل فى مقابلتها قرية كبيرة الشان كثيرة البنيان تعرف بالجيزة وتعترض بينهما جزيرة فيها مساكن حسان وعلالى مشرفة وهى مجتمع لهو أهل مصر ومتنزههم وبينها وبين مصر خليج يذهب بطولها نحو الميل ولا مخرج له وبالجزيرة جامع يخطب فيه ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة فيض النيل كل سنة وابتداؤه من شهر بؤنه ومعظم انتهائه اغشت وآخرها أول شهر اكتوبر والمقياس عمود رخام وضع فى موضع ينحصر فيه الماء عند انتهائه اليه وهو مفصل على اثنين وعشرين ذراعا وكل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسما متساوية تعرف بالاصابع فاذا استوى الماء تسعة عشر ذراعا فى الفيض فهى الغاية عندهم فى طيب العام وربما كان الماء فيها كثيرا لعموم الفيض والمتوسط ما استوى سبعة عشر ذراعا وهو أحسن مما زاد عليه والذى يستحق به السلطان خراجه ستة عشر ذراعا فصاعدا وعليها تعطى البشارة للذى يرقب الزيادة فى كل يوم ويعلم بها مياومة وان قصر عن ستة عشر فلا يجبى لذلك السلطان فى ذلك العام ولا خراج الا ما يعول عليه وبقرية الجيزة يوم الاحد سوق عظيمة يتحدث بها وعلى نحو سبعة أميال فى الصحراء التى يفضى منها الى الاسكندرية الاهرام القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر المربعة الشكل كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء لاسيما الاثنان منها فى سعة الواحد منهما من ركنه الى ركنه ثلثمائة خطوة وست وستون خطوة محددة الاطراف فى رأى العين وربما أمكن الصعود اليها على خطر ومشقة فتلفى أطرافها المحددة كاوسع ما يكون من الرحاب قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة وركبت تركيبا بديع الالصاق يكاد يعجز أهل الارض نقض بنيانها وبمصر أيضا المسجد المنسوب الى عمرو بن العاص وبها الجبانة المعروفة بالقرافة وهى من عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الانبياء وأهل البيت والصالحين والعلماء وذوى الكرامات من أهل الزهد وبها قبر آسية امرأة فرعون وبها مساجد معمورة بالليل والنهار يبيت بها الصالحون وبها قبر الشافعى محمد بن ادريس الامام رضى الله عنه وهو من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا والمشهد العظيم الشأن الذى بالقاهرة حيث رأس سيدنا الحسين ابن على رضى الله عنهما وهو فى تابوت من فضة مدفون قد بنى عليه بنيان يقصر الوصف عنه مجلل بانواع الديباج محفوف بامثال العمد الكبار من الشمع الابيض أكثرها موضوع فى أتوار الفضة

الاساة والكريم الى المواساة فرفضت علائق الاستقامة ونفضت عوائق الاقامة واعروريت ظهر ابن النعامة وأجفلت نحوها اجفال النعامه فلما دخلتها بعد معاناة الاين ومداناة الحين كلفت بها كلف النشوان بالاصطباح والحيران بتنفس الصباح فبينما أنا يوما بها أطوف وتحتى فرس قطوف اذ رأيت على جرد من الخيل عصبة كمصابيح الليل فسألت لانتجاع النزهة عن العصبة والوجهة فقيل أما القوم فشهود وأما المقصد فاملاك مشهود فحدتنى ميعة النشاط

وحف أعلاه كله بامثال التفافيح ذهبا فى مصنع شبه الروضة يبهر الابصار حسنا وجمالا وفيه من أنواع الرخام الجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع مالا يتخيله المتخيلون والمدخل اليها من مسجد على مثالها فى التأنق حيطانه كلها رخام وأغرب ما فيه حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص يصف الاشخاص كلها كأنه المرآة الهندية ولتزاحم الناس على القبر وانكبابهم عليه وتمسحهم به وبالكسوة التى عليه مرآى هائل واخباره مصر كثيرة فلنقتصر على هذه النبذة (الأساة) الاطباء (المواساة) أن يجعلك أسوة نفسه فى ماله فيقاسمك فيه (رفضت) تركت (علائق) أسباب تتعلق به فتحبسه (نفضت) أزلت واطرحت ونفضت ثوبى من الغبار أزلته عنه (عوائق) موانع وهى ما يصرف الانسان عن وجهه الذى يرتقبه ويريده (اعروريت) ركبته عريا (ابن النعامة) الطريق وقيل صدر القدم قال عنترة

* وابن النعامة عند ذلك مركبى * وقيل ابن النعامة الساق وقيل عرق فى الرجل وقيل الفرس الفاره (أجفلت) أسرعت (النعامة) واحدة النعام (معاناة) مقاساة (الاين) الفتور من التعب (مداناة الحين) مقاربة الهلاك (كلفت بها) أى أحببتها وولعت بها (النشوان) السكران يريد أنه فرح فرح السكران اذا أصبح للشرب وهو الاصطباح والمهموم بالليل اذا طلع ضوء النهار انجلى همه فجعل بياض الفجر (تنفس) أى انتشر (١) فى الظلام (قطوف) متقارب الخطو كأنه يقطف خطوه أى يقطعه (جرد) ملس والاجرد القصير الشعر (عصبة) جماعة (مصابيح) سرج ويريد بها النجوم (الوجهة كالجهة) وهو كل موضع استقبلته وقصدته وتوجهت اليه (املاك) نكاح وأملك الرجل املاكا تزوج وأملكه غيره زوجه وشهدنا املاكه أى عرسه * ابن عمر رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم من شهد املاك امرئ مسلم فكأنما صام يوما فى سبيل الله واليوم بسبعمائة (مشهود) أى محضور (حدتنى) ساقتنى (ميعة) حدة ونشاط

---

(١) قوله فجعل بياض الفجر تنفس اى انتشر الخ كذا فى النسخ التى بأيدينا ولعل فيها سقطا او تحريفا من النساخ ونعوذ بالله من سقم النسخ الناشئ من عدم الاعتناء بها او مقابلتها على اصلها الصحيح ولعل الاصل والله اعلم فجعل بياض الفجر تنفس الصباح اى انتشار ضوءه فى الظلام او نحو ذلك تأمل والله ولى الهداية اه مصححه

على أن سرت مع الفرّاط لأفوز بحلاوة اللقاط وأحوز حلواء السماط فأفضينا بعد مكابدة العناء الى دار رفيعة البناء وسيعة الفناء تشهد لبانيها بالثراء والسناء فلما نزلنا عن صهوات الخيول وقدّمنا الأقدام للدخول رأيت دهليزها مجللا بأطمار مخرّقة ومكللا بمخارف معلقة وهناك شخص على قطيفة فوق دكة لطيفة فرابنى عنوان الصحيفة ومرآى هذه

والميعة أول الشباب وأول جرى الفرس وميعة كل شئ معظمه و (الفرّاط) السباق المتقدمون الواحد فارط (اللقاط) ما يلتقط من العرس مما يشترفيه للحاضرين نحو الكعك والخبيص وما يشترفيه يسمى نثارا وكان نثار العرب فى عرسهم التمر (أحوز) أحصل (السماط) السوق التى جوانبها صفان متقابلان والسماط أيضا أن يصطف العسكر صفين متقابلين والسماط فى الطعام أن تلصق مائدة بأخرى ويجلس الناس عليها صفين متقابلين والسماط الصف منه ومنه سمط الجوهر ومنه الشعر المسمط وهو الذى أبياته مفصلة على أجزاء متقابلة وقد نبهنا عليه فى الحادية عشرة (مكابدة) مقاساة وهى من الكبد كان الكبد يتعب بها و (العناء) التعب (رفيعة البناء) قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد هوانا أنفق ماله فى البناء وقال النبى صلى الله عليه وسلم من بنى بناء فى غير ظلم ولا اعتداء أو غرس غرسا فى غير ظلم ولا اعتداء فان أجره جار ما انتفع به أحد من خلق الرحمن وقال بعض الحكماء اذا أيسر الرجل ابتلى بثلاثة أشياء صديقه القديم يجفوه وامرأته يتزوج عليها وداره يهدمها ويبنيها وعلى قوله أما القوم فشهود جاء فيهم حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرموا الشهود فان الله عز وجل يستخرج بهم الحقوق ويدفع بهم الظلم (وسيعة) أى واسعة و (الفناء) الساحة وهى ما حول الدار (الثراء) كثرة المال (السناء) الشرف والرفعة (صهوات) ظهور (دهليز) مدخل الدار الذى تسميه عامتنا الاسطوان والاسطوان عند العرب السوارى واحدها اسطوانة وأنشد أبو موسى الجاحظ فى نوادره وذكر الدهليز فقال

أويت فى الدهليز مذ أربع * ولم أكن آوى الدهاليزا
خبزى من السوق وشعرى لكم * تلك لعمرى قسمة ضيزى

(مجللا) مغطى (أطمار) ثياب خلقة (مكللا) محلقا (مخارف) قفف أو تغاليق للغرباء يجعلون فيها ما يأخذونه من الصدقة والمخارف عند العرب جمع مخرف وهى قفيفة تشبه الزنبيل يخترف فيها الرطب أى يجتنى فيها (قطيفة) نوع من البسط (دكة) هى الدكان (رابنى) شككنى وخوفنى (عنوان) دليل (الصحيفة) الكتاب أراد تطيرت بتلك المخارف وأراد أنها دار خيبة وحرمان وكان ابن همام فى هذه القصة طفيليا على ما وصف به نفسه من الرفاهية وربما يتولع أهل الظرف

الطريقة ودعاني التطير بتلك المناحس الى أن عمدت لذلك الجالس فعزمت عليه بمصرّف الاقدار ليعرّفني من رب هذه الدار فقال ليس لها مالك معين ولا صاحب مبين انما هي مصطبة المقيفين والمدروزين ووليجة المشقشقين والجلاوزين فقلت في نفسي انا لله على ضلة المسعى وامحال المرعى وهممت في الحال بالرجعى لكني استهجنت العود من فوري والقهقرة دون غيري فولجت الدار متجرعا الغصص كما يلج العصفور القفص فاذا فيها أرائك منقوشة وطنافس مفروشة ونمارق مصفوفة وسجوف مرصوفة وقد أقبل الملك يعيس في بردته ويتبهنس بين حفدته

والادب بمثل هذا فقد حكينا عن ابراهيم بن المهدى واسحق الموصلى مثل هذا فى أخبار الطفيليين على منادمتهما للخلفاء وكثرة أموالهما (البدعة) (١) الشيء المبدع الذى لم يفعل قبله مثله و (الطريقة) الغريبة المستظرفة (التطير) التشاؤم (المناحس) جمع منحوس وهو الذى لا يفارقه النحس وأراد به الخارف والاطمار التى قدم (مصرّف الاقدار) هو الله تعالى (رب الدار) مالكها أو الناظر فى اصلاحها ماذكره مما لا يفهم له معنى ٢ (المقيفين) المكدين وقيل المقيفون جمع مقيف وهو الذى يقفو آثار الناس أى يتبعهم يطلب لهم شيأ ويدعو لهم و (المدروزين) المكدين ودروزة كلمة أعجمية معناها الكدية و (الشقشق) الذى يحاكى أصوات الطيور فتجتمع اليه فيصطادها و (الجلاوز) والجلواز الشرطى الذى يتصرف حول السلطان (قوله وليجة) أى مدخل والوليجة الموضع الذى يلج الانسان فيه أى يدخله أو كهف يستتر فيه (القهقرة) الرجوع الى خلف (ضلة) ضلالة (المسعى) المشى بعجلة أراد أن مشيه كان لغير فائدة (المحال) يبوسة وجفاف (فورى) حينى من قبل أن أسكن (الغصص) جمع غصة وهى ما يختنق بها وتجرعها صعب (الارائك) سرر مزينة (طنافس) بسط و (نمارق) مخاد (سجوف) ستور (مرصوفة) مضمومة ملتصقة وجعل البيت بهذه الامتعة الكثيرة لانه بيت عرس فهى تستعد له وان كان قد رأى فى دهليزه مرقعات تدل على فقر فان الغرباء فى البلاد يعلقون مرقعاتهم فى دهليز الفندق وبيته فى غاية الرفاهية والدار المذكورة انما كانت فندقا للفقراء الغرباء والمكدين والجالس فى دهليزها خادم الفندق وحين سأله عنها أخبره أنها ليس لها رب معين انما هى دار المكدين والخارفين وقيل لاحد المكدين أتبيع مرقعتك فقال هل رأيت صائدا يبيع شبكته (الملك) العروس (يعيس) يتبختر و (يتبهنس) مثله فى المعنى (حفدته) خدمه وأتباعه ويقال حفد العبد يحفد حفدا اذا خدم وفى الدعاء واليك نسعى ونحفد أى نخدمك ونعمل لك وقال الشاعر

---

(١) قوله البدعة ليست فى نسخة المتن كما ترى وكأن فى نسخته البدعة الطريفة اه (٢) قوله ماذكره مما لا يفهم له معنى هكذا فى النسخ التى بأيدينا وهى مع ماقبلها لا تلتئم ولا يفهم لها معنى ولعل هنا كلاما سقط من النساخ تلتئم معه هذه الجملة ونعوذ بالله من سقم النسخ اه مصححه

حين جلس كأنه ابن ماء السماء نادى منادٍ من قبل الاحماء وحرمة ساسان

حفد الولائد بينهن وأسلمت * بأكفهن أزمة الاجمال

أبو عبيدة يقال حفد يحفد وأحفد يحفد وفسر طاوس قوله تعالى بنين وحفدة أى خدما فهو مطابق للغة وفسره ابن مسعود رضى الله عنه بالاختان وهو مطابق لما فى المقامة لان المكدين لا خدم لهم وقال الفراء رحمه الله الحفدة جمع حافد ككامل وكملة (ابن ماء السماء) الجوهرى ماء السماء لقب عامر بن حارثة الازدى أبو عمرو مزيقياء الذى خرج من اليمن لما أحس بسيل العرم وسمى ماء السماء لانه كان اذا أجدب قومه مانهم أى كفاهم مؤنتهم حتى يأتيهم الخصب فكأنه خلف من ماء السماء وقيل لولده بنو ماء السماء وهم ملوك الشام والعرب تسمى أيضا بنى ماء السماء لانهم يعيشون بماء السماء قال الازهرى رحمه الله السماوة ماء بالبادية وكان اسم أم المنذر ماء السماء فسمته العرب ابن ماء السماء وهو المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى وأمه ماء السماء وهى امرأة من النمر بن قاسط سميت بذلك لجمالها ولما ملك كسرى الذى اسمه قباذ بن فيروز خرج فى أيامه رجل يقال له مردك فدعا الناس الى الزندقة واباحة الحرم وأن لا يمنع أحد أخاه ما يريده فدعا قباذ المنذر ليدخل فى هذا المذهب فأنف وأبى المنذر هذا الفعل الخسيس فطرده قباذ من مملكته ونفاه عن الحيرة ودعا الحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار فاجابه وكان الحرث شديد الملك فشدد له ملكه وكانت أم أنوشروان بين يدى قباذ يوما فدخل عليه مردك فلما رآها قال لقباذ ادفعها الى لاقضى حاجتى منها قال له قباذ دونكها فوثب اليه أنوشروان فلم يزل يسأله أن يهب له أمه حتى قبل رجليه فتركها له فلما هلك قباذ وولى أنوشروان وجلس فى مجلسه أقبل المنذر اليه وأذن للناس فدخل عليه مردك ودخل عليه المنذر فقال أنوشروان كنت أتمنى أمنيتين أرجو أن يكون الله تعالى قد جمعهما لى فقال مردك وماهما أيها الملك قال تمنيت ان أملك فأستعمل هذا الرجل الشريف يعنى المنذر وأن أقتل هؤلاء الزنادقة فقال له مردك أو تستطيع أن تقتل الناس كلهم فقال انك لههنا يا ابن الزانية والله ماذهب نتن ريح جوربك من أنفى مذ قبلت رجليك الى يومى هذا وأمر به فقتل وصلب وقتل فى ضحوة واحدة من الزنادقة مائة ألف وصلبهم وطلب الحرث فخرج هاربا بجميع ما معه وأخذ المنذر فى طلبهم فاخذ من بنى آكل المرار ثمانية وأربعين رجلا فضرب رقابهم وألح فى طلب امرئ القيس فلحق بالسموأل وتمام القصة فى الثالثة والعشرين (قوله الاحماء) أى الاختان (ساسان) شيخ المكدين قال الفنجديهى ساسان هو أستاذ المكدين ومقدمهم وواضع طرائقهم ومعلمهم قال أبو الفتح اسماعيل بن الفضل بن الاخشيد السراج المكدى فى كتابه حدثنا أبو بكر البطاربى المكدى حدثنا محمد بن على بن أحمد الفقيه المكدى حدثنا مليك بن صالح المكدى

أستاذ الاستاذين وقدوة الشحاذين لاعقد هذا العقد المجل في هذا اليوم الاغر المحجل الا الذي جال وجاب وشب في الكدية وشاب فأعجب رهط الصهر ما أشاروا اليه وأذنوا في احضار المنصوص عليه فبرز حينئذ شيخ قد أمال الملوان قامته ونور القتيان ثغامته فباشرت الجماعة باقباله وتبادرت الى استقباله فلما جلس على زربيته وسكنت الضوضاء لهيبته ازدلف الى مسنده ومسح سبلته بيده ثم قال الحمد لله المبتدئ بالافضال المبتدع للنوال المتقرب اليه بالسؤال المؤمل لتحقيق الآمال الذي شرع الزكاة في الاموال وزجر عن نهر السؤال

قال سمعت طرارة المكدى قال قال ساسان ألا أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى قلت بلى قال هي الكدية وقوله (استاذ الاستاذين) حدث أحمد بن الحسن قال كنت عند ابى الحسن ابن أبي الفضل فدخل رجل فذكر أنه شاعر فقال الشعراء ثلاثة شاعر وشعرور وشعرة فاما الشاعر فالمفلق والشعرور المستملح والشعرة المستثقل لرداءة شعره والاستاذون ثلاثة أستاذ في الدين كالعلماء والفضلاء وأستاذ في الدنيا كالوزراء والعمال والولاة وأستاذ لادين عنده يتعلم منه ولا دنيا ينتفع بها كالحجام يسمى أستاذا والبناء والملاح وبنو ساسان ملوك الفرس (قدوة) مقدم (الشحاذين) المكدين والشحاذ الملح في المسئلة وشحذت السيف بالغت في صقالته (المجل) المعظم يقال بجلته تبجيلا أي عظمته تعظيما مأخوذ من البجيل والبجال وهو الرجل الضخم وفي الحديث اصبتم خيرا بجيلا أي كثيرا ضخما (الاغر) المشهور لحسنه (المحجل) الابيض (شب) ترعرع ونشأ (الملوان والقتيان) الليل والنهار و (ثغامته) شعرته (نورها) بيضها والثغام نبت أبيض وهو ضرب من البهمى منابته الجبال اذا يبس ابيض بياضا شديدا * أبو حنيفة تنبت الثغامة خيوطا طوالا دقاقا من أصل واحد فاذا جفت ابيضت كلها واذا أمحل الثغام كان أشد بياضا ويشبه به الشيب قال المرار الفقعسي

أعلاقة أم الوليد بعيدما * أفنان رأسك كالثغام المخلس

وقال حسان رضي الله عنه

أوما ترى رأسي تغير لونه * شمطا فاصبح كالثغام الممحل

والثغام مرعى وتعلفه الخيل قال بشر وذكر الخيل

فباتت ليلة وأديم يوم * على البهمى يجزلها الثغاما

(زربيته) طنفسته والجمع الزرابي وقيل هي الوسائد وقيل الثياب الموشاة و (الضوضاء) الاصوات (ازدلف) قرب (مسنده) موضع اسناده (سبلته) لحيته وقيل شاربه وهذه الخطبة التي ذكر ليس فيها لفظ الا وهو يتضمن اشارة للكدية (المبتدع) أي الفاعل له قبل أن يفعل (النوال) العطاء (المؤمل) المرجو (شرع) فرض و (نهر السؤال) من قوله تعالى وأما السائل فلا تنهر وقال ابن عمران

وندب الى مواساة المضطر وأمر باطعام القانع والمعتر ووصف عباده المقربين في كتابه المبين فقال وهو أصدق القائلين والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم أحمده على مارزق من طعمة هنية وأعوذ به من استماع دعوة بلانية وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له الها يجزى المتصدقين والمتصدقات ويمحق الربا ويربي الصدقات

ان ابن آدم حين يلحف سائل * ينقدّ من حنق عليه فينهره
والله ان يقصده عبد ملحف * بسؤاله يدنيه منه ويشكره
فسل الاله ولذ به لا تنسه * فالله يذكر عبده اذ يذكره

وقال أيضا

سؤالنا دُعاتنا للجنه * اهم علينا بالقبول منه
من سال منهم ويك أعطينه * ولو بتمرة فواسينه
أو أجل الرد لا تنهرنه (١) * وان يكن يلحف فاعذرنه * وأدع له الله وصبرنه

(قوله ندب) أى دعا وحرض (المضطر) الشديد الحاجه (القانع) المتذلل عند السؤال (والمعتر) المتعرض للمعروف (والمحروم) الذى لا يسأل آحدا شيأ وهو محتاج (طعمة هنيه) الكدية لان فائدتها تحصل بلا تحمل تكلف ولا مشقة (دعوة بلانيه) قولك للسائل الله يعطيك وسع الله عليك ونحوه وأنشدوا فيهم

ورجال ونساء * وبنات وبنونا
واذا يدعى لهم بو * ماتراهم يغضبونا

وقال آخر

ألم ترنى أبغضت ليلى وذكرها * كما أبغض المسكين دعوة سائله

لان السائل لا يطلب من المسؤل الدعاء انما يطلب مايشبع الامعاء ومما يستظرف من هذا ما حكى الاصمعى قال مربي اعرابى سائلا فقلت له كيف حالك قال أسأل الناس الحافا فيعطونى كرها فلا يؤجرون على مايعطونى ولا يبارك لى فيما آخذ والعمر بين ذلك فان والاجل قريب والامل بعيد سأل اعرابى رجلا يكنى أبا عمرو عند داره فقال يرزقك الله فعاد اليه يوما آخر فقال بمثل ما قال أمس وتنحنح ففلتت منه ضرطة فقال الاعرابى

ان أبا عمرو لمكبوس الوسط * اذا سألناه تعطى وضرط * اعطاؤه يرزقك الله فقط

(أشهد أن لا اله الا الله) أى أعلم وأبين ومنه شهد الله أعلم وبين انه لا اله الا هو ومنه شهد الشاهد عند الحاكم أى بين له ما عنده وأعلمه الخبر (يمحق) يزيل ويستأصل (الربا) الحرام وأصله الزيادة (ويربى)

---

(١) قوله لا تنهرنه أى لا تزجرنه ويقرأ بحذف الالف لا للضرورة الوزن اه مصححه

وأشهد أن محمداً عبده الرحيم ورسوله الكريم ابتعثه لينسخ الظلمة بالضياء وينتصف للفقراء من الاغنياء فرفق صلى الله عليه وسلم بالمسكين وخفض جناحه للمستكين وفرض الحقوق في أموال المثرين وبين ما يجب للمقلين على المكثرين صلى الله عليه صلاة تحظيه بالزلفة وعلى اصفيائه أهل الصفة أما بعد فان الله تعالى شرع النكاح لتتعففوا وسن التناسل لكي تتضاعفوا فقال سبحانه لتعرفوا يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا وهذا أبو الدراج ولاج بن خراج ذو الوجه الوقاح والافك الصراح والهرير والصياح

يزيد ويكثر أي يضعفها له (ينسخ) يزيل (المسكين) الضعيف الذليل (وخفض جناحه) ألان جانبه فهو مثل للاشفاق والحنان وأصله ان الطائر انما يخفض جناحه على فراخه ويلحفها به شفقة عليها قال الله تعالى واخفض لهما جناح الذل من الرحمة (واستكان) خضع وذل وهو استفعل من كان أصله استكون نقلت حركة الواو الى الكاف فانقلبت ألفاً لتحركها في الحكم وانفتاح ما قبلها فهي في الاصل كاستقام وبابه أو يكون افتعل من السكون لان الخاضع يقلل الكلام وأصله استكن فوصلت فتحة الكاف بألف كقوله * قالت وقد جرت على الكلكال * أراد الكلكل وقال تعالى فما استكانوا لربهم وما يتضرعون وأنشد أبو علي * فما استكان لما لاقى ولا خضعا * (قوله المثرين) الاغنياء (الزلفة) القربة يتقرب بها الى الله تعالى (أصفيائه) أحبابه (الصفة) تشبه القبلة والصفة كالسقيفة وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الغرباء يظعنون اليه من الجهات وليس عندهم شيء فيسكنون سقائف المسجد فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض الناس على الصدقة عليهم وكان يجلس لهم فيعلمهم القرآن وخصهم الحريري بالذكر لان لهم حالة يشبهون بها المكدين من لباس الخلقان والعيش من صدقات الناس فهم يتأسون باهل الصفة ويجعلونهم حجة على من زجرهم ومما يحسن أن ينشد في هذا المعنى قول ابن عمران

السائلون عيال الله والمال * لله فابذله فيهم خاب من لؤما
جد على ثقة بالله من خلف * يا ويح من كان للرحمن متهما
واحذر من الرد ان الله يعقبه * من غير عذر وشؤم الشح قد علما

(الشعوب) جمع شعب وهو أكبر من القبيلة (الدراج) كأنه بذلك لكثرة حركته (ولاج) كثير الولوج على الناس للكدية (خراج) كثير الخروج في طلب رزقه والولاج الخراج الذي يحسن الدخول في أموره والخروج منها ويقال فلان ولاج خراج اذا كان متصرفاً في أموره نفاعاً لاوليائه ضراراً لاعدائه (والافك) سوء الكذب (الصراح) الظاهر البين يريد أنه اذا وصف حالته في كديته لا يتكلم الا بالكذب (الهرير) كثرة الصياح والشر وهرير الكلب صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد

والابرام والالحاح يخطب سليطة أهلها وشريطة بعلها قنبس بنت أبي العنبس لما بلغه من التحافها بالحافها واسرافها في اسفافها وانكماشها على معاشها وانتعاشها عند هراشها وقد بذل لها من الصداق شلاقا وعكازا وصقاعا وكرازا فأنكحوه انكاح مثله وصلوا حبلكم بحبله وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم وأسأله أن يكثر في المصاطب نسلكم ويحرس من المعاطب شملكم فلما فرغ الشيخ من خطبته

(والابرام) الاثقال والاضجار يريد أنه يوالي الصياح على من يكديهم ويثقل عليهم بالعتب على ترك الصدقة حتى يفتدوا منه (والالحاح) المداومة والاكثار من السؤال وقدم الحطيئة المدينة في سنة مجدبة فمشى أشرافها بعضهم لبعض خوفا من لسانه وقالوا قدم علينا هذا الرجل وهو يأتي الشريف منا فان أعطاه جهد نفسه وان حرمه هجاه فجمعوا له بينهم أربعمائة دينار فأتوه فقالوا هذه صلة آل فلان وهذه صلة آل فلان فأخذها وظنوا أنهم قد كفوه المسئلة فاذا هو يوم الجمعة قد استقبل وهو يقول من يحملني على بغلين كفاه الله كبة النار (السليطة) الحديدة اللسان وقد سلطت فهي سليطة (شريطة) موافقة (بعلها) أي زوجها أي جاءت على شرط زوجها فهي مثله في خصالها كلها (قنبس) اسمها وهو من القبس وهي الشعلة كأنها لحدتها شعلة نار تحرق ما مرت به (عنبس) من العبوس ونونه ونون قنبس زائدتان (التحافها) ارتداؤها والتواؤها فيه (الحافها) الحاحها في السوال (اسفافها) تساقطها على ما تجمع من الناس والاسفاف التتبع لمداق الامور والاسفاف الدخول في الامر الدنئ وقد أسف تعرض للامر الدنئ (انكماشها) انحفازها واجتهادها (انتعاشها) قيامها وارتفاعها (هراشها) مشارتها القرابتها والمهارشة أصلها للكلاب وهي أن يتراقع الكلبان ويتنابحا ويعض كل واحد صاحبه فجعل مدافعتها عند الشر لاقرانها ومضارتها كالهراش للكلاب ولا تكمل عندهم نجابتها حتى تفوق أقرانها في الشر والسب بالقبائح وضرب الكف على ذلك والا فهي ناقصة (بذل) أعطى (شلاقا) ثوب مرقع وليس بعربي وقيل هو شبه المخلاة وقيل هو خريطة تجعل فيها كسر الخبز (عكازا) عصا تقرع بها الابواب وتضرب بها الكلاب (صقاعا) خرقة بالية تجعلها على رأسها (كرازا) اناء تعلقه في ذراعها تجعل فيه الصدقة وقيل الكراز اناء لشرب الماء وتسميه عامتنا الكرازة فكان صداق هذه المرأة ثوبا مرقعا تلبسه للكدية وخرقة بالية لرأسها وعصا تقرع بها الابواب واناء اما أن تجعل فيه ما يدق من الصدقة أو تجعل فيه ماء لشربها عند طوافها للكدية والكرز هو الخرج والكراز كبش يحمل عليه الراعي أداته (عيلة) فقرا (شملكم) عددكم (المعاطب) المهالك وخطأ أبو محمد في الدرة من يذهب من الخواص بالعيلة الى العيال وقال انما العيلة الفقر بدليل قوله تعالى وان خفتم عيلة

وتصريف الفعل منه عال يعيل فهو عائل والجمع عالة وفى التنزيل العزيز ووجدك عائلا فاغنى وفى الحديث لان تدع ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس وأما الذين يعالون فهم عيال وواحدهم عيل كجيد وجياد وجمع عيال على عيائل كركاب وركائب وأعال فهو معيل كثر عياله وعالهم يعولهم وفى الحديث ابدأ بمن تعول ومن كلام العرب والله لقد علت حتى علت أى صفت عيالى حتى افتقرت وأما قوله تعالى ذلك أدنى أن لا تعولوا فمعناه أن لا تجوروا وقال بعض العرب لحاكم حكم عليه بما لم يوافقه والله لقد علت على فى الحكم أى أجرت ومن فسر فى الآية تعولوا بان معناه تكثر عيالكم فقد وهم (١) واذفرغنا من تفسير هذه الخطبة الهزلية وقد قدمنا أن ابن همام فى هذه المقامة طفيلى فنذكر هنا العهد الذى كتبه الصابى بأمر معز الدوله لمحمد بن فريعة الطفيلى ببغداد وقد استخلفه على التطفيل فان هذا العهد يوافق خطبة المقامة فى كثير من أغراضها وذلك عهد عهده محمد بن عبد الرحمن الى الفضل بن النعمان حين استخلفه على سنته واستنابه على حياطة رسومه وسنته من التطفيل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها وما يجرى معها من سوادها وبياضها وأطرافها لما توسمه فيه من قلة الحياء وشدة اللقاء وكثرة اللقم وجودة الهضم وأمره أن يتوسم اسم التطفيل ومعناه ويعرف مغزاه ومنحاه ويتصفحه تصفح الباحث عن حظه بمجهوده غير القائل فيه بتسليمه وتقليده فان كثيرا من الناس قد نسب صاحبه للشره والنهم وحمله على الجشع والقرم فمنهم من غلط فى استدلاله فأساء فى مقاله ومنهم من شح بماله فدفع عنه باحتياله وكلا الفريقين مذموم وجميعهما مليم ملوم لا يتعلقان بعذر واضح ولا يتعريان من لباس فاضح وقد عرفت يا أخى بالتطفيل ولا عار فيه عند ذوى التحصيل لان التطفيل مشتق من الطفل وهو وقت المساء وأوان العشاء فلما كثر استعمل فى صدر النهار وعجزه وأوله وآخره كما قيل القمران للشمس والقمر وكما قيل العمران لابى بكر وعمر وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بعراياه ويبسط الامر بسراياه فانه يظفر من ارادته بالغنيمة الباردة ويصل بها الى الغريبة الشاردة فيجد بها من طرائف الالوان الملذة للسان وبدائع الطعوم السائغة فى الحلقوم ما لا يجده عند غيرهم ولا يناله الا لديهم لحذق صناعتهم وجودة أدواتهم

---

(١) قوله ومن فسر فى الآية الخ فى الكشاف والذى يحكى من الشافعى رحمه الله انه فسر ان لا تعولوا ان لا تكثر عيالكم فوجهه ان يجعل من قولك عال الرجل عياله يعولهم كقولهم مانهم يمونهم اذا انفق عليهم لان من كثر عياله لزمه ان يعولهم وفى ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال والرزق الطيب وكلام مثله من اعلام العلم وائمة الشرع ورؤس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد وأن لا يظن به تحريف تعيلوا الى تعولوا فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تظنن بكلمة خرجت من فى اخيك سوأ وانت تجد لها فى الخير محملا وكفى بكتابنا المترجم بكتاب شافى العى من كلام الشافعى شاهدا بانه كان اعلى كعبا واطول باعا فى علم كلام العرب من ان يخفى عليه مثل هذا ولكن للعلماء طرقا واساليب فسلك فى تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات اه نقله مصححه

وخصب ناديهم وكثرة ذات أيديهم والله يوفر من ذلك حظنا ويسدّد نحوه لحظنا ويوضح عليه دليلنا ويسهل اليه سبيلنا وأمره أن يجتلب التكرمة ممن يحصل منهم ودّه ويستدعى بالتلطف نائله ورفده وكثيرا ما يتفق ذلك للداخلين ويتيسر للمتوصلين وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومدبريها ويرافق وكلاء المطابخ ومديريها فانهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم ومشاربهم وأمره أن يتعهد أسواق المتسوقين ومواسم المتبايعين فاذا رأى وظيفة قد زيد فيها أو أطعمة قد احتشد متها اتبعها الى القصد بها وشيعها الى المنزل الحاوى لها واستعلم ميقات الدعوة ومن يحضرها من أهل اليسار والثروة وأمره أن يجتنب مجامع العوام المقلين ومحافل الرعاع المقترين وأن لا ينقل اليها قدما ولا يغفر لما كلها فما فانها عصابة تجتمع على مضض النفوس والاحوال وقلة الاحلام والاموال وفى التطفيل عليها أجحاف بها يؤلم وازراء بمروءة التطفيل يثلم وأمره أن يحوز الخوان اذا احصل والطعام اذا نقل حتى يعرف بالحدس والتخمين عدد الالوان فى الكثرة والقلة وافتنانها فى الطيب واللذة فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها وينتهى عند انتهائها فلا يفوته نصيب من كثيرها وقليلها ولا يخطئه الحظ من دقيقها وجليلها ومتى أحس بنقلة الطعام وحجره أمعن فى أوله امعان الكيس فى سعيه والرشيد فى أمره فانه اذا فعل ذلك سلم من عواقب الاغمار الذين يكفون طرفا ويقلون تادبا ويظنون ان المائدة تبلغهم الى آخر حاجتهم وتنتهى بهم الى حد غايتهم فلا يلبثون أن يخجلوا خجلة الوامق الراغب وينقلبوا بحسرة الراهق الخائب وأمره أن يروض نفسه ويغالط حسه ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحا ويطوى دونه كشحا ويستحسن الصمم عن الفحشاء ويغمض عن اللقمة الخشناء وان أتته الوكزة فى حلقه صبر عليها لاجل الوصول الى حقه وان وقعت الصفعة فى راسه عض عليها بواقع أضراسه وان لقيه لاق بالجفاء قابله باللطف والصفاء اذا كان ولج الابواب وخالط الاصحاب وجلس مع الحضور واختلط بالجهور فلابد أن يلقاه المنكر لامره ويعربه المستغرب لوجهه فان كان حراحسنا أمسك وتذمم وان كان فظا غليظا همهم وتكلم وأن يستعمل مع المخاطب له الملاينة وأن يجتنب عند ذلك المخاشنة ليرد غيظه ويفل حده ويكف غربه ويامن سغبه وأمره أن يتعهد الجوارشات المعدة للعدد والمقوية للمعد المشهية للطعام المسهلة سبيل الانهضام وان يكون فى اتخاذها كالكاتب الذى يخط أقلامه والفارس الذى يصقل حسامه وأمره اذا غشى أبواب الملوك أهل السلطان أن يصانع البواب والحجاب ويخدم القوّاد والكتّاب فاذا دخل السواد الاعظم توسط الجمع لا يتأخر ولا يتقدم بعد أن يجمل ثيابه ويحسن كلامه وجوابه فطعام الامراء تدعى اليه الحفلاء احتفالا ويتكفل بالوفود على العموم اكتفالا فهذا العهد مطابق لاحوال

وأبرم للختن عقد خطبته تساقط من النثار ما استغرق حد الاكثار وأغرى الشحيح بالايثار ثم نهض الشيخ يسحب ذلاذله ويقدم أراذله (قال الحرث بن همام) فتبعته لانظر عرجة القوم وأكمل بهجة اليوم فعاج بهم الى سماط زينته طهاته وتناصفت فى الحسن جهاته فحين ربع كل شخص فى ربضته وطفق يرتع فى روضته انسللت من الصف وفررت من الزحف فحانت من الشيخ لفتة الىّ ونظرة هجم بها طرفه علىّ فقال الى أين يا برم هلا عاشرت معاشرة من فيه كرم

هذه المقامة (قوله أبرم) أى أحكم وسدد و (الختن) ولى الزوجة مثل الاب والاخ وابن العم فهم الاختان وكل شئ من قبل الزوج فهم الاحماء واحدهم حما مثل قفا وحمو مثل أبو وحم مهموز والاصهار تجمعهما و (الخطبة) مراسلة المرأة للزواج و (النثار) ما نثر عليه من الدراهم وقد نثرت الشئ نثرا اذا رميت به متفرقا وأصحاب الزوج تدخلهم حمية عند ذلك فينثر كل واحد منهم من الدراهم ما أمكنه فتجمع ويشترى منها أنواع الاطعمة ولذلك قال (أغرى الشحيح بالايثار) أى حرضه على أن يتكرم و (استغرق) جاوز وحدث ابن قتيبة عن أبى عثمان قال مررت بمحضر قد اجتمع فيه خلق كثيرون فسألت بعضهم ما جمعهم فقال هذا سيد الحى تزوج منا فتاة فتكلم الشيخ فقال الحمد لله وصلى الله على رسول الله أما بعد فان الله جعل المناكحة التى رضيها فعلا وأنزلها وحيا سبب المناسلة وان فلانا ذكر فلانة ويذل لها من الصداق كذا وقد زوجته اياها وأوصيته بوصية الله فيها ثم قال هاتوا نثاركم فقلبت على رؤسنا غرائر التمر (ذلاذله) أى اطراف ثوبه والذلذل ما يلى الارض من أسفل القميص (اراذله) جمع أرذل وهو الدنئ والرذل والمرذل والرذيل الدون و (العرجة) التعريج ويقال ما عليه عرجة ولا تعريج أى اقامة وبهجة الشئ حسنه ونضارته و (عاج) مال و (السماط) كل مستو على نسق وصف الناس سماط وأراد به المائدة و (الطهاة) الطباخون من الناس (تناصفت) اعتدلت وأنصف كل جزء منها صاحبه والتناصف اعتدال الحسن (ربع) جلس يقال ربعت بالمكان أقمت به وربعت الحجر رفعته بيدى لانظر شدتى وربع وقف وتحبس (ربضته) موضعه الذى يقعد فيه والربضة القطعة الغليظة من الثريد (يرتع) يأكل وفلان يرتع أى هو مخصب لا يعدم شيأ يريده (الروضة) موضع العشب وأراد بها ما بين أيديهم من الطعام (الزحف) الضرب والوثوب الى الشر وأراد أنه لما جلس كل انسان أن يأكل خشى هو ان جلس للاكل أن يغرم ويشتهر بانه طفيلى فيحتاج أن يتدافع وأن يتواثب مع صاحب الحانوت فى ثمن ما أكل ففر من ذلك والزحف مشى الاعمى (لفتة) نظرة بالتواء كأنه يلوى عنقه فينظر ولفت اليه لفتا والتفت صرف وجهه اليه و (هجم) دخل عليه بغتة (برم) بخيل وهو الذى لا يدخل مع القوم فيما دخلوا فيه من المغرم و (المعاشرة) ترك المخالفة فى الصحبة

فقلت والذى خلقها طباقا وطبقها اشراقا لاذقت لماقا ولالست رقاقا أو تخبرنى أين مدب صبالك ومن أين مهب صبالك فتنفس الصعداء مرارا وأرسل البكاء مدرارا حتى اذا استنزف الدمع استنصت الجمع وقال لى أرعنى السمع

مسقط الرأس سروج * وبها كنت أموج * بلدة يوجد فيها * كل شئ ويروج

وردها من سلسبيل * وصحاريها مروج * وبنوها ومغانيـــهم نجوم وبروج

(طباقا) جمع طبق أى هى طبق فوق طبق يعنى السماء و (طبقها) ملأها وعمها يقال طبق الغيم تطبيقا اذا أصاب بمطره جميع الارض (اشراقا) نورا وضوأ (لماقا) الاصمعى رحمه الله هو مايشرب فان أردت نفيه قلت ماذقت لماقا وأنشد

كبرق لاح يعجب من رآه * ولايشفى الحوائم من لماق

الحوائم العطاش وحكى يعقوب أن اللماق يصلح فى الاكل والشرب قال ابن كيسان هو الشئ اليسير من الطعام والشراب (لست رقاقا) أكلت خبزا مرققا واللوس تتبع بقية الشئ الحلو فى فك * ابن سيده لاس لوسا تتبع الحلاوة فأكلها وماذاق لوسا ولالواسا أى ذواقا ولا يلوس كذا أى لايتناوله (أو تخبرنى) حتى تخبرنى (أين مدب صبالك) يريد أين ولدت فدببت صغيرا (مهب صبالك) مجىء ريحك وأراد أين بلدك (الصعداء) التنفس يتوجع وهى من فعل المهموم (استنزف الدمع) استفرغه بالبكاء حتى انقطع ونزف وأنزفه أفناه بالبكاء (استنصت الجمع) أمرهم بالسكوت (مسقط الرأس) يريد الموضع الذى سقط فيه رأسه عند ما ولد (أموج) أتصرف وأتحرك والمائج المضطرب (يروج) يتجمل (وردها) ماؤها (السلسبيل) عين فى الجنة والسلسبيل الخمر و (المروج) المواضع الخصبة (مغانيهم) منازلهم (البروج) منازل القمر وأراد أنهم فى الحسن والرفعة كالنجوم وأن دورهم فى العلو والاستواء كالبروج وسبقه الحلوانى القيروانى الى هذا التشبيه فقال يتشوق الى القيروان بعد خرابها

ليت شعرى وليت حرف تمن * ربما علل الفؤاد السقيما

كيف ياقيروان حالك لما * نثر البين سلكك المنظوما

كنت أم البلاد شرقا وغربا * فمحا الدهر وشيك المرقوما

نحن أولادها ولكن عققنا * بعد أن لم نطق بها أن نقيما

دمن كانت البروج وكنا * أقمرا فى بنائها ونجوما

وقال السرى يتشوق الى الموصل وكان بحلب

أنجل صبوتنا دعاء مشوق * يرتاح منك الى الهوى الموموق

فتى أزور قباب مشرفة الذرا * فادور بين النسر والعيوق

حبـذا نفحة ريا * ها ومرآهاالبهيج * وأزاهير رياها * حين تجاب الثلوج
من رآها قال مرسى * جنة الدنيا سروج * ولمن ينزاح عنها * زفرات ونشيج
مثل مالاقيت مذزحـزحت عنها العلوج * عبرة تهمى وشجو * كلما فـتر يهيج
وهمـوم كل يوم * خطبها خطب مريج * ومساع فى الترجى * قاصرات الخطو عوج
ليت يومى حم لما * حم لى منها الخروج

فارى الصوامع فى غوارب أكمها * مثل الهوادج فى غوارب نوق
محمـرة الجدران ينفح طيبها * فكأنها مبنيـة بخلوق
حمـر تلوح خلالها بيض كما * فصلن بالكافور بين عقيق
كاف تذكر قبـل ناهية النهى * ظلين ظل هوى وظل حديق
فتفرقت عـبراته فى خـده * اذ لا مجير له من التفـريق

وقال الثعالبى ما نظرت الى الصوامع مذ برزت من نيسابور الا ذكرت بيته فارى الصوامع واستأنفت العجب من حسن هذا التشبيه وبراعته (نفحة رياها) أى حركة رائحتها الطيبة (مرآها البهيج) منظرها الحسن (وأزاهير رياها) أنوار كداها وهى جمع أزهار وأزهار جمع زهر وهو النور (تجاب) تزول ثم قال سروج هى الموضع الذى أرست به جنة الدنيا أى ثبتت فيه فكأنه قال جنة الدنيا هى سروج وسروج هذه بلد بقرى وعمارات وهى من بلاد الجزيرة وكورها المشهورة والجزيرة انقسمت قسمين ديار ربيعـة وديار مضر وسروج من كور ديار مضر وهى ثغرية اذا كان للمسلمين قوة يملكونها واذا ضعفوا اغلبهم الروم عليها وهى كثيرة الثلج والبرد (قوله ينزاح) يبعد (النشيج) البكاء (والزفرة) تنفس المهموم (زحزحت) نحانى (تهمى) تسيل (شجو) حزن (فتر) سكن (يهيج) يتحرك (خطبها) أمرها (مريج) مختلط (مساع) مواضع تصرفه ويكون المسعى مصدرا بمعنى السعى (قاصرات) أى قصيرة وكذا استعمالها الان فعلها قصر واسم فاعلها فعيل مثل ظرف فهو ظريف (الخطو) جمع خطوة (عوج) معوجة (يومى حم) أى يوم موتى قدر أراد ليت انى مت ولا أرى خروجى منها * أنس رضى الله عنه قال النبى صـلى الله عليه وسـلم لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فان كان لابد فاعلا فليقل اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى * جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسـلم قال لا تمنوا الموت فان هول المطلع شديد وان من السعادة أن يطول عمر العبد وأن يرزقه الله الانابة وفى مغنى وصفه سروج وبكائه عليها قال الحضرمى الاعمى يتشوق الى القيروان

أيا سقى الله أرض القيروان حيا * كأنه عبراتى المسـتهلات
كأنها الذ الجنات تربتها * مسكية وحصاها جوهريات

قال فلما بن بلده ووعيت ما أنشده أيقنت انه علامتنا أبو زيد وان كان الهرم قد أوثقه بقيد
فبادرت الى مصافحته واغتنمت مؤاكلته من صحفته وظلت مدة مقامى بمصر أعشو الى شواطه

أرض أريضة أقطار مباركة * لله فيها براهين وآيات

وحدثنى الفقيه أبو عبد الله بن زرقون فى بستانه بطريانة أيام قراءتى عليه النوادر والكامل وكان رحمه الله ذاكرا بالطريقة الادبية مع تميزه بالطريقة الفقهية فدارت بينى وبينه فى احدى العشيات أنواع من المذاكرات فى فنون أدبيات فاهتز رحمه الله وهش وأظهر السرور بى وأنا يومئذ غلام ما بقل عذارى فقال لقد علمت أن بينى وبينك أخوة قلت وكيف ذلك يا سيدى فقال انى ولدت ببلدك شريش فزدت بالحديث غبطة واستزدت منه فقال لى ومع ذلك فثم قصة مستظرفة اعلم انى كنت اجتزت بشريش قافلا من العدوة مع الفقيه أبى بكر عبد الله بن العربى رحمه الله فلما صرنا فى بطاحها وبين كرماتها وجنانها أخذ الفقيه أبو بكر يثنى عليها بكل لسان على كثرة ما رآى من البلدان ويقول ان الاشياء التى جمعت فيها لا تكاد تجتمع فى بلدة من كثرة الزرع والضرع والزيت والعصير والملح وغير ذلك فقلت له أعلمت انى ولدت بها فقال لى أبو بكر أتقول أنت الآن

	مسقط الرأس شريش	(فقلت له مجيزا)	وبها كنت أعيش
فقال أبو بكر	بلدة يوجد فيها	فقلت	كل شئ وبريش
فقال أبو بكر	وردها من سلسبيل	فقلت	وصحاريها عريش

ثم سرنا فى طريقنا على قوافى السروجية فرددناها شريشية وقطعنا بها الطريق ونحن لا نشعر فكانت أسر عشية رأيت بمجالسة مثل هذا الفاضل وسنه قد نيف على الثمانين بسنتين يحدثنى على ابن العربى وابن عبدون الكاتب ونظرائهم فى رياض كلها نزهة على نهر اشبيلية وهى أمامنا على بهجتها وجمالها مادحا لى ولبلدى ليدخل على بذلك مسرة نسأل الله تعالى أن يبلغه غاية السرور فى دار البقاء (قوله وعيت) أى حفظت (علامتنا) عالمنا المشهور بالعلم (أوثقه) ربطه وشده وقد تقدم هذا القبيل من الهرم فى أخبار وأشعار حسان (مصافحته) معانقته ووضع كفى على كفه * ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما امرئ يصافح أخاه ليس فى صدر واحد منهما على أخيه احنة لم تتفرق أيديهما حتى يغفر الله عز وجل ما مضى من ذنوبهما الاحنة الحقد (اغتنمت) حسبتها غنيمة (مؤاكلته) الاكل معه * ابن عمر رضى الله عنهما طعام السخى دواء وطعام الشحيح داء (ظلت) أى دمت قال الله تعالى الذى ظلت عليه عاكفا أى دمت عليه مقيما قال سيبويه رحمه الله أصله ظللت * الليث يقال ظل نهاره صائما ولا تقول العرب ظل الا لكل عمل بالنهار كما لا تقول بات الا للعمل بالليل (أعشو) أنظر ببصر ضعيف (شواطه) ناره

وأحشو صدفتى من درر ألفاظه الى أن نعب بيننا غراب البين ففارقته مفارقة الجفن للعين

والشواظ لهب النار الذى لادخان فيه (صدفتى) اذنى (نعب) صاح (البين) الفراق والغراب اذا صاح عندهم تشاءموا به وقد تقدم ذلك (مفارقة الجفن للعين) أى مسرعا بقدر ما تفتح عينك (من شرح المقامات للشريشى)

الباب السادس فى المراسلات والمنشآت

(وصية عبد الحميد الكاتب لطائفة الكتاب)

أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فان الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا وان كانوا فى الحقيقة سواء وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات الى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهل الادب والمروآت والعلم والرزانة بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها وبنصحائكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف الا منكم فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون وأبصارهم التى بها يبصرون وألسنتهم التى بها ينطقون وأيديهم التى بها يبطشون فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب اذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره أن يكون حليما فى موضع الحلم فهيما فى موضع الحكم مقداما فى موضع الاقدام محجاما فى موضع الاحجام موثرا للعفاف والعدل والانصاف كتوما للاسرار وفيا عند الشدائد عالما بما يأتى من النوازل يضع الامور فى مواضعها والطوارق فى أماكنها قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه وان لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعد لكل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب وتفقهوا فى الدين وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسموا اليه هممكم ولا تضيعوا النظر فى الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الامور ومحاقرها فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ونزهوا صناعتكم عن الدناءة

واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات وإياكم والكبر والسخف والعظمة فانها عداوة مجتلبة من غير احنة وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم وتواصوا عليها بالذى هو أليق لاهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب اليه أمره وان أقعد أحدا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفتــه وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده وأخيه فان عرضت فى الشغل محمدة فلا يصرفها الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والملل عنــد تغير الحال فان العيب اليكم معشر الكتاب أسرع منه الى القراء وهو لكم أفسد منه لها فقد علمتم أن الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة اليــه والاضطرار الى ما لديه فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم فى حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والاحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة واذا ولى الرجل منكم أو صير اليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفا فان الخلق عيال الله وأحبهم اليه أرفقهم بعياله ثم ليكن بالعدل حاكما وللاشراف مكرما وللفىء موفرا وللبلاد عامرا وللرعية متألفا وعن أذاهم متخلفا وليكن فى مجلسه متواضعا حليما وفى سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا واذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه فاذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبيح بالطف حيلة وأجمل وسيلة وقد علمتم أن سائس البهيمة اذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها فان كانت رموحا لم يهجها اذا ركبها وان كانت شبوبا اتقاها من بين يديها وان خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها وان كانت حرونا قمع برفق هواها فى طرقها فان استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم والكاتب لفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره ويفهم عنــه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التى لا تحير جوابا ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا الا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب عليها ألا فارفقوا رحمكم الله فى النظر واعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر تأمنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصــير منكم الى الموافقة وتصيروا منه الى المواخاة والشفقة ان شاء الله ولا يجاوزن الرجل منكم فى هيئة مجلسه وملبسه ومركبه

ومطعمه ومشربه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدرحقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لاتحملون فى خدمتكم على التقصير وحفظة لاتحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير واستعينوا على عفافكم بالقصد فى كل ماذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان أهلهما ولاسيما الكتاب وأرباب الآداب وللامور أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ علمه ورويته فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصد الكافى من منطقه وليوجز فى ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل عن اكثاره وليضرع الى الله فى صلة توفيقه وامداده بتسديده مخافة وقوعه فى الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه فانه ان ظن منكم ظان أو قال قائل ان الذى برز من جميل صنعته وقوة حركته انما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بحسن ظنه أو مقالته الى أن يكله الله عزوجل الى نفسه فيصير منها الى غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف ولا يقولن أحد منكم انه أبصر بالامور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه فى صناعته ومصاحبه فى خدمته فان أعقل الرجلين عند ذوى الالباب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجمل فى طريقه وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا يكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته وأنا أقول فى كتابى هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذى فيه من ذكر الله عزوجل فلذلك جعلته آخره وتممته به تولانا الله واياكم يامعشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه باسعاده وارشاده فان ذلك اليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

صورة ما كتبه طاهر بن الحسين لابنه عبد العزيز بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر ومابينهما فكتب اليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد اليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج اليه فى دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم بما لايستغنى عنه ملك ولا سوقة ونص الكتاب

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لاشريك له وخشيته ومراقبته عزوجل ومزايلة سخطه واحفظ رعيتك فى الليل والنهار والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك

وما أنت صائر اليه وموقوف عليه ومسؤل عنه والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله عزوجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه فان الله سبحانه قد أحسن اليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده وألزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم والامن لسربهم وادخال الراحة عليهم ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل وأنه رأس أمرك وملاك شأنك وأول ما يوفقك الله عليه وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب اليه فعالك المواظبة على ما فرض الله عزوجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوابعها على سننها من اسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عزوجل فيها ورتل فى قراءتك وتمكن فى ركوعك وسجودك وتشهدك ولتصرف فيه رأيك ونيتك واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك وادأب عليها فانها كما قال الله عزوجل تنهى عن الفحشاء والمنكر ثم أتبع ذلك بالاخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عزوجل وتقواه وبلزوم ما أنزل الله عزوجل فى كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه بالحق لله عزوجل ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد وآثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله عزوجل والعاملين به فان أفضل ما يتزين به المرء الفقه فى الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به الى الله عزوجل فانه الدليل على الخير كله والقائد اليه والآمر به والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ومع توفيق الله عزوجل يزداد المرء معرفة واجلالا له ودركا للدرجات العلى فى المعاد مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لامرك والهيبة لسلطانك والانسة بك والثقة بعدلك وعليك بالاقتصاد فى الامور كلها فليس شئ أبين نفعا ولا أخص أمنا ولا أجمع فضلا منه والقصد داعية الى الرشد والرشد دليل على التوفيق قائد الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد وكذا فى دنياك كلها ولا تقصر فى طلب الآخرة والاجر والاعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والاعانة والاستكثار من البر والسعى له اذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله فى دار كرامته أما تعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب وانك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه فأنه واهتد به تتم أمورك وتزيد مقدرتك ويصلح عامتك وخاصتك وأحسن ظنك بالله عزوجل تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة اليه فى الامور كلها تستدم به النعمة عليك ولا تتهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك

قبل أن تكشف أمره فان ايقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم آثم اثم فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعينك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ولا تتخذن عدو الله الشيطان فى أمرك معمدا فانه انما يكتفى بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاذة عيشك واعلم انك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفى به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس الى محبتك والاستقامة فى الامور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لامور الاولياء وحياطة الرعية والنظر فى حوائجهم وحمل مؤناتهم ايسر عندك مما سوى ذلك فانه أقوم للدين وأحيى للسنة وأخلص نيتك فى جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤل عما صنع ومجزى بما أحسن ومؤاخذ بما أساء فان الله عز وجل جعل الدين حرزا وعزا ورفع من اتبعه وعززه واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الاهدى وأقم حدود الله تعالى فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فان فى تفريطك فى ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروءتك واذا عاهدت عهدا فأوف به واذا وعدت الخير فأنجزه واقبل الحسنة وادفع بها وأغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وابغض أهل النميمة فان أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجراءة على الكذب لان الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمتها لان النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر وأحبب أهل الصلاح والصدق وأعن الاشراف بالحق وأعن الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى واعزاز أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الاهواء والجور واصرف عنهما رأيك وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التى تنتهى بك الى سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وآثر الحلم والوقار واياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله واياك أن تقول أنا مسلط أفعل ما أشاء فان ذلك سريع الى نقص الرأى وقلة اليقين بالله عز وجل وأخلص لله وحده النية فيه واليقين واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة الى أحد أسرع منه الى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم فى الدولة اذا كفروا نعم الله واحسانه واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدخر وتكنز البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لامورهم والحفظ لدمائهم والاغاثة لملهوفهم واعلم أن الاموال

اذا اكتنزت وادخرت فى الخزائن لا تنمو واذا كانت فى صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم نمت وزكت وصلحت به العامة وترتبت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك تفريق الاموال فى عمارة الاسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فانك اذا فعلت قرّت النعمة لك واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر وكان الجمع لما شملهم من عدلك واحسانك أسلس لطاعتك وطب نفسا بكل ما أردت وأجهد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب وليعظم حقك فيه وانما يبقى من المال ما أنفق فى سبيل الله وفى سبيل حقه واعرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه واياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك فان التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار وليكن عملك لله عز وجل وفيه وارج الثواب فان الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا واحسانا فان الله عز وجل يكتب بقدر شكر الشاكرين واحسان المحسنين ولا تحقرن ذنبا ولا تمالئن حاسدا ولا ترحمن فاجرا ولا تصلن كفورا ولا تداهنن عدوا ولا تصدقن نماما ولا تأمنن عدوا ولا توالين فاسقا ولا تتبعن غاويا ولا تحمدن مرائيا ولا تحقرن انسانا ولا تردن سائلا فقيرا ولا تحسنن باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تخلفن وعدا ولا تذهبن فخرا ولا تظهرن غضبا ولا تباين رجاء ولا تمشين مرحا ولا تزكين سفيها ولا تفرطن فى طلب الآخرة ولا ترفع للنمام عينا ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محاباة ولا تطلبن ثواب الآخرة فى الدنيا وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ولا تدخلن فى مشورتك أهل الرفه والبخل ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهم أكثر من نفعهم وليس شئ أسرع فسادا لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح واعلم أنك اذا كنت حريصا كنت كثير الاخذ قليل العطية واذا كنت كذلك لم يستقم أمرك الا قليلا فان رعيتك انما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم ووال من صفا لك من أوليائك بالاتصال اليهم وحسن العطية لهم واجتنب الشح واعلم أنه أول ما عصى به الانسان ربه وان العاصى بمنزلة الخزى وهو قول الله عز وجل ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون فسهل طريق الحق واجعل للمسلمين كلهم فى بيتك حظا ونصيبا وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد فأعده لنفسك خلقا وارض به عملا ومذهبا وتفقد الجند فى دواوينهم ومكاتبهم وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم فى معاشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة فى عدله وعطيته وانصافه

وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فذلك مكروه أحد البابين باستشعار فضله الباب الآخر ولزوم العمل به تلق ان شاء الله به نجاحا وصلاحا وفلاحا واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى لا يساويه شئ من الامور لانه ميزان الله الذى يعدل عليه أحوال الناس فى الارض وباقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى حق الطاعة ويرزق من الله العافية والسلامة ويقيم الدين ويجرى السنن والشرائع فى مجاريها واشتد فى أمر الله عز وجل وتورع عن النطق وامض لاقامة الحدود وأقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع بتجربتك وانتبه فى صمتك واسدد فى منطقك وانصف الخصم وقف عند الشبهة وأبلغ فى الحجة ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرع الى سفك الدماء فان الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم انتهاكا لها بغير حقها وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزا ورفعة ولاهله توسعة ومنعة ولعدوه كبتا وغيظا ولاهل الكفر من معاديهم ذلا وصغارا فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية بين الخصوص والعموم ولا تدفعن شيأ منه عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ولا كاتب لك ولا لاحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا تكلف أمرا فيه شطط واحمل الناس كلهم على أمر الحق فان ذلك أجمع لالفتهم والزم لرضاء العامة واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا وانما سمى أهل عملك رعيتك لانك راعيهم وقيمهم تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ونفذه فى قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم واستعمل عليهم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم فى الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند اليك فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف فانك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الاحدوثة فى عملك واستجررت به المحبة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب فى كورك وكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وارضاء العامة بافاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضى العدل فى ذلك عند عدوك وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة فتنافس فيها ولا تقدم عليها شيأ تحمد عاقبة أمرك ان شاء الله تعالى واجعل فى كل كورة من عملك أمينا يخبرك خبر عمالك ويكتب اليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معاينا لاموره كلها واذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك فان رأيت السلامة فيه والعافية

ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فامضه والا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته فانه ربما نظر الرجل فى أمره وقد أتاه على مايهوى فأغواه ذلك وأعجبه فان لم ينظر فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم فى كل ما أردت وباشره بعد عون الله عزوجل بالقوة وأكثر من استخارة ربك فى جميع أمورك وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره وأكثر مباشرته بنفسك فان لغد أمورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت واعلم أن اليوم اذا مضى ذهب بما فيه فاذا أخرت عمله اجتمع عليه عمل يومين فيشغلك ذلك حتى ترضى منه واذا أمضيت لكل يوم عملك أرحت بدنك ونفسك وتستيقن أمر سلطانك وانظر أحرار الناس وذوى الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن اليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم حتى لا يجدوا الخلتهم مشافر وأفرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته اليك والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه فسل عنه أحفى مسئلة وكل بامثاله أهل الصلاح فى رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بامير المؤمنين أعزه الله تعالى فى العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به وزيادة وأجر للامراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لاكثره فى الجرائد على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دورا تأويهم وقواما يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك الى سرف فى بيت المال واعلم أن الناس اذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانيهم لم تبرمهم وربما تبرم المتصفح لامور الناس لكثرة مايرد عليه ويشغل ذكره وفكره منها ماينال به مؤنة ومشقة وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقز مايقربه الى الله تعالى ويلتمس رحمته وأكثر الاذن للناس عليك وأرهم وجهك وسكن حراسك واخفض لهم جناحك وأظهر لهم بشرك ولن لهم فى المسئلة والمنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك واذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والاجر من غير تكدير ولا امتنان فان العطية على ذلك تجارة مربحة ان شاء الله تعالى واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والامم البائدة ثم اعتصم فى أحوالك بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وباقامة دينه وكتابه واجتنب مافارق ذلك وخالفه ودعا الى سخط الله عزوجل واعرف ماتجمع عمالك من الاموال وماينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق اسرافا وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هواك اتباع السنن واقامتها وايثار مكارم الاخلاق ومعاليها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك

من اذا رأى عيبا لم تمنعه هيبتك من انهاء ذلك اليك فى ستر واعلامك بما فيه من النقص فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبير له فما كان موافقا للحق والحزم فأمضه واستخر الله عز وجل فيه وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى المسئلة عنه والتثبت ولا تمنن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ولا تقبل من أحد الا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور المسلمين ولا تضعن المعروف الا على ذلك وتفهم كتابى اليك وأمعن النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فان الله عز وجل مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رضى ولدينه نظاما ولاهله عزا وتمكينا وللملة والذمة عدلا وصلاحا وأنا أسأل الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام وحدث الاخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أعجب به الناس واتصل بالمأمون فلما قرئ عليه قال ما أبقى أبو الطيب يعنى طاهرا شيأ من أمور الدنيا والدين والتدبير والرأى والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه وأوصى به ثم أمر المأمون فكتب به الى جميع العمال فى النواحى ليقتدوا به ويعملوا بما فيه هذا أحسن ما وقفت عليه فى هذه السياسة والله أعلم

رساله وداديه

سلام يعبر عن الوداد طيب عبيره ويخبر عن اخلاص الفؤاد لطف تعبيره وثناء على محاسن تلك الشمائل أرق من نسمات الشمائل وتحية بهية تباهى الخمائل بنفحات أورادها وأدعية مرضية جعلتها الالسنة خير أورادها وسؤال عن المزاج الزاهر وصحة الخاطر الباهر لا زالتم محل نعمة يتصل على مدى الايام بقاؤها ويزيد على مر الشهور والاعوام بهاؤها ولا برحت ثغور الاقبال اليكم بواسم ورياح الآمال لديكم نواسم ولا انفكت الايام والليالى متقلدة بحلاكم أجيادها والمعالى متسابقة الى ساحة حماكم جيادها آمين

وبعد فان بى من الاشواق ما تضعف عن حمله الى حماكم الاوراق ومن التأسف على ما حرمته من لقياكم والتلهف الى مطالعة أنوار محياكم ما يقصر عن وصفه لسان البراعة ويقصر دون رصفه بيان البراعة ويضيق عنه نطاق العبارة ولا ينفسح له ميدان الاشارة وان فى ضميركم الاجلى ونور فكركم الأعلى ما يكفى فى الدلالة ويغنى عن الاطالة فى المقالة وان تفضلتم بالسؤال فانا بحمد الله قد بلغنا الآمال والجميع فى صحة وعافية وحسن حال والكل مشتاقون اليكم ويسلمون عليكم وعبد الله فكرى يقبل يديكم (لعبد الله باشا فكرى)

(وله أيضا)

الشوق الى لقياكم واجتلاء نور محياكم تضعف عن نقله حمائم الرسائل ولا يحتاج فى اثباته للحجج والدلائل فالله يطوى شقة البين ويقر بكم العين ويمتعنى ببقائكم وطيب لقائكم وقد ورد خطكم الكريم فسر أنفسا تعرفه وتألفه وأقر أعينا الا تزال تترقبه وتتشوفه وقد كان مر بخاطرى وخطر لفكرى أن أسابق سيدى ومولاى برسالة أشكو فيها لواعج البعاد وأقضى بها بعض الفروض الواجبة من حقوق الوداد ولكن أبى الله الا أن يكون سيدى هو السابق لتلك الفضيلة والبادئ بهذه المكرمة الجليلة وأن أكون المقصر فى جنب تطوله والمفرط فى جانب تفضله على أنى لم أكن مقصرا فى دعاء يصحبه الحب ويرافقه الاخلاص وثناء على محاسن تلك الشمائل أوجبه مزيد الاختصاص وسؤال عن ذلك الخاطر الزاهر أستقبل به كل وارد وأشيع كل صادر والأمل اتصال ما يطمئن به الفؤاد من رسائل الوداد حتى ينقضى أمد البعاد ذلك غاية المراد (قوله فى هذا الكتاب حمائم الرسائل يشير الى ما كان فى سالف الزمان من استعمال الحمام فى ايصال الكتب التى يراد سرعة وصولها الى الامكنة البعيدة وذلك ان الناس لما عرفوا فى الحمام خاصة الألفة لموضعه واهتدائه له اذا أبعد عنه وعرفوا منه نوعا قويت فيه تلك الخاصة رتبوا ابراجا بين النواحى المتباعدة كمصر والشام وبغداد واتخذوا لكل برج حماما ربوه فيه حتى ألفه وكانوا ينقلون حمام كل برج الى ما يليه فاذا أرادوا أن يوصلوا الكتاب علقوه فى جناحه وأرسلوه فيتلقاه الموظفون لاخذ الكتب منه عند وصوله الى برجه ويعلقونه فى جناح حمام البرج الآخر وهكذا فكان يصل الكتاب الى القصد فى زمن لا يمكن للبريد وكان للحمام ديوان له رؤساء وخدم وكان من المصالح المهمة وأغنى عنه وعن غيره فى زماننا هذا ذلك السلك الممدود على ذلك الخشب المنصوب الذى صار شبكة على الكرة الارضية)

(وكتب لسلطان المغرب من الحضرة الخديوية جوابا عن كتاب)

قرة نواظر الدين والدنيا وغرة مفاخر الملك والعليا وبدر مطالع السعد المشرقة أزمانه بلألائه وذخر مجامع المجد المورقة أفنانه بآلائه القائم بأمر الدين الحنيف وحامى حمى الملك المنيف ماحى ظلم الظلم ومبدد مراسمه ورافع لواء العدل ومجدد معالمه ذروة هامة الشرف الاسمى ومن تتباهى بحلاه النعوت والاسما الملك المعظم السلطان المفخم أمير المؤمنين بالديار المغربية دامت محفوفة بالرعاية الابدية محفوظة بالوقاية الاحدية ملحوظة بعين العناية الصمدية ولا برحت أعواد المنابر متباهية باسمه الكريم وأجياد المفاخر حالية بمجده القديم ولا زالت سدته الكريمة محل اجلال وتفخيم سلام يستتبع مزيد التكريم ويستجمع صنوف التبجيل والتعظيم وأدعية بهية تتمسك بأذيال الاجابة والقبول وأثنية سنية تتمسك بها نفحة الصبا والقبول يهدى لذلك المقام الارفع

والجى الاعلى الاعز الامنع أدامه الله مورد قبول واقبال ومعهد فضل وافضال ولازالت أنديته معمورة بالعز والتمكين وألويته منشورة بالنصر المبين وبعد فقد حظيت بورود مشرفكم العالى وقرت بمطالعته عيون آمالى وشكرت لما تفضلتم بابدائه وسررت بما تطولتم باهدائه واغتبطت بما ذكرتم بحسن بيانه من تأكيد الود القديم وتشييد بنيانه والتهنئة بما تجدد لدى من نعم الله تعالى على فكان نزهة النواظر وبهجة الخواطر وبغية القرائح ومسرة الجوانح هذا وانى مازلت أسمع أحاديث علاكم متصلة الاسناد فأطرب على السماع وأنشر من مدائح محامدكم ما تتعطر به الافواه والاسماع وأعتد مودتكم غنيمة النفس ومناها ومصافاتكم غاية الآمال ونهاية مداها فقد شاع من محاسن شمائلكم السامية وغرر مزاياكم الكريمة وجلائل فضائلكم النامية وقيامكم بامر الشريعة الشريفة واهتمامكم بتأييد هذه الملة المنيفة ونشر أنواع العدل بين العباد والقيام على أقدام الاقدام فى مناهج السداد ما تناقلته السمار فى أسمارها وسارت به الركبان فى أسفارها وخلدته الايام فى أسفارها وأخجل الشمس الضاحية فى إسفارها حتى أصبحت الليالى متباهية بعلاه حالية بحلاه وصار مصداق الحديث الوارد فى الطائفة القائمة على أمر الله فابقاكم الله للاسلام ساعدا وعضدا وللدين قوة ومددا وللانام ركنا وسندا وللحق عمادا ومعتمدا وأدام عليكم وعلينا نعمه باطنة وظاهرة وحفنا وإياكم بعونه وعنايته فى الدين والدنيا والآخرة

(وكتب لسلطان زنجبار)

الملك المعظم والسلطان المفخم سلطان جزيرة زنجبار صانها الله تعالى من الاكدار سلام يفسر عن إخلاص المودة سناه وثناء يخبر عن صدق المحبة لفظه ومعناه وتحية تمسك بنفحاتها المحافل وتمسك بأذيالها نسمات الشمائل الى حضرة خلاصة الاماجد الأكارم وينبوع الفضائل والمكارم مفخر الملك والعليا وانسان عين الدين والدنيا من أشرقت صفحات الايام بنور اقباله واتفقت كلمات الانام على شكر خلاله وقرت بسعوده النواظر وترنحت بوجوده أعواد المنابر فكأنها الغصون النواضر الاجل الاكرم الاسعد الامجد الافخم المشار اليه أعلاه حرس الله علاه ولازالت ثغور الملك بمعاليه باسمة ورياح السعد فى نواديه ناسمة وعيون الخطوب عن سدته نائمة وغيوث السرور فى ساحته دائمة أمين وبعد فقد وصل الى مشرفكم الكريم وتلقيته بما ينبغى له من التكريم فحصل لى مزيد المسرة بصحة مزاج تلك الحضرة وأخبرنى أيضا فلان قبودان سفينتنا الابراهيمية أنه لما وصل الى جهة مملكتكم المحمية حظى من جنابكم العالى بحسن التشريف وحصل له غاية المساعدة ونهاية التلطيف وشرح لدى ما ناله هنالك من صنوف الالتفات والاسعاد وأوصل الى أيضا من طرفكم الشريف فرسين كريمتين من الصافنات الجياد

فاحاط بى من السرور والابتهاج بما أبديتموه من معالى هممكم ولاسيما ما تكرمتم به من تشريف تلك السفينة بقدوم قدومكم ما يقصر فى وصفه اللسان ويقصر عن تعريفه بنان البيان ويضيق عنه نطاق التعبير ولا ينفسح له مجال التقرير والتحرير فشكر الله تلك الهمم العوالى وابقاها ما دامت الايام والليالى وهذا المحب بحمد الله فى صحة وعافية ونعمة من الله تعالى وافية ولا زال مشمول القلب بالمودة اليكم مشغول اللسان بالثناء عليكم محافظا على صدق الموالاة والوداد مواظبا على حسن المصافاة ومزيد الاتحاد والمرجو أن يتصل ذلك بين الطرفين على الدوام وكل ما لزم من هذا الجانب فهو رهين الاشارة والسلام

(وكتب الى من بجزيرة كريد من العساكر المصرية من طرف الجناب الخديوى ليقرأ عليهم)

لقد علم لدينا بما ورد الينا من جرنال الوقعات العسكرية وما أوضحه أيضا فلان باشا فى معروضاته الشفاهية مما رآه بالعيان ورواه بالبيان تفصيل ما وقع من الحروب والغزوات فى نواحى أبوقرون وما يليها من الجهات وأحطنا بما أبديتم من الاقدام والشجاعة وما أديتم من الاهتمام والبراعة وما كان منكم من ثبات الجاش والقلب فى مواقع الضرب ومعامع الحرب وما شاهدته منكم الاعين وشهدت لكم به الالسن من الهجوم على الجبال الوعرة واقتحام المحال العسرة واظهار الباس والصولة فى تأييد الملة والدولة وتبديد من لقيتم من جنود العصاة البغاة وتسخير ما كانوا متمكنين به ومتحصنين فيه من المحلات وتبديد ما أحكموا من استحكاماتهم وتنديد من أقدموا من طغاتهم فأحاط بى من السرور وكمال الانس والحبور ومزيد الحظ الموفور ما ملأ الجوانح انشراحا والجوارح طربا وارتياحا وأظهر حسن اعتقادى فى شجاعتكم القلبية وبراعتكم الحربية وغيرتكم الملية وحميتكم الجبلية وشغفكم باعلاء شأن الوطن وابقاء الذكر الجميل والصيت الحسن وأكد ذلك ما شهدت به الانام من سوالف الايام للعساكر المصرية وضباطها الجهادية من قدم الصدق فى الحروب وحسن السابقة فى الخطوب وثبات القدم والجنان اذا طاش قدم الهلوع وطار قلب الجبان فانهم خلدوا فى أوراق الليالى علاهم وقلدوا فى أعناق المعالى حلاهم بما لهم من الوقائع المشهورة والمواقف المشكورة وقوة البأس على الاعداء وشدة الصولة والبسالة فى مواقف الهيجاء وما بنوه من منار الفخر والمجد على أساس الشرف والمظهر وما اجتنوه من ثمرات النصر من ورق الحديد الاخضر وأنتم أولى بتشييد ما بناه اخوانكم الاول وتأييد ما شاع لهم من الفخر والشهرة عند جميع الدول ثم انكم اذا أمعنتم الفكر الثاقب وسينتم النظر الصائب وتفكرتم فى أعقاب الامور ومصائرها وتدبرتم فى موارد الاحوال ومصادرها علمتم أنكم اذا أثبتم ذلك الصيت الممدوح واكتسبتم بمشيئة الله تعالى النصر والفتوح

كان لكم ذلك افتخارا بين أقرانكم وسرورا لاهلكم واخوانكم فان الاخبار تتناقلها الرواه وتتواصل بالمكاتبات والافواه ثم ليكن على بال منكم ولا يغب طرفة عين عنكم أن هذه البلاد التي أنتم لديها والجبال والاودية التي أنتم عليها وحواليها كم سبق فيها من غزوة عظيمة ووقعة جسيمة ووقفة كريمة لاخوانكم الاولين من العساكر المصريين أبرزوا فيها شرف الراية العسكرية وأظهروا مآثر النجدة والحمية والغيرة الوطنية حتى سارت بحديث وقائعهم الركبان وأثنى على محاسن بدائعهم كل لسان فما هنالك من بقعة الاوفيها وقعة ولا من موطئ قدم الا وفيه أريق دم فمضى من استشهد منهم فائزا بالثواب والاجر وعاد من بقي حائزا للفخر والنصر وها أنتم من نسلهم واخوانهم ومن أبناء أوطانهم وأنتم خير خلف لاولئك السلف كما أن هؤلاء العصاة نسل من كان بها من أهاليها وهذه الجزيرة التي أنتم بها هي بعينها التي كانوا فيها فمهما أقدمتم ونصرتم واقتحمتم وظفرتم كان ذلك لمن بقي هنالك من أرواح الشهداء روحا وريحانا ومكرمة واحسانا كما أنه يجعل لكم في جميع الآفاق شرفا وشانا ويمكن لكم بين الرفاق عزة ومكانا ويقيم لكم على الشجاعة والبراعة دليلا وبرهانا ثم انكم عند عودتكم بعون الله القوي المتين حاملين رايات الفتح المبين رافلين في حلل النصر والتمكين يكون لكم ذلك شرفا سرمدا وافتخارا تتحدثون به على المدى حتى اذا التفت عليكم المحافل واجتمع لديكم المستخبر والناقل كان لكم بذلك لسان ذلق وصوت صهصلق وتجدون حينئذ للبراعة مقالا وللفخر بالشجاعة مجالا وترون لاقوالكم من يصدقها ولاخباركم من يحققها وهذه لذة الرجال ومزية الابطال فهل للرجل فخر أعظم من هذا الحال وهل له فضل على المرأة الا باقدامه على الخطوب واقتحامة الاهوال وهل يتميز الشجاع الصنديد من الجبان الرعديد الا في مواقف القتال ومواقع الحرب والنزال وهل للعسكري شرف يكتسبه الا بين البنادق والمدافع وهل له فخر يذكره أو يذكر به الا بما يبديه في تلك الوقائع وهل للكريم الحر أرب في الحياة الا الفخر يقتنيه بصعب يرتقيه وذكر جميل يبقيه بأثر جليل يبديه فاذا العسكري لم يكتسب الفخر في مجال الحروب فاي فرصة يترقبها وأي حالة يتطلبها الاستحصال ذلك المرغوب واني ما اخترتكم لهذا الامر العظيم الا لاعلاء شأن الوطن الكريم واعلان مالكم من الصيت والفخر القديم لحسن اعتقادي في صغيركم وكبيركم وحسن نظري في مأموركم وأميركم وقد لاح من مساعيكم تأييد ما أملته فيكم وظهرت بحمد الله بشائر النجاح وسفرت أشائر الظفر والفلاح وانما الاعمال بخواتيمها وثمرات الامور في تتميمها ورجائي من من الله العظيمة وألطافه العميمة ثم أملي في طويات كم السليمة ومساعيكم القويمة أن تكون العاقبة خيرا والختام حسنا وأن تفوزوا بالاجر والثناء وأن تدوموا على منهج السداد والاجتهاد في الجهاد والقيام على أقدام الاقدام وبذل الجد والجهد والاهتمام حتى ينتهي الامر

ويستكمل النصر ويزول أثر الاختلال وتستقر الاحوال وتعودوا ان شاء الله منصورين فرحين مسرورين مستبشرين بعناية الله العلية في ظل السلطنة السنية واعلموا أن جميع أخباركم تنتقل في جرنال الوقعات فتعلم لدي أحوالكم في جميع الحركات والسكنات حتى كأني مقيم لديكم وحتى كأني أراكم وأنظر اليكم فكل من فاق أقرانه في الحروب وأبدى من الاقدام والحمية ماهو المطلوب فله ما يسره من المكافآت وحسن التلطيف ومزيد الالتفات فاعلموا ذلك واعملوا على حسبه في كل آن ومكان وأدوا من الاقدام والاهتمام غاية الاستطاعة ونهاية الامكان قد أصدرت أمري هذا اليكم اعلاما بما حواه ودستورا يعمل بمقتضاه واعلانا لمسرتي من حسن صنيعكم وايذانا بفرحي وابتهاجي بجميعكم واستفسارا عن خواطركم وافتخارا بمفاخركم أمدكم الله بعنايته وعونه وجعلكم في حرز رعايته وصونه وأدام توفيقي واياكم لما يرضاه والسلام عليكم ورحمة الله

(وكتب أيضا من الحضرة الخديوية الى من باشروا واقعة أرقازي من الضباط الجهادية وأفراد العساكر المصريه)

سلام من الله وتسليم ورضوان كريم يهدي لأولكم وآخركم ويسدي لأموركم وآمركم لازلتم محفوفين من الله بنصره محفوظين بأمره غالبين على عدوكم بقهره متقلبين في نعمته وبره ولا انفكت عزائمكم في كروب الحروب عزائم وثغوركم في قطوب الخطوب بواسم وأعلامكم للنجح والتمكين علائم وأيامكم للفتح المبين مواسم ورياح القهر والدمار على عدوكم سمائم ونسمات النصر والفخار في رواحكم وغدوكم نواسم

وبعد فمازلت أتشوق من أخبار شجاعتكم ما يسر الخواطر وأتشوف من آثار براعتكم ما يقر النواظر واثقا بعزمكم وحزمكم في المضايق مبتهجا بما أبديتموه من حسن السوابق حتى ورد وابور الشرقية من طرف حضرة الباشا ناظر الجهادية بيوميات الوقائع العسكريه مشتملة على واقعة أرقازي وتفصيلاتها وما كان من رسوخ أقدامكم وثباتها واقدامكم في جهاتها واقتحامكم مضائق حصونها واستحكاماتها وتسخير مستعصماتها وتدمير أشقياء العصاة وكماتها حتى زلزلت صياصيها وذللت نواصيها ودنى لكم قاصيها ودان عاصيها فكذا تكون رجال الجهاد وابطال الجدال والجلاد وهكذا تفتح الحصون ويبرز سر النصر المصون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون فقد أسفر لكم بحمد الله وجه التهاني وأثمر فيكم بعون الله غرس الاماني وأبديتم ما أثبت للعساكر المصرية من حسن الشهرة في الامور العسكرية فحصل لي من الانس والسرور بهذه البشارة ما لم تقدر الانس أن تصف مقداره ولا يتسع له مجال الاشاره وتأيد فيكم حسن

أنظاری وظهرت ثمرة أفكاری وتحققت أنكم بعد الآن بعون الله الكريم لا تزلون عن هذا الطريق القديم ولا تزالون فی تأييد مالكم من المجد القديم وقد شاع حديث نصركم بين الاهل والديار وسارت الركبان بمحاسن هذه الاخبار كما نقلته صحف الوقائع الی جميع الاقطار فانشرحت صدور أهلكم واخوانكم وفرحت بكم جميع أهل بلدانكم وابتسمت ثغور أوطانكم وافتخرت باحاديث شجعانكم وارتاحت أرواح الشهداء من أقرانكم والمأمول فی ألطاف الله العلية وبركات السلطنة السنية ثم فی حميتكم الملية وغيرتكم الوطنية ان يزول حال الاختلال عن قرب وينتهی أمر القتال والحرب ويطيع الجميع ويسهل كل صعب منيع وتعودوا لوطننا العزيز ظافرين بالتعزيز وقد قرب حصول الامل ونجاح العمل ومضی الاكثر وبقی الاقل والحرب للرجل العسكری والبطل الجری سوق عظيم وموسم كريم تشتری فيه غوالی المعالی باعلی العوالی وتنال فيه منازل الاكارم فی ظل السيوف الصوارم ويدرك الفخر الصادق بمرامی المدافع والبنادق وقد علمتم ان الشجاعة وان كانت تبلغ الآمال لا تقصر الآجال كما ان الجبن وان كان يورث العار لا يؤخر الاعمار وانما هی آجال محدودة وأنفاس معدودة لا تقبل التغيير ولا التقديم والتأخير والشجاعة صبر ساعة ثم ينكشف الغبار وتسفر الاخبار ويتناقل حديث الشجعان ويخلد فی تواريخ الزمان فداوموا علی ابداء الاجتهاد وقوموا باداء حقوق الجهاد واثبتوا علی الشجاعة والاقدام وثبات القلوب والاقدام وأنجزوا بمعونة الله تعالی هذا المرام وكما جودتم براعة المطلع أحسنوا براعة الختام

(وكتب فی أوائل عهد الجناب الخديوی عن حضرته الی ملك دارفور)

حمدا لمن ألف بين قلوب المؤمنين وجعلهم بنعمته اخوانا فی الدين وصلاة وسلاما علی رسول جنابه وسيد أحبابه وعلی آله وأصحابه من كافل الديار المصرية وماوالاها من الاقطار السودانية الی حضرة صفوة السادة الاماجد الجامع ما تفرق من مكارم المحامد غرة جبين الشرف الاجلی وقرة عين المجد الاعلی بحر الفضل الزاخر وبدر سماء المحاسن والمفاخر وفخر الاوائل والاواخر الملك المعظم السلطان المفخم محمد بن الحسين المهدی سلطان مملكة دارفور حفظه الله بدوام السرور والسعد الموفور آمين

بعد سلام ينبیء عن صريح الوداد ويخبر عما فی صميم الفؤاد من صحيح المحبة والاتحاد وتحية يحلو علی الالسن حسن تكريرها ويعبر عن صدق الولاء طيب عبيرها وشوق يقل عنه البيان ويكل دونه البنان وسؤال عن الخاطر العالی أدام الله معاليه وحف بطوالع السعود أيامه ولياليه بينما نحن فی انتظار ما يرد من الرسائل والثناء علی حسن تلك الشمائل وردلنا خطابكم الكريم

فقابلناه بمزيد التعظيم وسررنا بحسن صحتكم وما أبديتموه من لطف مودتكم فالله يرعى تلك الصحة ويلحظها ويديم هذه المحبة ويحفظها وقد أوضحتم أن سلفنا السعيد المنتقل الى رحمة ربه المجيد ضاعف الله حسناته وأحله أعالي جناته كان قد جعل فلانا وكيلا في رؤية أموركم البهية على منهج السداد ونحن أيضا قررناه في هذه الوظيفة وأوصيناه بالاهتمام فيما يتعلق بتلك الحضرة الشريفة وسيجد منا في ذلك حسن المساعدة ودوام التسهيل والمعاضدة ثم ما تكرمتم بارساله مع كريم خطابكم على يد القاصدين الواردين من عالي جنابكم قوبل بقبوله عند وصوله والمبعوث مع القاصدين المذكورين لناديكم الكريم ماهو موضح في البطاقة المطوية مع هذا الرقيم والمرجو أن تتصل بيننا روابط الود على الدوام كما جمعتنا علاقة الاخوة في الاسلام وصلى الله على سيدنا محمد بدر التمام وعلى آله وأصحابه الاعلام غيوث الافضال وغايات الكمال

الباب السابع في الجغرافيه والتاريخ

(ذكر منارة الاسكندرية)

قال المسعودي فاما منارة الاسكندرية فذهب الاكثرون من المصريين والاسكندرانيين ممن عني باخبار بلدهم أن الاسكندر بن فيلبش المقدوني هو الذي بناها ومنهم من رأى أن دلوكة الملكة بنتها وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو الى بلدهم ومن الناس من رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذي بناها ومنهم من رأى أن الذي بنى مدينة رومة هو الذي بنى مدينة الاسكندرية ومنارتها والاهرام بمصر وانما أضيفت الاسكندرية الى الاسكندر لشهرته باستيلائه على الاكثر من ممالك العالم فشهرت به وذكروا في ذلك أخبارا كثيرة يستدلون بها على ما قالوا والاسكندر لم يطرقه في هذا البحر عدو ولا هاب ملكا يرد اليه في بلده ويغزوه في داره فيكون هو الذي جعلها مرقبا وان الذي بناها جعلها على كرسي من الزجاج على هيئة السرطان في جوف البحر وعلى طرف اللسان الذي هو داخل في البحر من البر وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره منها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك واذا علت في الفلك فأصبعه يشير بها نحوها فاذا انخفضت صارت يده سفلا تدور معها حيث دارت ومنها تمثال يشير بيده الى البحر اذا صار العدو منه على نحو من ليلة فاذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من مسيرة ميلين أو ثلاثة فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم فيرمقونه بأبصارهم ومنها تمثال كلما مضى من الليل أو النهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ما صوت في الساعة التي قبلها وصوته مطرب وقد كان ملك الروم في ملك الوليد بن عبد الله بن مروان أنفذ خادما من خواص خدمه ذا رأي ودهاء فجاءه مستأمنا الى بعض الثغور فورد بآلة حسنة ومعه جماعة

فجاء الى الوليد فأخبره أنه من خواص الملك وأنه أراد قتله بموجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أصل وانه استوحش ورغب فى الاسلام فأسلم على يد الوليد وتقرب من قبله وتنصح اليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن فلما صارت الى الوليد تلك الاموال والجواهر شرهت نفسه واستحكم طمعه فقال له الخادم يا أمير المؤمنين ان هاهنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك فسأله الوليد عن الخبر فقال تحت منارة الاسكندرية أموال ملوك الارض وذلك أن الاسكندر احتوى على الاموال والجواهر التى كانت لشداد بن عاد وملوك العرب بمصر والشام فبنى لها أزجا تحت الارض وقنطر لها الاقباء والقناطر والسراديب وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجوهر وبنى فوق ذلك هذه المنارة وكان طولها فى الهواء ألف ذراع والمرآة على علوها والديادبة جلوس حولها فاذا نظروا الى العدو فى البحر فى ضوء تلك المرآة صوتوا لمن قرب منهم ونشروا أعلاما فيراها من بعد منهم فتحذر الناس وتنذر البلد فلا يكون للعدو عليهم سبيل فبعث الوليد مع الخادم بجيش وأناس من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرآة فضج الناس من هذا وعلموا انها مكيدة وحيلة فى أمرها فلما علم الخادم استفاضة ذلك وانه سينم الى الوليد وانه قد بلغ ما يحتاج اليه هرب فى الليل فى مركب كان قد أعده وواطأ على ذلك فتمت حيلته وبقيت المنارة على ماذكرنا الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وكان حوالى منارة الاسكندرية فى البحر مغاص يخرج منه قطع من الجواهر يتخذ منها فصوص للخواتم أنواعا من الجواهر ويقال ان ذلك من آلات اتخذها الاسكندر للشراب فلما مات كسرتها أمه ورمت بها فى تلك المواضع من البحر ومنهم من رأى ان الاسكندر اتخذ ذلك النوع من الجواهر وغرقه حول المنارة لكيلا تخلو من الناس حولها لان من شأن الجوهر أن يكون مطلوبا أبدا فى كل عصر ويقال ان هذه المنارة انما جعلت المرآة فى أعلاها لان ملوك الروم بعد الاسكندر كانت تحارب ملوك مصر على الاسكندرية فجعل من كان بالاسكندرية من الملوك تلك المرآة ترى من يرد فى البحر من عدوهم وكان من يدخلها يتيه فيها الا أن يكون عارفا بالدخول والخروج فيها لكثرة بيوتها وطبقاتها وممراتها وقد ذكر أن المغاربة حين وافوا فى خلافة المقتدر فى جيش صاحب المغرب دخل جماعة منهم على خيولهم الى المنارة فتاهوا فيها وفيها طرق تؤول الى مهاو تهوى الى السرطان الزجاج وفيها مخارق الى البحر فتهورت دوابهم وفقد منهم عدد كثير وعلم بهم بعد ذلك وقيل ان تهورهم كان على كرسى لها قدامها وفى المنارة مسجد فى هذا الوقت يرابط فيه متطوعة المصريين وغيرهم وفى سنة تسع وسبعين وسبعمائة سقط رأس المنارة من زلزلة ويقال ان منارة الاسكندرية كانت مبنية بحجارة مهندمة مضببة برصاص على قناطر من الزجاج وتلك القناطر على ظهر سرطان وكان فى المنارة ثلثمائة بيت بعضها فوق بعض وكانت الدابة تصعد بحملها الى سائر البيوت من داخل المنارة ولهذه

البيوت طاقات تشرف على البحر وكان على الجانب الشرقي من المنارة كتابة عربية فاذا هي بنت هذه المنظرة قريبا بنت مريتوس اليونانية لرصد الكواكب وقال ابن وصيف شاه وقد ذكر أخبار مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح وبنوا على البحر مدنا منها رقودة مكان الاسكندرية وجعلوا في وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب والقبة مذهبة ونصبوا فوقها منارة عليها مرآة من اخلاط شتى قطرها خمسة أشبار وكان ارتفاع القبة مائة ذراع فكانوا اذا قصدهم قاصد من الامم التي حولهم فان كان مما يهمهم أو من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فالقت شعاعها على ذلك الشيء فاحرقته فلم تزل على حالها الى أن غلب عليها البحر فنسفها ويقال ان الاسكندر انما عمل المنار الذي كان شبيها بها وقد كان أيضا عليه مرآة يرى فيها من يقصدهم من بلاد الروم فاحتال بعض ملوك الروم فوجه من أزالها وكانت من زجاج مدبر وقال المسعودي في كتاب التنبيه والاشراف وقد كان وزير المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان لما أمر المستعين بنفيه الى برقة في سنة ثمان وأربعين ومائتين صار الى الاسكندرية من بلاد مصر فرأى حمرة الشمس على علو المنارة التي بها وقت المغيب فقدر أنه يلزمه أن لا يفطر اذا كان صائما أو تغرب الشمس من جميع أقطار الارض فأمر انسانا أن يصعد الى أعلى منارة الاسكندرية ومعه حجر وأن يتأمل موضع سقوط الشمس فاذا سقطت رمى بالحجر ففعل الرجل ذلك فوصل الحجر الى قرار الارض بعد صلاة العشاء الآخرة فجعل افطاره بعد صلاة العشاء الآخرة فيما بعد اذا صام في مثل ذلك الوقت وكان عند رجوعه الى شرق رأى انه لا يفطر الا بعد العشاء الآخرة وعنده أن هذا فرضه وأن الوقتين متساويان وهذا غاية ما يكون من قلة العلم بالفرض ومجاري الشرق والغرب وقد ذكر ارسطاطاليس في كتاب الآثار العلوية أن بناحية المشرق الصيني جبلا شامخا جدا وأن من علامة ارتفاعه أن الشمس لا تغيب عنه الى ثلاث ساعات من الليل وتشرق عليه قبل الصبح بثلاث ساعات ومنارة الاسكندرية أحد بنيان العالم العجيب بناها بعض البطالسة ملوك اليونانيين بعد وفاة الاسكندر بن فيلبيش الملك لما كان بينهم وبين ملوك رومة من الحروب في البر والبحر فجعلوا هذه المنارة مرقبا في أعاليها مرآة عظيمة من نوع الاحجار المشفة ليشاهد منها مراكب البحر اذا أقبلت من رومة على مسافة تعجز الابصار عن ادراكها فكانوا يراعون ذلك في تلك المرآة فيستعدون لهم قبل ورودهم وطول المنارة في هذا الوقت على التقريب مائتان وثلاثون ذراعا وكان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع فهدمت على طول الازمان وترادف الزلازل والامطار لان بلاد الاسكندرية تمطر وليس سبيلها سبيل فسطاط مصر اذ كان الاغلب عليها أن لا تمطر الا اليسير وبناؤها ثلاثة أشكال فقريب من النصف وأكثر من الثلث مربع الشكل بناؤه بأحجار بيض يكون نحوا من مائة ذراع

وعشرة أذرع على التقريب ثم من بعد ذلك مثمن الشكل مبنى بالحجر والجص نحو من نيف وستين ذراعا وحواليه فضاء يدور فيه الانسان وأعلاها مدور وكان أحمد بن طولون رم شيأ منها وجعل في أعلاه قبة من الخشب ليصعد اليها من داخلها وهي مبسوطة مورّبة بغير درج وفي الجهة الشمالية من المنارة كتابة برصاص مدفون بقلم يونانى طول كل حرف ذراع في عرض شبر ومقدارها على جهة الارض نحو من مائة ذراع وماء البحر قد بلغ أصلها وقد كان تهدم أحد أركانها الغربية مما يلى البحر فبناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وبينها وبين مدينة الاسكندرية في هذا الوقت نحو من ميل وهي على طرف لسان من الارض قد ركب البحر جنبتيه وهي مبنية على فم مينا الاسكندرية وليست بالمينا القديم لان القديم في المدينة العتيقة لا ترسى فيه المراكب لبعده عن العمران والمينا هو الموضع الذى ترسى فيه مراكب البحر وأهل الاسكندرية يخبرون عن أسلافهم أنهم شاهدوا بين المنارة وبين البحر نحوا مما بين المدينة والمنارة في هذا الوقت فغلب عليه ماء البحر في المدة اليسيرة وان ذلك في زيادة قال وتهدم في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وثلثمائة نحو من ثلاثين ذراعا من أعاليها بالزلزلة التى كانت ببلاد مصر وكثير من بلاد الشام والمغرب في ساعة واحدة على ما وردت به علينا الاخبار المتواترة ونحن بفسطاط مصر وكانت عظيمة جدا مهولة فظيعة أقامت نحو نصف ساعة زمانية وذلك لنصف يوم السبت لثمان عشرة ليلة خلت من هذا الشهر وهو الخامس من كانون الآخر والتاسع من طوبة وكان لهذه المنارة مجمع في يوم خميس العدس يخرج سائر أهل الاسكندرية الى المنارة من مساكنهم بمآكلهم ولا بد أن يكون فيها عدس فيفتح باب المنار ويدخله الناس فمنهم من يذكر الله ومنهم من يصلى ومنهم من يلهو ولا يزالون الى نصف النهار ثم ينصرفون ومن ذلك اليوم يحترس على البحر من هجوم العدو وكان في المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد فاذا رأى أهل المنار ما يريبهم أشعلوا النار من جهة المدينة فاذا رآها الحرس ضربوا الابواق والاجراس فيتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو ويقال ان المنار كان بعيدا عن البحر فلما كان في أيام قسطنطين ابن قسطنطين هاج البحر وغرق مواضع كثيرة وكنائس عديدة بمدينة الاسكندرية ولم يزل يغلب عليها بعد ذلك ويأخذ منها شيأ بعد شئ وذكر بعضهم أنه قاسه فكان مائتى ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعا وهي ثلاث طبقات الطبقة الاولى مربعة وهي مائة واحدى وعشرون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثانية مثمنة وهي احدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وهي احدى وثلاثون ذراعا ونصف ذراع وذكر ابن جبير في رحلته أن منار الاسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلا وأنه ذرع أحد جوانبه الاربعة في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة فأناف على خمسين ذراعا وأن طول المنار أزيد من مائة وخمسين قامة وفي أعلاه مسجد يتبرك الناس بالصلاة فيه وقال

ابن عبد الحكم ويقال ان الذى بنى منار الاسكندرية كلوباطره الملكه . وهى التى ساقت خليجها
متى أدخلته الاسكندرية ولم يكن يبلغها انما كان يعدل من قرية يقال لها كسا قبالة الكريون
فحفرته حتى أدخلته الاسكندرية وهى التى بلطت قاعه ولما استولى احمد بن طولون على الاسكندرية
بنى فى أعلى المنار قبة من خشب فأخذتها الرياح وفى أيام الظاهر بيبرس تداعى بعض أركان المنار
وسقط فأمر ببناء ما انهدم منه فى سنة ثلاث وسبعين وستمائة وبنى مكان هذه القبة مسجدا
وهدم فى ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة عند حدوث الزلزلة ثم بنى فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة
على يد الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وهو باق الى يومنا هذا ولله در الوجيه الدروى حيث
يقول فى منار الاسكندرية

وسامية الارجاء تهدى أخا السرى * ضياء اذا ما حندس الليل أظلما
لبست بها بردا من الانس صافيا * فكان بتذكار الاحبة معلما
وقد ظللتنى من ذراها بقبة * ألاحظ فيها من صحابى أنجما
فخيل أن البحر تحتى غمامة * وأنى قد خيمت فى كبد السما

وقال ابن قلاقس من أبيات

ومنزل جاوز الجوزاء مرتقيا * كأنما فيه للنسرين أوكار
راسى القرارة سامى الفرع فى يده * للنون والنور أخبار وأخبار
أطلقت فيه عنان النظم فاطردت * خيل لها فى بديع الشعر مضمار

وقال الوزير أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عبد ربه

لله در منار اسكندرية كم * يسمو اليه على بعد من الحدق
من شامخ الانف فى عرنينه شمم * كأنه باهت فى دارة الافق
للمنشآت الجوارى عند رؤيته * كوقع النوم فى أجفان ذى أرق

وقال عمر بن أبى عمر الكندى فى فضائل مصر ذكر أهل العلم أن المنارة كانت فى وسط الاسكندرية
حتى غلب عليها البحر فصارت فى جوفه ألا ترى الابنية والاساسات فى البحر الى الآن عيانا وقال
عبد الله بن عمرو عجائب الدنيا أربعة مرآة كانت معلقة بمنارة الاسكندرية فكان يجلس الجالس
تحتها فيرى من بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر وذكر الثلاثة

(ذكر عمود السوارى)

هذا العمود حجر أحمر منقط وهو من الصوان المانع كان حوله نحو أربعمائة عمود كسرها قراجا والى
الاسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورماها بشاطئ البحر ليوعر على العدو

ملوكه اذا قدموا ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق ارسطاطاليس الذى كان يدرس به الحكمة وانه كان دار علم وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص باشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ويقال ان ارتفاع هذا العمود سبعون ذراعا وقطره خمسة أذرع وذكر بعضهم أن طوله بقاعدتيه اثنان وستون ذراعا وسدس ذراع وهو على نشز طوله ثلاثة وعشرون ذراعا ونصف ذراع فجملة ذلك خمسة وثمانون ذراعا وثلثا ذراع وطول قاعدته السفلى اثناعشر ذراعا وطول القاعدة العليا سبعة أذرع ونصف قال المسعودى وفى الجانب الغربى من صعيد مصر جبل رخام عظيم كانت الاوائل تقطع منه العمد وغيرها وكانوا يحملون ما عملوا بعد النقر فاما العمد والقواعد والرؤس التى يسميها أهل مصر الاسوانية ومنها حجارة الطواحين فتلك نقرها الاوّلون قبل حدوث النصرانية بمئين من السنين ومنها العمد التى بالاسكندرية والعمود بها الضخم الكبير لايعلم فى العالم عمود مثله وقد رأيت فى جبل اسوان أخا هذا العمود وقد هندس ونقر ولم يفصل من الجبل ولم يحمل ماظهر منه وانما كانوا ينتظرون به أن يفصل من الجبل ثم يحمل الى حيث يريد القوم انتهى وكان بالاسكندرية من العمد العظام وأنواع الحجارة والرخام الذى لاتقل القطعة منه الا بألوف من الناس وقد علقت بين السماء والارض على فوق المائة ذراع وفوق رؤس أساطين دائر الاسطوانة ما بين الخمسة عشر ذراعا الى العشرين ذراعا والحجر فوقه عشرة أذرع فى عشرة أذرع فى سمك عشرة أذرع بغرائب الالوان وكان بالاسكندرية قصر عظيم لانظير له فى معمور الارض على ربوة عظيمة بازاء باب البلد طوله خمسمائة ذراع وعرضه على النصف من ذلك وبابه من أعظم بناء وأتقنه كل عضادة منه حجر واحد وعتبته حجر واحد وكان فيه نحو مائة اسطوانة وبازائه اسطوانة عظيمة لم يسمع بمثلها غلظها ستة وثلاثون شبرا وعلوها بحيث لايدرك أعلاها قاذف حجر وعليها رأس محكم الصناعة يدل على أنه كان فوق ذلك بناء وتحتها قاعدة حجر أحمر محكم الصناعة عرض كل ضلع منه عشرون شبرا فى ارتفاع ثمانية أشبار والاسطوانة منزلة فى عمود من حديد قد خرقت به الارض فاذا اشتدت الرياح رأيتها تتحرك وربما وضع تحتها الحجارة فطحنتها لشدة حركتها وكانت هذه الاسطوانة احدى عجائب الدنيا وقد زعم قوم أنها مما عمله الجن لسليمان بن داود عليهما السلام كما هى عادتهم فى نسبة كل ما يستعظمون عمله الى أنه من صنيع الجن وليس كذلك بل كانت مما عمله القدماء من أهل مصر وكان فى وسطه قبة ومن حولها أساطين وعلى الجميع قبة من حجر واحد رخام أبيض كاحسن ما أنت راء من الصنائع ويقال ان بعض ملوك مصر دخل الاسكندرية فأعجبه هذا القصر وأراد أن يبنى مثله فجمع الصناع والمهندسين ليقيموا له قصرا عظيما على هيئته فمامنهم الا من اعترف بعجزه عن مثله الا شيخا منهم فانه التزم أن يصنع مثله فسر الملك ذلك وأذن له فى طلب ما يحتاج اليه من المؤن والآلات

والرجال فقال ائتونى بثورين مطيقين وعجلة كبيرة ففى الحال أتى بذلك فمضى الى المقابر القديمة وحفر منها قبرا أخرج منه جمجمة عظيمة رفعها عدة من الرجال على العجلة فاجرها الثوران مع قوتهما الابعد جهد وعناء فلما وقف بها بين يدى الملك قال أصلح الله سيدنا ان أتيتنى بقوم رؤسهم مثل هذا الرأس عملت لك مثل هذا القصر فتيقن الملك عند ذلك بعجز أهل زمانه عن اقامة مثل ذلك القصر وقد ذكر أنه كان بالاسكندرية ضرس انسان عند قصاب يزن به اللحم زنته ثمانية أرطال ويقال ان عمود السوارى الموجود الآن خارج مدينة الاسكندرية أحد سبعة أعمدة أتى بأحدها البتون بن مرة العادى وهو يحمله تحت أبطه من جبل بريم الاحمر قبلى اسوان الى الاسكندرية فانكسر ضلعه لانه كان ضعيف القوى فى قومه فشق ذلك على يعمر بن شداد بن عاد وقال ليتنى فديته بنصف ملكى وجاء بعمود آخر جحدر بن سنان الثمودى وكان قويا فحمله من اسوان تحت أبطه وجاء بقية رجالهم كل رجل بعمود فاقام العمد السبعة الجارود بن قطن المؤتفكى وكان بناؤها بعد أن اختاروا الهاطالعا سعيدا كما هى عادتهم فى عامة أعمالهم وقد ذكر غير واحد أن الصخور فى القديم من الدهر كانت تلين فعمل منها أعمدة تاعط ومارب وبينون وماترالين وأعمدة دمشق ومصر ومدين وتدمر وأن كل شئ كان يتكلم قال أمية بن أبى الصلت

واذهم لالبوس لهم عراة * واذصخر السلام لهم رطاب

وقال قوم عمود السوارى من جملة أعمدة كانت تحمل رواقا يقال له بيت الحكمة وذلك حيث انتهت علوم أهل الغرب الى خمس فرق وهم أصحاب الرواق هذا وأصحاب الاسطوانة وكانوا ببعلبك وأصحاب المظال وهم بانطاكية وأصحاب البرابى وكانوا بصعيد مصر والمشاؤون وكانوا بمقدونية وكأنى بمن قل علمه ينكر على ايراد هذا الفصل ويراه من قبيل المحال ومما وضعه القصاص ويجزم بكذبه فلا يوحشنك حكايتى له واسمع قول الله تعالى عن عاد قوم هود واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة أى طولا وعظم جسم قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم وقيل على خلق قوم نوح وقال وهب بن منبه كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع وكذلك مناخرهم وروى شهر بن حوشب عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال ان كان الرجل من قوم عاد ليحمل المصراعين لواجتمع عليه خمسمائة من هذه الامة لم يطيقوه وان كان أحدهم ليغمز بقدمه الارض فيدخل فيها وروى عبد الله بن لهيعة عن يزيد بن عمرو المعافرى عن ابن حجرة قال استظل سبعون رجلا من قوم موسى عليه السلام فى قحف رجل من العماليق وعن زيد بن أسلم بلغنى أن الضبعة وأولادها ربين فى حجاج عين رجل من العماليق وقال تعالى

ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد قال المبرد وقولها يعني الخنساء رفيع العماد انما تريد الطول يقال رجل معمد يريد طويلا ومنه قوله تعالى ارم ذات العماد أي الطوال وقال البغوي سموا ذات العماد لانهم كانوا أهل عمد سيارة وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي ورواية عطاء عن ابن عباس وقال بعضهم سموا ذات العماد لطول قاماتهم قال ابن عباس يعني طولهم مثل العماد قال مقاتل كان طول أحدهم اثني عشر ذراعا وفي كشاف الزمخشري لم يخلق مثلها مثل عاد في البلاد عظم أجرام وقوة وكان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحملها فيلقيها على الحي فيهلكهم وقد ذكر غير واحد أنه وجد في خلافة المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد كنز بعصر فيه ضلع انسان طوله أربعة عشر شبرا في عرض ثلاثة أشبار واعلم أن أعين بني آدم ضيقة وقد نشأت نفوسهم في محل صغير فاذا حدث القوم بما يتجاوز مقدار عقولهم أو مبلغ أجسامهم مما ليس له عندهم أصل يقيسونه عليه الا ما يشاهدونه أو يألفونه عجلوا الى الارتياب فيه وسارعوا الى الشك في الخبر عنه الا من كان معه علم وفهم فانه يفحص عما يبلغه من ذلك حتى يجد دليلا على قبوله أو رده وكيف يرد مثل هذه الاخبار وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خلق الله آدم طوله ستون ذراعا في السماء ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن وذكر محمد عبد الرحيم بن سلمان بن ربيع العبسي الغرناطي في كتاب تحفة الالباب قال نقل الشعبي في كتاب سير الملوك أن الضحاك ابن علوان لما هرب منه لام بن عامر الى ناحية الشمال أرسل في طلبه أميرين مع كل أمير طائفة من الجبارين خرج أحدهما قاصدا الى بلغار والآخر الى باشقرد فأقام أولئك الجبارون في أرض بلغار وفي باشقرد قال الاقليشي وقد رأيت صورهم في باشقرد ورأيت قبورهم بها فكان مما رأيته ثنية أحدهم طولها أربعة أشبار وعرضها شبران وكان عندي في باشقرد نصف أصل الثنية أخرجت لي من فكه الاسفل فكان عرضها شبرا ووزنها ألف مثقال أنا وزنتها بيدي وهي الآن في داري في باشقرد وكان دور فك ذلك العادي سبعة عشر ذراعا وفي بيت بعض أصحابي في باشقرد عضد أحدهم طوله ثمانية وعشرون ذراعا وأضلاعه كل ضلع عرضه ثلاثة أشبار وأكثر كالوح الرخام وأخرج الى نصف رسغ يد أحدهم فكنت لا أقدر أن أرفعه بيد واحدة حتى أرفعه بيدي جميعا قال ولقد رأيت في بلد بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل العاديين رجلا طوالا كان طوله أكثر من سبعة أذرع وكان يسمى دلقي وكان يأخذ الفرس تحت ابطه كما يأخذ الانسان الطفل الصغير وكان اذا وقع القتال بتلك الناحية يقاتل بشجرة من شجر البلوط يمسكها كالعصا في يده لو ضرب بها الفيل قتله وكان خيرا متواضعا كلما التقاني سلم علي ورحب بي وأكرمني وكان رأسي لا يصل الى حقوه وكان له أخت على طوله رأيتها في بلغار مرارا عديدة

قال لي القاضي يعقوب بن النعمان يعني قاضي بلغار ان هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها وكان اسمه آدم وكان من أقوى أهل بلغار ضمته الى صدرها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته قال ولم يكن في بلغار حمام تسعهم الاحمام واحدة واسعة الابواب انتهى وقد حدثني الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الفريابي عن أبيه أنه شاهد قبرا احتفر بمدينة قرطاجنة من أفريقية فاذا جثة رجل قد عظم رأسه كثورين عظيمين ووجد معه لوح مكتوب بالقلم المسند وهو قلم عاد وحروفه مقطعة مانصه أنا كوش بن كنعان أين الملوك من آل عاد ملكت بهذه الارض ألف مدينة وبنيت بها على ألف بكر وركبت من الخيل العتاق سبعة آلاف حمر وصفر وشهب وبيض ودهم ثم لم يغن عني ذلك شيأ وجاءني صائح فصاح بي صيحة أخرجتني من الدنيا فمن كان عاقلا ممن جاء بعدي فليعتبر بي وأنشد

يا واقفا يرعى السها * برسم ربع قد وهى
قف واستمع ثم اعتبر * ان كنت من أهل النهى
بالامس كنا فوقها * واليوم صرنا تحتها
لكل حد غاية * لكل أمر منتهى

قال فأمر السلطان أبو بكر بن يحيي الحفصي صاحب تونس بطمه فطم القبر قال مؤلفه رحمه الله تعالى وأنا أدركت شيأ من ذلك وهو أنه ترافع في بعض الايام طائفة من الحجارين الى السلطان الملك الظاهر برقوق أعوام بضع وتسعين وسبعمائة وقد اختلفوا على مال وجدوه بجبل المقطم وهم أنهم كانوا يقطعون الحجارة من مغار فيما يلي قلعة الجبل من بحريها فانكشف لهم حجر أسود عليه كتابة فاجتمعوا على قطع ما بين يدي هذا الحجر طمعا في وجود مال فانتهى بهم القطع الى عمود عظيم قائم في قلب الجبل فلحاجتهم أقبلوا بجمعاولهم عليه حتى تكسر قطعا فاذا هو مجوف وانسان قائم على قدميه بطوله وتناثر لهم من جهة رأسه دنانير كثيرة فاقتسموها وتنافسوا في قسمتها واختلفوا حتى اشتهر أمرهم وترافعوا الى السلطان فبعث من كشف المغار فوجدا الحجر والعمود وقد تكسر فأخذ منهم ما وجد بأيديهم من الدنانير ولم يجد من يعرف ماقد كتب على الحجر وتسامع الناس بالخبر فأقبلوا الى المغار وعبثوا برمة الميت فأخبرني من شاهد سنا من أسنان هذا الميت أنها سوداء بقدر الباذنجانة وأن عظم ساقه فيما بين قدمه الى ركبته خمسة أذرع فيجيء هذا من حساب طوله عشرين ذراعا وأزيد ودماغ سن واحدة من أسنانه في قدر الباذنجانة ماهو الا كالقبة الكبيرة وأخبرني السيد الشريف قاضي القضاة بدمشق شهاب الدين أحمد بن علي بن ابراهيم الحسيني المعروف بابن عدنان وبابن أبي الجن أنه وقف في سنة أربع عشرة وثمانمائة بمقبرة باب الصغير من دمشق على قبر ليدفن فيه ميت لهم

فلما تهيأ القبر ولم يبق الا أن يدلى فيه الميت انخسف وخرج من الخسف ذباب كثير كبار زرق الالوان حتى كادت تظلاهم فنزل الحفار فى الخسف فاذا قبر طوله اثنان وعشرون ذراعا وفيه بطوله ميت قد صار كالرماد وأخبرنى أيضا أنه شاهد بهذه المقبرة ضرس انسان وله ثلاث شعب وقد سقطت منه قطعة وهى قدر البطيخة وانه وزن بحضرته فبلغ رطلين وتسع أواق بالرطل الشامى وان القطعة التى انكسرت منه نحو أوقيتين بالشامى فيكون على هذا زنة هذا الضرس نحو اثنى عشر رطلا بالمصرى والله تعالى أعلم

(ذكر المقياس)

قال ابن عبد الحكم كان أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام ووضع مقياسا بمنف ثم وضعت العجوز دلوكة ابنة زبا مقياسا بانصنا وهو صغير الذرع ومقياسا باخميم ووضع عبد العزيز ابن مروان مقياسا بحلوان وهو صغير ووضع أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة وهى المسماة الآن بالروضة وهو أكبرها حدثنا يحيى بن بكير قال أدركت القياس يقيس فى مقياس منف ويدخل بزيادته الى الفسطاط هذا ما ذكره ابن عبد الحكم قال التيفاشى ثم هدم المأمون مقياس الجزيرة وأسسه ولم يتمه فأتم المتوكل بناءه وهو الموجود الآن وقال صاحب مباهج الفكر المقياس الذى بانصنا ينسب لاشمون بن قفطيم بن مصر ويقال انه من بناء دلوكة وبناؤه كالطيلسان وعليه أعمدة بعدد أيام السنة من الصوان الاحمر ورأيت فى بعض المجاميع ما نصه قال زيد بن حبيب وجدت فى رسالة منسوبة الى الحسن بن محمد بن عبد المنعم قال لما فتحت مصر عرف عمر بن الخطاب ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن مده فى مقياس لهم فضلا عن تقاصره وان فرط الاستشعار يدعوهم الى الاحتكار ويدعو الاحتكار الى تصاعد الاسعار بغير قحط فكتب عمر ابن الخطاب الى عمرو بن العاص يسأله عن شرح الحال فأجاب فقال عمرو انى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا والنهايتين المخوفتين فى الزيادة والنقصان وهو الظمأ والاستبحار اثنتى عشرة ذراعا فى النقصان وثمان عشرة ذراعا فى الزيادة هذا والبلد فى ذلك محفور الانهار معقود الجسور عند ما تسلموه من القبط وخميرة العمارة فيه فاستشار عمر بن الخطاب على بن أبى طالب فى ذلك فأمره أن يكتب اليه بان يبنى مقياسا وأن ينقص ذراعين على اثنتى عشرة ذراعا وأن يقر ما بعدها على الاصل وأن ينقص من ذراع بعد الست عشرة ذراعا أصبعين ففعل ذلك وبناه بحلوان فاجتمع له ما أراد من حال الارجاف وزوال ما منه كان يخاف بان يجعل الاثنتى عشرة ذراعا أربع عشرة ذراعا لان كل ذراع أربعة وعشرون أصبعا فجعلها ثمانية وعشرين من أولها

الى الاثنتى عشرة ذراعا يكون مبلغ الزيادة على الاثنتى عشرة ثمانية وأربعين أصبعا وهى الذراعان وجعل الاربع عشرة ست عشرة والست عشرة ثمانى عشرة والثمانى عشرة عشرين ذراعا وهى المستقرة الآن وقال بعضهم كتب الخليفة جعفر المتوكل الى مصر يأمر ببناء المقياس الجديد الهاشمى فى الجزيرة سنة سبع وأربعين ومائتين وكان الذى يتولى أمر المقياس النصارى فورد كتاب أمير المؤمنين المتوكل فى هذه السنة على بكار بن قتيبة قاضى مصر بان لا يتولى ذلك الا مسلم يختاره فاختار القاضى بكار لذلك أبا الرداد عبد الله بن عبد السلام المؤدب وكان محدثا فأقامه القاضى بكار لمراعاة المقياس وأجرى عليه الرزق وبقى ذلك فى ولده الى اليوم وقال صاحب المرآة المقياس الظاهر الآن بناه المأمون وقيل انما بناه أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة سليمان بن عبد الملك ودثر فجدده المأمون وبنى أحمد بن طولون مقياسين أحدهما بقوص وهو قائم اليوم والآخر بالجزيرة وقد انهدم قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى العود الذى يطلع به المقسى قياس النيل فى كل يوم بزيادة النيل

قد قلت لما أتى المقسى وفى يده * عود به النيل قد عودى وقد نودى
أيام سلطاننا سعد السعود وقد * صح القياس بجرى الماء فى العود

(من حسن المحاضره فى أخبار القاهرة للسيوطى)

(ذكر البشارة بوفاء النيل)

جرت العادة كل سنة اذا وفى النيل أن يرسل السلطان بشيرا بذلك الى البلاد لتطمئن قلوب العباد وهذه عادة قديمة ولم يزل كتاب الانشاء ينشئون فى ذلك الرسائل البليغة . فمن انشاء القاضى الفاضل فى وفاء النيل عن السلطان صلاح الدين أيوب نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغا وأخفاها سبوغا وأصفاها ينبوعا وأسناها منفوعا وأمدها بحر مواهب وأختمها حسن عواقب النعمة بالنيل المصرى الذى يبسط الآمال ويقبضها مده وجزره ويرمى النبات بحره ويحيى مطلعه الحيوان ويجنى ثمرات الارض صنوان وغير صنوان وينشر مطوى حريرها وينشر مواتها ويوضح معنى قوله تعالى وبارك فيها وقدر فيها أقواتها وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا فاسفر وجه الارض وان كان تنقب وأمن يوم بشراه من كان خائفا يترقب ورأينا الابانة عن لطائف الله التى حققت الظنون ووفت بالرزق المضمون ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقد أعلمناك لتستوفى حقه من الاذاعة وتبعده من الاضاعة وتصرف على ما نصرفك من الطاعة وتشهر ما أورده البشير من البشرى بابانته وتقدم بايصال رسمه مهنا على عادته وكتب القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر عن السلطان الى نائب السلطنة بحلب بشارة بوفاء النيل أعز الله أنصار المقر

وسره بكل بهجة وهناه بكل مقدمة سرور تغدو للخصب والبركة منتجه وبكل نعمى لاتصبح آمنة السحاب مزوجة وبكل رجى لايستمد لايامها الباردة ولا الليالها المثلجة هذه المكاتبة تتضمن أن نعم الله وان كانت متعددة ومنحه وان غدت بالبركات مترددة ومننه وان أصبحت الى القلوب متوددة فان أشملها وأكملها وأجلها وأفضلها وأجزلها وأنهلها وأتمها وأعمها وأضمها وألمها نعمة أجزلت المنن والمنح وأنزلت في ابرك سفح المقطم أغزر وسفح وأنت بما يعجب الزراع ويعجل الهراع ويعجز البرق الماع ويغل القطاع ويقل الانقطاع وتنبعث أفواهه وأفواجه وعمد خطاه أمواهه وأمواجه ويسبق وفد الريح من حيث يتبرى ويغبط مريخه الاحمر القمر لان بيته السرطان كما يغبط الحوت لانه بيت المشترى ويأتى عجبه في الغد باكثر من اليوم وفي اليوم باكثر من الامس ويركب الطريق مجدا فان ظهر بوجهه حمرة فهى ما يعرض للسافر من حر الشمس ولولم تكن شفقته طويلة لما قيست بالذراع ولولا أن مقياسه أشرف البقاع لما اعتبر ما تأخر من ماء حوله الماضى بقاع بينا يكون في الباب اذا هو في الطاق وبينا يكون في الاحتراق اذا هو في الاختراق للاغراق وبينا يكون في المجارى اذا هو في السوارى وبينا يكون في الجباب اذا هو في الجبال وبينا يقال لزيادته هذه الامواه اذ يقال لغلاته هذه الاموال وبينا يكون ماء اذ أصبح جسرا وبيناهو يكسب تجارة قد أكسب بحرا وبينا يفسد عراه قد أتى بعرار جسور على الجسور جيشه الكرار وكم أمست التراع منه تراع والبحار منه تحار كم حسنت مقطعاته على مر الجديدين وكم أعانت مرار مقياسه على العزو من بلاد سيس على العمودين أتم الله لطفه في الاتيان به على التدريج وأجراه بالرحمة الى نقص العيون بالتفريج والقلب بالتفريج فاقبل جيشه بمواكبه وجاء يطاعن الجذب بالصوارى من مراكبه ويصافف لحاجة الجسور في بيداء لجه ويصافف القحط بالتراس من بركه والسيوف من خلجه ولما تكامل ابانه وصح في ديوان الفلاح والفلاحة حسابه وأظهر ماعنده من خزائن التيسير وودائعه ولقط عموده حمل ذلك على أصابعه وكانت الستة عشر ذراعا تسمى ماء السلطان نزلنا وحضرنا مجالس الوفاء المعقود واستوفينا شكر الله تعالى بفيض ماهو من زيادته محسوب ومن صدقاتنا مخرج ومن القحط مردود ووقع تياره بين أيدينا سطورا يفوق وعلمت يدنا الشريفة بالخلوق وجدنا السير كما جدلنا السرى وصرفناه في القرى القرى ولم نحضره في العام الماضى فعملناله من الشكر شكرانا وعمل هو ما جرى وحضرنا الى الخليج واذابه أمم قد تلقونا بالدعاء المجاب وقرظونا فامرنا ماءه أن يحثو من سده في وجوه المداحين التراب ومر يبدى المنار ويعيدها ويزور منازل القاهرة ويعودها واذا سئل عن أرض الطبالة قال جننا بليلى وعن خليجها قال وهى جنت بغيرنا وعن بركة الفيل قال وأخرى بنا مجنونة لانريدها

ومابرح حتى تعوض عن القيعان البقيعة من المراكب بالسرر المرفوعة ومن الاراضى المحروثة من جوانب الا آدر بالزرابى المبثوثه وانقضى هذا اليوم عن سرور لمثله فليعمل العاملون وأصبحت مصر جنة فيها ماتشتهى الانفس وتلذ الاعين وأهلها فى ظل الامن خالدون فلياخذ حظه من هذه البشرى التى ما كتبنا بها حتى كتبت بها الرياح الى نهر المجرة الى البحر المحيط ونطقت بها رحمة الله تعالى الى مجاورى بيته من لابسى التقوى ونازعى المخيط وبشرت بها مطايا المسير الذى يسير من قوص غير منقوص ويشاركنا بها الابتهاج فى العالم فلا مصر دون مصر بها مخصوص والله تعالى يجعل الاولياء فى دولتنا يبتهجون بكل أمر جليل وجيران الفرات يفرحون بجريان النيل . وكتب الصلاح الصفدى بشارة الى بعض النواب فى بعض الاعوام ضاعف الله نعمة الجناب وسر نفسه بانفس بشرى وأسمعه من الهناء كل آية أكبر من الاخرى وأقدم عليه من المسار ما يحرز ناقله ويحرى وساق اليه كل طليعة اذا تنفس صبحها تفرق الليل وتفرى وأورد لديه من أنباء الخصب مايتبرم به محل المحل ويتبرى هذه المكاتبة الى الجناب العالى تخصه بسلام يرى كالماء انسجاما ويروق كالزهر ابتساما وتتحفه بثناء جعل المسك له ختاما وضرب له على الرياض المنافحة خياما وتقص عليه من نبأ النيل الذى خص الله البلاد المصرية بوفادة وفائه وأغنى به قطرها عن القطر فلم تحتج الى مد كافه وفائه ونزهه عن منة الغمام الذى ان جاد فلا بد من شهقة رعده ودمعة بكائه فهى الارض التى لا تذم للامطار فى جوها مطار ولا يرم للقطار فى نفعها اقطار ولا ترمد الانواء فيها عيون النوار ولا تشيب بالثلوج مفارق الطرق ورؤس الجبال ولا تفقد فيها حلى النجوم لاندراج الليلة تحت السحب بين اليوم وأمس ولا يتمسك فى سنائها المساكين كما قيل بحبال الشمس وأين أرض يخدع حجاجها بالب‍رالعجاج ويزدحم فى ساحاتها أفواج الامواج من أرض لا تنال السقيا الا بحرب لان القطر سهام والضباب عجاج قد انعقد ولا يعم الغيث بقاعها لان السحب لا تراها الا بسراج البرق اذا اتقد فلو خاصم النيل مياه الارض لقال عندى قبالة كل عين اصبع ولو فاخرها لقال أنت بالجبال أثقل وأنا بالملق أطبع والنيل له الآيات الكبر وفيه العجائب والعبر منها وجود الوفا عند عدم الصفا وبلوغ الهرم اذا احتد واصطدم وأمن كل فريق اذا قطع الطريق وفرح قطان الاوطان اذا كروهو كما يقال . لطان وهو أكرم منتدى وأعذب مجتبى وأعظم مجتدى الى غير ذلك من خصائصه وبراءته مع الزيادة من نقائصه وهو أنه فى هذا العام المبارك جذب البلاد من الجدب وخلصها بذراعه وعصمها بخنادقه التى لا تراع من يراعه وحصنها بسوارى الصوارى تحت قلوعه وماهى الا عمد قلاعه وراعى الادب بين أيدينا الشريفة بعطا العتنا فى كل يوم بحر رقاعه فى رقاعه حتى اذا أكمل الستة عشر ذراعا وأقبلت سوابق الخيل سراعا وفتح أبواب الرحمة بتغليقه

وجدّ في طلب تخليقه تضرع بمد ذراعه الينا وسلم عند الوفاء باصابعه علينا ونشر علم ستره وطلب أكرم طباعه جبر العالم بكسره فرسمنا بان يخلق ويعلم تاريخ هنائه ويه لق فكسر الخليج وقد كاد يعلوه فوق موجه ويهيل كثيب سده هول هيجه ودخل يدوس زرابي الدور المبثوثه ويجوس خلال الحنايا كأن له فيها خبايا موروثه ومرق كالسهم من قسي قناطره المنكوسة وعلاه زبد حركته ولولاه ظهرت في باطنه من بدور انائه أشعتها المعكوسة وبشر بركة النيل ببركة الفال وجعل المجنونة من تياره المنحدر في السلاسل والاغلال وملأ أكف الرجاء بأموال الامواه وازدحمت في عبارة شكره أفواج الافواه وأعلم الاقلام بعجزها عما يدخل من خراج البلاد وهنأت طلائعه بالطوالع التي نزلت بركاتها من الله على العباد وهذه عوائد الالطاف الالهية بنا لم نزل نجلس على موائدها ونأخذ منها ما نهيئه لرعايانا من فوائدها ونخص بالشكر قوادمها فهي تدب حولنا وتدرج ونخص قوادمها بالثناء والمدح والحمد فهي تدخل الينا وتخرج فليأخذ الجناب العالي حظه من هذه البشرى التي جاءت بالمن والمنح وانهلت أياديها المغدقة بالسح والسفح وليتلقاها بشكر يضيء به في الدجى أديم الافق ويتخذها عقدا تحيط منه بالعنق الى النطق وليتقدم الجناب العالي بان لا يحرك الميزان في هذه البشرى بالجباية لسانه وليعط كل عامل في بلادنا بذلك أمانه وليعمل بمقتضى هذا المرسوم حتى لا يرى في اسقاط الجباية خيانة والله يديم الجناب العالي لقص الانباء الحسنة عليه ويمتعه بجلاء عرائس التهاني والافراح لديه . وكتب الاديب تقي الدين أبو بكر بن حجة بشارة عن الملك المؤيد شيخ سنة تسع عشرة وثمانمائة ونبدي لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذي عاملنا فيه بالحسنى وزيادة وأجراه لنا في طرق الوفاء على أجمل عادة وخلق أصابعه لنزول الابهام فاعلن المساون بالشهادة كسري بمسرى فأمسى كل قلب بهذا الكسر مجبورا واتبعناه بنوروز ومابرح هذا الاسم بالسعد المؤيدي مكسورا دق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه وقبل ثغور الاسلام فأرشفها ريقه الحلو فمالت أعطاف غصونها اليه وشبب خريره في الصعيد بالقصب ومد سبائكه الذهبية الى جزيرة الذهب فضرب الناصرية واتصل بأم دينار وقلنا لولا أنه صبغ بقوة لما جاء وعليه ذلك الاحرار وأطال الله عمر زيادته فتردد الى الآثار وعمت البركة فأجرى سواقي مكة الى أن غدت جنة تجري من تحتها الانهار وحضن مشتهى الروضة في صدره وحناعليها حنو المرضعات على الفطيم وأرشفه على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الابيات وسقى الارض سلافة الخمرية لخدمته بحلو النبات وأدخله الى جنات النخيل والاعناب فالق النوى والحب فارضع جنين النبت وأحيى له أمهات العصف والاب وصافحته كفوف الموز فختمها بخواتمه العقيقية ولبس الورد نشريفه

وقال أرجو أن تكون شوكتي في أيامه قوية ونسي الزهري بحلاوة لقائه مرارة النوى وهامت به مخدرات الاشجار فأرخت ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى واستوفى النبات ما كان له في ذمة الري من الديون ومازح الحوامض بحلاوته فهام الناس بالسكر والليمون وانجذب اليه الكباد وامتد ولكن قوى قوسه لما حظى منه بسهم لا يرد ولبس شربوش الاترج وترفع الى أن لبس بعده التاج وفتح منثور الارض اعلامته بسعة الرزق وقد نفذ أمره وراج فتناول مقالم الشنبر وعلم بأقلامها ورسم لكل سد بالافراج وسرح بطائق السفن فخفقت أجنحتها بعلق بشائره وأشار بأصابعه الى قتل المحل فبادر الخصب الى امتثال أوامره وحظى بالمعشوق وبلغ من كل منية مناه فلا سكن على البحر الا تحرك ساكنه بعد ما تفقه وأتقن باب المياه ومد شفاه أمواجه الى تقبيل فم الخور وزاد بسرعة فاستحلى المصريون زائده على الفور ونزل في بركة الحبش فدخل التكرور في طاعته وحمل على الجهات البحرية فكسر المنصورة وعلا على الطويلة بشهامته وأظهر في مسجد الخضر عين الحياة فاقر الله عينه وصار أهل دمياط في برزخ بين المالح وبينه وطلب المالح رده بالصدر وطعن في حلاوة شمائله فما شعر الا وقد ركب عليه ونزل في ساحله وأمست دارات دوائره على وجنات الدهر عاطفه وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجواري واضطربت كالخائفة ومال شبق النخيل اليه فلثم ثغر طلعه وقبل سالفه وأمست سود الجواري كالحسنات على حمرة وجناته وكلما ازداد الله في حسناته فلا فقير سد الا حصل له من فيض نعماه فتوح ولا ميت خليج الا عاش به ودبت فيه الروح ولكنه احمرت عينه على الناس بزيادة وترفع فقال له المقياس عندي قبالة كل عين أصبع ونشر أعلام قلاعه وحمل وله على زي الجزيرة زمجرة ورام أن يهجم على غير بلاده فبادر اليه عزمنا المؤيدي وكسره وقد آثرنا المقر بهذه البشرى التي سرى فضلها برا وبحرا وحدثناه عن البحر ولا حرج وشرحناله حالا وصدرا ليأخذ حظه من هذه البشارة البحرية بالزيادة الوافرة وينشق من طيبها نشرا فقد حملت له من طيبات ذلك النسيم أنفاسا عاطرة والله تعالى يوصل بشائرنا الشريفة لسمعه الكريم ليصير بها في كل وقت مشنفا ولا برح من نيلها المبارك وانعامنا الشريف على كلا الحالين في وفا (من حسن المحاضرة في أخبار القاهرة للسيوطي)

جامع عمـــــرو

قال ابن المتوج في ايقاظ المستغفل واتعاظ المتؤمل هو الجامع العتيق المشهور بتاج الجوامع قال الليث بن سعد ليس لاهل الراية مسجد غيره وكان الذي حازه وضعه ابن كلثوم التجيبي ويكنى أبا عبد الرحمن ونزله في حصارهم الحصن فلما رجعوا من الاسكندرية سأل عمرو قيسبة في منزله هذا يجعله مسجدا فقال قيسبة فاني أتصدق به على المسلمين فسلمه اليهم فبنى في سنة احدى وعشرين

وكان طوله خمسين ذراعا فى عرض ثلاثين ويقال انه وقف على اقامة قبلته ثمانون رجلا من الصحابة منهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت والدرداء وأبوذر وأبو بصرة ومحمية ابن جزء الزبيدى ونبيه بن صواب وفضالة بن عبيد وعقبة بن عامر ورافع بن مالك وغيرهم ويقال انها كانت مشرقة جدا وان قرة بن شريك لما هدم المسجد وبناه فى زمن الوليد تيامن قليلا وذكر أن الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة كانا يتيامنان اذا صليا فيه ولم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وانما قرة بن شريك جعل المحراب المجوف وأول من أحدث ذلك عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ عامل الوليد على المدينة حين هدم المسجد النبوى وزاد فيه وأول من زاد فى جامع عمرو مسلمة بن مخلد وهو أمير مصر سنة ثلاث وخمسين شكى الناس اليه ضيق المسجد فكتب الى معاوية فكتب معاوية اليه يأمره بالزيادة فيه فزاد فيه من بحريه وجعل له رحبة من البحرى وبيضه وزخرفه ولم يغير البناء القديم ولا أحدث فى قبلته ولا غربيه شيأ وكان عمرو قد اتخذ منبرا فكتب اليه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يعزم عليه فى كسره أما يحسبك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك فكسره وذكر أنه زاد من شرقيه حتى ضاق الطريق بينه وبين دار عمرو بن العاص وفرشه بالحصر وكان مفروشا بالحصباء وقال فى كتاب الجند العربى ان مسلمة نقض جميع ما كان عمرو ابن العاص بناه وزاد فيه من شرقيه وبنا فيه صوامع فى أركانه الاربعة برسم الاذان ثم هدمه عبد العزيز ابن مروان أيام امرته بمصر فى سنة تسع وسبعين وزاد فيه من ناحية الغرب وأدخل فيه الرحبة التى كانت بحريه ثم فى سنة تسع وثمانين أمر الوليد نائبه بمصر برفع سقفه وكان مطاطيا ثم هدمه قرة بن شريك بأمر الوليد سنة اثنتين وتسعين وبناه فكانوا يجمعون فى قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه فى رمضان سنة ثلاث وتسعين ونصب فيه المنبر الجديد فى سنة أربع وتسعين وعمل فيه المحراب المجوف وعمل للجامع أربعة أبواب ولم يكن له قبل الا بابان وبنى فيه بيت المال بناه اسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج بمصر سنة تسع وتسعين فكان مال المسلمين فيه ثم زاد فيه صالح بن على ابن عبد الله بن عباس وهو يومئذ أمير من قبل السفاح وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة فادخل فيه دار الزبير بن العوام وأحدث له بابا خامسا ثم زاد فيه موسى بن عيسى الهاشمى وهو يومئذ أمير مصر من قبل الرشيد فى شعبان سنة خمس وسبعين ومائة ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر بن الحسين وهو أمير مصر من قبل المأمون فى جمادى الآخرة سنة اثنتى عشرة ومائتين فتكامل ذرع الجامع مائتين وتسعين ذراعا بذراع العمل طولا فى مائة وخمسين عرضا ويقال ان ذرع جامع ابن طولون مثل ذلك سوى الازقة المحيطة بجوانبه الثلاثة ونصب عبد الله بن طاهر اللوح الاخضر فلما احترق الجامع احترق ذلك اللوح فجعل أحمد بن محمد العجيفى هذا اللوح مكانه وهو الباقى الى اليوم ولما ولى

الحارث بن مسكين القضاء من قبل المتوكل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين أمر ببناء هذه الرحبة لينتفع الناس بها وبلط زيادة ابن طاهر وأصلح السقف ثم زاد فيه أبو أيوب احمد بن محمد بن شجاع صاحب الخراج فى أيام المعتصم فى سنة ثمان وخمسين ومائتين ثم وقع فى مؤخر الجامع حريق فى ليلة الجمعة لتسع خلون من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون بعمارته على يد الجيض فأعيد على ما كان وانفق فيه ستة آلاف واربعمائة دينار وكتب اسم خمارويه فى دائرة الرواق الذى عليه اللوح الاخضر وزاد فيه أبو حفص العباسى أيام نظره فى قضاء مصر خلافة لاخيه الغرفة التى يؤذن فيها المؤذنون فى السطح وذلك فى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ثم زاد فيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن الخازن رواقا مقداره تسعة أذرع وذلك فى رجب سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ومات قبل اتمامه فاتمه ابنه على وفرغ فى رمضان سنة ثمان وخمسين ثم بنى فيه الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس بامر العزيز بالله الفوارة التى تحت قبة بيت المال وهو أول من عمل فيه فوارة وفى سنة سبع وثمانين وثلاثمائة بيض المسجد ونقشت ألواحه وذهب على يد برجوان الخادم وعمل فيه تنور يوقد كل ليلة جمعة وفى سنة ثلاث وأربعمائة أنزل اليه من القصر بالف ومائتين وتسعين مصحفا فى ربعات فيها ما هو مكتوب بالذهب كله ومكن الناس من القراءة فيها وأنزل اليه تنور من فضة استعمله الحاكم بامر الله برسم الجامع فيه مائة ألف درهم فضة فاجتمع الناس وعلق بالجامع بعد أن قلعت عتبتا الجامع حتى أدخل به ثم فى أيام المستنصر فى رمضان سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة زيد فى المقصورة فى شرقيها وغربيها وعمل منطقة فضة فى صدر المحراب الكبير أثبت عليها اسم أمير المؤمنين وجعل لعمودى المحراب أطواقا فضة فلم يزل ذلك الى أن استبد السلطان صلاح الدين بن أيوب فأزاله وفى ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة عمل مقصورة خشب ومحراب ساج منقوش بعمودى صندل برسم الخليفة تنصب له فى زمن الصيف وتقلع فى زمن الشتاء اذا صلى الامام فى المقصورة الكبيرة وفى سنة أربع وستين وخمسمائة تمكن الفرنج من ديار مصر وحكموا فى القاهرة حكما جائرا فتشعث الجامع فلما استبد السلطان صلاح الدين جدده فى سنة ثمان وستين وخمسمائة ورخمه ورسم عليه اسمه وعمر المنظرة التى تحت المأذنة الكبيرة وجعل لها ساقية ولما ولى تاج الدين ابن بنت الاعز قضاء الديار المصرية أصلح ما مال منه وهدم ما به من الغرف المحدثة وجمع أرباب الخبرة واتفق الرأى على ابطال جواز الماء الى الفسقية وكان الماء يصل اليها من بحر النيل فأمر بابطاله لما كان فيه من الضرر على جدار الجامع وحدث السلطان بيبرس فى عمارة ما تهدم من الجامع فرسم بعمارته وكتب اسم الظاهر بيبرس على اللوح الاخضر وجليت العمد كلها و بيض الجامع باسره وذلك فى رجب سنة ست وستين وستمائة ثم جدد فى أيام المنصور قلاوون

سنة سبع وثمانين وسبعمائة ولما حدثت الزلزلة فى سنة اثنتين وسبعمائة تشعث الجامع فجدده سلار نائب السلطنة ثم تشعث فى أيام الظاهر برقوق فعمره الرئيس برهان الدين ابراهيم بن عمر المحلى رئيس التجار وأزال اللوح الاخضر وجدد لوحا آخر بدله وهو الموجود الآن وانتهت عمارته فى سنة أربع وثمانمائة وقال ابن المتوج ذرع هذا الجامع اثنان وأربعون ألف ذراع بذراع البز المصرى القديم وهو ذراع الحصر المستمر الآن وذرعه بذراع العمل ثمانية وعشرون ألف ذراع وعدد أبوابه ثلاثة عشر بابا وممن تولى امامة هذا الجامع أبو رجب العلاء بن عاصم الخولانى وهو أول من سلم فى الصلاة تسليمتين بهذا الجامع بكتاب ورد عليه من المأمون يأمره بذلك وصلى خلفه الامام الشافعى حين قدم مصر فقال هكذا تكون الصلاة ماصليت خلف أحد أتم صلاة من أبى رجب ولا أحسن ولما ولى القصص حسن بن الربيع بن سليمان فى زمن المتوكل سنة أربعين ومائتين أمر بترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم فى الصلاة وأمر أن تصلى التراويح وكانت تصلى قبل ذلك ست تراويح قال القضاعى ولم يكن الناس يصلون بالجامع صلاة العيد حتى كانت سنة ست وثلثمائة صلى فيها رجل يعرف بعلى بن أحمد بن عبد الملك الفهمى صلاة الفطر ويقال انه خطب من دفتر نظرا وحفظ عنه انه قال اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مشركون فقال بعض الشعراء

وقام فى العيد لنا خطيبا * حرض الناس على الكفر

وذكر بعضهم انه كان يوقد فى الجامع العتيق كل ليلة ثمانية عشر ألف فتيلة وان المطلق برسمه خاصة لوقود كل ليلة أحد عشر قنطارا زيتا طيبا وقال المقريزى أخبرنى شهاب الدين أحمد بن عبد الله الاوحدى أخبرنى المؤرخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات أخبرنا العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى أنه أدرك بجامع عمرو قبل الوباء الكائن فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة بضعا وأربعين حلقة لاقراء العلم لا تكاد تبرح منه

(من حسن المحاضرة فى أخبار القاهرة للسيوطى)

جامع الحاكم

هذا الجامع بنى خارج باب الفتوح أحد أبواب القاهرة وأول من أسسه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد وخطب فيه وصلى بالناس الجمعة ثم أكملها ابنه الحاكم بأمر الله فلما وسع أمير الجيوش بدر الجمالى القاهرة وجعل أبوابها حيث هى اليوم صار جامع الحاكم داخل القاهرة وكان يعرف أولا بجامع الخطبة ويعرف اليوم بجامع الحاكم ويقال له الجامع الانور قال الامير مختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحى فى تاريخ مصر وفيه يعنى شهر رمضان سنة ثمان وثلثمائة خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة مما يلى باب الفتوح من خارج وبدئ بالبناء فيه

وتحلق فيه الفقهاء الذين يتحلقون فى جامع القاهرة يعنى الجامع الازهر وخطب فيه العزيز بالله
وقال فى حوادث سنة احدى وثمانين وثلثمائة لاربع خلون من شهر رمضان صلى العزيز بالله فى جامعه
صلاة الجمعة وخطب وكان فى مسيره بين يديه أكثر من ثلاثة آلاف وعليه طيلسان وبيده القضيب
وفى رجله الحذاء وركب لصلاة الجمعة فى رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة الى جامعه ومعه ابنه
منصور فحملت المظلة على منصور وسار العزيز بغير مظلة وقال فى حوادث سنة ثلاث وتسعين
وثلثمائة وأمر الحاكم بامر الله أن يتم بناء الجامع الذى كان الوزير يعقوب بن كلس بدأ فى بنيانه عند
باب الفتوح فقدر للنفقة عليه أربعون ألف دينار فابتدئ فى العمل فيه وفى صفر سنة احدى
وأربعمائة زيد فى منارة جامع باب الفتوح وعمل لها أركان طول كل ركن مائة ذراع وفى سنة ثلاث
وأربعمائة أمر الحاكم بالله بعمل تقدير ما يحتاج اليه جامع باب الفتوح من الحصر والقناديل
والسلاسل فكان تكسير ما ذرع للحصر ستة وثلاثين ألف ذراع فبلغت النفقة على ذلك خمسة
آلاف دينار قال وتم بناء الجامع الجديد بباب الفتوح وعلق على سائر أبوابه ستور ديبقية عملت له
وعلق فيه تنانير فضة عدتها أربع وكثير من قناديل فضة وفرش جميعه بالحصر التى عملت له ونصب
فيه المنبر وتكامل فرشه وتعليقه وأذن فى ليلة الجمعة سادس شهر رمضان سنة ثلاث وأربعمائة لمن
بات فى الجامع الازهر أن يمضوا اليه فمضوا وصار الناس طول ليلتهم يمشون من كل واحد من
الجامعين الى الآخر بغير مانع لهم ولا اعتراض من أحد من عسس القصر ولا أصحاب الطوف الى
الصبح وصلى فيه الحاكم بامر الله بالناس صلاة الجمعة وهى أول صلاة أقيمت فيه بعد فراغه وفى
ذى القعدة سنة أربع وأربعمائة حبس الحاكم عدة قياسر وأملاك على الجامع الحاكمى بباب
الفتوح قال ابن عبد الظاهر وعلى باب الجامع الحاكمى مكتوب انه أمر بعمله الحاكم أبو على المنصور
فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وعلى منبره مكتوب انه أمر بعمل هذا المنبر للجامع الحاكمى المنشأ
بظاهر باب الفتوح فى سنة ثلاث وأربعمائة ورأيت فى سيرة الحاكم وفى يوم الجمعة أقيمت الجمعة
فى الجامع الذى كان الوزير أنشأه بباب الفتوح ورأيت فى سيرة الوزير المذكور فى يوم الاحد عاشر
رمضان سنة تسع وسبعين وثلثمائة خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة خارج الطابية مما يلى باب
الفتوح قال وكان هذا الجامع خارج القاهرة فجدد بعد ذلك باب الفتوح وعلى البدنة التى تجاور
باب الفتوح وبعض البرج مكتوب ان ذلك بنى سنة ثلاث وأربعمائة فى زمن المستنصر بالله ووزارة
أمير الجيوش فيكون بينهما سبع وثمانون سنة قال والفسقية وسط الجامع بناها الصاحب عبد الله
ابن على بن شكر وأجرى الماء اليها وأزالها القاضى تاج الدين بن شكر وهو قاضى القضاة فى سنة ستين
وستمائة والزيادة التى الى جانبه قيل انه ابتناء ولده الظاهر على ولم يكملها وكان قد حبس فيها الفرنج

فعملوا فيها كنائس هدمها الملك الناصر صلاح الدين وكان قد تغلب عليها وبنيت اصطبلات وبلغنى أنها كانت فى الايام المتقدمة قد جعلت اهراء للغلال فلما كان فى الايام الصالحية ووزارة معين الدين حسن ابن شيخ الشيوخ للملك الصالح أيوب ولد الكامل ثبت عند الحاكم أنها من الجامع وأن بها محرابا فانتزعت وأخرج الخيل منها وبنى فيها ما هو الآن فى الايام المعزية على يد الركن الصيرفى ولم يسقف ثم جدد هذا الجامع فى سنة ثلاث وسبعمائة وذلك انه لما كان يوم الخميس ثالث عشرى ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة تزلزلت أرض مصر والقاهرة وأعمالها ورجف كل ما عليها واهتز وسمع للحيطان قعقعة وللسقوف قرقعة ومادت الارض بما عليها وخرجت عن مكانها وتخيل الناس أن السماء قد انطبقت على الارض فهربوا من أماكنهم وخرجوا عن مساكنهم وبرزت النساء حاسرات وكثر الصراخ والعويل وانتشرت الخلائق فلم يقدر أحد على السكون والقرار لكثرة ما سقط من الحيطان وخر من السقوف والمآذن وغير ذلك من الابنية وفاض ماء النيل فيضا غير المعتاد وألقى ما كان عليه من المراكب التى بالساحل قدر رمية سهم وانحسر عنها فصارت على الارض بغير ماء واجتمع العالم فى الصحراء خارج القاهرة وباتوا ظاهر باب البحر بحرمهم وأولادهم فى الخيم وخلت المدينة وتشعثت جميع البيوت حتى لم يسلم ولا بيت من سقوط أو تسقط أو ميل وقام الناس فى الجوامع يبتهلون ويسألون الله سبحانه طول يوم الخميس وليلة الجمعه ويوم الجمعه فكان مما تهدم فى هذه الزلزلة الجامع الحاكمى فانه سقط كثير من البدنات التى فيه وخرب أعالى المئذنتين وتشعثت سقوفه وجدرانه فانتدب لذلك الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ونزل اليه ومعه القضاة والامراء فكشفه بنفسه وأمر برم ما تهدم منه واعادة ما سقط من البدنات فاعيدت وفى كل بدنة منها طاقة وأقام سقوف الجامع وبيضه حتى عاد جديدا وجعل له عدة أوقاف بناحية الجيزة وفى الصعيد وفى الاسكندرية تغل كل سنة شيأ كثيرا ورتب فيه دروسا أربعة لاقراء الفقه على مذاهب الائمة الاربعة ودرسا لاقراء الحديث النبوى وجعل لكل درس مدرسا وعدة كثيرة من الطلبة فرتب فى تدريس الشافعية قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى وفى تدريس الحنفية قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجى الحنفى وفى تدريس المالكية قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى وفى تدريس الحنابلة قاضى القضاة شرف الدين الحرانى وفى درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعود الحارثى وفى درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان وفى درس القراآت السبع الشيخ نور الدين الشطنوفى وفى التصدير لافادة العلوم علاء الدين على بن اسماعيل القونوى وفى مشيخة الميعاد المجد عيسى بن الخشاب وعمل فيه خزانة كتب جليلة وجعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم وعدة قراء يتناوبون قراءة القرآن ومعلما يقرئ أيتام

المسلمين كتاب الله عز وجل وحفر فيه صهريجا بصحن الجامع ليملأ في كل سنة من ماء النيل ويسبل منه الماء في كل يوم ويستقي منه الناس يوم الجمعة وأجرى على جميع من قرره فيه معاليم داره وهذه الاوقاف باقية الى اليوم الا أن أحوالها اختلت كما اختل غيرها فكان ما أنفق عليه زيادة على أربعين ألف دينار وجرى في بنائه بهذا الجامع أمر يتعجب منه وهو ما حدثني به شيخنا الشيخ المعروف المسند المعمر أبو عبد الله محمد بن ضرغام بن شكر المقرى بمكة في سنة سبع وثمانين وسبعمائة قال أخبرني من حضر عمارة الامير بيبرس للجامع الحاكمي عند سقوطه في سنة الزلزلة أنه لما شرع البناة في ترميم ما وهي من المئذنة التي هي من جهة باب الفتوح ظهر لهم صندوق في تضاعيف البنيان فأخرجه الموكل بالعمارة وفتحه فاذا فيه قطن ملفوف على كف انسان بزنده وعليه أسطر مكتوبة لم يدر ما هي والكف طرية كأنها قريبة عهد بالقطع ثم رأيت هذه الحكاية بخط مؤلف السيرة الناصرية موسى ابن محمد بن يحيى أحد مقدمي الحلقة ثم جدد هذا الجامع وبلط جميعه في أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في ولايته الثانية على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس في سنة ستين وسبعمائة ووقف قطعة أرض على الهرماس وأولاده وعلى زيادة في معلوم الامام بالجامع وعلى ما يحتاج اليه في زيت الوقود ومرمة في سقفه وجدرانه وجرى في عمارة الجامع على يد الهرماس ما حدثني به الشيخ المعمر شمس الدين محمد بن على امام الجامع الطيبرسي بشاطئ النيل قال أخبرني محمد بن عمر البوصيرى قال حدثنا قطب الدين محمد الهرماس أنه رأى بالجامع الحاكمي حجرا ظهر من مكان قد سقط منقوشا عليه هذه الابيات الخمسة

انّ الذي أسررت مكنون اسمه * وكتمته كيما أفوز بوصله
مال له جذر تساوي في الهجا * طرفاه يضرب بعضه في مثله
فيصير ذلك المال الا أنه * في النصف منه تصاب أحرف كله
واذا نطقت بربعه متكلما * من بعد أوله نطقت بكله
لا نقط فيه اذا تكامل عده * فيصير منقوطا بجملة شكله

قال وهذه الابيات لغز في الحجر المكرم وقال العلامة شمس الدين محمد بن النقاش في كتاب العبر في أخبار من مضى وغبر وفي هذه السنة يعني سنة احدى وستين وسبعمائة صودر الهرماس وهدمت داره التي بناها أمام الجامع الحاكمي وضرب ونفي هو وولده فلما كان يوم الثلاثاء التاسع والعشرون من ذي القعدة استفتى السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في وقف حصة طندتا وهي الارض التي كان قد سأله الهرماس أن يقفها على مصالح الجامع الحاكمي فعين له خمسمائة وستين فدانا من طين طندتا وطلب الموقعين وأمرهم أن يكتبوا صورة وقفها ويحضروه ليشهدوا

عليه به وكان قد تقرر من شروطه فى أوقافه ماقيل انه رواية عن أبى حنيفة رحمة الله تعالى عليه
من أن للواقف أن يشترط فى وقفه التغيير والزيادة والنقص وغير ذلك فاحضر الكركى الموقع عليه
الكتاب مطويا فقرأ منه طرته وخطبته وأوله ثم طواه وأعاده اليه مطويا وقال اشهدوا بما فيه دون
قراءة وتأمل فشهدوا هم بالتفصيل الذى كتبوه وقرروه مع الهرماس ولما اطلع السلطان على ذلك
بعد نفى الهرماس طلب الكركى وسأله عن هذه الواقعة فأجاب بما قد ذكرنا والله أعلم بصحة ذلك غير
أن المعلوم المقرر أن السلطان ماقصد الا مصالح الجامع نعم سأله ازدمر الخازندار هل وقفت حصة
لطيفة على أولاد الهرماس فانه قد ذكر ذلك فقال نعم أنا وقفت عليهم جزأ يسيرا لم أعلم مقداره وأما
التفصيل المذكور فى كتاب الوقف فلم أتحققه ولم أطلع عليه فاستفتى المفتين فى هذه الواقعة فأما
المفتون كابن عقيل وابن السبكى والبلقينى والبسطامى والهندى وابن شيخ الجبل والبغدادى
ونحوهم فأجابوا ببطلان الحكم المترتب على هذه الشهادة الباطلة وبطلان التنفيذ وكان الحنفى حكم
والبقية نفذوا وأما الحنفى فقال ان الوقف اذا صدر صحيحا على الاوضاع الشرعية فانه لا يبطل بما
قاله الشاهد وهو جواب عن نفس الواقعة وأما الشافعى فكتب ما مضمونه ان الحنفى ان اقتضى
مذهبه بطلان ما صححه أولا نفذ بطلانه وحاصل ذلك أن القضاة أجابوا بالصحة والمفتين أجابوا
بالبطلان فطلب السلطان المفتين والقضاة فلم يحضر من الحكام غير نائب الشافعى وهو تاج الدين
محمد بن اسحاق بن المناوى والقضاة الثلاثة الشافعى والحنفى والحنبلى وجدوا مرضى لم يمكنهم
الحضور الى سرياقوس فان السلطان كان قد سرح اليها على العادة فى كل سنة فجمعهم السلطان فى
برج من القصر الذى بميدان سرياقوس عشاء الآخرة وذكر لهم القضية وسألهم عن حكم الله تعالى
فى الواقعة فأجاب الجميع بالبطلان غير المناوى فانه قال مذهب أبى حنيفة أن الشهادة الباطلة
اذا اتصل بها الحكم صح ولزم فصرخت عليه المفتون شافعيهم وحنفيهم أما شافعيهم فانه قال ليس
هذا مذهبك ولا مذهب الجمهور ولا هو الراجح فى الدليل والنظر وقال له ابن عقيل هذا مما ينقض به
الحكم لو حكم به حاكم وادعى قيام الاجماع على ذلك وقال له سراج الدين البلقينى ليس هذا مذهب
أبى حنيفة ومذهبه فى العقود والفسوخ ماذكرت من أن حكم الحاكم يكون هو المعتمد فى التحليل
والتحريم وأما الاوقاف ونحوها فحكم الحاكم فيها الا أثر له كمذهب الشافعى وادعوا أن الاجماع قائم
على ذلك وقاموا على المناوى فى ذلك قومة عظيمة فقال نحن نحكم بالظاهر فقالوا والله مالم يظهر الباطن
بخلافه فقال قال النبى صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر قالوا هذا الحديث كذب على النبى
صلى الله عليه وسلم وانما الحديث الصحيح انما أنا بشر ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض
الحديث قال المناوى الاحكام ماهى بالفتاوى قالوا والله فبماذا تكون أفى الوجود حكم شرعى

بغير فتوى من الله ورسوله وكان قد قال فى مجلس ابن الدريهم القائم على نفيس اليهودى المدعو برأس الجالوت بين اليهود لا يلتفت لقول المفتين فقيل له فى هذا المجلس ها أنت قد قلت مرتين ان المفتين لا يعتبر قولهم وان الفتاوى لا يعتد بها وقد أخطأت فى ذلك أشد الخطأ وأنبأت عن غاية الجهل فان منصب الفتوى أول من قام به رب العالمين اذ قال فى كتابه المبين يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة وقال يوسف عليه السلام قضى الامر الذى فيه تستفتيان وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها قد أفتانى الله ربى فيما استفتيته وكل حكم جاء على سؤال سائل تكفل ببيانه قرآن أو سنة فهو فتوى والقائم به مفت فكيف تقول لا يلتفت الى الفتوى أو الى المفتين فقال سراج الدين الهندى وغيره هذا كفر ومذهب أبى حنيفة أن من استخف بالفتوى أو المفتين فهو كافر فاستدرك نفسه بعد ذلك وقال لم أرد الا أن الفتوى اذا خالفت المذهب فهى باطلة قالوا له وأخطأت فى ذلك لان الفتوى قد تخالف المذهب المعين ولا تخالف الحق فى نفس الامر قال فأردت بالفتوى التى تخالف الحق قالوا فاطلقت فى موضع التقييد وذلك خطأ فقال السلطان حينئذ فاذا قدر هذا وادعيت أن الفتوى لا أثر لها فتبطل المفتين والفتوى من الوجود فتلكأ وحار وقال كيف أعمل فى هذا فتبين لبعض الحاضرين أنه استشكل المسألة ولم يتبين له وجهها فقال لا شك أن مولانا السلطان لم ينكر صدور الوقف وانما أنكر المصارف وأن تكون الجهة التى عينها هى هرماس وشهوده وقضاته وللسلطان أن يحكم فيها بعلمه ويبطل ما قرروه من عند أنفسهم قال كيف يحكم لنفسه قيل له ليس هذا حكما لنفسه لانه مقر بأصل الوقف وهو المستحقين ليس له فيه شئ وانما بطل وصف الوقف وهو المصرف الذى قرر على غير جهة الوقف وله أن يوقع الشهادة على نفسه بحكم أن مصرف هذا الوقف الجهة الفلانية دون الفلانية ولم يزالوا يذكرون له أوجها تبين بطلان الوقف اما بأصله أو بوصفه الى أن قال يبطل بوصفه دون أصله وأذعن لذلك بعد اتعاب من العلماء وازعاج شديد من السلطان فى بيان وجوه ذكروها تبين وجه الحق وأنه انما وقفه على مصالح الجامع المذكور وهذا مما لا يشك فيه عاقل ولا يرتاب فالتفت بعد ذلك وقال للحاضرين كيف نعمل فى ابطاله فقالوا انما قررناه من اشهاد السلطان على نفسه بتفصيل صحيح وأنه لم يزل كذلك منه صدر من الوقف الى هذا الحد وغير ذلك من الوجوه فجعل يوهم السلطان أن الشهود الذين شهدوا فى هذا الوقف متى بطل هذا الوقف ثبت عليهم التساهل وجرحوا بذلك وقدح ذلك فى عدالتهم ومتى جرحوا الآن لزم بطلان شهادتهم فى الاوقاف المتقدمة على هذا التاريخ وخيل بذلك للسلطان حتى ذكر له اجماع المسلمين على أن جرح الشاهد لا ينعطف على ما مضى من شهاداته السالفة ولو كفر والعياذ بالله وهذا مما لا خلاف فيه ثم استقر رأيه على أن يبطله بشاهدين يشهدان أن السلطان

لما صدر منه هذا الوقف كان قد اشترط لنفسه التغيير والتبديل والزيادة والنقص وقام على ذلك قال
مؤلفه رحمه الله أنظر تثبت القضاة وقايس بين هـذه الواقعـة وما كان من تثبت القاضى تاج الدين
المناوى وهو يومئذ خليفة الحكم ومصادمته الجبال وبين ما ستقف عليه من التساهل والتناقض
فى خبر أوقاف مدرسة جمال الدين يوسف الاستادار وميز بعقلك فرق ما بين القضيتين وهذه الارض
التى ذكرت هى الآن بيد أولاد الهرماس بحكم الكتاب الذى حاول السلطان نقضه فلم يوافق المناوى
والجامع الآن متهـدم وسـقوفه كلها من زمن الاويسقط منها الشئ بعـد الشئ فلا يعاد وكانت
ميضأة هـذا الجامع صغيرة بجوار ميضأته الآن فيما بينها وبين باب الجامع وموضـعها الآن مخزن
تعلوه طبقـة عمرها شخص من الباعـة يعرف بابن كرسون المراحلى وهـذه الميضأة الموجودة الآن
أحدثت وأنشأ الفسـقية التى فيها ابن كرسون فى أعوام بضع وثمانين وسـبعمائة وبيض مئذنتى
الجامع واسـتجد المأذنة التى بأعلى الباب المجاور للمنـبر رجل من الباعة وكملت فى جمادى الآخرة
سنة سبع وعشرين وثمانمائة وخرق سقف الجامع حتى صار المؤذنون ينزلون من السطح الى الدكة
التى يكبرون فوقها وراء الامام (هيئة صلاة الجمعة فى أيام الخلفاء الفاطميين) قال المسبحى وفى يوم
الجمعة غرة رمضان سنة ثمانين وثلثمائة ركب العزيز بالله الى جامع القاهرة بالمظلة المذهبة وبين يديه
نحو خمسـة آلاف ماش وبيده القضيب وعليه الطيلسان والسـيف وخطب وصلى صلاة الجمعة
وانصرف فأخذ رقاع المتظلمين بيده وقرأ منها عدة فى الطريق وكان يوما عظيما ذكرته الشعراء قال
ابن الطوير اذا انقضى ركوب أول شهر رمضان استراح فى أول جمعة فاذا كانت الثانية ركب الخليفة
الى الجامع الانور الكبير فى هيئة المواسم بالمظلة وما تقدم ذكره من الآلات ولباسه فيه ثياب الحرير
البيض توقيرا للصـلاة من الذهب والمنديل والطيلسان المقور الشـعرى فيدخل من باب الخطابة
والوزير معه بعـد أن يتقدمه فى أوائل النهار صاحب بيت المال وهو المقدم ذكره فى الاستاذين
وبين يديه الفرش المختصـة بالخليفة اذا صار اليه فى هذا اليوم وهو محمول بأيدى الفراشين المميزين
وهو ملفوف فى العراضى الديبقيـة فيفرش فى المحراب ثلاث طراحات اماسامان أوديبقى أبيض
أحسن ما يكون من صنفيهما كل منهما منقوش بالحمرة فتجعل الطراحات متطابقات ويعلق ستران
يمنة ويسرة وفى الستر الايمن كتابة مرقومة بالحرير الاحمر واضحة منقوطة أولها البسملة والفاتحة
وسورة الجمعة وفى الستر الايسر مثل ذلك وسورة اذا جاءك المنافقون قد أسبلا وفرشا فى التعليق
بجانبى المحراب لاصقين بجسمه ثم يصعد قاضى القضاة المنبر وفى يده مدخنـة لطيفة خيزران
يحضرها اليه صاحب بيت المال فيها جمرات ويجعل فيها ندمثلث لا يتم مثله الاهنالك فيبخر الذروة
التى عليها الغشاء كالقبـة لجلوس الخليفة للخطابة ويكرر ذلك ثلاث دفعات فيأتى الخليفة فى هيئة

موقرة من الطبل والبوق وحوالى ركابه خارج أصحاب الركاب القراء وهم قراء الحضرة من الجانبين يطربون بالقراءة نوبة بعد نوبة يستفتحون بذلك من ركوبه من الكرسى على ماتقدم طول طريقه الى قاعة الخطابة من الجامع ثم تحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب واسفهسلار العساكر ومن داخلها الى آخرها صبيان الخاص وغيرهم ممن يجرى مجراهم ومن داخلها من باب خروجه الى المنبر واحد فواحد فيجلس فى القاعة وان احتاج الى تجديد وضوء فعل والوزير فى مكان آخر فاذا أذن بالجمعة دخل اليه قاضى القضاة فقال له السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته الصلاة يرحمك الله فيخرج ماشيا وحواليه الاستاذون المحنكون والوزير وراءه ومن يليهم من الخواص وبأيديهم الاسلحة من صبيان الخاص وهم أمراء وعليهم هذا الاسم فيصعد المنبر الى أن يصل الى الذروة تحت تلك القبة المبخرة فاذا استوى جالسا والوزير على باب المنبر ووجهه اليه فيشير اليه بالصعود فيصعد الى أن يصل اليه فيقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ثم يزرر عليه تلك القبة لانها كالهودج ثم ينزل مستقبلا فيقف ضابطا لباب المنبر فان لم يكن ثم وزير صاحب سيف زرر عليه قاضى القضاة كذلك ووقف صاحب الباب ضابطا للمنبر فيخطب خطبة قصيرة من مسطور يحضر اليه من ديوان الانشاء يقرأ فيها آية من القرآن الكريم ولقد سمعته مرة فى خطابته بالجامع الازهر وقد قرأ فى خطبة رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى الآية ثم يصلى على أبيه وجده يعنى بهما محمدا صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ويعظ الناس وعظا بليغا قليل اللفظ وتشتمل الخطبة على ألفاظ جزلة ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل الى نفسه فقال وأنا أسمعه اللهم وأنا عبدك وابن عبدك لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا ويتوسل بدعوات فخيمة تليق بمثله ويدعو للوزير ان كان وللجيوش بالنصر والتأليف وللعساكر بالظفر وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك والقهر ثم يختم بقوله اذكروا الله يذكركم فيطلع اليه من زرر عليه ويفك ذلك التزرير وينزل القهقرى وسبب التزرير عليهم قراءتهم من مسطور لا كعادة الخطباء فينزل الخليفة ويصير على تلك الطراحات الثلاث فى المحراب وحده اماما ويقف الوزير وقاضى القضاة صفا ومن ورائهما الاستاذون المحنكون والامراء المطوقون وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والاقلام والمؤذنون وقوف وظهورهم الى المقصورة لحفظه فاذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضى فاسمع القاضى المؤذنين وأسمع المؤذنون الناس هذا والجامع مشحون بالعالم للصلاة وراءه فيقرأ ماهو مكتوب فى الستر الايمن فى الركعة الاولى وفى الركعة الثانية ماهو مكتوب فى الستر الايسر وذلك على طريق التذكار خيفة الارتجاج فاذا فرغ خرج الناس وركبوا أولا فاولا وعاد طالبا القصر والوزير وراءه وضربت البوقات والطبول فى العود

فاذا أتت الجمعة الثانية ركب الى الجامع الازهر من القشاشين على المنوال الذي ذكرناه والقالب الذي وصفناه فاذا كانت الجمعة الثالثة أعلم بركوبه الى مصر للخطابة في جامعها فيزين له القصر أهل القاهرة الى جامع ابن طولون ويزين له أهل مصر من جامع ابن طولون الى الجامع بمصر يرتب ذلك والى مصر كل أهل معيشة في مكان فيظهر المختار من الآلات والستور المثمنات ويهتمون بذلك ثلاثة أيام بلياليهن والوالى مار وعائد بينهم وقد ندب من يحفظ الناس ومتاعهم فيركب يوم الجمعة المذكور شاقا الذلك كله على الشارع الاعظم الى مسجد عبد الله الخراب اليوم الى دار الانماط الى الجامع بمصر فيدخل اليه من المعونة ومنها باب متصل بقاعة الخطيب بالزى الذى تقدم ذكره في خطبة الجامعين بالقاهرة وعلى ترتيبهما فاذا قضى الصلاة عاد الى القاهرة من طريقه بعينها شاقا بالزينة الى أن يصل الى القصر ويعطى أرباب المساجد التي يمر عليها كل واحد دينارا وقال ابن المأمون ووصل من الطراز الكسوة المختصة بغرة شهر رمضان وجميعه برسم الخليفة للغرة بدلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة وبرسم الجامع الازهر للجمعة الاولى من الشهر بدلة موكبية حرير مكملة منديلها وطيلسانها بياض وبرسم الجامع الانور للجمعية الثانية بدلة منديلها وطيلسانها شعرى وماهو برسم أخي الخليفة للغرة خاصة بدلة مذهبة وبرسم أربع جهات للخليفة أربع حلل مذهبات وبرسم الوزير للغرة خلعة مذهبة مكملة موكبية وبرسم الجمعتين بدلتان حريريتان ولم يكن لغير الخليفة وأخيه والوزير في ذلك شئ فنذكره (من المقريزى)

جامع ابن طولون

هذا الجامع موضعه يعرف بجبل يشكر قال ابن عبد الظاهر وهو مكان مشهور باجابة الدعاء وقيل ان موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات وابتدأ في بناء هذا الجامع الامير أبو العباس أحمد بن طولون بعد بناء القطائع في سنة ثلاث وستين ومائتين قال جامع السيرة الطولونية كان أحمد بن طولون يصلى الجمعة في المسجد القديم الملاصق للشرطة فلما ضاق عليه بنى الجامع الجديد مما أفاء الله عليه من المال الذي وجده فوق الجبل في الموضع المعروف بتنور فرعون ومنه بنى العين فلما أراد بناء الجامع قدر له ثلثمائة عمود فقيل له ما تجدها أو تنفذ الى الكنائس في الارياف والضياع الخراب فتحمل ذلك فأنكر ذلك ولم يختره وتعذب قلبه بالفكر في أمره وبلغ النصراني الذي تولى له بناء العين وكان قد غضب عليه وضربه ورماه في المطبق الخبر فكتب اليه يقول أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد الا عمودى القبلة فأحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه فقال له ويحك ما تقول في بناء الجامع فقال أنا أصوره للامير حتى يراه عيانا بلا عمد الا عمودى القبلة

فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت وصوره له فأعجبه واستحسنه وأطلقه وخلع عليه وأطلق له
للنفقة عليه مائة ألف دينار فقال له أنفق وما احتجت اليه بعد ذلك أطلقناه لك فوضع النصرانى
يده فى البناء فى الموضع الذى هو فيه وهو جبل يشكر فكان ينشر منه ويعمل الجير ويبنى الى أن
أفرغ من جميعه وبيضه وخلقه وعلق فيه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال وفرش فيه الحصر
وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل اليه القراء والفقهاء وصلى فيه بكار بن قتيبة القاضى
وعمل الربيع بن سليمان بابا فيما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من بنى لله مسجدا
ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة فلما كان أول جمعة صلاها فيه أحمد بن طولون وفرغت الصلاة
جلس محمد بن الربيع خارج المقصورة وقام المستملى وفتح باب المقصورة وجلس أحمد بن طولون
ولم ينصرف والغلمان قيام وسائر الحجاب حتى فرغ المجلس فلما فرغ المجلس خرج اليه غلام بكيس
فيه ألف دينار وقال يقول لك الامير نفعك الله بما علمك وهذا لابى طاهر يعنى ابنه وتصدق أحمد
ابن طولون بصدقات عظيمة فيه وعمل طعاما عظيما للفقراء والمساكين وكان يوما عظيما حسنا
وراح أحمد بن طولون ونزل فى الدار التى عملها فيه للامارة وقد فرشت وعلقت وحملت اليها الآلات
والاوانى وصناديق الاشربة وما شاكلها فنزل بها أحمد وجدد طهره وغير ثيابه وخرج من بابها
الى المقصورة فركع وسجد شكرا لله تعالى على ما أعانه عليه من ذلك ويسره له فلما أراد الانصراف
خرج من المقصورة حتى أشرف على الفوارة وخرج الى باب الريح فصعد النصرانى الذى بنى الجامع
ووقف الى جانب المركب النحاس وصاح يا أحمد بن طولون يا أمير الامان عبدك يريد الجائزة
ويسأل الامان أن لا يجرى عليه مثل ما جرى فى المرة الاولى فقال له أحمد بن طولون انزل فقد أمنك
الله ولك الجائزة فنزل وخلع عليه وأمر له بعشرة آلاف دينار وأجرى عليه الرزق الواسع الى أن مات
وراح أحمد بن طولون فى يوم الجمعة الى الجامع فلما رقى الخطيب المنبر وخطب وهو أبو يعقوب البلخى
دعا للمعتمد ولولده ونسى أن يدعو لاحمد بن طولون ونزل عن المنبر فأشار أحمد الى نسيم الخادم
أن اضربه خمسمائة سوط فذكر الخطيب سهوه وهو على مراقى المنبر فعاد وقال الحمد لله وصلى الله
على محمد ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما اللهم وأصلح الامير أبا العباس أحمد
ابن طولون مولى أمير المؤمنين وزاد فى الشكر والدعاء له بقدر الخطبة ثم نزل فنظر أحمد الى نسيم
أن اجعلها دنانير ووقف الخطيب على ما كان منه فحمد الله تعالى على سلامته وهنأه الناس
بالسلامة ورأى أحمد بن طولون الصناع يبنون فى الجامع عند العشاء وكان فى شهر رمضان فقال
متى يشترى هؤلاء الضعفاء افطارا لعيالهم وأولادهم اصرفوهم العصر فصارت سنة الى اليوم بمصر
فلما فرغ شهر رمضان قيل له قد انقضى شهر رمضان فيعودون الى رسمهم فقال قد بلغنى دعاؤهم

وقد تبركت به وليس هذا مما يوفر العمل علينا وفرغ منه فى شهر رمضان سنة خمس وستين ومائتين وتقرب الناس الى ابن طولون بالصلاة فيه وألزم أولادهم كلهم صلاة الجمعة فى فوارة الجامع ثم يخرجون بعد الصلاة الى مجالس الربيع بن سليمان ليكتبوا العلم مع كل واحد منهم وراق وعدة غلمان وبلغت النفقة على هذا الجامع فى بنائه مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ويقال ان أحمد بن طولون رأى فى منامه كأن الله تعالى قد تجلى ووقع نوره على المدينة التى حول الجامع الا الجامع فانه لم يقع عليه من النور شئ فتألم فقال والله ما بنيته الا لله خالصا ومن المال الحلال الذى لا شبهة فيه فقال له معبر حاذق هذا الجامع يبقى ويخرب كل ما حوله لان الله تعالى قال فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا فكل شئ يقع عليه جلال الله عز وجل لا يثبت وقد صح تعبير هذه الرؤيا فان جميع ما حول الجامع خرب دهرا طويلا كما تقدم فى موضعه من هذا الكتاب وبقى الجامع عامرا ثم عادت العمارة لما حوله كما هى الآن قال القضاعى رحمه الله وذكر أن السبب فى بنائه أن أهل مصر شكوا اليه ضيق الجامع يوم الجمعة من جنده وسودانه فامر بانشاء المسجد الجامع بجبل يشكر ابن جديلة من لخم فابتدأ بنيانه فى سنة ثلاث وستين ومائتين وفرغ منه سنة خمس وستين ومائتين وقيل ان أحمد بن طولون قال أريد أن أبنى بناء ان احترقت مصر بقى وان غرقت بقى فقال له يبنى بالجير والرماد والآجر الاحمر القوى النار الى السقف ولا يجعل فيه أساطين رخام فانه لا صبر لها على النار فبناه هذا البناء وعمل فى مؤخره ميضأة وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والادوية وعليها خدم وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة وبناه على بناء جامع سامرا وكذلك المنارة وعلق فيها سلاسل النحاس المفرغة والقناديل المحكمة وفرشه بالحصر العبدانية والسامانية

(حديث الكنز) قال جامع السيرة لما ورد على أحمد بن طولون كتاب المعتمد بما استدعاه من رد الخراج بمصر اليه وزاده المعتمد مع ما طلب الثغور الشامية رغب بنفسه عن المعادن ومرافقها فامر بتركها وكتب باسقاطها فى سائر الاعمال ومنع المتقبلين من الفسخ على المزارعين وحظر الارتفاق على العمال وكان قبل اسقاط المرافق بمصر قد شاور عبد الله بن دسومة فى ذلك وهو يومئذ أمين على أبى أيوب متولى الخراج فقال ان أمننى الامير تكلمت بما عندى فقال له قد أمنك الله عز وجل فقال أيها الامير ان الدنيا والآخرة ضرتان والحازم من لم يخلط احداهما مع الاخرى والمفرط من خلط بينهما فيتلف أعماله ويبطل سعيه وأفعال الامير أيده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وليس مثله من ركب خطة لم يحكمها ولو كنا نثق بالنصر دائما وطول العمر لما كان شئ عندنا آثر من التضييق على أنفسنا فى العاجل بعمارة الآجل ولكن الانسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع الى الآفات

وترك الانسان ماقد أمكنه وصار فى يده تضييع ولعل الذى حماه نفسه يكون سعادة لمن يأتى من بعده فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ويجتمع للامير أيده الله بما قد عزم على اسقاطه من المرافق فى السنة بمصر دون غيرها مائة ألف دينار وان فسخ ضياع الامراء والمتقبلين فى هذه السنة لانها سنة ظمأ توجب الفسخ زاد مال البلد وتوفر توفرا عظيما ينضاف الى مال المرافق فينضبط به الامير أيده الله أمر دنياه وهذه طريقة أمور الدنيا واحكام أمور الرئاسة والسياسة وكل ماعدل الامير أيده الله اليه من أمر غير هذا فهو مفسد لدنياه وهذا رأيى والامير أيده الله على ماعساه يراه فقال له ننظر فى هذا ان شاء الله وشغل قلبه كلامه فبات تلك الليلة بعد أن مضى أكثر الليل يفكر فى كلام ابن دسومة فرأى فى منامه رجلا من اخوانه الزهاد بطرسوس وهو يقول له ليس ما أشار به عليك من استشرته فى أمر الارتفاق والفسخ برأى تحمد عاقبته فلا تقبله ومن ترك شيأ لله عز وجل عوضه الله عنه فأمض ما كنت عزمت عليه فلما أصبح أنفذ الكتب الى سائر الاعمال بذلك وتقدم به فى سائر الدواوين بامضائه ودعا بابن دسومة فعرفه بذلك فقال له قد أشار عليك رجلان الواحد فى اليقظة والآخر ميت فى النوم وأنت الى الحى أقرب وبضمانه أوثق فقال دعنا من هذا فلست أقبل منك وركب فى غد ذلك اليوم الى نحو الصعيد فلما أمعن فى الصحراء ساخت فى الارض يد فرس بعض غلمانه وهو رمل فسقط الغلام فى الرمل فاذا بفتق ففتح فأصيب فيه من المال ما كان مقداره ألف ألف دينار وهو الكنز الذى شاع خبره وكتب به الى العراق أحمد بن طولون يخبر المعتمد به ويستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البر وغيرها فبنى منه المارستان ثم أصيب بعده فى الجبل مال عظيم فبنى منه الجامع ووقف جميع ما بقى من المال فى الصدقات وكانت صدقاته معروفة لاتحصى كثرة ولما انصرف من الصحراء وحمل المال أحضر ابن دسومة وأراه المال وقال له بئس الصاحب والمستشار أنت هذا أول بركة مشورة الميت فى النوم ولولا أنى أمنتك لضربت عنقك وتغير عليه وسقط محله عنده ورفع اليه بعد ذلك انه قد أجحف بالناس وألزمهم أشياء ضجوا منها فقبض عليه وأخذ ماله وحبسه فمات فى حبسه وكان ابن دسومة واسع الحيلة بخيل الكف زاهدا فى شكر الشاكرين لايهش الى شئ من أعمال البر وكان أحمد بن طولون من أهل القرآن اذا جرت منه اساءة استغفر وتضرع وقال ابن عبد الظاهر سمعت غير واحد يقول انه لما فرغ أحمد ابن طولون من بناء هذا الجامع أمر الناس بسماع ما يقوله الناس فيه من العيوب فقال رجل محرابه صغير وقال آخر ما فيه عمود وقال آخر ليست له ميضأة فجمع الناس وقال أما المحراب فانى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خطه لى فاصبحت فرأيت النمل قد أطاف بالمكان الذى خطه لى وأما العمد فانى بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكنز وما كنت لاشوبه بغيره

وهـذه العمد اما أن تكون من مسجد أو كنيسة فنزهتـه عنها وأما الميضأة فانى نظرت فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها وها أنا أبنيها خلفه ثم أمر ببنائها وقيل انه لما فرغ من بنائه رأى فى منامه كأن نارا نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله فلما أصبح قص رؤياه فقيل له أبشر بقبول الجامع لان النار كانت فى الزمان الماضى اذا قبل الله قربانا نزلت نار من السماء أخذته ودليله قصة قابيل وهابيل قال ورأيت من يقول انه عمل به منطقة دائرة بجميعه من عنبر ولم أر مصنفا ذكره الا أنه مستفاض من الافواه والنقلة وسمعت من يقول انه عمر ما حوله حتى كان خلفه مسطبة ذراع فى ذراع أجرتها فى كل يوم اثنا عشر درهما فى بكرة النهار لشخص يبيع الغزل ويشتريه والظهر لخباز والعصر لشيخ يبيع الحمص والفول وقيل عن أحمد بن طولون انه كان لا يعبث بشئ قط فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته فطلب المعمار على الجامع وقال تبنى المنارة التى للتأذين هكذا فبنيت على تلك الصورة والعامة يقولون ان العشارى الذى على المنارة المذكورة يدور مع الشمس وليس صحيحا وانما يدور مع دوران الرياح وكان الملك الكامل قد اعتنى بوقودها ليلة النصف من شعبان ثم أبطلها وقال المسبحى ان الحاكم أنزل الى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفا وفى سنة ست وسبعين وثلثمائة فى ليلة الخميس لعشر خلون من جمادى الاولى احترقت الفوارة التى كانت بجامع ابن طولون فلم يبق منها شئ وكانت فى وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها وهى مذهبة على عشر عمد رخام وستة عشر عمودا رخاما فى جوانبها مفروشة كلها بالرخام وتحت القبة قصعة رخام فسحتها أربعة أذرع فى وسطها فوارة تفور بالماء وفى وسطها قبة مزوقة يؤذن فيها وفى أخرى على سلمها وفى السطح علامات الزوال والسطح بدرابزين ساج فاحترق جميع هـذا فى ساعة واحدة وفى المحرم سنة خمس وثمانين وثلثمائة أمر العزيز بالله ابن المعز ببناء فوارة عوضا عن التى احترقت فعمل ذلك على يد راشد الحنفى وتولى عمارتها ابن الرومية وابن البناء وماتت أم العزيز فى سلخ ذى القعدة من السنة والله أعلم.

(تجديد الجامع) وكان من خبر جامع ابن طولون أنه لما كان غلاء مصر فى زمان المستنصر وخربت القطائع والعسكر عدم الساكن هنالك وصار ما حول الجامع خرابا وتوالت الايام على ذلك وتشعث الجامع وخرب أكثره وصار أخيرا تنزل فيـه المغاربة بأباعرها ومتاعها عنـد ما تمر بمصر أيام الحج فهيأ الله جل جلاله لعمارة هذا الجامع أن كان بين الملك الاشرف خليل بن قلاوون وبين الامير بيـدر أمور موحشـة تزايدت ونأ كدت الى أن جمع بيـدر من يثق به وقتـل الاشرف بناحية تروجة فى سـنة ثلاث وتسعين وستمائة وكان ممن وافق الامير بيدرا على قتل الاشرف

الامير حسام الدين لاجين المنصورى والامير قرانسقر فلما قتل بيدر فى محاربة مماليك الاشرف له فر لاجين وقرانسقر من المعركة فاختفى لاجين بالجامع الطولونى وقرانسقر فى داره بالقاهرة وصار لاجين يتردد بمفرده من غير أحد معه فى الجامع وهو حينئذ خراب لا ساكن فيه وأعطى الله عهدا ان سلمه الله من هذه المحنة ومكنه من الارض أن يجدد عمارة هذا الجامع ويجعل له ما يقوم به ثم انه خرج منه فى خفية الى القرافة فأقام بها مدة وأرسل قرانسقر فتحيل فى لحاقه به وعملا أعمالا الى ان اجتمعا بالامير زين الدين كتبغا المنصورى وهو اذ ذاك نائب السلطنة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون والقائم بأمور الدولة كلها فأحضرهما الى مجلس السلطان بقلعة الجبل بعد أن أتقن أمرهما مع الامراء ومماليك السلطان فخلع عليهما وصار كل منهما الى داره وهو آمن فلم تطل أيام الملك الناصر فى هذه الولاية حتى خلعه الامير كتبغا وجلس على تخت الملك وتلقب بالملك العادل فجعل لاجين نائب السلطنة بديار مصر وجرت أمور اقتضت قيام لاجين على كتبغا وهم بطريق الشام ففر كتبغا الى دمشق واستولى لاجين على دست المملكة وسار الى مصر وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل وتلقب بالملك المنصور فى المحرم من سنة ست وتسعين وستمائة فأقام قرانسقر فى نيابة السلطنة بديار مصر وأخرج الناصر محمد بن قلاوون من قلعة الجبل الى كرك الشوبك فجعله فى قلعتها وأعانه أهل الشام على كتبغا حتى قبض عليه وجعله نائب حماه فأقام بها مدة سنين بعد سلطنة مصر والشام وخلع على الامير علم الدين سنجر الدواداری وأقامه فى نيابة دار العدل وجعل اليه شراء الاوقاف على الجامع الطولونى وصرف اليه كل ما يحتاج اليه فى العمارة وأكد عليه فى أن لا يسخر فيه فاعلا ولا صانعا وأن لا يقيم مستحثا للصناع ولا يشترى لعمارته شيأ مما يحتاج اليه من سائر الاصناف الا بالقيمة التامة وأن يكون ما ينفق على ذلك من ماله وأشهد عليه بوكالته فابتاع منية أندونة من أراضى الجيزة وعرفت هذه القرية بأندونة كاتب بمصر كان نصرانيا فى زمن أحمد بن طولون وممن نكبه وأخذ منه خمسين ألف دينار واشترى أيضا ساحة بجوار جامع أحمد بن طولون مما كان فى القديم عامرا ثم خرب وحاكرها وعمر الجامع وأزال كل ما كان فيه من تخريب وبلطه وبيضه ورتب فيه دروسا لالقاء الفقه على المذاهب الاربعة التى عمل أهل مصر عليها الآن ودروسا يلقى فيها تفسير القرآن الكريم ودرسا للحديث النبى صلى الله عليه وسلم ودرسا للطب وقرر للخطيب معلوما وجعل له اماما راتبا ومؤذنين وفراشين وقومة وعمل بجواره مكتبا لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل وغير ذلك من أنواع القربات ووجوه البر فبلغت النفقة على عمارة الجامع وثمن مستغلاته عشرين ألف دينار فلما شاء الله سبحانه أن يهلك لاجين زين له سوء عمله عزل الامير قرانسقر من نيابة السلطنة فعزله وولى مملوكه منكوتمر

وكان عسوفا عجولا حادا ولاجين مع ذلك يركن اليه ويعوّل في جميع أموره عليه ولا يخالف قوله ولا ينقض فعله فشرع منكوتمر في تأخير أمراء الدولة من الصالحية والمنصورية وأعجل اظهار التهجم لهم والاعلان بما يريده من القبض عليهم واقامة أمراء غيرهم فتوحشت القلوب منه وتمالأت على بغضه ومشى القوم بعضهم الى بعض وكاتبوا الى اخوانهم من أهل البلاد الشامية حتى تم لهم ما يريدون فواعد جماعة منهم اخوانهم على قتل السلطان لاجين ونائبه منكوتمر فلما وافى الأذان صلى السلطان العشاء الآخرة من ليلة الجمعة العاشر من شهر ربيع الاول سنة ثمان وتسعين وستمائة واذا بالامير كرجي وكان ممن هو قائم بين يديه تقدم ليصلح الشمعة فضربه بسيف قد أخفاه معه أطار به زنده وانقض عليه البقية ممن واعدوهم بالسيوف والخناجر فقطعوه قطعا وهو يقول الله الله وخرجوا من فورهم الى باب القلعة من قلعة الجبل فاذا بالامير طغج قد جلس في انتظارهم ومعه عدة من الامراء وكانوا اذ ذاك يبيتون بالقلعة دائما فامروا باحضار منكوتمر من دار النيابة بالقلعة وقتلوه بعد مضي نصف ساعة من قتل استاذه الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري رحمه الله فلقد كان مشكور السيرة وفي سنة سبع وستين وسبعمائة جدد الامير يلبغا العمري الخاصكي درسا بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية وقرر لكل فقيه من الطلبة في الشهر أربعين درهما وأردب قمح فانتقل جماعة من الشافعية الى مذهب الحنفية وأول من ولي نظره بعد تجديده الامير علم الدين سنجر الجاولي وهو اذ ذاك دوادار السلطان الملك المنصور لاجين ثم ولي نظره قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ثم من بعده الامير مكين في أيام الناصر محمد بن قلاوون فجدد في أوقافه طاحونا وفرنا وحوانيت فلما مات وليه قاضي القضاة عز الدين بن جماعة ثم ولاه الناصر للقاضي كريم الدين الكبير فجدد فيه مأذنتين فلما نكبه السلطان عاد نظره الى قاضي القضاة الشافعي ومابرح الى أيام الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فولاه للامير صرغتمش ونوفر في مدة نظره من مال الوقف مائة ألف درهم فضة وقبض عليه وهي حاصلة فباشره قاضي القضاة الى أيام الاشرف شعبان بن حسين ففوض نظره الى الامير الجاي اليوسفي الى أن غرق فتحدث فيه قاضي القضاة الشافعي الى أن فوض السلطان الملك الظاهر برقوق نظره الى الامير قطلوبغا الصفوي في العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وكان الامير منطاش مدة تحكمه في الدولة فوضه الى المذكور في أواخر شوال سنة احدى وتسعين وسبعمائة ثم عاد نظره الى القضاة بعد الصفوي وهو بايديهم الى اليوم وفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة جدد الرواق البحري الملاصق للأذنة الحاج عبيد بن محمد بن عبد الهادي الهويدي البازدار مقدم الدولة وجدد ميضأة بجانب الميضأة القديمة وكان عبيد هذا بازدارا ثم ترقى حتى صار مقدم الدولة في شهر ربيع الاول سنة

اثنتين وتسعين وسبعمائة ثم ترك زى المقدمين وتزيا بزى الامراء وحاز نعمة جليلة وسعادة طائلة حتى مات يوم السبت رابع عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة المقريزى

(ذكر ملوك الروم المتنصرة وهم ملوك القسطنطينيه ولمع من أخبارهم)

(ملك قسطنطين) بعد أن أهلك فليطاليس بروميه وهو يعبد الاوثان وكان أول ملك انتقل من ملوك الروم عن روميه الى بوزنطيا وهى مدينة القسطنطينيه فبناها وسماها باسمه الى وقتنا هذا وكان له فى بنائها خبر طريف مع بعض ملوك برجان لخوف داخله من بعض ملوك ساسان وكان خروجه من روميه ودخوله فى دين النصرانية لسنة خلت من ملكه ولتسع سنين من ملكه خرجت أمه هلانى الى أرض الشام فبنت الكنائس وسارت الى بيت المقدس وطلبت الخشبة التى صلب عليها المسيح عندهم فلما صارت اليها حلتها بالذهب والفضة واتخذت لوجودها عيدا وهو عيد الصليب وهو لاربع عشرة تخلو من أيلول وفيه تفتح الترع والخلجان ببلاد مصر على حسب ما نورده عند ذكرنا لاخبار مصر من هذا الكتاب وهى التى بنت كنيسة حمص على أربعة أركان وذلك من عجائب بنيان العالم واستخرجت الكنوز والدفائن بمصر والشام وصرفت ذلك الى بناء الكنائس وتشييد دين النصرانية وكل كنيسة بالشام ومصر وبلاد الروم فانها بنتها هذه الملكه هلانى أم قسطنطين وقد جعل اسمها مع الصليب فى كل كنيسة لها وليست الروم فى أحرفهم هاء وأحرف هلانى خمسة أحرف فالاول إمالة وهو بحساب الجمل خمسة والثانى وهو اللام ثلاثون والثالث إمالة أيضا وهى خمسة والرابع النون وهى خمسون والخامس ياء وهو فى حساب الجمل عشرة فذلك مائة اختصارا على ما ذكرنا هذه هى صورة الحروف التى هى مائة بالروميه ولتسع عشرة سنة خلت من ملك قسطنطين بن هلانى اجتمع ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا بمدينة نيقيه بارض الروم فاقاموا دين النصرانيه وهذا الاجتماع أول الاجتماعات الستة الروميه السندوسات واحدها سندوس فالاول بنيقيه على ما ذكرنا من العدد وكان الاجتماع فيه على اريوس وهذا اتفاق من سائر دين النصرانيه من الملكية والمشارقة وهم العباد الذين تسميهم الملكية وعامة الناس النسطورية واتفاق من اليعاقبة على هذا السندوس أيضا والسندوس الثانى بالقسطنطينيه على مقدنوس وعدة المجتمعين فيه من الاساقفة مائة وخمسون رجلا والسندوس الثالث بافسوس وعددهم مائتا رجل والسندوس الرابع مائة وستة وأربعون رجلا والسندوس الخامس بالقسطنطينيه وعددهم مائة وتسعة وثمانون رجلا وسنذكر بعد هذا الموضع فى ترتيب ملوك الروم هذه السندوسات وغلبة دين النصرانية وزوال عبادة التماثيل والصور وكان السبب فى دخول قسطنطين بن هلانى

فى دين النصرانيه والرغبة فيه أن قسطنطين خرج فى بعض حروب برجان وغيرهم من الامم وكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة ثم كانت عليه فى بعض الايام فقتل من أصحابه خلق كثير فخاف البوار فرأى فى النوم كأن رماحا نزلت من السماء فيها عذاب وأعلام على هذه الرماح رؤسها صلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس وأنواع الجواهر والخشب وقيل له خذ هذه الرماح وقاتل بها عدوك تنصر فجعل يحارب بها فى النوم فرأى عدوه منهزما وقد نصر عليه وولاه الدبر فاستيقظ من رقاده ودعا بالرماح فركب عليها ماذكرناه ودفعها فى عسكره وزحف الى عدوه فولوا وأخذهم السيف فرجع الى مدينة نيقيه وسأل أهل الخبرة عن تلك الصلبان وهل يعرفون فى ذلك شيأ من الآراء والنحل فقيل له ان بيت المقدس من أرض الشام مجمع لهذا المذهب وأخبر بما فعل من قبله من الملوك من قبل النصرانية فبعث الى الشام والى بيت المقدس فحشد له ثلثمائة وثمانية عشر أسقفا فاتوه وهو بنيقيه فقص عليهم أمره فشرعوا له دين النصرانية فهذا هو السندوس الاول وهو الاجتماع على ماذكرنا وقد قيل ان أم قسطنطين هلانى تنصرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا وكان ملك قسطنطين الى أن هلك احدى وثلاثين سنة وفى وجه آخر من التاريخ انه ملك خمسا وعشرين وقد أتينا على أخباره وحروبه وخروجه مرتادا لموضع القسطنطينية ووروده الى هذا الخليج الآخذ من بحر مانطش ونيطش فى كتابنا أخبار الزمان وفى الكتاب الاوسط وأن خليج القسطنطينيه يأخذ من هذا البحر ويجرى الماء فيه جريا ويصب الى بحر الشام ومسافة هذا الخليج ثلثمائة وخمسون ميلا وقيل أقل من ذلك وعرضه فى الموضع الذى من بحر مانطش نحو ثلاثمائة وخمسين ميلا وهناك عمائر ومدينة للروم تدعى سباه تمنع ما يرد فى هذا البحر من مراكب الروم وغيرها ثم يضيق هذا الخليج عند القسطنطينية فيصير عرضه وهو موضع العبور من الجانب الشرقى الى الموضع الغربى الذى فيه القسطنطينية نحوا من أربعة أميال وعليه العمائر وينتهى فى ضيقه الى الموضع المعروف بالانداس وهناك جبال وعين ماء كثير ماؤها موصوف تعرف بعين مسلمة بن عبد الملك وكان نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية وأتته مراكب المسلمين فى فم هذا الخليج مما يلى بحر الشام ومنتهى مصبه مضيق وهناك برج يمنع من فيه ما يرد من مراكب المسلمين فى الوقت الذى للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم وأما الآن فراكب الروم تغزو بلاد الاسلام ولله الامر من قبل ومن بعد وأخبرنى أبو عمير عدى بن حاتم بن عبد الباقى الازدى وهو شيخ الثغور الشامية قديما الى وقتنا هذا وهو من أهل التحصيل أنه لما عبر الى القسطنطينيه فى هذا الخليج حين دخل لاقامة الهدنة والفداء كان يتبين جرية هذا الماء وبرده مما يلى بحر مانطش ونيطش وربما تبين فى الماء الجرى مما يلى بحر الشام فيجده فاترا وهذا يدل على اتصال ماء البحرين وانه قد دخل

فی بحر الروم الی هذا الخلیج أیضا وسمعت غیر واحد من أهل التحصیل ممن غزا غزاة سلوقیة مع غلام
ازارقه وقد کانوا دخلوا الی خلیج القسطنطینیه وساروا فیه مسافة بعیدة انهم وجدوا الماء
فی هذا الخلیج یقل فی أوقات من اللیل والنهار ویکثر کالجذر والمد وعلیه العمائر والمدن فلما حسوا
بنقصان الماء بادروا بالخروج منه الی البحر الرومی وان فی مدخله من بحر الروم مدینة تقرب
من فم الخلیج والخلیج یطیف بالقسطنطینیه من جهتین مما یلی الشرق ومما یلی الشمال وفی الجانب
الجنوبی البر وفیه باب الذهب مطلی علی صفائح النحاس وأعلی موضع من سورها نحو من ثلاثین
ذراعا وقد ذکر أنه أقل من ذلک وأن أقصر موضع فیه عشرة أذرع ولها أبواب کثیرة مما یلی البر
والبحر وحولها کنائس کثیرة وقد قیل ان لها ثلاثین بابا ومنهم من زعم أن علیها مائة باب صغارا وکبارا
وهو بلد عفن مختلف المهاب مرطب للابدان لکونه بین ما وصفنا لهذه البحار (قال المسعودی)
ولم تزل الحکمة باقیة عالیة زمن الیونان وبرهة من مملکة الروم تعظم العلماء وتشرف الحکماء
وکانت لهم الآراء فی الطبیعیات والجسم والعقل والنفس والتعالیم الاربعة أعنی الارثماتیقی
وهو علم الاعداد والجومطریقی وهو علم المساحة والهندسه والاسترنومیا وهو علم النجوم
والموسیقی وهو علم تألیف اللحون ولم تزل العلوم قائمة السوق مشرفة الاقطار قویة المعالم شدیدة
المقادم سامیة البناء الی أن تظاهرت دیانة النصرانیة فی الروم فعفوا معالم الحکمة وأزالوا رسمها
وعفوا سبلها وطمسوا ما کانت الیونانیة أبانته وغیروا ما کانت القدماء منهم أوضحته وکان
من شریف ما ترکته المعرفة بعلم الموسیقی لانه غذاء النفس ومطرب لها وملهیها تبتهج عند سماعه
وتحن الی تألیف أوضاعه وقد نطقت الحکمة بشرفه ونبهت علی نفاسة محله فقال الاسکندر
من فهم الالحان استغنی عن سائر اللذات وقالت الفلاسفة ان النغم فضیلة شریفة کانت تعذرت
عن المنطق لیس فی قدرته فاخرجتها النفس ألحانا فلما أظهرتها سرت بها وعشقتها وطربت الیها
ورتبت الحکماء الاوتار الاربعة بازاء الطبائع الاربعة فجعلوا الزیر بازاء المرة الصفراء والمثنی بازاء الدم
والمثلث بازاء البلغم والبم بازاء السوداء وقد أشبعنا القول فی الموسیقی وأصحاب الملاهی والایقاع
وأصناف الرقص والطرب والنغم ونسب النغم وما استعملته کل أمة من الامم من أصناف الملاهی
من الیونانیین والروم والسریانیین والقبط والسند والهند والفرس وغیرهم من الامم وذکرنا
مناسبة النغم للاوتار وممازجة النفس والالحان وکیفیة تولد الطرب والسرور وذهاب الغم
وزوال الحزن وعلل ذلک الطبیعیة والنفسیة وما أحاط بذلک من جمیع الوجوه فی کتابنا المترجم
بکتاب الزلف وأتینا علی ظریف أخبارهم وأنواع لهوهم وتلاهیهم فی کتاب أخبار الزمان
وفی الکتاب الاوسط فاغنی ذلک عن اعادته ههنا اذ هذا الکتاب فی غایة الایجاز وان سنح لنا سانح

ذكرنا للعامة من هذه الجوامع فيما يرد من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى وان تعذر ذلك فقد قدمنا
التنبيه على ما سلف من كتبنا على الشرح والايضاح (ثم ملك الروم) بعد قسطنطين بن هلانى
الملك المتنصر قسطنطين بن قسطنطين وهو ابن الملك الماضى وكان ملكه أربعا وعشرين سنة
وبنى كنائس كثيرة وشيد دين النصرانية (ثم تملك) ابن أخى قسطنطين الاول بوليانس فرفض دين
النصرانية ورجع الى عبادة الاوثان وهو بوليانس المعروف بالحنفى وأهل دين النصرانية لبغضهم
فيه لرجوعه عن النصرانية وتغييره لرسومها يسمونه بليانس البرباط وغزا العراق فى ملك سابور
ابن أزدشير بن بابك فأتاه سهم غرب فذبحه وقد كان سار الى العراق فى جنود لا تحصى ولم يكن لسابور
حيلة لدفعه ولقائه لمفاجأته اياه فانصرف سابور عن اللقاء الى الحيلة فى دفعه وكان من أمرهما ما وصفنا
وكان ملكه الى أن هلك سنة وقيل أكثر من ذلك وهو الملك الثالث بعد ظهور دين النصرانية
ولما هلك بليانس جزع من كان معه من الملوك والبطارقة والجنود ففزعوا الى بطريق كان معظما
فيهم يقال له ميرنياس وقيل انه كاتب الماضى فابى عليهم أن يتملك الا أن يرجعوا الى دين النصرانية
فأجابوه الى ذلك وضايق سابور القوم وأحاط بعساكرهم فكان لمريناس مع سابور مراسلات
ومهادنة واجتماع ومحادثة ومعاشرة ثم افترقا وانصرف بجيوش النصرانية موادعا لسابور
وأخلف عليه ما أتلف من أرضه بأموال حملها اليه وهدايا من لطائف الروم وشيد هياكل
فى دين النصرانية وردها الى ما كانت عليه ومنع من الاصنام والتماثيل وقتل على عبادتها
وكان ملكه سنة (ثم ملك بعده) اوانيس وهو على دين النصرانية ثم رجع عنها وهلك فى بعض حروبه
وكان ملكه الى أن هلك أربع عشرة سنة وقيل ان فى أيامه استيقظ أصحاب الكهف من رقدتهم
على حسب ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم بعثوا أحدهم بورقهم الى المدينة وهذا الموضع من أرض
الروم فى الشمال وللناس ممن عنى بعلم الفلك وازورار الشمس عن كهفهم فى حال طلوعها وغروبها
لموضعهم من الشمال كلام كثير وقد أخبر الله تعالى فى كتابه قال وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن
كهفهم الآية وكان من أهل مدينة افسس من أرض الروم (ثم ملك بعد أوانيس) عرامطنامس
خمس عشرة سنة ولسنة من ملكه كان اجتماع النصرانية وهو أحد الاجتماعات باسم القوم فى روح
القدس عندهم وأحرقوا مقدونيس بطريق القسطنطينية وهو السندوس الثانى (ثم ملك بعده)
بدرسيس الاكبر وتفسير هذا الاسم عندهم عطية الله وقام بدين النصرانية وعظم منها وبنى كنائس
ولم يكن من أهل بيت الملك ولا من الروم وانما كان أصله من الاشبان وهم بعض الملوك السالفة
وكان ممن ملك الشام ومصر والاندلس وقد تنازع الناس فيهم فذكر الواقدى فى كتاب فتوح الامصار
أن بدأهم من أهل اصبهان وانهم ناقلة من هنالك وهذا يوجب أنهم من قبل ملوك فارس الاولى

وذكر عبد الله بن خرداذبه نحو ذلك وساعدهما على ذلك جماعة من أهل السير والاخبار والاشهر من أمرهم أنهم ولد يافث بن نوح وهم من ملوك الاندلس من الازارقة واحدهم ازريق وقد تنوزع فى دياناتهم فمنهم من رأى أنهم على دين المجوس ومنهم من رأى أنهم كانوا على مذهب الصابئة وغيرهم من عبدة الاصنام وقد قلنا ان الاشهر من أنسابهم أنهم ولد يافث بن نوح فكان مدة ملك بدرسيس الى أن هلك عشر سنين (ثم ملك بعده) أوباديس أربع عشرة سنة وكان على دين النصرانيه (ثم ملك بعده) ابنه بدرسيس الاصغر وذلك بمدينة افسس وجمع مائتى أسقف وهذا الاجتماع الثالث الذى قدمنا ذكره آنفا ولعن فيه نسطورس البطرك وقد ذكرنا فى كتابنا أخبار الزمان الحنة التى وقعت على نسطورس بطرك القسطنطينيه صاحب الكرسى بالاسكندريه وما كان من نسطورس ونفيه ليوحنا المعروف بالراهب وما كان فى بدرياز وجة الملك الى أن نفى نسطورس من القسطنطينيه الى انطاكيه ثم منها الى صعيد مصر والمشارقة من النصارى اضيفوا الى نسطورس لانهم اتبعوه وقالوا بقوله وانما وسمتهم الملكية بهذا الاسم لتعيرهم وتعيبهم بذلك وقد كانت المشارقة بالحيرة وغيرها من المشرق تدعى بالعباد وسائر نصارى المشرق يأبون هذه الاضافة الى نسطورس ويكرهون أن يقال لهم نسطورية وقد أيد برصوما مطران نصيبين رأى المشارقة فى الثالوث وهو الكلام فى الاقانيم الثلاثة والجوهر الواحد وكيفية اتحاد اللاهوت القديم بالناسوت المحدث وكان ملك بدرسيس الى أن هلك اثنتين وأربعين سنة (ثم ملك بعده) مرقيانوس (ثم ملك الروم) بلخاريا زوجة مرقيانوس وكانت ملكة معه وفى أيامها كان خبر اليعاقبة من النصارى ووقوع الخلاف بينهم فى الثالوث وكان ملكها سبع سنين وأكثر اليعاقبة بالعراق وبلاد تكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها الا اليسير فانهم ملكية والنوبة والارمن يعاقبة ومطران اليعاقبة بتكريت بين الموصل وبغداد وقد كان لهم بالقرب من رأس العين واحد فات وصاحبهم اليوم بناحية حلب ببلاد قنسرين والعواصم وكرسى اليعاقبة رسمه أن يكون بمدينة انطاكية وكذلك لهم كرسى بمصر ولا أعلم لهم غير هذين الكرسيين وهما مصر وانطاكيه (ثم ملك بعدها) اليون الاصغر ابن اليون وكان ملكه ست عشرة سنة وكان فى أيامه احرم معسره اليعقوبى بطرك الاسكندرية واجتمع له من الاساقفة ستمائة وستون أسقفا وفى تاريخ الروم أن عدة المجتمعين ستمائة وستون رجلا وذلك بخلقدونية وهذا الاجتماع هو السندوس الرابع عند الملكية واليعاقبة لا تعتد بهذا السندوس ولهم خبر ظريف فى قصة سوارى البطرك وما كان من أمره وخبر تلميذه يعقوب البراذعى ودعوته الى مذهب سوارى واليعاقبة أضيفت الى مذهب يعقوب البراذعى هذا وبه عرفت وكان من أهل انطاكية يعمل البراذع (ثم ملك بعده) اليون الاصغر ابن ليون سنة على دين الملكية (ثم ملك بعده) بيرو وهو من بلاد الارمنيان وكان يذهب الى رأى اليعقوبية وكان ملكه

سبع عشرة سنة وكان له حروب مع خوارج خرجوا عليه من دار الملك فظفر بهم (ثم ملك بعده) نسطاس وكان يذهب الى مذهب اليعقوبية وبنى مدينة عمورية وأصاب كنوزا ودفائن عظيمة وكان ملكه الى ان هلك تسعا وعشرين سنة (ثم ملك بعده) يوسطيانوس تسع سنين (ثم ملك بعده) سطايانس تسعا وثلاثين سنة وقيل أربعين وبنى كنائس كثيرة وشيد دين النصرانية وأظهر مذاهب الملكية وبنى كنيسة الرها وهى احدى عجائب العالم والهياكل المذكورة وقد كان فى هذه الكنيسة منديل يعظمه النصارى وذلك ان يسوع الناصرى حين أخرج من ماء المعمودية تنشف به فلم يزل هذا المنديل يتداول الى أن قرر بكنيسة الرها فلما اشتد أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرها فى هذه السنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة أعطى هذا المنديل للروم فجنحوا الى الهدنة وكان للروم عند تسلمهم هذا المنديل فرح عظيم (ثم ملك بعده) ابن أخيه فرسطيس ثلاث عشرة سنة على رأى الملكية (ثم ملك بعده) طباريس أربع سنين وأظهر فى ملكه أنواعا من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك (ثم ملك بعده) موريقس عشرين سنة ونصر كسرى ابرويز على بهرام جور فقتل غيلة وبعث ابرويز غضبا له بجيوش الى الروم وكانت لهم حروب على حسب ما قدمنا (ثم ملك بعده) قرماس ثمان سنين الى أن قتل أيضا (ثم ملك هرقل) وكان بطريقا فى بعض الجزائر قبل ذلك فعمر بيت المقدس وذلك بعد انكشاف الفرس عن الشام وبنى الكنائس ولسبع سنين من ملكه كانت هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة شرفها الله تعالى

(ذكر ملوك الروم بعد ظهور الاسلام)

(قال المسعودى) وجدت فى كتب التواريخ تنازعا فى مولد النبى صلى الله عليه وسلم وفى عصر من كان من ملوك الروم فنهم من ذهب الى ما قدمنا من مولده وهجرته ومنهم من رأى أن مولده عليه الصلاة والسلام كان فى ملك نوسطورس الاول وكان ملكه تسعا وعشرين سنة (ثم ملك نوسطورس) وكان ملكه عشرين سنة (ثم ملك بعده) هرقل بن سنطيوس وهو الذى فى كتب الزيجات فى النجوم وعليه يعمل أهل الحساب وفى تواريخ ملوك الروم ممن سلف وخلف أن ملك الروم كان فى وقت ظهور الاسلام وأيام أبى بكر وعمر هرقل وليس هذا الترتيب فيما عداها من كتب التواريخ وأصحاب الاخبار والسير الا فى اليسير منها وفى تواريخ أصحاب السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر وملك الروم قيصر بن مورق (ثم ملك بعده) قيصر بن قيصر وذلك فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه (ثم ملك) على الروم هرقل بن قيصر وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو الذى حاربه أمراء الاسلام الذين فتحوا الشام مثل أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبى سفيان

وغيرهم من أمراء الاسلام حين أخرجوه من الشام وكان الملك على الروم مورق بن هرقل فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه (ثم ملك) مورق بن مورق فى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه وأيام معاوية بن أبى سفيان (ثم ملك بعده) قلفط بن مورق بقية أيام معاوية وكانت بينه وبين معاوية مراسلات ومهادنات وكان المختلف بينهما نياق الروم غلام كان لمعاوية وقد كان معاوية هادن أباه مورق بن مورق حين سار الى حرب على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان بشره بالملك وأعلمه أن المسلمين تجتمع كلمتهم على قتل صاحبهم يعنى عثمان ثم يؤول الملك الى معاوية وقد كان معاوية يومئذ أميرا على الشام لعثمان فى خبر طويل قد أتينا على ذكره فى الكتاب الاوسط وأن ذلك من علم الملاحم تتوارثه ملوك الروم عن أسلافهم وكان ملك قلفط بن مورق فى الآخر من أيام معاوية وأيام يزيد ابن معاوية وأيام معاوية بن يزيد وأيام مروان بن الحكم وصدرا من أيام عبد الملك بن مروان (ثم ملك) لاون بن قلفط فى أيام عبد الملك بن مروان وكان الملك بعده جيرون بن لاون فى أيام الوليد ابن عبد الملك وأيام سليمان بن عبد الملك وخلافة عمر بن عبد العزيز ثم اضطرب ملك الروم لما كان من أمر مسلمة بن عبد الملك وغزو المسلمين اياهم فى البر والبحر فملكوا عليهم رجلا من غير أهل بيت الملك من أهل مرعش يقال له جرجيس وكان ملكه تسع عشرة سنة ولم يزل ملك الروم مضطربا الى أن ملكهم قسطنطين بن اليون وذلك فى خلافة أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور أخيه (ثم ملك بعده) اليون بن قسطنطين وذلك فى أيام المهدى والهادى (ثم ملك بعده) قسطنطين بن اليون وكانت أمه ارين مالكة معه مشاركة له فى الملك لصغر سنه فى أيام هارون الرشيد فسملت قسطنطين ابن اليون وسملت عينا أمه بعد ذلك لاخبار يطول ذكرها (ثم ملك) على الروم يعفور بن اسدراق وكانت بينه وبين الرشيد مراسلات وغزاه الرشيد فاعطى القود من نفسه بعد بغى كان منه فى بعض مراسلاته فانصرف الرشيد عنه ثم غدر ونقض ما كان أعطاه من الانقياد وكتم عن الرشيد أمره لعارض علة كان وجدها بالرقة

(ذكر مصر وأخبارها ونيلها وعجائبها واخبار ملوكها وغير ذلك مما اتصل بهذا الباب)

(قال المسعودى) ذكر الله جل ثناؤه مصر فى مواضع من كتابه فقال عز وجل وقال الذى اشتراه من مصر وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين وقال تعالى وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا وقال اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم وقوله تعالى وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ووصف بعض الحكماء مصر فقال ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة حمراء فاما اللؤلؤة البيضاء فان مصر فى شهر أبيب ومسرى وتوت يعلوها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها

على روابى وتلال مثل الكواكب قد أحاطت المياه بها من كل وجه فلا سبيل لبعض البلاد الى بعض الا فى الزوارق وأما المسكة السوداء فان فى شهر بابه وهو تشرين الاول وهاتور وهو تشرين الثانى وكيهك وهو كانون الاول ينكشف الماء عنها وينضب عن أرضها فتصير أرضا سوداء وفيها تقع الزراعات وللارض روائح طيبة تشبه روائح المسك وأما الزمردة الخضراء فان فى شهر طوبه وهو كانون الثانى وأمشير وهو شباط وبرمهات وهو أذار تلمع ويكثر عشبها ونباتها فتصير كالزمردة الخضراء وأما السبيكة الحمراء فان فى شهر برمودة وهو نيسان وبشنش وهو أيار وبؤونه وهو حزيران يبيض الزرع فيه ويتورد العشب فهو كسبيكة الذهب منظرا ومنفعة وسنذكر هذه الشهور بالسريانية والعربية والفارسية ونسمى كل شهر بعد هذا الموضع من هذا الكتاب وان كنا قد أتينا على جميع ذلك فى الكتاب الاوسط ووصف آخر مصر فقال نيلها عجب وأرضها ذهب وخيرها جلب وملكها لمن سلب ومالها رغب وفى أهلها صخب وطاعتهم رهب وسلامهم شغب وحروبهم حرب وهى لمن غلب ونهرها النيل من سادات الانهار وأشراف البحار وقالت الهند زيادته ونقصانه بالسيول ونحن نعرف ذلك بتوالى الانواء وتوالى الامطار وركود السحاب وقالت الروم لم يزد قط ولم ينقص وانما زيادته ونقصانه من عيون كثرت واتصلت وقالت القبط زيادته ونقصانه من عيون فى شاطئه يراها من سافر ولحق باعاليه وقيل لم يزد قط وانما زيادته بريح الشمال اذا كثرت واتصلت به فتحبسه فيفيض على وجه الارض وقد ذكرنا التنازع فى النيل وزيادته ممن سلف وخلف على الشرح والايضاح وغيره من الانهار الكبار والبحار والبحيرات الصغار فى أخبار الزمان فى الفن الثانى فاغنى ذلك عن اعادتها فى هذا الكتاب ومصر من سادات القرى ورؤساء المدن قال الله تعالى حاكيا عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون وقال الله تعالى حاكيا عن يوسف عليه السلام اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم وليس فى أنهار الدنيا نهر يسمى بحرا غير نيل مصر لكبره واستبحاره وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا الخبر عن جبل القمر الذى بدأ النيل منه وما يظهر من تأثير القمر فيه عند زيادته ونقصانه من النور والظلام فى البدء والمحاق وقد روى عن زيد بن أسلم فى قوله تعالى فان لم يصبها وابل فطل قال هى مصر ان لم يصبها وابل زكت وان أصابها مطر ضعفت وقال بعض الشعراء يصف مصر ونيلها

مصر ومصر شأنها عجيب * ونيلها تجرى به الجنوب

وهى مصر واسمها كمعناها وعلى اسمها سميت الامصار ومنها اشتق هذا الاسم عند علماء المصريين وقد قال عمرو بن معدى كرب

ما النيل أصبح واحدا بمدوده * وجرت له ريح الصبا فجرى لها
عوّدت كندة عادة محمودة * فاصبر لحاهلها وروّح بالها

(قال المسعودى) ويبتدئ نيل مصر بالتنفس والزيادة بقية بؤونه وهو حزيران وأبيب وهو تموز ومسرى وهو آب فاذا كان الماء زائدا زاد شهر توت كله وهو ايلول الى انقضائه فاذا انتهت الزيادة الى ستة عشر ذراعا ففيه تمام الخراج وخصب الارض وريع للبلد عام وهو ضار للبهائم لعدم المرعى والكلا وأتم الزيادات كلها العامة النفع للبلد كله سبعة عشر ذراعا وفى ذلك كفايتها ورى جميع أرضها واذا زاد على السبعة عشر وبلغ الثمانية عشر ذراعا وغلقها استبحر من أرض مصر الربع وفى ذلك ضرر لبعض الضياع لما ذكرنا من وجه الاستبحار وغير ذلك وان كانت الزيادة ثمانية عشر ذراعا كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وباء بمصر وأكثر الزيادات ثمانية عشر ذراعا وقد كان النيل بلغ فى زيادته تسعة عشر ذراعا وذلك فى سنة تسع وتسعين فى خلافة عمر بن عبد العزيز ومساحة الذراع الى أن تبلغ اثنى عشر ذراعا ثمانية وعشرون أصبعا ومن اثنى عشر ذراعا الى ما فوق يصير الذراع أربعة وعشرين أصبعا وأقل ما يبقى فى قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع وفى نيل تلك السنة يكون الماء قليلا والاذرع التى يستسقى عليها بمصر هى ذراعان يسميان منكرا ونكيرا وهما الذراع الثالث عشر والذراع الرابع عشر فاذا انصرف الماء عن هذين الذراعين أعنى الثالث عشر والرابع عشر وزيادة نصف ذراع من الخامس عشر واستسقى الناس بمصر كان الضرر شاملا لكل البلدان الا أن يأذن الله عز وجل فى زيادة الماء واذا تم خمسة عشر ودخل فى ستة عشر ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس ولا يستسقى فيه وكان ذلك نقصا من خراج السلطان والترع التى بغيضة مصر أربع أمهات ترعة ذنب التمساح وترعة بلقينه وخليج سردوس وخليج ذات الساحل وتفتح هذه الترع اذا كان الماء زائدا فى عيد الصليب وهو لاربع عشرة تخلو من توت وهو ايلول وقد قدمنا خبر تسمية هذا اليوم بعيد الصليب فيما سلف من هذا الكتاب والنبيذ الشيرازى يتخذ بمصر من ماء طوبه وهو كانون الآخر بعد الغطاس وهو لعشر تمضى من طوبه وأصفى ما يكون النيل فى ذلك الوقت وأهل مصر يفتخرون بصفاء النيل فى هذا الوقت وفيه يختزن المياه أهل تنيس ودمياط وتونه وسائر قرى البحيرة ولليلة الغطاس شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها وهى ليلة أحد عشر تمضى من طوبه وستة من كانون الثانى ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة النيل والنيل يطيف بها وقد أمر فاسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو آلاف من الناس المسلمين والنصارى منهم فى الزوارق ومنهم فى الدور الدانية من النيل ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور ويحضرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة

والجواهر والملاهي والعزف والقصف وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا لا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ للداء (قال المسعودي) وأما المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل ونقصانه فاني سمعت جماعة من أهل الخبرة يخبرون أن يوسف النبي صلى الله عليه وسلم حين بنى الاهرام اتخذ مقياسا لمعرفة زيادة النيل ونقصانه وأن ذلك كان بمنف ولم يكن بنى الفسطاط يومئذ وأن دلوكه الملكة العجوز وضعت مقياسا آخر بالصعيد ببلاد اخميم فهذه المقاييس الموضوعة قبل مجيء الاسلام ثم ورد الاسلام وافتتحت مصر وكانوا يعرفون زيادة النيل بما ذكرنا ونقصانه بما وصفنا الى أن ولي عبد العزيز بن مروان فاتخذ مقياسا لجزيرة تدعى بجزيرة الصناعة وهي الجزيرة التي بين الفسطاط والجيزة والمعبر عليها من الفسطاط على الجسر ثم منها على جسر آخر الى الجزيرة وهو بين الجانب الغربي من الفسطاط والجانب الشرقي وهذا المقياس الذي اتخذه أسامة بن زيد التنوخي هو أكثرها استعمالا واتخذ ذلك في أيام سليمان ابن عبد الملك بن مروان وهو المقياس الذي يعمل عليه في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة بالفسطاط وقد كان من سلف يقيسون بالمقياس الذي بمنف ثم ترك استعماله وعمل على مقياس الجزيرة المعمول في أيام سليمان بن عبد الملك وفي هذه الجزيرة مقياس آخر لاحمد بن طولون والعمل عليه عند كثرة الماء وترادف الرياح واختلاف مهابها وكثرة الموج وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا عامرها وغامرها لما أحكموا من جسورها وبناء قناطرها وتنقية خلجانها وكان بمصر سبع خلجان فمنها خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج منف وخليج الفيوم وخليج سردوس وخليج المنهى وكانت مصر فيما ذكر أهل الخبرة أكثر البلاد جنانا وذلك أن جنانها كانت متصلة بحافتي النيل من أوله الى آخره من حد اصوان الى رشيد وكان الماء اذا دخل في زيادته الى تسعة أذرع دخل خليج المنهى وخليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا وكان الذي ولي حفر خليج سردوس لفرعون عدو الله هامان فلما ابتدأ في حفره أتاه أهل القرى يسألونه أن يجري الخليج الى تحت قراهم ويعطوه على ذلك ما أراد من المال وكان يعمل ذلك حتى اجتمعت له أموال عظيمة فحمل تلك الاموال الى فرعون فلما وضعها بين يديه سأله عنها فاخبره بما فعل فقال انه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده ويفيض عليهم معروفه ولا يرغب فيما في أيديهم ونحن أحق من فعل هذا بعبيده فاردد على أهل كل قرية ما أخذته منهم ففعل ذلك هامان وردّ لاهل كل قرية ما أخذ منهم فليس في الخلجان التي بارض مصر أكثر عطوفا وعراقيل من خليج سردوس وأما خليج الفيوم وخليج المنهى فان الذي حفرهما يوسف بن يعقوب صلى الله عليه وسلم وذلك أن الريان بن الوليد ملك مصر لما رأى رؤياه في البقر والسنابل وعبرها يوسف عليه السلام

استعمله على ما كان يلي من أرض مصر وقد أخبرنا الله بذلك عند اخباره عن نبيه يوسف بقوله اجعلني على خزائن الارض انى حفيظ عليم (قال المسعودى) وقد تنازع أهل الملة فى تصرف المؤمنين مع الفاسقين فنهم من رأى أن الملك كان مؤمنا ولولا ذلك ماوسع يوسف معاونة الكفار والتصرف فى أوامرهم ونواهيهم ومنهم من رأى أن ذلك جائز على ماوجبه أحوال الوقت والاصلح للحال وقد ذكرنا قول كل فريق من هؤلاء فى كتابنا المقالات فى أصول الديانات وأما أخبار الفيوم من صعيد مصر وخلجانها من المرتفع والمطاطى ومطاطى المطاطى وهذه عبارة أهل مصر يريدون بذلك المنخفض وكيفية فعل يوسف فيها وعمارته أرضها بعد كونها خربة ومصفاة لمياه الصعيد وهى جزيرة قد أحاط المياه حينئذ بأكثر أقطارها فقد أتينا على ذلك فى الكتاب الاوسط فاغنى عن اعادته فى هذا الكتاب وكذلك فى تسمية الفيوم فيوما وأن ذلك ألف يوم وما كان من يوسف مع الوزراء وحسدهم اياه وقد كانت مصر على مازعم أهل الخبرة والعناية باخبار شأن العالم يركب أرضها ماء النيل وينبسط على بلاد الصعيد الى أسفل الارض وموضع الفسطاط فى وقتنا هذا وقد كان بعد ذلك من موضع يعرف بالجنادل من اسوان الحبشة وقد قدمنا ذكر هذا الموضع فيما سلف من هذا الكتاب الى أن عرض لذلك موانع من انتقال الماء وجريانه وما ينقل من النوبة بتياره من موضع الى موضع فنبض من بعض المواضع من بلاد مصر على حسب ماوصفنا عن صاحب المنطق من عمران الارض وخرابها فيما سلف من هذا الكتاب فسكن الناس بلاد مصر ولم يزل الماء ينضب عن أرضها قليلا قليلا حتى امتلأت أرض مصر من المدن والعمائر وطرقوا الماء وحفروا له الخلجان وعقدوا فى وجهه المسناة الى أن خفى ذلك على ساكنيها لان طول الزمان أذهب معرفة أول سكناهم كيف كان ذلك ولم نتعرض فى هذا الكتاب لذكر العلة الموجبة لامتناع المطر بمصر ولا لكثير من أخبار الاسكندرية وكيفية بنائها والامم التى تداولتها والملوك التى سكنتها من العرب وغيرها لانا قد أتينا على ذلك فى الكتاب الاوسط وسنذكر بعد هذا الموضع جملا من أخبارها وجوامع من كيفية بنائها وما كان من أمر الاسكندر فيها (قال المسعودى) وقد كان أحمد بن طولون بمصر بلغه فى سنة نيف وستين ومائتين أن رجلا بأعالى بلاد مصر من أرض الصعيد له ثلاثون ومائة سنة من الانباط ممن يشار اليهم بالعلم من لدن حداثته والنظر والاشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل وأنه علامة بمصر وأرضها على برها وبحرها وأخبارها وأخبار ملوكها وأنه ممن سافر فى الارض وتوسط الممالك وشاهد الامم من أنواع البيضان والسودان وأنه ذو معرفة بهيآت الافلاك والنجوم وأحكامها فبعث أحمد بن طولون برجل من قواده فى أصحابه فحمله فى النيل اليه مكرما وكان قد انفرد عن الناس فى بنيان اتخذه وسكن فى أعلاه

وقد رأى الرابع عشر من ولده فلما مثل بحضرة احمد بن طولون نظر الى رجل دلائل الهرم فيه بينة وشواهد ما أتى عليه من الدهر ظاهرة والحواس سليمة والقضية قائمة والعقل صحيح يفهم عن مخاطبه ويحسن البيان والجواب عن نفسه فامكنه بعض مقاصيره ومهد له وحمل له لذيذ المآكل والمشارب فابى أن لا يتواطى على شئ وأن لا يتغذى الا بغذاء كان حمله معه من كعك وغيره وقال هذه بنية قوامها بما ترون من هذا الغذاء وهذا الملبس فان أنتم سمتموها النقلة عن هذه العادة وتناول ما أوردتموه عليها من المآكل والمشارب والملابس كان ذلك سبب انحلال هذه البنية وتفريق هذه الصورة فترك على ما كان عليه وما جرت به عادته وأحضر له احمد بن طولون من حضره من أهل الديار وصرف همته عليه وأخلى نفسه له في ليال وأيام كثيرة يسمع كلامه واراداته وجواباته فيما سئل عنه فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط فقال كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وثراوة وكانت جنانا ونخلا وكرما وشجرا ومزارع وكانت فيها مجار على ارتفاع من الارض وقرى على قرارها ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الارض ولا أحسن اتصالا من جنانها وكرومها ولم يكن بمصر كرة يقال انها تشبهها الا الفيوم وأخصب وأكثر فاكهة ورياحين من الاصناف الغريبة وكان الماء منحدرا اليها لا ينقطع عنها صيفا ولا شتاء يسقون منه جنانهم اذا شاؤا وكذلك زروعهم وسائره يصب الى البحر من سائر خلجانه ومن الموضع المعروف بالاشتوم وقد كان بين البحر وبين هذه الارض نحو مسيرة يوم وكان فيما بين العريش وجزيرة قبرس طريق مسلوكة الى قبرس تسلكها الدواب يبسا ولم يكن فيما بين العريش وجزيرة قبرس الا المخاضة وجزيرة قبرس اليوم بينها وبين العريش في البحر سير طويل وكذلك فيما بينها وبين أرض الروم وقد كان بين الاندلس في الموضع الذي يسمى الخضراء وهو قريب من فاس المغرب وطنجة قنطرة مبنية بالحجارة والطوب تمر عليها الابل والدواب من ساحل المغرب من بلاد الاندلس الى المغرب وماء البحر تحت تلك القنطرة منقطع خلجانات صغار تجرى تحت قناطرها وما عقد من الطاقات تحتها على صخور صم وقد عقد من كل جانب حجر الى حجر طاق وهو مبدأ بحر الروم الآخذ من الاوقيانوس وهو البحر المحيط الاكبر فلم يزل البحر يزيد ماؤه ويعلو أرضا فارضا في طول على ممر السنين يرى زيادته أهل كل زمان ويتبينه أهل كل عصر ويقفون عليه حتى علا الماء الطريق الذي كان بين العريش وبين قبرس وعلا القنطرة التي كانت بين الاندلس وبرطنجة وما وصفت فبين ظاهر عند أهل الاندلس وأهل فاس من بلاد المغرب من خبر هذه القنطرة وربما بدا الموضع لاهل المراكب تحت الماء فيقولون هذه القنطرة وكان طولها نحوا اثنى عشر ميلا وعرض واسع وسمو بين فلما مضت لديقلطيانوس من ملكه مائتان واحدى وخمسون سنة هجم الماء من البحر على بعض المواضع التي تسمى اليوم بحيرة

تنيس فاغرقه وصار يزيد فى كل عام حتى أغرقها باجمعها فما كان من القرى التى فى قرارها غرق وأما التى كانت على ارتفاع من الارض فبقيت منها تونة وسمود وغير ذلك مما هى باقية الى هذا الوقت وكان أهل القرى التى فى هذه البحيرة ينقلون موتاهم الى تنيس فيغيبونهم واحدا فوق واحد وهى الاكوام الثلاثة التى تسمى أبو الكوم وكان استحكام غرق هذه الارض باجمعها وقد مضى لديقلطيانوس الملك مائتان واحدى وخمسون سنة وذلك قبل ان تفتح مصر بمائة سنة قال وقد كان للملك من ملوك الامم كانت داره اليوم معاركون من أركانه البلينا وما اتصل بها من الارض خروق وخلجانات وخنادق فتحت من النيل الى البحر يمنع كل واحد من الآخر وكان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الارض وسئل عن ملوك الاحابش على النيل وممالكهم فقال لقيت من ملوكهم ستين ملكا فى ممالك مختلفة كل ملك منهم ينازع من يليه من الملوك وبلادهم حارة يابسة مسودة ويبسها الحرارتها ولاستحكام النارية فيها تغيرت الفضة ذهبا لطبخ الشمس اياها لحرارتها ويبسها ونار يتها فتحولت ذهبا وقد يطبخ الذهب الذى يؤتى به من المعدن خالصا صافيا بالملح والزجاج والطوب فيخرج منه فضة خالصة بيضاء وليس يدفع هذا الامر الا من لا معرفة له بما وصفنا ولا قارب شيأ مما ذكرنا قيل له فما منتهى النيل فى أعاليه قال البحيرة التى لا يدرك طولها وعرضها وهى نحو الارض التى الليل والنهار مستويان فيها طول الدهر وهى تحت الموضع الذى تسميه المنجمون الفلك المستقيم وما ذكرت فمعروف غير منكر وسئل عن بناء الاهرام فقال انها قبور الملوك كان الملك منهم اذا مات وضع فى حوض حجارة ويسمى بمصر والشام الجرن وأطبق عليه ثم يبنى من الهرم على قدر ما يريدون من ارتفاع الاساس ثم يحمل الحوض فيوضع وسط الهرم ثم يقنطر عليه البنيان والاقباء ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذى ترونه ويجعل باب الهرم تحت الهرم ثم يحفر له طريق فى الارض بعقد أزج فيكون طول الازج تحت الارض مائة ذراع وأكثر ولكل هرم من هذه الاهرام باب يدخل منه على ما وصفت فقيل له فكيف بنيت هذه الاهرام المملسة وعلى أى شئ كانوا يصعدون ويبنون وعلى أى شئ كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التى لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد الا بجهد ان قدروا فقال كان القوم يبنون الهرم مدرجا ذا مراق كالدرج فاذا فرغوا منه نحتوه من فوق الى أسفل فهذه كانت حيلتهم وكانوا مع هذا لهم صبر وقوة وطاعة لملوكهم ديانة فقيل له ما بال هذه الكتابة التى على الاهرام والبرابى لا تقرأ فقال دثر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم وتداول أرض مصر الامم فغلب على أهلها القلم الرومى كاشكال أحرف القبط والروم باحرفها على حسب ما ولدوه من الكتابة بين الرومى والقبطى الاول فذهب عنهم كتابة آبائهم فقيل له فمن أول من سكن مصر فقال أول من نزل هذه الارض مصر بن بيصر بن حام بن نوح

ومر فى انساب ولد نوح الثلاثة وأولادهم وتفرقهم فى الارض فقيل له أتعرف بمصر مقاطع رخام
قال نعم فى الجبل الشرقى من الصعيد جبل رخام عظيم كانت الاوائل تقطع منه العمد وغيرها وكانوا
يجلون ما عملوا بالرمل بعد النقر فمنها العمد والقواعد والرؤس التى تسميها أهل مصر الاسوانية ومنها
حجارة الطواحين فتلك نقرها الاولون بعد حدوث النصرانية بمئين من السنين ومنها العمد التى
فى الاسكندرية والعمود بها الضخم الكبير لا يعلم بالعالم عمود مثله وقد رأيت فى جبل اسوان أخا هذا
العمود قد هندس ونقر ولم يفصل من الجبل ولم يحك ما ظهر منه وانما كانوا ينتظرون أن يفصل من
الجبل ثم يحمل الى حيث يريد القوم وسئل عن مدينة العقاب فقال هى غرب اهرام بوصير الجزيرة
وهى على بعد خمسة أيام بلياليها للراكب المجد وقد عورت طريقها وعميت المسالك اليها والسمت
الذى يؤدّى نحوها وذكر ما فيها من عجائب البنيان والجواهر والاموال والعلة التى لها سميت
مدينة العقاب ووصف مدينة أخرى غرب اخميم من أرض الصعيد ذات بنيان عجيب اتخذتها الملوك
السالفة وذكر من شأن هذه المدينة الاخرى عجائب من الاخبار وزعم أن بينها وبين اخميم من أرض
الصعيد مسيرة ستة أيام وسئل عن النوبة وأرضها فقال هم أصحاب ابل وبخت وبقر وغنم وملكهم
يستعد الخيل العتاق والاغلب من ركوب عوامهم البراذين ورميهم بالنبل عن قسى عربية وعنهم
أخذ الرمى أهل الحجاز واليمن وغيرهم من العرب وهم الذين تسميهم العرب رماة الحدق ولهم النخل
والكرم والذرة والموز والحنطة وأرضهم كأنها جزء من أرض اليمن وللنوبة أترج كأكبر ما يكون
بارض الاسلام وملوكهم تزعم أنها من حمير وملكهم يستولى على مقرا ونوبة وعلوة ووراء علوة أمة
عظيمة من السودان تدعى بكنة وهم عراة كالزنج وأرضهم تنبت الذهب وفى مملكة هذه الامة
يخترق النيل فيتشعب منه خليج عظيم ثم يخضر الخليج من بعد انفصاله من النيل وينحدر الاكثر
الى بلاد النوبة وهو لا يتغير فاذا كان فى بعض الازمنة انفصل الاكثر من الماء فى ذلك الخليج
وابيض الاكثر واخضر الاقل فيشق ذلك الخليج أودية وخلجانا وأعماقا مأنوسة حتى يخرج الى
جلاسق والجنوب وذلك ساحل الزنج ومصبه فى بحرهم ثم سئل عن الفيوم والمنهى وحجر اللاهون
فذكر كلاما طويلا فى أمر الفيوم وان جارية من بنات الروم وابنها نزلوا الفيوم وكانوا البدء فى عمارتها
وعمارة أرضها وانما كان الماء يأتى الفيوم من المنهى أيام جرى النيل ولم يكن حجر اللاهون بنى وانما
كان مصب الماء من المنهى من الموضع المعروف بدمونه ثم بنى اللاهون على ما هو اليوم عليه ويقال
ان يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام بناه أيام العزيز ودبر من أمر الفيوم ما هو
اليوم قائم بين من الخليج المرتفع المطاطية وهو خليج فوق خليج وهى القنطرة المعروفة
بسفونه وأقام العمود الذى فى وسط الفيوم وهو غائص فى الارض لا يدرك منتهاه وهو أحد عجائب

الدنيا من بغ الشكل قد جهد أناس من الامم ممن ورد بعد يوسف عليه السلام أن ينتهوا الى آخره فى الارض حفرا فلم يتأت لهم ذلك وغلبهم الماء فعجزهم ورأس هذا العمود مساو لارض المنهى قال وأما حجر اللاهون فانه من سطح الحجر الذى فيما بين الفرش الى ناحية اللاهون واللاهون هى القرية بعينها ففيها من السطح الى القرية ستون ذراعا وربما قل الماء فى المنهى وظهر بعض الدرج وفى حائط الحجر فوارات بعضها اليوم يخرج منه الماء وبعض لا يرى وفيما بين سطح الحجر الذى ما بين الثقبين وبين القرية شاذروات وهو أسفل من الدرج وانما يدخل الماء الفيوم بدرب الحجر وجعلت الاسقالة وهى القناطر ليخرج الماء منها ولا يه لو الماء الحجر أيام سده فبالتقدير ببناء حجر اللاهون وبقدر ما يكفى الفيوم من الماء يدخل اليها وبناء حجر اللاهون من أعجب الامور ومن أحكم البنيان ومن البناء الذى يبقى على وجه الارض لا يتحرك ولا يزول بالهندسة عمل وبالفلسفة أتقن وفى السعود نصب وقد ذكر كثير من أهل بلدنا أن يوسف عليه السلام عمل ذلك بالوحى والله أعلم ولم تزل ملوك الارض اذا غلبت على بلادنا واحتوت على أرضنا صارت الى هذا الموضع فتأملته لما قد نمى اليها من أخباره وسار فى الخليقة من عجائب بنيانه واتقانه وكان هذا الرجل من أقباط مصر ممن يظهر دين النصرانية ورأى اليعقوبية فامر احمد بن طولون فى بعض الايام وقد أحضر مجلسه بعض أهل النظر ان يسأله عن الدليل على صحة دين النصرانية فسأله عن ذلك فقال دليلى على صحتها وجودى اياها متناقضة متنافية تدفعها العقول وتنفر منها النفوس لتباينها وتضادها لا نظر يقويها ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها ورأيت مع ذلك أمما كثيرة وملوكا عظيمة ذوى معرفة وحس قد انقادوا اليها وتدينوا بها فعلمت أنهم لم يقبلوها ولم يتدينوا بها مع ما ذكرت من تناقضها فى العقل الا لدلائل شاهدوها وآيات علموها ومعجزات عرفوها أوجبت انقيادهم اليها والتدين بها قال له السائل وما التضاد الذى فيها قال وهل يدرك أو يعلم غايته منها قولهم بان الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ووصفهم الاقانيم والجوهر وهو الثالوث وهل الاقانيم فى أنفسها قادرة عالمة أم لا وفى اتحاد ربهم القديم بالانسان المحدث وما جرى فى ولادته وقتله وصلبه وهل فى التشنيع أكبر وأفحش من إله صلب وبصق فى وجهه ووضع على رأسه الاكليل من الشوك وضرب رأسه بالقضيب وسمرت يداه ونخس بالاسنة والخشب جنباه وطلب الماء فسقى الخل فى بطيخ الحنظل فامسكوا عن مناظرته وانقطعوا عن مجادلته لما قد أعطاهم من تناقض مذهبه وفساده ووهنه فقال طبيب لابن طولون يهودى قد حضر المجلس أيأذن لى الامير فى مخاطبته قال شأنك فاقبل على القبطى مسائلا له فقال له القبطى وما أنت أيها الرجل وما نحلتك قال له يهودى فقال له مجوسى اذا قال له كيف ذلك وهو يهودى قال لانهم يرون نكاح البنات

فى بعض الحالات اذ كان فى دينهم أن الاخ يتزوج بنت أخيه وعليهم أن يتزوجوا نساء اخوتهم اذا ماتوا فاذا وافق اليهودى أن تكون امرأة أخيه ابنته لم يجد بدا من أن يتزوجها وهذا من أسرارهم ومما يكتمونه ولا يظهرونه . فهل فى المجوسية أشنع من هذا فانكر اليهودى ذلك وجحد أن يكون فى دينه أو يعرفه أحد من اليهود فاستخبر ابن طولون صحة ذلك فوجد الطبيب اليهودى قد تزوج امرأة أخيه وكانت بنته ثم أقبل القبطى على ابن طولون فقال أيها الامير هؤلاء يزعمون وأشار الى اليهودى أن الله خلق آدم على صورته وعن نبى من أنبيائهم سماه قال فى كتابه انه رآه فى قديم الزمان أبيض الرأس واللحية وان الله تعالى قال انى أنا النار المحرقة والحمى الآخذة وأنا الذى آخذ الابناء بذنوب الآباء ثم فى توراتهم أن بنات لوط سقينه الخمر حتى سكر وزنى بهن وحملن منه وولدن وأن موسى رد على الله الرسالة مرتين حتى اشتد غضب الله عليه وأن هارون صنع العجل الذى عبده بنو اسرائيل وأن موسى أظهر معجزات لفرعون وفعلت السحرة مثلها ثم قالوا فى ذبائح الحيوان والتقرب من الله بدمائها ولحومها وتحكمهم على العقل ومنعهم من النظر بغير برهان وهو قولهم ان شريعتهم لا تنتسخ ولا يقبل قول أحد من الانبياء بعد موسى اذا انحرف عما جاء به موسى ولا فرق فى قضية العقل بين موسى وغيره من الانبياء اذا أتى ببرهان وبان بحجة ثم الاكبر من كفرهم قولهم فى يوم عيد الكفور وهو يوم الاستغفار وذلك لعشر تخلو من تشرين الاول أن الرب الصغير ويسمونه منتظرون يقوم فى هذا اليوم قائما وينتف شعور رأسه ويقول ويلى اذا خربت بيتى وايتمت بنتى قامتى منكسة لا أرفعها حتى آتى بنتى وذكر عن اليهود أقاصيص وتخاليط كثيرة ومناقضات واسعة ولهذا القبطى مجالس كثيرة عن احمد بن طولون مع جماعة من الفلاسفة والريصانية والثنوية والصابئة والمجوس وعدة من متكلمى الاسلام وقد أتينا على ما احتمل منها ايراده فى كتابنا أخبار الزمان وذكرنا جميع ذلك فى كتابنا المقالات فى أصول الديانات وكان هذا القبطى على ما نمى الينا من خبره وصح عندنا من قوله يذهب الى فساد النظر والقول بتكافؤ المذاهب وأقام عند ابن طولون نحو سنة فاجازه وأعطاه فأبى قبول شئ من ذلك فرده الى بلده مكرما وأقام بعد ذلك مدة من الزمان ثم هلك وله مصنفات تدل من كلامه على ما ذكرنا عنه والله أعلم بكيفية ذلك (قال المسعودى) وفى نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من أنواع الحيوانات مما فى البر والبحر من ذلك السمك المعروف بالرغاد وهو نحو الذراع اذا وقعت فى شبكة الصياد رعدت يداه وعضداه فيعلم بوقوعها فيبادر الى أخذها واخراجها عن شبكته ولو أمسكها بخشب أو قصب فعلت ذلك وقد ذكرها جالينوس وأنها ان جعلت على رأس من به صداع شديد أو شقيقة وهى فى الحياة هدأ من ساعته والفرس الذى يكون فى نيل مصر اذا خرج من الماء وانتهى وطؤه الى بعض المواضع من الارض علم أهل مصر أن النيل يزيد الى

ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه لا يختلف ذلك عندهم بطول العادات والتجارب وفى ظهوره من الماء ضرر لارباب الارض والفلاة لرعيه الزرع وذلك انه يظهر من الماء فى الليل فينتهى الى موضع من الزرع ثم يولى عائدا الى الماء فيرعى فى حال رجوعه من الموضع الذى انتهى اليه مسيره ولا يرعى من ذلك شيأ فى ممره كانه يحدد مقدار ما يرعاه فيها اذا رعت ووردت الى النيل فشربت ثم تقذف ما فى أجوافها فى مواضع شتى فينبت ذلك مرة ثانية فاذا كثر ذلك من فعله واتصل ضرره بارباب الضياع طرح له الترمس فى الموضع الذى يعرف خروجه منه مكاكى كثيرة مبددا مبسوطا فيأكله ثم يعود الى الماء فيربو فى جوفه ويزداد فى انتفاخه فيشق جوفه فيموت ويطفو على الماء ويقذف به الى الساحل والموضع الذى يكون فيه لا يكاد يرى فيه تمساح وهو على صورة الفرس الا أن حوافره والذنب بخلاف ذلك والجبهة أوسع (من السعودى)

(ذكر ملوك اليونانيين بعد الاسكندر)

(ثم ملك بعد الاسكندر) الملك خليفته بطليموس وكان حكيما عالما شابا مدبرا وكان ملكه أربعين سنة وقيل بل كان ملكه عشرين سنة وقد كان لهذا الملك وهو التالى الملك الاسكندر حروب مع بنى اسرائيل وغيرهم من ملوك الشام وذكر جماعة من أهل الدرايات بأخبار ملوك العالم أنه أول من اقتنى البزاة ولعب بها وضراها وأنه ركب فى بعض الايام فى طربه الى بعض متنزهاته فنظر الى باز يطير فرآه اذا علا صعد واذا سفل خفق واذا أراد أن يستوى ذرق فاتبعه حتى اقتحم شجرة ملتفة كثيرة الشوك فتأمله فأعجبه صفاء عينيه وصفرتهما وكمال خلقه فقال هذا طائر حسن له سلاح وينبغى أن تتزين به الملوك فى مجالسها فأمر أن يجمع منها عدة لتكون فى مجالسه زينة فعرض لبازمنها ايم وهو الحية الذكر فوثب عليه البازى فقتله فقال الملك هذا ملك يغضب مما تغضب منه الملوك ثم عرض له بعد أيام ثعلب كان داجنا فوثب عليه البازى فأفلت الا جريحا فقال الملك هذا ملك جبار لا يحتمل الضيم ثم مر طائر فوثب عليه فأكله فقال الملك هذا ملك يمنع حماه ولا يضيع أكله فلعب بها ثم لعب بها بعده ملوك الامم من اليونانيين والروم والعرب والعجم وغيرهم وثنى من بعده من ملوك الروم بلعب الشواهين والاصطياد بها وقد قيل ان الازارقة وهم ملوك الاندلس من الاشبان أول من لعب بالشواهين وصاد بها وكذلك اليونانيون أول من صاد بالعقبان ولعب بها وقد ذكر أن ملوك الروم أول من صاد بالعقبان وقد كان من سلف من حكماء اليونانيين يقولون ان الجوارح أجناس خلقها الله تعالى وأنشأها على منازلها ودرجاتها وهى أربعة أجناس وثلاثة عشر شكلا فأما الاجناس الاربعة فهى البازى والشواهين والصقر والعقاب

(ثم ملك بعد بطليموس) هيفلوس وكان رجلا جبارا وفي أيامه عملت الطلسمات وظهرت عبادة التماثيل والاصنام لشبه دخلت عليهم وأنها وسائط بينهم وبين خالقهم تقربهم اليه وتدنيهم منه وكان ملكه ثمان وثلاثين سنة وقيل أربعين وقد قيل ان الذي تملك بعد خليفة الاسكندر بطليموس الثاني محب الاخ وغزا بني اسرائيل بيلاد فلسطين وايليا من أرض الشام فسباهم وقتل منهم وطلب العلوم ثم رد بني اسرائيل الى فلسطين وحمل معهم الجواهر والاموال وآلات الذهب والفضة لهيكل بيت المقدس وكان ملك الشام يومئذ أنطيخس وهو الذي بنى مدينة أنطاكية وكانت دار ملكه وجعل بناء سورها أحد عجائب العالم في البناء على السهل والجبل ومسافة السور اثنا عشر ميلا وعدة الابراج فيه مائة وستة وثلاثون برجا وجعل عدد شرافاته أربعة وعشرين ألف شرافة وجعل على كل برج من الابراج تولة بطريق أسكنه اياه برجاله وخيله وجعل كل برج منها طبقات والبطريق في أعلاه وجعل كل برج منها كالحصن عليها أبواب حديد وآثار الابواب ومواضع الحديد بين الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وأظهر فيها مياها من أعين وغيرها لاسبيل الى قطعها من خارجها وجعل اليها مياها منصبة في قنى مخرقة الى شوارعها ودورها ورأيت فيها في هذه المياه ما يستحجر في مجاريها المعمولة من الخزف لترادف البصر فيها فيترا كم طبقات ويمنع الماء من الجريان بانسداده فلا يعمل الحديد في كسره (ثم ملك) على اليونانيين بعد هيفلوس بطليموس الصانع ستا وعشرين سنة (ثم ملك) بعده عليهم بطليموس المعروف بمحب الاب تسع عشرة سنة وكانت له حروب مع ملوك الشام وصاحب انطاكية الاسكندروس وهو الذي بنى مدينة فامية بين حمص وانطاكية (ثم ملك) بعده على اليونانيين بطليموس صاحب علم الفلك والنجوم وكتاب المجسطي وغيره أربعا وعشرين سنة (ثم ملك) بطليموس محب الام خمسا وثلاثين سنة (ثم ملك) بعده بطليموس الصانع سبعا وعشرين سنة (ثم ملك) بطليموس المخلص سبع عشرة سنة (ثم ملك) بعده بطليموس الاسكندراني اثنى عشر سنة (ثم ملك) بعده بطليموس الحديدي ثمان سنين (ثم ملك) بعده بطليموس الجوال ثمانيا وستين سنة وكانت له حروب كثيرة (ثم ملك) بعده بطليموس الحديد ثلاثين سنة (ثم ملكت) بعده ابنته قلبطرة وكان ملكها اثنتين وعشرين سنة وكانت حكيمة متفلسفة مقربة للعلماء معظمة للحكماء ولها كتب مصنفة في الطب والزينة وغير ذلك من الحكمة مترجمة باسمها منسوبة اليها معروفة عند صنعة أهل الطب وهذه الملكة آخر ملوك اليونانيين الى أن انقضى ملكهم ودثرت أيامهم ومحيت آثارهم وزالت علومهم الا ما بقي في أيدي حكمائهم وقد كان لهذه الملكة خبر ظريف في موتها وقتلها لنفسها وقد كان لها زوج يقال له انطونيوس مشارك لها في ملك مقدونية وهي بلاد مصر من اسكندرية وغيرها فسار اليهم الثاني من ملوك الروم ومن بلاد رومية

وهو أغسطس وهو أول من سمي قيصر واليه تنسب القياصرة بعده وكانت له حروب بالشام ومصر مع قلبطرة الملكة ومع زوجها انطونيوس الى أن قتله ولم يكن لقلبطرة في دفع أغسطس ملك الروم عن ملك مصر حيلة وأرادت أغسطس اعمال الحيلة فيها لعلمه بحكمتها وليتعلم منها اذ كانت بقية الحكماء اليونانيين ثم بعد ها يقتلها فراسلها وعلمت مراده فيها وما قد وترها به من قتل زوجها وجنودها فطلبت الحية التي تكون بين الحجاز ومصر والشام وهي نوع من الحيات تراعي الانسان حتى اذا تمكنت من النظر الى عضو من أعضائه قفزت أذرعا كثيرة كالريح فلم تخط ذلك العضو بعينه حتى تتفل عليه سما فتأتي عليه ولا يعلم بها لخوده من فوره ويتوهم الناس أنه قد مات فجأة حتف أنفه ورأيت نوعا من هذه الحيات بين بلاد خوزستان من كور الاهواز لمن أراد بلاد فارس من البصرة وهو الموضع المعروف بجامر دوبة بين مدينة دروق وبلاد الباسيان والعندم في الماء وهي حيات شبرية وتدعى هنالك القبرية ذات رأسين تكون في الزمل وفي جوف تراب الارض فاذا أحست بالانسان أو غيره من الحيوان وثبت من موضعها أذرعا كثيرة فضربت باحدى رأسيها الى أي موضع من ذلك الحيوان فتلحقه من ساعته ضد الحياة وعدمها الحينه فبعثت قلبطرة هذه الملكة فاحتمل لها حية من هذه المقدم ذكرها التي توجد بأطراف الحجاز فلما أن كان اليوم الذي علمت أن أغسطس يدخل قصر ملكها أمرت بعض جواريها ومن أحبت فناءها قبلها وأن لا يلحقها العذاب بعدها فسمتها في انائها فخمدت من فورها ثم جلست قلبطرة الملكة على سرير ملكها ووضعت تاجها على رأسها وعليها ثيابها وزينة ملكها وجعلت أنواع الرياحين والزهر والفاكهة والطيب وما يجمع بمصر من عجائب الرياحين وغيرها مما ذكرنا مبسوطة في مجلسها وقدام سريرها وعهدت بما احتاجت اليه من أمورها وفرقت حشمها من حولها فاشتغلوا بأنفسهم عن ملكتهم لما قد غشيهم من عدوهم ودخوله عليهم في دار ملكهم وأدنت يدها من الاناء الزجاج الذي كانت فيه الحية فقربت يدها من فيه فتفلت عليها الحية فجفت مكانها وانسابت الحية وخرجت من الاناء ولم تجد جحرا ولا مذهبا تذهب فيه لاتقان تلك المجالس بالرخام والمرمر والاصباغ فدخلت في تلك الرياحين ودخل أغسطس حتى انتهى الى المجلس فنظر اليها جالسة والتاج على رأسها فلم يشك في أنها تنطق فدنا منها فتبين أنها ميتة وأعجب بتلك الرياحين فدد يده الى كل نوع منها يلمسه ويتبينه ويعجب خواص من معه به ولم يدر ما سبب موتها فبينما هو كذلك من تناول تلك الرياحين وشمها اذ قفزت عليه تلك الحية فرمته بسمها فيبس شقه من ساعته وذهب بصره الايمن وسمعه فتعجب من فعلها وقتلها لنفسها وايثارها الموت على الحياة مع الذل ثم ما كادته به من القاء الحية بين الرياحين فقال في ذلك شعرا بالرومية يذكر حاله وما نزل به وقصتها وأقام بعد ما نزل به ما ذكرنا يوما وهلك ولولا أن الحية كانت قد

أفرغت سمها على الجارية ثم على قلبطرة الملكة لكان أغسطس قد هلك من ساعته ولم تمهله هذه المدة وهذا الشعر معروف عند الروم الى هذه الغاية يذكرونه فى نومهم ويرثون به ملوكهم وربما ذكروه فى أغانيهم وهو متعالم معروف عندهم والذى يعول عليه من عدد ملوكهم واتفق على ذلك أهل المعرفة بأخبارهم أن جميع عدد ملوك اليونانيين أربعة عشر ملكا آخرهم الملكة قلبطرة وأن جميع عدد سنى ملوكهم ومدة أيامهم وامتداد سلطانهم ثلثمائة سنة وسنة واحدة وكان كل ملك يملك على اليونانيين من بعد الاسكندر بن فيلبش يسمى بطلميوس وهذا الاسم الاعم الشامل لملكهم كتسمية ملوك الفرس كسرى وتسمية ملوك الروم قيصر وتسمية ملوك اليمن تبع وتسمية ملوك الحبشة النجاشى وتسمية ملوك الزنج وهلمين

ذكر ملوك اليونانيين
ولمع من أخبارهم وما قاله الناس فى بدء أنسابهم

(قال المسعودى) تنازع الناس فى فرق اليونانيين فذهب طائفة من الناس الى أنهم ينتمون الى الروم ويضافون الى ولد اسحاق وقالت طائفة أخرى ان يونان هو ابن يافث بن نوح وذهب قوم الى أنهم من ولد أوراس بن ياوان بن يافث بن نوح وذهب قوم الى أنهم قبيل متقدم فى الزمان الاول وانما وهم من وهم ان اليونانيين ينسبون الى حيث تنسب الروم وينتمون الى جدهم ابراهيم لان الديار كانت مشتركة والمقاطع والمواطن كانت متساوية وكان القوم قد شاركوا القوم فى السجية والمذهب فلذلك غلط من غلط فى النسبة وجعل الاب واحدا وهذا طريق الصواب عند المفتشين وسبيل البحث عند الباحثين والروم قفت فى لغتها ووضع كتبها اليونانيين فلم يصلوا الى كنه فصاحتهم وطلاقة ألسنتهم والروم أنقص فى اللسان من اليونانيين وأضعف فى ترتيب الكلام الذى عليه نهج تعبيرهم وسنن خطابهم (قال المسعودى) وقد ذكر أن يونان أخو قحطان وأنه من ولد عابر بن شالخ وأن أمره فى الانفصال عن دار أخيه كان سبب الشك فى الشركة فى النسب وانه خرج عن أرض اليمن فى جماعة من ولده وأهله ومن انضاف الى جملته حتى وافى أقاصى بلاد المغرب فأقام هنالك وانسل فى تلك الديار واستعجم لسانه ووازى من كان هنالك فى اللغة الاعجمية من الافرنجة والروم فزالت نسبته وانقطع نسبه وصار منسيا فى ديار اليمن غير معروف عند النسابين منهم وكان يونان جبارا عظيما وسيما جسيما وكان حسن العقل والخلق جزل الرأى كثير الهمة عظيم القدر وقد كان يعقوب بن اسحاق الكندى يذهب فى نسب يونان الى ما ذكرنا من أنه أخ لقحطان ويحتج لذلك وقد رد عليه أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ فى قصيدة طويلة وذكر خلطه نسب يونان بقحطان فقال

أبا يوسف انى نظرت فلم أجد * على الفحص رأيا صح منك ولا عقدا
وصرت حكيما عند قوم اذا امرؤ * بلاهم جميعا لم يجد عندهم عندا
أتقرن الحادا بدين محمد * لقد جئت شيأ يا أخا كندة ادّا
وتخلط يونانا بقحطان ضلة * لعمرى لقد باعدت بينهما جدا

ولما نشأ ولد يونان وكبر خرج يسير فى الارض يطلب موضعا يسكنه فانتهى الى موضع من المغرب فنزل بمدينة أتيناوهى المعروفة بمدينة الحكماء فى ديار المغرب فى صدر الزمان وأقام بها هو ومن معه من ولده فكثر نسله بها وبنى بها البنيان العظيم الى أن أدركته الوفاة فجعل وصيته الى الاكبر من ولده واسمه حرينوس فقال له يا بنى انى قد وافيت الاجل وقربت من الحتم الواجب وانى راحل عنك ومفارقك ومفارق اخوتك وأهل بيتك وقد كانت أحوالكم حسنة النظام بى وكنت كهفا فى الشدائد وعونا على المحن ومجنا فى الزمان فعليك بالجود فانه قطب الملك ومفتاح السياسة وباب السيادة وكن حريصا على اقتناء الرجال بالانعام عليهم تكن سيدا رشيدا واياك والحيد عن الطريقة المثلى التى عليها بنى العقل فان من ترك رأى اللب وثمرة العقل تورط فى المهالك ووقع فى مقابض المتالف ثم مات يونان واستولى ولده حرينوس على مكان أبيه وضم اليه أهله وولده ونمى خبرهم وكثر نسلهم فغلبوا على ديار المغرب من بلاد الافرنجة والتوكير وأجناس الامم من الصقالبة وغيرهم وكان أول ملوكهم من سماه بطليموس فى كتابه فيلبش وتفسيره محب الفرس وقيل ان اسمه فلبص وقيل فيلفوس وكانت مدة ملكه سبع سنين وقد قيل ان اليونانيين لما أن سار البخت نصر من ديار المشرق نحو الشام ومصر والمغرب وبذل السيف كانوا يؤدّون الطاعة ويحملون الخراج الى فارس وكان خراجهم بيضا من ذهب عددا معلوما ووزنا مفهوما وضريبة محصورة فلما أن كان من أمر الاسكندر بن فيلبش وهو الملك الماضى الذى هو أول ملوك اليونانيين على ماذكره بطليموس ما كان من ظهوره وهمته بعث اليه دارانوس ملك فارس وهو دارا بن دارا يطالب بما جرى من الرسم فبعث اليه الاسكندر انى قد ذبحت تلك الدجاجة التى كانت تبيض بيض الذهب وأكلتها فكان من حروبهم ما دعا الاسكندر الى الخروج الى أرض الشام والعراق فاصطلم من كان بها من الملوك وقتل دارا بن دارا ملك الفرس ونسب قوم الاسكندر أنه الاسكندر بن فيلبش بن مصريم ابن هرمس بن هردوس بن ميطون بن رومى بن نوبط بن نوفيل بن رومى بن ليطى بن يونان بن يافث بن نوح ونسبه قوم انه من ولد العيص بن اسحاق بن ابراهيم ومنهم من رأى أنه الاسكندر بن يونه بن سرحون بن رومى بن قرمط بن توفيل بن رومى بن الاصفر بن اليغز بن العيص بن اسحاق بن ابراهيم وقد تنازع الناس فيه فمنهم من رأى انه ذو القرنين ومنهم من رأى انه غيره وتنازعوا أيضا

فى ذى القرنين فنهم من رأى انه انما سمى بذى القرنين لبلوغه باطراف الارض وأن الملك الموكل بجبل قاف سماه بهذا الاسم ومنهم من رأى أنه من الملائكة وهذا قول يعزى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه والقول الاول لابن عباس فى تسمية الملك اياه ومنهم من رأى أنه كان بذ آبتين من الذهب وهذا قول يعزى الى على بن أبى طالب رضى الله عنه وقد قيل غير ذلك وانما ذكر تنازع الشرعيين من أهل الكتب وقد ذكره تبع فى شعره وافتخر به وانه من قحطان وقيل ان بعض التبابعة غزا مدينة رومية فاسكنها خلقا من اليمن وأن ذا القرنين هو الاسكندر من أولئك العرب المتخلفين بها والله أعلم وسار الاسكندر بعد أن ملك بلاد فارس فاحتوى على ملوكها وتزوج بابنة ملكها دارا ابن دارا بعد ان قتله ثم سار الى أرض السند والهند ووطئ ملوكها وحملت اليه الهدايا والخراج وحاربه ملكها فور وكان أعظم ملوك الهند وكان له معه حروب وقتله الاسكندر مبارزة ثم سار الاسكندر نحو بلاد الصين والتبت فدانت له الملوك وحملت اليه الهدايا والضرائب وسار فى مفاوز الترك يريد خراسان من بعد أن ذلل ملوكها ورتب الرجال والقواد فيما افتتح من الممالك ورتب ببلاد التبت خلقا من رجاله وكذلك ببلاد الصين وكور بخراسان كورا وبنى مدنا فى سائر أسفاره وكان معلمه ارسطاطاليس حكيم اليونانيين وهو صاحب كتاب المنطق ومابعد الطبيعة وتلميذ أفلاطون وأفلاطون تلميذ سقراط وصرف هؤلاء همهم الى تقييد علوم الاسماء الطبيعية النفيسة وغير ذلك من علوم الفلسفة واتصالها بالالهيات وأبانوا عن الاشياء وأقاموا البرهان على صحتها وأوضحوها لمن استعجم عليه تناولها وسار الاسكندر راجعا من سفره يؤم المغرب فلما سار الى مدينة شهرزور اشتدت علته وقيل ببلاد نصيبين من ديار ربيعة وقيل بالعراق فعهد الى صاحب جيشه وخليفته على عسكره بطليموس فلما مات الاسكندر طافت به الحكماء ممن كان معه من حكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم من علماء الامم وكان يجمعهم ويستريح الى كلامهم ولا يصدر الامور الا عن رأيهم وجعل بعد أن مات فى تابوت من الذهب ورصع بالجوهر بعد ان طلى جسمه بالاطلية الماسكة لاجزائه فقال عظيم الحكماء والمقدم فيهم ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزيا وللعامة واعظا وقام فوضع يده على التابوت فقال أصبح آسر الاسراء أسيرا ثم قام حكيم ثان فقال هذا الاسكندر الذى كان يخبئ الذهب فصار الذهب يخبئه وقال الحكيم الثالث ما أزهد الناس فى هذا الجسد وأرغبهم فى هذا التابوت وقال الحكيم الرابع من أعجب العجب أن القوى قد غلب والضعفاء لاهون مغترون وقال الخامس ياذا الذى جعل أجله ضمانا وجعل أمله عيانا هلا باعدت من أجلك لتبلغ بعض أملك هلا حققت من أملك الامتناع عن فوت أجلك وقال السادس أيها الساعى المنتصب جمعت ماخذلك عن الاحتياج فغودرت عليك أوزاره وفارقت آيامه فغناه لغيرك ووباله

عليك وقال السابع قد كنت لنا واعظا فما وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك فمن كان له عقل فليعقل ومن كان مغترا فليغتر وقال الثامن رب هائب لك كان يغتابك من ورائك وهو اليوم بحضرتك لايخافك وقال التاسع رب حريص على سكوتك اذ لا تسكت وهو اليوم حريص على كلامك اذ لا تتكلم وقال العاشر أماتت هذه النفس لئلا تموت وقد ماتت وقال الحادى عشر وكان صاحب خزانة كتب الحكمة قد كنت تأمرنى أن لا أبعد عنك فاليوم لا أقدر على الدنو منك وقال الثانى عشر هذا اليوم عظيم العبر أقبل من شره ما كان مدبرا وأدبر من خيره ما كان مقبلا فمن كان باكيا على من زال ملكه فليبك وقال الثالث عشر ياعظيم السلطان اضمحل سلطانك كما اضمحل ظل السحاب وعفت آثار ملكك كما عفت آثار الرباب وقال الرابع عشر يامن ضاقت عليه الارض طولا وعرضا ليت شعرى كيف حالك فيما احتوى عليك منها وقال الخامس عشر أعجب بان كانت هذه سبيله كيف شرهت نفسه بجمع الحطام الهائد والهشيم البائد وقال السادس عشر أيها الجمع الحافل والملتقى الفاضل لا ترغبوا فيما لايدوم سروره وتنقطع لذته فقد بان لكم الصلاح والرشاد من الغى والفساد وقال السابع عشر انظروا الى حلم النائم كيف انقضى وظل الغمام كيف انجلى وقال الثامن عشر وكان من حكماء الهند يامن كان غضبه الموت هلا غضبت على الموت وقال التاسع عشر قد رأيتم أيها الجمع هذا الملك الماضى فليتعظ به الآن هذا الباقى وقال العشرون هذا الذى دار كثيرا والآن يقر طويلا وقال الحادى والعشرون ان الذى كانت الآذان تنصت له قد سكت فليتكلم الآن كل ساكت وقال الثانى والعشرون سيلحق بك من سره موتك كما لحقت بمن سرك موته وقال الثالث والعشرون مالك لا تقل عضوا من أعضائك وقد كنت تستقل ملك الارض بل مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان الذى أنت به وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد وقال الرابع والعشرون وكان من نساك الهند وحكمائها ان دنيا يكون هكذا آخرها فالزهد أولى أن يكون فى أولها وقال الخامس والعشرون وكان صاحب مائدته قد فرشت النمارق ونضدت الوسائد وهيئت الموائد ولا أرى عميد المجلس وقال السادس والعشرون وكان صاحب بيت ماله قد كنت تأمرنى بالجمع والادخار فالى من أدفع دخائرك وقال السابع والعشرون وكان خازنا من خزانه هذه مفاتيح خزائنك فمن يقبضها قبل أن أؤخذ بما لم آخذ منها وقال الثامن والعشرون هذه الدنيا الطويلة العريضة طويت منها فى سبعة أشبار القول التاسع والعشرون قول زوجته روشنك بنت دارا بن دارا ملك فارس ما كنت أحسب أن غالب دارا الملك يغلب وان كان هذا الكلام الذى سمعت منكم معاشر الحكماء فيه شماتة فقد خلف الكأس الذى تشرب به الجماعة القول الثلاثون ما يحكى عن أمه أنها قالت حين جاءها نعيه لئن فقدت من

الى أمره فما فقدت من قلبى ذكره وقبض الاسكندر وهو ابن ست وثلاثين سنة وقد كان ملكه تسع سنين قبل قتله لدارا بن دارا وست سنين بعد قتله لدارا بن دارا وتمليكه على سائر ملوك الارض وملك وهو ابن احدى وعشرين سنة وذلك بمقدونية وهى مصر وعهد الى ولى عهده بطليموس بن أذينة أن يحمل تابوته الى والدته بالاسكندرية وأوصاه أن يكتب اليها اذا أتاها نعيه ان تتخذ وليمة وتنادى فى مملكتها ان لا يتخلف عنها أحد وأن لا يجيب دعوتها من قد فقد محبوبا أو مات له خليل ليكون ذلك مأتم الاسكندر بالسرور خلاف مأتم الناس بالحزن فلما ورد نعيه اليها ووضع التابوت بين يديها نادت فى أهل مملكتها على ما به أمرها فلم يجب أحد دعوتها ولا بادر الى ندائها فقالت لحشمها ما بال الناس لم يجيبوا دعوتى فقالوا لها أنت منعتيهم من ذلك قالت وكيف قيل لها أمرت أن لا يجيبك من فقد محبوبا أو عدم خليلا أو فارق حبيبا وليس فيهم أحد الا وقد أصابه بعض ذلك فلما سمعت ذلك استيقظت وعلمت ما به سليت وقالت لقد عزانى ولدى أحسن العزاء وقالت يا اسكندر ما أشبه أواخرك بأوائلك وأمرت به فجعل فى تابوت من المرمر وطلى بالاطلية الماسكة لاجزائه وأخرجته عن الذهب لعلمها ان من يطأ بعدها من الملوك والامم لا يتركونه فى ذلك الذهب وجعل التابوت المرمر على أحجار نضدت وصخور نصبت من الرخام والمرمر قد رصفت وهذا الموضع من الرخام والمرمر باق ببلاد الاسكندرية من أرض مصر يعرف بقبر الاسكندر الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة

ذكر ملوك السريانيين ولمع من أخبارهم

ذكر أهل العناية بأخبار ملوك العالم ان أول الملوك ملوك السريانيين بعد الطوفان وقد تنوزع فيهم وفى النبط فمن الناس من رأى ان السريانيين هم النبط ومنهم من رأى انهم اخوة لولد ماش بن نبيط ومنهم من رأى غير ذلك وكان أول من ملك منهم رجل يقال له سوسان وكان أول من وضع التاج على رأسه وانقادت له ملوك الارض وكان ملكه ست عشرة سنة باغيا فى الارض مفسدا للبلاد سفاكا للدماء ثم ملك ولده يقال له برندس وكان ملكه الى ان هلك عشرين سنة ثم ملك سماسير بن أول سبع سنين ثم ملك بعده اهر يور عشر سنين فخط الخطوط وكور الكور وجد فى أمره واتقان ملكه وعمارة أرضه فلما استقامت له الاحوال وانتظم له الملك بلغ بعض ملوك الهند ما عليه ملوك السريانيين من القوة وشدة العمارة وانهم يحاولون الممالك وقد كان هذا الملك من ملوك الهند غالبا على ما حوله من ممالك الهند وانقادت الى سلطانه ودخلت فى أحكامه وقيل ان ملكه كان مما يلى السند والهند فسار نحو بلاد بسط وعرين ونعير وبلاد الداور على النهر المعروف بنهرميد وهو نهر سجستان

ينتهى جريانه على أربعة فراسخ منها وهذا النهر عليه أهل سجستان وضياعهم ونخلهم وجبالهم ومتنزهاتهم وهذا النهر يعرف بنهر بسط وتجرى فيه السفن من هنالك الى سجستان فيها الاقوات وغير ذلك ومن بسط الى سجستان نحو من مائة فرسخ وبلاد سجستان هى بلاد الرياح والرمال وهو البلد الموصوف بان الريح به تدير الارحية وتسقى الماء من الآبار وتسقى الجنان وليس فى الدنيا بلد والله أعلم أكثر منه استعمالا للرياح وقد تنوزع فى مبدأ هذا النهر المعروف بنهر ميد فمن الناس من رأى ان مبدأه من مبدأ نهر الكنك وهو نهر الهند ويمر بكثير من جبال السند وهو نهر حاد الانصباب والجريان عليه يعذب أكثر الهند أنفسها بالحديد وتغرقها زهدا فى هذا العالم ورغبة فى النقلة عنه وذلك انهم يقصدون موضعا فى أعالى هذا النهر المعروف بالكنك وهنالك جبال عالية وأشجار عادية ورجال جلوس وحدايد وسيوف منصوبة على ذلك الشجر وقطع من الخشب فتأتيهم الهند من الممالك النائية والبلدان القاصية فيسمعون كلام أولئك الرجال المرتبين على هذا النهر وما يقولون فى تزهيدهم فى هذا العالم والترغيب فيما سواه فيطرحون أنفسهم من أعالى تلك الجبال العالية على تلك الاشجار العادية والسيوف والحدايد المنصوبة فيتقطعون قطعا ويصيرون الى هذا النهر أجزاء وما ذكرنا فموصوف عنهم وما يفعلون على هذا النهر كذلك وهنالك شجر من احدى عجائب العالم ونوادره والغرائب مما به فيظهر من الارض أغصان مشتبكة من أحسن ما يكون من الشجر والورق فتستقيم فى الجو كأعظم ما يكون من طوال النخل ثم ينحنى جميع ذلك منعكسا فيعود فى الارض مندسا ويهوى فى قعرها سفلا على المقدار الذى ارتفع به فى الهواء حتى يغيب عن الابصار ثم تظهر أغصان بادئة على حسب ما وصفنا فى الاول فتذهب الصعداء ثم تتقنطر منعكسة ولا فرق بين المقدار الذى يذهب منها فى الهواء ويتسع فى الفضاء وبين ما يغيب منها تحت الارض ويتوارى تحت الثرى فلولا أن الهند قد وكلت بقطعه من يراعيه فى أمره لامر يذكرونه وخطر فى المستقبل يصفونه لطبق على تلك البلاد ولغشى تلك الارض ولهذا النوع من الشجر أخبار يطول ذكرها يعرفها من طرأ الى تلك البلاد ورآها أو نمى اليه خبرها والهند تعذب أنفسها على ما وصفنا بأنواع العذاب من دون الامم وقد تيقنت أن ما ينالها من النعيم فى المستقبل مؤجلا لا يكون بغير ما أسلفته من تعذيب أنفسها فى هذه الدار معجلا ومنهم من يصير الى باب الملك يستأذن فى احراقه نفسه فيدور فى الاسواق وقدامه الطبول والصنوج وعلى يديه أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه وحوله أهله وقراباته وعلى رأسه اكليل من الريحان وقد قشر جلده عن رأسه وعليها الجمر وعليها الكبريت والسندروس فيسير وهامته وروائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق التنبول وحب الفوفل والتنبول فى بلادهم ورق ينبت كأصغر ما يكون من ورق الاترج يمضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل

وهو الذى غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن فى هـذا الوقت مضغة بدلا من الطيب ويكون عند الصنادلة للورم وغير ذلك فنهم من يسميه الفوفل وهذا اذا مضغ على ماذكرنا بالورق والنورة شد اللثة وقوى عمود الاسنان وطيب النكهة وأزال الرطوبة المؤذية وشهى الطعام وبعث على الباه وحمر الاسنان حتى تكون كاحمر ما يكون من حب الرمان وأحدث فى النفس طربا وأريحية وقوى البدن وأثار من النكهة روائح طيبة والهند خواصها وعوامها تستقبح من أسنانه بيض وتجتنب من لا يمضغ ما وصفنا فاذا طاف هـذا المعذب لنفسه بالنار فى الاسواق انتهى الى تلك النار وهو غير مكترث ولا متغير فى مشيته ولا متهيب فى خطوته ففيهم من اذا أشرف على النار وقد صارت جمرا كالتل العظيم يتناول خنجرا ويدعى الحرمى عندهم فيضعه فى لبته ولقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من اللار من مملكة البلهرا وذلك فى سـنة أربع وثلثمائة والملك يومئذ على صيمور المعروف بجاج وبها يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الامصار ممن قد تأهل وقطن فى تلك البلاد وفيهم خلق من وجوه التجار مثل موسى واسحاق الصيداپورى وعلى الهيرامة يومئذ أبو سعيد معروف بابن زكريا وتفسـير الهيرامة يراد به رآسـة المسلمين يتولاها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة اليه ومعنى قولنا البياسرة يراد به من ولد وامن المسلمين بارض الهنـد يدعون بهذا الاسم واحدهم بيسر وجمعهم بياسرة فرأيت بعض فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا فى أسواقهم فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر فدفعها الى بعض اخوانه تهاونا بالموت ولذة بالنقلة ثم هوى بنفسه فى النار واذا مات الملك من ملوكهم وقتل نفسـه حرق خلق من الناس أنفسهم لموته يدعون هؤلاء البلالحرية واحدهم بلالحرى وتفسير ذلك المصادق لمن يموت فيموت بموته ويحيا بحياته وللهند أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفس من أنواع الآلام والمقاتل التى تألم عند ذكرها الابدان وتصفر من ذكرها الانسان وقد أتينا على كثـير من عجائب أخبارهم وأما خبر ملك الهند ومسيره الى بلاد سجستان وقصده مملكة السريانيين فكان هـذا الملك من ملوك الهند يقال له زنبيل وكل ملك يلى هـذا البلد من أرض الهند يسمى بهـذا الاسم زنبيل الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وكان بين الهند وبين ملوك السريانيين حروب عظام نحوا من سنة فقتل ملك السريانيين واحتوى ملك الهند على الصقع وملك جميع ما فيه فسار اليه بعض ملوك العرب فأتى عليه وملك العراق ورد ملك السريانيين فملكوا عليهم رجلا منهم يقال له سيرا وكان ولد المقتول فكان ملكه الى أن هلك ثمان سنين ثم ملك بعده (أهرعون) وكان ملكه اثنتى عشرة سـنة ثم ملك بعده ابن يقال له

(هوريا) فزاد في العمارة وأحسن في الرعاية وغرس الاشجار وكان ملكه الى أن هلك اثنتين وعشرين سنة ثم ملك بعده (مارث) واستولى على الملك وكان ملكه مدة خمس عشرة سنة وقيل ثلاثا وعشرين سنة ثم ملك بعده (أزور) و (خلنجاس) ويقال انهما كانا أخوين أحسنا السيرة وتعاضدا على الملك ويقال ان أحد هذين الملكين كان جالسا ذات يوم اذ نظر في أعلى قصره الى طائر قد أفرخ هنالك واذا هو يضرب بجناحه ويصيح فتأمل الملك ذلك فنظر الى حية تنساب الى الوكر صاعدة لا كل فراخ الطائر فدعا الملك بقوس فرمى الحية فصرعها وسلمت فراخ الطائر فجاء الطائر بعد هنيهة يصفق بجناحه في منقاره حبة وفي مخالبه حبتان وجاء الى الملك وألقى ما كان في منقاره ومخالبه والملك يرمقه فوقع الحب بين يدى الملك فتأمله وقال ما ألقى هذا الطائر ما ألقى الا أنه أراد بلا شك مكافأتنا على ما فعلنا به فأخذ الحب وجعل يتأمله فلم يعرف مثله في اقليمه فقال جليس من جلسائه حكيم وقد نظر الى حيرة الملك في الحب أيها الملك ينبغي أن يودع النبات أرحام الارض فانها تخرج كنه ما فيه فتقف على الغاية منه وأداء ما في مخزونه ومكنونه فدعا بالاكرة وأمرهم بزرع الحب ومراعاته وما يكون منه فزرع فنبت وأقبل يلتف بالشجر ثم حصرم وأعنب وهم يرمقونه والملك يراعيه الى أن انتهى في البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفا أن يكون متلفا فأمر الملك بعصر مائه وأن يودع في أواني وافراد حب منه وتركه على حالته فلما صار في الآنية عصيرا هدر وقذف بالزبد وفاحت له روائح عبقة فقال الملك على بشيخ فأتى به فلما دله من ذلك في إناء فرآه لونا عجيبا ومنظرا كاملا ولونا ياقوتيا أحمر وشعاعا نيرا ثم سقوا الشيخ فشرب ثلاثا حتى مار وأرخى من ما آزره فضول وحرك رأسه ووقع برجليه على الارض فطرب ورفع عقيرته يتغنى فقال الملك هذا شراب يذهب بالعقل وأخاف أن يكون قاتلا ألا ترى الى الشيخ كيف عاد في حال الصبى وسلطان الدم وقوة الشباب ثم أمر الملك به فزيد فسكر الشيخ فنام فقال الملك هلك ثم ان الشيخ أفاق وطلب الزيادة من الشراب وقال لقد شربته فكشف عنى الغموم وأزال عن ساحتى الاحزان والهموم وما أراد الطائر الا مكافأتكم بهذا الشراب الشريف فقال الملك هذا أشرف شراب أهل الارض وذلك أنه رأى شيخا قد حسن وقوى حيله وانبسط في نفسه وطرب في حال طبيعة الحزن وسلطان البلغم وجادهضمه وجاء النوم وصفا لونه واعترته أريحية فأمر الملك أن يمنع العامة من ذلك وقال هذا شراب الملوك وأنا السبب فيه فان كان فلا يشرب به غيرى فاستعمله الملك بقية أيامه ثم نمى في أيدى الناس واستعملوه وقد قيل ان نوحا أول من زرعها وقد ذكر الخبر حين سرقها ابليس منه حين خرج من السفينة واستوى على الجودى

(من كتاب مروج الذهب)

ذكر الاسكندرية وبنائها وملوكها وعجائبها وما ألحق بهذا الباب

ذكر جماعة من أهل العلم أن المقدونى لما استقام ملكه فى بلاده سار يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء حتى انتهى الى موضع الاسكندرية فأصاب فيها أثر بنيان وعمدا كثيرة من الرخام وفى وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند (وهو القلم الاول من أقلام حمير وملوك عاد) أنا شداد بن عاد ابن شداد بن عاد شددت بساعدى البلاد وقطعت عظيم العماد من الجبال والاطواد وأنا بنيت ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد أردت أن أبنى ههنا كارم وأنقل اليها كل ذى اقدام وكرم من جميع العشائر والامم وذلك اذ لا خوف ولا اهتمام ولا سقم فأصابنى ما أعجلنى وعما أردت قطعنى ومع وقوعه طال همى وشجنى وقل نومى وسكنى فارتحلت بالامس عن دارى لا لقهر ملك جبار ولا لخوف جيش جرار ولا عن رغبة ولا عن صغار لكن لتمام المقدار وانقطاع الآثار وسلطان العزيز الجبار فمن رأى أثرى وعرف خبرى وطول عمرى ونفاذ بصرى وشدة حذرى فلا يغتر بالدنيا بعدى فانها غرارة غدارة تأخذ منك ما تعطى وتسترجع ما تولى وكلام كثير يرى فناء الدنيا ويمنع من الاغترار بها والسكون اليها ونزل الاسكندر يتدبر هذا الكلام ويعتبره ثم بعث فحشر الصناع من البلاد وخط الاساس وجعل طولها وعرضها أميالا وحشد اليها العمد والرخام وأتته المراكب فيها أنواع الرخام وأنواع المرمر والاحجار من جزيرة صقليا وبلاد افريقيا واقريطس وأقاصى بحر الروم مما يلى مصبه بحر أوقيانوس وحمل اليه أيضا من جزيرة رودس وهى جزيرة مقابلة للاسكندرية على ليلة منها فى البحر وهى أول بلاد الافرنجة وهذه الجزيرة فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة دار صناعة الروم وبها تنشأ المراكب الحربية وفيها خلق كثير من الروم ومراكبهم تطرق بلاد الاسكندرية وغيرها من بلاد مصر فتغير وتأسر وتسبى وأمر الاسكندر الفعلة والصناع أن يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينة وجعل على كل قطعة من الارض خشبة قائمة وجعل من الخشبة الى الخشبة حبالا منوطة بعضها ببعض وأوصل ذلك بعمود من الرخام وكان أمام مضربه وعلق على العمود جرسا عظيما مصوتا وأمر الناس والقوام على البنائين والفعلة والصناع أنهم اذا سمعوا صوت ذلك الجرس وتحركت الحبال وقد علق على كل قطعة منها جرسا صغيرا أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطارها وأحب الاسكندر أن يجعل ذلك فى وقت يختاره ذى طالع سعيد فخفق الاسكندر برأسه وأخذته سنة فى حال ارتقابه الوقت المحمود المأخوذ فيه الطالع فجاء غراب فجلس على حبل الجرس الكبير الذى فوق العمود فحركه وخرج صوت الجرس وتحركت الحبال وخفق ما عليها من الاجراس الصغار وكان ذلك معمولا

بحركة فلسفيه وحيل حكميه فلما رأى الصناع تحرك تلك الحبال وسمعوا تلك الاصوات وضعوا الاساس دفعة واحدة وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس فاستيقظ الاسكندر من رقدته وسأل عن الخبر فأخبر بذلك فقال أردت أمرا وأراد الله غيره و يأبى الله الا ما يريد أردت طول بقائها وأراد الله سرعة فنائها وخرابها وتداول الملوك اياها وان الاسكندر لما أحكم بنيانها وأثبت أساسها وجن الليل عليهم خرجت دواب من البحر فأتت على جميع ذلك البنيان فقال الاسكندر حين أصبح هذا بدء الخراب في عمارتها وتحقق مراد البارئ في زوالها وتطير من فعل الدواب فلم يزل البناء يبنى في كل يوم ويحكم ويوكل به من يمنع الدواب اذا خرجت من البحر فيصيحون وقد خرب البنيان فقلق الاسكندر وراعه ما رأى فأقبل يفكر ما الذى يصنع وأى حيلة توقع في دفع هذه الأذية عن المدينة فسنحت له الحيلة في ليلته عند خلوته بنفسه وايراده الامور واصدارها فلما أصبح دعا بالصناع فاتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع في عرض خمس وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارتها وقد أمسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الاطلية الدافعة للماء حذرا من دخول الماء الى التابوت وقد جعل فيها مواضع للحبال ودخل الاسكندر في التابوت ورجلان معه من كتابه ممن له علم باتقان التصوير ومبالغة فيه وأمر أن تسد عليهم الابواب وأن يطلى من ذكرنا من الاطلية وأمر فأتى بمركبين عظيمين فأخرجا الى لجة البحر وعلق على التابوت من أسفله مثقلات الرصاص والحديد والحجارة لتهوى بالتابوت سفلا اذ كان من شأنه لما فيه من الهواء أن يطفو فوق الماء ولا يرسب في سفله وجعل التابوت الى المركبين وطول حباله فغاص التابوت حتى انتهى الى قرار البحر فنظروا الى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف في صفاء ماء البحر فاذا هم بشياطين على مثال الناس رؤسهم على مثال رؤس السباع وفي أيدى بعضهم الفؤس وفي أيدى بعض المناشير والمقامع يحاكون بذلك صناع المدينة والفعلة وما في أيديهم من آلات البناء فأثبت الاسكندر ومن معه تلك الصور وأحكموها بالتصوير في القراطيس على اختلاف أنواعها وتشوه خلقتهم وقدودهم وأشكالهم ثم حرك الحبال فلما أحس بذلك من في المركبين جذبوا الحبال وأخرجوا التابوت فلما خرج الاسكندر من التابوت وساروا الى مدينة الاسكندرية أمر صناع الحديد والنحاس والحجارة فعملوا تماثيل تلك الدواب على ما كان صوره الاسكندر وصاحباه فلما فرغوا منها وضعت على العمد بشاطئ البحر ثم أمرهم فبنوا فلما جن الليل ظهرت تلك الدواب والآفات فنظرت الى صورها على العمد مقابلة على البحر فرجعت الى البحر ولم تعد بعد ذلك ثم لما بنيت الاسكندرية وشيدت أمر أن يكتب على أبوابها هذه الاسكندرية أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات في الدهور

ولم يرد البارى عز وجل ملك السموات والارض ومفنى الامم أن نبنيها كذلك فبنيتها وأحكمت بنيانها وشيدت سورها وأتانى الله من كل شئ علما وحكما وسهل لى وجود الاسباب فلم يتعذر على فى العالم شئ مما أردته ولا امتنع عنى شئ مما طلبته لطفا من الله عز وجل وصنعا لى وصلاحا لى ولعباده من أهل عصرى والحمد لله رب العالمين لا اله الا هو رب كل شئ ورسم الاسكندر بعد هذه الكتابة كل ما يحدث ببلده من الاحداث بعده فى مستقبل الزمان من الآفات والعمران والخراب وما يؤل اليه الى وقت دثور العالم وكان بناء الاسكندرية طبقات وتحتها قناطر مقنطرة كما تدور المدينة يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التى تحت المدينة وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق ومتنفسات للضياء ومنافذ للهواء وقد كانت الاسكندرية تضيء بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام والمرمر وأسواقها وشوارعها وأزقتها مقنطرة بها لئلا يصيب أهلها شئ من المطر وقد كان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة ألوانها بينها خنادق وبين كل خندق وسور فصول وربما علق على المدينة شقاق الحرير الاخضر لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدة بياضه فلما أحكم بناؤها وسكنها أهلها كانت آفات البحر وسكانه على ما زعم الاخباريون من المصريين والاسكندريين تختطف بالليل أهل المدينة فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير ولما علم الاسكندر بذلك اتخذ الطلسمات على أعمدة هنالك تدعى المسال وهى باقية الى هذه الغاية كل واحد من هذه الاعمدة على هيئة السروة وطول كل واحد منها ثمانون ذراعا على عمد من نحاس وجعل تحتها صورا وأشكالا وكتابة وذلك عند انخفاض درجة من درج الفلك وقربها من هذا العالم وعند أصحاب الطلسمات المنجمين والفلكيين أنه اذا ارتفع من الفلك درجة وانخفض أخرى فى مدة يذكرونها من السنين نحو ستمائة سنة تأتى فى هذا العالم فعل الطلسمات النافعة المانعة والرافعة وقد ذكر هذا جماعة من أصحاب الزيجات والنجوم وغيرهم من مصنفى الكتب فى هذا المعنى ولهم فى ذلك سر من أسرار الفلك ليس كتابنا هذا موضعا له ولغيرهم ممن ذهب الى أن ذلك لطف قوى الطبائع التام وغير ذلك مما قاله الناس ومما ذكرنا من درج الفلك فموجود فى كتب من تأخر من علماء المنجمين والفلكيين كأبى معشر البلخى والخوارزمى ومحمد بن كثير الفرغانى وماشاء الله وحسن والبزيدى ومحمد بن جابر البتانى فى زيجه الكبير وثابت بن قرة وغير هؤلاء ممن تكلم فى علوم هيآت الفلك والنجوم (قال المسعودى) وأما منارة الاسكندرية فذهب كثير من المصريين والاسكندرانيين ممن عنى بأخبار بلدهم الى أن الاسكندر بن فيلبش المقدونى هو الذى بناها على حسب ما قدمنا فى بناء المدينة ومنهم من رأى أن دلوكة الملكة هى التى بنتها وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو الى بلدهم ومنهم من رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذى بناها

وقد قدمنا ذكر هذا الملك فيما سلف من هذا الكتاب ومنهم من رأى أن الذى بنى مدينة روميه هو الذى بنى مدينة الاسكندرية ومنارتها والاهرام بمصر وانما أضيفت الاسكندرية الى الاسكندر لشهرته بالاستيلاء على كثير من ممالك العالم فشهرت به وذكروا فى ذلك أخبارا كثيرة يدلوا بها على ما قالوا والاسكندر لم يطرقه فى هذا البحر عدو ولا هاب ملكا يرد اليه فى بلده ويغزوه فى داره فيكون هو الذى جعلها مرقبا وأن الذى بناها جعلها على كرسى من الزجاج على هيئة السرطان فى جوف البحر وعلى طرف اللسان الذى هو داخل فى البحر من البر وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره فيها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك واذا علت فى الفلك فأصبعه مشيرة نحوها فاذا انخفضت انخفضت يده سفلا يدور معها حيث دارت ومنها تمثال يشير بيده الى البحر اذا صار العدو منه على نحو من ليلة فاذا دنى وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من ميلين أو ثلاثة فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم ويرمقونه بابصارهم ومنها تمثال كلما مضى من الليل والنهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ما صوت فى الساعة التى قبلها وصوته مضطرب وقد كان ملك الروم فى مدة الوليد بن عبد الملك بن مروان أنفذ خادما من خواص خدمه ذا رأى ودهاء وجاء مستأمنا الى بعض الثغور فورد بآلة حسنة ومعه جماعة فجاء الى الوليد فأخبره انه من خواص الملك وانه أراد قتله لموجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أصل وانه استوحش منه ورغب فى الاسلام فأسلم على يد الوليد وتقرب من قلبه وتنصح اليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن فلما رأى الوليد تلك الاموال والجواهر شرهت نفسه واستحكم طمعه فقال له الخادم يا أمير المؤمنين ان ههنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك فسأله الوليد عن الخبر فقال تحت منارة الاسكندرية أموال الارض وذلك ان الاسكندر احتوى على الاموال والجواهر التى كانت لشداد بن عاد وملوك العرب بمصر والشام فبنى لها الازاج تحت الارض وقنطر لها الاقباء والقناطر والسراديب وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجواهر وبنى فوق ذلك هذه المنارة وكان طولها ألف ذراع فى الهواء والمرآة على علوها والديادبة جلوس حولها فاذا نظروا الى العدو فى البحر فى ضوء تلك المرآة صوتوا بمن قرب منهم ونصبوا ونشروا أعلاما فيراها من بعد منهم فيحذر الناس وينذر البلد فلا يكون للعدو عليهم سبيل فبعث الوليد مع الخادم بجيش وأناس من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرآة فضج الناس من أهل الاسكندرية وغيرها وعلموا انها مكيدة وحيلة فى أمرها فلما علم الخادم استفاضة ذلك وانه سينمى الى الوليد وانه قد بلغ ما يحتاج اليه هرب فى الليل فى مركب كان قد أعده وواطى قوما على ذلك من أمره فتمت حيلته وبقيت المنارة على ما ذكرنا فى هذا الوقت

وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وكان حوالى منارة الاسكندرية فى البحر مغاص يخرج منه قطع
من الجواهر تتخذ منه فصوص للخواتم أنواعا من الجواهر منه الكركهن والادرك وأشبادجشم
ويقال ان ذلك من الآلات التى كان اتخذها الاسكندر للشراب فلما مات كسرتها أمه ورمت بها
فى تلك المواضع من البحر ومنهم من رأى أن الاسكندر اتخذ ذلك النوع من الجوهر وغرقه حول
المنارة لكيلا تخلو من الناس حولها الان من شأن الجوهر أن يكون مطلوبا فى كل عصر فى معدنه برا
كان أو بحرا فيكون الموضع على دوام الاوقات بالناس معمورا والاكثر مما يستخرج من الجوهر
حول منارة الاسكندرية الاشبادجشم وقد رأيت كثيرا من أصحاب التلويحات ومن عنى باعمال
الجواهر المشبهة بالمعدنية يعمل هذه الجواهر المعروفة بالاشبادجشم ويتخذ منه النصول وغيرها
وكذلك الفصوص المعروفة بالباقلمون هى ترى ألوانا مختلفة من حمرة وصفرة تتلون فى المنظر ألوانا
مختلفة على حسب ماقدمنا والتلون من ذلك على حسب الجوهر فى صفائه واختلاف نظر البصر
فى ادراكه وتلون هذا النوع من الجوهر أعنى الباقلمون نحو تلون ريش صدور الطواويس فانها تتلون
ألوانا مختلفة أذنابها وأجنحتها أعنى الذكور دون الاناث وقد رأيت منها بارض الهند ألوانا تظهر
بحس البصر عند تأملها لاتدرك ولا تحصى ولا تشبه بلون من الالوان لما يترآى من تموج الالوان
فى ريشها ويتأتى ذلك منها لعظم خلقتها وكبر أجسادها وسعة ريشها الان للطواويس بارض الهند شأنا
عجيبا والذى يحمل منها الى أرض الاسلام ويخرج عن أرض الهند فيبيض ويفرخ تكون صغيرة
الاجسام كدرة الالوان لا تخطف أنوار الابصار بادراكها وانما تشبه بالهندية بالشبه اليسير هذا
فى الذكور منها دون الاناث وذلك نحو النارنج والاترج المدور حمل من أرض الهند الى أرض غيرها
بعد الثلثمائة فزرع بعمان ثم نقل الى البصرة والعراق والشام حتى كثر فى دور الناس بطرسوس
وغيرها من الثغور الشامية وأنطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر وما كان يعرف ولا يعلم
فعدمت منه الروائح الخمرية الطيبة واللون الحسن الذى يوجد فيه بارض الهند لعدم ذلك الهواء
والتربة والماء وخاصية البلد ويقال ان هذه المنارة انما جعلت المرآة فى أعلاها الان ملوك الروم بعد
الاسكندر كانت تحارب ملوك مصر على الاسكندرية فجعل من كان بالاسكندرية من الملوك تلك المرآة
ترى من يرد فى البحر من عدوهم الا أن من يدخلها يتيه فيها الا أن يكون عارفا للدخول والخروج فيها
لكثرة طبقاتها وبيوتها وممارقها وقد ذكر أن المغاربة حين وافوا فى خلافة المقتدر فى جيش صاحب
المغرب ودخل جماعة منهم على خيولهم الى المنارة فتاهوا فيها وفيها طرق تؤول الى مهاوى تهوى
الى السرطان الزجاج وفيها مخارق الى البحر فتهور وا بدوابهم وفقد منهم عدد عظيم وعلم بهم بعد ذلك
وقيل ان تهورهم كان فى كرسى بها قدامها وفيها مسجد فى هذا الوقت يرابط فيه فى الصيف مطوعة

المصريين وغيرهم ولبلاد مصر والاسكندرية وبلاد الاندلس ورومية ومافى الشرق واليمن والمغرب أخبار كثيرة فى عجائب البلدان والابنية والآثار وخواص البقاع ومايؤثر فى سكانها وقطانها أعرضنا عن ذكرها اذ كنا قد أتينا على الاخبار منها فيما سلف من كتبنا من عجائب العالم من دوابه وبره وبحره فاغنى ذلك عن اعادة ذكره

فصل فى الكلام على بلاد اليونان ومقدونيا والشام ومصر بعد اضمحلال القرطاجيين وانحطاط دولتهم

الذى يخطر بالبال أن أنيبال كان من دأبه أن لا يتكلم بالنوادر والحكم الا قليلا جدا فكان كلامه بها أندر من الكبريت الاحمر لاسيما ما حكاه عنه تيتليوة فى شأن فبيوس ومرسليوس أو مرقليوس مما يعود عليه بالضرر وعلى أخصامه بالنفع فياليت هذا المؤرخ لم يزين ما وقع بين أبطال ذلك الزمن القديم ولم ينسب لهم من الحكم والنوادر ما هو من قبيل المخايل والظواهر وما أحسنه لو سلك فى تاريخه مسلك أوميروس الذى أهمل تزيين حوادث فحول الرجال وأحسن ذكر وقائعهم بما يوقف القارئ على حقيقة الحال وعلى فرض أن أنيبال كان يصدر عنه مثل ذلك فهل يعد من الكلام المعقول المستحسن فان قيل نعم قلنا قد حكى عنه أنه لما بلغه هزيمة أخيه استروبال أقربائه يلمح من خلال هذه الواقعة دمار قرطاجه فهل ثم شئ أدعى من ذلك لايقاع اليأس عند الاهالى الواثقين به وهل هنالك ما تفتر به همة الجيش القرطاجى الذى كان ينتظر مكافآت عظيمة بعد هذا الحرب أقوى من ذلك

ولما كان القرطاجيون فى اسبانيا وصقلية وسردينيا لايعرضون لحرابة الرومانيين جيشا الا انهزم وساء حاله وخابت آماله اضطر أنيبال حيث كان أعداؤه دائما يتقوون بالاسعافات والامدادات الى أن لا يكون حربه فى ايطاليا الا لمجرد المدافعة فعند ذلك عنّ للرومانيين أن ينقلوا ميدان الحرب الى بلاد افريقه فرساسيبون بالجيش الرومانى على سواحلها وظفر بالقرطاجيين ظفرا اجبرهم على أن يدعوا أنيبال من بلاد ايطاليا فلحق هذا القائد من الحنق والاسف مالا مزيد عليه حيث أفضى به الحال الى ترك ما تغلب عليه من تلك البلاد للرومانيين الذين طالما انتصر عليهم فيها

وقد أبدى أنيبال فى محاماة وطنه مالا مزيد عليه لمن انتهت اليه الرياسة فى السياسة الملكية والامارة فى القيادة العسكرية وذلك انه لما تعذر عليه أن يحمل سيبون على الصلح حمل عليه حملة عظيمة الا أن الدهر الخؤون لعب به حيث أوقع الخلل فى أفعاله وأنساه تجربته وسلب منه سلامة ذوقه

فعند ذلك أذعن القرطاجيون لما كلفهم به الرومانيون من شروط الصلح الصادر من متبوع لتابعه لا من عدو لعدوه وذلك أن قرطاجة التزمت أن تدفع للرومانيين عشرة آلاف تالان (نوع من أنواع المعاملة) منجمة على خمسين سنة وأن تعطى على ذلك كفالات من الاهالى وأن تسلم اليهم سفنها وفيلتها الحربية وأن لا تقدم على محاربة أحد الا بعد رضائهم ولاجل ابقائها على الهوان والمذلة وضعف الشوكة وسع الرومانيون دائرة شوكة مسينيسة ملك نوميديا التى هى الآن بلاد الجزائر لانه كان أكبر أعدائها

ثم انه بعد انحطاط دولة قرطاجة واضمحلالها كاد أن لا يكون للرومانيين الا حروب صغيرة ونصرات عظيمة على عكس ما كانوا عليه قبل ذلك

وكأنما كانت الدنيا فى تلك الازمنة أرضين منعزلتين احداهما كانت ميدانا لحروب الرومانيين والقرطاجيين والاخرى كانت ميدانا للمشاجرات والمنازعات التى استمرت بها من موت اسكندر الرومى ولم يلتفت أهلها الى ما كان يقع فى الاولى التى هى بلاد المغرب من الحروب والمشاجرات حتى لم يذكره مشاهير مؤرخيهم نعم وان وقعت المشارطة بين فيليبش ملك مقدونيا وأنيبال قائد القرطاجيين الا أنه لم يعقب هذه المشارطة شئ وحيث لم يعن هذا الملك القرطاجيين الا اعانة هينة لم يظهر للرومانيين منه الا مجرد مخالفة لهم لا يترتب عليها ضرر

هذا ومن أقبح السياسات أن تنظر دولة من الدول دولتين عظيمتين بينهما حرب طويل شديد وكل منهما الديد الخصام كثير العناد وتمكث مطمئنة متفرجة عليهما بدون أن تجعل لنفسها مدخلية بينهما بصلح أو حرب لان الدولة التى تظفر بصاحبتها تتصدى فى مبدأ أمرها الى حروب جديدة ثم تصير أمة عسكرية تهجم على أمم أرباب حضارة لا معرفة لهم بالفنون العسكرية

وقد تحقق ذلك فى تلك الازمنة على وجه ظاهر فان الرومانيين بمجرد غلبتهم للقرطاجيين وظفرهم بهم شنوا الغارة على أمم أخرى وانتشرت أعلامهم فى سائر الاقطار للتغلب عليها

ولم يكن اذ ذاك فى المشرق من يقدر على مقاومتهم الا أربع دول اليونان ومقدونيا والشام ومصر ولنذكر أحوال الدولتين الاوليين وقتئذ حيث تصدى الرومانيون للاستيلاء عليهما قبل الاخريين فنقول

كان ببلاد اليونان ثلاث أمم عظيمة ذات شوكة وهم الايتوليون والاخائيون والبوئيانيون وكانت كل واحدة منها جمهورية متجمعة من اتحاد مدن حرة متعاهدة ذات مشورات عمومية وحكام مشتركة أرباب حل وعقد فأما الايتوليون فكانوا أرباب شجاعة وجراءة ومخاطرة وحرص على الكسب وكان من دأبهم أنهم ليسوا أسراء الوفاء بالوعد ولا من أهل التمسك بالعهد

وكانت محارباتهم في البر على منوال ما يفعله أرباب الصيالة في البحر وأما الاخائيون فانهم لما كانوا بجوارهم أو تحت حمايتهم كانوا لا يذوقون منهم طعم الراحة أصلا وأما اليوئيانيون فكانوا أقل أمم اليونان نشاطا وهمة وكانوا دونهم في المدخلية في الحوادث العامة لجميع اليونان وكان لا يبعثهم على الحركة الاما يقوم بهم من الوجدانيات الضرورية الراهنة من خير أو شر فكانت قرائحهم جامدة بحيث لا يؤثر فيها وعظ الوعاظ ولا تحريض الخطباء على الدخول مع غيرهم في المصالح العامة هذا ومن الغريب الخارج عن حد العادة بقاء جمهوريتهم وعدم زوالها مع ما كان فيها من اختلال الحكومة (مثلا كان رؤساء تلك الجمهورية لا يعقدون المجالس تطييبا لخاطر الاهالى وكان المرضى يوصون بأموالهم لاصحابهم لينفقوها بعدهم في الولائم ولا يتركونها للمصلحة الجمهورية) وأما القدمونه فانها حفظت شوكتها بمعنى أنها لم تزل باقية على التولع بالحرب الذى اكتسبته من قوانين لكورغة وكان أهالى سالونيكى مستعبدين من بعض الوجوه لاهل مقدونيا وكذلك ملوك ايليريه وهى الارناؤط الساحلية كان الرومانيون قد أضعفوهم اذ ذاك بالكلية وأمم الاقرنانة والاتمانة كانت جنود مقدونيا وايتولية قد خربت بلادهم على التعاقب وكان الاثينيون لا قوة لهم ولا ناصر (حيث لم يكن لهم عقد معاهدة مع غيرهم من أمم اليونان) وانقطعت أفعالهم العجيبة ولم يكن عندهم وقتئذ الا مجرد المداهنة والتملق للملوك وكانوا لا يرقون كالسابق المنابر التى خطب عليها ديمستينس الا لتحريض الاهالى على احكام مبنية على غاية الجبن ونهاية الهذيان

ومع ذلك فكانت بلاد اليونان مهابة بموقعها وقوتها وكثرة مدنها وجنودها وبسياستها اضبطا وربطا وأخلاق أهلها وعوائدهم وقوانينهم فكانت تحب الحرب حبا جما وتعرف فنه حق المعرفة ولو انضمت الى بعضها واتفقت كلمتها لما أمكن غلبتها والظهور عليها أوليس أن ملوك مقدونيا كفيليبش الاول واسكندر الرومى وانطباطير غزوهم ولم يسترعوهم وانما أوقعوهم في الحيرة والدهشة لما شاهدوه منهم من القوة وشدة البأس فلما رأى هؤلاء الملوك انه لا اقتدار لهم على الظفر بهم وأبت أنفسهم أن يتركوا ما تطلبوه وأملوه صمموا على أن يشتغلوا دائما بالبحث عن استعبادهم وأما مملكة مقدونيا فكان أغلبها يكتنفه جبال وعرة لا يمكن الدنو منها وكان لاهلها استعداد وصلاحية تامة للحرب لشجاعتهم وقوة قلوبهم وانقيادهم لرؤسائهم ومهارتهم في الفنون والصنائع وعدم مللهم ولا غرو في اتصافهم بتلك الصفات العظيمة لما أن طبيعة قطرهم واعتدال هواء بلادهم يقتضيان ذلك اذهم الى الآن أعظم عساكر الدولة العثمانيه

وانما بقيت دولة اليونان ولم تنقرض لوجود ما يمنع من ذلك وهو ما كان حاصلا يومئذ من ميزان التعادل بين الممالك فان القدمونيين كانوا عادة حلفاء للايتوليين وكان المقدونيون حلفاء للاخائيين الا أن قدوم الرومانيين الى بلادهم كان سببا في نقض هذه الموازنة وابطالها

ولما كان لا يمكن لملوك مقدونيا أن يقوموا بلوازم عدد كثير من العساكر كان أدنى هزيمة لهم يعقبها ضرر وزيادة على ذلك كان لا يمكنهم توسيع مملكتهم الا مع غاية المشقة وذلك لان مقاصدهم لما كانت لا تخفى على أحد كان أغلب الدول يراقبهم ويلاحظ سلوكهم ليكون على حذر منهم وأما نصراتهم التي انتصروها في الحروب التي تصدوا فيها لاعانة معاهديهم فكانت في الحقيقة داء يبحث حلفاؤهم عن مداواته

ولكن كان هؤلاء الملوك عادة أرباب ذكاء ودهاء ولم تكن مملكتهم منظومة في سلك الممالك التي تجد السير في سبيل المصالح حتى تنبت في أقرب وقت بل كانوا دائما يكتسبون التجربة والخبرة من ممارسة الاخطار والمصالح وكانوا دائما يقعون في ورطات المشاجرات الواقعة بين أمم اليونان فبهذا لزمهم أن يستميلوا اليهم كبار المدن اليونانية ويستجلبوا أهاليها وكانوا بمقتضيات الاحوال يجمعون الاغراض أو يفرقونها وبالجملة فكانوا مضطرين في كل وقت لبذل مهجهم والمفاداة بانفسهم

وقد كان فيليبش في مبدأ أمره يستميل قلوب اليونان اليه ويستجلب صداقتهم له بلين عريكته وسهولة أخلاقه ثم تغير دفعة واحدة فصار جبارا طاغية في زمن كانت مطامعه وسياسته يقتضيان أن يسلك فيه مسلك العدل والانصاف وكان يلزم ولو من بعد عظم شوكة القرطاجيين والرومانيين وكان قد انتهى الحرب على وجه عاد بالنفع على حلفائه وتصالح مع الايتوليين فكان الاولى له عقب ذلك أن يسعى في جمع بلاد اليونان بتمامها ويتعاهد معهم ليمنع الاجانب من الاستيطان بها لكن كان الامر بالعكس لانه أغضبهم ونفر نفوسهم منه باغتصابه منهم حقوقا واهية وتلاعب بالبحث عن أغراض قليلة الجدوى حين كان الاهم له أن يبحث عن ابقاء نفسه وحفظ ملكه حتى آل أمره أن صار مبغوضا بالكلية عند جميع اليونان لكونه صدر عنه ثلاثة فعال قبيحة أو أربعة

وكان أشدهم حنقا عليه الايتوليين فلما علم الرومانيون شدة حقدهم التي ليست في الواقع الاضربا من الجنون انتهزوا هذه الفرصة وتحالفوا معهم فدخلوا بلاد اليونان وحرضوا أهلها على القيام عليه والخروج عن طاعته فشهروا السلاح وتأهبوا لقتاله

فكانت لهم النصرة عليه في يوم (قونوقفالة) وكان مدارها على شجاعة الايتوليين فلحقه من الهوان والذل ما ألجأه الى عقد مشارطة ليست في الحقيقة مشارطة صلح وانما هي عقد تخلى به عن قوته وذلك انه بموجبها أخرج عساكره المحافظين من جميع بلاد اليونان وسلم لهم في سفنه الحربية والتزم أن يدفع لهم ألف تالان منجمة على عشر سنوات

هذا وقد قابل المؤرخ بوليبه مع ما انطبع عليه من سلامة الذوق بين ترتيب الرومانيين وترتيب المقدونيين الذي تمسك به جميع من خلف اسكندر من ملوك الطوائف فبين منافع ومضار الفرق

العسكرية الرومانية والمقدونية ورجح جانب الترتيب الرومانى ومن تأمل وقائع تلك الازمنة ترآى له أنه مصيب فى ذلك

وما حصل للرومانيين فى الحرب البونيقى الثانى من الوقوع فى الخطر فاذاك الالكون أنيبال سلح عساكره فى مبدأ الامر على منوال الرومانيين بخلاف اليونان فانهم فى حربهم مع الرومانيين لم يغيروا أسلحتهم ولا أساليب حربهم ولم يخطر لهم أن يتركوا أساليبهم التى بسلوكها فعلوا قبل ذلك أشياء جسيمة واكتسبوا نصرات عظيمة

وكان نجاح الرومانيين فى حربهم مع فيليبش أعظم نجاح اكتسبوه فى جميع فتوحاتهم فانهم لاجل التمكن والوثوق بفتح بلاد اليونان سلكوا جميع الطرق فى خفض الايتوليين الذين أعانوهم على فتحها وأمروا أن كل مدينة من مدن اليونان سواء كانت من حكومة فيليبش أو غيره من الملوك تحكم نفسها من الآن فصاعدا بقوانينها الخاصة بها

هذا ومن الجلى أن تلك الجمهوريات الصغيرة اليونانية لايمكن أن تكون الاتابعة غير أن اليونان فرحوا باجراء حكومتهم على قوانينهم الخاصة بهم فرحا لايصدر الاعن غبى أحمق ظنا منهم أنهم صاروا أحرارا حيث أظهر لهم الرومانيون ذلك

فالايتوليون الذين ظنوا فى مبدأ الامر أن تكون لهم الكلمة فى بلاد اليونان لما رأوا سعيهم لم يترتب عليه الادخولهم تحت طاعة الرومانيين حيث صاروا واموالهم داخلهم اليأس والقنوط ولما كان من دأبهم الافراط والبدء بالنهاية أرادوا مداومة الجنون بجنون آخر فدعوا انطيوكوس ملك الشام الى بلاد اليونان كما دعوا الرومانيين اليها قبل ذلك

وكان ملوك الشام اذ ذاك أقوى ملوك الطوائف الذين هم خلفاء اسكندر لانهم كانوا يحكمون على أغلب ممالك دارا ماعدا بلاد مصر غير أنه طرأ عليهم من الحوادث ما أفضى بشوكتهم الى الضعف

وذلك أن الملك سيلوقوس مؤسس سلطنة الشام دمر فى أواخر أيامه مملكة ليزيماقيا أى جزيرة كايسولى المتصلة وخرج عن طاعته عدة أقاليم فى أثناء هذا الاختلال تكون منها مملكة برغامة (ازمير) ومملكة قبادوقيه ومملكة بيكستحيل باناطولى واستقلت بنفسها ولكن لما كانت تلك الممالك الصغيرة غير مطمئنة على استقلالها كانت دائما ترى أن ما يقع لساداتها الاول من الاذلال هو عين عزها وسعدها

ولما كان ملوك الشام دائما ينظرون عز مملكة مصر بعين الحقد والحسد كان مطمح نظرهم دائما التغلب عليها فنشأ عن ذلك اهمالهم جهة المشرق فلذلك فقدوا فيها عدة أقاليم وصار الاذعان لهم هينا فى أقاليم أخرى

فآل الامر أن بقى لهم آسيا العليا والسفلى الا أنه قد ظهر بالتجربة أنه فى هذه الحالة اذا كان تخت المملكة والقوى الاصلية فى الاقاليم السفلى من آسيا تعذر على الملك حفظ الاقاليم العليا وابقاؤها وكذلك اذا كان التخت فى آسيا العليا وأراد حفظ الاقاليم السفلى فانه يعجز عن ذلك وتضعف قوته ويدلك عليه أن كلا من مملكتى فارس والشام لم تضاها فى القوة أصلا مملكة البرث الذين هم قدماء الفرس مع أنها لم تكن الاجزأ من أقاليم هاتين المملكتين فلولم يفتح ملكهم قيروس مملكة ليديا باناطولى لما قهره اليونان وتغلبوا على مملكته وكذلك لواقتصر سيلوقوس ملك الشام على بابل وترك الاقاليم البحرية لخلفاء انطيفونة ملك يهوده لما ظهر الرومانيون عليه واستولوا على بلاده وقد اقتضت الحكمة الالهية أن يكون للممالك حدود طبيعية تمنع الملوك عن التعدى على بعضهم وتمسك بأعنة أطماعهم فلما تجاوزها الرومانيون أهلكهم البرث وبددوا شملهم ولما جاوزها البرث أنفسهم اضطروا من مبدأ الامر الى الرجوع الى أراضيهم وكذلك آل عثمان فى الاعصر الاخيرة فانهم لما تجاوزوا تلك الحدود أكرهوا على الرجوع اليها وكان رعايا ملوك الشام ومصر اذذاك على قسمين الامم الغالبة أى الفاتحة والامم المغلوبة أى المستولى عليها وكان الملوك لا يحكمون الامم الفاتحة الامع غاية المشقة لانهم كانوا لم يزالوا يتذكرون أصولهم ولم يكن عندهم ميل الى الحرية كالافرنج الآن يحملهم على الخروج من الاسر والاستعباد وانما كانوا امثلهم فى الميل الى تغيير الملك ولا صبر لهم على بقائه

ولكن اصالة ضعف مملكة الشام انما حدثت عن ضعف دوان خلفاء دارا لا خلفاء اسكندر وذلك ان ما كان بدواوين ملوك آسيا على اختلاف القرون من الزينة والاختيال والتكبر والرخاوة كان متسلطنا فى دوان هؤلاء الخلفاء وسرى هذا الداء الى الاهالى والعساكر بل سرت العدوى به الى الرومانيين أنفسهم حيث ان الحرب الذى وقع بينهم وبين انطيوكوس ملك الشام كان فى الحقيقة مبدأ فساد حالهم واختلال نظامهم

فهذا ما كانت عليه مملكة الشام حين تصدى الملك انطيوكوس الذى فعل أشياء كثيرة للحرب مع الرومانيين ولم يسلك فى حربه معهم سبيل الحزم والتؤدة التى ينبغى سلوكها فى المصالح العادية مثلا لما أراد انيبال تجديد الحرب بايطاليا سعى فى استمالة فيليبش ملك مقدونيا ليكون معه على عدوه أو يرفع يده بحيث يكون لاله ولا عليه بخلاف انطيوكوس فلم يفعل شيأ من ذلك بل دخل بلاد اليونان فى قليل من جنوده فكانما أتى متفرجا لا محاربا حيث لم يشتغل الا بحظوظ نفسه فانهزم وفر الى آسيا وكان فزعه أقوى من هزيمته

فبذل الرومانيون جهدهم فى استمالة فيليبش اليهم فى هذا الحرب وأدخلوه فى حزبهم بالكلية فبذل جميع وسعه فى خدمتهم واعانتهم وكان عليه مدار نصراتهم فى الحرب المذكور وكان الحامل له على

ذلك هو حب الانتقام من الايتوليين وتخريب مملكتهم ووعد الرومانيين اياه بتنقيص ما كان لهم عليه من الخراج وباعطائه بعض مدن وغيرته من انطيوكوس وغير ذلك من الاسباب الواهية وذلك لعلمه أنه لا سبيل الى الخروج من ربقة الاسر فسعى فيما يكون به التلطيف والتخفيف عليه

وأما انطيوكوس فلم يتبصر في عواقب هذه الحوادث حيث ظن أن الرومانيين يبقونه على ما كان عليه ببلاد آسيا آمنا مطمئنا فكان الامر بالعكس حيث اقتفوا أثره حتى انهزم هزيمة أخرى وأفضت به شدة الخوف والفزع الى الرضا بمشارطة كانت أشد عارا عليه ولم يسبق مثلها لمثله

ولا أعلم في التاريخ شرف نفس أعظم مما صمم عليه بعض ملوك عصرنا (وهو الملك لويز الرابع عشر) حيث آثر أن يدفن تحت ردم كرسي ملكه على أن يرضى بشروط لا تليق أن تطرق آذان ملك من الملوك فكان يجل شرف نفسه وعلو شأنه عن أن يتدانى أكثر مما ألجأته اليه نكباته وكان يعرف حق المعرفة أن ثبات الملك ودوامه انما يكون بالشجاعة والتجلد لا بما يوجب المعرة والمذلة

وكثيرا ما ترى ملوكا يعرفون الحمل على العدو ولكن قليل منهم من يحسن عمل الحرب ويدير الغزو والجهاد بأن يكون له اقتدار على انتهاز فرصة الظفر عند حصولها وعلى توقعها في أثناء الشروع ويكون عنده الحالتان على حد سواء وقل من يكون قبل الشروع غير واثق من نفسه بالنجاح فاذا شرع في الحرب ذهب تردده وثبت قدمه

ولم يبق لانطيوكوس بعد انحطاط دولته وضعف شوكته الا ممالك صغيرة ما عدا مملكة مصر فانها لحسن موقعها وجودة خصوبتها واتساع دائرة تجارتها وكثرة أهلها وقواها البحرية والبرية كانت قابلة لان تكون ذات شوكة ومهابة الا أن قسوة ملوكها وجبنهم وبخلهم وحمقهم وانهماكهم على الشهوات الذميمة كل ذلك أوجب بغضتهم عند الرعايا حتى كانوا في أغلب الاوقات لا يثبتون على كرسي المملكة الا بحماية الرومانيين واعانتهم

وكان من قوانين الحكومة المصرية في الجملة أن البنات يشركن اخوتهن في ولاية العهد على المملكة ولاجل حفظ وحدة الحكومة كانوا يزوجون الاخ أخته فمن هذا كان لا أضر على المملكة من قانون ولاية العهد فان أقل مشاجرة منزلية وقعت بين الملك والملكة من جهة الزوجية كانت مصدرا لوقوع الخلل في الحكومة فكان اذا لحق أحدهما أدنى غيظ من الآخر حرض عليه أهل اسكندرية وهم أمة أخلاط كثيرة الاهالي مستعدة دائما الى الانضمام الى أول من يريد منهما الفتنة والهرج وأيضا كانت مملكتا القيروان وقبرص في العادة بين يدي ملوك أخر من عائلة ملوك مصر وكان لهم حق الاشتراك في الحكومة المصرية كما أن ملوك مصر كان لهم حق الاشتراك معهم

فى بلادهم فلذا كان يوجد غالبا فى مصر ملوك متولية بالفعل وآخرون يطلبون الاستيلاء عليها فبذلك كان ملوكها دائما فى الاضطراب وعدم الثبات ولما كانوا بهذه المثابة فى داخل مملكتهم كان لاشوكة لهم فى خارجها

وكانت قوى ملوك مصر كقوى ملوك أخر من آسيا مقصورة على الاعانات اليونانية وكان اليونان زيادة على مافيهم من الميل الى الحرية وشرف العرض وحب الفخار لهم دائما والتولع برياضات البدن على اختلاف أنواعها فكنت ترى فى أمهات مدائنهم ألعابا قائما سوقها وكان من يظهر فيها على قرينه يوضع على رأسه تاج فى المحفل الحافل باليونان فكان يتولد من ذلك بينهم منافسة عامة فلذا كان فى مثل هذا الزمن الذى كان الحرب فيه بأسلحة نجاحها على حسب قوة المحارب وخفة حركته لايمكن أن يشك فى أن مستعمليها وهم اليونان يظفرون بالعدد الكثير من عساكر الامم المتبربرة المأخوذة كيف ما اتفق والمموثة الى الحرب بدون انتخاب ودليل ذلك ماظهر من عساكر دارا

ثم ان الرومانيين لاجل أن يجردوا هؤلاء الملوك عن مثل هؤلاء العساكر اليونانية وعن قوتهم الاصلية من غير أن يشعروا بذلك صنعوا شيئين أحدهما هو أنهم رتبوا بالتدريج قانونا لليونان مضمونه أن لايسوغ لهم أن يعقدوا معاهدة مع أى أمة من الامم أو يعدوها أو يحاربوها الابعد استئذانهم ورضاهم ثانيهما هو أنهم فى مشارطاتهم مع الملوك منعوهم أن يجمعوا عساكر من معاهديهم أى الرومانيين فبذلك أفضى بهم الامر الى أن اقتصروا على عساكرهم الاهلية (وهذه البوليتيقه هى نظير ماوقع منهم قبل ذلك فى مشارطتهم مع القرطاجيين حيث ألزموهم أن لايستمدوا بعساكر أجنبية بل يقتصروا على عساكرهم الاهلية)

فصل فى ذكر طيباريوس

كما أن البحر يأكل بالبطء مايعترضه كالجسور من غير دوى ولاصرير ثم يقطعها بغتة ويفيض على الفلوات التى كانت تحجزه عنها الجسور كذلك شوكة الحكم فى مدة أغسطوس كانت تعمل عملها بدون شعور بها وفى زمن طيباريوس ظهرت كل الظهور وأفسدت كل شئ مع العنفوان والشدة فقد كان فى زمنه قانون ملوكى يعاقب كل من يسئ الامة الرومانية فتمسك به طيباريوس ولم يستعمله فيما وضع لاجله بل فى كل مايلايم كراهته للامة وعدم وثوقه بها فلم يكن العقاب فى هذا القانون مقصورا على الاساءة بالفعل فقط بل وبالقول والاشارة وحديث النفس أيضا لان مايحصل فى الفؤاد وينطق به اللسان فى المسامرة والمفاكهة بين صاحبين ليس الاحديثا نفسيا وبذلك فقدت الحرية فى الولايم وانعدم الوثوق من بين الاقارب والصداقة من الارقاء وأمسك الامير

عن المخالطة والبشاشة فلهذا صارت المحبة خطرة وعدا البله من عدم الاحتراس وقلة الحزم وصارت الفضيلة تصنعا تستحضر به الامة سعادة الازمان السالفة

وليس فى الدنيا ظلم أعظم مما يستند فيه الى مخايل القوانين وظواهر الشرائع فهو كما اذا ذهب انسان الى من تخلص من الغرق وأغرقه على الخشبة التى كانت واسطة فى نجاته

وحيث لم يتفق أبدا أن طاغية خلا عن آلات وأدوات يستعين بها على ظلمه وطغيانه وجد طيباريوس دائما قضاة لا يتوقفون فى الحكم بالعقاب على كل من حصل فيه الشك والارتياب مع كثرة عدد من اتهم بذلك وفى زمن الجمهورية حيث كان مشورة السنت لا تحكم فى خصومات الآحاد كانت تعرف بواسطة وكلاء الاهالى الجنايات التى كانت تقع من المتعاهدين فأحال عليها طيباريوس الحكم فيما يسمى جناية الخوض فى الشوكة الملوكية يعنى فى حقه وقد سقطت هذه الجمعية الى حضيض الدناءة وبلغت من ذلك ما لا يمكن التعبير عنه وصار أربابها يتسابقون الى العبودية والمذلة حتى ان أعظمهم لاجل الحظوة عند سيجان الذى كان من أخصاء طيباريوس كان يسعى بالوشى والنميمة بين الامبراطور والاهالى

ويظهر لى أن هنالك أسبابا أميل الى الاستعباد المستولى على أرباب مشورة السنت فى ذلك الوقت وذلك ان قيصر بعد أن ظهر على غرض الجمهورية تسابق جميع أحبابه وأعدائه من أعضاء تلك المشورة الى توسيع دائرة شوكته والتساهل فى القوانين ومنحه خصائص وتشريفات متجاوزة الحد فمنهم من كان يبغى بذلك الحظوة عنده ومنهم من كان يريد كراهة الامة له فقد ذكر المؤرخ ديون أن بعضهم بالغ فى ترخيصه وتصرفه حتى عرض للجمعية أن ترخص لقيصر التمتع بكل من أعجبته من النساء فترتب على ذلك أنه لم يأخذ حذره من جمعية السنت فقتل فى هذه المشورة أشر قتلة ولكن كانت عاقبة ذلك أن الملق صار داء معديا غير منفر للنفوس

وكذلك قبل أن تحكم رومة بحاكم واحد كانت أموال أعيان الرومانيين لا تحصى بقطع النظر عن طرق تحصيلها وكسبها فلما كان زمن الامبراطورة ذهب أغلبها من أيديهم وفقد أرباب مشورة السنت هؤلاء الاعيان الذين كانوا ملجأ لهم يواسونهم بالاموال وقل أن أمكن أخذ شئ من الاقاليم الا لقيصر لاسيما حين أقام بها وكلاء تحصيل هم أشبه برؤساء الحسابات فى عصرنا هذا لكنه وان كان قد انسد على أهل جمعية السنت منبع الايراد الا أن المصاريف لم تزل لازمة لهم فقد صاروا فى حالة من العيش لا يقدرون على البقاء عليها الا باحسان الامبراطور

وكذلك سلب أغسطوس من الامة الرومانية حق التشريع وتقنين القوانين وحق الحكم فى الجنايات العامة الاهلية وانما أبقى لها ولو فى الظاهر انتخاب أرباب الحكم والقضاء وأما

طيباريوس الذى كان يخشى من جمعيات الاهالى الكثيرة فسلب منها أيضا حق الانتخاب ومنحه لجمعية السنت أى لنفسه ولا يخفى أن انحطاط قوة الامة بهذه المثابة أورث نفوس الاعيان المذلة والهوان وذلك أنه حين كانت الامة تتصرف فى المناصب وتمنحها الارباب الاقضية والاحكام كان هؤلاء الحكام المتقلدون بالمناصب المذكورة يتنازلون كثيرا ويرتكبون الدناءه ولكن كانوا يضيفون الى ذلك نوعا من الظهور يغطى هذا العيب امابكونهم يعملون أفراحا أو ولائم للاهالى أو يفرقون عليهم مقادير من المال أو الغلال ومع أن الاصل الموجب لذلك دنىء الا أن وسيلة الاعطاء والانعام منهم لا تخلو عن شئ من علو الهمة لانه يليق دائما بالرجل العظيم استمالة الناس اليه بالبذل والكرم ولكن لما سلبت وظيفة تقليد مناصب الاقضية والاحكام من أيدى الامة وصار الامبراطور بواسطة جمعية السنت هو الذى يقلد تلك المناصب صار الاعيان يسلكون فى طلبها وتحصيلها طرق الخسة والدناءة فلهذا صار كل من التملق والمعرة وارتكاب الجرائم فنا لابد منه فى الوصول الى تلك المناصب

ومع ذلك كان لا يظهر أن طيباريوش يريد مذلة جمعية السنت حيث كان لا يتشكى من شئ أكثر من الميل الذى كان يبعث هذه الجمعية الى العبودية فلذا كانت سيرته مشحونة بنفوره من هذا المعنى ولكن كان كاغلب الرجال يريد أشياء متضادة فلم تكن سياسته العمومية مطابقة لاهواء نفسه الخصوصية فكان يشتهى أن لو كانت جمعية السنت حرة وأهلا لان تقوى شوكة حكومته ولكن كان يريد أيضا جمعية توافقه على أغراضه فى جميع الاوقات وتبادر بما يزيل خوفه ويبعد غيرته ويشفى غليله من أعدائه فغلب رجل البشر رجل الملك يعنى أن الطبع البشرى غلب على الناموس الملكى وقد ذكرنا فيما تقدم أن الامة الرومانية سابقا بلغت مارتبها من أن يكون منها بطارقة (أشراف) وأن يكون منها حكام ينوبون عنها ماعساه أن يقع لها من الضرر والظلم ولاجل أن يكون هؤلاء البطارقة فيهم أهلية واقتدار على تنفيذ أحكامهم نالوا مزية كون ذواتهم مقدسة لا تنتهك حرمتهم ولا يتعرض لهم بسوء وصدر الامر بان كل من أساء واحدا منهم بالقول أو بالفعل عوقب بالقتل فورا ولما كان الامبراطرة منتظمين فى زمرة الحكام الحامين كانوا مثلهم فى الحرمة وبناء على هذا الاصل قتل كثير من الناس وسهل على الوشاة والمتجسسين السعى بالنميمة وصارت دعوى الخوض فى حق الامبراطور أو اهانته متوسعا فيها كما يراد بحيث صار يرافع فيمن يدعى عليه بهذا الذنب كما قال بلنياس وأن لا يستحق المؤاخذة عليه

ولكن يظهر لى أن من تلك المرافعات مالم يكن يعد عيبا فى ذلك الوقت كما يترا آى انه الآن عيب والا فكيف يتصور أن الامبراطور طيباريوس آخذ رجلا باع بيته وكانت فيه الصورة الامبراطورية

وأن دومتيانوس حكم بالقتل على امرأة لكونها خلعت ثيابها أمام صورته وعلى رجل من الاهالى لكونه رسم وصف جميع الارض وتخطيطها على جدران غرفته اللهم الا أن تكون هذه الاعمال لها فى عقول الرومانيين معنى آخر غير ما يتصور منها الآن وأظن أن بعضها مبنى على أن رومة لما تغيرت حكومتها صار بعد من الكبائر ما يترا آى لنا الآن انه ليس عظيم شئ قياسا على ما هو موجود الآن من أن أمة من أمم عصرنا هذا لا يمكن توهم الظلم فيها الا يباح عندها أن يشرب الشراب على محبة بعض من الناس لا أسميه

ولا يسعنى أن أترك شيأ مما يفيد معرفة القوة الغريزية للامة الرومانية فقد كانت مطبعة على الطاعة لحكامها والمسرة بمن تميز مقداره من هؤلاء الحكام فكيف لا وهى بعد موت جرمانيقوس ظهر عليها من الاسف والحزن واليأس ما لا ينتج مثله عند أهل أوروبا الآن فمن أراد أن يقف على ذلك فليراجع ما ذكره تاسيت وغيره من المؤرخين فى هذا المعنى من وصف الحزن الذى عم الخاص منهم والعام وشدته وطول مدته والافراط فيه ولم يكن ذلك صادرا منهم على وجه التصنع اذ يستحيل أن أمة بتمامها تتصنع أو تتملق أو تنافق

وذلك ان الامة الرومانية التى لم يكن لها مدخلية فى الحكومة كانت فى الغالب مؤلفة من المحررين العتقاء ومن لا تكسب لهم ممن كانت معيشتهم على طرف الخزينة الميرية فلذا كانت تتألم بعجزها كما تتألم الاطفال والنساء بالضعف فكأنها مريضة قصرت خوفها ورجاءها على جرمانيقوس فلما فقدت هذه الذخيرة وقعت فى اليأس والقنوط

وليس هنالك أحد يخشى المصائب جدا الا من كان سوء حاله قد بلغ منتهاه بحيث كان من حقه أن يأمن ولا يخشى شيأ بل يقول كما قالت اندرومالك (زوجة هقطور ملك ترواده) حين وقعت أسيرة فى أخذ ترواده وفقدت زوجها وقعت فى اليأس والقنوط ليتنى كنت أخاف ويوجد الآن فى نابلى خمسون ألف نفس لا يقتاتون سوى الاعشاب والحشائش وليس على أجسادهم الا ما يستر العورة فهم أشقى أهل الارض ومع ذلك يعتريهم الخوف الشديد بمجرد تصاعد أدنى دخان من بركان ويزوف فمن حمقهم يخافون الشقاء وهو واقع بهم

(فصل فى أصول جديده سلكها الرومانيون)

قد ينشأ فى بعض الاحيان عن جبن الامبراطرة وفى الغالب عن ضعف الدولة الاحتياج الى تسكين الامم التى يخشى منها الاغارة على الامبراطورية بالدراهم ولكن الصلح لا يصح أن يشترى لان من سبق له بيعه لا يزال دائما مقتدرا على تطلب شرائه منه المرة بعد المرة

فالاولى أن تخاطر الدولة بالحرب ولو صفقة المغبون من أن تربح الصلح بالثمن لما أن العادة أنه متى علم أن الملك لا يغلب الا بعد مجالدة طويلة يهاب ويحترم وأيضا شراء الصلح الذى كان عند الرومانيين من نوع المهاداة ظاهرا استحال الى عوائد مقررة وبعد أن كان فى مبدأ الامر رخصة ومحض تبرع صار لازما وعد من الحقوق المكتسبة لآخذيه ولما أبى بعض الامبراطرة اعطاءه بالكلية للامم المتعودة عليه أو أراد تنقيصه صار هؤلاء الامم أعدى عدو للامبراطورية ولذلك شواهد كثيرة نقتصر منها على ماسيأتى وهو أن الجيش الذى قاده يوليانوس لغزو الفرس اقتفاه فى رجعته قبائل العرب حيث ان هذا الامبراطور أبى أن يدفع لهم العوائد المقررة وبعد ذلك فى عهد والنطنيانوس غضب الالمان لما أعطى لهم هدايا أقل من العادة بكثير ومع أن هؤلاء الامم الشمالية كانوا أصحاب عرض وشرف نفس نقموا على الرومانيين فى تطير الخوض فى حقهم بمنعهم من حقهم الادعائى وشنوا عليهم الغارة وحاربوهم حربا شديدا

فترتب على ذلك أن جميع هؤلاء الامم المحيطين بالامبراطورية من جهتى أوروبا وآسيا سلبوا أموال الرومانيين شيأ فشيأ ولما كان اتساع دائرة الامبراطورية فى العظم انما هو مما كان يجلب اليهم من الذهب والفضة من سائر الملوك داخلهم الضعف حين انتقل الذهب والفضة من عندهم الى غيرهم من الامم (قال بعض الامبراطرة لجنده وقد أظهر القلق والضجر من قلة الدراهم ان كان مرادكم المال فهاهى بلاد العجم اذهبوا بنا اليها لنكتسب أموالها فانه لم يبق شئ من الخزائن التى كانت تملكها الجمهورية الرومانية وداء الفاقة انما حصل ممن أشار على الامبراطرة بشراء الصلح من الامم المتبربرة فقد نفدت أموالنا وخربت مدننا وديارنا والملك الذى لا يملك شيأ الا شرف النفس لا يستحى أن يعترف بالفقر المجرد على العيب انتهى) فالخلل الذى يقع من رجال الدولة ليس ناشئا دائما عن مجرد هوى النفس بل منشؤه فى الغالب ضروريات مقتضيات الاحوال ومن المضار تتولد المضار

وذلك أن عساكر الطوائف صارت حملا على الدولة كما سبقت الاشارة اليه وبيانه أن العساكر المنتظمة كان لها من الكسب ثلاث جهات وهى العلوفة المعتادة والمكافأة بعد الخدمة والانعامات الطارئة عند الاقتضاء وصارت هذه الجهات الثلاث حقوقا واجبة لهذه العصابة التى كان بين يديها الملوك والاهالى

فلما عجزت الدولة عن القيام بهذه الحقوق استبدلت هؤلاء العساكر بعساكر الطوائف التى هى أقل منها كلفة وأرخص علوفة وكان أخذها على شروط من الامم المتبربرة حيث لم يكن عندهم زينة عساكر الرومانيين ولا عقلهم ولا طمعهم وكان هناك سهولة أخرى لايثارهم وذلك أن المتبربرين كانوا يغيرون بغتة على اقليم من الاقاليم الرومانية فلا يجد الرومانيون بعد قصد السفر لمانعة أهمية

و يتعذر عليهم جمع العساكر قبل فوات الوقت من الاقاليم والولايات فيضطرون الى أخذ طائفة متبربرة متأهبة للحرب بواسطة الدراهم ومتهيئة للسلب والقتال فبذلك كان يجد الحاكم مطلوبه فى وقته ولكنه فيما بعد يدبر هؤلاء العساكر المساعدون كالعدو فى الخطر

وكان أوائل الرومانيين لا يتخذون جنودا من الاغراب المساعدين تزيد بكثير على العساكر الرومانية ولكون محالفيهم كانوا رعاياهم بالكلية لم يرض الرومانيون أن يتخذوا لهم محالفين ورعايا من الامم الفائقة عليهم فى الشجاعة

ولكن فى الازمان المتأخرة لم يقتصروا على اهمال النسبة التى كانوا محافظين عليها فى الازمان الاولية بين العساكر الاهلية والعساكر الاجنبية بل جعلوا فى ألايات الجيوش الاهلية دخيلا عظيما من العساكر الاجنبية

فبهذا تجددت عندهم عوائد مخالفة بالكلية للعوائد التى ملكوا بها فى قديم الزمان الدنيا بأسرها وكانوا سابقا محافظين فى سياستهم على تخصيص أهاليهم بفن العسكرية وحرمان من جاورهم من ذلك الفن ثم بطل ذلك من عندهم وتجدد عند غيرهم من مجاوريهم ولا مانع من أن يقال ان تاريخ الرومانيين عبارة عن كونهم هزموا جميع الامم باصولهم فلما توصل هؤلاء الامم الى هذه الاصول لم يتيسر بقاء الجمهورية على حالها فوجب العدول الى تغيير صورة الحكومة فوضع فى هذه الحكومة الجديدة أصول منافذة لاصول الحكومة الاولية انحطت بها درجة عظمهم

ولا يقال ان الاستيلاء على الدنيا انما هو بسعادة البخت ووفور الحظ كما يقضى بذلك حالة دولة الرومانيين فانها توالت عليها السعود الدائمة حين كانت محكومة بصورة مخصوصة وتوالت عليها النحوس المتعاقبة حين تغيرت صورة حكومتها بنوع آخر وانما يقال ان هنالك عللا كلية باطنية أو ظاهرية فعالة فى كل مملكة ترفعها وتمسكها من الزوال أو تضعها وتسرع زوالها وجميع العوارض الجزئية لا تخرج عن تأثير تلك العلل الكلية فاذا اتفق أن واقعة من الوقائع الحربية أعنى علة جزئية أبادت مملكة من الممالك فلا بد وأن يكون هنالك علة كلية اقتضت أنه يكفى فى ابادة هذه المملكة واقعة واحدة وقصارى الامر أن تأثير العلة الكلية يسرى فى جميع جزئياتها

فانا نرى أنه منذ نحو قرنين كانت جيوش الدانيمرقه يهزمها غالبا جيوش الاسوج فوجب أن يكون هنالك بقطع النظر عن شجاعة الامتين وعن مزية الاسلحة خلل داخلى فى أصول الحكومة الدانيمرقية إما فى الادارة العسكرية أو فى الادارة الملكية ترتب عليه هزيمة جيوشها وأظن أن هذا الخلل لا يتعسر ادراكه

وبالجملة فقد فقد الرومانيون التربية العسكرية حتى أفضى بهم ذلك الى هجرهم نفس أسلحتهم الخاصة بهم فقد حكى المؤلف ويجيسه أن العساكر لما وجدوا أسلحتهم ثقيلة عليهم جدا التمسوا

من الامبراطور غراسيانوس أن يعافيهم من لبس الدروع فأجابهم الى ذلك ثم أذن لهم أيضا فى خلع الخود والعمائم الحربية فصاروا بذلك عرضة للطعن بدون وقاية وسهل عليهم الفرار وتولى الادبار
وقد كره هذا المؤلف أيضا أنهم نسوا اعادة تحصين معسكرهم وبهذا التفريط صارت عساكرهم عرضة لسبى فرسان الامم المتبربرة وأسرهم لها وكانت الفرسان عند أوائل الرومانيين قليلة فلم تكن نسبتها للمشاة المنتظمة الاجزأ من أحد عشر وربما كانت دون ذلك وأغرب من هذا أن نسبة الفرسان عندهم الى المشاة هى أقل بكثير من نسبتها اليها عندنا فى هذا الزمان مع شدة الحاجة الى المشاة فى المحاصرات المتكاثرة الآن حيث ان الفرسان فى ذلك نفعها قليل
ولما أخذت دولتهم فى الانحطاط كثرت عندهم الفرسان حتى كادت عساكرهم لا تكون الا فرسانا والظاهر أنه كلما كثرت معرفة أمة فى فن العسكرية كان معظم تعويلها على المشاة وكلما قلت معرفتها له تكاثرت فرسانها وذلك أنه بدون التعليمات العسكرية والتربية الحربية تكون العساكر المشاة ثقيلة كانت أو خفيفة كلاشئ بخلاف الفرسان فانها تسعف ولو كانت غير منتظمة (فقد صدر عن فرسان التتار من غير أن تعلم أصول الحركات العسكرية الافرنجية أمور جسيمة كما يفهم ذلك من تواريخ فتح المغول للصين) لما أن معظم قوة الفرسان فى حملها ومصادمتها المصادمة الخاصة بها وأما قوة المشاة فانما هى فى مجالدتها وثباتها المخصوص فقوة المشاة تكاد أن تكون فى الحقيقة قوة مدافعة لا قوة مهاجمة
وبالجملة فقوة الفرسان وقتية وقوة المشاة تستمر على العمل زمنا طويلا غير أنه يلزم لاستمرارها بهذه المثابة التربية والتعليم
وقد توصل الرومانيون الى التصرف بالامر والنهى فى جميع الامم ولم يكن هذا بمجرد معرفتهم فن العسكرية بل بضمهم الى ذلك سلوك سبيل الحزم والتعقل والثبات والميل الى الفخار وحب الوطن فلما زالت منهم هذه الصفات فى زمن الامبراطرة وبقى لهم فن الحرب حفظوا به ما اكتسبوه وحصلوه مع ضعفهم وظلم أمرائهم فلما دخل الفساد فى عساكرهم صاروا مغنما لجميع الامم
وذلك أن الدولة التى أقيمت بالاسلحة يلزم أن تبقى بالاسلحة وكما أن الدولة اذا كانت منغصة بالفتن لا يتصور كيف يكون انقاذها كذلك اذا كانت فى الصلح والراحة وكانت مهابة الشوكة لا يدرى أيضا كيف تتغير عن هذه الحالة الى حالة الحرب والتعب حتى يحترس لها فبهذا تهمل فى العسكرية لانها لا ترجو خيرها بل تخاف شرها وفى الغالب تبحث عن اضعافها
وأيضا كان من القوانين المتمسك بها عند أوائل الرومانيين أن من ترك محله من العساكر أو ألقى سلاحه فى المعركة فعقابه الموت فجدد كل من بوليانوس وولنطنيانوس هذه القوانين القديمة

بمافيها من الجزاء فلما دخلت العساكر المتبربرة فى خدمة الرومانيين وكانوا متعودين على فعل الحرب كما يفعله الآن قبائل التتار من الفر لاجل الكر وقصد السلب والنهب أكثر من قصد الشرف لم يقدر هؤلاء العساكر على العمل بموجب تلك القوانين القديمة لمنابذتها التربيتهم وطبيعتهم (فلم يرضوا أن يلتزموا بما كان يلتزمه عساكر الرومانيين من الواجبات)

وكان من جملة التربية العسكرية عند أوائل الرومانيين ماوقع من أن بعض أمراء الجيوش حكموا على أولادهم بالقتل فى نظير كونهم هجموا على العدو وانتصروا عليه قبل أن يصدر لهم الاذن بذلك فلما اختلطوا بالعساكر المتبربرة سرى لهم من طباعهم بعض ميل الى الحرية وعدم الطاعة ومن قرأ قصة حروب الجنرال بيليزيرة مع الغوطية رأى أن هذا الجنرال كاد أن يكون فى أغلب الاوقات غير مطاع ممن تحته من الرؤساء

وكان سلا وسرطوريوس فى شدة الحروب الداخلية يؤثران الهلاك على أن يفعل أحدهما مع الآخر شيأ يعود بالنفع على متريداتس (ملك بلاد بنطش) ولكن فى الازمان الاخيرة التى أعقبت ذلك كان متى اقتضت مصلحة وزير أو أمير أن يدخل الاجانب فى البلاد الرومانية لحرص أو انتقام أو مطمع يسلم لهم أولا فيها (وليس هذا بعجيب من اختلاط الرومانيين بامم كانت قبل ذلك هائمة بدون وطن وكان منها فى الغالب فرق عسكرية كاملة تنضم الى العدو الذى غلبها وتقاتل معه ملتها كما حصل ذلك من الغوطية فى عهد ملكهم ويتجيس)

وأشد الدول احتياجا الى الخراج هى الدول الآخذة فى الضعف بحيث تضطر الى زيادة ضربه على الاهالى بقدر ضعفهم عن حمله والوفاء به فلذلك صارت الخراجات المضروبة على الاقاليم الرومانية لا تطاق ولا تحمل

وبالوقوف على كتاب سلويانس يعلم الظلم الشديد الذى كان يقع فى الامة الرومانية فترى الاهالى حين كان يضيق عليهم جباة الاموال المحصلون لها لا يجدون لهم ملجأ الا الهروب عند الامم المتبربرة أو بيع حريتهم لاى انسان يريد شراءها

وبهذا يتبين لك فى تاريخ الفرنساوية سر تحمل الغليسة (قدماء الفرنساوية) للفتنة التى وقعت وكانت أساسا للفرق بين الاشراف والعامة وذلك ان الاعراب الذين حكموا عليهم بعد الرومانيين لما جعلوا كثيرا من الاهالى أرقاء الاراضى بمعنى أنهم تابعون للارض المنسوبين اليها قل أن جددوا من الجبر شيأ زائدا عما وقع من الظلم ممن قبلهم من الرومانيين

(من كتاب برهان البيان وبيان البرهان
وفى استكمال واختلال دولة الرومان)

ذكر مقتل على بن أبى طالب رضى الله عنه

وفى سنة أربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج فتذاكروا الناس وما هم فيه من الحرب والفتنة وتعاهد ثلاثة منهم على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص وتواعدوا واتفقوا على أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذى يتوجه اليه حتى يقتله أو يقتل دونه وهم عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله وكان من تجيب وكان عدادهم فى مراد فنسب اليهم وحجاج بن عبد الله الصريمى ولقبه البرك وزادويه مولى بنى العنبر فقال ابن ملجم أنا أقتل عليا وقال البرك أنا أقتل معاوية وقال زادويه أنا أقتل عمرو بن العاص واتعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من شهر رمضان وقيل ليلة احدى وعشرين فخرج عبد الرحمن بن ملجم المرادى الى على فلما قدم الكوفة أتى قطام بنت عمه وكان على قتل أباها وأخاها يوم النهروان وكانت أجمل أهل زمانها فخطبها فقالت لا أتزوج حتى تسمى لى قال لا تسألينى شيأ الا أعطيته فقالت ثلاثة آلاف وعبدا وقينة وقتل على فقال ما سألت هو لك مهر الا قتل على فلا أراك تدركينه قالت فالتمس غرة فان أصبته شفيت نفسى ونفعك العيش معى وان هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا فقال والله ما جاء بى الى هذا المصر وقد كنت هاربا منه الا ذلك وقد أعطيتك ما سألت وخرج من عندها وهو يقول

ثلاثة آلاف وعبد وقينة * وقتل على بالحسام المصمم
فلا مهر أعلى من على وان علا * ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

فلقيه رجل من أشجع يقال له شبيب بن بجيرة من الخوارج فقال له هل لك فى شرف الدنيا والآخرة فقال وما ذاك قال تساعدنى على قتل على قال ثكلتك أمك لقد جئت شيأ إدًا قد عرفت غناءه فى الاسلام وسابقته مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال ابن ملجم ويحك أما تعلم أنه قد حكم الرجال فى كتاب الله وقتل اخواننا المصلين فنقتله ببعض اخواننا فأقبل معه حتى دخل على قطام وهى فى المسجد الاعظم وقد ضربت كلة بها وهى معتكفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر رمضان فأعلمتهما أن مجاشع بن وردان بن علقمة قد انتدب لقتله معهما فدعت لهما بحرير وعصبتهما وأخذوا أسيافهم وقعدوا مقابلين لباب السدة التى يخرج منها على للمسجد وكان على يخرج كل غداة أول الاذان للصلاة وقد كان ابن ملجم مر بالاشعث وهو فى المسجد فقال له فضحك الصبح فسمعها حجر بن عدى فقال قتلته يا أعور قتلك الله وخرج على رضى الله عنه ينادى أيها الناس الصلاة فشد عليه ابن ملجم وأصحابه وهم يقولون الحكم لله لا لك وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف فى قرنه وأما شبيب فوقعت ضربته بعضادة الباب وأما ابن وردان فهرب وقال على لا يفوتنكم الرجل

وشدّ الناس على ابن ملجم يرمونه بالحصباء ويتناولونه ويصيحون فضرب ساقه رجل من همدان برجله وضرب المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وجهه فصرعه وأقبل به الى الحسن ودخل شبيب بين الناس فنجا بنفسه وهرب حتى أتى رحله فدخل عليه عبد الله بن بجرة وهو أحد بنى أبيه فرآه ينزع الحرير عن صدره فسأله عن ذلك فخبره خبره فانصرف عبد الله الى رحله وأقبل اليه بسيفه فضربه حتى قتله وقيل ان عليا لم ينم تلك الليلة وانه لم يزل يمشى بين الباب والحجرة وهو يقول والله ما كذبت ولا كذبت وانها الليلة التى وعدت فلما صرخ بط كان للصبيان صاح بهن بعض من فى الدار فقال على ويحك دعهن فانهن نوائح وقد ذكر طائفة من الناس أن عليا رضى الله عنه أوصى الى ابنيه الحسن والحسين لانهما شريكاه فى آية التطهير وهذا قول كثير ممن ذهب الى القول بالنص ودخل عليه الناس يسألونه فقالوا يا أمير المؤمنين أرأيت ان فقدناك ولا نفقدك أنبايع الحسن قال لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما أوصيكما بتقوى الله وحده ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تأسفا على شئ منها قولا الحق وارحما اليتيم وأعينا الضعيف وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا ولا تأخذكما فى الله لومة لائم ثم نظر الى ابن الحنفية فقال هل سمعت ما أوصيت به أخويك قال نعم قال أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك وتزيين أمرهما ولا تقطعن أمرا دونهما ثم قال لهما أوصيكما به فانه شقيقكما وابن أبيكما فأكرماه واعرفا حقه فقال له رجل من القوم ألا تعهد يا أمير المؤمنين قال لا ولكن أتركهم كما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فماذا تقول لربك اذا أتيته قال أقول اللهم انك أبقيتنى فيهم ما شئت أن تبقينى ثم قبضتنى وتركتك فيهم فان شئت أفسدتهم وان شئت أصلحتهم ثم قال أما والله انها الليلة التى ضرب فيها يوشع ابن نون ليلة سبع عشرة وقبض ليلة احدى وعشرين وبقى على الجمعة والسبت وقبض ليلة الاحد ودفن بالرحبة عند مسجد الكوفة وقبض وقد أتى عليه اثنتان وسبعون سنة وقيل اثنتان وستون وكان كما قال الحسن والله لقد قبض فيكم الليلة رجل ما سبقه الاولون لا بفضل النبوة ولا يدركه الآخرون وان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبعثه المبعث فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه وكان الذى صلى عليه الحسن ابنه وكبر عليه سبعا وقيل غير ذلك ولم يترك صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم بقيت من اعطائه أراد أن يشترى بها خادما لاهله وقال بعضهم ترك لاهله مائتين وخمسين درهما ومصحفه وسيفه ولما أرادوا قتل ابن ملجم لعنه الله قال عبد الله بن جعفر دعونى حتى أشفى نفسى منه فقطع يديه ورجليه وأحمى له مسمارا حتى اذا صار جمرة كحله به فقال سبحان الذى خلق الانسان انك لتكحل عمك بملمول رصاص ثم ان الناس أخذوه وأدرجوه فى بوارى ثم طلوها بالنفط وأشعلوا فيها النار فاحترق

ولعمران بن حطان ولابيه حطان أخبار كثيرة وكان آخر من خرج منهم ربيعة المعروف بشروان فأدخل على المقتدر بالله بعث به ابن حمدان من هرموناء وقد كان خرج فى أيامه أيضا المعروف بأبى شعيب وقد رثى الناس أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه فى ذلك الوقت والى هذه الغاية وذكروا مقتله وممن رثاه فى ذلك الوقت أبو الاسود الدؤلى من أبيات

ألا أبلغ معاوية بن حرب * فلا قرت عيون الشامتينا
أفى شهر الصيام فجعتمونا * بخير الناس طرا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا * وذللها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها * ومن قرأ المثانى والمبينا
اذا استقبلت وجه أبى حسين * رأيت النور فوق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت * بأنك خيرهم حسبا ودينا

وانطلق البرك الصريمى الى معاوية فطعنه بخنجر فى أليته وهو يصلى فأخذوا وأوقف بين يديه فقال له ويلك وما أنت وما خبرك قال لا تقتلنى وأخبره قال انا تبايعنا فى هذه الليلة عليك وعلى على وعلى عمرو فان أردت فاحبسنى عندك فان كانا قتلا والا خليت سبيلى فطلبت قتل على ولك على أن أقتله وأن آتيك حتى أضع يدى فى يدك فقال بعض الناس قتله يومئذ وقال بعضهم حبسه حتى جاءه خبر قتل على فأطلقه وانطلق زادويه عمرو بن بكر التميمى الى عمرو بن العاص فوجد خارجة قاضى مصر جالسا على السرير يطعم الناس فى مجلس عمرو وقيل بل صلى خارجة بالناس الغداة ذلك اليوم وتخلف عمرو عن الصلاة لعارض فضربه بالسيف فدخل عليه عمرو وبه رمق فقال له خارجة والله ما أراد غيرك فقال عمرو ولكن الله أراد خارجة وأوقف الرجل بين يدى عمرو فسأله عن خبره فقص عليه القصة وأخبره أن عليا ومعاوية قد قتلا فى هذه الليلة فقال ان قتلا أو لم يقتلا فلابد من قتلك فبكى فقيل له أجزعا من الموت مع هذا الاقدام فقال لا والله ولكن غما أن يفوز صاحبى بقتل على ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو فضرب عنقه وصلب وكان على رضى الله عنه كثيرا ما يتمثل

تلكم قريش تمنانى لتقتلنى * فلا وربك ما بروا وما ظفروا
فان هلكت فرهن ذمتى لهم * بذات ودقين لا يعفو لها أثر

وكان يكثر من ذكر هذين البيتين

أشدد حيازيمك للموت * فان الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت * اذا حل بواديكا

وسمعاسنه في الوقت الذى قتل فيه فانه قد خرج الى المسجد وقد عسر عليه فتح باب داره وكان من
جذوع النخل فاقتلعه وجعله ناحية وانحل ازاره فشده وجعل ينشد هذين البيتين المتقدمين
وقد كان معاوية يدس أناسا الى الكوفة يشيعون موته وأكثر الناس القول فى ذلك حتى بلغ عليا
فقال فى مجلسه قد أكثرتم من نعى معاوية والله مامات ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمى وانما أراد
ابن آكلة الأكباد أن يعلم ذلك منى فبعث من يشيع ذلك فيكم ليعلم ويتيقن ماعندى فيه وما يكون
من أمره فى المستقبل من الزمان ومر فى كلام كثير يذكر فيه أيام معاوية ومن تلاه من يزيد ومروان
وبنيه وذكر الحجاج وما يسومهم من العذاب فارتفع الضجيج وكثر البكاء والشهيق فقام قائم من
الناس فقال يا أمير المؤمنين لقد وصفت أمورا عظيمة أئنه ان ذلك كائن قال على والله ان ذلك لكائن
ما كذبت ولا كذبت فقال آخرون متى ذلك يا أمير المؤمنين قال اذا خضبت هذه من هذه ووضع
احدى يديه على لحيته والاخرى على رأسه فأكثر الناس من البكاء فقال لا تبكوا فى وقتكم هذا
فستبكون بعدى طويلا فكاتب أكثر أهل الكوفة معاوية سرا فى أمورهم واتخذوا عنده الايادى
فوالله مامضت الأيام قلائل حتى كان ذلك (من مروج الذهب)

ذكر لمع من كلامه وأخباره وزهده رضوان الله عليه

لم يلبس عليه السلام فى أيامه ثوبا جديدا ولا اقتنى ضيعة ولا ربعا الا شيأ كان له بسرف مما تصدق
به وحبسه والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة
يوردها على البديهة تداول الناس ذلك عنه قولا وعملا (وقيل له) من خيار العباد قال الذين اذا
أحسنوا استبشروا واذا أساؤا استغفروا واذا ابتلوا صبروا واذا غضبوا غفروا (وكان) يقول
الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها الدنيا مسجد أحباء الله
ومصلى ملائكة الله ومهبط وحيه ومتجر أوليائه اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة فمن ذا
يذمها وقد آذنت ببينها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها ومثلت لهم ببلائها البلاء
وشوقت بسرورها الى السرور وراحت بفجيعة وابتكرت بعافية تحذيرا وترغيبا وتخويفا
فذمها رجال غب الندامة وحمدها آخرون غب المكافأة ذكرتهم فذكروا تصاريفها وصدقتهم
فصدقوا احديثها فيا أيها الذام للدنيا المغتر بغرورها متى استدامت لك الدنيا بل متى غرتك
من نفسها أبمضاجع آبائك من البلى أم بمصارع أمهاتك من الثرى كم قد عللت بكفك ومرضت
بيدك من تبغى له الشفاء وتستوصف له الاطباء لم تنفعه بشفائك ولم تستعف له بطلبتك
قد مثلت لك به الدنيا نفسك وبمصرعه مصرعك غداة لا ينفعك بكاؤك ولا يغنى عنك أحباؤك

ولا تسمع فى مدح الدنيا أحسن من هذا (ومما) حفظ من كلامه فى بعض مقاماته فى صفة الدنيا أنه قال ألا ان الدنيا قد ارتحلت مدبرة وان الآخرة قد دنت مقبلة ولهذه أبناء ولهذه أبناء فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ألا وكونوا من الزاهدين فى الدنيا والراغبين فى الآخرة ان الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الارض بساطا والتراب فراشا والماء طيبا وقوضوا الدنيا تقويضا ألا ومن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ومن راقب الخير سارع فى الخيرات ألا وان لله عبادا يرون أهل الجنة فى الجنة منعمين مخلدين قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة أنفسهم عفيفة وحاجتهم خفيفة صبروا أياما قليلة فصارت لهم العقبى راحة طويلة أما الليل فصافو أقدامهم تجرى دموعهم على خدودهم يجأرون الى ربهم ويسعون فى فكاك رقابهم وأما النهار فعلماء حكماء بررة أتقياء كأنهم القداح براهم الخوف والعبادة ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض أم خولطوا افقد خالطهم أمر عظيم من ذكر النار ومن فيها (وقال لابنه الحسن) يا بنى استغن عمن شئت تكن نظيره وسل من شئت تكن حقيره وأعط من شئت تكن أميره (ودخل) عليه رجل من أصحابه فقال كيف أصبحت يا أمير المؤمنين قال أصبحت ضعيفا مذنبا آكل رزقى وأنظر أجلى قال وما تقول فى الدنيا قال وما أقول فى دار أولها غم وآخرها موت من استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن حلالها حساب وحرامها عقاب قال فأى الخلق أنعم قال أجساد تحت التراب قد أمنت العقاب وهى تنتظر الثواب (ودخل) ضرار بن حمزة وكان من خواص على على معاوية وافدا فقال له صف لى عليا قال اعفنى يا أمير المؤمنين قال معاوية لابد من ذلك فقال أما اذا كان لابد من ذلك فانه كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يعجبه من الطعام ما خشن ومن اللباس ما قصر وكان والله يجيبنا اذا دعوناه ويعطينا اذا سألناه وكنا والله على تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة له ولا نبتدئه لعظمه فى نفوسنا يبسم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم يعظم أهل الدين ويرحم المساكين ويطعم فى المسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة يكسو العريان وينصر اللهفان ويستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل وظلمته وكأنى به وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وهو فى محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ويقول يا دنيا غرى غيرى الى تعرضت أم الى تشوقت هيهات هيهات لاحان حينك قد أبنتك ثلاثا لا رجعة لى فيك عمرك قصير وعيشك حقير وخطك يسير آه من قلة الزاد ووحشة الطريق فقال له معاوية زدنى شيأ من كلامه فقال ضرار كان يقول أعجب ما فى الانسان قلبه وله موادمن الحكمة وأضداد من خلافها

فان سنح له الرجاء أماله الطمع وان مال به الطمع أهلكه الحرص وان ملكه القنوط قتله الاسف وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ وان أسعده الرضى نسي التحفظ وان أماله الخوف فضحه الجزع وان أفاد مالا أطغاه الغنى وان عضته فاقة فضحه الفقر وان أجهده الجوع أقعده الضعف وان أفرط به الشبع كظته البطنة فكل تقصير به مضر وكل افراط له مفسد فقال له معاوية زدني كلما وعيته من كلامه قال هيهات أن آتي على جميع ما سمعته منه ثم قال سمعته يوصي كميل بن زياد يا كميل ذب عن المؤمن فان ظهره حمى الله ونفسه كريمة على الله وظالمه خصم الله وأحذركم من ليس له ناصر الا الله قال وسمعته يقول ذات يوم ان هذه الدنيا اذا أقبلت على قوم أعارتهم محاسن غيرهم واذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن أنفسهم قال وسمعته يقول بطر الغنى يمنع من عز الصبر قال وسمعته يقول ينبغي للمؤمن أن يكون نظره عبرة وسكوته فكرة وكلامه حكمة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قتل جعفر بن أبي طالب الطيار بمؤتة من أرض الشام لا يبعث بعلي في وجهة من الوجوه الا يقول رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين وحمل علي يوم أحد على كردوس من المشركين خشن فكشفهم فقال جبريل يا محمد ان هذه لهي المواساة فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان عليا مني قال جبريل وأنا منكم كذلك ذكره اسحاق بن ابراهيم وغيره ووقف على علي سائل فقال للحسن قل لامك تدفع اليه درهما فقال انما عندنا ستة دراهم للدقيق فقال علي لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده ثم أمر للسائل بالستة الدراهم كلها فما برح علي رضي الله عنه حتى مر به رجل يقود بعيرا فاشتراه منه بمائة وأربعين درهما وأنسأ أجله ثمانية أياما فلم يحل أجله حتى مر به رجل والبعير معقول فقال بكم هذا فقال بمائتي درهم فقال قد أخذته فوزن له الثمن فدفع علي منه مائة وأربعين درهما للذي ابتاعه منه ودخل بالستين الباقية على فاطمة عليها السلام فسألته من أين هي فقال هذه تصديق لما جاء به أبوك صلى الله عليه وسلم من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومر ابن عباس بقوم ينالون من علي ويسبونه فقال لقائده أدنني منهم فأدناه فقال أيكم الساب لله قالوا نعوذ بالله أن نسب الله فقال أيكم الساب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا نعوذ بالله أن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيكم الساب علي بن أبي طالب قالوا أما هذه فنعم قال أشهد لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سبني فقد سب الله ومن سب عليا فقد سبني فأطرقوا فلما ولى قال لقائده كيف رأيتهم فقال

نظروا اليك بأعين مزورة * نظر التيوس الى شفار الجازر

فقال زدني فداك أبي وأمي فقال

خزر العيون منكسي أذقانهم * نظر الذليل الى العزيز القاهر

قال زدني فداك أبي وأمي قال ما عندي مزيد ولكن عندي

أحياؤهم تجنى على أمواتهم * والميتون فضيحة للغابر

وقد ذكر جماعة من أهل النقل عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي بن الحسين بن علي أن عليا قال في صبيحة الليلة التي ضربه فيها عبد الرحمن بن ملجم بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم كل امرئ ملاقيه ما يفر منه والاجل تساق النفس اليه والهرب منه موافاته كم اطردت الايام أبحثها عن مكنون هذا الامر فأبى الله عز وجل الا اخفاءه هيهات علم مكنون أما وصيتي فلا تشركوا به شيأ ومحمد لا تضيعوا سنته أقيموا هذين العمودين حمل كل امرئ منكم مجهوده وخفف عن الجهلة رب رحيم ودين قويم وامام عليم كأني اعصار ودوى رياح تحت ظل غمامة اضمحل راكدها فخطها من الارض حيا وبقي من بعدي خبرها واستكنه بعد حركة كاظمة بعد نطق ليعظكم هدوى وخفوت اطرافي انه أوعظ لكم من نطق البليغ ودعتكم وداع امرئ مرصد للتلاق وغدا ترون ويكشف عن ساق عليكم السلام الى يوم المرام كنت بالامس صاحبكم واليوم عظة لكم وغدا أفارقكم ان أفق فأنا ولي دمي وان أمت فالقيامة ميعادي والعفو أقرب للتقوى ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم (من مروج الذهب)

ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم

واستخلف عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين وهو اليوم الذي مات فيه سليمان وتوفي بدير سمعان من أعمال حمص مما يلي بلاد قنسرين يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة احدى ومائة فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام وقبض وهو ابن تسع وثلاثين سنة وقبره مشهور في هذا الموضع الى هذه الغاية معظم يغشاه كثير من الناس من الحاضرة والبادية لم يتعرض لنبشه فيما سلف من الزمان كما تعرض لقبور غيره من بني أمية وأمه بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وقيل انه قبض وهو ابن أربعين سنة وقيل ابن احدى وأربعين سنة وقد تنوزع أيضا في مقدار مدته في الخلافة

ذكر لمع من أخباره وسيره وزهده

لم تكن خلافة عمر في عهد تقدم وكان السبب فيها أن سليمان لما حضرته الوفاة بمرج دابق دعا رجاء ابن حياة ومحمد بن شهاب الزهري ومكحولا وغيرهم من العلماء ممن كان في عسكره غازيا ونافرا

فكتب وصيته وأشهدهم عليها وقال اذا أنا مت فأذنوا بالصلاة جامعة ثم اقرأوا هذا الكتاب على الناس فلما فرغ من دفنه نودى الصلاة جامعة فاجتمع الناس وحضر بنو مروان فاشرأبوا للخلافة وتشوفوا نحوها فقام الزهرى فقال أيها الناس أرضيتم من سماه أمير المؤمنين سليمان فى وصيته فقالوا نعم فقرأ الكتاب فاذا اسم عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك فقام مكحول فقال أين عمر وكان عمر فى أواخر الناس فاسترجع حين دعى باسمه مرتين أو ثلاثا فأتوه قوم فأخذوا بيده وعضديه فأقاموه وذهبوا به الى المنبر فصعد وجلس على المرقاة الثانية وللمنبر خمس مراق فكان أول من بايعه من الناس يزيد بن عبد الملك وقام سعيد وهشام فانصرفا ولم يبايعا وبايع الناس جميعا ثم بايع سعيد وهشام بعد ذلك بيومين وكان عمر فى نهاية النسك والتواضع فصرف عمال من كان قبله من بنى أمية واستعمل أصلح من قدر عليه فسلك عماله طريقته وترك لعن على عليه السلام على المنابر وجعل مكانه ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم وقيل بل جعل مكان ذلك ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى الآية وقيل بل جعلهما جميعا فاستعمل الناس ذلك فى الخطبة الى هذه الغاية ولما استخلف عمر دخل عليه سالم السدى وكان من خاصته فقال له عمر أسرك ماوليت أم ساءك فقال سرنى للناس وساءنى لك قال انى أخاف أن أكون أوبقت نفسى قال ما أحسن حالك ان كنت تخاف انى أخاف عليك أن لا تخاف قال عظنى قال أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة وكتب طاوس الى عمر ان أردت أن يكون عملك خيرا كله فاستعمل أهل الخير فقال عمر كفى بها موعظة ولما أفضى اليه الامر كان أول خطبة خطب الناس بها أن قال أيها الناس انما نحن من أصول قد مضت فروعها فما بقاء فرع بعد أصله وانما الناس فى هذه الدنيا أعراض تنتضل فيهم المنايا وهم فيها نصب المصائب مع كل جرعة شرق وفى كل أكلة غصص لا ينالون نعمة الا بفراق أخرى ولا يعمر معمر منكم يوما من عمره الا بهدم آخر من أجله وكتب الى عامله بالمدينة أن اقسم فى ولد على بن أبى طالب عشرة آلاف دينار فكتب اليه ان عليا قد ولد له فى عدة قبائل من قريش ففى أى ولده فكتب اليه لو كتبت اليك فى شاة تذبحها لكتبت الى سوداء أو بيضاء اذا أتاك كتابى هذا فاقسم فى ولد على من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فطالما تخطتهم حقوقهم والسلام (وخطب) فى بعض مقاماته فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه أيها الناس انه لا كتاب بعد القرآن ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ألا وانى لست بقاض ولكنى منفذ ألا وانى لست بمبتدع ولكنى متبع ان الرجل الهارب من الامام الظالم هو العاصى ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (وبعث) عمر وفدا الى ملك الروم فى أمر من مصالح المسلمين وحق يدعوه اليه

فلما دخلوا اذا ترجمان يفسر عليه وهو جالس على سرير ملكه والتاج على رأسه والبطارقة عن يمينه وشماله والناس على مراتبهم بين يديه فأدى اليه ماقصدوا له فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن الجواب وانصرفوا عنه في ذلك اليوم فلما كان في غداة غد أتاهم رسوله فدخلوا عليه فاذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها كأنه في مصيبة فقال هل تدرون لماذا دعوتكم قالوا لا قال ان صاحب مصلحتي التي تلي العرب جاءني كتابه في هذا الوقت أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات فما ملكوا أنفسهم أن بكوا فقال لا تبكوا له وابكوا لانفسكم ما بدا لكم فانه خرج الى خير مما خلف قد كان يخاف أن يدع طاعة الله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافة الآخرة لقد بلغني من بره وفضله وصدقه مالو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى ولقد كانت تأتيني أخباره باطنا وظاهرا فلا أجد أمره مع ربه الا واحدا بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه ولم أعجب لهذا الراهب الذى قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ولكني عجبت من هذا الذى صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب ان أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر الا قليلا (وكتب عمر) الى أبي حازم المدني الاعرج أن أوصني وأوجز فكتب اليه كأنك يا أمير المؤمنين بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل والسلام (ووقع) الى عامل من عماله قد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما عدلت واما اعتزلت والسلام

وذكر المدائني قال كان يشترى لعمر قبل خلافته الحلة بألف دينار فاذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها فلما أتته الخلافة كان يشترى له قميص بعشرة دراهم فاذا لبسه استلانه وخرج مع جماعة من أصحابه فمر بالمقبرة فقال لهم قفوا حتى آتي قبور الاحبة فأسلم عليهم فلما توسطها وقف فسلم وتكلم وانصرف الى أصحابه فقال ألا تسألوني ماذا قلت لهم وما قيل لى قالوا وماذا قلت يا أمير المؤمنين وما قيل لك قال مررت بقبور الاحبة فسلمت فلم يردوا ودعوت فلم يجيبوا فبينا أنا كذلك اذ نوديت يا عمر أتعرفني أنا الذى غيرت محاسن وجوههم ومزقت الاكفان عن جلودهم وقطعت أيديهم وأبنت أكفهم من سواعدهم ثم بكى حتى كادت نفسه أن تطفأ فوالله ما مضى بعد ذلك الأيام حتى لحق بهم (وذكر المدائني) قال كتب مطرف الى عمر أما بعد فان الدنيا دار عقوبة لها يجمع من لا عقل له وبها يغتر من لا علم له فكن بها كالمداوى جرحه واصبر على شدة الدواء لما تخاف من عاقبة الداء (وذكر بعض الاخباريين) أن عمر في عنفوان حداثته جنى عليه عبد له أسود جناية فبطحه وهم ليضربه فقال له العبد يا مولاى لم تضربني قال لانك جنيت كذا وكذا قال فهل جنيت أنت جناية قط غضب بها عليك مولاك قال عمر نعم قال فهل عجل عليك العقوبة قال اللهم لا قال العبد

فلم تجل على ولم يجل عليك فقال له قم فأنت حر لوجه الله وكان ذلك سبب توبته وكان عمر يكثر هذا الكلام فى دعائه فيقول ياحليما لا يجل على من عصاه (وذكر جماعة من الاخباريين) أن عمر لما ولى الخلافة وفد عليه وفود العرب ووفد عليه وفد الحجاز فاختار الوفد غلاما منهم فقدموه عليهم ليبدأ بالكلام فلما ابتدأ الغلام بالكلام وهو أصغر القوم سنا قال عمر مهلا ياغلام ليتكلم من هو أسن منك فقال مهلا يا أمير المؤمنين انما المرء بأصغريه لسانه وقلبه فاذا منح الله العبد لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد استجاد له الحلية يا أمير المؤمنين ولو كان التقدم بالسن لكان فى هذه الامة من هو أسن منك قال تكلم ياغلام قال نعم يا أمير المؤمنين نحن وفود التهنئة لا وفود المرزئة قدمنا اليك من بلدنا نحمد الله الذى من بك علينا لم يخرجنا اليك رغبة ولا رهبة أما الرغبة فقد أتانا منك الى بلدنا وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك فقال عظنا ياغلام وأوجز قال نعم يا أمير المؤمنين ان أناسا من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وحسن ثناء الناس عليهم فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وحسن ثناء الناس عليك فتزل قدمك فنظر عمر فى سن الغلام فاذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة فأنشأ عمر رحمه الله يقول

تعلم فليس المرء يولد عالما * وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لا علم عنده * صغير اذا التفت عليه المحافل

(من كتاب مروج الذهب)

(القاضى أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد بن حبتة الانصارى)

وسعد بن حبتة أحد الصحابة رضى الله عنهم وهو مشهور فى الانصار بأمه وهى حبتة بنت مالك من بنى عمرو بن عوف وأما أبو سعد حبتة فهو عوف بن بجير بن معاوية بن سلمى بن بجيلة حليف بنى عمرو ابن عوف الانصارى هكذا ساق نسب سعد بن حبتة فى الاستيعاب وأما الخطيب أبو بكر البغدادى فانه قال فى تاريخه هو سعد بن بجير بن معاوية بن قحافة بن بليل بن سدوس بن عبد مناف بن أبى سامة ابن شجمة بن سعد بن عبد الله بن قداد بن ثعلبة بن معاوية بن زيد بن الغوث بن بجيلة كان القاضى أبو يوسف المذكور من أهل الكوفة وهو صاحب أبى حنيفة رضى الله عنه وكان فقيها عالما حافظا سمع أبا اسحاق الشيبانى وسليمان التيمى ويحيى بن سعيد الانصارى والاعمش وهشام بن عروة وعطاء بن السائب ومحمد بن اسحاق بن يسار وتلك الطبقة وجالس محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ثم جالس أبا حنيفة رضى الله عنه النعمان بن ثابت وكان الغالب عليه مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه وخالفه فى مواضع كثيرة وروى عنه محمد بن الحسن الشيبانى الحنفى وبشر بن الوليد الكندى وعلى بن الجعد وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين فى آخرين وكان قد سكن بغداد وتولى القضاء بها

ثلاثة من الخلفاء المهدى وابنه الهادى ثم هرون الرشيد وكان الرشيد يكرمه ويجله وكان عنده حظيا مكينا وهو أول من دعى بقاضى القضاة ويقال انه أول من غير لباس العلماء الى هذه الهيئة التى هم عليها فى هذا الزمان وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيأ واحدا لا يتميز أحد عن أحد بلباسه ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلى بن المدينى فى ثقته فى النقل وذكر أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب فى كتابه الذى سماه كتاب الانتهاء فى فضائل الثلاثة الفقهاء أن أبا يوسف المذكور كان حافظا وانه كان يحضر المحدث ويحفظ خمسين ستين حديثا ثم يقوم فيمليها على الناس وكان كثير الحديث وقال محمد بن جرير الطبرى وتحامى حديثه قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرأى عليه وتفريعه الفروع والاحكام مع صحبة السلطان وتقلده القضاء (وحكى) أبو بكر الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد أن أبا يوسف قال كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال فجاءنى أبى يوما وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه فقال يا بنى لا تمد رجلك مع أبى حنيفة فان أبا حنيفة خبزه مشوى وأنت تحتاج الى المعاش فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبى فتفقدنى أبو حنيفة رضى الله عنه وسأل عنى فجعلت أتعاهد مجلسه فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى عنه قال لى ما شغلك عنا قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدى فجلست فلما انصرف الناس دفع الى صرة وقال استمتع بها فنظرت فاذا فيها مائة درهم وقال لى الزم الحلقة واذا فرغت هذه فاعلمنى فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع الى مائة أخرى ثم كان يتعهدنى وما أعلمته بخلة قط ولا أخبرته بنفاد شئ وكأنه كان يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت . ثم قال الخطيب (وحكى) أن والد أبى يوسف مات وخلف أبا يوسف طفلا صغيرا وأن أمه هى التى أنكرت عليه حضور حلقة أبى حنيفة ثم روى الخطيب أيضا باسناد متصل الى على بن الجعد قال أخبرنى أبو يوسف القاضى قال توفى أبى وخلفنى صغيرا فى حجر أمى فاسلمتنى الى قصار أخدمه فكنت أدع القصار وأمر الى حلقة أبى حنيفة رضى الله عنه فاجلس أسمع فكانت أمى تجىء خلفى الى الحلقة فتأخذ بيدى فتذهب بى الى القصار وكان أبو حنيفة رضى الله عنه يعنى بى لما يرى من حضورى وحرصى على التعلم فلما كثر ذلك على أمى وطال عليها هربى قالت لابى حنيفة ما لهذا الصبى فساد غيرك هذا صبى يتيم لا شئ له وانما أطعمه من مغزلى وآمل أن يكسب دانقا يعود به على نفسه فقال لها أبو حنيفة مرى يا رعناء ها هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق فانصرفت عنه وقالت له أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك ثم لزمته فنفعنى الله تعالى بالعلم ورفعنى حتى تقلدت القضاء وكنت أجالس الرشيد وآكل معه على مائدته فلما كان فى بعض الايام قدم الى هرون الرشيد فالوذجة فقال لى يا يعقوب كل منها فليس فى كل يوم يعمل لنا مثلها فقلت وما هذا يا أمير المؤمنين فقال هذه فالوذجة بدهن الفستق

فضحكت فقال لي مم ضحكك فقلت خيراً أبقى الله أمير المؤمنين قال لتخبرني وألح علي فأخبرته بالقصة من أولها الى آخرها فتعجب من ذلك وقال لعمري ان العلم لينفع دنيا وديناً وترحم على أبي حنيفة وقال كان ينظر بعين عقله ما لا ينظره بعين رأسه (وحكى) علي بن المحسن التنوخي عن أبيه عن جده قال كان سبب اتصال أبي يوسف بالرشيد انه كان قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة رضي الله عنه فحنث بعض القواد في يمين فطلب فقيهاً يستفتيه فجيء اليه بأبي يوسف فأفتاه أنه لم يحنث فوهب له دنانير وأخذ له داراً بالقرب منه ودخل ذلك القائد يوماً على الرشيد فوجده مغموماً فسأله عن سبب غمه فقال شيء من أمر الدين قد أحزنني فاطلب لي فقيهاً كي أستفتيه فجاء بأبي يوسف قال أبو يوسف فلما دخلت الى ممر بين الدور رأيت فتى حسناً عليه أثر الملك وهو في حجرة محبوس فأومأ الي بأصبعه مستغيثاً فلم أفهم منه ارادته وأدخلت الى الرشيد فلما مثلت بين يديه سلمت ووقفت فقال لي ما اسمك فقلت يعقوب أصلح الله أمير المؤمنين قال ما تقول في امام شاهد رجلاً يزني هل يحده قلت لا فحين قلتها سجد الرشيد فوقع لي أنه قد رأى بعض أهله على ذلك وأن الذي أشار الي بالاستغاثة هو الزاني ثم قال الرشيد من أين قلت هذا قلت لان النبي صلى الله عليه وسلم قال ادرؤا الحدود بالشبهات وهذه شبهة يسقط الحد معها قال وأي شبهة مع المعاينة قلت ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى والحدود لا تكون بالعلم وليس لاحد أخذ حقه بعلمه فسجد مرة أخرى وأمر لي بمال جزيل وأن ألزم الدار فما خرجت حتى جاءتني هدية الفتى وهدية أمه وجماعته وصار ذلك أصلاً للنعمة ولزمت الدار فكان الخادم يستفتيني وهذا يشاورني ولم يزل حالي يقوى عند الرشيد حتى قلدني القضاء قلت وهذا يخالف ما نقلته قبل هذا من أنه ولي القضاء لثلاثة من الخلفاء والله أعلم بالصواب وقال طلحة بن محمد بن جعفر أبو يوسف مشهور الامر ظاهر الفضل وهو صاحب أبي حنيفة وأفقه أهل عصره ولم يتقدمه أحد في زمانه وكان النهاية في العلم والحكم والرياسة والقدر وهو أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة وأملى المسائل ونشرها وبث علم أبي حنيفة في أقطار الارض قال عمار بن أبي مالك ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى ولكنه هو الذي نشر قولهما وبث علمهما وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة مرض أبو يوسف في زمن أبي حنيفة مرضاً خيف عليه منه فعاده أبو حنيفة ونحن معه فلما خرج من عنده وضع يده على عتبة بابه وقال ان يمت هذا الفتى فانه أعلم من عليها وأومأ الى الارض وقال أبو يوسف سألني الاعمش عن مسئلة فأجبته عنها فقال لي من أين لك هذا فقلت من حديثك الذي حدثتناه أنت ثم ذكرت له الحديث فقال لي يا يعقوب اني لاحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك وما عرفت تأويله حتى الآن وقال ابن يحيى

كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازى وأيام العرب وكان أقل علومه الفقه ولم يكن فى أصحاب أبى حنيفة مثل أبى يوسف وذكر أبو الفرج المعافى بن زكريا النهروانى فى كتاب الجليس والانيس عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال مضى أبو يوسف ليستمع المغازى من محمد بن اسحق أو من غيره وأخل بمجلس أبى حنيفة أياما فلما أتاه قال له أبو حنيفة يا أبا يوسف من كان صاحب راية جالوت فقال له أبو يوسف انك امام وان لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤس الملأ أيما كان أولا وقعة بدر أو أحد فانك لا تدرى أيتهما كانت قبل الاخرى فامسك عنه وذكر فى الكتاب المذكور أيضا عن على بن الجعد أن القاضى أبا يوسف كتب يوما كتابا وعن يمينه انسان يلاحظ ما يكتبه ففطن له أبو يوسف فلما فرغ من الكتابة التفت اليه وقال له هل وقفت على شئ من خطأ فقال لا والله ولا حرف واحد فقال له أبو يوسف جزيت خيرا حيث كفيتنا مؤنة قراءته ثم أنشد

كأنه من سوء تأديبه * أسلم فى كتاب سوء الادب

وقال حماد بن أبى حنيفة رأيت أبا حنيفة يوما وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر وهما يتجادلان فى مسئلة فلا يقول أبو يوسف قولا الا أفسده زفر ولا يقول زفر قولا الا أفسده أبو يوسف الى وقت الظهر فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها فخذ زفر وقال لا تطمع فى رياسة ببلدة فيها أبو يوسف وقضى لابى يوسف على زفر ولم يكن بعد أبى يوسف فى أصحاب أبى حنيفة مثل زفر وقال طاهر بن أحمد الزبيرى كان يجلس الى أبى يوسف رجل فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف ألا تتكلم فقال بلى متى يفطر الصائم فقال اذا غابت الشمس فقال فان لم تغب الى نصف الليل فضحك أبو يوسف وقال أصبت فى صمتك وأخطأت أنا فى استدعاء نطقك ثم تمثل

عجبت لازراء الغبى بنفسه * وصمت الذى قد كان بالقول أعلما

وفى الصمت ستر للغبى وانما * صحيفة لب المرء أن يتكلما

ومن كلام أبى يوسف صحبة من لا يخشى العار عار يوم القيامة وكان يقول رؤس النعم ثلاثة أولها نعمة الاسلام التى لا تتم نعمة الا بها والثانية نعمة العافية التى لا تطيب الحياة الا بها والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش الا بها وقال على بن الجعد سمعت أبا يوسف يقول العلم شئ لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك وأنت اذا أعطيته كلك من اعطائه البعض على غرر وكان أبو يوسف راكبا وغلامه يعدو وراءه فقال له رجل أتستحل أن يعدو غلامك وراءك لم لا تركبه فقال له أيجوز عندك أن أسلم غلامى مكاريا قال نعم قال أبو يوسف فيعدو معى كما كان يعدو لو كان مكاريا وقال يحيى بن عبد الصمد خوصم أمير المؤمنين الهادى الى القاضى أبى يوسف فى بستان وكان الحكم فى الظاهر للهادى وفى الباطن خلاف ذلك فقال الهادى للقاضى أبى يوسف ما صنعت فى الامر الذى تتنازع اليك فيه

فقال خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق فقال له الهادى وترى ذلك قال فقد كان ابن أبى ليلى يراه فقال اردد البستان عليه وانما احتال عليه أبو يوسف لعلمه أن الهادى لا يحلف وقال بشر بن الوليد الكندى قال لى القاضى أبو يوسف بينا أنا البارحة قد أويت الى فراشى فاذا داق يدق الباب دقا شديدا فأخذت على ازارى وخرجت فاذا هرثمة بن الاعين فسلمت عليه فقال أجب أمير المؤمنين فقلت يا أبا حاتم لى بك حرمة وهذا وقت كما ترى ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين قد دعانى لامر من الامور فان أمكنك أن تدفع عنى ذلك الى غد فلعله أن يحدث له رأى فقال مالى الى ذلك سبيل قلت كيف كان السبب قال خرج الى مسرور الخادم فأمرنى أن آتى بك أمير المؤمنين فقلت أتأذن لى أن أصب على ماء وأتحنط فان كان أمر من الامور كنت قد أحكمت شأنى وان رزق الله العافية فلن يضرنى فأذن لى فدخلت فلبست ثيابا جددا وتطيبت بما أمكن من الطيب ثم خرجنا فمضينا حتى أتينا دار أمير المؤمنين هرون الرشيد فاذا مسرور واقف فقال له هرثمة قد جئت به فقلت لمسرور يا أبا هاشم خدمتى وحرمتى وميلى وهذا وقت ضيق أفتدرى لم طلبنى أمير المؤمنين قال لا فقلت فمن عنده قال عيسى بن جعفر قلت ومن قال ما عندهما ثالث ثم قال لى مر فاذا صرت فى الصحن فانه فى الرواق وهو ذاك جالس فحرك رجلك فى الارض فانه سيسألك فقل أنا قال أبو يوسف فجئت ففعلت ذلك فقال من هذا فقلت يعقوب فقال ادخل فدخلت فاذا هو جالس وعن يمينه عيسى بن جعفر فسلمت فرد السلام على وقال أظننا روعناك فقلت اى والله وكذلك من خلفى فقال اجلس فجلست حتى سكن روعى ثم التفت الى وقال يا يعقوب أتدرى لم دعوتك قلت لا قال دعوتك لاشهدك على هذا أن عنده جارية سألته أن يهبها لى فامتنع وسألته أن يبيعها فأبى والله لئن لم يفعل لاقتلنه قال أبو يوسف فالتفت الى عيسى فقلت وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك فى هذه المنزلة فقال لى عجلت على فى القول قبل أن تعرف ما عندى قلت وما فى هذا من الجواب قال ان على يمينا بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملكه أن لا أبيع هذه الجارية ولا أهبها فالتفت الى الرشيد فقال هل له فى ذلك من مخرج قلت نعم قال وما هو قلت يهب لك نصفها ويبيعك نصفها فيكون لم يهب ولم يبع فقال عيسى ويجوز ذلك قلت نعم قال فأشهدك أنى قد وهبت له نصفها وبعته نصفها الباقى بمائة ألف دينار فقال له الرشيد قبلت الهبة واشتريت نصفها بمائة ألف دينار ثم طلب منه الجارية فأتى بالجارية والمال فقال خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها فقال الرشيد يا يعقوب بقيت واحدة فقلت وما هى فقال هى مملوكة ولا بد أن تستبرأ والله لئن لم أبت معها ليلتى هذه انى لاظن أن نفسى ستخرج فقلت يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها فان الحرة لا تستبرأ قال فانى قد أعتقتها فمن يزوجنيها فقلت أنا فدعا بمسرور وحسين فخطبت وحمدت الله تعالى

ثم زوجته اياها على عشرين ألف دينار ودعا بالمال فدفعه اليها ثم قال لى يا يعقوب انصرف ورفع رأسه الى مسرور وقال يا مسرور فقال لبيك قال احمل الى يعقوب مائتى ألف درهم وعشرين تختا ثيابا فحمل معى ذلك قال بشر بن الوليد فالتفت الى أبو يوسف وقال هل رأيت بأسا فيما فعلت فقلت لا قال خذ حقك من هذا المال قلت وما حقى قال العشر قال بشر فشكرته ودعوت له وذهبت لاقوم فاذا بعجوز قد دخلت فقالت يا أبا يوسف ان ابنتك تقرئك السلام وتقول لك والله ما وصل الى فى ليلتى هذه من أمير المؤمنين الا المهر الذى قد عرفته وقد حملت اليك النصف منه وخلفت الباقى لما أحتاج اليه فقال رديه فوالله لا قبلتها أخرجتها من الرق وزوجتها أمير المؤمنين وترضى لى بهذا قال بشر فلم نزل نطلب اليه أنا وعمومتى حتى قبلها وأمر لى منها بألف دينار وقال أبو عبد الله اليوسفى ان أم جعفر زبيدة زوجة الرشيد كتبت الى أبى يوسف ما ترى فى كذا وأحب الاشياء الى أن يكون الحق فيه كذا فأفتاها بما أحبت فبعثت اليه بحق فضة فيه حقاق فضة مطبقات فى كل واحد لون من الطيب وفى جام دراهم وسطها جام فيه دنانير فقال له جليس له قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها فقال أبو يوسف ذاك حين كانت الهدايا اللبن والتمر وقال يحيى بن معين كنت عند أبى يوسف القاضى وعنده جماعة من أصحاب الحديث وغيرهم فوافته هدية أم جعفر احتوت على تخوت دبيقى ومصمت وشرب وطيب وتماثيل ند وغير ذلك فذا كرنى رجل بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتته هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه فيها فسمعه أبو يوسف فقال أبى تعرض ذلك انما قال النبى صلى الله عليه وسلم والهدايا يومئذ الاقط والتمر والزبيب ولم تكن الهدايا ما ترون يا غلام اشل الى الخزائن ونقلت من كتاب اسمه اللطيف ولم يذكر فيه من هو مصنفه قال كان عبد الرحمن بن مسهر أخو على ابن مسهر قاضيا على المبارك (قلت) المبارك بضم الميم وبعدها باء موحدة وبعد الالف راء مفتوحة وبعدها كاف وهى بليدة بين بغداد وواسط على شاطئ دجلة قال فبلغ القاضى خروج الرشيد الى البصرة ومعه أبو يوسف القاضى فى الحراقة فقال عبد الرحمن القاضى لاهل المبارك أثنوا على عند أمير المؤمنين وعند القاضى أبى يوسف فأبوا عليه ذلك فلبس ثيابه وقلنسوة طويلة وطيلسانا أسود وجاء الى الشريعة فلما أقبلت الحراقة رفع صوته وقال يا أمير المؤمنين نعم القاضى قاضينا قاضى صدق ثم مضى الى شريعة أخرى وقال مثل مقالته الاولى فالتفت هرون الرشيد الى أبى يوسف وقال يا يعقوب هذا شر قاض فى الارض قاض فى موضع لا يثنى عليه الا رجل واحد فقال له أبو يوسف وأعجب من هذا يا أمير المؤمنين هو القاضى يثنى على نفسه قال فضحك هرون وقال هذا أظرف الناس هذا لا يعزل أبدا وكان الرشيد اذا ذكره يقول هذا لا يعزل أبدا وقيل لابى يوسف

أولى مثل هذا القضاء فقال انه أقام ببابي مدة وشكا الى الحاجة فوليته وقال أبو العباس أحمد ابن يحيى المعروف بثعلب صاحب كتاب الفصيح أخبرني بعض أصحابنا أن الرشيد قال لابى يوسف بلغني أنك تقول ان هؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة فقال نعم يا أمير المؤمنين قال وكيف ذاك قال لان من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه ومن ظهر أمره وانكشف خبره لم يأتنا ولم نقبله وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره فتبسم الرشيد وقال صدقت وقال محمد بن سماعة سمعت أبا يوسف في اليوم الذي مات فيه يقول اللهم انك تعلم أني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمدا ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم وكل ما أشكل على جعلت أبا حنيفة بيني وبينك وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه (قلت) وهذا الكلام مأخوذ من قول أبي محمد عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد رؤى يمسح على خفيه فقيل له أتجوز المسح قال نعم قد مسح عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن جعل عمر بينه وبين الله فقد استوثق ذكره ابن قتيبة في ترجمة على رضي الله عنه وأخبار أبي يوسف كثيرة وأكثر الناس من العلماء على تفضيله وتعظيمه وقد نقل الخطيب البغدادي في تاريخه الكبير ألفاظا عن عبد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح ويزيد بن هرون ومحمد بن اسمعيل البخارى وأبي الحسن الدارقطني وغيرهم ينبو السمع عنها فتركت ذكرها والله أعلم بحاله وكانت ولادة القاضي أبي يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة وتوفي يوم الخميس أول وقت الظهر لخمس خلون من شهر ربيع الاول سنة اثنتين وثمانين ومائة ببغداد وقيل توفي سنة اثنتين وتسعين ومائة والاول أصح وولى القضاء سنة ست وستين ومائة ومات وهو على القضاء رحمه الله تعالى وأما ولده يوسف فانه كان قد نظر في الرأى وفقه وسمع الحديث من يونس بن أبي اسحق السبيعي والسرى بن يحيى وغيرهما وولى القضاء بالجانب الغربي من بغداد في حياة أبيه وصلى بالناس الجمعة في مدينة المنصور بأمر هرون الرشيد ولم يزل على القضاء الى أن مات في رجب سنة اثنتين وتسعين ومائة ببغداد وذكر الخطيب البغدادي أن أبا يوسف القاضي لما مات ولى الرشيد مكانه أبا البخترى وهب بن وهب القرشي وكان أبو يعقوب الخريمي الشاعر المشهور صديقا لابى يوسف ولابنه يوسف فلما توفي أبو يوسف سمع الخريمي رجلا يقول اليوم مات الفقه فأنشد الخريمي

يا ناعي الفقه الى أهله * ان مات يعقوب ولا تدرى
لم يمت الفقه ولكنه * حوّل من صدر الى صدر
ألقاه يعقوب الى يوسف * فزال من صلب الى ظهر
فهو مقيم فاذا ما ثوى * وحل حل الفقه في قبر

رحمهما الله تعالى وخنيس بضم الخاء المعجمة تصغير أخنس وهو الذي تأخر أنفه عن وجهه مع ارتفاع قليل في الارنبة فالرجل أخنس والمرأة خنساء وهذا التصغير يسمى تصغير ترخيم وحقيقته أن تحذف منه الحروف الزوائد ويصغر الباقي كما قالوا أزهر وزهير وأسود وسويد وأحمد وحميد وغير ذلك وحبتة بفتح الحاء المهملة وسكون الباء الموحدة وبعدها تاء مثناة من فوقها ثم هاء ساكنة وكشفت عن معنى هذا الاسم في عدة مواضع من كتب اللغة وغيرها فلم أجده وبحير بفتح الباء الموحدة وكسر الحاء المهملة وقيل هو بضم الباء وبالجيم المفتوحة والاول أصح والباقي معروف لا حاجة الى ضبطه وسعد بن حبتة من جملة ما أستصغر يوم احد هو والبراء بن عازب وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم فردهم النبي صلى الله عليه وسلم ورآه النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وهو يقاتل قتالا شديدا مع حداثة سنه فدعاه وقال له من أنت فقال سعد بن حبتة فقال أسعد الله جدك ومسح على رأسه رضي الله عنه وخنيس هو صاحب جهارسوج خنيس بالكوفة وهو لفظ عجمي تفسيره بالعربي أربع طرق لان هذا المكان رحبة مربعة تفترق الى أربع جهات والله تعالى أعلم (من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

(أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن الاحنف بردزبة وقال ابن ماكولا هو بردزبه الجعفي بالولاء البخاري الحافظ الامام في علم الحديث صاحب الجامع الصحيح والتاريخ)

رحل في طلب الحديث الى أكثر محدثي الامصار وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق والحجاز والشام ومصر وقدم بغداد واجتمع اليه أهلها واعترفوا بفضله وشهدوا بتفرده في علم الرواية والدراية وحكى أبو عبد الله الحميدي في كتاب جذوة المقتبس والخطيب في تاريخ بغداد أن البخاري لما قدم بغداد سمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر ودفعوا الى عشرة أنفس الى كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم اذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري وأخذوا الموعد للمجلس فحضر المجلس جماعة من أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها من البغداديين فلما اطمأن المجلس باهله انتدب اليه واحد من العشرة فسأله عن حديث من تلك الاحاديث فقال البخاري لا أعرفه فسأله عن آخر فقال لا أعرفه فما زال يلقي عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لا أعرفه فكان الفقهاء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم الى بعض ويقولون الرجل فهم ومن كان منهم ضد ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الفهم ثم انتدب رجل آخر من العشرة

فسأله عن حديث من تلك الاحاديث المقلوبة فقال البخاري لا أعرفه فسأله عن الآخر فقال لا أعرفه فلم يزل يلقى عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لا أعرفه ثم انتدب الثالث والرابع الى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الاحاديث المقلوبة والبخاري لا يزيدهم على قوله لا أعرفه فلما علم البخاري أنهم فرغوا التفت الى الاول منهم فقال أما حديثك الاول فهو كذا وحديثك الثاني فهو كذا والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن الى اسناده وكل اسناد الى متنه وفعل بالآخرين كذلك ورد متون الاحاديث كلها الى أسانيدها وأسانيدها الى متونها فأقر له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل وكان ابن صاعد اذا ذكره يقول الكبش النطاح ونقل عنه محمد بن يوسف الفربري أنه قال ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين وعنه أنه قال صنفت كتابي الصحيح لست عشرة سنة خرجته من ستمائة ألف حديث وجعلته حجة فيما بيني وبين الله وقال الفربري سمع صحيح البخاري تسعون ألف رجل فما بقي أحد يروي عنه غيري وروى عنه أبو عيسى الترمذي وكانت ولادته يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة وقال أبو يعلى الخليلي في كتاب الارشاد ان ولادته كانت لاثنتي عشرة ليلة خلت من الشهر المذكور وتوفي ليلة السبت بعد صلاة العشاء وكانت ليلة عيد الفطر ودفن يوم الفطر بعد صلاة الظهر سنة ست وخمسين ومائتين بخرتنك رحمه الله تعالى وذكر ابن يونس في تاريخ الغرباء أنه قدم مصر وتوفي بها وهو غلط والصواب ما ذكرناه ههنا وكان خالد بن احمد بن خالد الذهلي أمير خراسان قد أخرجه من بخارى الى خرتنك ثم حج خالد المذكور فوصل الى بغداد فحبسه الموفق بن المتوكل أخو المعتمد الخليفة فمات في حبسه وكان البخاري نحيف الجسم لا بالطويل ولا بالقصير وقد اختلف في اسم جده فقيل انه يرذبه بفتح الياء المثناة من تحتها وسكون الراي وكسر الذال المعجمة وبعدها باء موحدة ثم هاء ساكنة وقال أبو نصر بن ماكولا في كتاب الاكمال هو يزدزبه بدال وزاي وباء معجمة بواحدة والله أعلم وقال غيره كان هذا الجد مجوسيا مات على دينه وأول من أسلم منهم المغيرة ووجدته في موضع آخر عوض يرذبه الاحنف ولعل يرذبه كان أحنف الرجل والبخاري بضم الباء الموحدة وفتح الخاء المعجمة وبعد الالف راء هذه النسبة الى بخارى وهي من أعظم مدن ماوراء النهر بينها وبين سمرقند مسافة ثمانية أيام وخرتنك بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء وفتح التاء المثناة من فوقها وسكون النون وبعدها كاف وهي قرية من قرى سمرقند وقد سبق الكلام على الجعفي ونسبة البخاري الى سعيد بن جعفر الجعفي والي خراسان وكان له عليهم الولاء فنسبوا اليه (من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

(أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الملقب حجة الاسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي)

لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الراذكاني ثم قدم نيسابور واختلف الى دروس امام الحرمين أبي المعالي الجويني وجدّ في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة وصار من الاعيان المشار اليهم في زمن أستاذه وصنف في ذلك الوقت وكان استاذه يتبجح به ولم يزل ملازما له الى أن توفي في التاريخ المذكور في ترجمته فخرج من نيسابور الى العسكر ولقي الوزير نظام الملك فأكرمه وعظمه وبالغ في الاقبال عليه وكان بحضرة الوزير جماعة من الافاضل فجرى بينهم الجدال والمناظرة في عدة مجالس وظهر عليهم واشتهر اسمه وسارت بذكره الركبان ثم فوض اليه التدريس بمدرسته النظامية ببغداد فجاءها وباشر القاء الدروس بها وذلك في جمادى الاولى سنة أربع وثمانين وأربعمائة وأعجب به أهل العراق وارتفعت عندهم منزلته ثم ترك جميع ما كان عليه في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين واربعمائة وسلك طريق الزهد والانقطاع وقصد الحج فلما رجع توجه الى الشام فأقام بمدينة دمشق مدة يذكر الدروس في زاوية الجامع في الجانب الغربي منه وانتقل منها الى بيت المقدس واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة ثم قصد مصر وأقام بالاسكندرية مدة ويقال انه قصد منها الركوب في البحر الى بلاد المغرب على عزم الاجتماع بالامير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش فبينما هو كذلك بلغه نعي يوسف بن تاشفين المذكور فصرف عزمه عن تلك الناحية

ثم عاد الى وطنه بطوس واشتغل بنفسه وصنف الكتب المفيدة في عدة فنون منها ما هو أشهرها كتاب الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة في الفقه ومنها احياء علوم الدين وهو من أنفس الكتب وأجلها وله في أصول الفقه المستصفى فرغ من تصنيفه في سادس المحرم سنة ثلاث وخمسمائة وله المنخول والمنتحل في علم الجدل وله تهافت الفلاسفة ومحك النظر ومعيار العلم والمقاصد والمضنون به على غير أهله والمقصد الاسنى في شرح أسماء الله الحسنى ومشكاة الانوار والمنقذ من الضلال وحقيقة القولين وكتبه كثيرة وكلها نافعة ثم ألزم بالعود الى نيسابور والتدريس بها بالمدرسة النظامية فأجاب الى ذلك بعد تكرار المعاودات ثم ترك ذلك وعاد الى بيته في وطنه واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس الى أن انتقل الى ربه ويروى له شعر فمن ذلك ما نسبه اليه الحافظ أبو سعد السمعاني في الذيل وهو قوله

حلت عقارب صدغه في خده * قمرا فجل بها عن التشبيه
ولقد عهدناه يحل ببرجها * فمن العجائب كيف حلت فيه

ورأيت هذين البيتين فى موضع آخر لغيره والله أعلم ونسب اليه العماد الاصبهانى هذين البيتين وهما

هبنى صبوت كما ترون بزعمكم * وحظيت منه بلثم خد أزهرى

انى اعتزلت فلا تلوموا انه * أضحى يقابلنى بوجه أشعرى

ونسب اليه البيتين اللذين قبلهما وكانت ولادته سنة خمسين وأربعمائة وقيل سنة احدى وخمسين وتوفى يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة بالطابران رحمه الله تعالى ورثاه الاديب أبو المظفر محمد الابيوردى الشاعر المشهور بأبيات فائقة من جملتها

مضى وأعظم مفقود فجعت به * من لا نظير له فى الناس يخلفه

وتمثل الامام اسمعيل الحاكمى بعد وفاته بقول أبى تمام من جملة قصيدة مشهورة

عجبت لصبرى بعده وهو ميت * وكنت امرأ أبكى دما وهو غائب

على أنها الايام قد صرن كلها * عجائب حتى ليس فيها عجائب

ودفن بظاهر الطابران وهى قصبة طوس والطابران بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وراء مهملة وبعد الالف الثانية نون وهى احدى بلدتى طوس (من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

(أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمى الزمخشرى الامام الكبير فى التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان)

كان امام عصره من غير مدافع تشد اليه الرحال فى فنونه أخذ الادب عن أبى منصور نصر وصنف التصانيف البديعة منها الكشاف فى تفسير القرآن العزيز لم يصنف قبله مثله والمحاجاة بالمسائل النحوية والمفرد والمركب فى العربية والفائق فى تفسير الحديث وأساس البلاغة فى اللغة وربيع الابرار ونصوص الاخبار ومتشابه أسامى الرواة والنصائح الكبار والنصائح الصغار وضالة الناشد والرائض فى علم الفرائض والمفصل فى النحو وقد اعتنى بشرحه خلق كثير والانموذج فى النحو والمفرد والمؤلف فى النحو ورؤس المسائل فى الفقه وشرح ابيات سيبويه والمستقصى فى امثال العرب وصميم العربية وسوائر الامثال وديوان التمثيل وشقائق النعمان فى حقائق النعمان وشافى العى من كلام الشافعى رضى الله عنه والقسطاس فى العروض ومعجم الحدود والمنهاج فى الاصول ومقدمة الادب وديوان الرسائل وديوان الشعر والرسالة الناصحة والامالى فى كل فن وغير ذلك وكان شروعه فى تأليف المفصل فى غرة شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وخمسمائة وفرغ منه فى غرة المحرم سنة خمس عشرة وخمسمائة وكان قد سافر الى مكة حرسها الله تعالى وجاور بها زمانا فصار يقال له جار الله لذلك وكان هذا الاسم علما عليه وسمعت من بعض

المشايخ أن احدى رجليه كانت ساقطة وأنه كان يمشي في جارن خشب وكان سبب سقوطها أنه كان في بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه ثلج كثير وبرد شديد في الطريق فسقطت منه رجله وانه كان بيده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك خوفا من أن يظن من لم يعلم صورة الحال أنها قطعت لريبة والثلج والبرد كثيرا ما يؤثران في الاطراف في تلك البلاد فتسقط خصوصا خوارزم فانها في غاية البرد ولقد شاهدت خلقا كثيرا ممن سقطت أطرافهم بهذا السبب فلا يستبعده من لا يعرفه ورأيت في تاريخ بعض المتأخرين أن الزمخشري لما دخل بغداد واجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني سأله عن سبب قطع رجله فقال دعاء الوالدة وذلك اني كنت في صباي أمسكت عصفورا وربطته بخيط في رجله فأفلت من يدي فادركته وقد دخل في خرق فجذبته فانقطعت رجله في الخيط فتألمت والدتي لذلك وقالت قطع الله رجلك الابعد كما قطعت رجله فلما وصلت الى سن الطلب رحلت الى بخارى لطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلي وعملت عليّ عملا أوجب قطعها والله أعلم بالصحة وكان الزمخشري المذكور معتزلي الاعتقاد متظاهرا به حتى نقل عنه أنه كان اذا قصد صاحبا له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الاذن قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب وأول ما صنف كتاب الكشاف كتب استفتاح الخطبة الحمد لله الذي خلق القرآن فيقال انه قيل له متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه فغيره بقوله الحمد لله الذي جعل القرآن وجعل عندهم بمعنى خلق والبحث في ذلك يطول ورأيت في كثير من النسخ الحمد لله الذي أنزل القرآن وهذا اصلاح الناس لا اصلاح المصنف وكان الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي رحمه الله تعالى قد كتب اليه من الاسكندرية وهو يومئذ مجاور بمكة حرسها الله تعالى يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته فرد جوابه بما لا يشفي الغليل فلما كان في العام الثاني كتب اليه أيضا مع الحجاج استجازة أخرى اقترح فيها مقصوده ثم قال في آخرها ولا يحوج أدام الله توفيقه الى المراجعة فالمسافة بعيدة وقد كاتبته في السنة الماضية فلم يجب بما يشفي الغليل وله في ذلك الاجر الجزيل فكتب اليه الزمخشري جوابه ولولا خوف التطويل لكتبت الاستدعاء والجواب لكن نقتصر على بعض الجواب وهو ما مثلي مع اعلام العلماء الا كمثل السها مع مصابيح السماء والجهام الصفر من الرهام مع الغوادي الغامرة للقيعان والاكام والسكيت المخلف من خيل السباق والبغاث مع الطير العتاق وما التلقيب بالعلامة الا شبه الرقم بالعلامة والعلم مدينة أحد بابيها الدراية والثاني الرواية وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة ظلي فيه أقلص من ظل حصاة أما الرواية فحديثة الميلاد قريبة الاسناد لم تستند الى علماء نحارير ولا الى أعلام مشاهير وأما الدراية فثمد لا يبلغ أفواها وبرض ما يبل شفاها ثم كتب بعد هذا ولا يغرنكم قول فلان في

ولا قول فلان وعدد جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطيع من الشعر وأوردها كلها ولا حاجة الى الاتيان بها ههنا فلما فرغ من ايرادها كتب فان ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه وجهل بالباطن المشوه ولعل الذى غرهم منى ما رأوا من حسن النصح للمسلمين وتبليغ الشفقة على المستفيدين وقطع المطامع عنهم وافادة المبار والصنائع عليهم وعزة النفس والربء بها عن السفاسف الدنيئات والاقبال على خويصتى والاعراض عما لا يعنينى فجللت فى عيونهم وغلطوا فىّ ونسبونى الى ما لست منه فى قبيل ولا دبير وما أنا فيما أقول بهاضم لنفسى كما قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قول أبى بكر الصديق رضوان الله عليه وليتكم ولست بخيركم ان المؤمن ليهضم نفسه وانما صدقت الفاحص عنى وعن كنه روايتى ودرايتى ومن لقيت وأخذت عنه وما بلغ علمى وقصارى فضلى وأطلعته طلع أمرى وأفضيت اليه بجيبة سرى وألقيت اليه عجرى وبجرى وأعلمته نجمى وشجرى وأما المولد فقرية مجهولة من قرى خوارزم تسمى زمخشر وسمعت أبى رحمه الله تعالى يقول لاخير فى شرود ولم يلم بها ووقت الميلاد شهر الله الاصم فى عام سبع وستين وأربعمائة والله المحمود والمصلى على محمد وآله وأصحابه هذا آخر الاجازة وقد أطال الكلام فيها ولم يصرح له بمقصوده فيها وما اعلم هل اجازه بعد ذلك أم لا وبينى وبينه فى الرواية شخص واحد فانه اجاز زينب بنت الشعرى ولى منها اجازة ومن شعره السائر قوله وقد ذكره السمعانى فى الذيل قال أنشدنى أحمد بن محمود الخوارزمى املاء بسمرقند قال أنشدنا محمود بن عمر الزمخشرى لنفسه بخوارزم وذكر الابيات وهى

ألا قل لسعدى ما لنا فيك من وطر * وما يطلبن النجل من أعين البقر

فانا اقتصرنا بالذين تضايقت * عيونهم والله يجزى من اقتصر

مليح ولكن عنده كل جفوة * ولم أر فى الدنيا صفاء بلا كدر

ولم أنس اذ غازلته قرب روضة * الى جنب حوض فيه للماء منحدر

فقلت له جئنى بورد وانما * أردت به ورد الخدود وما شعر

فقال انتظرنى رجع طرف أجئ به * فقلت له هيهات مالى منتظر

فقال ولا ورد سوى الخد حاضر * فقلت له انى قنعت بما حضر

ومن شعره يرثى شيخه أبا مضر منصور المذكور أولا

وقائلة ما هذه الدرر التى * تساقط من عينيك سمطين سمطين

فقلت هو الدر الذى كان قد حشا * أبو مضر أذنى تساقط من عينى

وهـذا مثل قول القاضى أبى بكر الارجانى ولا أعلم أيهما أخذ من الآخر لانهما كانا متعاصرين وهو

لم يبكنى الا حديث فراقكم * لما أسـر به الىّ مودعى
هو ذلك الدر الذى أودعتم * فى مسمعى أجريته من مدمعى

وهذان البيتان من جملة قصيدة طويلة بديعة ومن المنسوب الى القاضى الفاضل فى هذا المعنى

لا تزدنى نظرة ثانيـة * كفت الاولى ووفت غنى
لك فى قلبى حديث مودع * لا بجدت الحب ما أودعنى
خذه من جفنى عقودا انه * بعض ما أودعته فى أذنى

ومما أنشـده لغيره فى كتابه الكشاف عند تفسـير قوله تعالى فى سورة البقرة ان الله لا يسـتحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فـا فوقها فانه قال أنشدت لبعضهم

يا من يرى مدّ البعوض جناحها * فى ظلمة الليل البهيم الأليـل
ويرى عروق نيـاطها فى نحرها * والمخ فى تلك العظام النحل
اغفر لعبـد تاب من فرطاته * ما كان منه فى الزمان الاول

وكان بعض الفضـلاء قد أنشد فى هذه الابيات بمدينة حلب وقال ان الزمخشرى المذكور أوصى أن تكتب على لوح قبره هـذه الابيـات ثم أنشد الفاضل الرئيس بيتين وذكر أن صاحبهما أوصى أن يكتبا على قبره وهما

الهى قد أصبحت ضيفك فى الثرى * وللضـيف حق عنـد كل كريم
فهب لى ذنوبى فى قـراى فانها * عظيم ولا يقـرى بغـير عظيم

وأخـبرنى بعض الاصحاب أنه رأى بجزيرة سواكـن تربة ملكها عز الدولة ريحان وعلى قبره مكتوب

يا أيهـا النـاس كان لى أمل * قصر بى عن بلوغه الاجـل
فليتق الله ربه رجـــل * أمكنـه قبـل موته العمـل
ما أنا وحدى نقلت حيث ترى * كل الى ما نقلت ينتقـل

وكانت ولادة الزمخشرى يوم الاربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائه بزمخشر وتوفى ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بجرجانية خوارزم بعـد رجوعه من مكة رحمه الله تعالى ورثاه بعضهم بابيات ومن جملتها

فأرض مكة تذرى الدمع مقلتها * حزنا لفـرقة جار الله محمود

و زمخشر بفتح الزاى والميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الشين المعجمة وبعدها راء وهى قرية كبيرة من قرى خوارزم وجرجانية بضم الجيم الاولى وفتح الثانية وسكون الراء بينهما وبعد الالف نون مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها مفتوحة مشددة ثم هاء ساكنة وهى قصبة خوارزم قال ياقوت الحموى فى كتاب البلدان يقال لها بلغتهم كركانج وقد عربت فقيل لها الجرجانية وهى على شاطئ جيحون والله تعالى أعلم بالصواب (من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

الشريشى

هو الكمال أبو العباس أحمد من أهل شريش وله تآليف أفاد بها حشد فيها منها جمع مشاهير قصائد العرب وشروح لمقامات الحريرى كبير ووسط وصغير وفى الكبير من الآداب ما لا كفاء له لم يترك منها فائدة الا استخرجها ولا فريدة الا استدرجها ولا نكتة الا علقها ولا غريبة الا استحقها فجاء شرحه يغنى عن كل شرح وكان الشريشى يقرئ العربية وأخذ عنه جماعة وأقام فى بلنسية ثم رحل الى اشبيلية وانتقل الى المشرق وكانت وفاته بشريش بلده سنة ٦١٩ وميلاده سنة ٥٥٧ هجريه (للمقرى)

أبو الفدا

هو اسماعيل بن على بن شاذى الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا صاحب حماة برع فى الفقه والاصول والعربية والتاريخ والادب وصار من جملة أمراء دمشق الى أن كان الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكرك وبالغ فى خدمته الى أن وعده الملك الناصر محمد بسلطنة حماة وجعله سلطانها يفعل فيها ما يشأ ليس لاحد معه كلام ولا يرد عليه مرسوم من القاهرة بأمر ولا نهى وأركبه بشعار السلطنة ومشى الامراء والاكابر فى خدمته حتى مشى الامير ارغون النائب بالديار المصرية وقام له الملك الناصر بكل ما يحتاج اليه من التشريف والانعامات على وجوه الدولة والحمول لقماش الذهب وغير ذلك ولقبه بالملك الصالح وأمره بالتوجه الى محل سلطنته بحماة فخرج اليها من ديار مصر بتجمل زائد وعظمة على عادة الملوك فوصلها فى جمادى الآخرة سنة عشر وسبعمائة ثم عن قليل غير السلطان لقبه ولقبه بالملك المؤيد وذلك لما حج معه فى سنة تسع عشرة وسبعمائة وعاد معه الى القاهرة وأذن له أن يخطب باسمه بحماة وأعمالها على ما كان عليه سلفه من ملوك حماة وكان الملك المؤيد فى كل قليل يتوجه من حماة الى القاهرة ومعه أنواع من الهدايا والتحف للملك الناصر محمد بن قلاوون ويعود الى محل سلطنته ثم فى كل قليل يتحف الملك الناصر بالاشياء الظريفة الغريبة قال بعضهم فى وصفه هو الملك الجليل وامام ظله ظليل عالم تخفق بالنصر أعلامه وحاكم تجرى بمصالح الرعية أقلامه بيته مشيد وملكه مؤيد وصدره للطالبين مشروح وبابه لارباب الفضائل مفتوح كان جوادا سخيا باسلا كميا ممدوحا محمودا منتابا مقصودا ذا تدبير وسياسة وحشمة ورئاسة

وفضل ومكارم وحلم ومراحم وعدل وانصاف ومعروف وأوقاف يحب أهل العلم والادب ويفيض عليهم سحائب القرب والقرب زاحم بهمته النجوم وشارك فى عدة من العلوم وألف تاريخا كثير الفوائد ونظم الحاوى نظما يسخر بالعقود والقلائد وله مصنفات معروفه وقريض به قراضة ذهبه موصوفة باشر النيابة ثم السلطنة بحماة مدة طويلة وأسدى الى سكان حماة ما استوجب به شكر مناقبه الجميلة

وكان له نظم ونثر وتصانيف كثيرة وكتاب تقويم البلدان هذبه وجدوله وكتاب الموازين وكانت وفاته بحماة سنة ٧٤٣ وميلاده سنة ٦٧٢ هجريه ودفن فى تربته المعروفة بانشائه عن سبعين سنة ورثاه محمد بن نباته المصرى بعدة مرات أشهرها قوله

ما للندى لا يلبى صوت داعيه * أظن أن ابن شاذى قام ناعيه
ما للرجاء قد استدت مذاهبه * وللزمان قد اسودت نواحيه
مالى أرى الملك قد فضت مواقفه * مالى أرى الوفد قد فاضت مآقيه
نعى المؤيد ناعيه فيا أسفا * للغيث كيف غدت عنا غواديه
وا روعتا لصباح من رزيته * أظن أن صباح الحشر ثانيه
وا حسرتاه لنظمى فى مدائحه * كيف استحال لنظمى فى مراثيه
أبكيه بالدر من جفنى ومن كلمى * والبحر أحسن ما بالدر أبكيه
أروى بدمعى ثرى ملك له شيم * قد كان يذكرها الصادى فترويه
اذيل ماء جفونى بعده أسفا * لماء وجهى الذى قد كان يحميه
جار من الدمع لا ينفك يطلقه * من كان يطلق بالانعام جاريه
ومهجة كلما فاهت بلوعتها * قالت رزية مولاها لها ايه
ليت المؤيد لا زادت عوارفه * فزاد قلبى المعنى من تلظيه
ليت الاصاغر يفدى الاكبرون بها * فكانت الشهب فى الآفاق تفديه

(من كتاب المنهل الصافى لابى المحاسن)

ابن بطوطه

هو أبو عبد الله بن ابراهيم اللواتى الطنجى الملقب بشمس الدين ابن بطوطه وهو الذى طاف الارض معتبرا وطوى الامصار مختبرا وباحث فرق الامم وسبر سير العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بحاضرة فاس العلياء وكان مولده بطنجة سنة ثلاث وسبعمائة وتوفى سنه ٧٧٧ وكان خروجه من موطنه عام خمسة وعشرين وسبعمائة وله من العمر اثنتان وعشرون سنة فأخذ يتقلب

فى بلاد العراق ومصر والشام واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروز جوه وكان له منه مكانة واستعمله بخطة القضاء بمذهب المالكية فى عمله ثم ساح فى الاقطار الصينية والتترية وأواسط أفريقية فى بلاد السودان وفى الاندلس ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين وكان يحدث عن شأن رحلته ومارأى من العجائب بممالك الارض ويأتى من أحواله مايستغربه السامعون فغمره أبو عنان من احسانه الجزيل وامتنانه الحفى الحفيل ماأنساه الماضى بالحال وأغناه عن طول الترحال فأنفذ اليه الملك الاشارة بان يملى على محمد بن جزى الكلبى ماشاهده فى رحلته من الامصار وماعلق بحفظه من نوادر الاخبار فاملى من ذلك مافيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها فامتثل ابن جزى ماأمر به فضم أطراف ماأملاه ابن بطوطة فى تصنيف جاء على فوائده مشتملا ولنيل مقاصده مكملا فوسمه بتحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار (لابن جزى)

(تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث)



فهرست الجزء الثـــالث

(من كتاب القطع المنتخبـــه)

صحيفة

صحيفة

صحيفة

الجـــزء الثـــالث

(من كتاب القطع المنتخبـــه)

تأليف

حضرة يحيي افنــدى ابراهيم

القــاضى بمحـــكمة الاســـتئناف

قررت نظارة المعارف العموميـــة بتاريخ ٨ ابريل ســـنة ١٨٩٣ نمرة ٣١٣
لزوم طبع هذا الكتاب على نفقتها واستعماله بالمدارس الاميريه

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحميـــه

ســـنة ١٨٩٥

افرنجيه

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الاول فى الفقه

فصل فى التحكيم

ومعناه أن الخصمين اذا حكما بينهما رجلا وارتضياه لان يحكم بينهما فان ذلك جائز بالكتاب والسنة واجماع الامة ولأنا متى لم نجز التحكيم لضاق الامر على الناس لانه يشق على الناس الحضور الى مجلس الحكم فجوزنا التحكيم للحاجة

فصل فيمن يصلح حكما ومن لا يصلح حكما

كل من تقبل شهادته فى أمر جاز أن يكون حكما فيه ومن لا فلا والمرأة تصلح حكما والصبى والعبد والمحدود فى القذف والاعمى لا يصلح حكما لان الحكم فى حق المحكمين بمنزلة القاضى وكل من صلح شاهدا صلح قاضيا ومن لا فلا ثم انما يعتبر كونه أهلا للشهادة فى حالتين حالة التحكيم ووقت الحكم حتى اذا لم يكن من أهل الشهادة وقت التحكيم ثم صار من أهل الشهادة وقت الحكم لا يصير حكما بان حكما عبدا أو ذميا أو صبيا ثم أسلم أو أعتق أو بلغ الصبى ثم حكم لم يجز وكذا اذا كان شاهدا وقت التحكيم ولم يبق شاهدا وقت الحكم لا يبقى حكما لان الحكم فى حقهما بمنزلة القاضى وفى القاضى يعتبر لصحة القضاء كونه من أهل الشهادة فكذا هذا

فصل فيما يصح فيه التحكيم ومالا يصح

يصح التحكيم فيما يملكان فعل ذلك بانفسهما وهو حقوق العباد ولا يصح فيما لا يملكان وهو حقوق الله تعالى حتى يجوز التحكيم فى الاموال والطلاق والعتاق والنكاح والقصاص وتضمين السرقة ولا يجوز فى حد الزنا والسرقة والقذف لان التحكيم تفويض والتفويض يصح بما يملك المفوض فيه بنفسه ولا يصح فيما لا يملك كالتوكيل وذكر الخصاف ولا يجوز حكم المحكم فى حد أو قصاص

لان حكم المحكم بمنزلة الصلح فكل ما يجوز استحقاقه بالصلح يجوز التحكيم فيه وما لا فلا وحد القذف والقصاص لا يجوز استيفاؤهما بالصلح و بعقدهما فلا يجوز التحكيم فيهما وذكر فى الاصل انه يجوز التحكيم فى القصاص لان التحكيم تفويض وتولية فى حقهما وان كان صلحا فى حق غيرهما وهما يملكان استيفاء القصاص فيصح تفويضه الى غيرهما (مسئلة) وينفذ حكم المحكم فى سائر المجتهدات نحو الكنايات والطلاق والعتاق وهو الصحيح لكن شيوخ المذهب امتنعوا عن الفتوى بهذا لئلا يتجاسر العوام فيه ولا يجوز حكمه فى الدم الخطأ لان العاقلة لم ترض به وحكم المحكم انما ينفذ على من يرضى بحكمه وان قضى بالدية على القاتل لا يجوز لان هذا الحكم مخالف للشرع فان الدية فى قتل الخطأ على العاقلة الا أن يكون القاتل أقر بالقتل خطأ فيجوز حينئذ حكمه بالدية عليه لان ما يجب بالاعتراف لا تتحمله العاقلة وانما يجب على المقر وكان حكمه موافقا فنفذ

فصل فيما يصح فيه حكم المحكم وما لا يصح

اذا حكما رجلا فاجاز القاضى حكومته قبل أن يحكم ثم حكم بخلاف رأى القاضى لم يجز لان تحكيمهما لا يتوقف على اجازة القاضى فتكون اجازته باطلة وكذلك اجازته حكم المحكم باطلة لانه اجازة المعدوم واذا بطلت اجازته وقد قضى بخلاف رأيه كان للقاضى نقضه واذا اتفقا على حكمين فحكم أحدهما لم يجز لان القضاء أمر يحتاج فيه الى الرأى والتدبير وهما رضيا برأيهما دون رأى أحدهما فلم ينفرد أحدهما بالقضاء كوكيلى البيع والشراء وكالامام اذا فوض القضاء الى اثنين لا ينفرد أحدهما به فكذا هذا (مسئلة) حكما رجلا ما دام فى مجلسه فقالا لم يحكم بيننا وقال حكمت فالحكم مصدق ما دام فى مجلسه لانه حكى ما يملك استئنافه وانشاءه فملك الاقرار به وجعل اقراره كأنه انشاء الحكم ولا يصدق بعده لانه لا يملك انشاء الحكم (من معين الحكام)

فصل فى الجزائر فى دجلة والفرات والغروب

(قال أبو يوسف) رحمه الله وسألت يا أمير المؤمنين عن الجزائر التى تكون فى دجلة والفرات ينضب عنها الماء فجاء رجل وهى جزيرة أرض له فحصنها من الماء وزرع فيها فاذا نضب الماء عن جزيرة فى دجلة أو الفرات فجاء رجل بلاصق تلك الجزيرة بأرض له فحصنها من الماء و زرع فيها فهى له وهذا مثل الارض الموات اذا كان ذلك لا يضر بأحد وان كان يضر أحدا منع من ذلك ولم يترك يحصنها ولا يزرع فيها ولا يحدث فيها احدث الا باذن الامام فأما اذا نضب الماء عن جزيرة فى دجلة مثل هذه الجزيرة التى بحذاء بستان موسى . وهذه الجزيرة التى من الجانب الشرقى فليس لاحد أن يحدث

فيها شيأ لابناء ولا زرعا لان مثل هذه الجزيرة اذا حصنت وزرعت كان ذلك ضررا على أهل المنازل والدور قال ولا يسع الامام أن يقطع شيأ من هذا ولا يحدث فيه حدثا قال وأما ما كان خارج المدينة فهو بمنزلة الارض الميتة يحييها الرجل ويؤدى عنها حق السلطان ولو أن رجلا فى طائفة من البطيحة مما ليس فيه ملك لاحد غاب عليه الماء فضرب عليها المسناة واستخرجها وأحياها وقطع ما فيها من القصب فانها بمنزلة الارض الميتة وكذلك كل ما عالج من أجمة أو من بحر أو من بر بعد أن لا يكون فيه ملك لانسان فاستخرجه رجل وعمره فهو له وهو بمنزلة الموات ولو أن رجلا أحيا من ذلك شيأ قد كان له مالك قبله رددت ذلك الى الاول ولم أجعل للثانى فيه حقا فان كان الثانى قد زرع فيه فله زرعه وهو ضامن لما نقصت الارض وليس عليه أجرة وهو ضامن لما قطع من قصبها وكذلك لو كانت هذه الارض فى البرية فيها نبات لانها بمنزلة القصب قال ولو أن رجلا حظر حظيرة فى البطيحة وكرى لها نهرا فجاء رجل فقال أنا أدخل معك فى هذه الارض وأشركك فيها فان كان نضب الماء عنها حيث دخل معه فالشركة باطلة وان كان لم ينضب عنها فالشركة جائزة وكذلك اذا كان فى برية فأتاه رجل فقال أنا أدخل معك فان كان قد حفر فيها بركة أو بئرا أو نهرا وساق اليها الماء فالشركة فى هذا فاسدة وان كان لم يحفر ولم يكر فالشركة جائزة مثل الاول قال واذا نضب الماء عن جزيرة فى دجلة أو الفرات وكانت بحذاء منزل رجل وفنائه فأراد أن يصيرها فى فنائه ويزيدها فيه فليس له ذلك ولا يترك وذلك فان جاء رجل فحصنها من الماء وزرع فيها وأدى عنها حق السلطان فهى بمنزلة أرض الموات يحييها الرجل فان أراد هذا الذى هى بحذاء فنائه أن يعملها ويؤدى عنها حق السلطان فهو أحق بها وهى له وان كانت هذه الجزيرة التى نضب عنها الماء اذا حصنت وضرب عليها المسناة أضر ذلك بالسفن التى تمر بدجلة والفرات وخاف المارة فى السفن الغرق من ذلك أخرجت من يده هذا ورددت الى حالها الاولى لان هذه الجزيرة بمنزلة طريق المسلمين ولا ينبغى لاحد أن يحدث شيأ فى طريق المسلمين مما يضرهم ولا يجوز للامام أن يقطع شيأ من طريق المسلمين مما فيه الضرر عليهم ولا يسعه ذلك وان أراد الامام أن يقطع طريقا من طرق المسلمين الجادة رجلا يبنى عليه والعامة طريق غير ذلك قريب أو بعيد منه لم يسعه اقطاع ذلك ولم يحل له وهو آثم ان فعل وكذلك الجزائر التى ينضب عنها الماء فى مثل الفرات ودجلة فللامام أن يقطعها اذا لم يكن فى ذلك ضرر على المسلمين فان كان فى ذلك ضرر لم يقطعها ومن أحدث فيها حدثا وكان فيه ضرر ردت الى حالها الاولى وسألت عن الغروب التى تتخذ فى دجلة وفى ممر السفن التى تمر الى دجلة وفيها نفع وضرر فان كانت تضر بالسفن التى تمر فى دجلة نحيت ولم يترك أصحابها واعادتها الى ذلك الموضع وان لم يكن فيها ضرر تركت على حالها فقيل لابى يوسف فيها من الضرر أن السفينة ربما

حملها الماء عليها فانكسرت قال أبو يوسف ما انكسر عليها من السفن فصاحب الغربة ضامن لذلك ولا يترك الامام شيأ من ذلك الا أمر به فهدم ونحى فان فى هذا ضررا عظيما فالفرات ودجلة انما هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لاحد أن يحدث فيه شيأ فمن أحدث فيه شيأ فعطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى أن يوكل بذلك رجلا ثقة أمينا حتى يتتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيأ فى دجلة والفرات فى موضع يضر بالسفن ولا يتخوف عليها منه الانحاء وتوعد أهله على اعادة شئ منه فان فى ذلك أجرا عظيما (من كتاب الخراج لابى يوسف)

فصل فى أهل الدعارة والتلصص والجنايات وما يجب فيه من الحدود

قال أبو يوسف رحمه الله تعالى وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من أمر أهل الدعارة والفسق والتلصص اذا أخذوا فى شئ من الجنايات وحبسوا وهل يجرى عليهم ما يقوتهم فى الحبس والذى يجرى عليهم من الصدقة أو غير الصدقة وما ينبغى أن يعمل به فيهم قال لابد لمن كان فى مثل حالهم اذا لم يكن له شئ يأكل منه لا مال ولا وجه شئ يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال من أى الوجهين فعلت فذلك موسع عليك وأحب الى أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته فانه لا يحل ولا يسع الا ذلك قال والاسير من أسرى المشركين لابد أن يطعم ويحسن اليه حتى يحكم فيه فكيف برجل مسلم قد أخطأ أو أذنب يترك يموت جوعا وانما حمله على ما صار اليه القضاء أو الجهل ولم تزل الخلفاء يا أمير المؤمنين تجرى على أهل السجون ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف وأول من فعل ذلك على بن أبى طالب كرم الله وجهه بالعراق ثم فعله معاوية بالشام ثم فعل ذلك الخلفاء من بعده قال حدثنى اسماعيل بن ابراهيم ابن المهاجر عن عبد الملك بن عمير قال كان على بن أبى طالب اذا كان فى القبيلة أو القوم الرجل الداعر حبسه فان كان له مال أنفق عليه من ماله وان لم يكن له مال أنفق عليه من بيت المال وقال يحبس عنهم شره وينفق عليه من بيت مالهم قال وحدثنا بعض أشياخنا عن جعفر بن برقان قال كتب الينا عمر بن عبد العزيز لا تدعن فى سجونكم أحدا من المسلمين فى وثاق لا يستطيع أن يصلى قائما ولا يبيتن فى قيد الا رجل مطلوب بدم وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم فى طعامهم وأدمهم والسلام فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم وصيرذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك اليهم فانك ان أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من فى السجن ممن تجرى عليهم الصدقة وتكون الاسماء عنده ويدفع ذلك اليهم شهرا بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك اليه فى يده فمن كان منهم قد

أطلق وخلى سبيله ردّ ما يجرى عليه ويكون للاجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد وليس كل من فى السجن يحتاج الى أن يجرى عليه وكسوتهم فى الشتاء قميص وكساء وفى الصيف قميص وازار ويجرى على النساء مثل ذلك وكسوتهنّ فى الشتاء قميص ومقنعة وكساء وفى الصيف قميص وازار ومقنعة وأغنهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس فان هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطؤا وقضى الله عليهم ماهم فيه فحبسوا يخرجون فى السلاسل يتصدّقون وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى أيديهم فكيف ينبغى أن يفعل هذا بأهل الاسلام وانما صاروا الى الخروج فى السلاسل يتصدّقون لما هم فيه من جهد الجوع فربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا ان ابن آدم لم يعر من الذنوب فتفقد أمرهم ومر بالاجراء عليهم مثل ما فسرت لك ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولا قرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن فانه بلغنى وأخبرنى به الثقاة أنه ربما مات منهم الميت الغريب فيمكث فى السجن اليوم واليومين حتى يستأمر الوالى فى دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون ويكترون من يحمله الى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة عليه فما أعظم هذا فى الاسلام وأهله ولو أمرت باقامة الحدود لقل أهل الحبس ولخاف الفساق وأهل الدعارة ولتناهوا عما هم عليه وانما يكثر أهل الحبس لقلة النظر فى أمرهم انما هو حبس وليس نظر فمر ولاتك جميعا بالنظر فى أمر أهل الحبوس فى كل أيام فمن كان عليه أدب أدب وأطلق ومن لم يكن له قضية خلى عنه وتقدم اليهم أن لا يسرفوا فى الادب ولا يتجاوزوا بذلك الى ما لا يحل ولا يسع فانه بلغنى أنهم يضربون الرجل فى التهمة وفى الجناية الثلاثمائة والمائتين فأكثر وأقل وهذا مما لا يحل ولا يسع ظهر المؤمن حمى الا من حق يجب بفجور أو قذف أو سكر أو تعزير لأمر أتاه لا يجب فيه حدّ وليس يضرب فى شئ من ذلك كما بلغنى أن ولاتك يضربون وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن ضرب المصلين حدثنا بعض أشياخنا عن هودة بن عطاء عن أنس قال أبو بكر رضى الله عنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب المصلين ومعنى هذا الحديث عندنا والله أعلم أنه نهى عن ضربهم من غير أن يجب عليهم حدّ يستحقون به الضرب وهذا الذى بلغنى أن ولاتك يفعلونه ليس من الحكم والحدود فى شئ ليس يجب مثل هذا على جانى الجناية صغيرة ولا كبيرة من كان منهم أتى ما يجب عليه فيه قود أو حد أو تعزير أقيم عليه ذلك وكذلك من جرح منهم جراحة فى مثلها قصاص وقامت عليه البينة بذلك قيس جرحه واقتص منه الا أن يعفو المجنى عليه فان لم يكن يستطاع فى مثلها قصاص حكم عليه بالارش وعوقب وأطيل حبسه حتى يحدث توبة ثم يخلى عنه وكذلك من كان منهم سرق ما يجب فيه القطع قطع ان الاجر فى اقامة الحد عظيم والصلاح فيه لاهل الارض كثير

(من كتاب الخراج لابى يوسف)

فصل في وقف المشاع وقسمته والمهايأة فيه

اتفق أبو يوسف ومحمد رحمهما الله على جواز وقف مشاع لا يمكن قسمته كالحمام والبئر والرحى واختلفا في الممكن فأجازه أبو يوسف وبه أخذ مشايخ بلخ وأبطله محمد بناء على اختلافهما المتقدم فنقول تفريعا على قول أبي يوسف رحمه الله اذا وقف أحد الشريكين حصته من أرض جاز واذا اقتسماها بعد ذلك فما وقع في نصيب الواقف كان وقفا ولا يحتاج الى اعادة الوقف فيه وان وقفه ثانيا كان أحوط لارتفاع الخلاف حينئذ ولو وقف نصف أرض مثلا ينبغي أن يبيع نصفها ثم يقاسم المشترى ولو رفع الامر الى القاضي فأمر رجلا بالمقاسمة معه جاز وليس له أن يقاسم نفسه لانها مأخوذة من المفاعلة فتقتضي المشاركة بين اثنين فما فوقهما ولو قضى بجواز الوقف المشاع ارتفع الخلاف ثم اذا طلبا من القاضي القسمة قال أبو حنيفة لا تقسم ويأمرهما بالمهايأة وقالا تقسم اذا كان البعض ملكا والبعض وقفا ولو كان الكل وقفا فأراد أربابه قسمته لا يقسم حتى لو وقف ضيعة على ولديه مثلا فأراد أحدهما قسمتها ليدفع نصيبه مزارعة لا يجوز بل يدفع القيم كلها مزارعة وليس ذلك الى أربابه وانما هو للقيم ولو قسمه الواقف بين أربابه ليزرع كل واحد منهم نصيبه وليكون المزروع له دون شركائه توقف على رضاهم ولو فعل أهل الوقف ذلك فيما بينهم جاز ولمن أبى منهم بعد ذلك ابطاله ومن وقف دورا للاستغلال ليس له أن يسكنها أحدا بغير أجر ولو وقف داره لسكنى ولديه فطلب أحدهما المهايأة وأبى الآخر يسكن كل نصفا بلا مهايأة حانوت بين اثنين فوقف أحدهما نصيبه وأراد نصب لوح الوقف على بابه فمنعه الآخر له ذلك لانه تصرف في محل مشترك ولو رفع الامر الى القاضي فأذن له به جاز صيانة للوقف عن البطلان ولعموم ولايته امرأة وقفت دارا في مرضها على ثلاث بنات لها وجعلتها بعدهن للمساكين وليس لها ملك غيرها ولا وارث لها غيرهن قالوا ثلث الدار وقف والثلثان ميراث لهن يفعلن به ما شئن من الاجارة والتملك وهذا عند أبي يوسف خلافا لمحمد ولو كانت الارض بين رجلين فتصدقا بها جملة صدقة موقوفة على المساكين ودفعاها معا الى قيم واحد جاز اتفاقا لان المانع من الجواز عند محمد هو الشيوع وقت القبض لا وقت العقد ولم يوجد هنا لوجودهما معا منهما ولو وقف كل منهما نصيبه على جهة وجعلا القيم واحدا وسلماه معا جاز اتفاقا لعدم الشيوع وقت القبض ولو اختلفا في وقفهما جهة وقيما واتحد زمان تسليمهما لهما أو قال كل منهما للقيم اقبض نصيبي مع نصيب صاحبي جاز أيضا اتفاقا لانهما صارا كمتول واحد بخلاف ما لو وقف كل واحد وحده وسلم لقيمه وحده فانه لا يصح الوقف عند محمد لوجود الشيوع وقت العقد وتمكنه وقت القبض ولو قال وقفت نصيبي من هذه الارض وهو ثلثها فوجد أكثر من ذلك كان نصيبه كله وقفا كالوصية بخلاف البيع فان الزائد يكون للبائع أراض أو دور

بين اثنين فوقف أحدهما نصيبه على الفقراء وحكم بصحته ثم أراد القسمة فقسم القاضي وجمع الوقف في أرض أو دار واحدة جاز عند أبي يوسف ومحمد واختاره هلال كما لو كان لهما داران وطلبا القسمة فجمع القاضي نصيب أحدهما في دار ونصيب الآخر في دار جاز ذلك فكذلك ههنا الا أن ثمت يجوز سواء كانا في مصر واحد أو مصرين وههنا يجمع اذا كانا في مصر واحد لا في مصرين وعلى قول أبي حنيفة يقسم القاضي كل واحدة على حدة الا أن يرى الصلاح في الجمع فحينئذ يجمع الوقف كله في أرض أو دار واحدة فيصير عند جمع القاضي في الحكم كأن الشريكين اقتسما بأنفسهما وذلك جائز ولو اقتسم الشريكان وأدخلا في القسمة دراهم معلومة فان كان المعطي هو الواقف جاز ويصير كأنه أخذ الوقف واشترى بعض ما ليس بوقف من نصيب شريكه بدراهمه وانه جائز وان كان بالعكس لا يجوز لانه يلزم منه نقض بعض الوقف وحصة الوقف وقف وما اشتراه ملك له ولا يصير وقفا ثم اذا أراد تمييز الوقف عن الملك يرفع الامر الى القاضي كما تقدم ولو وقف عشرة أذرع شائعا من أرض فقاسم فوقع نصيب الوقف أقل من ذلك لجودة الارض التي وقعت للوقف أو أكثر لكونها دون القطعة الاخرى جاز لان مثل هذه القسمة تجوز في الملك فكذا في الوقف اذا كان فيه صلاح للوقف لتحقيق المعادلة ولو أراد أن يصرف الارض الوقف الى أرض أخرى مكانها أو يجعل الوقف ملكا لنفسه لا يجوز لانه امناقلة للوقف الى غيره الا أن يكون قد شرط لنفسه الاستبدال في أصل الوقف فحينئذ يجوز ولو قال وقفت من أرضي هذه شيأ ولم يسمه كان باطلا لان الشيء يتناول القليل والكثير ولو بين بعد ذلك ربما يبين شيأ قليلا لا يوقف عادة ولو قال وقفت جميع حصتي من هذه الدار أو الارض ولم يسم السهام يجوز استحسانا اذا ثبت الواقف على اقراره وان جحد فجاءت بينة فشهدت بالوقف ومقدار حصته وسموه حكم القاضي بالوقف وان شهدوا على اقراره بالوقف ولم يعرفوا مقدار حصته ألزمه القاضي بيان مقدار حصته والقول قوله فيه وان مات قام وارثه مقامه فما أقر به لزمه وحكم به القاضي ثم ان ثبت عنده أزيد من ذلك حكم به أيضا ولو وقف نصف أرض له ثم مات وقد أوصى الى رجل وفي الورثة كبار وصغار فأراد الوصي أن يقاسم الكبار ويفرز حصة الوقف جاز ان ضم حصة الصغار الى الوقف والا فلا لانه وصي الصغار ووال على الوقف فلا يمكنه أن يفرز حصة الوقف عن حصة الصغار كما لو كان وصيا على صغار فانه ليس له أن يقسم بينهم ويفرز نصيب كل واحد منهم عن نصيب الآخر لانه يلزم أن يكون مقاسما لنفسه وانه لا يجوز ولو أراد الواقفان أن يقتسما ما وقفاه ليتولى كل واحد منهما على ما وقفه ويصرف غلته فيما سمي من الوجوه جاز ولو استحق نصف ما وقفه وقضى به للمستحق يستمر الباقي وقفا عند أبي يوسف خلافا لمحمد وتجوز المقاسمة مع وكيل الواقف ووصيه ولو وقف

نصف أرضه وأوصى الى ابنه والى رجل أجنبي لايجوز له أن يقاسم الابن ويفرد حصة الوقف لكون الابن وصيا أيضا ولو وقف نصف أرضه على جهة معينة وجعل الولاية عليه لزيد في حياته وبعد مماته ثم وقف النصف الآخر على تلك الجهة أو غيرها وجعل الولاية عليه لعمر وفي حياته وبعد وفاته يجوز لهما أن يقتسماها ويأخذ كل واحد منهما النصف فيكون في يده لانه لما وقف كل نصف على حدة صارا وقفين وان اتحدت الجهة كما لو كانت لشريكين فوقفاها كذلك والله أعلم

فصل في شرط استبدال الوقف

لو قال أرضي هذه صدقة موقوفة لله عز وجل أبدا على أن لي أن أبيعها وأشتري بثمنها أرضا أخرى فتكون وقفا على شروط الاولى جاز الوقف والشرط عند أبي يوسف استحسانا واختاره الخصاف وهلال وقال محمد ويوسف بن خالد السمتي الوقف صحيح والشرط باطل وهو القياس وقال بعضهم هما فاسدان والصحيح قول أبي يوسف رحمه الله لان هذا شرط لا يبطل حكم الوقف فان الوقف مما يحتمل الانتقال من أرض الى أخرى فان أرض الوقف اذا غصبها انسان وأجرى عليها الماء حتى صارت بحرا لا تصلح للزراعة وضمن قيمتها وشرى بقيمتها أرض أخرى تكون وقفا على شرائط الاولى وكذلك أرض الوقف اذا قل نزلها لآفة وصارت بحيث لا تصلح للزراعة أو لا تفضل غلتها عن مؤنها يكون صلاح الوقف في استبداله بارض أخرى فيصح أن يشترط ولاية الاستبدال وان لم تكن الضرورة داعية اليه في الحال ولو قال الواقف في أصل الوقف على أن أبيعها وأشتري بثمنها أرضا أخرى ولم يزد على هذا يكون الوقف باطلا في القياس لانه لم يذكر اقامة أرض أخرى مقام الاولى وجائز في الاستحسان لان الارض تعينت للوقف فيقوم ثمنها مقامها في الحكم وبمجرد شراء أرض بثمنها تصير وقفا على شرائط الاولى من غير تجديد وقف كما لو قتل العبد الموصى بخدمته خطأ وضمن الجاني قيمته واشترى بها عبد فانه يجري عليه حكم أصله بمجرد الشراء وهكذا حكم المدبر المقتول خطأ هذا اذا شرط الاستبدال في أصل الوقف وأما اذا لم يشترطه فقد أشار في السير الى أنه لا يملكه الا القاضي اذا رأى المصلحة في ذلك ويجب أن يخصص برأي أول القضاة الثلاثة المشار اليه بقوله عليه الصلاة والسلام قاض في الجنة وقاضيان في النار المفسر بذي العلم والعمل لئلا يحصل التطرق الى ابطال أوقاف المسلمين كما هو الغالب في زماننا ولو وقف أرضه وشرط أن يستبدلها بأرض ليس له أن يستبدلها بدار ولو شرط البدل دارا لا يستبدلها بارض ولو شرط أرض قرية لا يستبدلها بارض غيرها لتفاوت أراضي القرى مؤنة واستغلالا فيلزم الشرط ولو اشترى البدل من أرض

عشر أو خراج جاز لعدم خلو الارض عن أحدهما ولو لم يقيد البدل بارض ولا دار يجوز له أن يستبدل لها من جنس العقارات بأى أرض أو دار أو بلد شاء للاطلاق ولو باعها بغبن فاحش لا يصح فى قول أبى يوسف وهلال لان القيم كالوكيل ولو أجاز أبو حنيفة الوقف بشرط الاستبدال لأجاز البيع بالغبن الفاحش كما هو مذهبه فى بيع الوكيل به ولو اشترى القيم بنصف الثمن أرضا وأشهد على نفسه انها من البدل جاز ويشترى بالباقى أيضا بدلا ولو باع الوقف وقبض ثمنه ثم مات ولم يبين حال الثمن كان دينا فى تركته ولو كان الوقف مرسلا لم يذكر فيه شرط الاستبدال لا يجوز له بيعه واستبداله وان كانت الارض سبخة لا ينتفع بها ولكن يرفع الامر الى القاضى الذى مر ذكره آنفا لان سبيله أن يكون مؤبدا لا يباع وانما يثبت له ولاية الاستبدال بالشرط وبدونه لا كالبيع الخالى عن شرط الخيار لا يملك أحد المتبايعين نقضه وان لحقه فيه غبن ولو وهب ثمنه تصح الهبة عند أبى حنيفة وعند أبى يوسف لا تصح ولو ضاع لا يضمنه لكونه أمينا ولو باعها وردت عليه بعيب بقضاء وهلك الثمن عنده فانه يضمنه من ماله ويجوز له بيع الارض المردودة عليه فى الثمن الذى ضمنه بخلاف ما اذا غصبها رجل وضمن قيمتها لتعذر ردها وهلكت القيمة عند القيم ثم ردها اليه واسترد القيمة منه فانه يرجع فى الغلة ولا يبيعها ولو باع أرض الوقف بعروض يصح فى قياس قول أبى حنيفة فيبيع العروض باحد النقدين ويشترى به بدلا أو يشترى بها بدلا وعند أبى يوسف لا يباع الا باحد النقدين ثم يشترى به بدل ولو اشترى به ما لا يصح وقفه كغلام وجارية يكون الثمن دينا عليه ولو باع ما شرط استبداله ثم عاد اليه ان عاد بما هو فسخ من كل وجه كالرد بالعيب قبل القبض مطلقا وبعده بقضاء أو بفساد البيع أو خيار الشرط أو الرؤية جاز له بيعه ثانيا لان البيع الاول صار كأنه لم يكن وان عاد بما هو كعقد جديد كالاقالة بعد القبض لا يملك بيعه ثانيا لانه صار كأنه اشتراه شراء جديدا فيصير وقفا فيمتنع بيعه كما لو اشترى أرضا نوى بدلها الا أن يكون شرط الاستبدال مرة بعد أخرى ولو اشترى بالثمن أرضا ثم ردت الاولى عليه بعيب بقضاء عادت الى ما كانت عليه وقفا والتى اشتراها ملك له لانها بدل عن الاولى فاذا انفسخ البيع فيها من كل وجه رجعت الوقفية الى الاصل لعدم تصور الخلف مع وجود الاصل وبغير قضاء لا تعود الى الوقفية فتكون له وما اشتراه بدلا هو الوقف لعود ما باعه اليه بعقد جديد معنى ولو اشتراه رجل ثم وهبه لمن باعه اياه أو مات فورثه البائع لا يرجع الى الوقفية بل يبقى على ملكه ويشترى بثمنه بدلا لعدم انتقاض عقده فيه وهذا ملك بسبب جديد ولو باع أرض الوقف واشترى بثمنها أرضا أخرى ثم استحقت الارض الاولى تبقى الثانية وقفا فى القياس وفى الاستحسان لا تبقى لانها انما كانت وقفا بدلا عن الاولى وبالاستحقاق انتقضت تلك المبادلة من كل وجه فلا تبقى الثانية وقفا ولو قال على أن أستبدل بها ثم مات وأوصى الى وصيه به

فانه لا يملكه لانه شرطه لنفسه وهو أمر يحتاج فيه الى الرأى والمشورة بخلاف ما اذا وكل به فى حياته حيث يصح التوكيل لقيام رأى الموكل وامكان تدارك الخلل لو وجد ولو شرطه لكل من يلى عليه جاز وله ذلك ما دام الواقف حيا ولا يجوز بعد موته الا اذا شرط له الولاية عليه فى حياته و بعد وفاته وهذا قول أبى يوسف وهلال بناء على أن القيم عندهما بمنزلة الوكيل والوكالة تبطل بالموت فيحتاج الى الاسناد اليه فى حياته و بعد مماته أيضا لتبقى الوكالة وأما على قول محمد فان الولاية لا تبطل بموت الواقف لان المتولى وكيل الفقراء لا وكيل الواقف حتى لا يمكنه أن يعزله بدون شرط فى أصل الوقف فيجوز له الاستبدال ولو بعد موت الواقف ولو شرط للمتولى استبداله بعد وفاته تقيد بشرطه ويجوز له هو استبداله ما دام حيا ثم ليس للمتولى سوى الاستبدال به خاصة دون الاسناد والايصاء به ولو شرطه لرجل آخر مع نفسه يجوز له الانفراد به دون الرجل لانه اشترط رأيه مع رأيه ولو كتب فى أول كتاب وقفه لا يباع ولا يوهب ولا يملك ثم قال فى آخره على أن لفلان بيعه والاستبدال بثمنه ما يكون وقفا مكانه جاز بيعه ويكون الثانى ناسخا للاول ولو عكس وقال على أن لفلان بيعه والاستبدال به ثم قال فى آخره لا يباع ولا يوهب لا يجوز بيعه لانه رجوع منه عما شرطه أولا ولو باع المتولى دار الوقف وقبض الثمن ثم عزله القاضى ونصب غيره فاسترد الثانى الوقف من المشترى بحكم القاضى يجب عليه أجرة ما سكن فيها لانها معدة للاجرة وهذا بناء على قول المتأخرين والله أعلم

فصل فى اشتراط الزيادة والنقصان فى مقدار المرتبات وفى أربابها

لو اشترط فى وقفه أن يزيد فى وظيفة من يرى زيادته أو ينقص من وظيفة من يرى نقصانه من أهل الوقف وأن يدخل معهم من يرى ادخاله وأن يخرج منهم من يرى اخراجه جاز ثم اذا زاد أحدا منهم أو نقصه مرة أو أدخل أحدا أو أخرج أحدا ليس له أن يغيره بعد ذلك لان شرطه وقع على فعل يراه فاذا رآه وأمضاه فقد انتهى ما رآه واذا أراد أن يكون ذلك له دائما ما دام حيا يقول على أن لفلان ابن فلان أن يزيد فى مرتب من يرى زيادته وأن ينقص من مرتب من يرى نقصانه وأن ينقص من زاده ويزيد من نقصه منهم ويدخل معهم من يرى ادخاله ويخرج منهم من يرى اخراجه متى أراد مرة بعد أخرى رأيا بعد رأى ومشيئة بعد مشيئة ما دام حيا ثم اذا أحدث فيه شيأ مما شرطه لنفسه أو مات قبل ذلك يستقر أمر الوقف على الحالة التى كان عليها يوم موته وليس لمن يلى عليه بعده شئ من ذلك الا أن يشترطه له فى أصل الوقف واذا شرط هذه الامور أو بعضها للمتولى من بعده ولم يشرطها لنفسه جاز له أن يفعلها ما دام حيا لان شرطها لغيره شرط منه لنفسه ثم اذا مات جاز للمتولى فعل ما شرطه له ولو شرط هذه الامور للمتولى ما دام هو حيا جاز له وللمتولى ذلك ما دام هو حيا

ولو شرط لنفسه في أصل الوقف استبداله أو الزيادة والنقصان ولم يزد عليه ليس له أن يجعل ذلك أو شيأ منه للمتولي وانما ذلك له خاصة لاقتصار الشرط في أصل الوقف على نفسه ولا يجوز له أن يفعل الا ما شرطه وقت العقد (الاسعاف في الاوقاف)

(بيان أن المجدد للدين يجوز أن يكون من المجتهدين أو المقلدين)

المجدد للدين قد يكون من المجتهدين أو المقلدين بناء على أن التجديد للدين هو التقرير والتأييد للدين وليس مقصورا على الاجتهاد فقد قال الحافظ عماد الدين بن كثير قد ادعى كل قوم في امامهم أنه المراد بهذا الحديث والظاهر أنه يعم حملة العلم من كل طائفة وكل صنف من أصناف العلماء محدثين وفقهاء ونحاة ولغويين انتهى مانقله عنه صاحب خلاصة الاثر ثم قال وقال في جامع الاصول أي ابن الاثير الجزري الشافعي تكلموا في تأويل هذا الحديث وكل اشار الى القائم الذي هو من مذهبه وحمل الحديث عليه والاولى العموم فان من تقع على الواحد والجمع ولا يختص أيضا بالفقهاء فان انتفاع الامة يكون أيضا بأولي الامر وأصحاب الحديث والقراء والوعاظ لكن المبعوث ينبغي كونه مشارا اليه في كل فن من هذه الفنون ففي رأس الاولى من أولي الامر عمر بن عبد العزيز ومن الفقهاء محمد الباقر والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله والحسن بن سيرين وغيرهم من طبقتهم ومن القراء ابن كثير ومن المحدثين الزهري وفي رأس الثانية من أولي الامر المأمون ومن الفقهاء الامام الشافعي واللؤلؤي من أصحاب أبي حنيفة وأشهب من أصحاب مالك ومن الامامية على ابن موسى الرضى ومن القراء الحضرمي ومن المحدثين ابن معين ومن الزهاد الكرخي وفي الثالثة من أولي الامر المقتدر ومن الفقهاء ابن سريج الشافعي والطحاوي الحنفي والخلال الحنبلي ومن المتكلمين الاشعري ومن المحدثين النسائي وفي الرابعة من أولي الامر القادر بالله ومن الفقهاء الاسفرائيني الشافعي والخوارزمي الحنفي وعبد الوهاب المالكي والحسين الحنبلي ومن المتكلمين الباقلاني وابن فورك ومن المحدثين الحاكم ومن الزهاد النووي وهكذا يقال في بقية القرون وقال في الفتح نبه بعض الائمة على أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل قرن واحد فقط بل الامر فيه كما ذكره النووي في حديث لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق من أنه يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومحدث ومفسر وقائم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد ولا يلزم اجتماعهم ببلد واحد بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وتفرقهم في الاقطار ويجوز اجتماعهم ببلد وأن يكونوا في بعض دون بعض ويجوز اخلاء الارض كلها من بعضهم أولا فأولا الى أن لا يبقى الافرقة واحدة ببلد واحد فاذا انقرضوا أتى أمر الله

وقال الحافظ زين الدين العراقي في أول تخريج أحاديث الاحياء في ترجمة الغزالي بعد أن ذكر نحو ما مر وانما قلت من تعيين من ذكرت على رأس كل مائة بالظن والظن يخطئ ويصيب والله أعلم بمن أراد ونبيه صلى الله عليه وسلم ولكن لما جزم احمد بن حنبل في المائتين الاولين بعمر بن عبد العزيز والشافعي تجاسر من بعده بابن سريج والصعلوكي وسبب الظن في ذلك شهرة من ذكر بالانتفاع بأصحابه ومصنفاته والعلماء ورثة الانبياء وكذلك من ذكر أنه مظنون في المائة الثامنة فعلمه الى الله تعالى والله تعالى يبقي العلماء ويديم النفع بهم الى أزمان متطاولة اه

ولعل عد المأمون مجددا للدين من قبيل قوله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم والا فما نقله السيوطي عن أبي حاتم في تفسيره من روايته عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال ما كان منذ كانت الدنيا رأس مائة سنة الا كان عند رأس المائة أمر اه يفيد أن المأمون لا يصح عده في المجددين للدين وانه جدد العلوم النافعة الاخرى فان السيوطي قال في بيان الامر الذي يكون عند رأس المائة كان عند رأس المائة الاولى من هذه الملة فتنة الحجاج وما أدراك ما الحجاج وفي المائة الثانية فتنة المأمون وحروبه مع أخيه حتى درست محاسن بغداد وباد أهلها ثم قتله ثم امتحانه الناس بخلق القرآن وهي أعظم الفتن في هذه الامة وأولها بالنسبة الى الدعاء الى البدعة ولم يدع خليفة قبله الى شئ من البدع وفي المائة الثالثة خروج القرمطي وناهيك به ثم فتنة المقتدر لما خلع وبويع الى المعتز وأعيد المقتدر ثاني يوم وذبح القاضي وخلقا من العلماء ولم يقتل قاض قبله في ملة الاسلام ثم فتنة تفرق الكلمة وتغلب المتغلبين على البلاد واستمر ذلك الى الآن ومن جملة ذلك ابتداء الدولة العبيدية وناهيك بهم افسادا وكفرا وقتلا للعلماء والصلحاء وفي المائة الرابعة كانت فتنة الحاكم بأمر الله وناهيك بما فعل وفي المائة الخامسة أخذ الفرنج الشام وبيت المقدس وفي المائة السادسة كان الغلاء الذي لم يسمع بمثله منذ زمن يوسف صلى الله عليه وسلم وكان ابتداء أمر التتار وفي المائة السابعة كانت فتنة التتار العظمى التي لم يسمع بمثلها أسالت من دماء أهل الاسلام بحارا وفي المائة الثامنة كانت فتنة تمرلنك التي استصغرت بالنسبة اليها فتنة التتار على عظمها اه

فقد قال في حق المأمون ما قال الا انه لم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه وكان أمارا بالعدل فقيه النفس يعد من كبار العلماء في سائر الفنون فقد قال يحيى بن أكثم ذات يوم في محاورته له يا أمير المؤمنين ان خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته أو في النجوم كنت هرمس في حسابه أو في الفقه كنت علي بن أبي طالب في علمه أو ذكر السخاء كنت حاتم طيئ في صفته أو صدق الحديث كنت أبا ذر في لهجته أو الكرم فأنت كعب بن مامه في فعاله أو الوفاء فأنت السموأل بن عادياء في وفائه

وقال بعضهم استخرج المأمون كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرس وبرع فيها بعد أن برع في فنون التاريخ والادب والعلوم الشرعية ولولا قوله بخلق القرآن لكان يعد من أكمل الخلفاء وكان فيه انصاف فمن انصافه أنه رأى أن آل النبي صلى الله عليه وسلم أحق بالخلافة من غيرهم فهم بخلع نفسه وتفويض الامر الى على بن موسى الكاظم ولقبه بالرضى وضرب الدراهم والدنانير باسمه وزوجه ابنته وأمر بترك السواد ولبس الخضرة وجعله ولى عهده في الخلافة فتوفى الامام على بن موسى الرضى في حياته فهذا ما كان من انصافه فلعل هذا هو الحامل لابن الاثير على عده من المجددين للدين أو أن التجديد حاصل بعنايتــه ومترتب على أفعاله واعتزاله في مسألة لا يمنع من التجديد كما قال بعضــهم في حق ولاة الامور والله لا يصلح الدين الا بهم وان جاروا وأن ما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون فلو أبقى هذا الخليفة مسألة القرآن لعلماء عصره يقولون فيها حكم الله ما بقيت له هذه الذلة على مدى الازمان لا سيما وأن عصره مشحون بالعلماء

(بيان أنه ليس لولاة الامور من الامراء أن يحكموا في التحريم والتحليل)

قال بعضهــم ليس من وظائف ولاة الامور أن يحكموا في التحريم والتحليــل بما يخالف الاوضاع الشرعية المستنبطة عند الائمة المجتهدين من أدلة الكتاب والسنة والاجماع ولا عبرة بالاستكراه النفساني والاستحسان الطبيعي والتقبيح العقلي فالتحسين والتقبيح العقليان المجردان عن التدليل الشرعي لا عبرة بهما والحاكم في أمثال الاوامر والنواهي كاحد رعاياه القائم بمصالحهم والناظر في أمورهم والمدبر لمملكته بالعدل والانصاف على القانون الشرعي الذي أصوله الكتاب والسنة والاجماع والقياس والاستصحاب أو الاستحسان فقد ثبت بالاجماع أن ما لا دليل عليه صريحا في الكتاب والسنة فالعمل فيه بما انعقد عليه الاجماع واجب وكذلك القياس فان ما لا نص فيه لا يلحق بالوقائع المنصوصة المشبهة له واعتبار الاجماع والقياس انما يكون اذا صدرا من الذين يمكنهم استنباط الاحكام من الكتاب والسنة وهم المسمون بأهل الحل والعقد في الاصول ولذلك فسر به بعضهم أولى الامر في الآية وقال ينبغي أن تكون أوامر الحكام ونواهيهم موقوفة على فتاوى العلماء وأقوال المجتهدين في الدين وهذا لا يمنع أن الامارة تخلف النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا فتقف عند حدود الله تعالى المعضدة بقوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم بناء على تفسير كمال الدين في الآية باكمال الفرائض والاحكام كما ذهب اليه جماعة منهم السدى وقال ابن عباس ان اكمال الدين هنا معناه عدم مشاركة المشركين للمسلمين في حج البيت الحرام فكان ذلك من اتمام النعمة على المؤمنين وعلى كل حال فدين الاسلام كامل لا يقبل الزيادة والنقصان بالآراء العقلية

وكذلك لا يجوز للحكام أن ينهوا عن المباحات الا اذا رأوا فى ذلك مصلحة ظاهرة للرعية شرعية مرعية كمخافة ضرر يلحق الرعية فى دينها ودنياها كما اذا نهى الحاكم عن اجتماع أهل الحل والعقد بعضهم مع بعض مخافة أن يتفقوا على فتنة فأصل الاجتماع مباح ولكن ما يتوقع فيه من الضرر يصيره بالامر حراما وكما اذا أمر من عنده قوت من قمح ونحوه زائدا عن حاجته أن يبيعه للناس فأصل البيع مباح ولكن من حيث ان الضرورة العامة تندفع به صار واجبا ففى الحقيقة انما أمر الحاكم بالامر الواجب وكذلك اذا أمر بنوافل من صلاة أو صيام أو صدقة أو عتق صار واجبا على الرعية اذا كان يترتب عليه أمر من الامور المهمة فى حقهم كما اذا وقع القحط وتهاونوا فى صلاة الاستسقاء أو فى صدقة التطوع أو تهاونوا فى العتق من بعض الوجوه فاذا أمرهم حينئذ بذلك وجب عليهم امتثال أمره فأوامر أولى الامر منوطة بمصالح الرعايا دينا ودنيا ولذلك قال بعض العلماء ان اجتمع أهل قرية على ترك السواك قاتلهم ولى الامر لتهاونهم بالامور المستحبة وليس لولى الامر فى الاجتهاد المعتبر أمر ولا نهى فاذا كان امام المسجد شافعيا مثلا يرى الجهر بالبسملة فى الصبح والقنوت فيه لم يكن لولى الامر الحنفى أن ينهاه عن ذلك ولا للمأمومين كذلك أن ينكروا عليه وكذلك اذا كان امام المسجد حنفيا يرى ترك القنوت وترك الجهر بالتسمية عمل على رأيه ولم يعارض فيه

قال الحسن رحمه الله تعالى أخذ الله تعالى على الحكام الميثاق أن لا يتبعوا الهوى ولا يخشوا الناس ولا يشتروا بآياته ثمنا قليلا ثم قرأ يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب فالحاكم المتخذ العلماء شعارا والصلحاء دثارا والحكم النصوح مستشارا حتى تدور مملكتهم بين نصائح العلماء ودعوات الصلحاء ووصايا أهل الاخلاص من الحكماء ولا يتبع الا القوانين المرعية التى لها أصل فى الشريعة المحمدية يعد من المجددين للدين والدنيا لاسيما اذا سلك فى العدل خير سنن وأمات البدع وأحيى السنن فلا شك فى أنه مجدد عصره لما أن حكمة الله منطوية فيما يأمر به على ألسنة رسله لا على ما يحدثه ذو العقل بعقله فعلى ولى الامر الحازم أن يضرب أعناق البدع بسيوف الابطال ويقبل الحوالة فيها على خزائن ذى الافضال ليجزى الحسنة بعشرة أمثالها ويعوض عن قليل حرام الدنيا بكثير حلالها ويفيض العدل على الرعية افاضة اللباس ويطهر ظواهرهم وبواطنهم من الادناس والارجاس ويبذل جهده سيرته الحسنة ليكون ممن سن سنة حسنة ولا شك أن من سن سنة حسنة كان من مجددى الدين بحسب الاحوال والاوقات وكانت الحسنة فى ميزانه من الباقيات الصالحات لحديث من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة

بيان من كان فريدا فى فنه

ذكر بعضهم من كان فريدا فى فنه فقال انفرد أبو بكر رضى الله عنه فى الانساب وفى القوة بأمر الله عمر بن الخطاب وعثمان فى الحياء وعلى فى القضاء وابى بن كعب فى القراءة وزيد فى الفرائض شيد الله شأنه وأبو عبيدة بن الجراح فى الامانة شهير وابن عباس رضى الله عنه فى التفسير وأبو ذر فى صدق اللهجة عمر رباعه وخالد بن الوليد فى الشجاعة والحسن البصرى فى التذكير ووهب بن منبه فى القصص وابن سيرين فى التعبير ونافع فى قراءته وأبو حنيفة فى فقهه وروايته وابن اسحاق فى المغازى ومقاتل فى التأويل وبالعروض انفرد الخليل وفضيل بن عياض فى العبادة وسيبويه فى النحو أطلق جياده ومالك فى العلم فاز بالسير الحثيث والشافعى فى فقه الحديث وأبو عبيدة فى الغريب وعلى بن المدائنى فى العلل نعم المجيب ويحيى بن معين فى الرجال وأبو تمام فى الشعر من الابطال وأحمد بن حنبل فى السنة والبخارى فى نقل الصحيح شيد الله ركنه والجنيد فى التصوف مشهور ومحمد بن زكريا فى الطب صادفه السرور وأبو معشر فى النجوم والكرمانى فى التعبير بلا وجوم وابن نباتة فى الخطب الفاخرة وأبو الفرج الاصفهانى فى المحاضرة وأبو القاسم الطبرانى بالعوالى يفاخر وابن حزم فى الظاهر والحريرى فى مقاماته والمتنبى فى الشعر صاحب السمعة والصولى فى الشطرنج شاه الرقعة والخطيب البغدادى فى سرعة القراءة والضبط وعلى ابن هلال فى الخط والموصلى فى القضاء وعطاء السلمى فى لحوق الرضا والقاضى الفاضل فى الانشاء والاصمعى حلل النوادر قد وشى ومعبد فى الغناء وابن سينا الفلسفة حتى انتهى

وجمعه غير حاصر فلم يذكر مثل شهرة صاحب القاموس باللغة ولا مثل شهرة سراج الدين بن الملقن بكثرة التصانيف البالغة ولا العراقى بدراية الحديث وسكت عن كثير ممن انتهت اليهم الرئاسة بالانفراد بامر فى القديم والحديث ولو كان فى عهده فارس الجوائب صاحب سر الليال لحكم له بانه فى احياء ما ثر العرب بهذا العصر مقدم الرجال وعلى كل حال فارباب المعارف يستفيد بالمعاوضة فى الفنون بعضهم من بعض. قال المناوى فى شرح الجامع الصغير (تنبيه) فى تذكرة أبى حيان سألنى قاضى القضاة أبو الفتح القشيرى ابن دقيق العيد ما وجه الاستثناء الواقع فى خبر ما منكم من أحد يقوم فيتمضمض ويستنشق وينثر الا خرت الخطايا من فيه وأنفه فأجبته أحد مبتدا ومن زائدة ومنكم حال من أحد ويقوم ويتمضمض ويستنشق وينثر صفات لاحد والا خرت هو الخبر لانه محط الفائدة والمعنى ما أحد يفعل هذه الاشياء الا كان كذا. وقس على ذلك انتهى وكان ابن دقيق العيد مالكيا ثم صار شافعيا وبلغ درجة الاجتهاد وتولى مرتبة قاضى القضاة ومن شعره

الحمد لله كم أسعى بعزمي في * نيل العلا وقضاء الله ينكسه
كأنني البدر أبغي الشرق والفلك الـ * ـد على يعارض مسعاه فيعكسه

وقال يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم

لم يبق لي أمل سواك فإن يفت * ودعت أيام الحياة وداعا
لا أستلذ بغير وجهك منظرا * وسوى حديثك لا أريد سماعا

(بيان كون المجتهد غير المقصر يثاب على اجتهاده مطلقا)

ثم ان المجتهد يثاب على اجتهاده ان أصاب أو اخطأ ما لم يقصر في تحري الاصابة اذ ليس كل مجتهد مصيبا لان الحق واحد فالمجتهد المصيب مأجور مرتين فله أجر طلبه الحق واصابته له والمخطئ غير المقصر أجر طلبه للحق وان لم يصبه لحديث البخاري اذا اجتهد الحاكم فحكم فأصاب فله أجران واذا حكم فأخطأ فله أجر وهذا في الفروع وأما في العقائد فالاجر للمصيب والمخطئ آثم وذلك ان العلماء في الاسلام ثلاث درجات فقهاء ومتكلمون وصوفية فالفقهاء انما يتكلمون بالاصالة على الاحكام الشرعية من عبادات ومعاملات مالية وغيرها من عقود وحدود وما يتعلق بها بدون تكلم بالاصالة على علم التوحيد المجموع في معنى الشهادتين اللتين هما أصل الاسلام والمتكلمون يتكلمون من طريق السماع أو الحكم العقلي على العقائد الدينية من معرفة الله والايمان به وبرسله وملائكته واليوم الآخر والقضاء خيره وشره مما هو معنى الشهادتين اللتين هما أساس الدين والمدار عليهما فيه وأما الصوفية وهم العارفون بالله فيتكلمون على ما يتكلم عليه علماء التوحيد من طريق المعرفة بالله عز وجل ويضيفون الى ذلك أعمالا باطنية ومراقبات الهية قال محي الدين بن العربي في فتوحاته التكلم على الظواهر نطق مقال وعلى البواطن نطق أحوال فكل من الفقيه والمتكلم ينظر بالدليل والبرهان فيهتدي الى أحكام الله ومعرفة حدوده والعارف بالله تعالى ينظر بنور المعرفة الالهية فيهتدي الى شهود الله ومعرفة وجوده فمن نظر بالدليل عرف الحكم ومن نظر بالنور عرف الوجه فالعارفون بلغوا الكمال في معرفة مراتب الشريعة فحاشا ان يقع منهم مخالفة شريعة سيد المرسلين حيث هم أعرف بها ظاهرا وباطنا فاذا ظهر منهم حالة تخالف الشريعة ظاهرا فلا ينبغي اعتراضهم بل يفوض أمرهم لله تعالى لان ما يرى منهم من الخلاف انما هو قصور فهم ممن لم يبلغ درجتهم فيجب احترام مشايخهم الواصلين حيث قد علم كل أناس مشربهم وفهم كل رجال مذهبهم قال ابن العربي

ما حرمة الشيخ الا حرمة الله * فقم بها أدبا لله بالله
هم الادلاء والقربى تؤيدهم * على الدلالة تأييدا من الله

الوارثون همو للرسل أجمعهم * فما حديثهم الا عن الله
كالانبياء تراهم فى محاربهم * لايسألون من الله سوى الله
فان بدا منهم حال تولههم * عن الشريعة فاتركهم مع الله

وقال الامام على كرم الله وجهه ليس العلم بكثرة الرواية انما هو نور يجعله الله فى القلوب انتهى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور فلعلم الحقيقة وعلمائه مزية على علم الظاهر بنور التوحيد الباطنى المتجلى به على قلوبهم

قال بعض العارفين وقعت لى واقعة فى مرض كنت فيه فرأيت جميع العلوم أتت الى وسلمت على وجلس عندى منها علم وهو التوحيد وله نور عظيم يخطف بالابصار شبيه بنور البرق اللامع بل أبهى منظرا وأحسن صورة وألطف ضياء فقلت له ان جميع العلوم سلمت على وانصرفت الا أنت سلمت على وأقمت عندى فقال لى ان العلوم كلها محلها الدنيا تبقى مع صاحبها مدة حياته وحين الموت تفارقه ويخرج من الدنيا الى الآخرة مجردا عنها الا أنا فابقى مع صاحبى فى الدنيا والبرزخ والآخرة لا أفارقه أبدا وأنا أنيس له فى قبره ونور له على الصراط وخليل له فى الجنة فقلت له اذا لا أصحب فى الدنيا خليلا الا أنت فقال وأنا أغنيك عن الجميع انتهى

وعلم الشرع الذى هو فعل الاوامر وترك المناهى أصله التوحيد ومآل حال المجتهدين من الائمة أن يطلع عليهم قمر السعادة من فلك الارادة وتشرق على قلوبهم شمس الاصول فى مشارق الوصول فيغرقون فى بحر الوحدة ولا يراقبون الا الله وحده كالامام أبى حامد الغزالى حيث يقول

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل * وسرت الى محبوب أول منزل
ونادتنى الاطلال أهلا ومرحبا * ألا أيها الساعى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد * له ناسجا غيرى فكسرت مغزلى

يعنى انه بلغ بالقرب درجة الامامة وأبرز الى حيز الوجود ما يحيى به القلوب فلم يجد من يفهم كلامه وبالجملة ان جميع العلماء من الائمة وغيرهم ماجورون على اجتهادهم وجهادهم وبذل أنفسهم لله تعالى والنبى صلى الله عليه وسلم هو الذى سن الشريعة فكل أجر حصل لمجتهد أو عامل حصل بسببه مثله للنبى صلى الله عليه وسلم زيادة على ما يناله صلى الله عليه وسلم من الاجر الخاص فى هدايته للمهتدى وعلى ما ناله من الامور وعلى حسناته الخاصة من الاعمال والمعارف والاحوال التى لا يصل جميع الامة الى عرف نشرها ولا يبلغون معشار عشرها مما يقصر العقل عن ادراكها وكل مهتد وعامل الى يوم القيامة يحصل له أجر ويتجدد لشيخه فى الهداية مثل ذلك الاجر ولشيخ شيخه مثلاه وللشيخ الثالث أربعة وللرابع ثمانية وهكذا يضعف فى كل مرتبة بعدد الاجور الحاصلة بعده

الى أن ينتهى الى النبى صلى الله عليه وسلم وكذلك يحصل للصحابة والتابعين والمجتهدين فى كل عصر بعدد الاجور التى ترتبت على فعلهم وجميعه بجملته حاصل للنبى صلى الله عليه وسلم قال الشيخ عزالدين بن عبد السلام فى مختصره بداية السول فى تفصيل الرسول مامن درجة علية ومرتبة سنية نالها أحد من أمته بارشاده ودلالته الاوله مثل أجرها مضموما الى درجته صلى الله عليه وسلم انتهى وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم من دل على خير فله مثل أجر فاعله فما يفعله الامراء والملوك والسلاطين من العدل والاحسان ويقتدى بهم رعاياهم فيه من أمور الدنيا والدين تضاعف به أجورهم الى يوم الدين ويكون مثل ذلك أضعافا مضاعفة لخاتم الانبياء والمرسلين صلى الله عليه وعلى اله وأصحابه والتابعين

الباب الثانى فى الحكم

(فى طرف من الحكايات والآداب الصادرة عن أولى الالباب والاحساب)

(اعلم) ان فى الحكايات والاخبار سلوة للنفوس وآدابا نافعة للرئيس والمرؤس والقلوب ترتاح اليها من شجونها والآذان تصغى لسماع طرفها وفنونها والوحيد يأنس بمطالعتها والجليس ينبسط بمذاكرتها ومحاضرتها والطباع تجم بها من مللها ويذهب عنها قلة نشاطها وكثرة كسلها والملوك يحفون بها وينال الجاه والرفعة منهم بسببها (قال عمر بن الخطاب) عليكم بطرائف الاخبار فانها من علم الملوك والسادة وبها تنال المنزلة والحظوة منهم (قال على رضى الله عنه) قيمة كل امرئ مايحسن وقال بعض ملوك الهند لبنيه أكثروا من النظر فى الكتب وازدادوا فى كل يوم حرفا فان ثلاثة لايستوحشون فى غربة الفقيه العالم والبطل الشجاع والحلو اللسان الكثير مخارج الرأى وقيل للمأمون ما أكثر الاشياء قال التنزه فى عقول الناس يعنى قراءة أقوالهم قال محمد بن بشير

لله من جلساء لاجليسهم * ولا خليطهم للسوء مرتقب
لا بادرات الاذى يخشى رفيقهم * ولا يلاقيه منهم منطق ذرب
أبقوا لنا حكما تبقى منافعها * أخرى الليالى على الايام وانشعبوا
ان شئت من محكم الآثار يرفعها * الى النبى ثقاة خيرة نجب
أو شئت من عرب علما بأولهم * فى الجاهلية تنبينى بها العرب
أو شئت من سيد الاملاك من عجم * تنبى وتخبر كيف الرأى والادب
حتى كأنى قد شاهدت عصرهم * وقد مضت دونهم من دهر ناحقب
فصرت فى البيت مسرورا تحدثنى * من علم ماغاب عنا فى الورى الكتب
فردا تخبرنى الموتى وتنطق لى * فليس لى فى أناس غيرهم أرب
مامات قوم اذا أبقوا لنا أدبا * وعلم دين ولا فاتوا ولا ذهبوا

سأل الرشيد يوما الاصمعى عن انساب بعض العرب فقال على الخبير بها سقطت يا أمير المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع أسقط الله حسك أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا فكان الفضل على قلة علمه أعرف بما يستعمل فى مخاطبة الخلفاء من الاصمعى مع امامته وليس يكمل أدب المرء حتى يعرف المثل السائر والبيت النادر وما يحكى عن أهل العصور من الاخبار العجيبة وما وقع لهم من الالفاظ البليغة والمعانى الغريبة فبى ذلك العلم بالامور والعقل المكتسب والادب الصادر عن ذى المروءة والحسب لم تزل الحكايات والاخبار تذكر فى معرض الاعتبار وتورد موارد الاستبصار وهذا القسم لا تضبطه الفصول والابواب ولا يستوفيه مصنف فى كتاب غير أنه يأتى بما يناسب تبويبه أو يشاكل تفصيله وترتيبه وانى أذكر هنا من ذلك ما أستحسنه فى فنه وأستظرفه وأستملحه فى نوعه وأستطرفه فى فصلين اثنين بحول الله

(الفصل الاول فى الاخبار التى تتعلق بذى الامرة والسياسة)

(قال المسعودى فى كتابه عيون المعارف) مما حفظ من كلام ازدشير عندما وضع التاج على رأسه أنه قال الحمد لله الذى خصنا بنعمه وشملنا بفوائده وقسمه ومهد لنا البلاد وقاد الى طاعتنا العباد (نحمده) حمد من عرف فضل ما آتاه (ونشكره) شكر الدارى بما منحه وأعطاه ألا وانا ساعون فى اقامة منار العدل وادرار الفضل وتشييد المآثر وعمارة البلاد والرأفة بالعباد وزم أقطار المملكة وردّ ما تخرم فى سائر الايام منها فليسكن طائركم أيها الناس فانى أعم بالعدل سنة محمودة وشريعة موروده وسترون فى سيرتنا ما تحمدوننا عليه وتصدق أقوالنا أفعالنا ان شاء الله تعالى (وكتب ازدشير) بن بابك الى الملوك الكائنين بعده الخراج عمود المملكة يكنفه نقش الرعية وحفظ الاطراف والبيضة فاختاروا للعمل عليه أولى الطبيعة الحرة وذوى العقل والحنكة وكفوهم سنى الارزاق تحسموا أنفسهم عن الارتفاق فما استعز زعمل العدل ولا استنذر بمثل الجور (وجعل) انوشروان يوما للحكماء ليأخذ من آدابهم فقال لهم وقد أخذوا مراتبهم من مجلسه دلونى على حكمة فيها منفعة لخاصة نفسى وعامة رعيتى فتكلم كل واحد منهم بما حضره من الرأى وأنوشروان مطرق مفكر فى أقاويلهم وانتهى القول الى بزرجمهر بن البحكان فقال أيها الملك أنا جامع لك ذلك فى اثنتى عشرة كلمة قال له هات ماهن فقال أولاهن تقوى الله تعالى فى الشهوة والرغبة والرهبة والغضب والهوى فاجعل ما عرض من ذلك كله لله لا للناس والثانية الصدق فى القول والوفاء بالعدات والشروط والعهود والمواثيق والثالثة مشورة العلماء فيما يحدث من الامور والرابعة اكرام العلماء والاشراف وأهل الثغور والقواد والكتاب والخول

والخامسة التعهد للقضاء والفحص عن العمال محاسبة عادلة ومجازاة المحسن منهم باحسانه والمسيء على اساءته والسادسة تعاهد أهل السجون بالعرض لهم فيستوثق من المسيء و يطلق البريء والسابعة تعاهد سبل الناس وأسواقهم وأسعارهم وتجاراتهم والثامنة حسن تأديب الرعية على الجرائم واقامة الحدود والتاسعة اعداد السلاح وجمع آلات الحرب والعاشرة اكرام الولد والاهل والاقارب وتفقد مايصلحهم والحادية عشرة اذكاء العيون فى الثغور لعلم مايتخوف فتؤخذ أهبته قبل هجومه والثانية عشرة تفقد الوزراء والخول والاستبدال بذوى الغش منهم فأمر انوشروان أن يكتب هذا الكلام بالذهب وقال هذا كلام فيه جميع أنواع السياسة الملوكية (وحدث) الفضل بن سهل قال كانت رسل الملوك اذا جاءت بالهدايا تجعل اختلافها الى فكنت أسأل الرجل منهم عن سيرة ملوكهم وأخبار عظمائهم فسألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم فقال ملك بذل عرفه وجرد سيفه فاجتمعت عليه القلوب رغبة ورهبة لايبطر جنده ولاتحرج رعيته سهل النوال حرىء النكال الرجاء والخوف معقودان فى يديه قلت فكيف حكمه قال يرد الظلم ويردع الظالم ويعطى كل ذى حق حقه فالرعية اثنان راض ومغتبط قلت فكيف هيبتهم له قال يتصور فى القلوب فتغض له العيون قال فنظر الى رسول الحبشة وأنا أصغي اليه وأقبل عليه فسأل ترجمانه ماالذى يقول الرومى فقال يذكر ملكهم ويصف سيرته فتكلم مع الترجمان بشئ فقال لى الترجمان انه يقول ان ملكهم ذو أناة عند القدرة وذو حلم عند الغضب وذو سطوة عند المغالبة وذو عقوبة عند الاجرام قد كسا رعيته جميل نعمته وخوفهم خسف عقوبته فهم يتراءونه ترائى الهلال خيالا ويخافونه مخافة الموت نكالا وسعهم عدله وردعتهم سطوته اذا أعطى أوسع واذا عاقب أوجع فالناس اثنان راج وخائف فلا الراجي خائب الامل ولا الخائف بعيد الاجل قلت فكيف هيبتهم له قال لاترفع له العيون أجفانها ولا تتبعه الابصار انسانها كأن رعيته قطار غرفت عليهم صقور صوائد فحدثت المأمون بهذين الحديثين فقال كم قيمتهما عندك قلت ألفا درهم قال يافضل ان قيمتهما عندى أكثر من الخلافة أما عرفت قول على بن أبي طالب رضى الله عنه قيمة كل امرئ مايحسن أتعرف أحدا من الخطباء البلغاء يحسن أن يصف أحدا من خلفاء الله الراشدين بمثل هذه الصفة قلت لا قال فقد أمرت لهما بعشرين ألف دينار وأجعل العذر مادة بينى وبينهما فى الجائزة عن العود فلولا حقوق الاسلام وأهله لرأيت اعطاءهما مافى الخاصة والعامة دون مايستحقانه (سئل رجل من بنى أمية) عاقل فقيل له أخبرنا من أى شئ كان بدء زوال ملككم فقال سألت فاسمع واذا سمعت فافهم انا تشاغلنا بلذتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ووثقنا بوزراء آثروا مرافقهم وأبرموا أمورا أسروها عنا وظلمت رعيتنا

ففسدت نياتهم لنا وجدب معاشنا فخلت بيوت أموالنا وقل جندنا فزالت هيبتهم لنا واستدعاهم أعداؤنا فظافروهم علينا وكان أكبر الاسباب فى ذلك استتار الاخبار عنا (وقد قال بعض الحكماء) خير الولاة من عدل فى رعيته فيما يخصه منهم وفيما يخصهم منه فأما الذى يخصه منهم فحسن النظر لنفسه فيما يجب له عليهم من التزام طاعته فلا يبلغ فيه من العنف عليهم منزلة تحمله على الندم فى أمره والبرم لولايته ولا يبلغ بهم من التراخى والاهمال منزلة تقودهم الى الاستخفاف بأمره والاخلال بحقه وأما الذى يخصهم منه فحسن النظر لهم والرفق بهم والجرى الى مصالحهم بحسن الذب عنهم ورفع الايدى المعتدية اليهم وأخذه بالحق فيما لهم وعليهم وانتصاف المظلوم من الظالم والمساواة فى الحقائق بين القوى والضعيف والغنى والفقير حتى يعم عدله الكبير والصغير والقريب والبعيد كما قال عثمان بن عفان رضى الله عنه فى خطبته اعلموا أنه لا أحد أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه ولا أقوى من الضعيف حتى آخذ الحق له فمن الحق على من ملكه الله تعالى على بلاده وحكمه فى عباده أن يكون لنفسه مالكا وللهوى تاركا وللغيظ كاظما وللظلم كارها وللعدل فى الرضا والغضب مظهرا وللحق فى السر والعلانية مؤثرا فاذا كان كذلك ألزم النفوس طاعته وأشرب القلوب محبته فأشرق بنور عدله زمانه وكان الناس على أعدائه أعوانه (كتب ابرويز) لابنه يا بنى ان كلمة منك تسفك دما وكلمة تحقن دما وأمرك نافذ وكلامك ظاهر فاحترس فى غضبك من فؤادك أن يخطئ ومن لونك أن يتغير ومن جسمك أن يخف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلما (روى عن الرشيد) أنه أحضر رجلا ليوليه القضاء فقال يا أمير المؤمنين انى لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه فقال الرشيد فيك ثلاث خلال فيك شرف والشرف يمنع أهله من الدناآت ولك حلم والحلم يمنعك من العجلة ومن لم يعجل قل خطؤه وأنت رجل تشاور فى أمرك ومن شاور كثر صوابه وأما الفقه فسينضم اليك من تتفقه به فولى فما وجد فيه طعن وقال بعضهم من أخلاق الوالى السعيد أن لا يعاقب أحدا وهو غضبان لان هذه حال لا يسلم معها من التعدى والتجاوز بحد العقوبة فاذا سكن غضبه ورجع الى طبعه أمر بعقوبته على الحد الذى سنته الشريعة ونقلته الملة فان لم يكن فى الشريعة ذكر عقوبة ذنبه فمن العدل أن يجعل عقوبة ذلك الذنب واسطة بين غليظ الذنوب ولينها وان يجعل الحكم عليه فيه ونفسه طيبة وذكر القصاص منه على بال (وقالت الحكماء) السياسة أن يخلط الوعد بالوعيد والعطاء بالمنع والحلم بالايقاع فان الناس لا يصلحون الا على الثواب والعقاب الاطماع والاخافة ومن أخاف ولم يوقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز فخير الخير ما كان ممزوجا وشر الشر ما كان صرفا واذا كان الناس انما يصلحون على الشدة واللين وعلى العفو والانتقام وعلى البذل والمنع وعلى الخير والشر عاد ذلك الشر خيرا وذلك المنع عطاء وذلك المكروه نفعا

قال الله عز وجل ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب لعلكم تتقون فأسوس الناس لرعيته من قاد أبدانهم بقلوبها وقلوبهم بخواطرها وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة قال الحسن

يا ابن أبي العباس أنت الذي * سماؤه للجود مدرار
يرجو ويخشى حالتيك الورى * كأنك الجنة والنار

(وقال بعضهم) الرغبة والرهبة أصلان لكل تدبير وعليهما مدار كل سياسة عظمت أو صغرت بذلك بعث الله الرسل وأنزل الكتب وأقام الوعد مع الوعيد والثواب مع العقاب والرجاء مع المخافة والعفو مع السطوة قال عز وجل فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره فكل عامل على ثقة مما وعده فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرهبة فاطرد التدبير واستقامت السياسة لموافقتها ما في الفطرة ومن ظن أن أحدا من الخلق فوقه أو دونه يصلح بخلاف ما دبرهم الله عليه خالف الرب في تدبيره وظن أن رحمته فوق رحمة ربه ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم قال الله تعالى في محكم كتابه اني لا يخاف لدي المرسلون الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فاني غفور رحيم وتلا مطرف هذه الآية وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب فقال لو يعلم الناس قدر نعمة الله وعفوه وتجاوزه لقرت أعينهم ولو يعلمون قدر عذاب الله ونكاله ونقمه وبأسه مارقأ لهم دمع ولاقرت أعينهم بشئ (قال الله سبحانه) ادعوني أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين فوصف في هذه الآية منزلة القرب من البعد فذكر نفسه تبارك وتعالى باقرب القرب ممن عبده وبأبعد البعد ممن استكبر عن عبادته (وكان أنوشروان) اذا ولى رجلا أمر الكاتب أن يضع في كتاب العهد موضع ثلاثة أسطر فيوقع فيها بخطه سس خيار الناس بالمحبة وأمزج للعامة الرغبة بالرهبة وسس فلك الناس بالمخافة قال الشاعر

اذا كنتم للناس أهل سياسة * فسوسوا كرام الناس باللين والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا * على الذل ان الذل يصلح للنذل

لما أراد عمرو بن العاص المسير الى مصر قال لمعاوية يا أمير المؤمنين اني موصيك قال أجل فاوصني قال انظر فاقة الاحرار فاعمد في سترها وطغيان السفلة فاعمل في قمعها واستوحش من الكريم الجائع ومن اللئيم الشبعان فانما يصول الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع (كان زياد) اذا ولى رجلا عملا قال له خذ عطرك وسر الى عملك واعلم انك مصروف رأس سنتك وأنت تصير الى أربع خلال فاختر لنفسك انا ان وجدناك أمينا ضعيفا استبدلنا بك لضعفك وسلمتنا من معرفتنا أمانتك وان وجدناك قويا خائنا استهنا بقوتك وأحسنا عن خيانتك أدبك وأوجعنا ظهرك وشفعنا

غرمك وان جمعت الجرمين علينا جميعا جمعنا عليك المضرتين وان وجدناك قويا أمينا زدنا في عملك ورفعنا ذكرك وكثرنا مالك وأوطأنا عقبك (عزل) الاسكندر عاملا عن عمل نفيس وولاه عملا خسيسا فقدم عليه بعد حين فقال له كيف رأيت عملك قال له أيها الملك انه ليس بالعمل الكبير ينبل الرجل ولكن الرجل ينبل عمله به وان كان خسيسا لحسن السيرة وانصاف الرعية (وقال بعض الحكماء) أحسن جملة الولاة اصابة السياسة ورأس اصابة السياسة العمل بطاعة الله وفتح بابين للرعية أحدهما رأفة ورحمة وبذل وتحنن والآخر غلظة ومباعدة وامساك ومنع (وكتب) عبد الملك الى الحجاج يأمره أن يكتب اليه بسيرته فكتب اليه اني أيقظت رأيي وأنمت هواي فادنيت السيد المصلح في قومه ووليت الحرب الحازم في أمره وقلدت الخراج الموفر لامانته وقسمت لكل امرئ من نفسي قسما فاعطيته حظا من نظري ولطيف عنايتي وصرفت السيف الى النطف المسيء والثواب الى المحسن البريء ليخاف المريب صولة العقاب ويتمسك المحسن بحظه من الثواب ويرغب أهل العفاف في اداء الامانة ويتجنب أهل النطف والخيانة وأملت على ذلك من الله النجاه ومن خليفته المكافاه (وخطب) سعيد بن شريك بحمص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس ان الاسلام حائط منيع وباب وثيق فحائط الاسلام الحق وبابه العدل ولا يزال الاسلام منيعا ما اشتد السلطان وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل (قال أبو وائل الثقفي) دعاني سليمان بن وهب وقال لي اني قدمت حسن الظن بك والثقة بامانتك ووليتك قلادة في عنقي فصدق ظني فيك وحقق ثقتي بك ولا تفارق العدل في المخلوقين ظاهرا والعدل بينك وبين الخالق باطنا والله تعالى المستعان ثم دفع الي رقعة فيها توليتي على بعض الامور (وروى) أن المهدي ولى الربيع بن أبي الجهم فارس وقال له يا ربيع انشر الحق والزم القصد وارفق بالرعية واعلم ان أعز الناس من أنصف من نفسه وان أجورهم من ظلم الناس لغيره (وفي) كتاب الهند انما يسلم العاقل بالاخذ بالاناة ولا يزال صاحب العجلة يجتني منها ثمرة الندامة وضعف الرأي وليس أحد أحوج الى التؤدة والتثبت من الملوك فان المرأة انما هي بزوجها والمولود بابويه والمتعلم بمؤدبه والجند بالقائد والناسك بالدين والعامة بالملوك والملوك بالتقوى والتقوى بالتثبت فالحزم للملك معرفة أصحابه وانزالهم منازلهم واتهام بعضهم على بعض فانهم يلتمسون هلاك بعضهم بعضا واظهار مساءة المسيئين واخفاء احسان المحسنين

فلم يستأثروا بكبير جمع * وكانوا للمصالح مؤثرينا
وكان الحزم فيما حاولوه * شعارهم فصاروا مكتفينا
وسيرهم لفعل الخير فيما * اليهم من أمور المسلمينا

وان يشأ الاله فساد قوم * أتاح لهم أكابر معتدينا
ذوى كبر ومجهلة وجبن * واهمال لما يتوقعونا
فظلوا يشرهون ويجمعون * وليسوا فى العواقب يفكرونا
وجاروا حيثما أمروا بعدل * كأن قد قيل كونوا جائرينا

(قال الحجاج) لعبد الملك بن مروان يا أمير المؤمنين انك أعز ما تكون أحوج ما تكون الى الله تعالى فاذا عززت بالله فاعف له فانك به تقدر واليه ترجع (وقال بعض الحكماء) وجدت المسئ الىّ عبد الله ولو أساء الىّ عبد لأخى اصفحت عنه اكراما له فكيف لا أصفح عن مسئ هو عبد الله

(قال الشاعر)

ارحم أخىّ عباد الله كلهم * وانظر اليهم بعين اللطف والشفقه
وقر كبيرهم وارحم صغيرهم * وراع فى كل خلق وجه من خلقه

(قال الشعبى) دخلت على ابن هبيرة وقد أتى بقوم فأمر بضرب أعناقهم فقال له رجل منهم أيها الامير ان الذى جعل السجن كان حكيما جعله قيدا للعجلة وبابا الى التثبت وسببا الى الاناة فعليك بالتؤدة واياك والعجلة فأنت على عقوبتنا أقدر منك على ردها فامر بحبسهم ثم غض عنهم وأحسن اليهم (وفى سير العجم) آثر بالقيادة والسيادة والرئاسة أهل الشرف فى المواضع وأهل القدم والنصيحة والشهرة والنجدة والخبرة بالحروب وحسن المواساة للاتباع وسخاء النفس لبذل المال (قال محمد ابن نصر الكاتب)

اذا ما الله شاء صلاح قوم * أتاح لهم أكابر مصلحينا
ذوى رأى ومعرفة ونهى * واعداد لما قد يحذرونا

(ذكروا) ان عبد الملك بن مروان لما ولى ابنه الوليد دمشق عهد اليه بما أحب ثم قال له يا بنى لابيك صنائع قد رسخت فى المجد أصولها وأورقت فى العلى فروعها وانتشر عند الناس ذكرها فلا تهدمن ما قد شرف لك بناؤه وأضاء لك ضياؤه فكفى من سوء رأى المرء وقبيح أثره وضعة نفسه أن يهدم ما قد شيد له من فضيلة البناء ورفيع الثناء واياك واعراض الاحرار فان الحر لا يرضيه عن عرضه عوض واجتنب العقوبة فى الايثار فانه وتر مطلوب وعار باق ولا يمنعك من ذى فضل سبقت اليه صنيعة غيرك أن تصطنعه فان صنيعة ذى الفضل شكر تستوجبه وكنز تدخره واستعمل أهل الفضل دون أهل الهون ولا تعزل الا عن عجز أو خيانة وليكن جلساؤك غير أسنانك فان الشباب شعبة من جنون وان نازعتك نفسك على أخذ شئ من المال فلا يكن خصمك الا بيت المال وليكن رسولك فيما بينى وبينك من يفهم عنى وعنك واذا كتبت كتابا فأكثر النظر فيه فان الكتاب موضع عقل الرجل ورسوله موضع عقله وأستودعك الله العظيم (قال عمارة العقبه) كنت

أجالس عبد الملك كثيرا فى ظل الكعبة فبينما أنا معه اذ قال لى يا عمارة ان تعش قليلا فسترى الاعناق مائلة الى والآمال نحوى سامية واذا كان ذلك فلا عليك أن تجعلنى لرجائك بابا ولامالك ذريعة فوالله ان فعلت لأملأن يديك غبطة ولأكسونك نعمة سابغة قال ثم ان عبد الملك سار الى دمشق وصارت اليه الخلافة فخرجت اليه زائرا واستأذنته فأذن لى ودخلت فسلمت عليه فلما انقضى سلامى قال مرحبا بأخى ونادى أحد غلمانه فقال بوئه دارا وأحسن مهاده ونزهه وآثره على خاصته قال ففعل وأقمت عنده عشرين ليلة أحضر غداءه وعشاءه فلما أردت الانصراف والاوبة الى أهلى أمر لى بعشرين ألف دينار ومائتى ألف درهم ومائة ناقة برقيقها وكسوتها وقال لى أترانى يا عمارة ملأت يديك غبطة قال فقلت يا سبحان الله يا أمير المؤمنين وانك ذاكر لذلك قال نعم والله لا خير فيمن لم يذكر ما وعد به ونسى ما أوعدكم لهذا الامر يا عمارة قلت والله لكأنه بالامس وله دهر يا أمير المؤمنين قال فوالله ما كان ذلك عن خبر سمعناه ولا حديث كتبناه ولا أثر رويناه غير انى عقلت فى الحداثة أشياء رجوت أن يرفع الله بها درجتى وينشر بها ذكرى قلت وما هى يا أمير المؤمنين قال نعم كنت لا أشارى ولا أمارى ولا أهتك سترا ستره الله دونى ولا أركب محرما حظره الله على ولا حسدت ولا بغيت وكنت من قومى بواسطة القلادة وكنت أكرم جليسى وان كان ذميما وكنت أرفع قدر الاديب وأكرم ذا الثقة وأدارى السفيه وأرحم الضعيف فبذلك رفع الله قدرى يا عمارة خذ أهبة السفر وامض راشدا

(وروى) أن مروان بن الحكم لما ولى ابنه عبد العزيز مصر قال له حين ودعه انه يقال أرسل حكيما ولا توصه فانظر الى أهل عملك فان حل لهم قبلك حق غدوة فلا تؤخره عنهم الى العشى وان حل لهم عشية فلا تؤخره عنهم الى غد أعطهم حقوقهم عند محلها فتستوجب بذلك الطاعة واياك يا بنى أن يظهر لرعيتك منك كذب فانهم ان جربوا عليك الكذب لم يصدقوك فى الحق ولا تحابين فى القضاء قريبا ولا بعيدا واقض فى ذلك بالحق واستشر جلساءك وأهل العلم فان لم يستبن لهم فاكتب الى يأتيك فيه رأيى ان شاء الله وان كان لك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه عند سورة الغضب واحبس عنه عقوبتك اياه حتى يسكن غضبك ثم ليكن منك ما كان اليه وأنت ساكن الغضب منطفئ الجمرة فان أول من جعل الحبس كان حليما ذا أناة ثم انظر الى أهل الحسب والدين والمروءة والعقول فليكونوا جلساءك وأهل دخلتك ثم اعرف منزلهم منك على غيرهم فى غير استرسال منك ولا انقباض أقول هذا وأستخلف الله عليك (كان ازدشير) يقول ما شئ أضر على نفس ملك أو رئيس أو ذى معرفة صحيحة من معاشرة سخيف أو مخالطة وضيع لانه كما أن النفس تصلح بمخالطة الشريف الاديب الحسيب كذلك تفسد بمعاشرة الخسيس حتى يقدح ذلك فيها ويزيلها عن فضيلتها ويثنيها عن محمود شريف أخلاقها وكما أن الريح اذا مرت بالطيب حملت طيبا تحيى به النفوس وتقوى به

جوارحها كذلك اذا مرت بالنتن حملته آلمت النفوس وأضرت باخلاقها اضرارا تاما والفساد أسرع اليها من الصلاح اذ كان الهدم أسرع من البنيان وقد يجد ذو المعرفة من نفسه عند معاشرة السفل الوضيع شهرا فساد عقله دهرا (قال بعض الحكماء) أوحش الاشياء رأس صار ذنبا وذنب صار رأسا (وقال عمرو بن العاص) لان يموت مائة من الاشراف خير من أن يرتفع واحد من السفلة لان عرضه اذا ارتفع وضع الاشراف وحط الاقدار (قال الراوى)

من كان يرجو أن يرى * من ساقط أمرا سنيا
فلقد رجا أن يجتنى * من عوسج رطبا جنيا

(روى أن معاوية) ركب يوما متجولا فى بعض أزقة دمشق وهو على بغلة شقراء له ومعه المغيرة بن شعبة فبينما هما كذلك اذ عرض له شخص من بعيد فلما نظرا اليه عمدا نحوه فاذا هو معبد الجهينى فقال له معاوية ما الذى أقدمك يا معبد أراغب أم راهب فقال كل لم يأت لى ولكن أتيت وأرجع زاهدا فثنى معاوية عنان بغلته فقال له المغيرة ما ولدت قرشية قرشيا أضعف قلبا منك فقال يا مغيرة أيما أحب اليك أحلم عنهم و يجتمعون الى أم أسفه عليهم و يتفرقون عنى فقال المغيرة لا بل تحلم عليهم و يجتمعون اليك فضرب معاوية بيده على صدر نفسه ثم قال ما ولدت قرشية قرشيا مثل هذا القلب (و روى) أنه لما ولى الحسن بن عمارة مظالم الكوفة أصبح الاعمش يقول ظالم ولى المظالم فبلغ الحسن بن عمارة قوله فوجه اليه بنفقة وثياب فلما أصبح الاعمش قال مثل هذا ولى علينا يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعود على فقيرنا فقال له رجل من جلسائه يا أبا محمد ما هذا قولك بالامس قال حدثنى خيثمة عن عبد الله بن مسعود قال جبلت النفوس على حب من أحسن اليها و بغض من أساء اليها (قال بعض الحكماء) من أراد أن تنقاد له القلوب بالطاعة و يسعد بقبول ما يأمر به و ينهى عنه فليتول ذلك فى نفسه فان قدر عليها و وقف بها حيث يحب من المحامد فليثق بسرعة نفاذ أمره فى غيره وقبول ما يراه و يأمر به فان المهذب مطاع والعاجز عن مصلحته مخالف ولا يحظى بعظته (سأل) رجل عبد الملك بن مروان الخلوة فأقبل على أصحابه فقال اذا شئتم فقاموا فلما خلى المجلس وهيأ الرجل الكلام قال له عبد الملك على رسلك اياك أن تمدحنى فانا أعلم بنفسى منك أو تكذبنى فانه لا رأى لكذوب أو تغتاب عندى أحدا قال فتأذن لى فى الانصراف قال نعم (قال عبد الله بن العباس) قال لى أبى ان هذا الرجل يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يدنيك و يستخلك دون الناس فاحفظ عنى ثلاثا لا تفشين له سرا ولا تغتابن عنده أحدا ولا يطلعن منك على كذب (وفى كتاب العجم) أن بعض الملوك استشار وزراءه فقال أحدهم لا ينبغى للملك أن يستشير منا أحدا الا خاليا به فانه أصون للسر وأحزم للرأى وأجدر بالسلامة

وأعني لبعضنا من غائلة بعض فان افشاء السر الى واحد أوثق من افشائه الى اثنين وافشاؤه الى ثلاثة كافشائه الى العامة لان الواحد رهن بما أفشى اليه والثاني يغلق عنده ذلك الرهن والثالث علاوة فاذا كان سر الرجل الى واحد كان أحرى أن لا يظهره رغبة منه ورهبة واذا كان عند اثنين دخلت الى الملك شبهة واتسعت على الرجلين المعارض فان عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد وان اتهمهما اتهم بريئا بجناية مجرم وان عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له (قال الشاعر)

شاور سواك اذا نابتك نائبة * يوما وان كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها مادنا ونأى * ولا ترى نفسها الا بمرآت

(قال الوليد بن عتبة) أسرّ الىّ معاوية حديثا فاتيت أبي فقلت له ان أمير المؤمنين أسر الى حديثا ولا أظنه كان يطوى عنك ما بسطه الى أفأخبرك به قال يا بني ان من كتم سرا كان الخيار له ومن أفشاه كان الخيار عليه فلا تكن مملوكا بعد أن كنت مالكا قال فقلت يا أبت ان هذا لا يدخل بين الرجل وابنه قال لا يا بني ولكن أكره أن تذلل لسانك باحاديث السر فدخلت على معاوية فحدثته بما جرى بيني وبين أبي فقال ويحك يا وليد أعتقك أبي من الخطأ (قال الشاعر)

تحفظ من لسانك فهو عضو * أشد عليك من وقع اليمان
فلا والله ما في الارض شئ * أحق بطول سجن من لسان

(قال بعض الحكماء) يجب للوالى أن يعلم أن رأيه لا يتسع للامور كلها فليتفرغ للمهم منها وليعلم أنه متى شغل نفسه بغير المهم أزرى بالمهم (وقالوا) يستدل على ادبار الملك بخمسة أمور أحدها أن يستكفي الملك بالاحداث ومن لا خبرة له بالعواقب الثاني أن يقصد أهل مودته بالاذى الثالث أن ينقص خراجه عن قدر مؤونة ملكه الرابع أن يكون تقريبه وتبعيده للهوا لا للرأى الخامس استهانته بنصائح العقلاء وآراء ذوى الحنكة (وقالوا) رأس أعمال الملك أربعة أشياء حفظ المملكة وتحصين الديانة واثابة المحسن وانصاف المظلوم (قال بعض الحكماء) الدول تشب وتكهل وتخرق فاذا كان عائدها أكثر مما يستحقه الملك فهى شابة تنذر بطول البقاء وان كان عائدها بمقدار ما يحتاج اليه فهى كهلة وان كان عائدها أقل مما يحتاج اليه فهى خرفة متولية (نقل ابن سعيد في كتاب الزهرات) أن المقتدر من خلفاء بني العباس خلا بوما ببطانته فقال انا كنا في أول أمرنا لا نشكر من حالنا ولا من حال الجند ولا حال الرعية شيأ ثم صرنا نشكر حال الرعية والجند ثم صرنا الآن نشكر الاحوال الثلاث فليتكلم كل بما عنده فاطرق الجماعة فقال ما لكم لا تتكلمون فقال على بن عيسى بن الجراح أيد الله أمير المؤمنين ان مثل هذا لا يقدر أحد من عبيدك أن يتكلم فيه الا خلوة قال فليقعد من عنده جواب عن ذلك فقاموا وقعد ابن عيسى ثم قال سدد الله الاراء العالية

وأمدها بالعقبات الحافظة الكالئة ان هذه الامور صلاحها واختلالها من قبل الوزراء وهم ولاة التدبير والنظر فى الجبايات فكان أول وزير نظر فى الاعمال أمينا فى خاصتكم عادلا فى رعيتكم فلم ينكر مولانا من الاحوال الثلاث شيأ الا أن أكفاءه حسدوه على مكانه من السلطان وثناء الناس فتوصلوا بكل سبب الى عزله فكان ذلك وولى الثانى فلم يكن له بد من ستر المكان الذى أتى منه الاول فاشتغل بمداراة الخاصة وقبول الجهات واحتاج الى المصانعات فلم يكن له بد من الميل على الرعية وهى أول ما يمد اليه اليد فضجت به فلم يكن لك بد من عزله وولى ثالث فاحتاج الى ستر المكانين وقد تشعبت الاحوال وتقلصت الاموال فلم يكن له بد من التنفير لما يحتاج اليه السلطان فعم الاختلال الاحوال الثلاث فاستحسن المقتدر ما أتى به وقال فما يصلح ما اختل و يقبل ما أدبر قال أن تولى من يقدم خوف الله فتأمن معه الرعية ثم يخافك فتأمنه فيما يجبيه اليك وفيما يخرجه عنك واذا خاف الله وخافك احتجت أن تسد له مكان الخوف من الناس بكثرة الاستدعاء والعمل بما أشار به وأن لا يجعل بينك و بينه واسطة فبهذا تتوفر الاموال وتصلح الاحوال وتبسط الايدى بالدعاء وتنكف أكف الشفاعات والجاهات فقال قد قلدناك ما وراء بابنا واشترطنا لك ما شرطته لمن يتولى ذلك فيصلح الله على يديه فقبل يده وانصرف الى مكان الوزارة فكان أول ما نطق به أن جعل الخرج أقل من الدخل وولى الكفاءة لا للغاية وبلغ من السياسة والامانة الى الغاية فصلحت الاحوال وتكاشف ما تقلص من الظلال وكان على بن بسام قد هجاه لما نفى الى مكة فلما ردت اليه الوزارة جلس يوما للمظالم فرفت به فى جملة القصص رقعة مكتوب فيها

وافى ابن عيسى وكنت أحنقه * أشد شئ على أهونه

ماقدر الله ليس يدفعه * وما سواه فليس يمكنه

فقال على بن عيسى صدق هذا ابن بسام والله ما ناله منا مكروه أبدا

(الفصل الثانى فى الاخبار التى تتعلق بذوى الهمم والرياسة)

(حدث) محمد بن عبد الاعلى بن هاشم القاضى قال كان الوزير سليمان بن وانسوس رجلا جليلا أديبا من رؤساء البربر وكان أسيرا عند الامير عبد الله بن محمد صاحب الاندلس من بنى أمية فدخل عليه يوما وكان عظيم اللحية فلما رآه مقبلا جعل الامير ينشد

معلوفة كأنها جوالق * نكراء لا بارك فيها الخالق

للقمل فى حافاتها نقانق * فيها الباغى المتكا مرافق

وفى احترام الضيف ظل رائق * ان الذى يحملها لمائق

ثم قال له اجلس يابربري فجلس وقد غضب فقال له أيها الامير ان الناس يرغبون في هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم وأما اذا صارت جالبة للذل فلنا دور تسعنا وتغنينا عنكم فان حلتم بيننا وبينها فلنا قبور تسعنا لا تقدرون على ان تحولوا بيننا وبينها ثم وضع يديه في الارض وقام من غير أن يسلم ونهض الى منزله قال فغضب الامير وأمر بعزله عن الوزارة ورفع دسته الذي كان يجلس عليه وبقي كذلك مدة ثم ان الامير عبد الله وجد على فقده لعفافه وأمانته ونصيحته وفضل رأيه فقال للوزراء لقد وجدت لفقد سليمان تأثيرا وان أردت استرجاعه وتبرأ منا كان ذلك غضاضة علينا ولوددت أن يبدأنا بالرغبة فقال له الوزير أبو محمد بن الوليد بن حاتم ان أذنت لى في المسير اليه استنهضت الى هذا فأذن له فنهض ابن غانم الى دار ابن وانسوس وكانت رتبة الوزارة بالاندلس أيام بني أمية أن لا يقوم الوزير الا لوزير مثله فانه كان يتلقاه وينزله معه على مرتبته ولا يحجبه ولا لحظة فابطأ الاذن على ابن غانم حينا ثم أذن له فدخل عليه فوجده قاعدا فلم يتزحزح له ولا قام اليه فقال له ابن غانم ماهذا الكبر عهدى بك وأنت وزير السلطان وفي ابهة رضاه تتلقاني على قدم وتتزحزح لي عن صدر مجلسك وأنت الآن في موجدته بضد ذلك فقال له نعم لاني كنت حينئذ عبدا مثلك وأنا اليوم حر قال فيئس ابن غانم منه وخرج ولم يكلمه ورجع الى الامير فاخبره فابتدأ الامير بالارسال اليه ورده الى أفضل مما كان عليه (لما) جاءت الخلافة هشام بن عبد الملك سجد من معه غير الابرش الكلبي فقال هشام مالك لم تسجد يا أبرش فقال مالى وللسجود يا أمير المؤمنين بينما أنت صاحبي اذ رفعت في السماء وتركتني قال فان ذهبنا بك معنا أو تفعل قال نعم قال فالآن طاب السجود فسجد (قال احمد بن اسماعيل بن علي) كان أبي ومشايخ أهلي يجلسون مع أبي جعفر المنصور وكان أحدا ثنا يجلسون دون ذلك وكان يتفقد من أمورنا ما كان يتفقده من أمور ولده حتى يستقرئ أحدنا ويسأله مابلغ من القرآن فاذا أدرك المدرك مناخيره بين أن يسريه وبين أن يزوجه ويتعاهدنا حتى يبعث بفاكهة الشام وخراسان وكنا نصلي بالغداة والعشي فنجلس في مجلسه حتى يخرج الينا وانا صرنا في مجلسه ذات يوم كعادتنا فجلسنا ننتظر خروجه اذ أفاض أبي وعمومتي في استبطائه واستئثاره عليهم فأطنبوا في ذلك وكان الموكل بالباب سليم الاسود يرفع الستر اذا جاء فخانت من سليم غفلة وجاء وهو يتسمع عليهم ففهم ماهم فيه ووثب سليم ليرفع الستر فامسك بيده ومنعه من رفعه حتى استوعب سمعه جميع ما كانوا فيه فلما انقضى كلامهم أمر سليما برفع الستر ودخل فقاموا له كنحو ما كانوا يفعلون فقال ماهذا انما ينبغي أن تفعلوا هذا بحضرة العامة لتشدوا بذلك سلطانكم فاما مجالس الخلوة فنحن فيها أخوة ثم أمرهم بالجلوس وأقبل عليهم وقال ياعمومتي ويا اخوتي قد سمعت ما كنتم فيه وقولكم استأثر علينا ولعمري لقد كان ذلك وما استئثاري عليكم

الا لكم ولقمع عدوكم واشفاقا من ذهاب سلطانكم وزوال أموالكم وانما أبكي لكم رقة عليكم فكأني بالرجل منكم ومن أبنائكم أومن أبناء أبنائكم بين يدي الرجل من ولدي أو من ولد ولدي ينتسب له فلا يعرفه حتى لعله أن يبلغ علي بن عبد الله بن العباس قال فذهبوا ليتكلموا فقال أقسمت عليكم لما سكتم أفيضوا بنا في غير هذا الحديث فقطعهم أن يتكلموا وضرب الدهر ضرباته ومات المنصور وولي المهدي ومات وولي الهادي ثم مات وولي الرشيد وخرج الرشيد الى الرقة ونالتنا جفوة ولزمني دين فخرجت اليه الى الرقة فكان أول ما لقيت موكبا عظيما فقلت ما هذا فقيل لي هذان وليا العهد الامين والمأمون فترجلت وسلمت عليهما فقالا من أنت فقلت أحمد بن اسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وبكيت فانتهى الخبر من ساعته الى الرشيد فلم أصل الى منزلي حتى لقيني رسوله يدعوني فلما دخلت عليه قال لي مم بكيت قلت يا أمير المؤمنين كان من القصة كيت وكيت وسقت اليه خبر المنصور فبكيت اذ كنت أنا المبتلى بذلك دون من حضره فقال هما ابنا أخيك وهي عورة فسرها ولا تسئل عن نسبك بعد اليوم ما أقدمك قلت دين لزمني قال وكم هو قلت عشرون ألف دينار فقال يا غلام أصلها اليه الساعة واجعل معها خمسة آلاف دينار لحفظه الحديث عن المنصور هل من حاجة لك غير ذلك قلت أودع أمير المؤمنين وانصرفت (ركب) جلال الدولة يوما الى الصيد على عادته فلقيه سواري يبكي فقال له مالك فقال لقيني ثلاثة غلمان أخذوا الي حمل بطيخ كان معي هو بضاعتي فقال أمض الى العسكر فهنالك قبة حمراء فاقعد عندها ولا تبرح الى آخر النهار فانا أرجع وأعطيك ما يغنيك فلما عاد السلطان قال لنائبه اني قد اشتهيت بطيخا ففتش العسكر وفتش الخيام على شيء منه وأخذ البطيخ فقال عند من وجدتموه قيل له في خيمة فلان الحاجب فقال أحضروه فلما حضر قال له من أين هذا البطيخ فقال ان الغلمان جاؤا به فقال أريدهم الساعة فاحسوا بالشر فهربوا خوفا من أن يقتلهم فقال أحضروا السواري فاحضر فقال له هذا هو بطيخك الذي أخذ منك قال نعم فقال خذه وهذا الحاجب مملوك لي وقد سلمته اليك ووهبته لك حيث لم يحضر الذين أخذوا البطيخ منك والله لئن خليته لاضربن عنقك فاخذ السواري بيد الحاجب وخرج فاشترى الحاجب نفسه منه بثلاثمائة دينار فعاد السواري الى السلطان وقال يا مولاي قد بعت المملوك الذي وهبته لي بثلاثمائة دينار قال ورضيت بذلك قال نعم قال اقبضها وامض بالسلامة (لما) ولي معاوية عمرا مصر احتبس في بعض الاعوام خراجها عن معاوية فعزم على عزله عنها وأراد استعمال أبي الاعور السلمي عليها وكتب الى عمرو بالتسليم فلما بلغ عمرا الخبر أحضر وردان غلامه فقال له ان أمير المؤمنين قد عزلنا واستعمل أبا الاعور فهل عندك من حيلة قال نعم اذا قدم عليك فاصنع له طعاما ولا تنظر له في كتاب حتى يأكل

ودعنا نستعمل عليه الحيلة فلما قدم أبو الاعور على عمرو قال له هذا كتاب أمير المؤمنين قال عمرو لو جئتنا بغير كتاب لصدقناما قالته قال انظر في الكتاب قال ما أنا ناظر لك فيه حتى آكل قال فدعا عمرو بالطعام ووضع أبو الاعور كتابه وعهده الى ناحية وأقبل على الطعام يأكل فجاء وردان فسرق الكتاب والعهد فلما فرغ أبو الاعور من طعامه أقبل يطلب الكتاب فقال له انما جئتنا زائرا فنحسن جائزتك فاضطرب من ذلك أبو الاعور ثم صار الى أن قبل الجائزة وبلغ ذلك معاوية فضحك حتى استلقى وأقر عمرا على ما كان عليه من ولاية مصر (حكى) بكر بن عبد الله المزني أن رجلا كان يقف على رأس بعض الملوك ويقول أحسن الى المحسن باحسانه والمسيء سيكفيكه مساعيه وكان الملك يحسن اليه فحسده رجل من أصحابه على مقامه وتمنى أن يكون مكانه في مقامه فبغى عليه الى الملك أشد البغي وسعى في حتفه أبلغ السعي حتى تغير عليه الملك وكان لا يكتب بخط يده الا في صلة أو جائزة فكتب بخط يده الى بعض عماله اشدة حمقه اذا وصلك كتابي هذا فاذبح حامله واسلخه واحش جلده تبنا وابعث به الي ودفعه الى ذلك النمام على رأسه فأخذه وخرج به فلقيه الساعي عليه فقال له ماهذا قال خط يد الملك الى عامله فلان فقال هبه لي بفضلك واحبني به فاني محتاج اليه وأنت غني عنه فرق له ودفعه اليه فأخذه وذهب به فرحا مسرورا فلما قرأه العامل قال أتعرف ما في كتابك قال صلة الامير المعلومة من خط يده قال بل أمرني فيه أن أذبحك وأحشو جلدك تبنا وأرسل به اليه فقال له اتق الله في دمي فان الكتاب لم يكن لي فراجع الملك في أمري قال ليس لكتاب الملك مراجعة الا انفاذ أمره لاسيما اذا كان بخط يده وأمر بانفاذ ما في الكتاب قال وجاء ذلك الرجل على عادته وقام على رأس الملك وجعل يقول أحسن الى المحسن باحسانه والمسيء سيكفيكه مساعيه فلما رآه الملك قال ما فعل الكتاب الذي كتبته لك بخط يدي قال له لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له قال له الملك انه ذكر لي عنك أمر كذا وسعى عليك بوجه كذا فأوضح الرجل براءته مما نسب اليه وبين حجته في تكذيب سعيه عليه حتى تبين له أمره وظهر عنده صدقه وجيء بجلد الباغي محشوا تبنا فقال له الملك صدقت وصدقت موعظتك قم كما كنت تقوم وقل كما كنت تقول (قال الاصمعي) تطاول رجل من قريش على رجل من اخلاط الناس عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجعل القرشي يقول أنا ابن معتلج البطاح وأنا وأنا فغاظ ذلك عمر فقال له ماهذا ان كان لك عقل فلك حسب وان كان لك خلق فلك شرف وان كان لك تقوى فلك كرم والا فلست خيرا من أحد وذلك الحمار خير منك ثم قال عمر ان أحبكم الينا قبل ان نراكم أحسنكم اسما فاذا رأيناكم فأحسنكم صمتا فاذا تكلمتم فأبينكم منطقا فاذا اختبرناكم فأحسنكم عملا أحب الينا وشركم عملا أبغض الينا سرائركم بينكم وبين ربكم (قال اياس بن

معاوية (خرجت فى سفر ومعى رجل من الاعراب فلما كان فى بعض المناهل لقيه ابن عم له فتعاتبا والى جانبهما شيخ من الحى فقال لهما الشيخ أنعما عيشا ان المعاتبة تبعث التجنى والتجنى يبعث المخاصمة والمخاصمة تبعث العداوة ولا خير فى شئ ثمرته العداوة فقلت للشيخ من أنت فقال أنا ابن تجربة الدهر فقلت ما أفادك الدهر قال العلم به قلت فايه أحمد قال ان يبقى المرء أحدوثة حسنة بعده (روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه) قدم الشام على حمار ومعه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه على حمار فتلقاهما معاوية فى موكب له ردىء فجاوز عمر حتى أخبر فرجع اليه فلما قرب منه نزل فأعرض عنه عمر وترك يمشى فقال له عبد الرحمن أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين فأقبل على معاوية فقال له أنت صاحب المركب آنفا مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك قال نعم يا أمير المؤمنين قال ولم ذلك قال لانا فى بلاد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتنى بذلك أقمت عليه وان نهيتنى انتهيت فقال يا معاوية ما عاتبتك فى شئ يبلغنى عنك الا تركتنى منه فى أضيق من رواجب الضرس فان كان الذى قلت حقا فرأى أريب وان كان باطلا فخدعة أديب ولست آمرك به ولا انهاك عنه فقال عبد الرحمن يا أمير المؤمنين لحسن ما صدر هذا عما أوردته فيه فقال عمر لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه (حكى) أنه شكا أهل بعض الاقطار الى المأمون واليا كان عليهم فقال لهم كذبتم فقد صح عندى عدله فيكم واحسانه اليكم فاستحيوا أن يردوا عليه قوله فقال له شيخ منهم يا أمير المؤمنين قد عدل فينا خمسة أعوام فاجعله فى قطر غيره حتى يسع عدله جميع رعيتك وتربح الدعاء الحسن فضحك المأمون واستحيى منهم وصرفه عنهم (وقف) شقيق بن سليك على الحجاج فقال أصلح الله الامير أعرنى سمعك واغضض عنى بصرك واكفف عنى شرك وان سمعت خطأ أو زللا فدونك والعقوبة قال هات قال عصى عاص من عرض العشيرة فحلق على اسمى وهدم منزلى وحرمت عطائى فقال الحجاج أما سمعت قول الشاعر

جانيك من يجنى عليك وقد * تعدى الصحاح مبارك الجرب
فلرب مأخوذ بذنب عشيرة * ونجا المقارف صاحب الذنب

قال أصلح الله الامير سمعت الله عز وجل يقول غير ذلك قال وما سمعته يقول قال قال الله العظيم يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه انا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون فقال الحجاج على بيزيد بن مسلم فمثل بين يديه فقال له اطلق لهذا عن اسمه واصلك له بعطائه وابن له منزله وأمر مناديا ينادى صدق الله وكذب الشاعر (عاد) المعلى بن أيوب صديقا له فرأى علة وخلة فأشار الى وكيله فقال اذهب وجئنى بخمسمائة درهم

مختومة فى قرطاس فذهب وجاء بها ووضعها بين يديه فدفعها الى العليل وقال له هذا دواؤك فاستعمله ونهض ففتحها العليل عن منية المتمنى وغيرما كان من حاله فلما كان الاسبوع عاده ثانيا فرآه متماثلا نشيطا فقال كيف وجدت الدواء قال ياسيدى وجدته نافعا العلتى وحالى قال أتريد زيادة قال نعم يامولاى فقال للوكيل اذهب وجئنا بمثل ذلك الدواء فذهب وجاء بخمسمائة أخرى فانشط العليل من عقال العلة وقال هذه اعادة حياة لاعيادة (وكان) لعمرو بن سعيد صديق ينقطع اليه فرأى يوما ثوبه الذى يلى بدنه من تحت جبته فيه أثر بلى فلما انصرف من عنده وجه اليه بتخت من ثياب وصرة من دنانير فأخذهما الرجل وكتب اليه

سأشكر عمرا ان تراخت منيتى * أيادى لم تمنن وان هى جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه * ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت

رأى خلتى من حيث يخفى مكانها * فكانت قذى عينيه حتى تجلت

(حكى) أنه لما مرض الشافعى رضى الله عنه مرضه الذى مات منه قال لقومه اذا أنا مت فقولوا لفلان يغسلنى فلما توفى وبلغه الخبر قال ائتونى بتذكرته فجىء بها اليه فوجد فيها على الشافعى سبعون ألف درهم دينا لفلان وفلان فكتبها الرجل على نفسه وقال هذا هو الغسل الذى أراده (مر الشافعى) بسوق الحدادين بمصر فسقط قوسه من يده فقام رجل من دكانه فأخذه ومسحه بكمه وناوله اياه فقال الشافعى رضى الله عنه لغلامه كم معك قال سبعة دنانير فقال له ادفعها اليه (خرج) سعيد بن العاص يوما من عيادة مريض فرآه شاب من قريش يمشى وحده فماشاه حتى بلغ باب داره فلما انتهى الى باب الدار التفت اليه فقال له ألك حاجة قال مالى حاجة ولكن رأيتك تمشى وحدك فأحببت أن أصل جناحك فقال بارك الله فيك مكانك ثم دخل الى منزله فأخرج اليه بدرة فيها عشرة آلاف درهم فدفعها اليه (مر يزيد) بن المهلب بأعرابية عقب خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز يريد البصرة فقرته عنزا فقبلها وقال لابنه معاوية مامعك من النفقة قال ثمانمائة دينار فقال ادفعها اليها فقال ابنه انك تريد الرجال ولا يكون الرجال الا بالمال وهذه يرضيها اليسير وهى بعد لا تعرفك قال فان كانت ترضى باليسير فانا لا أرضى الا بالكثير وان كانت لا تعرفنى فانا أعرف نفسى ادفعها اليها (حكى) أن رجلا أتى على ابن سليمان فقال بالذى أسبغ عليك هذه النعم من غير شفيع كان لك اليه الا تفضلا منه عليك الا أنصفنى من خصمى وأخذت لى الحق منه فانه ظلوم غشوم لا يستحى من كبير ولا يلتفت الى صغير فقال له أعلمنى من هو فان لم ينصفك والا أخذت الذى فيه عيناه من هو قال الفقر فأطرق الى الارض مليا ينكت الارض بأصبعه ثم رفع رأسه فأمر له بعشرة آلاف دينار فأخذها ومضى فلما سار خارجا منه قال ردوه فلما مثل

بين يديه قال ياذا الرجل سألتك بالله متى أتاك خصمك متعسفا الا أتيت الينا فيه متظلما
(قدم) اعرابي على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين لي اليك حاجة يمنعني الحياء
أن أذكرها لك فقال له يا اعرابي خطها في الارض فخط فيها اني فقير فقال علي لغلامه قنبر اكسه
حلة فكساه الحلة فانشد الاعرابي يقول

كسوتني حلة تبلي محاسنها * فسوف أكسوك من قول الثنا حللا
اذ نلت حسن ثناء نلت مكرمة * ولست تبغي بما قد نلته بدلا
ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه * كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به * كل امرء سوف يجزى بالذى فعلا

فقال علي لغلامه أعطه مائة دينار فأعطاه اياها فلما ولى الاعرابي قال قنبر يا أمير المؤمنين لو فرقتها
في المسلمين لأصلحت بها من شأنها فقال له علي مه يا قنبر لا تفعل أصحابي معي لست أنساهم مع اني
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تشكروا لمن أثنى عليكم واذا أتاكم كريم قوم فأكرموه
(قال اعرابي) لداود بن يزيد المهلبي اني لم أصن وجهي عن مسألتك فصن وجهك عن ردي وضعني
من كرمك حيث وضعت نفسي من الثقة بك فأمر له بعشرة آلاف درهم وقال له هي أكبر من قدرك
فقال له الاعرابي لئن جاوزت قدري لما بلغت أملي فيك (سأل) رجل أسد بن عبد الله فاعتل عليه
فقال له ما سألتك الا عن غير حاجة قال ولم قال لاني رأيتك تحب من لك عنده معروف فأردت أن
أتعلق بحبل ود منك فأعطاه (وأتى) ابن السماك رجل فقال اني قد أتيتك في حاجة واعلم أن الطالب
والمطلوب اليه عزيزان ان قضيت وذليلان ان لم تقض فاختر لنفسك عز البذل على ذل المنع
واختر لي عز النجح على ذل المنع فقضى حاجته (قال) محمد بن واسع لقتيبة بن مسلم اني أتيتك في
حاجة رفعتها الى الله قبلك فان يأذن الله فيها قضيتها وحمدناك وان لم يأذن الله فيها لم تقضها وعذرناك
(وقال) فيض بن اسحاق كنت عند الفضيل بن عياض اذ دخل رجل فسأله حاجة فألح في السؤال
عليه فقلت لا تؤذن الشيخ فقال له الفضيل اسكت يا فيض أما علمت أن حوائج الناس اليكم
نعمة من الله عليكم فاحذروا أن تملوا النعم فتتحول نقما ألا تحمد ربك أن جعلك موضعا تسئل
ولم يجعلك موضعا تسأل (وفد) قوم من قريش على معاوية فقالوا السلام عليك يا معاوية
فبسط لهم وجهه وألان قوله فطلبوا الموادعة فقال يا وجوه قريش مالكم أتيتم من مكان بعيد
ثم لم تجعلوا بين السلام والموادعة حاجة تطلبونها فقالوا والله يا أمير المؤمنين ما أتيناك الا مفاخرين
باحسابنا مباهين لك برجالنا متعززين عليك بسيوفنا طالبين من مالك غير راضين باليسير
من نوالك ولكنك بسطت لنا الوجه وألنت المقال فاستغنينا بذلك عن طلب المال فقال اذا والله

لأجمعن لكم بين الحسنيين ولأصرفنكم بما يقدم من تخلف عنكم (كان) للقاضي أحمد ابن أبي داوود شخص يختص به ويسعى في قضاء حوائجه فنعه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات من التردد اليه لمنافسة بينه وبين القاضي المذكور وشحناء فبلغ ذلك القاضي فجاء الى الوزير فقال له والله ماجئتك متكثرا بك من قلة ولا متعززا من ذلة ولكن أمير المؤمنين رتبك رتبة أوجبت لقاءك فان لقيناك فله وان تأخرنا عنك فلك ثم نهض من عنده (قال ابن سعيد) كان أحد المغاربة الادباء يتردد الى جمال الدين بن مطروح بالقاهرة وله حينئذ صيت وتمكن من الدولة الصالحية فدحه بكثير وكتب له من النشد والنظم والامثال كثيرا فما ظهر له منه قبول على جميع ما كتب به اليه وشكى الى ذلك فقلت له اكتب له بقول ابن اللبانة

جمالك ألبس الدنيا جمالا * ومد على مناكبها ظلالا

أطل نظرة السيادة في حديثي * فان الرزق حيث تميل مالا

قال فوالله ماوقف عليهما حتى بسط وجهه ونظر في قصته وظهر منه جملة مافات من القول والالتفات (كان محمد بن الحسن الشيباني) قد بلغ عند الرشيد مبلغا جليلا وكان امام الحنفية في زمنه واحتاج الامام الشافعي الى مشاركته فكتب له

لست أدري ماذا أقول ولكن * أبتغي من عريض جاهك نفعا

والفتى ان أراد نفع أخيه * فهو أدرى في أمره كيف يسعى

فاعتنى به حتى صدر الى مصر بطلبته (لما) مات عمرو بن مسعدة رفعت الى المأمون رقعة أنه خلف ثمانين ألف ألف درهم فوقع في ظهرها هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا فبارك الله لولده فيما خلف وأحسن لهم النظر فيما ترك (لما) استشعر الاسكندر الوفاة كتب الى أمه يقدم عندها مقدمات التصبر عن مصابه بمواعظ ذكرها في كتابه ثم قال لها يا أمه اذا أنا مت فاصنعي طعاما حسنا كاملا وشرابا لذيذا حلوا وأحضري له كافة الناس واعهدي اليه أن لا يحضره من نابته من الدهر نائبة ولا من أصابته من الزمان مصيبة ليكون مأتم الاسكندر خلافا عن مأتم العامة ويكون لك في ذلك الذكر والصيت فلما مات امتثلت ذلك واختلفت في الطعام والشراب ودعت الناس اليه وعهدت اليهم بما أمرها فلم يأتها أحد فقالت مابال الناس مع تقدمنا اليهم قد تخلفوا عنا فقيل لها أمرت أن لا يحضره من أصابته مصيبة وكل الناس أصابتهم المصائب ونابتهم النوائب فقالت يا اسكندر ما أشبه أواخرك بأوائلك أردت والله أن تعزيني عنك التعزية الكاملة (قال شريح القاضي) اني لاصاب بالمصيبة فاحمد الله عليها باربعة وجوه أحمده اذ لم تكن أعظم

عما هي وأحمده اذ رزقني الصبر عليها وأحمده اذ وفقني للاسترجاع على ما أرجو فيها الثواب وأحمده اذ لم يجعلها في ديني (قال الشاعر)

الحمد لله رب العالمين كما * يحبه الملك الاعلى ويختار

هو الحميد الذي جلت محامده * فليس يبلغ منها الدهر معشار

نثني عليه بما أولى ونشكره * كم نعمة منه والانسان كفار

(روى في بعض الاخبار) أن امرأة من الاعراب وقفت على جماعة فقالت لهم ما الكرم يرحمكم الله قالوا بذل المعروف والايثار على النفس قالت هذا في الدنيا فما هو في الدين قالوا طاعة الله سبحانه وتعالى وبذل المجهود في عبادته واجتناب محارمه والوقوف عند حدوده طيبة بذلك نفوسنا قالت أفتريدون بذلك جزاء قالوا نعم قالت ولم قالوا لان الله وعدنا بالحسنة عشر أمثالها قالت سبحان الله فاذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فاين الكرم قالوا فما هو يرحمك الله قالت هو أن تعبد الله حق عبادته لا يراد على ذلك جزاء حتى يفعل بكم مولاكم ما يشاء ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيأ بشيء (دخل) المهدي الكعبة ومعه منصور الحجب من حجبة البيت فقال ما حاجتك قال اني أستحيي أن أسأل في بيته غيره فلما خرج أمر له بعشرة آلاف دينار (قال) خالد بن صفوان لا تطلبوا الحوائج في غير حينها ولا تطلبوها الى غير أهلها ولا تطلبوا ما لستم له بأهل فتكونوا بالمنع خلقاء (وقال خالد بن صفوان) شهدت عمرو بن عبيد ورجل يشتمه فما ترك منه شيأ فلما فرغ قال له عمرو آجرك الله على ما ذكرت من صواب وغفر لك ما ذكرت من خطأ فما حسدت أحدا حسدي عمرا على هتين الكلمتين (وشتم) رجل الشعبي فقال له ان كنت صادقا فيغفر الله لي وان كنت كاذبا فيغفر الله لك (وشتم) رجل أباذر فقال له يا هذا لا تستغرق في شتمنا ودع للصلح موضعا فانا لا نكافيء من عصى الله فينا بأ كثر من أن نطيع الله فيه (وروى) أن علي بن الحسين رضي الله عنهما كان يوما خارجا من المسجد فلقيه رجل فسبه فثارت عليه العبيد والموالي فقال علي بن الحسين مهلا على الرجل ثم أقبل عليه فقال له ما ستر عنك من أمرنا أكثر ألك حاجة نعينك عليها فاستحيى الرجل ورجع الى نفسه قال فالقى عليه ثوبا كان عليه وأمر له بألف درهم قال فكان الرجل بعد ذلك يقول أشهد أنك من أولاد الرسل (ومر المسيح ابن مريم) بقوم من اليهود فقالوا له شرا وقال لهم خيرا فقيل له انهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا فقال كل واحد ينفق مما عنده (وفي سير العجم) أن رجلا وشى برجل الى الاسكندر فقال أتحب أن أقبل منك عليه ونقبل منه عليك قال لا قال فكف عن الشر يكف عنك الشر (قال الصلت ابن سعيد) كنا عند سفيان بن عيينة فضجر بنا وقال أليس من الشقاء أن أجالس التابعين ثم أجالسكم

جالست ضمرة بن سعيد الخدرى وعبد الله بن دينار وجابر بن عبد الله وعدة جماعة فقال له صبى في المجلس لم يكن في الجماعة أصغر منه سنا أتصغو يا أبا محمد قال نعم قال والله لشقاء التابعين بمجالستهم اياك بعد مجالستهم الصحابة أشد من شقائك بمجالستك إيانا بعد التابعين فاكبت ابن عيينة ثم قال للصبى يوشك أن تكون لك حال وكان الصبى يحيى بن أكثم (وذكر) أن البراء بن القلس قرأ على مؤدبه ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فقال له يا أستاذ ما الورد فقال له المؤدب لا أدرى فقرأ لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا فقال له يا أستاذ ما العهد فقال المؤدب لا أدرى فاتم البراء القراءة وقال اذا كنت لا تدرى فلم غررت بالناس فضربه المؤدب فقال البراء يا أستاذ لم يكفك الجهل حتى أضفت اليه الظلم والاذى فاستحله المؤدب وتاب الى الله من التأديب وأقبل على طلب العلم (أكب رجل) من بنى مرة على مالك بن اسحاق يحدثه في يوم صيف ويغمه ويثقل عليه ثم قال أتدرى من قتلنا منكم في الجاهلية قال لا ولكن أعرف من قتلتم منا في الاسلام قال ومن هم قال أنا قتلتنى اليوم بدون حديثك وكثرة فضولك (قال الربيع) حاجب المنصور لما استوت الخلافة لابى جعفر المنصور قال لى يا ربيع ابعث الى جعفر بن محمد قال فقمت بين يديه فقلت أى بلية يريد أن يفعل به وان همه أن أفعل ثم أتيته بعد ساعة فقال ألم أقل لك ابعث الى جعفر بن محمد فوالله لتأتينى به ولاقتلنه شر قتلة قال فذهبت اليه فقلت أبا عبد الله أجب أمير المؤمنين فقام معى فلما دنونا من الباب قام فحرك شفتيه ثم دخل فسلم فلم يرد عليه السلام ووقف فلم يجلس ثم رفع رأسه اليه فقال يا جعفر أنت الذى ألبت وكثرت وحدثنى أبى عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ينصب للغادر لواء يوم القيامة يعرف به قال جعفر بن محمد حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ينادى مناد يوم القيامة من بطنان العرش ألا فليقم من كان أجره على الله فلا يقوم من عباد الله الا المتفضلون فما زال يقول حتى سكن ما به ولان له فقال اجلس أبا عبد الله ارتفع أبا عبد الله ثم دعا بمرقص غالية فجعل يغلبه بيده والغالية تقطر من بين أنامل أمير المؤمنين ثم قال انصرف أبا عبد الله في حفظ الله وقال لى يا ربيع أتبع أبا عبد الله جائزته وأضعفها قال فخرجت فقلت يا أبا عبد الله شهدت ما لم تشهد وسمعت ما لم تسمع وقد دخلت ورأيتك تحرك شفتيك عند دخولك اليه أشئ تأثره عن آبائك الصالحين قال لا بل حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا أحزنه أمر دعا بهذا الدعاء وكان يقول هو دعاء الفرج (اللهم) احرسنى بعينك التى لا تنام واكنفنى بركنك الذى لا يرام واحفظنى بعزك الذى لا يضام واكلأنى في الليل والنهار وارحمنى بقدرتك على أنت ثقتى ورجائى فكم من نعمة أنعمت بها على قل لك بها شكرى وكم من بلية ابتليتنى بها قل لك بها صبرى وكم خطيئة ركبتها

فلم تفضحني فيامن قل عنـد نعمته شكرى فلم يحرمني ويامن قل عنـد بلائه صبرى فلم يخذلني ويامن رآني على الخطايا فلم يعاقبني ياذا المعروف الذى لاينقضى أبدا وياذا الايادى التى لاتحصى عددا وياذا الوجه الذى لايبلى أبدا وياذا النور الذى لايطفأ سرمدا أسألك أن تصلى على محمـد وعلى آل محمد كما صليت وباركت وترحمت على ابراهيم وأن تكفيني شر كل ذى شر يك أدرأ في نحره وأعوذ بك من شره وأستعينك عليه اللهم أعني على ديني بدنياى وعلى آخرتي بالتقوى واحفظني فيما غبت عنـه ولاتكلني الى نفسي فيما حضرته يامن لاتضره الذنوب ولاتنقصه المغفرة اغفرلى مالايضرك وهب لى مالاينقصك ياالهى أسألك فرجا قريبا وصبرا جميلا وأسألك العافية من كل بلية وأسألك الشكر على العافية وأسألك دوام العافية وأسألك الغنى عن الناس ولاحول ولاقوة الابالله العلى العظيم اللهم بك أستدفع مكروه ماأنا فيـه وأعوذ بك من شره ياأرحم الراحمين (ويروى عن الشافعى) رضى الله عنه أنه وجه اليه بعض الخلفاء (أراه أباجعفر المنصور) في الليل ليقتله وهو قد اشتد غضبا عليه وحنقا فلما وصل اليه الرسول قال أجب أمير المؤمنين قال وما حاجته الى في جوف الليل فقال لاأعرف لكني أمرت أن آتي بك فاستشعر الشر وخرج مع الرسول فلما انتهى الى باب القصر استأذن الرسول فأمر أبوجعفر بادخاله فتوقف ساعة وحرك شفتيه ثم دخل فقام المنصور اليه وأخذ بيده وأجلسه وجعل يعتذر اليه من التوجيه وراءه في مثل ذلك الوقت ثم عطف على الرسول وقال له لعلك روعته فقال له لا ثم أمر الشافعي بالانصراف وأمر له بمال كثير قال الرسول فعجبت مما رأيت وعلمت أن الذى نجاه ماحرك به شفتيه فتبعه الرسول وقال له بالذى استنقذك وأجاب دعاءك الا ماأعلمتني بالذى حركت به شفتيك حين أمرت بالدخول حتى أنزلك على المقام الذى رأيت قال نعم وكرامة وأنا أهدى ذلك اليك (اللهم) انى أعوذ بنور قدسك وعظمة كمالك وبركة جلالك من كل آفة وعاهـة ومن طوارق الليـل والنهار ومن طوارق الانس والجان الا طارقا يطرق بخير ياألله يارحمن (اللهم) أنت عياذى فبك أعوذ وأنت ملاذى فبك ألوذ يامن ذلت له رقاب الجبابرة وخضعت له مقاليد الفراعنة أعوذ بجلال وجهك وكرم جلالك من خزيك وكشف سترك ونسيان ذكرك والاضراب عن شكرك أنا في كنفك في ليلى ونهارى ونومى وقرارى وظعني واسفارى فاجعل ذكرك شعارى وثناءك دثارى لااله الاأنت تنزيها لاسمك وتكريما لسبحات وجهك أجرني من خزيك ومن شر عبادك واضرب على سرادقات حفظك وقني سيئات عذابك وأدخلني في حفظ عنايتك ياأرحم الراحمين فانك على كل شئ قدير وأنت حسـبي ونعم الوكيل وصلى الله على سـيدنا محمد وعلى جميع الرسل من الملائكة والنبيين وعلى جميع الصحابة والتابعـين لهم باحسان الى يوم الدين ولاحول ولاقوة الابالله العلى العظيم

(كان لمالك بن أنس رضي الله عنه بنت تحفظ كتاب الموطأ) فكانت تقف خلف الباب فاذا قرئ على مالك وغلط القارئ نقرت الباب فيعلم غلطه وكان له ابن اسمه محمد يجيء وأبوه مالك يحدث وعلى يده باشق فيلتفت مالك للحاضرين فيقول أما ان الادب أدب الله هذا ابني كاترون وهذا بنتي كاترون (قال ابن سعيد في كتاب الزهرات) نقلت من كتاب البيهقي الموسوم بالعمائم بالكمائم أولى ماحفظ الرؤساء الكرام من الاشعار أمثالهم وأولى ماحفظ من ذلك أشعار أبي دلف العجلي لان أقواله فيها تطابق أفعاله مع حلاوة منزعه وعذوبة مشرعه وأولى ماحفظ من شعره في ذلك قوله

اذا جادت الدنيا عليك فجدبها * وبادر بها من قبل أن تتفلت
فلا الجود يفنيها اذا هي أقبلت * ولا البخل يبقيها اذا هي ولت

(قال بعض الشعراء)

لاتبخلنّ بدنيا وهي مقبلة * فليس ينقصها التبذير والسرف
وان تولت فأحرى أن تجود بها * فالحمد منها اذا ما أدبرت خلف

(وقال آخر)

ثناء الفتى يبقى ويفنى ثراؤه * فلا تكتسب بالمال شيأ سوى الذكر
فقد أبلت الايام كعبا وحاتما * وذكرهما غض جديد الى الحشر

(قال ابن سعيد) حكى لي الصاحب كمال الدين بن العديم أن القاضي بهاء الدين بن شداد قاضي حلب الذي بلغ عند صلاح الدين وابنه الظاهر مالم يبلغه أحد من نظرائه مرض بحلب قال فمشيت في جماعة من الشبان المبتدئين في القراءة والظهور الى عيادته فعندما دخلنا عليه قام لنا فجعلنا نحلف أن لا يفعل فقال ياسبحان الله تتفكرون في مرضي وتتعنون من أماكنكم الى منزلي ثم أبخل عليكم بقومة هذا والله غير طريق المروءة ثم قال ياأولادي لقد دخلت على كبير وأنا في سنكم فلم يحتفل بي فالى الآن ما أذكر ذلكم الا أستذكره وندمت على وصولي اليه ولا يتجنب المعائب الا أهل التجارب قال وكنت أتردد الى مجلس كمال الدين بن يغمور وهو نائب السلطنة بالشام وكان يقوم لي كلما دخلت عليه فدخلت يوما فاذا به مضطجع فلم يقم وأخذ فيما كان يأخذ فيه فلما دخلت عليه في اليوم الثاني قام ثم جلس ثم قام ثم جلس وقال هذه الاخيرة قومة أمس كانت على دينا العذر تتفضل بقبوله دون مطالبة نذكره فتعجبت من فضله وقلت ماسار لهذا الرجل ماسار في الآفاق من باطل (قال برين بن أبي حبيب) خرجت الى الصيد فبينما أنا يوما أدور على شاطئ النيل اذا أنا براهب في الماء وهو يغسل عباءه بالطين والماء فوقفت أنظر اليه فنظر الي وقال أظنك ممن يطلب الاحاديث قال قلت أجل فقال اصبر حتى أفرغ من شأني وأحدثك حديثا تجده

عندنا فانتظرته حتى فرغ ثم جاء فجلس فقال يا هذا إنا نجد فى علمنا مثلا ان الحق والباطل اصطحبا فى سفر فمشيا الى الليل فلما نزلا قال الباطل للحق اذهب فأتنا بشئ نفطر عليه قال فذهب الحق فطلب فلم يجد شيأ من حله فرجع فقال له الباطل ماصنعت قال لم أجد شيأ من حله فقال الباطل اجلس حتى آتيك قال فذهب فلم يلبث الا يسيرا حتى جاء بشئ فقال للحق كل فقال ما أراه من حله ولست بآكله فقال له الباطل بعثتك لتأتينى بشئ فلم تجد شيأ فلما ذهبت أنا وجئت بما نفطر عليه حرمته على فنازعه فوثب الباطل على الحق فقتله ثم قال ان أهل الحق قد علموا أنه خرج معى ولا بد لهم أن يطلبونى به فعمد الى حطب فجمعه ثم أضرم عليه النار حتى صار رمادا ثم ذهب وتركه فجاءه أهل الحق فقالوا ما فعل الحق فقال لا علم لى به فقالوا معك خرج فقال نعم ولا أدرى ما فعل فخرج أهل الحق يطلبونه حتى وقفوا على الموقع الذى أحرقه فيه الباطل فقال هذا رماد الحق وهذا موضع ناره حيث أحرقه الباطل فجمعوا رماده وصنعوا مدادا يكتبون به فهذا ما بقى من الحق فاما الحق بعينه فقد ذهب (ومن المنقول) فى مقالات الادباء دخل رجل على سلم بن قتيبة الباهلى فكلمه فى حاجة ووضع نصل سيفه على أصبع سلم بن قتيبة وجعل يكلمه فى حاجته وقد أدمى أصبعه وسلم صابر فلما فرغ الرجل من حاجته وانصرف دعا سلم بمنديل فمسح الدم من أصبعه وغسله فقيل له ألا نحيت رجلك أصلحك الله أو أمرته برفع سيفه عنها فقال خشيت أن أقطع عنه حاجته (حدث الاصمعى) قال سأل رجل أبا عمرو بن العلاء حاجة فوعده بها ثم ان الحاجة تعذرت على أبى عمرو فلقيه الرجل بعد ذلك فقال له يا أبا عمرو وعدتنى وعدا فلم تنجزه قال له أبو عمرو فمن أولى بالغم أنا أو أنت فقال له أنا فقال له عمرو بل أنا فقال له الرجل وكيف ذلك أصلحك الله قال لانى وعدتك وعدا فأبت بفرح الوعد وأبت أنا بهم الانجاز وبت ليلتك فرحا وبت مفكرا مغموما ثم عاق القدر عن بلوغ الارادة فلقيتنى مذلا ولقيتك محتشما فمن هنا صرت أولى بالغم منك (اجتمع) جماعة من الشعراء بباب أبى الغيث فلم يأذن لهم فكتبوا اليه

أيها ذا العزيز قد مسنا الضـــر ودبت به الخطـــوب الينـا
ولدينا بضاعـــة مزجاة * قـــل طلابها فبارت لدينا
فأزل حزنا وأوف لنا الكيـــل بما شئت أو تصـدق علينا

فأحسن اليهم وانصرفوا (وروى) أن عكرمة بن ربعى الفياض ولى أصبهان فانتهب خراجها فى زوارق وقدم المدينة فتتبع بهما اخوانه وأعطاهم عطايا لم يكن فيها أقل من عشرة آلاف درهم ثم سأل عن بشر بن غالب الذى تنسب اليه جبانة بشر بالكوفة فقيل له غلبه الدين حتى اختفى قال فأمهل حتى اذا أمسى حمل معه بدرة وعلى غلامه بدرة أخرى وتختا من ثياب أصبهان ثم سأل عن

منزل بشر فدل عليه فدق الباب فقال بشر لامرأته أنظرى من هذا وما حاجته وما يريد قال فخرجت اليه امرأته فقالت من أنت وما حاجتك وما تريد قال أريد بشرا قالت أو ما علمت أنه غائب منذ شهر قال فحلف لها بالطلاق والعتاق أنه آمن وأنه ليس له قبله شئ يكره قال فخرج بشر اليه فقال ما حاجتك قال مر بهذا المال يقبض قال ومن أنت قال وما عليك أن لا تعرف اسمى فقال على الله قال فترضى أن نوجزلك قال نعم قال أنا جابر عثرات الكرام قال انك لاهل أن يقبل منك قال فلما كان بعد قليل ولى بشر بن مروان الكوفة وجعل على شرطته بشر بن غالب ودفع اليه عكرمة بن ربعى وقال له دق يديه حتى يرد ما كسر من خراج أصبهان قال فقطع عليه العذاب وهو لا يعرفه فقالت له امرأته اخبره بيدك عنده قال تأمرينى أن أتقاضى معروفى والله لا فعلت قالت فأخبرهم أنا قال ان فعلت فأنت طالق ثلاثا قالت فرأيت الطلاق أهون على من أن تتلف نفسه فدخلت على امرأة بشر فقالت تدرون من تعذبون قالت نعم هو عكرمة قالت هو جابر عثرات الكرام قالت فدعت بالويل قال فدخل عليها بشر فقالت تدرى من تعذب قال نعم هو عكرمة قالت هو جابر عثرات الكرام الذى طرقنا ليلا بما طرق قال فدعا بثيابه وسيفه ثم مثل بين يدى بشر ابن مروان وقال أصلحك الله هذا مقام العائذ قال وماذاك قال ان الذى أخبرتك أن طرقنا ليلا بما طرقنا هو عكرمة قال فماذا تريد قال أريد أن تخلى سبيله قال فانا قد فعلنا قال وأخرى أصلحك الله قال وما هى قال أن تصيره مكانى معك قال فانا قد فعلنا قال فعاشا صاحبين مع بشر بن مروان رحمة الله على جميعهم (قدم) الكوفة سعيد بن العاص عاملها العثمان رضى الله عنه فكانت له موائد يغشاها الاشراف والقراء فكان فيمن يغشى موائده رجل من القراء فقير فقالت له امرأته ويحك أنه يبلغنا عن أميرنا هذا كرم وجود فاذكر له بعض ما نحن فيه فتعشى عنده ذات ليلة فلما انصرف الناس منه ثبت الرجل فقال له سعيد انى قد أرى جلوسك وما جلست الا ولك حاجة فاذكرها رحمك الله فتعقد الرجل وتعسر فقال سعيد لغلمانه تنحوا ياغلمان ثم قال له رحمك الله انما هو أنت وأنا فاذكر حاجتك فتعقد أيضا وتعصى فنفخ سعيد المصباح فأطفأه ثم قال له رحمك الله انك لست ترى وجهى فاذكر حاجتك قال أصلح الله الامير أصابتنا حاجة فأحببت ذكرها لك قال له اذا أصبحت خالف فلانا وكيلى فلما أصبح لقى الوكيل فقال له ان الامير قد أمر لى بشئ فهل جئت بمن يحمله قال لا والله ما عندى من يحمل ورجع الى امرأته وجعل يعذلها ويلومها وقال قال لى وكيله جئت بمن يحمل وما هى الا قوصرة من تمر أو قفيز من بر ولو كانت دراهم أو دنانير أعطانيها بيده قالت ويحك ما كان من شئ فقوتنا به فمكث أياما ثم لقيه الوكيل فقال له ويحك أين تكون أخبرت الامير أنه ليس عندك من يحمل فأمرنى أن أوجه معك من يحمل فوجه معه بثلاثة من السودان

يحمل كل واحد منهم بدرة على عاتقه حتى أوردوها منزله فأطلق وكاء بدرة منها ووهب لهم منها دريهمات وقال انصرفوا قالوا الى أين ما حمل له مملوك قط هدية فرجع فى ملكه (امتدح) نصيب الشاعر عبد الله بن جعفر فأمر له بخيل وابل وأثاث ودنانير ودراهم فقال له رجل أمثل هذا الاسود يعطى مثل هذا المال فقال عبد الله بن جعفر ان كان أسود فان شعره أبيض وان ثناءه لمروى وقد استحق بما قال أكثر مما نال وهل عطيناه الا ثيابا تبلى ومالا يفنى ومطايا تنضى وأعطانا مدحا يروى وثناء يبقى (دخل) ابن السماك على محمد بن سليمان بن على فرآه معرضا عنه فقال مالى أرى الامير كالعاتب على قال ذلك لشئ بلغنى عنك كرهته قال اذن والله لا أبالى قال ولم قال لانه ان كان ذنبا غفرته وان كان باطلا لم تقبله (خطب) أبو جعفر المنصور يوما فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس اتقوا الله فقام اليه رجل من عرض الناس فقال أذكرك الذى ذكرتنا به يا أمير المؤمنين فأجابه أبو جعفر بلا فكرة ولا روية سمعا سمعا لمن ذكر بالله وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه فتأخذنى العزة بالاثم لقد ضللت اذا وما أنا من المهتدين وأما أنت أيها القائل فوالله ما الله أردت بها ولكن ليقال قال فعوقب وصبر وأهون بها لو كانت وأنا أنذركم أيها الناس أختها فان الموعظة علينا نزلت ومنا أنبتت ثم رجع الى موضعه من الخطبه (ح) عتبة بن أبى سفيان سنة احدى وأربعين والناس قريب عهدهم بالفتنة فصلى بمكة الجمعة ثم قال أيها الناس انا قد ولينا هذا المقام الذى يضاعف فيه للمحسنين الاجر وعلى المسئ فيه الوزر ونحن على طريق ما قصرنا فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا فانها تنقطع دوننا ورب متمن حتفه فى أمنيته فاقبلوا العافية ما قبلناها منكم واياكم ولو فانها أتعبت من كان قبلكم ولن تريح من بعدكم وأنا أسئل الله أن يعين كلا على كل فصاح به اعرابى أيها الخليفة فقال لست به ولم تبعد فقال يا أخاه فقال سمعت فقل فقال تالله ان تحسنوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسنا فان كان الاحسان لكم دوننا فما أحقكم باستتمامه وان كان منا فما أولاكم بمكافأتنا رجل من بنى عامر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة ويقرب اليكم بالخؤلة قد كثره العيال ووطئه الزمان وبه فقر وعنده شكر فقال عتبة أستغفر الله منكم وأستعينه عليكم وقد أمرنا لك بغناك فليت أسراعنا اليك يقوم بابطائنا عنك (تنازع) ابراهيم بن المهدى وبختيشوع الطبيب بين يدى أحمد بن أبى دؤاد فى مجلس الحكم فى عقار بناحية السواد فأربى عليه ابراهيم وأغلظ له فى القول فغضب لذلك بن أبى دواد وقال يا ابراهيم اذا نازعت فى مجلس الحكم بحضرتنا أمرا فلا ترفع عليه صوتا ولا تشر بيدك وليكن قصدك أمما وطريقك نهجا وريحك ساكنة وكلامك معتدلا ووف مجالس الخليفة حقها من التوقير والتعظيم والاستكانة والتوجه الى الحق فان هذا أشكل بك وأجمل بمذهبك فى محتدك وعظيم خطرك ولا تعجلن فرب عجلة تهب ريثا

والله يعصمك من الزلل وخطل القول والعمل ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل ان ربك حكيم عليم فقال ابراهيم أمرت أصلحك الله بسداد وخضضت على رشاد ولست عائدا لما يثلم قدري عندك ويسقطني من عينك ويخرجني من مقدار الواجب الى الاعتذار فها أنا معتذر اليك من هذه البادرة اعتذار مقر بذنبه باخع بجرمه لان الغضب لا يزال يستغزني بمواده فيردني مثلك بحلمه وتلك عادة الله عندك وعندنا فيك وحسبنا الله ونعم الوكيل وقد خرجت من هذا العقار لبختيشوع فليت ذلك يكون وافيا بارش الجناية عليه ولم يتلف مال أفاد موعظة وبالله سبحانه التوفيق (بعث) زياد الى معاوية برجل مخالف من بني تميم فلما مثل بين يديه قال له أنت القائم علينا المكثر لعدونا قال يا أمير المؤمنين انما كانت فتنة عم عماها وأظلم دجاها نرى فيها الوضيع وخف الحليم والرفيع فاحتدمت وأكلت علينا وشربت حتى اذا انحسرت ظلماؤها وانكشف غطاؤها آل الامر الى ما آله وصرح عن محضه وارتفع العبوس وتابت النفوس فتركنا فتنتنا ولزمنا عصمتنا وعرفنا خليفتنا ومن يجدمنا بالم يرد الله به عقابا ومن يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما فعجب معاوية من فصاحته واستغرب حسن اعتذاره وعفا عنه وأحسن اليه (لما) غزا الاسكندر دارا بن دارا وكان دارا قد ملّه قومه وأهل مملكته وأحبوا الراحة منه فلحق كثير من وجوه أصحابه وقواده الى الاسكندر وأطلعوه على عورته وقووه عليه فلما التقيا ببلاد الجزيرة اقتتلا سنة كاملة ثم وثب على دارا جماعة من قومه فقتلوه وكان الذي فعل به هذا حاجباه فلما سيق رأسه الى الاسكندر أمر بضرب أعناق الذين ساقوه وقال هذا جزاء من اجترأ على ملكه (قال الاصمعي) كان لي صديق من أهل الادب والمروءة والحسب قد أتى عليه ثلاثة أعصار مشتهر بحفظ العلوم والاخبار والملح والاشعار وكان لا تسكن حركاته ولا تتوفر لذاته الا في قضاء حوائج الاخوان وادخال السرور على من عرفه من الاخوان فألهاني ما شهدت منه عما وصف لي عنه فقلت له يوما ما هذا الذي تفعله وما قوالك على ما تصنعه فقال يا أصمعي اني شهدت الايام في بدء اخضرار عيشها ورأيت تصرفها وحلبت الدهر أشطره ولهوت في ريعان الشباب وجالست العلماء وصحبت أهل التصابي فما طربت بما سمعت ولا ابتهجت بما رأيت كابتهاجي لنشر نعمة وشفاعة شافع في طلب شاكر يرجو بذلك الحياة في العاجل وجزيل الثواب في الآجل واني لأتشوق الى الرجل الاديب تشوق المريض الى الطبيب وأطرب اليه كتطرب المحب الى الحبيب وأنشد

واذا الاديب مع الاديب تحادثا * كانا من الآداب في بستان
لاشئ أحسن منهما في مجلس * يتطاعمان جواهرا بلسان

(ذكر) أن المتوكل بن الافطس فر اليه شخص من بنى هود مغاضبا لابن عمه ملك سرقسطة فآواه وأحسن اليه ثم اختبره فرآه أهلا للولاية فولاه فقال له أحد وزرائه كثير هذا فى تغيير قلب قريبه يا مولاى تسخط قادرا فى حق عاجز وتفرط فيمن تحتاج اليه كما يحتاج الينا وتغتبط بمن لا تحتاج اليه بل هو موكل علينا فقال له المتوكل الذى قلت حق ولكن كيف يكون اقتناء المكارم (روى) أن أنوشروان غضب على وزيره بزرجمهر فسجنه فى بيت كالقبر وصفده بالحديد وألبسه الخشن من الصوف وأمر أن لا يزاد فى كل يوم على قرصين من الخبز وكف ملح جريش ودورق ماء وأن تنقل ألفاظه اليه فأقام شهورا لا تسمع له لفظة فقال أنوشروان ادخلوا عليه أصحابه وأمروهم أن يسألوه ويفاتحوه الكلام ويعرفونيه فدخل اليه جماعة من المختصين به فقالوا له أيها الحكيم نراك فى هذا الضيق والحديد والشدة التى دفعت اليها ومع هذا فان سحنة وجهك وصحة جسمك على حالها لم تتغير فما السبب فى ذلك فقال انى عملت جوارش من ستة أخلاط فآخذ منه كل يوم شيأ فهو الذى أبقانى على ما ترون فقالوا صفه لنا فعسى أن نبتلى بمثل بلواك أو أحد من اخواننا فنستعمله أو نصفه له فقال الخليط الاول الثقة بالله والثانى أن كل مقدر كائن والثالث الصبر خير ما استعمله الممتحن والرابع ان لم أصبر فأى شئ أعمل ولم أعن على نفسى بالجزع والخامس قد يمكن أن أكون فى شر أصعب مما أنا فيه والسادس من ساعة الى ساعة فرج (من كتاب عين الادب والسياسة)

(الباب الثانى فى الاخلاق)

(فصل) فى مجانبة الكبر والاعجاب لانهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا عليه اصغاء لنصح ولا قبول لتأديب لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بابانة ما يكسبانه من ذم ويوجبانه من لوم (فنقول) أما الكبر فيكسب المقت ويلهى عن التآلف ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوءا ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لعمه العباس أنهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب منهما وقال ازدشير بن بابك ما الكبر الافضل حمق لم يدر صاحبه أين يذهب به فيصرفه الى الكبر وحكى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن أبى صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشى الخيلاء فقال يا أبا عبد الله ما هذه المشية التى يبغضها الله ورسوله فقال المهلب أما تعرفنى فقال بل أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فأخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا فقال

عجبت من معجب بصورته * وكان بالامس نطفة مذرة
وفي غد بعد حسن صورته * يصير في اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه ونخوته * ما بين ثوبيه يحمل العذرة

وقد كان المهلب أفضل من أن يخدع نفسه بهذا الجواب الغير الصواب ولكنها زلة من زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال فاما الحمق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكي عن نافع ابن جبير بن مطعم أنه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمن الحرقي وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال أتدرون لم جلست اليكم قالوا جلست لتسمع قال لا ولكني أردت أن أتواضع لله بالجلوس اليكم فهل يرجى من هذا فضل أو ينفع فيه عذل وقد قال ابن المعتز لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل وأما الاعجاب فيخفي المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام ويصد عن الفضائل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الاعجاب ضد الصواب وآفة الالباب وقال بزرجمهر النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذي لا يرحم صاحبه منه العجب وقال بعض الحكماء عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله وليس الى ما يكسبه الكبر من المقت حد ولا الى ما ينتهي اليه العجب من الجهل غاية حتى انه ليطفئ من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد حكى عمر بن حفص قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل لو كان الله بلغني قتل أربعة فتقربت اليه بدمائهم ولما ولي مقاتل ابن مسمع سجستان أتاه الناس فاعطاهم الاموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط الناس له أرديتهم فمشى عليها وقال لرجل يماشيه لمثل هذا فليعمل العاملون وعبد الله بن زياد بن ظبيان التيمي لما خوف أهل البصرة أمر نخطب خطبة أوجز فيها فنادى الناس من أعراض المسجد أكثر الله فينا مثلك فقال لقد كلفتم الله شططا ومعبد بن زراعة كان ذات يوم جالسا في طريق فمرت به امرأة فقالت له يا عبد الله كيف الطريق الى موضع كذا فقال يا هناه مثلي يكون من عبيد الله وأبو سمال الاسدي أضل راحلة فالتمسها الناس فلم يجدوها فقال والله ان لم يرد الي راحلتي لا صليت له صلاة أبدا فالتمسها الناس فوجدوها فقالوا له قد رد الله راحلتك فصل فقال ان يميني يمين مصر فانظر الى هؤلاء كيف أفضى بهم العجب الى حمق صار وابه نكالا في الاولين ومثلا في الآخرين ولو تصور المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة وبلي به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوه وسكونا من نفوره وقال الاحنف بن قيس عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعراء الانسان فقال

يا مظهر الكبر إعجاباً بصورته * أنظر خلاك فان النتن تثريب
لو فكر الناس فيما في بطونهم * ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمة * وهو بخمس من الاقذار مضروب
أنف يسيل واذن ريحها سهك * والعين مرفضة والثغر ملعوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا * أقصر فانك مأكول ومشروب

وأحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل في الدنيا قدره وعظم فيها خطره لانه قد يستقل بعالى همته كل كثير ويستصغر معها كل كبير وقال محمد بن علي لا ينبغي للشريف أن يرى شيئا من الدنيا لنفسه خطيرا فيكون بها تائها وقال ابن السماك لعيسى بن موسى تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان متضادان بمعنى واحد التواضع والشرف وللكبر أسباب فمن أقوى أسبابه علو اليد ونفوذ الامر وقلة مخالطة الاكفاء وحكي أن قوما مشوا خلف علي ابن أبي طالب رضي الله عنه فقال ابعدوا عني خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال ومشوا خلف ابن مسعود فقال ارجعوا فانها اذلة للتابع وفتنة للمتبوع وروى قيس بن حازم أن رجلا أتى به للنبي صلى الله عليه وسلم فاصابته رعدة فقال له صلى الله عليه وسلم هون عليك فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد وانما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسما لمواد الكبر وقطعا لذرائع الاعجاب وكسرا لاشر النفس وتذليلا لسطوة الاستعلاء ومثل ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال أيها الناس لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب فاظل اليوم وأي يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك فقال عمر رضي الله عنه ويحك يا ابن عوف اني خلوت فحدثتني نفسي فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فاردت أن أعرفها نفسها وللاعجاب أسباب فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين واطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا والتملق خديعة وملعبا فاذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة الى الاستهزاء بهم وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يزكي رجلا فقال له قطعت مطاه لو سمعها ما أفلح بعدها وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدح ذبح وقال ابن المقفع قابل المدح كمادح نفسه وقال بعض الحكماء من رضي أن يمدح بما ليس فيه فقد أمكن الساخر منه وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اياكم والتمادح فانه الذبح ان كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة فليقل أحسب ولا أزكي على الله أحدا وقيل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالفة

عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب وقال بعض الشعراء

يا جاهلا غره افراط مادحه * لا يغلبن جهل من أطراك علمك بك
أثنى وقال بلا علم أحاط به * وأنت أعلم بالمحصول من ريبك

وهذا أمر ينبغي للعاقل أن يضبط نفسه عن أن يستفزها ويمنعها من تصديق المدح لها فان للنفس ميلا لحب الثناء وسماع المدح وقال الشاعر

يهوى الثناء مبرز ومقصر * حب الثناء طبيعة الانسان

فاذا سامح نفسه في مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة ولهابها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق ألزم الامرين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز وليعلم أن المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الاباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته وليكن تهمة المادح أغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثناء كان كله حقا ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح تحرزا من التجاوز فيه وتنزيها عن التملق به وقد روى مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا عيابين ولا تكونوا لعانين ولا ممتادحين ولا متماوتين وحكى الاصمعي أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان اذا مدح قال اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون وقال بعض الشعراء

اذا المرء لم يمدحه حسن فعاله * فمادحه يهذي وان كان مفصحا

وربما آل حب المدح بصاحبه الى أن يصير مادح نفسه اما لتوهمه أن الناس قد غفلوا عن فضله وأخلوا بحقه واما ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والاطراء فيعتقدون أن قوله حق متبع وصدق مستمع واما لتلذذه بسماع الثناء وسرور نفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى بنفسه طربا اذا لم يسمع صوتا مطربا ولا غناء ممتعا ولاى ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص الفضيح وقد قال بعض الشعراء

وما شرف أن يمدح المرء نفسه * ولكن أعمالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه * ولا كل أصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظ * ولا كل من ضم الوديعة يصلح

وينبغي للعاقل أن يسترشد اخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه التي صرفه حسن الظن عنها فانهم أمكن نظرا وأسلم فكرا

ويجعلون ماينهونه عليه من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه وقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن مرآة المؤمن اذا رأى فيه عيبا أصلحه وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الينا مساوينا وقيل لبعض الحكماء أتحب أن تهدى اليك عيوبك قال نعم من ناصح ومما يقارب معنى هذا القول ماروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما من ترى أن نوليه حمص فقال رجلا صحيحا منك صحيحا لك قال تكون أنت ذلك الرجل قال لا تنتفع بي مع سوء ظني بك وسوء ظنك بي وقيل في منثور الحكم من أظهر عيب نفسه فقد زكاها فاذا قطع أسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبر تواضعا وبالعجب توددا وذلك من أوكد أسباب الكرامة وأقوى مواد النعم وأبلغ شافع الى القلوب يعطفها الى المحبة ويثنيها عن البغض وقال بعض الحكماء من برئ من ثلاث نال ثلاثا من برئ من السرف نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة وقال مصعب بن الزبير التواضع مصائد الشرف وقيل في منثور الحكم من دام تواضعه كثر صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم اخلاقا مذمومة يظهرها سوء طباعهم ولآخرين فضائل محمودة يبعث عليها زكاء شيمهم لان لتقلب الاحوال سكرة تظهر من الاخلاق مكنونها ومن السرائر مخزونها لاسيما اذا هجمت من غير تدريج وطرقت من غير تأهب وقد قال بعض الحكماء في تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال وقال الفضل بن سهل من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها وقال بعض البلغاء الناس في الولاية رجلان رجل يجل عن العمل بفضله ومروءته ورجل يجل بالعمل لنقصه ودناءته فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا ومن جل عنه عمله ازداد به تجبرا وتكبرا

(فصل في حسن الخلق) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى اختار لكم الاسلام دينا فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فانه لايكمل الا بهما وقال الاحنف بن قيس ألا أخبركم بأدوأ الداء قالوا بلى قال الخلق الدني واللسان البذي وقال بعض الحكماء من ساء خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة وقال بعض البلغاء الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة والسيء الخلق الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عناء وقال بعض الحكماء عاشر أهلك بأحسن أخلاقك فان الثواء فيهم قليل وقال بعض الشعراء

اذا لم تتسع أخلاق قوم * تضيق بهم فسيحات البلاد
اذا ما المرء لم يخلق لبيبا * فليس اللب عن قدم الولاد

فاذا حسنت أخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه الامور الصعاب ولانت له القلوب الغضاب وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الاعمار وقال بعض الحكماء من سعة الاخلاق كنوز الارزاق وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الاصفياء المسعدين وقلة الاعداء المجحفين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أحبكم الى أحسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة لين الجانب طليق الوجه قليل النفور طيب الكلمة وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف فقال أهل الجنة كل هين لين سهل طليق ولما ذكرنا من هذه الاوصاف حدود مقدرة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر

أصفو وأكدر أحيانا لمختبرى * وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد بالكدر الذى هو البذاء وشراسة الخلق فان ذلك ذم لا يستحسن وعيب لا يرتضى وانما يريد الكف والانقباض فى موضع يلام فيه المساعد ويذم فيه الموافق فاذا كانت لمحاسن الاخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوز بها الحد صارت ملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق ذل والنفاق لؤم وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا أثر مشكور وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وروى مكحول عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغى لذى الوجهين أن يكون وجيها عند الله تعالى وقال سعيد بن عروة لان يكون لى نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر أحب الى من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين وقال الشاعر

خل النفاق لاهله * وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن ترى * الا عدوا أو صديقا

وقال ابراهيم بن محمد

وكم من صديق وده بلسانه * خؤن بظهر الغيب لا يتذمم
يضاحكنى عجبا اذا ما لقيته * ويصدفنى منه اذا غبت أسهم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا * وفى غيبه ان غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطاء الى الشراسة والبذاء لاسباب عارضة وأمور طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوسا فمن أسباب ذلك الولاية التى تحدث فى الاخلاق تغيرا وعلى الخلطاء تنكرا إما من لؤم طبع وإما من ضيق صدر وقد قيل من تاه فى ولايته ذل فى عزله

وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية ومنها العزل فقد يسوء به الخلق ويضيق به الصدر إما لشدة أسف أو لقلة صبر حكى حميد الطويل أن عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال انى وجدتها حلاوة الرضاع مرة الفطام ومنها الغنى فقد تتغير به أخلاق اللئيم بطرا وتسوء طرائقه أشرا وقد قيل من نال استطال وأنشد الرياشي

غضبان يعلم أن المال ساقه له * ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسألني * فأكرم الناس من كانت له ورق

وقال بعض الشعراء

فان تكن الدنيا أنالتك ثروة * فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء منك خلائقا * من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما أفسده الغنى كذلك يصلحه الفقر وكتب قتيبة بن مسلم الى الحجاج أن أهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه أن اقطع عنهم الارزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه فقالوا أقلنا فكتب الى الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت آنست منهم رشدا فأجر عليهم ما كنت تجرى واعلم أن الفقر جند الله الاكبر يذل به كل جبار عنيد متكبر وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لولا أن الله تعالى أذل ابن آدم بثلاث ما طأطأ رأسه لشئ الفقر والمرض والموت ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق إما أنفة من ذل الاستكانة أو أسفا على فائت الغنى ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر وقال أبو تمام الطائي

وأعجب حالات ابن آدم خلقه * يضل اذا فكرت فى كنهه الفكر
فيفرح بالشئ القليل بقاؤه * ويجزع مما صار وهو له ذخر

وربما تسلى من هذه الحالة بالامانى وان قل صدقها فقد قيل قلما تصدق الامنية ولكن قد يعتاض بها سلوة من هم أو مسرة برجاء وقد قال أبو العتاهية

حرك مناك اذا اغتممـ * ـت فانهن مراوح

وقال آخر

اذا تمنيت بت الليل مغتبطا * ان المنى رأس أموال المفاليس

ومنها الهموم التى تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتسع الاحتمال ولا تقوى على صبر وقد قيل الهم كالسم وقال بعض الادباء الحزن كالداء المخزون فى فؤاد المحزون وقال بعض الشعراء

همومك بالعيش مقرونة * فما تقطع العيش الا بهم
اذا تم أمر بدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم
اذا كنت فى نعمة فارعها * فان المعاصى تزيل النعم

وحام عليها بشكر الاله * فان الاله سريع النقم
حلاوة دنياك مسمومة * فما تأكل الشهد الا بسم
فكم قد دب في مهلة * فلم يعلم الناس حتى هجم

ومنها الامراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الاخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال وقد قال المتنبي

آلة العيش صحة وشباب * فاذا وليا عن المرء ولى
واذا الشيخ قال اف فما مل حياة وانما الضعف ملا
واذا لم تجد من الناس كفوًا * ذات خدر أرادت الموت بعلا
أبدا تسترد ما تهب الدنيا فيالت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدوث الهرم لتأثيره في آلة الجسد كذلك يكون تأثيره في أخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أثقال فكذلك تعجز النفس عن اثقال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضيق الشقاق وكذلك ما ضاهاه وقال منصور النمري

ما كنت أوفي شبابي كنه عزته * حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
أصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم * تشجي لغصته فالعذر لا يقع
ما كان أقصر أيام الشباب وما * أبقى حلاوة ذكراه التي تدع
ما واجه الشيب من عين وان رمقت * الا لها نبوة عنه ومرتدع
قد كدت تقضي على فوت الشباب أسى * لولا يعزيك أن العمر منقطع

فهذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاما وههنا سبب خاص يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذي تنفر منه النفس فتحدث نفورا على المبغض فيؤول الى سوء خلق يخصه دون غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

(فصل في كتمان السر) اعلم أن كتمان الاسرار من أقوى أسباب النجاح وأدوم أحوال الصلاح روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استعينوا على الحاجات بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه سرك أسيرك فان تكلمت به صرت أسيره وقال بعض الحكماء لابنه يا بني كن جوادا بالمال في موضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق فان أحمد جود المرء الانفاق في وجه البر والبخل بمكتوم السر وقال بعض الادباء من كتم سره كان الخيار اليه ومن أفشاه كان الخيار عليه وقال بعض البلغاء ما أسرك ما كتمت سرك وقال بعض الفصحاء ما لم تغيبه الاضالع فهو مكشوف ضائع وقال بعض الشعراء وهو أنس بن أسيد

ولا تفش سرك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا
فانى رأيت وشاة الرجا * ل لا يتركون أديما صحيحا

وكم من أظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آمنا وفى عواقبه سالما ولنجاح حوائجه راجيا وقال أنوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات واظهار الرجل سر غيره أقبح من اظهار سر نفسه لانه يبوء باحدى وصمتين الخيانة ان كان مؤتمنا أو النميمة ان كان مستودعا فاما الضرر فربما استويا فيه وتفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم وفى الاسترسال بابداء السر دلائل على ثلاثة أحوال مذمومة احداها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر وقال الشاعر

اذا المرء أفشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو أحمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذى يستودع السر أضيق

والثانية الغفلة عن تحذر العقلاء والسهو عن يقظة الاذكياء وقد قال بعض الحكماء انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون والثالثة ما ارتكبه من الغدر واستعمله من الخطر وقد قال بعض الحكماء سرك من دمك فاذا تكلمت به فقد أرقته واعلم أن من الاسرار ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره أمينا ان لم يجد الى كتمه سبيلا وليتحر فى اختيار من يأتمنه عليه ويستودعه اياه فليس كل من كان على الاموال أمينا كان على الاسرار مؤتمنا والعفة عن الاموال أيسر من العفة عن اذاعة الاسرار لان الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير من ماله حفظا له وضنا به ولا يرى ما أذاع من سره كبيرا فى جنب ما حفظه من يسير ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن أجل ذلك كان أمناء الاسرار أشد تعذرا وأقل وجودا من أمناء الاموال وكان حفظ المال أيسر من كتم الاسرار لان أحراز الاموال منيعة وأحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه القلوب أوعية الاسرار والشفاه أقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره ومن صفات أمين السر أن يكون ذا عقل صاد ودين حاجز ونصح مبذول وود موفور وكتوما بالطبع فان هذه الامور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الامانة فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب وقيل فى منثور الحكم قلوب العقلاء حصون الاسرار وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع اليه ويؤثر الوقوف عليه فان طالب الوديعة خائن وقيل فى منثور الحكم لا تنكح خاطب سرك وقال صالح بن عبد القدوس

لا تذع سرا الى طالبه * منك فالطالب للسر مذيع

وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعه وطريق الى الاشاعة لامرين أحدهما ان اجتماع هذه الشروط فى العدد الكثير معوز ولابد اذا كثروا من أن يكون فيهم من أخل ببعضها والثانى أن كل واحد منهم يجد سبيلا الى نفى الاذاعة عن نفسه واحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب وقد قال بعض الحكماء كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا وقال بعض الشعراء

وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفى

وقال آخر فلا تنطق بسرك كل سر * اذا ما جاوز الاثنين فاشى

ثم لو سلم من اذاعتهم لم يسلم من ادلالهم واستطالتهم فان لمن ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان أشد من ذل الرق وخضوع العبد وقد قال بعض الحكماء من أفشى سره كثر عليه المتأمرون فاذا اختار وأرجو أن يوفق للاختيار واضطر الى استيداع سر وليته كفى الاضطرار وجب على المستودع له أداء الامانة فيه بالتحفظ والتناسى له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له فى خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل ادلال اللئام وحكى أن رجلا أسر الى صديق له حديثا ثم قال أفهمت قال بل جهلت قال أحفظت قال بل نسيت وقيل لرجل كيف كتمانك للسر قال أجحد الخبر وأحلف للمستخبر وقال بعض الشعراء

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت * منه الضلوع على الاسرار والخبر

لكنت أول من ينسى سرائره * اذ كنت من شرها يوما على خطر

وحكى أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السر فقال ابنه

ومستودعى سرا تضمنت سره * فاودعته من مستقر الحشى قبرا

ولكننى أخفيه عنى كأننى * من الدهر يوما ما أحطت به خبرا

وما السر فى قلبى كميت بحفرة * لانى أرى المدفون ينتظر النشرا

(لابى الحسن البصرى الماوردى)

الباب الرابع فى المباحث الادبيه

(فى أن العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة)

والسبب فى ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع انما تكثر فى الامصار وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة لانه أمر زائد على المعاش فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف فى خاصية الانسان وهى العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته الى

العلم ممن نشأ فى القرى والامصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذى هو صناعى لفقدان الصنائع فى أهل البدو كما قدمناه ولا بد له من الرحلة فى طلبه الى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا فى اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من أمصار الاسلام ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق والولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها أو نصيب منها مع ما فيهم غالبا من الجنوح الى الخير والتماس الاجور فى المقاصد والافعال فكثرت الاوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها وارتحل اليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء . (من مقدمة ابن خلدون)

فضـــــــل الكتابه

ولما لم يكن عند اكثر العرب كتابة فى الجاهلية وكانت اذ ذاك أمة أمية جعل لها الشعر عوضا فادركت به مراما وغرضا أقيم عن الكتابة مقامها فابدت بمحفوظ الشعر كلامها وعرفت به انسابها وأيامها فكان أول من أدخل فى بلاد العرب الكتابة العربية هو سيدنا اسماعيل فاختص بهذه الفضيلة الاولية وأول من أدخل الكتاب العربى أرض الحجاز هو حرب بن أمية أو سفيان بن أمية فتشبثوا بالحقيقة وساعدتهم على الحجاز يعنى فازوا بالصناعتين واتسعت تجارتهم بالبضاعتين وقس على منفعة الخط فى البلاد المنظمة غيره من الفنون والصناعات التى أكسبت جميع البلاد المجد والعظمة مع ما يفيد المال الصالح للرجل الصالح فانه لا تصلح الفعال الا بالاموال من الحلال والاموال لا تكون الا بالكسب من وجه من وجوه الصنائع المعاشية لتعين على المعادية فلا أحسن ممن يكسب المال من حله ويصرفه فى محله ويكف به وجهه عن الناس فالفنون التى هى وسائل ذلك ليس عنها مندوحة وهى فى الشرع ممدوحة فلا مانع من دخولها تحت قوله صلى الله

عليه وسلم أو علم ينتفع به أي نفعا متصلا دائم الثواب فالحديث الشريف في قوله أو علم ينتفع به شامل لتعليم المعارف النافعة سواء كانت علوما أو فنونا أو صناعات أو آلات فانها لا تخلو عن مدارك علمية وشامل أيضا لاجتهاد المجتهدين ووضع الواضعين وتدوين المدونين وللتصنيف والتدريس وغير ذلك فالعمدة على العمل الذي ينشأ عنه معلومات نافعة لاهل الملة والوطن والناس أجمعين ويدل على ذلك ماورد في رواية أخرى اذا مات ابن آدم ختم على عمله الا عشرة فذكر هذه الثلاثة وزاد غرس النخل ووراثة المصحف والرباط في الثغر وحفر البئر واجراء النهر وبناء البيت للغريب وبناء مسجد لله تعالى وتعليم القرآن فهذا يفيد أن الصدقة الجارية يدخل فيها جميع ماذكر كما بيناه أولا وتعليم القرآن ووراثة المصحف يدخلان في العلم المنتفع به وان الثلاثة المذكورة ليست حاصرة فلا مانع أن يقاس على التعليم كتابة الكتب وطبعها ممن يأمر بذلك أو يباشره أو يعين عليه أو من يدل عليه حيث كان الدال على الخير كفاعله فكل من سن سنة حسنة دائمة النفع فهي داخلة في العلم النافع يدل على ذلك ماورد عنه عليه الصلاة والسلام في قوله من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فالمؤمن الغارس غرسا حسيا أو معنويا يحصد ثمره ثمرا حلوا حسيا أو معنويا فغرسه لا يثمر شوكا مادام ملازم الاخلاص فقاصد النفع العمومي يثاب ثواب الخواص وحصر الامام السيوطي للمستثنيات من انقطاع العمل فيما هو مذكور في النظم الآتي وهو

اذا مات ابن آدم جاء يجري * عليه الاجر عد ثلاث عشر
علوم بثها ودعاء نجل * وغرس النخل والصدقات تجري
وبيت للغريب بناه يأوي * اليه أو بناء محل ذكر
ووراثة مصحف رباط ثغر * وحفر البئر أو اجراء نهر
وتعليم لقرآن كريم * شهيد في القتال لاجل بر
كذا من سن صالحة ليقضى * فخذها من أحاديث بشعر

مطلب الترغيب في حب الوطن

ارادة التمدن للوطن لا تنشأ الا عن حبه من أهل الفطن كما رغب فيه الشارع ففي الحديث حب الوطن من الايمان قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمر الله البلاد بحب الاوطان وقال علي كرم الله وجهه سعادة المرء أن يكون رزقه في بلده وقال بعض الحكماء لولا حب الوطن لما عمرت البلاد الغير المخصبة وقال الاصمعي دخلت البادية فنزلت على بعض الاعراب فقلت له أفدني فقال اذا أردت ان تعرف وفاء الرجل وحسن عهده ومكارم أخلاقه وطهارة مولده فانظر الى حنينه لاوطانه وشوقه الى اخوانه قال الشاعر

وحبب أوطان الرجال اليهم * مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكرت أوطانهم ذكرت لهم * عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
ولى موطن آليت أنى أعزه * وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا

(وقال آخر)

بلد صحبت به الشبيبة والصبا * ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثل فى الضمير رأيته * وعليه أغصان الشباب تميد

(وقال آخر)

اذا أنا لا أشتاق أرض عشيرتى * فليس مكانى فى النهى بمكين
من العقل أن أشتاق أول منزل * غنيت بخفض فى ذراه ولين
وروض رعاه بالاصائل ناظرى * وغصن ثناه بالغداة يمينى
وانى لأنسى العهود اذا أتت * بنات الهوى دون الخليط ودونى
اذا أنا لم أرع العهود على النوى * فلست بمأمون ولا بأمين

والمراد ببنات الهوى بنات الدهر أى حوادثه فالوطن محبوب والمنشأ مألوف حتى لغير المتمدن بل يقال ان البادى الجبلى يتعلق بحبال جبال أوطانه ويعلق بأذيال باديته ولا تعلق الحاضر بمدينته وحاضرته بحيث لا ينتقل الجلف من باديته الا لانتجاع فى الفلوات ويستسهل خرط القتاد ويرى عزه فى الصحارى التى ألف طبعه سكنى خيامها وتريض عقله عليها واعتاد كما يدل لذلك ما حكى عن ميسون بنت بحدل أنها لما اتصلت بمعاوية رضى الله عنه ونقلها من البدو الى الشام كانت تكثر الحنين على ناسها والتذكر لمسقط رأسها فسمعها ذات يوم وهى تنشد

لبيت تخفق الارواح فيه * أحب الى من قصر منيف
وأكل كسيرة فى كسر بيتى * أحب الى من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج * أحب الى من نقر الدفوف
ولبس عباءة وتقر عينى * أحب الى من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق حولى * أحب الى من قط ألوف
وبكر يتبع الاظعان صعب * أحب الى من بغل زفوف
وخرق من بنى عمى نحيف * أحب الى من علج عنيف

فلما سمع معاوية الابيات قال ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتنى علجا من علوج العجم فالعربى كثير التعلق بباديته فلا يتمدح الا بها كما قال بعضهم

هذا أبو الصقر فردا في محاسنه * من نسل شيبان بين الضال والسلم

والضال والسلم من أشجار البوادي ذوات الشوك فأشار الشاعر بذلك الى ما يتمدح به العرب من سكنى البادية لان العز عندهم مفقود في الحضر فكان العظيم منهم بين الضال والسلم أشهر من نار على علم أو أنه من البعد عن الهضم والضيم شمس أو قر بلا غيم بخلاف المتمدن فانه يكثر التنقل ولكن في الحقيقة تنقله ثمرة من ثمرات التمدن مرتفعة تعود على الوطن بالمنفعة ولا نظر الى من حصل له ذل وهوان فرغب بذلك عن الاوطان كما قال الشريف الرضي

ما لي لا أرغب عن بلدة * يكثر فيها الدهر حسادي
ما الرزق في الكرخ مقيما ولا * طوق العلا في جيد بغداد

وقال بعض أمراء الحرمين

قوض خيامك عن أرض تهان بها * وجانب الذل ان الذل مجتنب
وارحل اذا كانت الاوطان منقصة * فالمندل الرطب في أوطانه حطب

فقد يذم الوطن من واحد ويمدح من آخر بحسب حال المتوطن فقد مدح الشريف المرتضى بابل وتشوق اليها بقوله

ألا يا نسيم الريح من أرض بابل * تحمل الى أهل الخيام سلامي
واني لاهوى أن أكون بأرضهم * على أنني منها استفدت مقامي
وقد كنت كالعقد المنظم منهم * فها أنا ذا سلك بغير نظام
أبات أرجي أن يلم خيالهم * وكيف يزور الطيف دون منامي
فلا برق الا خلب بعد بينهم * ولا عارض الا بياض جهام

وخالف ذلك شرف الدين البيهقي حيث قال

أبابل لا واديك بالبر مفعم * لدي ولا ناديك بالرحب آهل
لئن ضقت عني فالبلاد فسيحة * وحسبك عارا أنني عنك راحل
وان كنت بالسحر الحرام مدلة * فعندي من السحر الحلال دلائل
قواف تعير الاعين النجل حسنها * فكل مكان خيمت فيه بابل

وقال آخر يخاطب أحد الملوك

ان تكرموني فاني غرس دولتكم * فما بقيت فطواع ومذعان
وان أهنتم فأرض الله واسعة * لا الناس أنتم ولا الدنيا خراسان

وقال آخر فى حق مصر

لم لا أدين كبارهم * وصغارهم تيها وكبرا
ما النيل من ماء الحيا * ة ولا جميع الارض مصرا

فهذا قول المغلوب وكلام مهجور الوطن لا المحبوب وأحسن من ذلك قول من تغرب وأصيب فى الغربة بداء حب وطنه وتجرب

وبلدة قد رمتنى * بكل داء عنادا
ولو رجعت لاهلى * كانت بلادى بلادا

ويكفى فى حب الوطن أن كراهة الاجلاء منه مقرونة بكراهة قتل الانسان نفسه فى قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه (ومما يحكى) ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر ليلا فى المدينة فسمع امرأة تقول

هل من سبيل الى خمر فأشربها * أم هل سبيل الى نصر بن حجاج

أى الى وصله لانه كان حسن الصورة وهو من بنى سليم فدعاه عمر فرآه أحسن الناس وجها وله شعر حسن خلق شعره فكان أحسن الناس بلا شعر فقال له أمير المؤمنين لا تساكنى فى بلدى فتشفع نصر اليه أن لا يخرجه من المدينة فلم يقبل عمر رضى الله عنه فلما ودعه نصر قال له يا أمير المؤمنين سمتنى قتل نفسى فقال عمر كيف ذلك فقال قال الله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه فقرن هذا بهذا فقال ما أبعدت يا نصر لكن أقول ما قال شعيب ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله وقد أضعفت لك يا نصر عطاءك ليكون ذلك عوضا لك ومن أحسن ما قيل فى حب الاوطان قول الصقلى

ذكرت صقلية والأسى * يهيج للنفس تذكارها
فان كنت أخرجت من جنة * فانى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا * حسبت دموعى أنهارها

وصقلية جزيرة بايطاليا المسماة الان سيسيليا كانت فى يد الاسلام زمنا طويلا ويناسب هذا قول من قال

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى * ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل فى الارض يألفه الفتى * وحنينه أبدا لاول منزل

وما أحسن قول بعضهم

على لربع العامرية وقفة * ليملى على الشوق والدمع كاتب
ولى مذهب حب الديار لاهلها * وللناس فيما يعشقون مذاهب

وقال آخر

وقائلة ماذا وقوفك هـــــهنا * ببرية يعوى من العصر ذيبها
فقلت لها قلى الملامة وانصفى * هوى كل نفس حيث حل حبيبها

وحسب المؤمن بحب الوطن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة علا مطيتـه واستقبل الكعبة وقال والله لأعلم أنك أحب بلاد الله الى وأنك أحب أرض الله الى الله تعالى عز وجل وأنك خير بقعة على وجه الارض وأحبها الى الله تعالى ولولا أن أهلك أخرجونى منك لما خرجت وبالجملة فحب الاوطان على عظم الحسب وكرم الادب أبهى عنوان وهو فضيلة جليلة لا يؤدى حق الوفاء بها الا من حاز الشمايل النبيلة ولا تعين عليها الا الهمم العلية والعزائم الملوكية التى تقلد أعناق الامة حلى المنة والنعمة فتبعثهم على التشبث بالاوطان والتعلق بأذيال الاخوان والخلان لا سيما اذا كان الوطن منبت العز والسعادة والفخار والمجادة كديار مصر فهى أعز الاوطان لبنيها ومستحقة لبرهامنهم بالسعى لبلوغ أمانيها بتحسين الاخلاق والآداب من جهتين عظيمتين (الاولى) انها أم لساكنيها وبر الوالدين واجب عقلا وشرعا على كل انسان (الثانية) انها ودود ولود بارة بهم مثمرة للخيرات منتجة للبرات فبرها يعود على أبنائها بثمرته وترجع اليهم فائدته ويحسن الصنيع تتضاعف الفوائد العوائد أضعافا مضاعفة وكلما تحسنت جهات العمران أهاليها حسنت أيضا الثمرات لطالبيها فاذا كانت لا تحرم من ثمرات مصر الاجانب فبالاحرى أن تتمتع بها الاقارب ففى الاثر من أعيته المكاسب فعليـه بمصر وعليه بالجانب الغربى منها (ويروى أيضا) قسمت البركة عشرة أجزاء تسعة فى مصر وجزء فى الامصار كلها ولا يزال فى مصر بركة ما فى الارضين كلها وقيل فى تفسير قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها أن المراد بمشارق الارض ومغاربها أرض مصر وقال عليه الصلاة والسلام مصر خزائن الارض والجيزة غيضة من غياض الجنة ذكر هذا الحديث صاحب المفاخرة بين مصر والشام

(مناهج الالباب)

المنفعة العــــــموميه

هى ولا مداجاة فى الحق قوام العمران وسر نظام الاجتماع الانسانى وطريق تقدم المدنية لا تقوم بدونها سعادة ولا تتم مع عدمها حضارة ترتقى الامم بتمسك أفرادها بها وتنحط باعراضهم عنها أرأيت لو أهمل الانسان جانبها وصرف عنان عنايته عنها مكتفيا بالاشتغال بمصلحته الذاتيـة ومنفعته الشخصية لا يهمه غير نفسه ولا يعنيه سوى أمره ان سلم فعلى الدنيا السلام أو مرض فلا يرى أحد من الانام هل تبقى بين الناس صلات أو يقوم اتحاد على عمل مفيد ومشروع حميد

هل يمكن أن يكون لامة جند منظم يردّ عنها طوارق الاعداء ويبذل روحه فى مواقف الكفاح صونا لشرفها وحياطة لحوزتها ويفتح لها البلدان ويقوم بكبح جماح أهل العصيان طلبا لتأييد منعتها وتقوية شوكتها واعلاء كلمتها لولم تكن قلوبهم مشربة حب المنفعة العمومية

أم هل يمكن أن يكون لها من أمرائها ووزرائها وجالس أعيانها ساسة يدبرون أمرها ويرفعون قدرها يجهدون أفكارهم فى تحسين مستقبلها ويكدحون فى توسيع نطاقها مع أنهم يتيقنون أنهم رجال لن يتمتعوا باجتناء ثمار تدبيرهم لبعد أجله عنهم وكان يمكنهم لو كانت المنفعة الشخصية عنايتهم أن يتفرغوا لادارتهم الخاصة واستيفاء لذائذهم وادراك أوطارهم ولاسيما أصحاب الثروة الواسعة منهم

أم هل يمكن اذا لم تكن للمنفعة العامة حقيقة تقصد أن تعانى العلماء مشاق الاسفار وتقحم الاخطار فى البحث على أثر يشاهدونه أو خبر يروونه أو علاج يجربونه أو مظنون يحققونه وقد يتوقعون على أموالهم وأنفسهم اتلافا فى غضون أبحاثهم واختباراتهم ويقدمون بعد ذلك عليها طمعا فى حقيقة تنكشف للخالفين ومخبوء يظهر للتالين

حب المنفعة العمومية رأس الفضائل وأس الخلال الحميدة ولو ربى الناشؤن مناعليه وتعودوه من الصغر لما تعاقبت علينا الصروف الفادحة وألمت بنا النوائب الموهنة التى منها انتشار السرقة فى البلاد والعيث بين العباد رغما عن معاملة الحكومة لهم بالشدة وارهاف الحد

ومنها ظهور داء الرشوة على أيدى كثير من المستخدمين وهو داء عضال اذا لم يستأصل العضو المصاب به بالقطع فسد جسم الديوان الذى فيه هذا العضو واختل نظامه وتوقف قضاء أى مصلحة فيه على الدينار ولو كان قضاؤها من آكد الواجبات

ومنها التكاسل فى الاعمال الخطيرة والتهاون فى الامور العظيمة والانخذال فى مواقع القتال وتفرق قلوب الرجال وذهاب كل فى مجال وفقد عروة الارتباط بين أفراد الامة وسوء الادارة وغير ذلك مما يطول شرحه ولا يندمل جرحه كل ذلك لم ينشأ الا من حب المنفعة الخاصة والوقوف عند حدها

أين نحن ممن يخوضون غمار البحار يقيسون أعماقها ويكتشفون جزائرها وما بها من الحيوان والنبات ويخترقون مجاهل الارض كاواسط أفريقية ودواخل أرض الصين وأطراف الجهات القطبية شغفا بتوسيع المعارف وتقرير الحقائق أين نحن ممن وقفوا أنفسهم على تبيين أسرار الكائنات التى تحقق لنا بها حكمة الحكيم فى قوله (خلق لكم ما فى الارض جميعا) فاخترعوا الآلات التى يحصل بها الانسان نتيجة ألوف ممن لا يعملون بها واهتدوا الى استنباط القوانين الكلية التى باتباعها يؤمن من الوقوع فى الخطا فى الجزئيات

وما كل من قام بذلك كان مأجورا ومنتظرا من الناس منفعة ذاتية حتى يتوهم أن منفعته الذاتية هى التى قادته الى مواصلة الاتعاب وألجأته الى الولوج فى هذا الباب لان كثيرا من أصحاب الآثار العظيمة كانوا يفقدون فى سبيلها ثروتهم غيرطالبين عنها بديلا وربما كانوا يبذلون جاههم وحياتهم وأنت تعلم أنه لاشئ عند طالب المنفعة الخاصة أرفع منها

هذا ديوجينس الكلبى الفيلسوف اليونانى كان يصدع بحكمته وآرائه ولا يبالى بالسخرية بالامراء والعلماء ولا بخرقه اجماع أهل عصره على خلاف مايرى حتى رمى بالجنون وعومل بالهون

توجه اسكندر ذات يوم الى مدينة قورنته ليرى ديوجينس هناك فرآه جالسا فى الشمس بجانب برميله الذى كان أعده للبيت فيه فى الليل وكان اذا أراد الانتقال الى مكان آخر حمله اليه فلم يعبأ باسكندر فدنا منه وقال له أما تخافنى ياديوجينس أنا الملك اسكندر فقال له أأنت خير أم شر فقال له اسكندر بل خير فقال اذن لا أخاف فعجب منه وقال له اقترح على ماتشاء أقضيه لك فقال له تذهب من امامى فقد حجبت عنى ضوء الشمس وقطعت لذتى بها فصار اسكندر فى غاية العجب لما رآى من هذا الفيلسوف

والخليل ابن احمد الفراهيدى مؤلف كتاب العين فى اللغة وشيخ سيبويه امام النحويين اجتنب الناس مدة وأخذ يتأمل فى أشعار العرب حتى اهتدى الى اختراع علم العروض فدخل عليه ابنه مرة فوجده يقطع بيتا من الشعر فذهب الى خارج البيت وقال أبى قد جن فى هذا اليوم فاعتقد الناس ذلك والخليل لم يكترث حتى أتم استنباطه فخرج اليهم وأفادهم بهذا العلم

ومحيى الدين ابن العربى صاحب المؤلفات الشهيرة كان يذيع تعاليمه بين الناس ومنها مالا يوافقون عليه فقتلوه والشواهد فى هذا المقام كثيرة فلو كان هؤلاء الرجال يبغون المنفعة الخاصة ماتعرضوا لمخالفة أهل عصرهم ومنابذتهم فى آرائهم فيا أيها المشغوفون بذاتهم العاملون على لذاتهم أى مجد للانسان اذا لم تتعد آثاره وأى خير فيه اذا اقتصرت مزاياه على نفسه ولم ينتفع به بنو جنسه وأى فضل له فى حبس آثاره فى صحن داره

اذا ماقضيتم ليلكم بمنامكم * وأفنيتمو أيامكم بمدام
فمن ذا الذى يغشاكمو فى ملمة * ومن الذى يلقاكمو بسلام

هبوا أنكم أوتيتم حكمة لقمان وفصاحة داود ومال قارون وجمال يوسف وقوة عوج وعمر نوح ولم يشرككم فى هذه النعم أحد فأى فائدة للدنيا من وجودكم وأى ذكر لكم يبقى بعد مماتكم

خلقوا وماخلقوا لمكرمة * فكأنهم خلقوا وماخلقوا

ولا يقال ان من يعمل ليخلد في التاريخ اسمه يقصد منفعة شخصية وهو التمتع بسماع الشكر وحسن الذكر لان هذا التمتع لا يدرك منه شئ بعد الممات وهو في الحياة قلما يجتنى ثمره كثيرا ما علمنا بمن بذل الالوف سرا وأجرى الخيرات مختفيا لا يريد جزاء ولا شكورا ولم يبعد عنا نبأ الرجل الامريكي الذي قدم مصر حديثا ووزع الاموال الجمة على بعض الجهات الخيرية وشرط على أهلها أن لا يقلقوه بالاطراء أو يقطعوا راحته بالثناء

ان من جعل غايته مصلحته الذاتية ثارت فيه الشرور وهاجت عنده الشهوات وانما تستر عن العيون بستار العجز وحجاب الضعف ومتى أسعده الامكان عكف عليها ومال اليها بخلاف من اتجه وجهة المنفعة العامة فان الفضائل تمتزج بلحمه ودمه ويحلو له مصافحة الحسنات ومكافحة السيآت ولو نافرته الايام وعاندته الزمان وكل ميسر لما خلق له (حفني افندي ناصف)

(مطلب تعميم أبناء الوطن في مكارم الاخلاق بدون تفرقة ولا نظر للاختلاف في الدين)

قد حث صلى الله عليه وسلم على حسن المعاشرة والملاطفة والتعاون في الخير بقوله وكونوا عباد الله اخوانا يعني يا عباد الله كلكم خلق الله قد أخرجكم من العدم لحكمة انتظام العالم وتكثير منافعه فاكتسبوا ما تصيرون به اخوانا في المودة وقد أمركم بما تقدم ذكره وأنتم عبيده فحقكم أن تطيعوه وتتعاطوا أسباب ما تصيرون به اخوانا للتعاضد على اقامة دينه واظهار شعائره وانتظام ملكه وهذا انما يكون بائتلاف القلوب وتواطئ الكلمة كما يفيده قوله تعالى هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم الآية ثم ان اخوة العبودية التي هي التساوي في الانسانية عامة في حقوق أهل المملكة بعضهم على بعض التي هي حقوق العباد وهناك حقوق العبودية الخاصة التي هي الاخوة الاسلامية وهي اكتساب ما يصير به المسلمون اخوانا على الاطلاق من أداء حقوق بعضهم على بعض كرد السلام وابتدائه وتعليم الاحكام الشرعية ونحو ذلك من شعب الايمان فهذه هي التي أشار لها صلى الله عليه وسلم بقوله المسلم أخو المسلم يعني أخوة دينية لانهما يجمعهما دين واحد وهي أعظم من الاخوة الحقيقية وقد قال الله تعالى انما المؤمنون اخوة وفي الصحيحين مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وروى أبو داود المؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه ورواية الترمذي ان أحدكم مرآة أخيه فان رأى به أذى فليمطه عنه أي يبعده عنه ولا مانع أن يعم في مكارم الاخلاق جميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن منها يجب على أعضاء الوطن في حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الاخوة الوطنية فضلا عن الاخوة الدينية فيجب أدبا لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن واعظامه وغناه وثروته لان

الغنى انما يحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية وهى تكون بين أهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعا عزية النخوة الوطنية فتى ارتفع من بين الجميع التظالم والتخاذل وكذب بعضهم على بعض والاحتقار ثبتت لهم المكارم والمآثر ودخلت فيما بينهم السعادة بكسب شعائرها ومآثرها فلذلك بين عليه الصلاة والسلام قوله المسلم أخو المسلم بقوله لا يظلمه أى لا يدخل عليه ضررا فى نحو نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله لان ذلك قطيعة محرمة تنافى الاخوة (مناهج الالباب)

(فى طباع العرب وأخلاقهم وانقسامهم الى قبائل)

قال المؤلف هردران العرب فى قديم الزمان أعنى فى زمان الجهالة الذى يطلقونه على الاعصر الاول من تاريخهم كانوا منتشرين خلف بحيرتهم وكانوا قد أسسوا ممالك صغيرة فى العراق والشام وكانت بعض قبائل منهم تسكن بوادى مصر وكان الحبش من نسلهم وكان جميع الصحارى التى فى أفريقة ارثا لهم ولما كانوا منفصلين عن أعلى شمال آسيا برمال كالجبال وآمنين من دهمات الملوك الفاتحين لم يكن شئ يضر بحريتهم ولا بالتكبر القائم بهم من حيث جلالة أصلهم وشرف عائلة آبائهم الاول وشهامتهم التى لا تغلب ومن حيث لغتهم التى لم تزل باقية على نقائها وحالتها الاصلية وزيادة على ذلك انهم لما كانوا ساكنين فى مركز تجارة الجنوب والمشرق كانت تنعكس اليهم أنوار معارف جميع من جاورهم من الامم ويشتركون معهم فى اجتهاد تجارى قد جعلها حسن وضعهم فى ذلك المركز طبعا لهم فبناء على هذا قد وجد فيهم من النشأة الاصلية نوع ممارسة عقلية لم يظهر مثلها فى سكان جبال أورال ولا جبال التاى وبذلك حدث فى لغة العرب التى هى لطيفة وبسيطة العبارات المجازية والحكم التهذيبية قبل تفكرهم فى كتابتها بزمن طويل وكان على جبلهم المسمى بطور سينا نزول ألواح الشريعة للعبرانيين وقد سكنت هذه الامة التى بعث اليها موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام مع قبائل العرب فى أغلب الازمان

وكان قدماء العرب يحافظون على أخلاق أجدادهم النبوية ولكنهم قد تغيرت طباعهم بعد ذلك فصاروا سفاكين للدماء مسترسلين فى الساحرات معتقدين الاوهام الكاذبة ذوى ثورة وشدة ميل الى المعتقدات الاخر والاباطيل وكأنهم قد وهبوا شبيبة مؤيدة واقتدارا على فعل أعظم الامور متى غلبت عليهم فكرة سامية فهم وان كانوا ذوى حرية وكرم وعزة نفس الا أنهم سريعو الغضب أقوياء الجراءة فترى فى الواحد منهم صفات الفضائل والرذائل التى عليها أمته واضطراره الى أن يستحصل بنفسه على ما يحتاجه من الضرورات المعاشية جعله كثير السعى والجهد وهو صبور لتعوده على المتاعب المتنوعة التى هو مجبور على تحملها وهو يحب الاستقلال حتى كأنه هو الخير الوحيد

الذى قدمن عليه بالتمتع به ولكنه كثير المشاجرة كراهية فى مطلق التحكم عليه وحيث كان صعب المعاملة مع نفسه كان قاسى القلب شديد الحرص على الانتقام فى أغلب الاحيان

ولقد أوزعهم جميعا اشتراكهم فى المستقر والطباع حمية واحدة فى شرف النفس ففخارهم بالسيف واقراء الضيف وفصاحة اللسان بل كان السيف هو الكفيل الوحيد باثبات حقوقهم وكان اقراء الضيف معتبرا فى ظنهم انه القانون الجامع لقوانين الانسانية وكانت الفصاحة لعدم معرفتهم بالكتابة تستعمل فى فصل المخاصمات التى كانت لا تنهيها المحاربات

وأما انقسام العرب الى قبائل فهو أيضا نتيجة من نتائج معيشتهم البدوية وكانت العوائد الجارية لديهم تقوم مقام القوانين الشرعية وكانت عائلة تجتمع حول كبير يكون حكمه عليهم دائما كحكم الاب على أبنائه لثبوت حق الارشاد به له وكانوا يسمون الرئيس شيخا أو سيدا وكانت العائلات الاصلية فى العرب أشبه شئ بعائلات أشراف قدماء الرومان وعائلات أشراف بلاد أوروبا وكان على جميع المشايخ شيخ أعلى منهم رتبة فكان يعتبر قائد جيشهم القليل العدد ويلقب بعض الاحيان بالامير (أى حاكم تلك الاحياء أو ملكها) ولكن كان حكمه مقيدا جدا بل لم يكن ينجو من الاقتصاص منه بمثل جنايته (١)

وكان موكلا على جميع مصالح العائلات الا انه كان لا يقدر على تمييز مصلحة نفسه من مصالحها الان القبيلة عائلته ومنسوبة اليه فهو وان كان الامير الذى يبت الحكم بنفسه فى جميع الدعاوى العظيمة الا أنه كان لا بد له من أن يصغى الى آراء المشايخ قبل بت الحكم فكانت جميع القبائل منتظمة على هذا النسق وربما كانت تجتمع عدة قبائل مع بعضها فتكون قبيلة واحدة وفى هذه الحالة يكون حق الحكم لشيخ أقواها شوكة وكثيرا ما كانت القبائل التى ترى وسائل عيشتها قد نفدت بالحرب المشؤمة تنتقل وتختلط بقبيلة أخرى ذات اقتدار على حمايتها وبكثرة هذه المخالطات والمواخاة يتضح كون كثير من أسماء القبائل لم يبق ذكره الى الان

ومادامت الامة العربية آلفة للعيشة البدوية لم يغير تنظيم قبائلها الذى هو النتيجة المتولدة من نفس تلك المعيشة أدنى تغيير بل لم يزل ذلك الانتظام باقيا على ما كان عليه وان كان قد تنوع فى الجملة فاى محل من بلادهم أنشئت فيه مدائن صار حكم المشايخ فيه مطلق التصرف غير أن القبيلة التى لم تدخل المدينة لم تزل كما كانت فى الايام الاول معتبرة كالعنصر الحقيقى لتلك الجمعية التأنسية (أى سكان المدن التى تشتاق النفوس الى الوقوف على حقيقة حالها)

---

(١) راجع كتاب الابحاث الجديدة فى تحقيق التاريخ القديم تأليف ولنه (بضم الواو وسكون اللام) والمجلد العاشر من تاريخ انحطاط السلطة الرومانية تنوزوالها تأليف موسيو جيبون (بكسر الجيم الفارسية وتشديد الياء العربية)

(فى ميل العرب الى الوحدة السياسية وفى تجمعهم بسوق عكاظ وفى منازلاتهم بقصائد الشعر)

أقول كان هنالك عدة أسباب تستوجب حصول اتحاد العرب مع بعضهم بالفعل السبب الاول اشتراكهم فى الاصل مع عدم ما كان بين الاسماعيليين والقحطانيين من منافسة المعاصرة واستلزام اغارة نجاشى الحبش للتأليف بين هاتين العائلتين العظيمتين حتى لم يبق لصيرورتهما تحت لواء واحد الا شئ يسير والسبب الثانى اتحادهم فى الاخلاق والعوائد فكانوا جميعا متمسكين باوهام العبادة الوثنية الباطلة وبالعوائد الجاهلية العتيقة ماعدا بعض قبائل يهودية أو نصرانية فاما عادة الختان فكانت عامة عندهم وكان عند جميع القبائل تقريب الازواج لموت بعضهم قربانا ومعاملة النساء معاملة الرقيق واباحة تعدد الزوجات ودفن البنات وهن على قيد الحياة بيد آبائهم الفقراء اذ كانوا يخشون من تدنيس أعراضهم ذات يوم وكان عندهم تكبر وحشى لكن مع افراط فى حب شرف النفس فكانت هذه التصورات وتلك العوائد التى من شأنها احداث البسالة والبطلية الحماسية توزعهم الشجاعة والكرم وتحملهم على المحاماة عن المظلوم نيابة عن الشرع وعلى تقديم الوفاء بما يعدون به على الحياة وكان عند هؤلاء العرب أيضا حب الانتقام والافراط فيه وقانون المقاصة النافذ على الجميع والاحتياج الى المساواة وجواز النهب والسلب من بعد الانتصار واقامة الشطارة والقوة مقام الحق وكان عندهم أيضا اقراء الضيفان مع تحبيب حرمان أنفسهم وشدة التشوق الى الصيت والسمعة بين القبائل وهو السبب الذى يحمل صاحبه على فعل أجمل الافعال وعلى ارتكاب أعظم الجنايات والآثام فهذه الخصال هى صورة ما كان يشاهد فى بلاد العرب وأما شهوات نفوسهم فكانت أكبر تلك الخصال غلبة وظهورا فيمكن أن نستنبط من ذلك انه متى اتجهت عقولهم الهائجة المخاطرة الى شئ وحيد ووثبت اليه وثبة واحدة لا يصدها عنه شئ وكان وصولها الى هذه الغاية مستلزما أيضا لسبق شرطين الاول الاتحاد فى اللغة والثانى وحدة الدين فاما الاول فكان بعضه موجودا فيهم وبيان ذلك أن العرب لما كانوا منقادين الى غرائزهم دون غيرها كان ذلك مهيئا لاختلاط لغات قبائلهم العديدة ببعضها وصيرورتها لغة واحدة ولما كانوا ذوى غيرة على ايصال أعمالهم العجيبة ومآثرهم الى ذراريهم كانوا يحبون الاشعار حيث رأوها الوسيلة فى توصيلها اليهم يريدون بذلك أن ينشر فخارهم ومجدهم فى جميع جزيرة العرب الا أن كلام مؤلفى نجد والحجاز لم يكن يفهمه مؤلفوا الكلام بارض اليمن بل لم تتفق قبائل البلاد الواحدة على لغة واحدة وكان شعراء العرب هم الذين وكل اليهم اختراع لغة أعم من تلك اللغات وبرواية أشعارهم فى كل جهة تعينت الالفاظ المعدة للدلالة القطعية

على الافكار والتصورات ومتى كانت عدة عشائر تستعمل عبارتين مختلفتين للدلالة على فكرة واحدة كانوا يختارون منهما ما اختاره الشاعر في ذلك المقام وبهذه المثابة تكونت اللغة العربية بالتدريج وقد فهموا مع ذلك فوائد التمدن فصاروا يقابلون الابتكارات العقلية بالاعتبار الواجب الذي لم يكونوا يسمحون به الى ذلك الزمن الا للنصرات القوة البدنية فانشؤا جمعيات عامة كانوا يستفيدون منها التعارف والتحاب ولم تكن حقيقة تلك الجمعيات التي كانت تعقد في عكاظ وهي مدينة صغيرة بين الطائف ونخلة على بعد ثلاث مراحل من مكة وفي المجنة وذي المجاز خلف جبل عرفات (١) الا مجالس حافلة للمفاخرة والمفاضلة بالشعر لا غير وبالجملة فلم يكن فيها شئ من التحكم على النفوس فضلا عما كان فيها من السذاجة فانها كانت تعقد كالالعاب والمواسم الاولمبية في قديم الزمان ببلاد اليونان فكان يقوم شجاع ويمشي مشي المتكبر أمام جمعية صامتة جامعة لافكاره وليس عليه شئ من العلامات الدالة على جلالة قدره ولا شئ من الزينة الدالة على علو رتبته ومع ذلك كانت جميع الابصار تشخص اليه فيقف على عال من الارض وينشد قصيدة كاملة على الحاضرين بصوت رخيم رنان من غير استعانة بشئ غير الالهام أو روية حافظته الواسعة الاقتراح فكان تارة ينشد أعماله العظيمة ووقائعه الجسيمة وشرف قبيلته وطورا يصف لذائذ الانتقام وتارة لطائف اكرام الضعيف وطور الشجاعة وفي كل لا يغفل عن مدح شرف النفس والعرض وكان في بعض الاحيان يقتصر على وصف عجائب الاكوان المشاهدة والعزلة عن الناس في الصحراء والواحات المشتهاة جدا وخفة عدو الظباء وكان السامعون لا ينظرون الا الى فمه ويستحسنون جميع الاخلاق والسجايا التي يود أن يوزعهم اياها وكان يرتسم على وجوههم المتسمة بالانتباه ما يقع بنفوسهم من الاستحسان للبطل الصبور في منازلة الخصم ومن الاحتقار للجبان في المنازلة ولم يكونوا يدارون قط ما قام عندهم من استحسان أو استقباح فكان الشاعر اذ ذاك اذا شهدوا له يقترح أبلغ مما أبداه ويعود الى انشاد الشعر بحماس جديد ولما كان شعراء العرب متصفين باعتماد وسند لا يماثلهم فيه أحد كانوا هم المدونين لتاريخ بلادهم قبل بعثة النبي محمد عليه الصلاة والسلام ولما كانوا هم أصحاب الرأي السديد كانوا يعلون ويخفضون كما يستصوبون

(١) راجع صحيفة ٩ وصحيفة ١٥ من كتاب ايكرن المسمى بتاريخ آثار العرب القديم وصحيفة ٤٥ من كتاب اسماني المسمى بالبحث عن أصول العرب وكلمة عكاظ في قاموس اللغة العربية تأليف الفيروزابادي وصحيفة ٧٦ من ترجمة رسموسن لذيل تاريخ شهاب الدين أحمد النويري في أخبار العرب وصحيفة ٢٥٥ من المجلد الرابع من الاغاني وصحيفة ٢٩٦ من المجلد الاول من كتاب مراصد الاطلاع الذي ذكره كوسين دو برسوال في مصنفه وكذلك راجع تاريخ العرب قبل ظهور النبي محمد عليه الصلاة والسلام الذي ألفه روهل دوليلينسترن وكان طبعه في مدينة لوندره سنة ١٨٣٦ ميلاديه

شأن القبائل المختلفة ومن ثم كانوا مخوفين ومحترمين عند الجميع فاما ما اقترحوه من قصائد الاشعار فكان ما يقبل منه بعكاظ يكتب بالذهب على نفيس القماش ثم يعلق على الكعبة ليحفظ حتى تطلع عليه الذرية المستقبلة

ولله درهم في احداث هذه الكيفية لحفظ ما استحسنوه من القصائد فقد أوصلت الينا السبع قصائد وهي المعلقات (١) المشهورة وأسماء ناظميها مشهورة أيضا الى الآن الاول امرؤ القيس (وكانت وفاته سنة ٥٤٠ بعد الميلاد) والثاني طرفة (وكانت وفاته سنة ٥٦٤) والثالث عمرو (وكانت وفاته سنة ٦٢٢) أعني عام الهجرة والرابع الحارث بن حلزة بكسر الحاء واللام المشددة (وكانت وفاته سنة ٥٤٠) والخامس لبيد (وكانت وفاته سنة ٦٦٢) أعني عام ثلاثة وأربعين من الهجرة والسادس زهير (وكانت وفاته سنة ٦٢٧) أعني بعد الهجرة بنحو خمس سنين والسابع عنترة ابن شداد (وكانت وفاته سنة ٦١٥) وعنترة دون غيره هو الذي فاق في اتقان جميع أنواع الشعر الجاهلي حتى كان لا يفوقه فيه أحد فكانت العرب تجتمع كل ليلة تحت خيامهم ويتلذذون بسماع تلك القصائد العجيبة التي جمعت بين محاسن الترنم المطرب المشجي وحلاوة التوقيع العذبة الناشئة عن شوق بلا تكلف ويرون فيها جميع السجايا العربية وجميع المشتهيات التي تثير فيهم الحماسة مؤلفة بلغة كأنها لم تخلق الا للافصاح عنها وان هؤلاء الشعراء السبعة وبعض شعراء أخر كانوا معتبرين جدا وكذلك المرقشان (٢) بضم الميم وفتح الراء وتشديد القاف المكسورة (وكان أحدهما سنة ٤٩٥) والآخر سنة ٥٣٠ بعد الميلاد والنابغة الذبياني (وكان سنة ٦١٥) ودريد بن الصمة (وكان سنة ٦١٠) وحاتم (وكان سنة ٦٢٠) والاعشى (وكانت وفاته سنة ٦٢٩) وغيرهم قد لحوا جميعا في اشعارهم الى حوادث عظيمة حصلت في تجديد القبائل المستقلة بنفسها التي كانت تسكن في وسط بلاد العرب وأولها واقعة البيضاء التي منعت غارات ملوك اليمن سنة ٣٥٤ بعد الميلاد ثم فتوحات ملوك كندة (بكسر الكاف) الاوائل وفتوحات الحارث الذي صار ملكا على الحيرة سنة ٥١٨ ثم نصرات سلان (سنة ٤٨١) ونصرات خزاز (سنة ٤٩٢) التي حازها ربيعة وابنه كليب على العرب الحميرية ثم حرب البسوس بين آل بكر والتغلبيين الذي استطال من سنة ٤٩٤ الى ٥٣٤ ونصرات زهير أمير بني غطفان

---

(١) وكان العرب يسمون أيضا تلك المعلقات بالمذهبات أي القصائد المذهبة راجع صحيفة ١٦٤ من تأليف بركوك المسمى باصول تاريخ العرب وصحيفة ٢٩٧ من المجلد الاول من تاريخ كوسين دو برسوال

(٢) راجع من صحيفة ٥٠٦ الى صحيفة ٥٢١ من المصنف المسمى بجرنال آسيا المطبوع في شهر نوفبر سنة ١٨٣٨ ماذكره كترمير في تلك الصحف في خصوص المرقش وانظر ايضا تاريخ كوسين دو برسوال فقد شرح وفسر في المجلد الثاني من تاريخه أكثر ما يعزى الى المرقشين من الكلام

على هوازن (نحو سنة ٥٦٧) والحرب الطويلة المعروفة بحرب داحس بين بنى عبس وذبيان (بضم الذال) وكانا أعظم قبائل غطفان فاستطالا من سنة ٥٦٨ الى سنة ٦٠٨ بعد الميلاد مع وصفهم الحرب التى حصلت بين بنى تميم وبنى عامر نحو سنة ٥٧٩ وقتال بنى عبس وبنى ذبيان مع هوازن وبعض قبائل أخر من نسل خصفه وتشتهر بمعركة الرقم (بفتح الراء وسكون القاف) والنبعة واللواو سلاوحوراء من سنة ٦٠٩ الى سنة ٦١٥ بعد الميلاد ثم حرب بنى تميم وبنى بكر ولم تنته الا سنة ٦٣٠ بعد الميلاد وهو وقت دخول القبيلتين المذكورتين فى دين الاسلام وقد وجدنا فيما أنشدته الشعراء الذين اشتهروا وبهروا العقول فى ذلك العصر وصفا صحيحا المعيشة عرب البادية الذين لم يغير الدهر أخلاقهم الشهمية ألبتة فكان من عادتهم بعد انقضاء المقاتلات السافكة للدماء أن يعقدوا منازلات للفخار والتظاهر بالكرم يسمونها المنافرة والمنازلة التى حصلت سنة ٦٢٠ بعد الميلاد فى بنى عامر كافية فى تفهيمنا صورة تلك المنافرة وذلك ان المشيخة على كل قبيلة كانت لا تقلد بها الا من كان أحق من غيره فاتفق ان علقمة وعامر بن الطفيل وكانا شاعرين شجاعين قد زعما استحقاق المشيخة وحكما فى منازعتهما شيخا مبجلا على عشيرة غير عشيرتهما فكلفهما ذلك الحكم ان يمتثلا بلا اعتراض للحكم الذى يحكم به فى ذلك وأجل بته الى سنة فبقى المتنافسان ينتظران مضى ذلك الوقت المحدود ويجتهدان فى الاشهار باعمال الشجاعة والفضائل وما كان ذلك العصر الا عصر الشوالية (المشهور عند الفرنج) فلما حكم ذلك المحكم بان كلا منهما جدير بالرياسة على العشيرة اشتركا فى الحكم وبقيا متحدين مع بعض أشد الاتحاد وكانت أنواع هذه المحاكمات تعمل بمجامع حافلة ويبقى لها تأثير أكيد فى الاذهان فلا تعجب اذن بعد ايراد مثل هذه الامثلة فى المنافرة من الخصال العجيبة جدا حتى تنافس فيها كل من حاتم وزيد الخيل وكانا من بنى طىء حيث ضربت الامثال بكرمهما فى ابتداء القرن السابع من الميلاد فى جميع جزيرة العرب

(غاية الارب فى تاريخ العرب)

فيما يجب للملوك على الرعيه وما للرعية على الملوك

قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم وفى أولى الامر أقوال أحدها انهم الامراء قاله ابن عباس والسدى وأبو هريرة والثانى انها نزلت فى أمراء النبى صلى الله عليه وسلم مثل خالد وعمار قاله مجاهد والثالث انهم العلماء حكاه الزجاج وأظنه اختاره والاول هو الاشهر الاظهر فالرعية عليهم بذل الطاعة لملكهم والاستقامة لامره والانقياد لحكمه واجتناب نهيه وليس للملك أن يطالب بمحبة القلوب واخلاص الضمائر فذلك أمر ربانى لا تقدر

عليه البشر ولا تملكه (وقد) تحيل بعض الاكاسرة ورام أن يضبط القلوب فقال فى خطبة له أيها الناس ان لنا عليكم حق شمول النعمة وعموم السكون والدعة فمن طلب غاية لم ينلها منا أو رام فوق ما يستحقه ولم يقسم له قاسم الحظوظ شيأ مما رضيه فانه يسخط ويمقتنا ويتمنى زوال دولتنا وما يدريه لعل الشقاء له فى ذلك أكثر فاذا دخل علينا اطلعنا عليه وظهر لنا ذلك فى أسارير وجهه وفلتات لسانه فنقابله تارة بالاعراض عنه وتارة بالاحسان اليه لنختبر حالته فى ذلك فاذا تحققنا ذلك أهملناه فان استقام استعملناه وان زادت حاله فسادا عاقبناه وعقوبتنا ضرب العنق وفى هذا الكلام من دقائق السياسة وضوابط الاستيلاء ما يجل موقعه ويعظم نفعه وهكذا النبى صلى الله عليه وسلم كان يبايع أصحابه على السمع والطاعة فى المنشط والمكره وفى صحيح مسلم عن أم الحصين أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فى حجة الوداع فقال ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا وفى طريق آخر عبدا حبشيا مجدعا فعلى هذا الايطاع فى معصية الله (وفى الصحاح) عن ابن عمر رضى الله عنهما انه قال فى خطبته على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة (وفى البخارى) عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى من أميره شيأ يكرهه فليصبر فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا الامات ميتة جاهلية فعلى هذا من أظهر العناد وجاهر بالشقاق فقد خالف واستحق العقوبة

(فيما يجب للرعية على الملك)

قال عليه السلام كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فيجب على الملك أن يلتزم لرعيته بأربع خلال (احداها) الشفقة وهى تتألف من محبته لهم وخوفه عليهم وحذره كالوالدين (الثانية) العناية بهم وهى باعمال الفكر فى أمرهم وانجاز ما سنح للفكر فى مصلحتهم (الثالثة) التأليف من الملك أو من نائبه ممن يقوم مقامه فى ذلك لانه يسوس جماعات قلوبهم متفرقة وأغراضهم متباينة فمنفعة التأليف جمعهم وتأنيس نافرهم وتقريب متباعدهم (الرابعة) الرفق فانه أصل فى السياسة لان القسوة اذا أفرطت نفرت وكذلك الرقة اذا أفرطت أطمعت فخير الامور أوسطها ومما يجب لهم عليه حمايتهم ورعايتهم وحفظ ثغورهم من الاعداء وطرقهم من القطاع واللصوص ومدنهم ومساكنهم من السراق وأهل الفساد فهذه وظيفة الملوك وأيضا انصاف المظلوم من الظالم فان النفوس الامارة بالسوء مشبهة لنفوس السباع وأخلاقها وطباع الحيات والعقارب فانها تلتذ بالقهر وتستضرى عليه وتمرن ومنشأ هذه الاخلاق من افراط القوة الغضبية من وجوه إما من حرمان أو بطر أو اختلاف وعدو وعيد فاذا بلى الملك بأصناف هذه الطائفة

فيداويها بالزجر والنفي من الارض أودفعهم الى الحروب والمصاعب (كما قالت) مرازبة الفرس لازدشير اناقد أجمعنا عليك ولينالك علينا النستبدل ما كافيه من الاساآت باحسانك فقال لهم احفظوا لى ثمرة الملك أحفظ لكم سنة العدل وأوف لكم بالقول والفعل ففكروا فاذا هو قد جمع لهم فى هاتين الكلمتين جميع الكلام السياسى والحقوق التى لهم وعليهم (وينبغى للملك) أن يتفقد أحوال رعيته فيعطى الفقير ويكمل الناقص ويصل المنقطع ويورث ذوى الميراث ويقيل ذوى العثرات لانه كالعضو الرئيس الذى يوصل الى كل عضو بعدعنه أوقرب من الغذاء مقدار حاجته حسب اللائق به من ذلك (وفى صحيح مسلم) عن عبد الرحمن بن شماسة قال أتيت عائشة رضى الله عنها أسألها عن شئ فقالت ممن أنت فقلت رجل من أهل مصر فقالت كيف كان صاحبكم لكم فى غزاتكم هذه فقلت مانقمنا منه شيأ ان كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير والعبد فيعطيه العبد ويحتاج الى النفقة فيعطيه النفقة فقالت أما انه لايمنعنى الذى فعل فى محمد بن أبى بكر أخى أن أخبرك ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى بيتى هذا اللهم من ولى من أمر أمتى شيأ فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولى من أمر أمتى شيأ فرفق بهم فارفق به (ويجب) ان ينظر فى حال رعيته فيحسن الى المحسن ويردع المسىء المجرم ويكف يدجنده عن ظلم الرعية والتعدى عليهم ولهذا كانت الملوك تتخذ منازلها بمعزل عن منازل الاجناد ومنازل الاجناد بمعزل عن منازل الرعية لئلا يتأذى بعضهم ببعض ويقع بينهم مخاصمات وشرور بين النساء والصبيان والغلمان وكذلك يكون لهم جامع مفرد وحمامات مفردة ولاتشارك الجند الرعية فى حرفهم ومتاجرهم ومزارعهم فانه اذا كان الجند زراعا أو تجارا ضعفت أحوال الرعية من عدم التسبب وضعفت بيوت أموال المسلمين من عدم تحصيل الزكاة وماوجب ويفسد حال الرعية المتسببين والزراع (وفى ذلك) ماذكر فى فتوح مصر وافريقية قال حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهب عن حيوة بن شريح عن بكر بن عمرو عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر مناديه أن يخرج الى أمراء الاجناد يتقدمون الى الرعية بان عطاءهم قائم وأرزاق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون (قال) ابن وهب وأخبرنى شريك بن عبد الرحمن انه بلغه أن شريك ابن أبى سمى العطيفى أتى الى عمرو بن العاص فقال انكم لاتعطونا ما يحسبنا أفتأذن لى بالزرع فقال له عمرو ماأقدر على ذلك فزرع شريك من غير اذن عمرو فلما بلغ ذلك عمرا كتب الى عمر بن الخطاب يخبره ان شريك بن سمى العطيفى زرع بارض مصر فكتب اليه عمر بن الخطاب أن ابعث الى به فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو بن العاص اقرأه شريكا فقال شريك لعمرو قتلتنى ياعمرو فقال له عمرو أنا قتلتك أنت صنعت هذا بنفسك فقال له اذا كان هذا من رأيك فاذن لى بالخروج اليه من غير كتاب

ولك عهد الله أن أجعل يدي في يده فاذن له بالخروج فلما وقف على عمر قال تؤمنني يا أمير المؤمنين قال ومن أي الاجناد أنت قال من جند مصر قال فلعلك شريك بن سمي قال نعم يا أمير المؤمنين قال لاجعلنك نكالا لمن خلفك قال أو تقبل مني ما قبل الله من العباد قال أو تفعل قال نعم فكتب الى عمرو ان شريكا جاءني تائبا فقبلت منه (ولما) استولى جوهر المعزي على مصر بنى لسيده المعزية القاهرة والقصور ليكون هو وأصحابه وأجناده بمعزل عن العامة وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وثلثمائة وبنى الجامع الازهر في سنة ستين وثلثمائة ووصل المعز الى الديار المصرية ودخل قصره في سنة اثنين وستين وثلثمائة وكان من أمرهم ما كان وعلى هذه العادة ملوك بني عبد المؤمن بالغرب فعلوا بمراكش وتلمسان وغيرها (وينبغي) ان ينظر في حال الحجاج والزوار فيصلح أحوالهم ويوضح سبلهم ويختار دليلهم ويؤمن عليهم من يرفق بضعيفهم ويوسع عليهم في الزاد والماء والمحل وكثيرا ما كانت الخلفاء تباشر ذلك بنفوسها أو تقدم من يقوم مقامها وتتكلف النفقات الكثيرة لذلك وينظر في حال أهل الذمة والمعاهدين فيمنع من ظلمهم ويشفق عليهم فانهم كالعبيد والمستضعف جانبهم وكذلك يمنع من تعدى طوره وخرج عما يجب عليه منهم ويحسم المادة في ذلك

في سيرة الملك مع أهل الشريعة العلماء والفقهاء والفضلاء

يتعين على الملك أن يبذل اجتهاده في اظهار رونق الشريعة واحترام أهلها واكرامهم والاثابة على تعليمها والمحافظة عليها ويأمر أولاد العلماء بالاشتغال بالعلم وكذلك يفعل مع جميع الطوائف سوى أهل الشرور والمهن الخسيسة فيتركهم وشأنهم وما تصل وتنهض هممهم اليه ولم يكن في الدنيا أعظم دولة ولا أشمخ مملكة ولا أدوم أياما وذكرا من دولة الفرس ودولة اليونان وسبب ذلك تعظيمهم للعلوم والحكم وتمكين من يشتغل بذلك ورعاية جانبه حتى كان أكثر ملوكهم علماء وحكماء وقديما كان الانبياء ملوكا وكانوا يشتغلون بالعلم واستنباط الحكمة حتى بلغوا في ذلك غاية المنتهى وتعلمه نساؤهم وصبيانهم (مثل) أزرميدخت ورش الفارسيتين وايلادبطره بنت بطليوس صاحب الحكمة والتصانيف ومثل سوريد بن سهلوق بن سرياق الانطاكي اليوناني الذي ملك الديار المصرية ووضع الحكم بعد أبويه وقبل الطوفان واشتغلوا في زمانهم بالعلوم والاستنباطات وعلموا بحادثة الطوفان وكان سبب ذلك ان سوريد الملك رأى رؤيا هالته وأفزعته وذلك انه رأى كأن الارض انقلبت بأهلها والناس يهوون منها سفلا على رؤسهم وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضا بأصوات مختلفة هائلة فغمه ذلك ثم رأى رؤيا ثانية وثالثة وفسرها على علماء دولته وسحرة مملكته فاخبروه بحادثة الطوفان والرؤيا الثانية بعد الاولى بسنة وهي كأنه

فى هيكل له يعرف بدقيانوس فرأى كأن خمسة من الكواكب محصورة فى عقدة الذنب والجوز هر هابط والشمس قد انكسفت ولم يبق منها الا القليل والقمر قد انحدر من السماء فى صورة امرأة باكية تشكو زوالها فانتبه فزعا وكتم الرؤيا وعلم انها معونة للاولى فأمر بتنظيف الهياكل والمقامات والزيادة فى قربانها وذبائحها وبخوراتها وتعظيم أهل العلم والعبادة وتفقد مواضع الظلم وازالة وقصر عن اللهو وبقى مترقبا ما يحدث حتى رأى الرؤيا الثالثة وهى كأن الكواكب الثابتة فى صورة الطيور البيض وكأنها تخطف العالم وكأن الكواكب النيرة مظلمة والطيور تلقى العالم بين جبلين عظيمين والجبلين قد انطبقا على العالم فانتبه فزعا أشد من الاولين فالتجأ الى هيكله الذى فى بيته وجعل يتضرع ويتمرغ بخديه على الارض ويدعو ويبكى الى أن أصبح فاحضر رؤساء الكهنة وكانوا يومئذ مائة وثلاثين كاهنا رؤساء فضلاء وعليهم رئيس كبير يقال له اقليمون وأخبر أيضا أنه رأى رؤيا وهى كأنه والملك واقفان على رأس المنارة التى للملك باسموس وكأن الفلك قد تطأطأ ونزل حتى صار على سمت رؤسنا وصار كالمكبة المحيطة بنا وكأن كواكبه قد خالطتنا فى صور شتى نورانية على قدر أجرامها والناس يستغيثون بالملك والملك رافع يديه ليدفع عن نفسه الفلك اذ بلغ رأسه وامرنى برفع يدى لمثل ذلك وكأن صورة الشمس طالعة علينا ونحن نستغيث فخاطبتنا أن الفلك سيعود موضعه فاذا مضى أربعمائة دورة اطبق اطباقا شديدا على أهل الارض فحينئذ تخر الاصنام وتبيد الاحكام وتزول الاعلام ويقوم بالامر واضع الزمان ثم تطأطأ المنار بنا الى الارض ورجع الى موضعه فانتبهت فزعا مرعوبا فقال له الملك متى كانت الرؤيا فاخبره بليلتها فوجدها موافقة لليلة رؤيا الملك الاولى فقال له الملك فعلى ماذا تأولت يا اقليمون قال حدث عظيم يحدث بعد اربعمائة سنة يضر بجميع العالم الا قليلا من الناس وهو عنصر الماء فسأل هل من حادثة بعدها فأخذوا طالع سؤاله وحققوه وحرروه فذكروا حادثة ثانية ضد الاولى فقال هل من حدث ثالث لهما فافتشوا فى خفى علومهم فقالوا نعم يحدث حادثة عظمى وداهية دهيا لم يبق على وجه الارض متحرك الا تلف وينحل عقد الفلك باذن القديم الازلى وهى الساعة فعند ذلك أمر ببناء الاهرام والافرونيات وهى البرابى لتكون قبورا لهم ومثوى لاجسامهم وكنزا لاموالهم وكتبهم وذخائرهم فاختاروا لها الاوقات الثابتة فى مبدا حفر اساسها وعمارتها وتم حفر أساسها فى ست سنين وتكملت عمارتها فى ست سنين وكان فيها اصناع وفعلة سبعون ألف نفس وارتفاعها بذراعهم مائة ذراع وأسه عشرة اذرع فى مثله فعاش سوريد دهرا طويلا ومات ودفن فى الهرم الشرقى وكان عمره لما عمر الاهرام ستين سنة وتملك بعده أخوه هرجيت فلك وأقام على منهاج أخيه مائة وثلاثين سنة ثم مات ودفن بالهرم الغربى ثم ملك بعده ولد أخيه افروس بن سوريد مائة

وخمس عشرة سنة ومات ودفن بالهرم الصغير وهذا ذكره ابو معشر فى كتاب الالوف وسببه انه وجده فى كثير من كتب الكهنة مثل كتاب انطاجس وباهونه ومنسبه ومياكل واستيدس وفى كتاب محمد ابن هرون العباسى مما نقله من كتاب على بن محمد بن عبد الله بن حنون الطبرى وكان السبب فى ذلك أنه وجد لبعض أهل مصر وهو رجل من القبط يقال له ابنيمت كتاب بالقبطية فى قرطاس على صدره وهو ميت من تحت أكفانه فيه مكتوب علم الاول أن هذا انتخبه فيلبش اليونانى وهو أبو الاسكندر ذى القرنين ونسخته من صحيفة ذهب كتابتها بالقبطية مخرقة منقورة أخذها من أخوين قبطيين يقال لاحدهما املول والآخر وريرثا وسألهما عن سبب معرفتهما بهذه الكتابة فذكرا أنهما من ولد رجل آمن بنوح نبى الله عليه السلام وحمله فى السفينة وورثا عنه علم الاول وكان تاريخ الصحيفة من حين كتبت الى أن أخرجت لفيلبش ألفى سنة وتسعمائة سنة وخمسا وثمانين سنة ومن فيلبش الى هذا الكتاب وهو سنة ثمان وسبعمائة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام ألف وسبعمائة وثلاث وثمانون سنة يكون تاريخها الى الآن أربعة آلاف سنة وسبعمائة سنة وثمانى وستين سنة ولو شرحنا ما فى الصحيفة لطال الكتاب وفات الغرض وهذا ثمرة العلم والاجتهاد فيه (ولقد) أجاد كسرى أنوشروان فى قوله أما أهل العلم والدين فلهم علينا أن نسمع منهم ونصدق قولهم ونرفع مراتبهم ونذب عنهم ونوسع لهم ما صح فقههم وظهر صلاحهم وثبتت نزاهتهم وعفتهم (وقال أيضا) ان من الناس صنفا طلبوا الرياسة بالدين والتفقه فأشهروا أنفسهم لذلك وربما خالفوا بعض المخالفة ليتميزوا ثم استطالوا على الناس وأذاعوا أسرار الشريعة وحقيقة التأويل والتفسير وغير ذلك للعوام والجهال حتى مالوا اليهم وانا لم نجد فى ديننا فيما تقدم خلافا بين السلف ولا افتراقا الا فى عهد سابور بن سابور فان أولئك المبتدعة أظهروا التفسير واختلاف التأويل وكان من عاقبة أمرهم ما كان من طلب الرياسة واثارة الفتن حتى أطفاها الله برأى سابور وحوم التذكير الا لمن يوثق بعلمه ومعرفته وأمانته ومن تعدى ذلك عاقبه (ثم ينظر) فى المتفقهة الذين ينتحلون البدعة ويدعون اليها ويخالفون ما عليه الجمهور ويردعهم ويفرق جمعهم وكذلك يمنع التعصب للمذاهب والمغالاة فى ذلك فانها تؤدى الى فتن عظيمة وخطوب جسيمة وقد خرب كثير من بلاد المشرق بهذا السبب ثم ينظر فى حال من يتظاهر من العلماء بعلم الفقه والشريعة ويبطن الحكمة والفلسفة فاذا وقع له حكم من أحكام الشريعة لا يدركه عقله ولا يلحقه فهمه أسرع الى الطعن فيه ودبر فيه برأيه وهذه الطائفة وان كانت قليلة لكنها ذميمة ونكايتها أليمة وربما يزعمون ويوهمون أن الشرائع أمور موضوعة بازاء العامة دون الخاصة الذين هم منهم وان تفاصيله لا تستقر عند حاكم العقل ولو صح نظرهم وثبت عقلهم لعلموا

أن رتبة النبوة والشريعة مستعلية على مراتب الحكمة وأنها تحصل بالامر الالهي لا بالكسب الاجتهادي فمتى تنتهي العقول البشرية الى معرفة المقادير الربانية فينبغي أن يحسم مادة هذه الطائفة ليشتغلوا بأنفسهم فانهم ان تفرغوا وضعوا للعامة بدعا متنوعة يسمونها حكمة ثم يدعون أنهم يطلعون على أسرار الشريعة وأغوارها ومن تتبع أخبار المتقدمين علم ان أكثر البدع والفرق بهذا السبب ظهرت واشتهرت (فأما العلماء) وحفاظ الشريعة الذين على السنة فيجب على الملك احترامهم واكرامهم لانهم يحفظون قواعد الشرع الذى هو يحرسه ويذب عنه ويقاتل من يعانده فيرفع طبقاتهم على مقاديرهم من العلوم والتبحر فيها فأول علوم الشريعة علم القرآن ومعرفة تفسيره وتأويله وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وأسباب نزوله ثم علوم الحديث النبوى ومعانيها ولغاتها وأسبابها ومعرفة رواتها وجرحهم وتعديلهم ومعرفة المرسل من المسند ومن روى الحديث ورجع عنه أو تشكك فيه ومن روى بضد ما روى ومعرفة اجماع الصحابة ومن روى منهم ومن أفتى ثم علم أصول الدين هو وان كان مما يجب تقديمه لان شرف العلم بشرف معلومه لكنه يبنى على الشرع الذى هو كتاب الله وسنة رسوله فينبغي أن يكون الاصولى عالما بالنصوص الشرعية والادلة البرهانية العقلية فيبين الحدود والرسوم ويذكر الادلة على تفصيل العقائد الشرعية وهى العلم بذات الله تعالى وصفاته وأسمائه وما يجوز اطلاقه من ذلك ومالا يجوز وتأويل ما يحتاج الى التأويل ومعرفة النبوة والرسالة وحقيقة الوحى والخطاب والكلام ووصف المعجزة والفرق بينها وبين الكرامة والكهانة ومعرفة الجائز والواجب والمستحيل ومعرفة اليوم الآخر وما وعدت به الاخبار الصادقة من عذاب القبر والجنة والنار ومعرفة الامامة والخلافة كل ذلك من لوازم أصول الدين ثم أصول الفقه فيكون عارفا باللغة والنحو والاصطلاح فيطلع على معانى النصوص فان تحريف الاحكام لم يكن الا من الجهل بذلك فاذا عرف الناسخ والمنسوخ والمنطوق والمفهوم والخاص والعام وأحكام ذلك أمكنه أن يبنى على ذلك الاحكام الشرعية والاقيسة الصحيحة ثم علم الفروع وهو معرفة فرائض العبادات وهيآتها وتكميلاتها والمعاملات وعقودها وفسوخها والمناكحات ومباحها ومحظورها والجنايات وعقوباتها والاقضية وحكوماتها ثم يخرج من ذلك الى علم الخلاف وعلم الجدل وهى علوم متأخرة عنها فى الرتبة ومستنبطة منها ومن ذلك علم اللغة والنحو وهو علم شريف يضطر اليه فى شرح الالفاظ لتحقيق المعانى ومن العلوم علوم شريفة ينتفع بها ويحتاج اليها كعلم الطب وعلم الحساب والمساحة وعلم الاوقات والازمان فمن تمام رونق المملكة اشتمالها على أئمة فى هذه العلوم فما أضيع دولة قل علماؤها فانها ينقطع ذكرها عند انقضاء أيامها (وكان) المعتضد بالله

لما بنى قصوره المعروفة بالشماسية ورتبها له المهندسون زاد فى ذرعها فوق الذى اختطوه كثيرا فسئل عن ذلك فقال أريد أن أتخذ حولى مساكن وغرفا يسكنها رؤساء العلماء والفضلاء من كل فن وأجرى عليهم الادرارات وما يحتاجون اليه من النفقات وكل من أراد أن يشتغل بنوع من العلوم قصد ذلك الامام واشتغل عليه وحصل منه بغير تعب ولا مؤنة وكان مقصوده انتشار العلم والزيادة فى الفضائل ولو مدّ له فى العمر حتى يتم ذلك لكان قد خلد ذكرا باقيا وجدد للعلوم والفضائل رونقا باقيا ألا ترى الى المأمون لما قال بالتشيع قوى أمر الشيعة فى زمنه وكاد أن يخرج الخلافة من بيته وكذلك كان يشتغل بعلم النجوم واتخذ الرصد فصنف له الزيج المأمونى وظهر فى زمانه فضلاء من المنجمين مثل أبى معشر وغيره وقد قيل ان الناس على دين الملك فاذا اشتغل بأمر العلم والعلماء أو بفن من الفنون كثر فى زمانه وذكر فى سيرته (وكان الناس) فى زمن يزيد وسليمان يلقى أحدهم صاحبه فيقول له كيف كانت ليلتك وكيف غنت جاريتك ومن كانت قينتك ثم فى زمن عمر بن عبد العزيز يلقى أحدهم صاحبه فيقول كم صليت البارحة ومتى نمت ومتى قمت الى وردك وما الذى قرأت من القرآن ثم فى زمن مروان بن محمد يقول هذا لهذا كم أنفقت على قصرك وما ارتفاع مجلسك وجدارك وأحجارك على الرسم فى متابعة الملوك واقتفاء آثارهم فالملك السعيد الذى يتبع المحامد ويقتفى الناس أثره فيخلد فى الخير ذكره

فى سيرة الملك مع الامراء وأركان مملكته

كانت ملوك الفرس تفضل الجند على سائر أصناف الناس ويحتجون لذلك بان الناس يبذلون منفعة جوارحهم أو حواسهم والجند يبذلون نفوسهم ورؤسهم ولا قرب بين الحالتين وكانت تجعل الناس على أربعة أقسام الجند أولها ثم تقسم الجند على أربعة أقسام على كل قسم أمير يسمى ميرميران وكل أمير معه أربعة يسمى كل واحد منهم أصفهبد ومع كل أصفهبد أربعة مرازبة ومع كل مرزبان أربعة سالارية ومع كل سالار عشرة أساورة وهم الفرسان المفردة وخمسة من الرجالة وتسمى البيادة فاذا أراد الملك انفاذ أمر خاطب بعض الامراء فسهل عليه وعلى من يخاطبه (وكانت) ملوك الروم ترتب ذلك عشرة عشرة ويسمون كل واحد باسم من لغتهم ومثاله فى العربية ان مع الملك عشرة أمراء مع كل أمير عشرة نقباء مع كل نقيب عشرة عرفاء مع كل عريف عشرة قواد مع كل قائد عشرة فرسان ومع الرجالة كذلك وبعضهم يجعل عوض العريف زعيما هذا ترتيب الاول (وكذلك) لما كثر جيش النبى صلى الله عليه وسلم رتب عليهم نقباء وعرفاء تكون مخاطبته معهم وفى زماننا هذا ترتيب آخر وهو أيضا حسن اذا استقر الحال على ما يذكر أن يكون الملك بجيشه أتابك أتم ما يكون فى الشجاعة والكرم والمعرفة

والنباهة والشهامة والبسطة والتجارب والدين والعفة والمكنة فى العدة والعدة ثم من بعده مقدموالآلاف على كل ألف فارس مقدم كبير ومعهمقدمون مفاردة على كل خمسين فارس مقدم مفردي ومع المفردى خمس مقدمين دونه مع كل مقدم عشرة فرسان وعلى الكل نقيب كبير وتحت يده نقباء ورؤس نوب على الآلاف فكل مقدم ألف معه نقيب ألف فى خدمته ومع النقيب نقباء صغار على كل خمسين فارسا نقيب فهذا أحوط مايكون من الترتيب (فينبغى) للملك أن ينظر فى حال جيشه وازاحة أعذارهم وأن يحملهم على اتباع الشرع والانقياد للوازم الدين مع التزامه هو لذلك فانه ان لم يكن محافظا على الشريعة لا يستقيم التزامه كما قيل

متى يستقيم الظل والعود أعوج * ففى التزامه لذلك التزامهم للطاعات فيحصل خير الدنيا والآخرة ثم يتفقد أحوالهم فمن حسنت سيرته ومناصحته يضاعف الاحسان اليه حتى يتشبه به غيره ويجتهد الجند فى الطاعة لله تعالى وللملكهم (ويحكى) عن بعض ملوك العرب انه كان يخرج فى بعض الليالى الباردة فيصلى الفجر والعشاء الآخرة فى جامع قلعة وللجامع أبواب مشرعة الى البلد تفتح فى وقت الصلاة فاذا سلم الامام أمر بغلق الابواب على الناس ثم يأمر لكل من حضر الصلاة بخمسة دنانير أو بثمانية وربما أمر بعشرة وكذلك يفعل فى يوم عاشوراء المحرم والقصد بذلك الترغيب فى الخير والمواظبة على الصلاة (ويجب) على الملك أن يحسن النظر فى حال الامراء وتقديمهم وارتفاع درجاتهم لمن تظهر منه النجابة والشهامة والدين ولا يفعل ذلك بالهوى وميل النفس بل بالفكرة والمشورة والتجربة فان الخطأ فى ذلك مضر فانه ربما يخف على قلبه شخص ويثقل آخر فيكون الخفيف غير أهل لما حصل له من التقدمة والآخر أهل لها فيحصل الخطأ وتتولد المضرة كمن يتناول الحلو الضار ويترك المر النافع فليشدد الاحتراز فى ذلك ويفرق بين الشريف والمتشرف والجندى والمتجند فانه ان أهمل ذلك وقدم على غير نسق صارت الرؤس أذنابا والاذناب رؤسا وتحكيم الصغار شديد المضرة سريع الخلل ومن اعتبر سيرة من مضى فى زماننا هذا وجد وقائع كثيرة من هذه النسبة حصل بسببها مالا يستدرك فارطه وقد يوجد فى الصغار والوسط من تكون فيه نجابة وكفاية كما يوجد فى أبناء ذوى الشرف من فيه القصور والتخلف فليوصل كل أحد الى موضع يليق به على التدريج (ويجب) أن يمنع الجند من الجلوس فى الحوانيت والاسواق للتجارة والصناعة ومزاحمة الرعية فى معايشهم فان فى ذلك تضييقا على الرعية ثم يتفقد أحوال الجند ومن عبر الى رحمة الله منهم ومن حصل له العطب فى الغزاة أو الهرم فى الخدمة فيحسن اليهم والى مخلفيهم ويطلق لهم مايقوم بأودهم وان كان فى أولادهم من يقوم مقامهم أجرى لهم ما كان لهم جاريا وكذلك كانت تفعل الملوك المتقدمون (وقال) النبى عليه السلام من ترك كلا أوضياعا فالى وعلى

وكذلك ينظر فى حال من افتقر أو ركبته الديون واقطاعه قليل لا يقوم بحاله و ينظر أيضا فى حال الجند البطالين الذين طلبوا منه استخدامهم فلم يستخدمهم أو أعطاهم اقطاعا لا يرضيهم فانهم يتربصون به الدوائر و ينظرون له ريبة يتبعونها فيحترز منهم اذا كثروا إما بالارضاء أو بالابعاد (وصنف آخر) من الجند تركوا الجندية اختيارا وملالا فان اشتغلوا بزهد أو بتجارة أو صناعة تركوا وشأنهم فان حصل منهم من الشرور ما لا يمكن تداركه فيجب أن يشغلوا و يبعدوا (وصنف آخر) من الجند ذو و بأس شديد وشجاعة أفرط اعتقادهم فى حق أنفسهم حتى ظنوا أن انتظام الدولة بهم واستقامة الملك بسببهم وانه لا يستحق العطاء والحباء غيرهم ومتى أعطى غيرهم أو أكرم حنقوا وان توقعوا أو طلبوا شيأ لم ينالوه تحزبوا وظلموا فينبغى للملك العارف أن يفكر فى حالة من أحوال الفروسية يعلم أنهم مقصرون فى بلوغ غايتها فيندبهم لها ليتبين لهم التقصير و يعيرهم بها فيعرفوا مقدار نفوسهم (آثار الاول فى تاريخ الدول)

الباب الخامس فى المقامات

(المقامة الفرضـــيه)

(أخبر الحرث بن همام) قال أرقت ذات ليلة حالكة الجلباب هامية الرباب ولا أرق صب طرد عن الباب ومنى بصد الاحباب فلم تزل الافكار يهجن همى و يجلن فى الوساوس وهمى حتى تمنيت لمضض ما عانيت أن أرزق سميرا من الفضلاء ليقصر طول ليلتى الليلاء فما انقضت منيتى ولا أغمضت مقلتى حتى قرع الباب قارع له صوت خاشع فقلت فى نفسى لعل غرس التمنى قد أثمر وليل الحظ قد أقمر فنهضت اليه عجلان وقلت من الطارق الآن فقال غريب أجنه الليل وغشيه السيل و يبتغى الايواء لا غير واذا أسحر قدم السير قال فلما دل شعاعه على شمسه ونم عنوانه

(أرقت) أى سهرت (حالكة) أى سوداء (الجلباب) هو ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء والمعنى انها شديدة الظلام (هامية الرباب) أى سائلة السحاب واحده ربابة بالفتح وهى سحابة بيضاء رقيقة وقد تكون سوداء (صب) أى عاشق (ومنى) أى وابتلى (يهجن) من هاج اذا ثار وهجته أنا أثرته هيجا (و يجلن) من أجاله اذا أداره وحركه هكذا وهكذا (الوساوس) جمع الوسوسه وهى حديث النفس أو الكلام الخفى (وهمى) أى بالى وفكرى (لمضض ما عانيت) أى لحرقة و وجع ما قاسيت (سميرا) أى محادثا بالليل (الليلاء) أى شديدة الظلمة كقولك شعر شاعر فى التأكيد (منيتى) أى ما تمنيته وطلبته (أغمضت) أى أطبقت الاجفان (قرع) أى طرق وضرب (لعل غرس الخ) كناية عن كونه ترجى حصول مطلوبه وسؤله بهذا الطارق فيثمر ما غرسه من التمنى و يضىء ما أظلم ليلته من عدم التهنى (فنهضت الخ) أى فقمت اليه مسرعا (الطارق) هو الذى يأتى ليلا (أجنه) أى ستره (وغشيه) أى أتاه وأدركه (الايواء) أى ادخاله المنزل لانه مصدر آوى المتعدى (أسحر) أى دخل فى وقت السحر (قدم السير) أى لم يطلب غير المبيت الى السحر ثم ينصرف (شعاعه على شمسه) يريد أن ما بدا منه من حسن المخاطبة يدل على علو شأنه و بديع بيانه (ونم عنوانه الخ) العنوان ما يكتب على ظهر الكتاب ونم بمعنى أخبر وهو فى معنى ما قبله

بسرّ طرسه علمت أن مسامرته غنم ومساهرته نعم ففتحت الباب بابتسام وقلت ادخلوها بسلام فدخل شخص قد حنى الدهر صعدته وبال القطر بردته فحيا بلسان عضب وبيان عذب ثم شكر على تلبية صوته واعتذر من الطروق فى غير وقته فدانيته بالمصباح المتقد وتأملته تأمل المنتقد فألفيته شيخنا أبا زيد بلا ريب ولا رجم غيب فأحللته محل من أظفرنى بقصوى الطلب ونقلنى من وقذ الكرب الى روح الطرب ثم أخذ يشكو الاين وأخذت فى كيف وأين فقال أبلعنى ريقى فقد أتعبنى طريقى فظننته مستبطنا للسغب متكاسلا لهذا السبب فأحضرته ما يحضر للضيف المفاجى فى الليل الداجى فانقبض انقباض المحتشم وأعرض اعراض البشم فسوّت ظننا بامتناعه وأحنقنى حوّل طباعه حتى كدت أغالظه فى الكلام وألسعه بحمة الملام فتبين من لمحات ناظرى ما خامر خاطرى فقال يا ضعيف الثقة باهل المقة عد عما أخطرته بالك واستمع الىّ لا أبالك فقلت هات يا أخا الترهات فقال اعلم انى بت البارحة حليف افلاس ونجىّ وسواس فلما قضى الليل نحبه وغوّر الصبح شهبه غدوت وقت الاشراق الى بعض الاسواق متصدّيا لصيد يسنح

(مسامرته غنم الخ) أى محادثته غنيمة والسهر معه نعيم (قد حنى الدهر صعدته) أى أمال اعتداله وقوسه وأصل الصعدة القناة تنبت مستوية لا تحتاج الى التثقيف والتعديل كنى بها عن قامته (وبلل القطر بردته) أى أصابه المطر حتى ابتل ثوبه (فحيا) أى سلم (عضب) أى ماضى البلاغة (بيان) أى فصاحة (عذب) حلو (تلبية صوته) أى اجابته بقول لبيك (الطروق) الاتيان (فدانيته) أى قاربته (المتقد) أى الموقد (المنتقد) هو من عيز بين الزيف والجيد من الدراهم وفى نسخة المفتقد من تفقده تطلبه (فالفيته) أى فوجدته (رجم غيب) هو التكلم بالظن (فأحللته) أى فأنزلته (أظفرنى) أى ملكنى من الظفر وهو الفوز بالشئ (بقصوى الطلب) أى بغاية المطلوب والقصوى تأنيث الاقصى وجاء على الاصل والقياس القصيا كالدنيا (وقذ الكرب) الوقذ شدة الضرب والكرب جمع كربة وهى حرقة الهموم (روح الطرب) أى راحة السرور (الاين) أى الاعياء والتعب (كيف وأين) سؤالان عن الحال والمكان (أبلعنى ريقى) أى أمهلنى حتى ابلع ريقى قال جاد الله قلت لبعض شيوخى أبلعنى ريقى فقال أبلعتك الرافدين وهما دجلة والفرات (مستبطنا للسغب) أى جائع البطن والسغب الجوع وفى نسخة مستبطنا حميا السغب (المفاجى) الآتى بغتة (الداجى) الساتر بظلامه ومنه قوله دجا الاسلام أى عم وكثر أهله (المحتشم) المستحى المنقبض (وأعرض) أى نحى وجهه لجهة أخرى (البشم) الممتلئ بالطعام (فسوّت ظننا) أى ساء ظنى (وأحنقنى) أى غاظنى وأغضبنى (حوّل طباعه) أى تغير خلائقه (كدت أغالظ) أى قاربت أن أعنفه بالكلام (وألسعه الخ) أى وأوجهه باللوم الشبيه بسم العقرب عند لسعها (فتبين الخ) أى علم وفهم من نظر عينى (ما خامر الخ) أى ما خالط ذهنى وفكرى (الثقة) الاعتماد (المقة) المحبة (عد) أى تجاوز وأعرض عنه (اخطرته بالك) أى أمررته وأدخلته فى قلبك (لا أبالك) كلمة دعاء عليه أى لا أب حرّ لك (الترهات) الاباطيل وأصلها الطرق الصغار تتشعب من الجادة واحدها ترهة (حليف افلاس) أى قرين فقر ومصاحب عدم (ونجى وسواس) أى مناجى وسوسة وهى الحركة فى القلب للتردد فى أمر (قضى الليل نحبه) اى مضى وانقضى يقال قضى نحبه اذا انقضى أجله (وغور) اى غيب وأخفى (شهبه) نجومه (غدوت) أى ذهبت فى الغدوة (الاشراق) أى شروق الشمس (متصديا) أى قاصدا ومتعرضا (يسنح) أى يعرض والسانح الصيد الذى يأتى من

أوحرّ يسمح فلحظت بها تمرا قد حسن تصفيفه وأحسن اليه مصيفه فجمع على التحقيق صفاء الرحيق وقنوء العقيق وقبالته لبأ قد برز كالابريز الاصفر وانجلى فى اللون المزعفر فهو يثنى على طاهيه بلسان تناهيه ويصوّب رأى مشتريه ولو نقد حبة القلب فيه فأسرتنى الشهوة بأشطانها وأسلمتنى العيمة الى سلطانها فبقيت أحير من ضب وأذهل من صب لا وجد يوصلنى الى نيل المراد ولذة الازدراد ولا قدم يطاوعنى على الذهاب مع حرقة الالتهاب لكن حدانى القرم وسورته والسغب وفورته على أن أنتجع كل أرض واقتنع من الورد ببرض فلم أزل سحابة ذلك النهار أدلى دلوى الى الانهار وهى لا ترجع ببله ولا تجلب نقع غله الى أن صغت الشمس للغروب وضعفت النفس من اللغوب فرجعت بكبد حرى وانثنيت أقدم رجلا وأؤخر أخرى وبينما أنا أسعى وأقعد وأهب وأركد اذ قابلنى شيخ يتأوه أهة الثكلان وعيناه تهملان فاشغلنى ما أنا فيه من داء الذيب والخوى المذيب عن تعاطى مداخلته والطمع فى مخاتلته فقلت له يا هذا ان لبكائك سرا وو راء تحرقك لشرا فأطلعنى على برحائك واتخذنى من نصحائك فانك ستجدنى طبا آسيا أو عونا مواسيا فقال والله ما تأوهى من عيش فات ولا من دهر افتات بل لانقراض العلم ودروسه

جانب اليسار والبارح الذى يأتى من جانب اليمين والعرب تستحسن السانح دون البارح عند التفاؤل (فلحظت) أى فنظرت (تصفيفه) أى كونه صفوفا (مصيفه) أى زمن الصيف (الرحيق) هو الشراب الصافى (وقنوء) أى شدة حمرة (لبأ) هو أول اللبن فى النتاج (كالابريز) أى كالذهب الخالص (يثنى) أى يمدح ويشكر (طاهيه) أى طابخه ومصلحه (تناهيه) أى تناهيه فى حسنه (ويصوب الخ) أى يقول لمشتريه أصبت فى رأيك فى شرائى (نقد) أى دفع (فأسرتنى) أى ربطتنى وقادتنى (بأشطانها) بحبالها جمع شطن وهو الحبل (العيمة) هى فى الاصل شهوة اللبن (سلطانها) أى تسلطها (أحير من ضب) الضب دويبة تشبه الورل اذا خرج من جحره لا يكاد يهتدى اليه ولذلك يضرب به المثل فى من لا يهتدى الى مقصده (وأذهل من صب) أى أشغل من عاشق يقال أذهلنى شغلنى وذهلت عنه غفلت ونسيت (لا وجد) أى لا مال ولا غنى (الازدراد) الابتلاع (حدانى) أى ساقنى (القرم) أصله شهوة اللحم فاستعير لشهوة اللبن (سورته) أى حدته (والسغب) الجوع (فورته) حرقته (انتجع) أى أقصد (واقتنع) وفى نسخة أقنع (الورد) المورد (ببرض) البرض الماء القليل (سحابة الخ) يريد جميعه كقولهم بياض النهار وسواد الليل (أدلى) أى أرسل وأنزل (وهى لا ترجع ببلة) وفى نسخة وهو لا يرجع ببلة وهو كناية عن الخيبة وعدم الظفر بشئ أصلا (ولا تجلب الخ) أى لا تأتى بما يروى العطش نقع غله سكن حرارة عطشه (صغت) أى مالت ومنه فقد صغت قلوبكما (اللغوب) الاعياء (فرجعت) أى فرجعت (حرى) أى عطشى (انثنيت) أى رجعت (أقدم الخ) مثل يضرب فى التردد فى الاقدام على الشئ والاحجام منه (أهب) أصله استيقظ (أركد) أى أسكن (يتأوه) أى يتوجع (أهة الخ) بتشديد الهاء وبتخفيفها مع المد أى كتوجع الثاكل وهو فاقد الولد قال العبدى * اذا ما قمت ارحلها بليل * تأوه آهة الرجل الحزين * (تهملان) أى تسيلان بالدمع (داء الذيب) كناية عن الجوع (الخوى) خلو الجوف من الطعام (تعاطى) أى تناول (مداخلته) أى مداناته (مخاتلته) أى مخادعته (برحائك) البرح والبرحاء شدة الاذى (طبا آسيا) أى طبيبا مداويا (مواسيا) أى مطيعا موافقا (تأوهى) توجعى (فات) انقضى (افتات) أى تعدى (لانقراض) أى لانعدام (ودروسه) أى فنائه وذهابه أو جمع درس ففيه تورية

وأفول أقماره وشموسه فقلت وأى حادثة نجمت وقضية استعجمت حتى هاجت لك الاسف على فقد من سلف فابرز رقعة من كمه وأقسم بابيه وأمه لقد أنزلها باعلام المدارس فما امتازوا عن الاعلام الدوارس واستنطق لها أحبار المحابر فخرسوا او لاخرس سكان المقابر فقلت أرنيها فلعلى أغنى فيها فقال ما أبعدت فى المرام فرب رمية من غير رام ثم ناولنيها فاذا المكتوب فيها

أيها العالم الفقيه الذى فا * ق ذكاء فما له من شبيه

أفتنا فى قضية حادعنها * كل قاض وحاركل فقيه

رجل مات عن أخ مسلم حرّ تقىّ من أمه وأبيه

وله زوجة لها أيها الحبر أخ خالص بلا تمويه

فحوت فرضها وحاز أخوها * ما تبقى بالارث دون أخيه

فاشفنا بالجواب عما سألنا * فهو نص لا خلف يوجد فيه

فلما قرأت شعرها ولحت سرها قلت له على الخبير بها سقطت وعند ابن بجدتها حططت الأنى مضطرم الاحشاء مضطر الى العشاء فاكرم مثواى ثم استمع فتواى فقال لقد أنصفت فى الاشتراط وتجافيت عن الاشتطاط فصر معى الى مربعى لتظفر بما تبتغى وتنقلب كما ينبغى

(وأفول) أى غروب (أقماره وشموسه) المراد بها العلماء والفقهاء وأفولهم موتهم (نجمت) أى ظهرت (استعجمت) أى استبهمت وأشكلت قال صم صداها وعفا رسمها * استعجمت عن منطق السائل (هاجت) أى هيجت وأثارت (الاسف) أى الحزن (سلف) أى مضى وسبق (فابرز) فاخرج (رقعة) أى قطعة من ورق (بأعلام) جمع علم بمعنى السيد العظيم وهم العلماء المدرسون (المدارس) جمع مدرسة وهى محل تدريس العلوم (امتازوا) أى تميزوا (عن الاعلام) جمع علم بالتحريك وهى العلامة توضع فى الطريق للسابلة أى أبناء السبيل (الدوارس) جمع دارسة بمعنى فانية (أحبار) جمع حبر بالفتح والكسر والكسر أفصح وهو العالم (المحابر) جمع محبرة بالفتح موضع الحبر وعاؤه (فخرسوا الخ) أى سكتوا او لاسكوت الاموات (أرنيها) أى اطلعنى عليها (أغنى) أى أنفع (فرب رمية) هذا مثل قاله الحكم بن عبد يغوث وكان من أرمى أهل زمانه عندما أخذ ولده القوس ورمى فأصاب فقال الحكم رب رمية من غير رام أى من غير حاذق بالرمى فذهبت مثلا (ذكاء) هو حدة القلب (حادعنها) أى مال عنها وجانبها (حار) تحير (الحبر) العالم (بلا تمويه) أى بلا شك ولا ريب (فاشفنا بالجواب) وفى نسخة فى الجواب (ولحت سرها) نظرته واطلعت عليه (ابن بجدتها) أى العارف بها يقال بجد بالمكان اذا أقام فيه ومن ذلك قيل للخبير بالارض هو ابن بجدتها ثم كثر حتى قيل لكل خبير بشئ ويقال للعالم بالشئ المتقن له هو ابن بجدتها وذكر صاحب شمس العلوم أنه يقال للدليل الحاذق أيضا والبجدة العلم (مضطرم الاحشاء) ملتهبها ومتقدها والاحشاء ما انحنت عليه الضلوع (مضطر الى العشاء) أى محتاج اليه (فاكرم مثواى) أمر من الاكرام أى أحسن مقامى ونزلى (فتواى) أى جوابى (أنصفت) عدلت (تجافيت) تباعدت (الاشتطاط) أى الجور ومجاوزة الحد (فصر) أى كن وتحول (مربعى) محل اقامتى (لتظفر) لتفوز وتنال (تبتغى) تطلب (وتنقلب) ترجع

قال فصاحبته الى ذراه كما حكم الله فادخلني بيتا أحرج من التابوت وأوهن من بيت العنكبوت
الا أنه جبر ضيق ربعه بتوسعة ذرعه فحكمني في القرى ومطايب ما يشترى فقلت أريد أزهى
راكب على أشهى مركوب وأنفع صاحب مع أضر مصحوب فافكر ساعة طويلة ثم قال لعلك
تعني بنت نخيلة مع لبأ سخيلة فقلت اياهما عنيت ولاجلهما تعنيت فنهض نشيطا ثم ربض
مستشيطا وقال اعلم أصلحك الله أن الصدق نباهة والكذب عاهة فلا يحملنك الجوع الذي
هو شعار الانبياء وحلية الاولياء على أن تلحق بعن مان وتتخلق بالخلق الذي يجانب الايمان
فقد تجوع الحرة ولا تأكل بثديها وتأبى الدنيئة ولو اضطرت اليها ثم اني لست لك بزبون ولا
أغضى على صفقة مغبون وها أنا قد أنذرتك قبل أن ينهتك الستر وينعقد فيما بيننا الوتر فلا
تلغ تدبر الانذار وحذار من المكاذبة حذار فقلت له والذي حرم أكل الربا وأحل أكل اللبا
ما فهت بزور ولا دليتك بغرور وستخبر حقيقة الامر وتحمد بذل اللبأ والتمر فهش هشاشة
المصدوق وانطلق مغذا الى السوق فما كان بأسرع من أن أقبل بهما يدلح ووجهه من التعب

(فصاحبته) سعيت ومشيت معه (الى ذراه) بيته (كما حكم الله) أي كما قال تعالى ولكن اذا دعيتم فادخلوا (أحرج) أضيق (وأوهن) أضعف والعنكبوت حشرة معروفة تنسج بيتها بالخرابات (جبر) أصلح (ربعه) منزله (ذرعه) صدره وخلقه (القرى) الضيافة (مطايب) هكذا وجد بخط الحريري وروى عنه والصواب أطايب جمع أطيب فمن ابن السكيت أطعمنا فلان من أطايب الجزور ولا تقل من مطايب الجزور ولكن قال ثعلب يقال أطعمنا من مطايب التمر وأطايب الجزور (أزهى) أحسن منظرا وأكثر حمرة ومنه زها البسر اذا احمر (راكب) يريد اللبأ (مركوب) يريد التمر (وأنفع صاحب) هو التمر لانه عظيم المنفعة في السفر والحضر (أضر مصحوب) هو اللبأ لانه ردىء العاقبة وهذا باعتبار انفرادهما فاذا اجتمعا في المعدة أصلح التمر بحلاوته اللبأ فيصير أسرع هضما وانحدارا (بنت نخيلة) يعني التمر ونخيلة تصغير نخلة (سخيلة) تصغير السخلة من أولاد الغنم (عنيت) قصدت (تعنيت) تعبت (فنهض نشيطا) أي قام مسرعا مجدا (ربض) قعد يقال ربض الاسد اذا قعد على جاعرتيه أي أليتيه (مستشيطا) محترقا من الغيظ (نباهة) شرف ورفعة (عاهة) مرض مشوه (يحملنك) يلجئك ويدعوك (شعار) أصله الثوب الذي يلي الجسد والمراد العلامة (وحلية الخ) أي زينة ولباس الاولياء (مان) كذب (الذي يجانب الايمان) أي ينافيه وهو الكذب لقوله عليه الصلاة والسلام الكذب يجانب الايمان (بثديها) أي لا ترضع بأجرة وهو مثل يضرب للمروءة مع الحاجة (تأبى الدنية) أي تمتنع من الخصلة القبيحة كالزنا (بزبون) الزبون كلمة مولدة معناها الغبي والحريف والمراد لست من ذوي معاملتك (ولا أغضى) لا أتغافل (صفقة) بيعة (مغبون) هو من باع بدون القيمة (أنذرتك) أعلمتك (أن ينهتك الستر) أي قبل الفضيحة (الوتر) بفتح الواو وكسرها الحقد والبغضاء (فلا تلغ الخ) أي فلا تترك النظر والتأمل بالفكر في عاقبة الامور (حذار) اسم فعل مبني على الكسر بمعنى احذر والمكاذبة بمعنى الكذب (فهت) نطقت (بزور) كذب (دليتك الخ) اما من الدلالة والاصل دللتك بتشديد اللام فقلبت اللام الثانية ياء فرارا من كثرة الامثال كما في تظنيت أصله تظننت أو من قولك دلى الشيء اذا قربه من غيره (بغرور) أي بغير حق (وستخبر) أي ستعلم كنه هذه الحال (وتحمد الخ) أي تجد عاقبتهما حميدة تتمدح بها (فهش) أي فرح (المصدوق) من صدقه الحديث وعرف الصدق (مغذا) مسرعا (يدلح) أي يمشي متثاقلا يقال دلح البعير بحمله دلوحا مشى به متثاقلا وسحابة دلوح والسحب الدوالح

يكلح فوضعهما لدى وضع الممتن على وقال اضرب الجيش بالجيش تحظ بلذة العيش فحسرت عن ساعد النهم وحملت حملة الفيل الملتهم وهو يلحظني كما يلحظ الحنق ويود من الغيظ لو اختنق حتى اذا هلقمت النومين وغادرتهما أثرا بعد عين أفردت حيرة في اطلال البيات وفكرة في جواب الابيات فما لبث أن قام وأحضر الدواة والاقلام وقال قد ملأت الجراب فأمل الجواب والا فتهيأ ان نكلت لاغترام ما أكلت فقلت له ما عندي الا التحقيق فاكتب الجواب وبالله التوفيق

قل لمن يلغز المسائل انى * كاشف سرها الذى تخفيه
ان ذا الميت الذى قدم الشر * ع أخا عرسه على ابن أبيه
رجل زوج ابنه عن رضاه * بحماة له ولا غرو فيه
ثم مات ابنه وقد علقت منه * فجاءت بابن يسر ذويه
فهو ابن ابنه بغير مراء * وأخو عرسه بلا تمويه
وابن الابن الصريح أدنى الى الجد وأولى بارثه من أخيه
فلذا حين مات أوجب للزو * جة ثمن التراث تستوفيه
وحوى ابن ابنه الذى هو فى الاصل أخوها من أمها باقيه
وتخلى الاخ الشقيق من الار * ث وقلنا يكفيك أن تبكيه
هاك منى الفتيا التى يحتذيها * كل قاض يقضى وكل فقيه

قال فلما أثبت الجواب واستثبت منه الصواب قال لى أهلك والليل فشمر الذيل وبادر السيل

التى تسير سيرا ثقيلا من كثرة مائها (يكلح) يعبس (لدى) أى عندى (الجيش بالجيش) أى اخلط أحدهما بالآخر يعنى كلهما معا أو المراد الاسنان العليا بالاسنان السفلى (تحظ) تفز وتغنم (فحسرت) كشفت (النهم) المفرط فى شهوة الطعام (الملتهم) الذى لا يبقى ولا يذر والالتهام الابتلاع الشديد (يلحظنى) أى ينظر الى (الحنق) الغضبان المغتاظ (ويود) يتمنى (لو اختنق) ولم يرد ذلك الا كل منى (هلقمت) التقمت من اللقم والهاء زائدة (النومين) هما التمر واللباء (وغادرتهما) تركتهما (أثرا) خبرا (بعد عين) بعدما كانا يعاينان بالبصر (أفردت حيرة) سكت متحيرا (فى اطلال) حضور واشراف (البيات) المبيت (قد ملأت الجراب) أى البطن وهو كناية عن الشبع (فأمل) أى لقن أمر من الاملاء (فتهيأ) فتأهب (ان نكلت) جبنت وعجزت (لاغترام) غرامة (يلغز) يستر ويعمى ويظهر خلاف ما يضمر (تخفيه) وفى نسخة يخفيه (عرسه) زوجته (بحماة) هى أم زوجته (ولا غرو) ولا عجب (علقت) حملت (يسر ذويه) أى يفرح أهله وفى نسخة له يحكيه (مراء) مماراة وجدال (تمويه) تزيين (الصريح) بالرفع صفة لابن أى الخالص (أدنى) أقرب (التراث) هو الميراث (وحوى) جمع (تخلى) أى لم يدخل فيه (هاك) أى خذ (يحتذيها) يتبعها ويقتدى بها (فقيه) عالم بالفقه (أثبت الجواب) حققت (واستثبت الخ) أى طلبت منه ثبوت الصواب (أهلك والليل) أى بادر أهلك واحذر ظلمة الليل (فشمر الذيل)

فقلت انى بدار غربه · وفى ابوائى أفضل قربه لاسيما وقد أغدف جنح الظلام وسجع الرعد فى الغمام فقال اغرب عافاك الله الى حيث شئت ولا تطمع فى أن تبيت فقلت ولم ذاك مع خلو ذراك قال لانى أنعمت النظر فى التقامك ماحضر حتى لم تبق ولم تذر فرأيتك لاتنظر فى مصلحتك ولا تراعى حفظ صحتك ومن أمعن فيما أمعنت وتبطن ما تبطنت لم يكد يتخلص من كظة مدنفه أو هيضة متلفة فدعنى بالله كفافا واخرج عنى مادمت معافى فوالذى يحيى ويميت مالك عندى مبيت فلما سمعت أليته وبلوت بليته خرجت من بيته بالرغم وتزود الغم تجودنى السماء وتخبط بى الظلماء وتنبحنى الكلاب وتتقاذف بى الابواب حتى ساقنى اليك لطف القضاء فشكرا لبده البيضاء فقلت له أحبب بلقائك المتاح الى قلبى المرتاح ثم أخذ يفتن فى حكاياته ويشمط مضحكاته بمبكياته الى أن عطس أنف الصباح وهتف داعى الفلاح فتأهب لاجابة الداعى ثم عطف الى وداعى فعقته عن الانبعاث وقلت الضيافة ثلاث فناشد وحرّج ثم أمّ المخرج وانشد إذ عرّج

لاتزر من تحب فى كل شهر * غير يوم ولا تزده عليـه

فاجتلاء الهلال فى الشهر يوم * ثم لاتنظر العيون اليـه

قال الحارث بن همام فودعته بقلب دامى القرح ووددت لو أن ليلتى بطيئة الصبح (مقامات الحريرى)

بريد أمره بالحدق السمى ولا يكون الا برفع الثوب الى الساقين (غربة) أى أنا غريب فيها (وفى ابوائى) تبييتى (قربه) هى ما يتقرب به الى الله (لاسيما وقد أغدف الخ) اسود وأرخى سدول ظلمته (وسجع الرعد) أى صوت (أغرب) ابعد واذهب (ذراك) بالفتح أى محلك (أنعمت الخ) أى تأملت جيدا وفى نسخة أمعنت من الامعان وأصله أن تباعد الفرس فى عدوه ومراده بالغت فى النظر (التقامك) أكلك (ولم تذر) تترك وأراد أنه بالغ فى الاكل (ولا تراعى الخ) أراد انك لاتنظر فى عاقبة أمر صحتك (أمعن) أكثر (فيما أمعنت) أكثرت (وتبطن) ملأ بطنه (ماتبطنت) وفى نسخة كما تبطنت أى كما ملأت بطنك (كظة) كالتخمة تعترى الانسان من الامتلاء وقيل الكظة الامتلاء من الطعام (مدنفه) ممرضة من دنف دنفا ثقل من المرض ودنى من الموت (أو هيضة) المراد بها هنا انطلاق البطن عن سوء الهضم (متلفه) مهلكة (كفافا) مسالمة أى تكف عنى وأكف عنك وانتصابه على الحال (معافى) سالما أى قبل أن يصيبك شئ مما ذكرته (أليته) يمينه وقسمه (وبلوت) اختبرت (بليته) كناية عن أمره وحاله وأصل البلية الناقة تعقل عند قبر صاحبها لاتطعم ولا تسقى حتى تموت (بالرغم) أى بالكره والهوان والذل (وتزود الغم) أى جعله الغم زادا (تجودنى السماء) أى تمطرنى بالجود بالفتح أى المطر (تخبط الخ) الباء فيه للتعدية يعنى تحملنى الظلماء على الخبط أى المشى بدون توقى شئ (وتتقاذف) أى تترامى يعنى اذا أردت دخول باب يقذف صاحب البيت بابه الى ويغلقه (فشكرا) منصوب على المصدرية (لبده البيضاء) يعنى الماصنع بى من الجميل (أحبب) كلمة تعجب معناها ما أحب (المتاح) المسهل الميسر (أخذ يفتن الخ) أى شرع يذكرها فنا بعد فن (ويشمط) أى يخلط (عطس أنف الصباح) يعنى بدا أول الصبح (وهتف) نادى (داعى الفلاح) منادى الفوز والمراد المؤذن (فتأهب) أى استعد (الداعى) أى المنادى وهو المؤذن (عطف) مال (وداعى) توديعى (فعقته) عطلته ومنعته (الانبعاث) التوجه والسير (الضيافة ثلاث) هو لفظ حديث ورد عنه صلى الله عليه وسلم وفى نسخة بعد ثلاث ويوجد فى بعض النسخ بعد قوله الضيافة ثلاث (وما حفزك احتثاث وان ترحلت رحلة خرقاء نغصت اللقاء وسوءت الأصدقاء) الحفز الدفع والاحتثاث مصدر احتث مطاوع حثه على الشئ اذا حضه عليه والخرقاء الشديدة التى لا رفق فيها والتنغيص التكدير وقوله وسوءت الخ هو من السوء بالفتح وهو خلاف المسرة (فناشد) أى حلف ويروى فحلف (وحرج) أى ضيق (أم المخرج) أى قصد الباب (عرج) يعنى عطف ومال عن الباب منصرفا (اجتلاء الهلال) مشاهدته (دامى القرح) أى مجروح من فراقه يسيل من جرحه الدم والقرح بالفتح والضم الجراحة وقيل بالضم الجراحة وبالفتح وجعها وحرقتها (ووددت) تمنيت وأحببت (بطيئة الصبح) أى صبحها بطىء يعنى طويلة

من نثر لسان الدين بن الخطيب قوله

سهر الرشيد ليلة وقد مال عليه جيش الارق ميلة وجهد ندماؤه فى جلب راحته والمام النوم بساحته فشحت عيادهم ولم يغن اجتهادهم فقال اذهبوا الى طرق سماها ورسمها وأمهات قسمها فمن عثرتم عليه من طارق ليل أو غثاء سيل أو ساحب ذيل فبلغوه والأمنة سوغوه واستدعوه ولا تدعوه فطاروا عجالا ونفروا ركبانا ورجالا فلم يكن الا ارتداد طرف أو فواق حرف وأتوا بالغنيمة التى اكتسحوها والبضاعة التى ربحوها يتوسطهم الاشعث الاغبر والالج الذى لا يعبر شيخ طويل القامة ظاهر الاستقامة سبلته مشمطه وعلى أنفه من القبع مطه وعليه ثوب مرقوع لطيرالحرق عليه وقوع يهينم بذكر مسموع وينبى عن وقت مجموع فلما مثل سلم ومابس بعدها ولا تكلم فأشار اليه الملك فقعد بعد أن انشمر وابتعد وجلس فما استرق النظر ولا اختلس انما حركة فكره معقودة بزمام ذكره ولحظات اعتباره فى تفاصيل أخباره فابتدر الرشيد سائلا وانحرف اليه مائلا وقال ممن الرجل فقال فارسى الاصل أعجمى الجنس عربى الفصل قال بلدك وأهلك وولدك قال أما الولد فولد الديوان وأما البلد فمدينة الايوان قال النحلة وما أعملت اليه الرحلة قال أما الرحلة فالاعتبار وأما النحلة فالامر الكبار قال فنك الذى اشتمل عليه دنك فقال الحكمة فنى الذى جعلته أثيرا وأضجعت فيه فراشا وثيرا وسبحان الذى يقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما سوى ذلك فتبع ولى فيه مصطاف ومرتبع قال فتعاضد جزال الرشيد وبوفر كانما أغشى وجهه قطعة من الصبح اذا أسفر وقال ما رأيت كالليلة أجمع لامل شارد وأنعم بمؤانسة وارد ياهذا انى سائلك ولن تخيب بعد وسائلك فأخبرنى بما عندك فى هذا الامر الذى بلينا بحمل اعبائه ومنينا بمراوضة ابائه فقال هذا الامر قلادة ثقيله ومن خطة العجز مستقيله ومفتقرة لسعة الذرع وربط السياسة المدنية بالشرع يفسدها الحكم فى غير محله ويكون ذريعة الى حله ويصلحه مقابلة الشكل بشكله ومن لم يكن سبعا أكلا تداعى السباع الى أكله فقال الملك أجملت ففصل وبريت فنصل وكلت فأوصل وانثر الحب لمن يحوصل واقسم السياسة فنونا واجعل لكل لقب قانونا وابدأ بالرعية وشروطها المرعية فقال رعيتك ودائع الله تعالى قبلك ومرآة العدل الذى عليه جبلك ولا تصل الى ضبطهم الا باعانة الله تعالى الذى وهب لك وأفضل ما استدعيت به عونه فيهم وكفايته التى تكفيهم تقديم نفسك عند قصد تقويمهم ورضاك بالسهر لتنويمهم وحراسة كهلهم ورضيعهم والترفع عن تضييعهم وأخذ كل طبقة بما عليها ومالها أخذا يحوط مالها ويحفظ عليها كمالها ويقصر عن غير الواجبات آمالها حتى تستشعر عليتها رأفتك

وحنانك وتعرف أوساطها في النصب امتنانك وتحذر سفلتها سنانك وحظر على كل طبقة منها أن تتعدى طورها أو تخالف دورها أو تتجاوز بأمر طاعتك فورها وسد فيها سبل الذريعة وأقصر جميعها عن خدمة الملك الا بموجب الشريعة وامنع أغنياءها من البطر والبطالة والنظر في شبهات الدين بالتمشدق والاطالة وليقل فيما شجر بين الناس كلامها وترفض ما تنبذ به أعلامها فان ذلك يسقط الحقوق ويرتب العقوق وامنعهم من فحش الحرص والشره وتعاهدهم بالمواعظ التي تجلو البصائر من المره واحملهم من الاجتهاد في العمارة على أحسن المذاهب وانههم عن التحاسد على المواهب ورضهم على الانفاق بقدر الحال والتعزى عن الفائت فرده من المحال وجدد البخل على أهل اليسار والسخا على أولى الاعسار وخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر وامنعهم من تأويلها امنع القاهر ولا تطلق لهم التجمع على من انكروا أمره في فواديهم وكف عنهم أكف تعديهم ولا تبح لهم تغيير ما كرهوه بايديهم ولتكن غايتهم فيما توجهت اليه ابايتهم ونكصت عن الموافقة عليه رايتهم انهاءه الى من وكلته بصالحهم من ثقاتك المحافظين على أوقاتك وقدم منهم من امنت عليهم سكره وجددت على الانصاف شكره ومن كثر حياؤه من التأنيب وقابل الهفوة باستتابة المنيب ومن لا يتخطى عن محله الذى حله فربما عمد الى المبرم فحله وحسن النية لهم بجهد الاستطاعة واغتفر المكاره في جنب حسن الطاعة وان ثار جوادهم واختلف في طاعتك مرادهم فتحصن لثورتهم وانبت لغورتهم فاذا اسالوا وسالوا وتفرقوا وانسلوا فاحتقر كثرتهم ولا تقل عثرتهم واجعلهم لما بين أيديهم وما خلفهم انكالا ولا تترك لهم على حلمك اتكالا ثم قال والوزير الصالح أفضل عددك وأوصل مددك فهو الذي يصونك عن الابتذال ومباشرة الانذال ويثبك على الفرصه وينوب في تجرع الغصه واستجلاء القصه ويستحضر مانسيته من أمورك ويغلب فيه الرأى بموافقة مأمورك ولا يسعه ما تمكنك المسامحة فيه حتى يستوفيه واحذر مصادمة تياره والتجوز في اختياره وقدم استخارة الله تعالى في ايثاره وأرسل عيون الملاحظة على آثاره وليكن معروفا بالاخلاص لدولتك معقود الرضا والغضب برضاك وصولتك زاهدا عما في يديك موثرا لكل ما يزلف لديك بعيد الهمة راعيا للازمة كامل الآلة محيطا بالايالة رحيب الصدر رفيع القدر معروف البيت نبيه الحي والميت موثرا للعدل والاصلاح دربا بحمل السلاح ذا خبرة بدخل المملكة وخرجها وظهورها وسرجها صحيح العقد متحرزا من النقد جيادا عند لهوك مستيقظا في حال سهوك يلين عند غضبك ويصل الاسهاب بمقتضبك قلقا من شكره دونك وحمده ناسبا لك الاصابة بعده وان أعيا عليك وجوداً كثر هذه الخلال

وسبق الى نقضها شئ من الاختلال فاطلب منه سكون النفس وهدوئها وأن لا يرى منك رتبة الارأى قدره دونها وتقوى الله تعالى تفضل شرف الانتساب وهى للفضائل فذلكة الحساب وساو فى حفظك غيبه بين قربه ونأيه واجعل حظه من نعمتك موازيا الحظك من حسن رأيه واجتنب منهم من يرى فى نفسه الى الملك سبيلا أو يقود من عيصه للاستظهار لميلك قبيلا أو من كاثر مالك ماله أو تقدم لعدولك استعماله أو من سمت لسوالك آماله أو من يعظم عليه اعراض وجهك ويهمه نادر نجهك أو من يداخل غير أحبابك أو من ينافس أحدا ببابك وأما الجند فاصرف التقديم منهم للمقاتلة والمكايدة والمخاتلة واستوف عليهم شرائط الخدمة وخذهم بالثبات للصدمة ووف ما أوجبت لهم من الجراية والنعمة وتعاهدهم عند الغناء بالعافية والطعمة ولا تكرم منهم الا من أكرمه غناؤه وطاب فى الذب عن وطنك ثناؤه وول عليهم النبهاء من خيارهم واجتهد فى صرفهم عن الافتتان باهليهم وديارهم ولا توطنهم الدعة مهادا وقدمهم على حصصك وبعوثك مهما أردت جهادا ولا تاذن لهم فى الاغماض عن حسن طاعتك قيادا أو عودهم حسن المواساة بانفسهم اعتيادا ولا تسمح لاحد منهم فى اغفال شئ من سلاح استظهاره أو عدة اشتهاره وليكن ما فضل من شبعهم وريهم مصروفا الى سلاحهم وزيهم والتزيد فى مراكبهم وغلمانهم من غير اعتبار لاثمانهم وامنعهم من المشغلات والمتاجر وما يتكسب به غير المشاجر وليكن من الغزو اكتسابهم وعلى المغانم حسابهم كالجوارح التى تفسد باعتيادها أن تطعم من غير اصطيادها واعلم أنها لا تبذل نفوسها من عالم الانسان الا لمن يملك قلوبها بالاحسان وفضل اللسان ويملك حركاتها بالتقويم ويزنها بالميزان القويم ومن تشق باشفاقه على أولادها ويشترى رضى الله تعالى بصبره على طاعته وجلادها فاذا استشعرت لها هذه الخلال تقدمتك الى مواقف التلف مطيعة دواعى الكلف واثقة منك بحسن الخلف واستبق الى تمييزهم استباقا وطبقهم طباقا أعلاها من تأملت منه فى المحاربة عنك اخطارا وأبعدهم فى مرضاتك مطارا وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزما ووقارا واستهانة بالعظائم واحتقارا وأحسنهم لمن تقلده أمرك من الرعية جوارا اذا أجدت اختبارا وأشدهم على مماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصطبارا ومن يلى فى الذى عن الملك اخلاء واضرارا ولحقه الضر فى معارض الدفاع عنك مرارا وبعده من كانت محبته لك أزيد من نجدته وموقع رأيه أنفع من موقع صعدته وبعدهما من حسن انقياده لامرائك واجتهاده لآرائك ومن جعل نفسه من الامر حيث جعله وكان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده بما فعله واحذر منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه فى الانتفاع ولم يستحى من التزيد باضعاف ما بذله من الدفاع وشكى البخس فيما تعذر عليه من

فوائدك وقاس بين عوائد عدوك وعوائدك وتوعد بانتقاله عنك وارتحاله وأظهر الكراهية لحاله وأما العمال فانهم ينبؤن عن مذهبك وحالهم فى الغالب شديدة الشبه بك فعرفهم فى أمانتك السعادة وألزمهم فى رعيتك العاده وأنزلهم من كرامتك بحسب منازلهم فى الاتصاف بالعدل والانصاف وأحلهم من الحفايه بنسبة مراتبهم من الامانة والكنايه وقفهم عند تقليد الارجاء مواقف الخوف والرجاء وقرر فى نفوسهم أن أعظم مابه اليك تقربوا وفيه تدربوا وفى سبيله أنجموا وأعربوا اقامة حق ودحض باطل حتى لايشكو غريم مطل ماطل وهو آثر لديك من كل رباب هاطل وكفهم من الرزق الموافق عن التصدى لدنى ء المرافق واصطنع منهم من تيسرت كافته وقويت للرعايا ألفته ومن زاد على تأميله صبره وأربى على خبره خبره وكانت رغبته فى حسن الذكر تشف على بنات الفكر واجتنب منهم من يغلب عليه التخرق فى الانفاق وعدم الاشفاق والتنافس فى الاكتساب وسهل عليه سوء الحساب وكانت ذريعة المصانعة بالنفايه دون التقصى والكفايه ومن كان منشوؤه خاملا ولاعباء الزناة حاملا وابغ من يكون الاعتذار فى أعماله أوضح من الاعتذار فى أقواله ولايفتننك ممن قلدته اجتلاب الحظ المقنع والتنفق بالسعى المسمع ومخالفة السنن المرعيه واتباعه رضاك بسخط الرعية فانه قد غشك من حيث بلاك ورشك وجعل من يمينك فى شمالك حاضر مالك ولا تضمن عاملا مال عمله وحل بينه فيه وبين أمله فانك تميت رسومك بعمياه وتخرجه من خدمتك فيه الا أن تملكه اياه ولاتجمع له بين الاعمال فيستقط استظهارك ببلد على بلد والاحتجاج على والد بولد واحرص على أن يكون فى الولاية غريبا ومنتقلة منك قريبا ورهينة لايزال معها مريبا ولاتقبل مصالحته على شىء اختانه ولو برغبة فتانه فتقبل المصانعة فى أمانتك وتكون مشاركا له فى خيانتك ولاتطل مدة العمل وتعاهد كشف الامور ممن يرعى الهمل ويبلغ الامل وأما الولد فأحسن آدابهم واجعل الخير دأبهم وخف عليهم من اشفاقك وحنانك أكثر من غلظة جنانك واكتم عنهم ميلك وأفض فيهم جودك ونيلك ولاتستغرق بالكلف بهم يومك ولا ليلك وابنهم على حسن الجواب وسبق لهم خوف الجزاء على رجاء الثواب وعلمهم الصبر على الضرائر والمهلة عند استخفاف الجرائر وخذهم بحسن السرائر وحبب اليهم مراس الامور الصعبة المراس وحسن الاصطناع والاحتراس والاستكثار من أولى المراتب والعلوم والسياسات والحلوم والمقام المعلوم وكره اليهم مجالسة الملهين ومصاحبة الساهين وجاهد أهواءهم عن عقولهم وحذر الكذب على مقولهم ورشحهم اذا آنست منهم رشدا أو هديا وأرضعهم من الموازرة والمشاورة ثديا لتمرنهم على الاعتياد وتحملهم على الازدياد وروضهم رياضة الجياد واحذر عليهم الشهوات فهى داؤهم وأعداؤك فى الحقيقة وأعداؤهم

وتدارك الاخلاق الذميمة كلما تجمعت واقدعها اذا هجمت قبل أن يظهر تضعيفها ويقوى ضعيفها فان أعجزتك في الصغر الحيل عظم الميل

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت * ولن تلين اذا قومتها الخشب

واذا قدروا على التدبير وتشوفوا للعمل الكبير اياك أن توطنهم في مكانك جهد امكانك وفرقهم في بلدانك تفريق عبدانك واستعملهم في بعوث جهادك والنيابة عنك في سبيل اجتهادك فان حضرتك تشغلهم بالتحاسد والتبارى والتفاسد وانظر اليهم باعين الثقات فان عين الثقة تبصر مالا تبصر عين المحب والمقة وأما الخدم فانهم بمنزلة الجوارح التى تفرق بها وتجمع وتبصر وتسمع فرضهم بالصدق والامانه وصنهم صون الجمانه وخذهم بحسن الانقياد الى ما آثرته والتقليل عما استكثرته واحذر منهم من قويت شهواته وضاقت عن هواه لهواته فان الشهوات تنازعك في استرقاقه وتشاركك في استحقاقه وخيرهم من ستر ذلك عنه بلطف الحيلة وأدأب الفساد محيله وأشرب قلوبهم ان الحق في كل ما حاولته واستنزلته وان الباطل في كل ما جانبته واعتزلته وان من تصفح منهم أمورك فقد أذنب وباين الادب وتجنب وأعط من أكددته واضققت منه ملكه وشددته روحة يشتغل فيها بما يعنيه على حسب صعوبة ما يعانيه تغبطهم فيها بمسارحهم وتجم كلية جوارحهم ولتكن عطاياك فيهم بالمقدار الذى لا يبطر أعلامهم ولا يؤسف الاصاغر فيفسد أحلامهم ولا ترم محسنهم بالغاية من احسانك واترك لمزيدهم فضلة من رفدك ولسانك وحذر عليهم مخالفتك ولو في صلاحك بجدّ سلاحك وامنعهم من التواثب والتشاجر ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر واستخلص منهم لسرك من قلت في الافشاء ذنوبه وكان أصبر على ماينوبه ولو داثعك من كانت رغبته في وظيفة لسانك أكثر من رغبته في احسانك وضبطه لما تقلد من وديعتك أحب اليه من حسن صنيعتك وللسفارة عنك من جلى الصدق في فمه وآثره ولو باختطار دمه واستوفى لك وعليك منهم ما تحمله وعنى بلفظه حتى لا يحمله ولمن تودعه أعداء دولتك من كان مقصور الامل قليل القول صادق العمل ومن كانت قسوته زائدة على رحمته وعظمه في مرضاتك آثر من شحمته ورأيه في الحذر سديد وتحرزه من الحيل شديد ولخدمتك في ليلك ونهارك من لانت طباعه وامتد في حسن السجية باعه وأمن كيده وغدره وسلم من الحقد صدره ورأى المطامع فطامع واستقل اعادة ما سمع وكان بريئا من الملال والبشر عليه أغلب الخلال ولا تؤنسهم منك بقبيح فعل ولا قول ولا تؤيسهم من طول ومكن في نفوسهم ان أقوى شفعائهم وأقرب الى الاجابة من دعائهم اصابة الغرض فيما به وكلوا وعليه شكلوا فانك لا تعدم بهم انتفاعا ولا يعدمون لديك ارتفاعا وأما الحرم فهم مغارس الولد ورياض الخلد

وراحة القلب الذى اجهدته الافكار والنفس التى تقسمها الاحوال الى المساعى والافكار فاطلب منهن من غلب عليهن من حسن الشيم المرتفعة عن القيم مالا يسوءك فى خلدك أن يكون فى ولدك واحذر أن تجعل لفكر بشر دون بصر اليهن سبيلا وانصب دون ذلك عذابا وبيلا وأرعهن من النساء العجز من بانت فى الديانة والامانة سبله وقويت غيرته ونبله وخذهن بسلامة النيات والشيم السيئات وحسن الاسترسال والخلق السلسال وحذر عليهن التغامز والتغاير والتنافس والتخاير وأسينهن فى الاغراض والتصام من الاعراض والمحاباة بالاعراض وأقلل من مخالطتهن فهو أبقى لهمتك وأسبل لحرمتك ولتكن عشرتك لهن عند الكلال والملال وضيق الاحتمال بكثرة الاعمال وعند الغضب والنوم والفراغ من نصب اليوم واجعل مبيتك بينهن تتم بركاتك وتسترح حركاتك وافصل من ولدت منهن الى مسكن تختبر به استقلالها وتعتبر بالتفرد خلالها ولا تطلق لحرمة شفاعة ولا تدبيرا ولا تنط بها من الامر صغيرا وكبيرا واحذر أن يظهر على خدمهن من خروجهن عن القصور وبروزهن من أجمة الاسد الهصور زى بارع ولا طيب للانوف مبارع واخصص بذلك من طعن فى السن وليس من الانس والجن ومن توافر النزوع الى الخيرات قبله وقصر عن جمال الصورة ووسم بالبله ثم لما بلغ الى هذا الحد حمى طيس استحفاره وختم حزبه باستغفاره ثم صمت مليا واستعاد كلاما أوليا ثم قال واعلم يا أمير المؤمنين سدد الله تعالى سهمك لاغراض خلافته وعصمك من الزمان وآفته أنك فى مجلس الفصل ومباشرة الفرع من ملكك والاصل فى طائفة من عز الله تعالى تذب عنك حماتها وتدافع عن حوزتك كماتها فاحذر أن يعدل بك غضبك عن عدل تزرى منه بضاعه أو يهجم بك رضاك على اضاعه ولتكن قدرتك وقفا على الانصاف بالعدل والانصاف واحكم بالسوية واجنح بتدبيرك الى حسن الرويه وخف أن تقعد بك أناتك عن حزم تعين أو تستفزك العجلة فى أمر لم يتبين وأطع الحجة ما توجهت اليك ولا تحفل بها اذا كانت عليك فانقيادك اليها أحسن من ظفرك والحق اجدى من نفرك ولا تردن النصيحة فى وجه ولا تقابل عليها بتجه فتمنعها اذا استدعيتها وتحجب عنك اذا استوعيتها ولا تستدعها من غير أهلها فيشفيك اولوا الاغراض بجهلها واحرص على ان لا ينقضى مجلس جلسته أو زمن اختلسته الا وقد أحرزت فضيلة زائده أو وثقت منه فى ميعادك بفائده ولا يزهدنك فى المال كثرته فتقل فى نفسك اثرته وقس الشاهد بالغائب واذكر وقوع ما لا يحتسب من النوائب فالمال المصون امنع الحصون ومن قل ماله قصرت آماله وتهاون بيمينه شماله والملك اذا فقد خزينه اخنى على أهل الجلدة التى تزينه وعاد على رعيته بالاجحاف وعلى جبايته بالالحاف وساء معتاد عيشه وصغر فى عيون

جيشه ومنواعليه بنصره وانفوا من الاقتصار على قصره وفى المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه وتربط آمال أهل السلاح به والمال نعمة الله تعالى فلا تجعله ذريعة الى خلافه فتجمع بالشهوات بين اتلافك واتلافه واستأنس بحسن جوارها واصرف فى حقوق الله تعالى بعض أطوارها فان فضل المال عن الاجل فأجل ولم يضر ما خلف منه بين يدى الله عز وجل وما ينفقه فى سبيل الشريعة وسد الذريعة مأمون خلفه وماسواه فتعين تلفه واستخلص لنواديك المناصه ومجالسك العامة والخاصه من يليق بولوج عتبها والعروج لرتبها أما العامة فمن عظم عند الناس قدره وانشرح بالعلم صدره أوظهر يساره وكان لله تعالى اخباته وانكساره ومن كان للفتيا منتصبا وبتاج المشورة معتصبا وأما الخاصة فمن رقت طباعه وامتد فيما يليق بتلك المجالس باعه ومن تبحر فى سير الحكما وأخلاق الكرما ومن له فضل سافر وطبع للدنية منافر ولديه من كل ما استتر به الملوك من العوام حظ وافر وحف ألبابهم بحصول خيرك وسكن قلوبهم بيمن طيرك وأغنهم ماقدرت عن غيرك واعلم بان مواقع الحكما من ملكك مواقع المشاعل المتألقة والمصابيح المتعلقة وعلى قدر تعاهدها تبذل من الضياء وتجلو بنورها صور الاشياء وفرعها التحبير ما زين مدتك ويحسن من بعد البلاء جدتك وبعناية الاواخر ذكرت الاول واذا محيت المفاخر خربت الدول واعلم ان بقاء الذكر مشروط بعمارة البلدان وتخليد الآثار العافية فى القاصى والدان فاحرص على ما وضح فى الدهر سبلك ويحرز المزية على من قبلك وان خير الملوك من ينطق بالحجة وهو قادر على القهر ويبذل الانصاف فى السر والجهر مع التمكن من المال والظهر ويسار الرعية جمال الملك وشرف وفاقتهم من ذلك طرف فقلب اليهما الحالين بحالك وأولاهما بظعنك وحالك واعلم ان كرامة الجور دائره وكرامة العدل متكاثره والغلبة بالخير سياده وبالشر هواده واعلم أن من حسن القيام بالشريعة يحسم عنك نكايات الخوارج ويسمو بك الى المعارج فانها تفسد أنواع الخدع وتؤدى لتغير الهدع وأطلق على عدوك أيدى الاقوياء عن الاكفاء والسنة اللفيف من الضعفاء واستشعر عند نكثه شعار الوفا ولتكن ثقتك بالله تعالى أكثر من ثقتك بقوة تجدها وكتيبة تجندها فان الاخلاص يمحك قوى لا تكتسب ويمهدلك مع الاوقات نصرا لا يحتسب والتمس أبدا سلم من سالمك بنفيس ما فى يدك وفضل حاصل يومك على منتظر غدك فان أبى وضحت محجتك وقامت عليه للناس بذلك حجتك فللنفوس على الباغين ميل ولها من جانبه نيل واشهد فى كل يوم سيرة من يناديك واجتهد ان لا يوازيك فى خير ولا يساويك واكذب بالخير ما يشيعه من مساويك ولا تقبل من الاطراء الا ما كان فيك فضل عن اطالته وجد يزرى على بطالته ولا تلق المذنب بحميتك وسبك واذكر عند حركة الغضب

ذنوبك الى ربك ولا تنس الذرب المذنب أجلسك مجلس الفصل وجعل فى قبضتك رياش النصل وتشاغل فى هدنة الايام بالاستعداد واعلم ان التراخى منذر بالاشتداد ولا تهمل عرض دواوانك واختبار أعوانك وتحصين معاقلك وقلاعك وعم ايالتك بحسن اطلاعك ولا تشغل زمن الهدنة بلذاتك فتجنى فى الشدة على ذاتك ولا تطلق فى دولتك ألسن الكهانة والارجاف ومطاردة الآمال العجاف فانه يبعث سوء القول ويفتح باب العول واحذر على المدرسين والمتعلمين والعلماء والمتكلمين حمل الاحداث على الشكوك الخالجه والمزلات الوالجه فانه يفسد طباعهم ويغرى سباعهم ويمد فى مخالفة الملة باعهم وسد سبيل الشفاعات فانها تفسد عليك حسن الاختيار ونفوس الخيار وابذل فى الاسرى من حسن ملكتك ما رضى عن ملكك رقابها وقلدك ثوابها وعقابها وتلق بدر نهارك بذكر الله تعالى فى ترفعك وابتذالك واختم اليوم بمثل ذلك واعلم انك مع كثرة حجابك وكثافة حجابك بمنزلة الظاهر للعيون المطالب بالديون لشدة البحث عن أمورك وتعرف السر الخفى بين آمرك ومأمورك فاعمل فى سرك ما لا تستقبح أن يكون ظاهرا ولا تأنف أن تكون به مجاهرا واحكم برأيك فى الله وبحثك وخف من فوقك يخف من تحتك واعلم أن عدوك من أتباعك من تناسيت حسن قرضه أو زادت مؤنته على نصيبه منك وفرضه فاصمت الحج وتوق اللجج واسترب بالامل ولا يحملنك انتظام الامور على الاستهانة بالعمل ولا تحقرن صغير الفساد فيأخذ فى الاستئساد واحبس الالسنة عن التحالى باغتيابك والتشبث باذيال ثيابك فان سوء الطاعة ينتقل من الاعين الباصره الى الالسن القاصره ثم الى الايدى المتناصره ولا تثق بنفسك فى قتال عدو ناواك حتى تظفر بعدو غضبك وهواك وليكن خوفك من سوء تدبيرك أكثر من عدوك الساعى فى تتبيرك واذا استنزلت ناجما أو أمنت ساترا هاجما فلا تقلده البلد الذى فيه نجم وهمل عارضه فيه وانسجم يعظم عليك القدح فى اختياره والغض من ايثاره واحترز من كيده فى جوارك ومأمنك فانك أكبر همه وليس باكبر همك وحل المملكة بتأمين الفلوات وتسهيل الاقوات وتجديد ما يتعامل من الصرف فى البياعات واجراء العوائد مع الايام والساعات ولا تبخس عيار قيم البضاعات ولتكن يدك عن أموال الناس محجورة وفى احترامها الاعين الثلاثة ماجوره مال من عدا طوره طور أهله وتخارق فى الملابس والزينة وفضول المدينة يروم معارضتك بجمله ومن باطن أعدائك وان اعتدالك ومن أساء جوار رعيتك باحساره وبذل الاذاية فيهم بيمينه ويساره وأضرم امنيت به التعادى بين عبدانك أو فى بلد من بلدانك فسد فيه الباب واسئل عن الاسباب وانقلهم بوساطة أولى الالباب الى حالة الاحباب ولا تطوق الاعلام أطواق المنون بهواجس الظنون فهو أمر لا يقف عند حد ولا ينتهى الى عد واجعل ولدك فى احتراسك حتى لا يطمع فى افتراسك

ثم لما رأى الليل قد كاد ينتصف وعموده يريد أن ينقصف ومجال الوصايا أكثر مما يصف قال يا أمير المؤمنين بحر السياسة زاخر وعمر المتمتع بناديك مستأخر فان أذنت في فن من فنون الانس يجذب بالمقاد الى راحة الرقاد ويعتق النفس بقدرة ذي الجلال من ملكة الكلال فقال أما والله قد استحسنا ما سردت فشأنك وما أردت فاستدعى عودا فاصلحه حتى جدّه وأبعد في اختياره أمده ثم حرك به وأطال الجس ثمه ثم تغنى بصوت يستدعي الانصات ويصدع الحصاة ويستفز الحليم عن وقاره ويستوقف الطير ورزق بنيه في منقاره وقال

صاح ما أعطر القبول بنمه * أتراها أطالت اللبث ثمه
هي دار الهوى منى النفس فيها * أبد الدهر والاماني جمه
ان يكن ما تأرج الكون منها * واستفاد الشذا والانعمه
من لطرفي بنظرة ولانفي * في رباها وفي ثراها بشمه
ذكر العهد فانتفضت كاني * طرقتني من الملائك لمه
وطن قد قضيت فيه شبابا * لم تدنس منه البرود مذمه
بنت عنه والنفس من أجل من قد * خلفته خلاله مغتمه
كان حلما فويح من أمن الدهر * وأعماه جهله وأصمه
تأمل العيش بعد أن خلق الجسم * وبنيانه عسير المرمه
وغدت وفرة الشبيبة بالشيب * على رغم أنفها مغتمه
فلقد فاز سالك جعل الله * الى الله قصده ومأمه
من بنت من غرور دنياه سم * يلدغ القلب أكثر الله همه

ثم أحال اللعن الى لون التنويم فأخذ كل في النعاس والتهويم وأطال الجس في فن الثقيل عاكف عكوف الضاحي في المقيل فخاط عيون القوم بخيوط النوم وعمر بهم المراقد كانما أدار عليهم الفراقد ثم انصرف فما علم به أحد ولا عرف ولما أفاق الرشيد جد في طلبه فلم يعلم بمنقلبه فاسف للفراق وأمر بتخليد حكمه في بطون الاوراق فهي الى اليوم تملي وتنقل وتجلي القلوب بها وتصقل والحمد لله رب العالمين (من نفح الطيب)

محاورة بين السيف والقلم

(للعلامة الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري)

قال العلامة تقي الدين بن حجة الحموي ان الشيخ جمال الدين أظهر في المغايرة بين السيف والقلم ما صدق به قول القائل

واني وان كنت الاخير زمانه * لآت بما لم تستطعه الاوائل

من ذلك قوله في رسالة المفاخرة بينهما والمغايرة في مدح كل منهما وذمه فبرز القلم بافصاحه ونشط لارتياحه ورقي من الانامل على أعواده وقام خطيبا بمحاسنه في حلة مداده والتفت الى السيف فقال

بسم الله الرحمن الرحيم * ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون الحمد لله الذي علم بالقلم وشرفه بالقسم وخط به ما قدر وقسم وصلى الله على سيدنا محمد الذي قال جف القلم بما هو كائن وعلى آله وصحبه ذوي الجد المبين وكل مجد بائن صلاة واضحة السطور فائحة من أدراج الصدور ما نقلت صحف البحار غواديها وكتبت أقلام النور على مهارق الدياجي حكمة باريها أما بعد فان القلم منار الدين والدنيا ونظام الشرف والعليا ومجداح سحب الخير اذا احتاجت الهمم الى السقيا ومفتاح باب اليمن المجرب اذا أعيا وسفير الملك المحجب وعذيق الملك المرجب وزمام أموره السائره وقادمة أجنحته الطائره ومطلق أرزاق عفاته المتواترة وأعلام الهدى المشيرة الى ذخائر الدنيا والآخره به رقم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم التي تهذب الخواطر الخواطل فبينه وبين من يفاخره الكتاب والسنه وحسبه ما جرى على يده الكريمة من منه وفي مراضي الدول عونة للشائدين وبعين الله في ليالي النقس تقلب وجهه في الساجدين ان تظمت فرائد العلوم فانما هو سلكها وان علت أسرة الكتب فانما هو ملكها وان رقت برود البيان فانما هو جلالها وان تشعبت فنون الحكم فانما هو أمانها ومالها واذا انقسمت أمور الممالك فانما هو عصمتها وثمالها وان اجتمعت رعايا الصنائع فانما هو امامها المتلفع بسواده وان ذخرت بحار الافكار فانما هو المستخرج دررها من ظلمات مداده وان وعد أوفي بجلب النفع وان أوعد أخاف كأنما يستمد من النقع هذا وهو لسان الملوك المخاطب ورسيلها لابكار الفتوح والخاطب والمنفق في تعمير دولها محصول انفاسه والمتحمل أمورها الشاقة على عينه وراسه والمتيقظ لجهاد أعدائها والسيف في جفنه نائم والمجهز لبأسها وكرمها جيشي الحروب والمكارم والجاري بما أمر الله من العدل والاحسان

والمسود الناصر فكانما هو لعين الدهر انسان طالما ذب عن حرمها فشد الله أزره ورفع ذكره وقام فى المحاماة عن دينها أشعث أغبر لو أقسم على الله لابره وقاتل على البعد والصوارم فى القرب وأوتى من معجزات النبوة نوعا من النصر بالرعب وبعث جحافل السطور فالقسى دالات والرماح ألفات واللامات لامات والهمزات كواسر الطير التى تتبع الجحافل والاتربة عجاجها المحمر من دم الكلى والمفاصل فهو صاحب فضيلتى العلم والعلم وصاحب ذيلى الفخار فى الحرب والسلم لا يعاديه الا من سفه نفسه ولبس لبسه وطبع على قلبه وفل الجدال من غربه وخرج فى وزن المعارضة عن ضربه وكيف يعادى من اذا كرع فى نفسه قيل انا أعطيناك الكوثر واذا ذكر شانئه السيف قيل ان شانئك هو الابتر أقول قولى هذا وأستغفر الله من الشرف وخيلائه والفخار وكبريائه وأتوكل على الله فيما حكم وأسأله التدبير فيما جرى به القلم ثم اكتفى بما ذكره من أدواته وجلس على كرسى دواته متمثلا بقول القائل

قلم يفل الجيش وهو عرمرم * والبيض ماسلت من الاغماد

وهبت له الآجام حين تشابها * كرم السيول وصولة الآساد

فعند ذلك نهض السيف قائما عجلا وتلمظ لسانه للقول مرتجلا وقال بسم الله الرحمن الرحيم وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز الحمد لله الذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف وشرع حدها فى ذوى العصيان فأغصهم بماء الحتوف وشيد مراتب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وعقد مرصوف وأجناهم من ورق حديدها الاخضر ثمار نعيمها الدانية القطوف وصلى الله على سيدنا محمد هازم الالوف وعلى آله وصحبه الذين طالما محوا بريق الصوارم سطور الصفوف صلاة عاطرة فى الانوف حالية بها الاسماع كالشنوف وسلم أما بعد فان السيف زند الحق الورى وزنده القوى وحده الفارق بين الرشيد والغوى والنجم الهادى الى العز وسبيله والثغر الباسم عن بشير فلوله به أظهر الله الاسلام وقد جنح خفاء وجلى شخص الدين الحنفى وقد جمح جفاء وأجرى سيوفه بالاباطح فأما الحق فمكث وأما الباطل فذهب جفاء وحلته اليد الشريفة النبويه وخصته على الاقلام بهذه المزية وأوضحت به للحق منهاجا وأطلعته فى ليالى النقع والشك سراجا وهاجا وفتحت باب الدين بصباحه حتى دخل فيه الناس أفواجا فهو ذو الرأى الصائب وشهاب العزم الثاقب وسماء العز التى زينت من آثاره بزينة الكواكب والحد الذى كأنه ماء دافق يخرج عند قطع الاجساد من بين الصلب والترائب لا تجحد آثاره ولا ينكر قراره اذا اشتبت فى الدجى والنقع ناره يجمع بين الحالتين البأس والكرم ويصاغ فى طوق الحليتين فهو اما طوق فى نحور الاعداء واما خلخال فى عراقيب أهل النقم ويحسم به أهواء الفتن المضلة ويحذف بهمته الجازمة

حروف العلة واذا انحنى فى سماء القتام بالضرب فقل يسألونك عن الاهلة فهو القوى الاستطاعة الطويل المعمر اذا قصف سواه فى ساعة فما أولاه بطول الاحسان وما أجمل ذكره فى أخبار المعمرين ومقاتل الفرسان كأن الغيث فى غمده للطالب المنتجع وكأنه زناد يستضاء به الا أن دفع الدماء شرره الملتمع كم قد مد فادرك الطلاب ودعا النصر بلسانه المحمر من أثر الدماء فاجاب وتشعبت الدول لقائم نصره المنتظر وحازت أبكار الفتوح بحده الذكر وغدت أيامها به ذات حجول معلومة وغرر وشدت به الظهور وجدت علائقه فى الامور واتخذته الملوك حرزا لسلطانها وحصنا على أوطانها وقطانها وجردته على صروف الاقدار فى شأنها وندب فما أعيت عليه المصالح وباشر الملم فهو على الحقيقة بين الهدى والضلال فرق واضح وأغاث فى كل فصل فهو اما الغمده سعد الاخبيه واما الحامله سعد السعود واما الضده سعد الذابح يجلس على رؤس الاعداء قهرا ويشرح أنباء الشجاعة قائلا للقلم ذلك تأويل مالم تستطع عليه صبرا وهل يفاخر من وقف الموت على بابه وعض الحرب الضروس بنابه وقذفت شياطين القراع بشهبه ومنح آيات شريفة منها طلوع الشمس من غربه ومنها ان الله أنشأ برقه فكان للمارد مصرعا وللرائد مرتعا ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا كم اتخذ من جسد طرسا وكتب عليه حرفا لا ينسى فيه للالباب عبرة وللاذهان السابحة غمرة بعد غمرة أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم من انط يجمع ورأى الى الخصام يجنح ولسان يحوجه اللدد الى أن يخرج فيخرج وأتوكل عليه فى صد الباطل وصرفه وأسأله الاعانة على كل باحث عن حتفه بظلفه ثم اختفى فى بعض الحمائل وتمثل بقول القائل

سل السيف عن أصل الفخار وفرعه * فانى رأيت السيف أفصح مقولا

فلما وعى القلم خطبته الطويلة الطائلة ونشطته الجليلة الجائلة وفهم كنايته وتلويحه وتعريضه بالذم وتصريحه وتعديله فى الحديث وتجريحه استغاث باللفظ النصير واحتد وما أدرك ماحدة القصير وقام فى دواته وقعد واضطرب فى وجه القرطاس وارتعد وعدل الى السب الصراح ورأى أنه ان سكت تكلم ولكن بافواه الجراح فانحرف الى السيف وقال أيها المعتز بطبعه المغتر بلمعه الناقض حبل الانس بقطعه الناسخ بهجيره من ظلال العيش فيأ السراب الذى يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ الحبيس الذى طالما عادت عليه عوائد شره الكمين الابليس الذى لو أمر لى بالسجود لقال خلقتنى من نار وخلقته من طين أتعرض بسبى وتتعرض لمكايد حربى ألست ذا الخدع البالغة والحرب خدعة والمنن النافعة ولا خير فيمن لا تبغى الانام نفعه ألست المسود الاحق بقول القائل

نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الجود والاقداما

أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع وأنا للعطاء وأنت للمنع وأنا للصلح وأنت للضراب وأنا للعمارة وأنت للخراب وأنا المعمر وأنت المدمر وأنت المقلد وأنا صاحب التقليد وأنت العابث وأنا المجود ومن أولى من القلم بالتجويد فما أقبح شبهك وما أشنع يوما ترى فيه العيون وجهك أعلى مثلي يشق القول ويرفع الصوت والصول وأنا ذو اللفظ المكين وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين فقد تعديت حدك وطابت مالم تبلغ به جهدك هيهات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريح والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح والساهر وقد مهد لك في الغمد مضجع والجالس عن يمين الملك وأنت عن يساره فأى الحالتين أرفع والساعي في تدبير حال القوم والمغني لنفعهم العمر اذا كان نفعك يوما أو بعض يوم فاقطع عنك أسباب المفاخرة واستر أنيابك عند المكاشرة فما يحسن بالصامت مجاورة المفصح والله يعلم المفسد من المصلح على أنه لاينكر لمثلك التصدى ولا يستغرب منه على مثلي التعدى ما أنا أول من أطاع البارى وتجرأت عليه ومددت يد العدوان اليه أولست الذى قيل فيه شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم قد سلبت الرحمة وانما يرحم الله من عباده الرحماء وجلبت القسوة فكم هجت سبة حمراء وأثرت دهماء وخمشت الوجوه كيف لا وأنت كالظفر كونا وقطعت اللذات ولم لا وأنت كالصبح لونا أين بطشك من حلمى وجهلك من علمى وجسمك من جسمى شتان ما بين جسم صيغ من ذهب وذاك جسمى وجسم صيغ من بهق أين عينك الزرقاء من عيني الكحيله ورؤيتك الشنعاء من رؤيتى الجميله أين لون الشيب من لون الشباب وأين نذير الاعداء من رسول الاحباب هذا وكم أكلت الا كباد غيظا وحييت الاضغان قيظا وشكوت الصداء فسقيت ولكن بشواظ من نار وأخنت عليك الايام حتى اتصل بابعاضك الجمار ولولا تعرضك الى لما وقعت في المقت ولولا اساءتك لما كنت تصقل في كل وقت فدع عنك هذا الفخر المديد وتأمل وصفي اذا كشف عنك الغطاء فبصرك اليوم حديد وافهم قول ابن الرومي

ان يخدم القلم السيف الذى خضعت * له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لاشئ يعادله * مازال يتبع ما يجرى به القلم
بذا قضى الله فى الاقلام اذ بريت * ان السيوف لها مذ أرهفت خدم

فعند ذلك وثب السيف على قده وكاد الغضب يخرجه عن حده وقال أيها المتطاول على قصره والماشي على طريق غروره والمتعرض منى الى الدمار والمتحرش بى فهو كما تقول العامة ذنبه قش ويحترس بالنار لقد شمرت عن ساقك حتى أغرقتك الغمرات وأتعبت نفسك فيما لا تدرك الى أن

أذهبها الذهب حسرات أولست الذى طالما أرعش السيف للهيبة عطفك ونكس للخدمة رأسك وطرفك وأمر بعض رعيته وهو السكين فقطع قفالك وشق أنفك ورفعك فى مهمات خامله وحطك وجذبك للاستعمال وقطك فليت شعرى كيف جسرت وعبست على مثلى وبسرت وأنت السوقة وأنا الملك وأنا الصادق وأنت المؤتفك وأنت لصون الحطام وأنا لصون الممالك وأنت لحفظ المزارع وأنا لحفظ المسالك وأنت للفلاحة وأنا للفلاح وأنت حاطب الليل من نفسه وأنا سارى الصباح وأنا الباصر وأنت الارمد وأنا المخدوم الابيض وأنت الخادم الاسود وأقسم بمن صير فى قبضتى أنواع اليمن المسخره وجعل شخصك وشخصى كقوله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة انك عن بلوغ قدرى لا تزل رتبة وعن نزى كفى لا تخيب طلبه فانى لا أنكر قول بعض أربابك حيث قالوا

أف لرزق الكتبه * أف له ما أصعبه

يرتشف الرزق به * من شق تلك القصبه

يا قلما يرفع فى الطرس لوجهى ذنبه

ما أعرف المسكين الا كاتبا ذا متربه

ان عاينت الديوان وقعت فى الحساب والعذاب أو البلاغة سحرت وبالغت فأنت ساحر كذاب أو فخرت بتقييد العلوم فمالك منها سوى لمحة الطرف أو برقم المصاحف فانك تعبد الله على حرف أو جمعت عملا فانما جمعك التكسير أو رفعت الى طرفك رجع البصر خاسئا وهو حسير وهل أنت فى الدول الاخيال تكتنفى الهمم بطيفه أو أصبع يلعق بها الرزق اذا أكل الضارب بقائم سيفه وساع على رأسه قل ما أجدى وسار ربما أعطى قليلا وأكدى ثم وقف وأكدى أين أنت من حظى الاسنى وكنى الاغنى وما خصصت به من الجوهر الفرد اذا عجزت أنت عن العرض الادنى كم برزت فما أغنيت فى مهمه وكم خرجت من دواتك لتسطر سيئة فخرجت كما قيل من ظلمة الى ظلمه وهب انك كما قلت مفتوق اللسان جرى الجنان مداحل بمخلبك بين ذوى الاقتناص معدود من شياطين الدول وأنت فى الطرس أو النفس بين بناء وغواص فلو جريت خلفى الى أن تحفى وصحبت بصر برك الى أن تخفت وتخفى لما كنت منى الا بمنزلة المدرة من السماك الرامح والبعرة على تيار الخضم الطافح فلا تعد نفسك بحجزى فانك ممن يمن ولا تحلف لها أن تبلغ مداى فليس لخضوب البنان يمين ومن صلاح نجمك أن تعترف بفضلى الاكبر وتؤمن بمعجزتى التى بعثت منك الى الاسود والاحمر لتستوجب حقا وتسلم من نار حر تلظى لا يصلاها الا الاشقى وان لم ينفع لرأيك الا الاصرار وأبت خصائد لسانك الا أن توقعك فى النار فلا رعى الله عزائمك القاصره

ولا جمع عقارب ليل نفسك التي ان عادت فان نعال السيوف لها حاضره ثم قطع الكلام وتمثل بقول أبي تمام

السيف أصدق انباء من الكتب * في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لاسود الصحائف في * متونهن جلاء الشك والريب

فلما تحقق تحريف القلم حرجه وفهم مقدار الغيظ الذي أخرجه وسمع هذه المقالة التي يقطر من جوانبها الدم ورأى أنه هو البادي بهذه المناقشة والبادي أظلم رجع الى خداعه وتنحى عن طريق قراعه وعلم أن الدهر دهره والقدر على حكم الوقت قدره وانه أحق بقول القائل

لحنها معرب وأعجب من ذا * ان اعراب غيرها ملحون

فالتفت اليه وقال أيها المتلهب في قدحه والخارج عما نسب اليه من صفحه ماهذه الزيادة في السباب والتطفيف في كيل الجواب وأين علم الشيوخ عند جهل الشباب أما كان الاحسن بك أن تترك هذا الرفث وتلم أخاك على الشعث وتحلم كما زعمت انك السيد وتزكو على الغيظ كما تزكو على النار الجيد أما تعلم أني معينك في تشييد الممالك ورفيقك فيما تسلكه لنفعهما من المسالك أما أنا وأنت للملك كاليدين وفي تشييده كالركنين الاشدين وما أراك عبتني في الاكثر الا بنحول جسدي الذي ليس خلقه علي وضعفه الذي ليس أمره الي على أن أشهى الخصور أنحفها وأقوى الجفون أضعفها وأزكى النسمات أعلاها وأدنفها وهذه سادات العرب تعد ذلك من فضلها الاظهر وحسنها الاشهر ولولا أنك تقول بالفصاحة وتقف في هذه الساحة لاسمعتك في ذلك من أشعارهم وأتحفتك بما يفخرون به من آثارهم وكذلك عبتك سواد خلقتي التي أكسبها الحب حلية صبغت صبغة حب القلوب والحدق فيالله ويا للحجر الاسود من هذه الحجة البائره والكرة الخاسره وعلى هذه النسبة ماعبتني به من فقر الانبياء وذل الحكماء على أن اطلاقات معروفي معروفه وسطوات أمري في وجوه الاعداء المكسوفة مكشوفه فاستغفر الله عما فرط في مقالك والتفويض من عوائد احتمالك فلا تشمت بنا الاضداد ولا تسلط بفرقتنا المفسدين في الارض ان الله لا يحب الفساد واغضض الآن من خيلائك بعض هذا الغض ولا تشك اني قسيمك ولو قيل لك ياداود انا جعلناك خليفة في الارض وان أبيت الا أن تهدد وتجرد الشغب وتحدد فاذكر محلنا من اليد الشريفة السلطانية الملكية المؤيدية أبد الله نعمها وجاز بالاحسان شيمها وأيقظ في الآجال والآمال سيفها وقلمها ولا عطل مشاهد المدح من أنسها ولا أخلى فرائض الكرم والباس من قيام خمسها فاقسم بمن بأسه بالليل وما وسق ومن بشر طلعته بالقمر اذا اتسق لو تجاور الاسد والظباء بتلك اليد لورد الظبا الامن

فى منهل و رتعا فى روض لا يجهل ولو لجأ اليها النهار لما راعه بمشيئة الله الليل بزجر أو الليل لما غلب على خيطه الاسود الخيط الابيض من الفجر وعلى ذلك فما ينبغى لنا بين تلك الانامل غير سلوك الادب والمعاضدة على محو الازمات والنوب والاستقامة على الحق ولا عوج والحديث من تلك الراحة عن البحر ولا حرج هذه نصيحتى اليك والدين النصيحة والله تعالى يطلعك على معانى الرشد الصريحة ويجعل بينك وبين الغى حجابا مستورا وينسيك ما تقدم من القول وكان ذلك فى الكتاب مسطورا فعند ذلك نكس السيف طرفه وقبل خديعة القلم قائلا لامر ما جدع قصير أنفه وأمسك عن المشاغبة خيفة الزلل فان السيوف معروفة بالخلل ثم قال أيها الضعيف الجبار البازغ فى ليل المداد نجما وكم فى النجوم غرار لقد تظلمت من أمر أنت البادئ بظلمه وتسورت الى فتح باب أنت السابق الى فتح ختمه فقد فهمت الآن ما ذكرت من أمر اليد الشريفة ونعم ما ذكرت وأحسن ما أشرت وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره وقد تغافلت عن قولك الاحسن ورددتك الى أمك الدواة كى تقر عينها ولا تحزن وسألت الله تعالى أن يزيد محاسن تلك اليد العالية تماما على الذى أحسن فانها اليد التى

لو أثر التقبيل فى يد منعم * لمحا براجم كفها التقبيل

والراحة التى

تسعى القلوب لغوثها ولغيثها * فيجيبه التأمين والتأميل

والانامل التى علمها الله بالسيف والقلم ومكنها من رتبتى العلم والعلم ودار لك بكرمها آمال العفاة بعد أن ولاولم ولولا أن هذا المضمار يضيق عن وصفه السابق الى غاية الفضل ومجده الذى اذا جر ذيله ود الفضل لو تمسك منه بالفضل لأطلت الآن فى ذكر مجدها الاوضح وأفصحت فى مدحها ولا ينكر لمثلها ان أنطقت الصامت فافصح ثم انك بعد ما تقدم من القول المزيد والمجادلة التى عز أمرها على الحديد أقررت أنت أننا الملك كاليدين ولم تقر أيناليمين وفى آفاقه كالقمرين ولم تذكر أينا الواضحة الجبين ومايشفى ضناى ويروى صداى الا أن يحكم بيننا من لا يرد حكمه ولا يتهم فهمه فيظهر أينا المفضول من الفاضل والمخذول من الخاذل ويقصر عن القول المناظر ويستريح المناضل وقد رأيت أن يحكم بيننا المقام الاعظم الذى أشرت الى يده الشريفة وتوسلت بمحاسنها اللطيفة فانه مالك زمامنا ومنشأ غمامنا ومصرف كلامنا وحامل أعبائنا الذى ماهوى للهوى وصاحب أمرنا ونهينا وتالله ماضل صاحبكم وماغوى ليفصل الامر بحكمه ويقدمنا الى مجلسه الشريف فيحكم بيننا بعلمه فتقدم خيرة الله على ذلك الاشتراط وقل بعد تقبيلنا الارض له فى ذلك البساط خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى

سواء الصراط فنشط القلم فرحا ومشى فى أرض الطرس مرحا وطرب لهذا الجواب وخر راكعا وأناب وقال سمعا وطاعه وشكرا لله على هذه الساعه (يا برد ذاك الذى قالت على كبدى) الآن ظهر ما تبغيان وقضى الامر الذى فيه تستفتيان وحكم بينكما الرأى المنير ونبأ نابحقيقة الامر ولا ينبئك مثل خبير ثم تفاصلا على ذلك وتراضيا على ما يحكم به المالك وكانوا أحق بها وأهلها وانتبه المملوك من سنة فكره وظالع بما اختلج سواد هذه الليلة فى سره والله تعالى يديم أيام مولانا السلطان التى هى نظام المفاخر ومقام المآثر وغوث الشاكى وغياث الشاكر ويمتع بظلال مقامه الذى لا تكسر الايام مقدار ما هو جابر ولا تجبر ما هو كاسر ان شاء الله تعالى * تمت رسالة الشيخ جمال الدين التى كشف بها عن قناع المغايرة وأتى فيها بكل مثال ليس له مثيل ووسمها بصاحب حماة فاطاعه عاصى الادب ووهب الله له على الكبر اسماعيل (وهذا اخر الرسالة والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا)

الباب السادس فى المراسلات والمنشآت

هذه صورة عهد كتبه سيدنا على كرم الله وجهه لمالك المعروف بالاشتر النخعى حين أرسله واليا على مصر وهو من أجل أصحابه وكان يقول فيه مالك لى كما كنت للنبى صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به عبد الله على أمير المؤمنين مالك بن الحارث الاشتر فى عهده حين ولاه مصر جباية خراجها وجهاد عدوّها واصلاح أهلها وعمارة بلادها أمره بتقوى الله وايثار طاعته واتباع ما أمر به فى كتابه من فرائضه وسننه التى لا يسعد أحد الا باتباعها ولا يشقى الا مع جحودها واضاعتها وان ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه فانه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره واعزاز من أعزه وأمره أن يكسر من نفسه عند الشهوات ويزعها عند الجمحات فان النفس أمّارة بالسوء الا ما رحم الله ثم اعلم يا مالك انى قد وجهتك الى بلاد قد خبرت دول قبلك من عدل أو جور وأن الناس ينظرون من أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك كما كنت تقوله فيهم وانما يستدل على الصالحين بما يجرى الله لهم على ألسنة عباده فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك فان الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحبت وكرهت واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فانهم صنفان اما أخ لك فى الدين واما نظير لك فى الخلق تفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب وترضى ان يعطيك الله من عفوه وصفحه فانك فوقهم ووالى الامر عليك فوقك والله فوق من ولاك وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم ولا تنصبن نفسك لحرب الله فانه لا يدى لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ولا تندمن على عفو ولا تبجحن بعقوبة ولا تسرعن الى بادرة وجدت عنها مندوحة ولا تقولن انى مؤمر آمر فاطاع فان ذلك ادغال فى القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير واذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر الى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك فان ذلك يطامن اليك من طماحك ويكف عنك من غربك ويفىء اليك بما عزب عنك من عقلك واياك ومساماة الله فى عظمته والتشبه به فى جبروته فان الله يذل كل جبار ويهين كل مختال انصف الله وانصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك فانك الا تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان لله حربا حتى ينزع ويتوب وليس شىء أدعى الى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من اقامة على ظلم فان الله سميع دعوة المظلومين

وهو للظالمين بالمرصاد ولكن أحب الامور اليك أوسطها فى الحق وأعمها فى العدل وأجمعها لرضى الرعية فان سخط العامة يجحف برضى الخاصة وان سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤنة فى الرخاء وأقل معونة له فى البلاء وأكره للانصاف وأسأل بالالحاف وأقل شكرا عند الاعطاء وأبطأ عذرا عند المنع وأضعف صبرا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة وانما عمود الدين وجماع المسلمين والعدة للاعداء العامة من الامة فليكن صفوك لهم وميلك معهم وليكن أبعد رعيتك منك وأشنؤهم عندك أطلبهم لمعائب الناس فان فى الناس عيوبا الوالى أحق بسترها فلا تكشفن عما غاب عنك منها فانما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك أطلق عن الناس عقدة كل حقد واقطع عنك سبب كل وتر وتغاب عن كل ما لا يصلح لك ولا تعجلن الى تصديق ساع فان الساعى غاش وان تشبه بالناصحين ولا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ولا جبانا يضعفك عن الامور ولا حريصا يزين لك الشره بالجور فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله شر وزرائك من كان قبلك للاشرار وزيرا ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة فانهم أعوان الأئمة واخوان الظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لا يعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على اثمه أولئك أخف عليك مؤنة وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفا وأقل لغيرك الفا فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم لك بمر الحق وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لاوليائه واقعا ذلك من هواك حيث وقع والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدنى من العزة ولا يكونن المحسن والمسىء عندك بمنزلة سواء فان فى ذلك تزهيدا لأهل الاحسان فى الاحسان وتدريبا لاهل الاساءة على الاساءة وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه واعلم أن ليس شئ بأدعى الى حسن ظن وال برعيته من احسانه اليهم وتخفيفه المؤنات عليهم وترك استكراهه اياهم على ما ليس له قبلهم فليكن منك فى ذلك أمر يجمع لك حسن الظن برعيتك فان حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا وان أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده وان أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الامة واجتمعت بها الالفة وصلحت عليها الرعية ولا تحدثن سنة تضر بشئ مما مضى من تلك السنن فيكون الاجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت منها وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك واقامة ما استقام به الناس قبلك واعلم ان الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ولا غنى ببعضها

عن بعض فنها جنود الله ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها قضاة العدل ومنها عمال الانصاف والرفق ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة وكل قد سمى الله سهمه ووضع على حده وفريضته فى كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهدا منه عندنا محفوظا فالجنود باذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الامن وليس تقوم الرعية الا بهم ثم لا قوام للجنود الا بما يخرج الله تعالى لهم من الخراج الذى يقوون به فى جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما أصلحهم ويكونون من وراء حاجتهم ثم لا قوام لهذين الصنفين الا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الامور وعوامها ولا قوام لهم جميعا الا بالتجار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمون من أسواقهم ويكفونهم من الترفق بايديهم مما لا يبلغه رفق غيرهم ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم وفى الله لكل سعة ولكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه فول من جنودك أنصحهم فى نفسك لله ولرسوله ولامامك وأطهرهم جيبا وأفضلهم حلما ممن يبطئ عن الغضب ويستريح الى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو على الاقوياء ممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف ثم الصق بذوى المروآت والاحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فانهم جماع من الكرم وشعب من العرف ثم تفقد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما ولا يتفاقمن فى نفسك شئ قويتهم به ولا تحقرن لطفا تعاهدهم به وان قل فانه داعية الى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها فان لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه وليكن آثر رؤس جندك عندك من واساهم فى معونته وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهلهم حتى يكون همهم هما واحدا فى جهاد العدو فان عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك ولا تصح نصيحتهم الا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم فافسح فى آمالهم وواصل من حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذو البلاء منهم فان كثرة الذكر لحسن فعالهم تهز الشجاع وتحرك الناكل ان شاء الله تعالى ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ولا تضمن بلاء امرئ الى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرئ الى أن تعظم من بلائه ما كان صغيرا ولا ضعة امرئ أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما واردد الى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الامور فقد قال الله سبحانه لقوم أحب ارشادهم يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم

فى شئ فردوه الى الله والرسول فالرد الى الله الأخذ بمحكم كتابه والرد الى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر عن الفئ الى الحق اذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بادنى فهم دون أقصاه أوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشيف الامور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وافسح له فى البذل ما يزيح علته ويقل معه حاجة الى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك لتأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك فانظر فى ذلك نظرا بليغا فان هذا الدين قد كان أسيرا فى أيدى الاشرار يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا ثم انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختبارا ولا تولهم محاباة وأثرة فانهم جماع من شعب الجور والخيانة وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الاسلام المتقدمة فانهم أكرم أخلاقا وأصح اعراضا وأقل فى المطامع اشرافا وأبلغ فى عواقب الامور نظرا ثم أسبغ عليهم الارزاق فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو خانوا أمانتك ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فان تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الامانة والرفق بالرعية وتحفظ من الاعوان فان أحد منهم بسط يده الى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدا فبسطت عليه العقوبة فى بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لان الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك فى عمارة الارض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره الا قليلا فان شكوا ثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو احالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن عليك شئ خففت به المؤنة عنهم فانه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمدا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم اليه لما سبق من عدلك عليهم ورفقك بهم فربما حدث من الامور ما اذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم فان العمران يحتمل ما حملته وانما يأتى خراب الارض من اعواز أهلها وانما يعوز أهلها الاشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر ثم انظر فى حال كتابك فول على أمورك خيرهم واخصص رسائلك التى تدخل فيها مكايدك وأسرارك بأجمعهم لوجوه

صالح الاخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملأ ولا تقصر به الفضيلة عن ان يراد مكاتبات عمالك عليك واصدار جواباتها على الصواب عنك وفيما يأخذ لك ويعطى منك ولا يضعف عقدا اعتقده لك ولا يعجز عن اطلاق ما عقد عليك ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الامور فان الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل ثم لا يكن اختيارك اياهم على فراستك وحسن الظن منك فان الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والامانة شئ ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم فى العامة أثرا وأعرفهم بالامانة وجها فان ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره واجعل لرأس كل من أمورك رأسا منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها ومهما كان فى كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات وأوص بهم خيرا المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه فانهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المتباعد والمطارح فى برك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترؤن عليها فانهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته وتفقد أمورهم بحضرتك وفى حواشى بلادك واعلم مع ذلك ان فى كثير منهم ضيقا فاحشا وشحا قبيحا واحتكارا للمنافع وتحكما فى البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه فنكل به وعاقب من غير اسراف ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى فان فى هذه الطبقة قانعا ومعترا واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافى الاسلام فى كل بلد فان للاقصى منهم مثل الذى للادنى وكل قد استرعيت حقه ولا يشغلنك عنهم بطر فانك لا تعذر بتضييع التافه لاحكامك الكثير المهم فلا تشخص همك عنهم ولا تصعر خدك لهم وتفقد أمور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال ففرغ لاولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع اليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالاعذار الى الله سبحانه يوم تلقاه فان هؤلاء من بين الرعية أحوج الى الانصاف من غيرهم وكل فاعذر الى الله فى تأدية حقه اليه وتعهد أهل اليتم وذوى الرقة فى السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسئلة نفسه وذلك على الولاة ثقيل وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم واجعل لذوى الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذى خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى غير موطن لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف

فيها حقه من القوى غير متعتع ثم احتمل الخرق منهم والعي ونح عنه الضيق والانفة يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته وأعط ما أعطيت هنيأ وامنع في اجمال واعذار ثم أمور من أمورك لابد لك من مباشرتها منها اجابة عمالك بما يعيي عنه كتابك ومنها اصدار حاجات الناس عند ورودها عليك مما يحرج صدور أعوانك وأمض لكل يوم عمله فان لكل يوم ما فيه واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الاقسام وان كانت كلها لله اذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية وليكن في خاصة ما تخلص لله به دينك اقامة فرائضه التي هي له خاصة فاعط الله من بدنك في ليلك ونهارك ووف ما تقربت به الى الله سبحانه من ذلك كاملا غير مثلوم ولا منقوص بالغا من بدنك ما بلغ واذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفرا ولا مضيعا فان في الناس من به العلة وله الحاجة وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجهني الى اليمن كيف أصلي بهم فقال صل بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما وأما بعد هذا فلا تطولن احتجابك عن رعيتك فان احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالامور والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل وانما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الامور وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب وانما أنت أحد رجلين اما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه أو فعل كريم تسديه أو مبتلي بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسئلتك اذا أيسوا من بذلك مع أن أكثر حاجات الناس اليك ما لا مؤنة فيه عليك من شكاة مظلمة أو طلب انصاف في معاملة ثم ان للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة انصاف في معاملة فاحسم مؤنة أولئك بقطع أسباب تلك الاحوال ولا تقطعن لاحد من حاشيتك وخاصتك قطيعة ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم فيكون مهنأ ذلك لهم دونك وعيبه عليك في الدنيا والآخرة وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد وكن في ذلك صابرا محتسبا واقعا ذلك من قرابتك وخواصك حيث وقع وابتغ عاقبته بما يثقل عليك فان مغبة ذلك محمودة وان ظنت الرعية بك حيفا فأصحر لهم بعذرك واعدل عنك ظنونهم باصحارك فان في ذلك اعذارا تبلغ فيه حاجتك من تقويمهم على الحق ولا تدفعن صلحا دعاك اليه عدوك لله فيه رضا فان في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمنا لبلادك ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فان العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالامانة واجعل نفسك

جنة دون ما أعطيت فانه ليس من فرائض الله شئ الناس أشد عليه اجتماعا مع تفريق أهوائهم
وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا
من عواقب الغدر فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك فانه لا يجترئ على
الله الا جاهل شقي وقد جعل الله عهده وذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته وحريما يسكنون الى
منعته ويستفيضون الى جواره فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ولا تعقد عقدا تجوز فيه
العلل ولا تعولن على لحن القول بعد التأكيد والتوثقة لضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب
انفساخه بغير الحق فان صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف
تبعته وان تحيط بك فيه من الله طلبة لا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك اياك والدماء وسفكها
بغير حلها فانه ليس شئ أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك
الدماء بغير حقها والله سبحانه يتول الحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا
تقوين سلطانك بسفك دم حرام فان ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ولا عذر لك عند
الله ولا عندي في قتل العمد لان فيه قود البدن وان ابتليت بخطا وأفرط عليك سوطك أو يدك
بعقوبة فان الوكزة وما فوقها مقتلة فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي الى أولياء المقتول
حقهم واياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء فان ذلك من أوثق فرص
الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من احسان المحسن واياك والمن على رعيتك والتزيد فيما
كان من فعلك وان تعدهم فتتبع موعدك بخلفك فان المن يبطل الاحسان والتزيد يذهب
بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس قال الله سبحانه كبر مقتا عند الله أن تقولوا
ما لا تفعلون واياك والعجلة بالامور قبل أوانها والتساقط فيها عند امكانها أو اللجاجة فيها اذا
تنكرت أو الوهن عنها اذا استوضحت فضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه واياك
والاستئثار بما الناس فيه أسوة والتغابي عما تعنى به مما قد وضح للعيون أي الجواسيس فانه مأخوذ
منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطية الامور وينتصف منك للمظلوم املك حمية نفسك
وسورة حدك وسطوة يدك وعقرب لسانك واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة
حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد الى
ربك والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أو سنة فاضلة أو أثر عن
نبينا صلى الله عليه وسلم أو فريضة في كتاب الله فتقتدي بما تشاهده مما عملنا به فيها وتجتهد لنفسك
في اتباع ما عهدت اليك في عهدي هذا واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك لكي لا يكون لك علة
عند تسرع نفسك الى هواها وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على اعطاء كل رغبة أن

يوفقني واياك لما فيه رضاه من الاقامة على العذر الواضح اليه والى خلقه مع حسن الثناء فى العباد وجميل الاثر فى البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة انا الى الله راغبون والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين

كتاب من انشاء الفاضل ابن نباتة المصرى عن ملكه صلاح الدين يوسف من مصر الى مقر الخلافة ببغداد بالبشارة عن فتح بلد من بلاد النوبة وانهزام ملكها وعساكره

صلوات الله التى أعدها لاوليائه وادخرها وتحياته التى قذف بشهبها شياطين أعدائه ودحرها وبركاته التى دعا بها كل موحد فأجاب وانقشع بها غمام الغم وظلام الظلم فانجاب عن أنجاب وزكاته التى هى للمؤمنين سكن وسلامه الذى لايعترى الموقنين فى ترديده حصر ولا لكن على مولانا عاقد ألوية الايمان وصاحب دور الزمان وساحب ذيل الاحسان وغالب حزب الشيطان الذى زلزلت أمامه قدم الباطل وحلت خلافته ترائب الدهر العاطل واقتضت سيوفه ديون الدين من كل غريم ماطل وأمضت غرب كل عزم للحق مفلول وأطلعت غارب نجم كل هدى آفل وشفعت بقطات استغفاره الى غافر ذنب كل غافل وعلى آبائه الغاية والمفزع والملاذ فى وقت الفزع والقائمين بحقوق الله اذ قعد الناس والحاكمين بعدل الله اذ عدم القسطاس والمستضيئين بانوار الالهام الموروثة من الوحى اذ أعجز الاقتباس والصابرين فى البأساء والضراء وحين الباس خزان الحكم وحفاظها ومعانى النعم وألفاظها واعلام العلوم المنشورة الى يوم القيامة وكالئ الروح المنتشرة بكلاءة يد الامامة ولا ينفذ سهم عمل الا اذا شحذ بولايتهم ولا يتألق صبح هداية الا اذا استصبح السارى بدلالتهم الملوك يقبل الارض بمطالع الشرف ومنازله ومرابع المجد ومعاقله ومجالس الجود ومجال السجود ومختلف أبناء الرحمة المنزلة ومرسى أطوار البسيطة المتزلزلة ومفتر مباسم الامامة ومجر مساحب الكرامة ومكان جنوح أجنحة الملائكة حيث يدخلون من كل باب مسلمين وتتبعهم ملوك الارض مستسلمين ومشاهد الاسلام كيوم أنزل فيه اليوم أكملت لكم دينكم ومعاقد على الولاية فأما غيره فله قوله قاتلوا الذين يلونكم ويناجيها بلسان جلى الاخلاص الصادق عقيدته ونشاط الولاء السابق عقيلته وأرهف الايمان الناصع مضاربه وأفسح المعتقد الناصح مذاهبه فأعرب عن خاطر لم يخطر فيه لغير الولاء خطره وقلب أعانه على ورود الولاء صفاء المصافاة فيه قطره والله سبحانه يزيل عنه فى شرف المثول عوائق القدر وموانعه ويكشف له عن قناع الانوار التى ليست همته بعادون نظرها قانعه وكان توجه منصور الجيش دعائه قبل جيش لوائه وبعسكر اقباله قبل عسكر قتاله وبنصال سلطانه قبل نصال أجفانه لاجرم أن كتائب الرعب

سارت أمام الكتائب وقواضب الحذر غمضت في جفونها عيون القواضب وسار أولياء أمير المؤمنين الذين تجمعوا من كل أمة وتداعوا بلسان النعمة وتصرفوا بيد الخدمة وصالوا بسيف العزمة متواخية نياتهم في الاقدام متألفة طوياتهم في طاعة الامام كالبنيان المرصوص انتظاما وكالغاب المشجر أعلاما وكالنهار الماتع حديداوهاجا وكالليل الشامل عجاجا عجاجا وكالنهر المتدافع أصحابا وكالمشط المطرد اصطحابا فما أبصرت رياضها المزهرة وغياضها المشجرة الادلت على أن السحاب الذي سقاهم كريم والانعام الذي غمرهم عظيم والدنيا التي وسعتهم من عزمتهم تظعن وتقيم ولما علم العدو أن الخطب المظنون قد صرح خطابه والامل المخدوع قد صفر وطابه راسل ورأى أن سل السيوف يغمده وما كر لعله ان الحتف يمده واندفع هاربا هائبا وخضع كائبا كاذبا فضى الملوك قدما وحله ظالمه وقد خاب من حمل ظلما وأجابه بانه ان وطئ البساط برجله والا وطئه براسه وان قدم على الملوك بأمله والا أقدمه يأسه وان أظهر أثر التوبة والا أقدم عليه الحد بسكرة الموت من كاسه فلم يخرج من مراوغة تحتها مغاورة ومكاشرة وراءها مكابرة فاستخار الله في طلبه وانتهز فيه فرصة شغل قلبه بريبه ولم يغره ما أملى له في البلاد من تقلبه وسار ولم يزل مقتحما ويقدم أول العسكر محتدما واذا الدار قد ترحل أهلها منها فبانوا وظعنوا عن ساحتها فكأنهم ما كانوا ولم يبق الا مواقد نيران رحلت قلوبهم بضرامها وأثافي دهم أعجلت المهابة ماردشقيهم عن طعامها وغربان بين كانها في الديار ماقطع من رؤس بني حامها وعوافي طير كانت تنتظر من اشلائهم فطر صيامها وعادت الرسل المنفذة لاقتفاء آثارهم وأداء أخبارهم ذاكرة انهم لبسوا الليل حدادا على النعمة التي خلعت وغسلوا بماء الصبح أطماع نفس كانت قد تطلعت وانهم طلعوا الاوعار أوعالا والعقاب عقبانا وكانوا لمهابط الاودية سيولا ولاعالي الشجر قضبانا فرأى الملوك ان الكتاب قد بلغ أجله والعزم منهم قد نال أمله والفتك بهم قد أعمل متصله وان سيوف عساكر أمير المؤمنين منزهة أن تريق الادماء أكفائها من الابطال وأن تلقى الاوجوه أنظارها من الرجال وأصدر هذه الخدمة والبلاد من معرتهم عارية والكلمة بانخفاضهم غالية عاليه ويد الله على أعدائه عاديه وأنفس المخاذيل في وثاق مهابته عانية فرأى الملوك أن يرتب بعدها الامير فلانا ليبذل الامان لسوقة أهل البلاد ومزارعيها ويفصل المحاكمات بين متابعي السلطنة ومطاوعيها ويفسح مجال الاحسان لعاودي المواطن ومراجعيها فان مقام الملوك ومن معه من عساكر تمنع الشمس من مطلعها وتردجرية البحر عن مدفعها مما يضر بالغلال وينسفها ويجحف بالرعايا ويعسفها فالحمد لله الذي جعل النصر لائذا باعطاف اعتزامه وأنامل الرعب السائر الى الاعداء محركة عذبات أعلامه والعساكر المناضلة بسلاح ولائه تغني باسمائها عن مرهفاتها والكتائب المقاتلة بشعار ولائه تقرأ كتب النصر من صحائفها

كتاب من انشاء العماد الاصفهانى

وهو عصرى الفاضل بن نباتة ومن مشاهير الطبقة الثالثة عن السلطان صلاح الدين يخبر فيه ديوان الخلافة بالانتصار على الافرنج وازالتهم عن بعض بلاد الشام حين كان قاصدا أن يجليهم عن بيت المقدس وتلك النواحى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد وعلى أن أجرى هذه الحسنة التى ما اشتمل على مثالها كرام الصحائف ولم يجادل عن مثلها فى المواقف فى الايام الامامية الناصرية زادها الله غررا وأوضاحا ووالى البشائر فيها بالفتوح غدوا ورواحا ومكن سيوفها فى كل مارق من كل كافر ومارق ولا أخلاها عن سيرة سرية تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق وأطال أيدى أوليائها التحمى بالحقيقة حمى الحقائق وأنجزها الحق وقذف به على الباطل الزاهق وملكها هوادى المغارب ومرامى المشارق ولا زالت ارادتها فى الظلمات مصابيح وسيوفها للبلاد مفاتح وأطراف أسنتها الدماء الاعداء نوازح والحمد لله الذى نصر سلطان الديوان العزيز وأيده وأظفر جنده الغالب وأنجده وجلا به جلابيب الظلماء وجعل بعد عسر يسرا وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا وهون الامر الذى ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا وخوطب الدين بقوله ولقد مننا عليك مرة أخرى فالاولى فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والاخرى هذه التى عتق فيها من رق الكآبة فهو قد أصبح حرا والزمان كهيئة استدار والحق بهجته قد استنار والكفر قد رد ما كان عنده من المستعار وغسل ثوب الليل بماء فجر فجر من أنهار النهار وأتى الله بنيان الكفر من القواعد وشفى غليل صدور المؤمنين برقراق ماء الموردات البوارد أنزل ملائكة لم تظهر للعيون اللاحظة ولم تخف عن القلوب الحافظة عزت سما الاسلام بسمومها وترادف نصره بردفها وأخذت القرى وهى ظالمة فترى مترفيها كان لم يغنوا فيها فكم أقدم بها حيزوم وركض فانبعه سحاب عجاج مركوم وضرب فاذا ضربه كتاب جراح مرقوم والافات الحرب انما عقدت سجالا وانما جمعت رجالا وانما دعت خفافا وثقالا فالسيوف تقابل سيوفا وزحوف تقابل زحوفا فيكون حد الحديد بيد مذكرا وبيد مؤنثا ويكون السيف فى اليد الموحدة يغنى بالضربة الموحدة وفى اليد المثلثة لا يغنى بالضرب مثلثا وذلك أنه فى فئتين التقتا وعدوتين لغير مودة اعتنقتا وان هذه النصرة ان رويت عن ملائكة الله جددت كراماتهم وان رويت عن البشر فقد عرفت قبلها مقاماتهم فما كان سيف تيقظ من جفنه قبل أن ينبهه الصريخ ولا كان ضرب يطير الهام قبل ضرب يراه الناظر ويسمعه الصيخ فكم ضربة كأنها هجرة الموت وبها التاريخ وكم طعنة تخر لها هضاب الحديد

ولها تاريخ والحمد لله الذى أعاد الاسلام جديدا ثوبه بعد ان كان جديدا حبله مبيضا نصره مخضرا نصله متسعا فضله مجتمعا شمله والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ويمنح الحبور لكافة المسلمين ويكرر البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر الى يوم الخميس منسلخه وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما سخرها الله على الكفار فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ورأيتها الى الاسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية فيوم الخميس الاول فتحت طبرية وفاضت رى النصر من بحيرتها وفضت على جسرها الفرنج فقضت نحبها بحيرتها وفى يوم الجمعة والسبت كسر الفرنج الكسرة التى مالهم بعدها قائمة وأخذ الله أعداءه بأيدى أوليائه أخذ القرى وهى ظالمة وفى يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكاء بالامان ورفعت بها أعلام الايمان وهى أم البلاد وأخت ارم ذات العماد وقد أصبحت كأن لم تغن بالكفر وكأن لم تفتقر من الاسلام وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور وقلب ملك الكفر الاسير جيشه المكسور مكسور والحديد الكافر الذى كان فى الكفر يضرب وجه الاسلام قد صار حديدا مسلما يفرق خطوات الكفر عن الاقدام وانصار الصليب وكباره وكل من المعمودية عمدته والديرداره قد أحاطت به يد القبضة وأخذ رهنا فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة وطبرية قد رفعت أعلام الاسلام عليها ونكصت من عكاء ملة الكفر على عقبيها وعمرت الى أن شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها بل ليس من أيام الكفر يوم فيه خير وقد غسل عن بلاد الاسلام بدماء الشرك ما كان تخالها فلا ضرر ولا ضير وقد صارت البيع مساجد بها من آمن بالله واليوم الآخر وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر واهتزت أرضها لوقوف المسلمين فيها وطالما ارتجت لمواقف الكافر واقترت النصرة عن ثغر عكاء بحمد الله الذى يسر فتحها وتسلمتها الملة الاسلامية بالامان وعرفت فى هذه الصفقة ربحها وأما طبرية فافترستها يد الحرب فأنهرت الحرب جرحها فالحمد لله حمدا لا تضرب عليه الحدود ولا تزكى بازكى منه العقود وكأنه بالبيت المقدس وقد دنا الاقصى من أقصاه وبلغ الله فيه الامل الذى علم أن يحصيه وأحاط بأجله وقضاه لكل أجل كتاب وأجل العدو هذه الكتائب الجامعه ولكل عمل ثواب وثواب من حظى بطاعته جنات نعيمه الواسعه والله المشكور على ما وهب والمسؤل فى ادامة ما استيقظ من جد الاسلام وهب

(فرمان من الحضرة الخديوية)

من انشا عبدالله باشا فكرى

قد صدر هذا الفرمان اللازم طاعته الواجب امتثاله ومتابعته خطابا الى كافة القضاة والحكام والمعاونين ونظار الاقسام وسائر المعاونين والمشايخ والعمد والمستخدمين بمديرية كذا زيد قدرهم ليكن معلوما لديكم بوصول أمرنا هذا اليكم اننا جعلنا فلانا مديرا عليكم لما رأيناه فيه من الاهلية والصداقة وحسن الروية فامتثلوا أوامره على الاصول المرعية وبادروا باداء أشغال المديرية لتفوزوا بزيادة التفاتنا اليكم ورضانا عنكم وقد علمتم قوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم وأنت أيها المدير الموما اليه المعول فى حسن ادارة هذه المديرية عليه قد علمت رغبتنا فى البر والسداد واتباع سبل الرشاد وعمارة البلاد وراحة العباد ونشر لواء الامن والامان فى جميع القرى والبلدان ومحبتنا للعدل وأهله وكراهتنا للظلم وفعله وشغفنا برفاهية الرعية وحسن حال البرية الذين هم وديعة ذى الجلال والاكرام فى أيدى الولاة والحكام فاعمل أنت أيضا على حسب ذلك سالكا فى جميع أحوالك أحسن المسالك واجتهد فى حسن الادارة وتيسير أمور الزراعة والصناعة والتجارة ومزيد التمدن والعمارة وتأمين الطرق والجهات فى جميع الحالات والاوقات وصيانة الاجانب المتوطنين فى المديرية والمترددين عليها والاهالى المقيمين بها والواردين اليها وحسن نهو القضايا وفصلها وتوصيل الحقوق الى أهلها وأداء الاشغال الميرية وادارة أمور المديرية على حسب الاصول المعتبرة والقواعد المقررة ودم على الاستقامة والصداقة التامة والعدل بين الخاصة والعامة فان العدل سبب السلامة والظلم ظلمات يوم القيامة فقم على أقدام الاقدام وشمر عن ساعد الاهتمام فى اجراء ما شرحناه على الدوام باذلا كل جهدك واستطاعتك كما هو المأمول فى حسن براعتك لتنال زيادة التفاتنا اليك ودوام اقبالنا عليك وليسلك أيضا الجميع على هذا المنهج البديع وليسعوا فى اجراء ما شرحنا ويساعدوا فى انفاذ ما أوضحنا فبادروا بامتثال هذا الواجب وليبلغ الحاضر منكم الغائب نسأل الله الاعانة والعناية وحسن الهداية فى البداية والنهاية

(صورة مقالة تقدمت من أهل الصعيد لولى النعم)

له أيضا

يا ملك الملكوت ورب العظمة والجبروت نحمدك على سوابق نعمائك وسوابغ آلائك ونصلى ونسلم على خير أنبيائك وواسطة عقد أصفيائك ونشكرك على ما ألهمته حضرة أمير المؤمنين وخليفة رسولك الامين وظلك الممدود على مفارق العالمين من تحويل وراثة مصر الى نسل

عزيزها الافخم وتخويل أهاليها بهذه المنة الكبرى جلائل النعم والفضل الاعم وهذا شئ طالما لهجت به ألسنتنا وامتدت الى أنظاره أعيننا واشتغلت به خواطرنا واشتملت عليه سرائرنا فدلت عليها ظواهرنا وماذاك الا من فرط حبنا الاوطاننا السعيدة وولى أمرها وعلمنا بما يترتب على تلك البغية الجيدة لهذه الديار من اتساع خيرها وامتناع ضيرها وارتفاع قدرها واستكمال أسباب غناها ونخرها وتماديها فى التقدم والتمكن وترقيها فى درجات حسن التمدن ومعمورية بلدانها ورفاهية سكانها الى غير ذلك من ثمرات نافعه ومحاسن بارعه ترى العزيز أدام الله بقاءه وخلد فى ملكه أبناءه لايزال آخذا فى أسبابها متوصلا اليها من خير بابها ولعل الله جلت حكمته وعلت كلمته ما اختص هذا الجناب الخديوى بتلك المزية العالية بعد ما تداولت على تمنيها الاعصر الخالية وشلت دون تعاطيها الايدى المتناوله وقصرت عن ترجيها الهمم المتطاوله الالما جبل عليه جنابه الكريم وجعل حلية طبعه السليم من حب الخير والنفع للخاصة والعامة وبذل فى تقدم هذه الاوطان مزيد الهمم التامة ونحن لو أردنا بيان ما استفدناه من السرور والحظ والحبور والانس والحضور لهذا الامر المبرور لوجدنا كل عبارة قاصرة عن المرام وكل براعة مقصرة عن ايفاء حق هذا المقام فنسألك اللهم لامير المؤمنين نصرا على العدا وملكا يبقى أبدا سرمدا ولا ينتهى الى مدا ونستوهبك لعزيزنا الاكرم وولى نعمتنا المعظم طول عمر يتمتع فيه بدوام اقباله مسرورا بنجاح أعماله وبلوغ آماله وصحة أنجاله ما تحلى الافق بحلية هلاله وتجلى البدر فى حلة كماله

(ومما كتبه صورة فرمان بنصب محافظ)

صدر هذا الفرمان المطاع الواجب له القبول والاتباع خطابا الى الحكام والعلماء والقضاة والاعيان والوجوه والعمد ومشايخ البلدان وعموم الاهالى المتوطنين فى محافظة كذا بجهات السودان ليكن معلوما لديكم بوصول هذا المنشور اليكم انه قد اقتضت ارادتنا تنصيب فلان محافظا عليكم لما توسمناه فيه من الدراية والاستعداد والسلوك فى طرق الرشاد وبذل الهمة فى أمور المصلحة ومزيد الاجتهاد فامتثلوا أوامره التى تصدر فى صالح المصلحة واجتنبوا نواهيه واجتهدوا فيما يعود به عليكم مزيد العمارية لتنالوا حسن الرفاهية واعملوا بقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم لتفوزوا بزيادة التفاتنا اليكم ورضانا عنكم وأنت أيها المحافظ قد علمت ما لدينا من الشغف باتساع دائرة المدنية وحصول الخير لجميع أهل هذه الديار الوطنية والميل الى دوام راحة العباد وتأمين السبل وتمدين البلاد فعليك برعاية ما يلزم لذلك واسلك فى ادارة أشغال هذه المحافظة أحسن المسالك ودم على العدل والانصاف واحذر من

الظلم والاجحاف وانظر الى قوله عليه السلام لامته كلكم راع وكل راع مسؤل عن رعيته ولتكن مهتما بتحصيل حقوق المصلحة فى أوقاتها ورؤية جميع الاشغال على أحسن حالاتها ليدوم حسن أنظارنا عليك وتفوز بمزيد التفاتنا اليك اعلم ذلك واعمل به واحذر من مخالفة موجبه

(شرح قصيدة من سقط الزند)

غير مجد فى ملتى واعتقادى * نوح باك ولا ترنم شاد

أجدى يجدى بمعنى أغنى يغنى أى أن الميت اذا أثنى عليه لم ينفعه ذلك ولم يغن عنه وكذلك لا ينفع الباكى بكاؤه ولا يرد عليه ما فاته بهلاك المبكى عليه والشدو رفع الصوت يعنى لا ينفع رفع صوت النادب فى ندبته على الميت وترنمه وهو ترجيعه الصوت فى ندبته ولا نياحة الباكى ولا يصرف ذلك الحين عن المندوب والثكل عن النادب

وشبيه صوت النعى اذا قيـ * ـس بصوت البشير فى كل ناد

النعى بالتشـديد الذى ينعى الميت أى يخبر بموته وهو بمعنى ناع فعيـل بمعنى فاعل نحو عالم وعليم أى اذا نظر الى حال الدنيا وسرعة زوالها وانه لا وثوق بايامها يستوى عند ذلك النعى بالميت والبشارة بالمولود اذ مصير المولود الى الفناء والموت ومصير البشارة الى أن تنقلب نعيا فالصوتان اذا متشابهان

أبكت تلكم الحمامة أم غنـ * ـت على فرع غصنها المياد

مادت الشجرة اذا تحركت وتمايلت والغصن المياد المتمايل لينا وغضارة يقول لاصحابه هل عندكم حقيقة العلم بصدح الحمامة وان ذلك منها غناء أم بكاء أى وما يدريك حالها فلعل الذى تعتقد منها غناء هو نياحة وبكاء منها على ما استشعرت من فنائها وسرعة انقضاء أيام دنياها ولكل حى فيها اسوة قال الشاعر

(وأرقنى بالرى نوح حمامة * فنحت وذو الشجو الغريب ينوح)

(وناحت وفرخاها بحيث تراهما * ومن دون أفراخى مهامه فيح)

صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ * ـب فاين القبور من عهد عاد

صاح تقديره يا صاح ومعناه يا صاحبى ولا يجوز ترخيم المضاف الا فى هذا وحده فانه سمع من العرب مرخما والرحب بالضم السعة ورحب الارض سعتها والرحب بالفتح الواسع يقال بلد رحب يقول لصاحبه متعجبا هذه التى أرى قبور من مات على عهدنا وهى قد ملأت سعة الارض فاين قبور من مات فى الازمنة القديمة أى قد اندرست ولم يبق منها آثار فكذلك تندرس قبورنا بقدم العهد بها فكلنا اذن الى اندراس وانقضاء

خفف الوطأ ما أظن أديم الـ * ـارض الا من هذه الاجساد

أديم الارض وجهها يقول لصاحبه لا تشدد الوطأ برجلك على الارض وامش عليها هونا فلست أحسب وجه الارض الا من أجساد الخلق الذين دفنوا وبليت أبدانهم واختلطت رممهم بالتراب فصارت أجسادهم أديما للارض

وقبيح بنا وان قدم العهـ * ـد هوان الآباء والاجداد

أى اذا ظهر لنا أن رمم الاسلاف قد خالطت أديم الارض فلا يحسن بنا اهانة الآباء والاجداد بان نطأ على أجسادهم جهلا باقدارهم وان قدم العهد بهم وطالت عليهم الآباد والدهور

سر ان اسطعت فى الهواء رويدا * لا اختيالا على رفات العباد

يقال اسطاع يسطيع بمعنى استطاع يستطيع يحذفون التاء استثقالا لها مع الطاء وربما يقولون اسطاع يسطيع يريدون اطاع يطيع يزيدون فيه السين والمعنى أنه يأمره بحفظ حقوق الاسلاف يقول ان استطعت أن تمشى فى الهواء مشيا رويدا برفق وتؤدة فافعل ولا تمش مرحا واختيالا على ما بلى من عظام العباد واختلط باديم الارض

رب لحد قد صار لحدا مرارا * ضاحك من تزاحم الاضداد

يصف قدم عهد الدهر وتطاول أمده حتى ان المكان الواحد قد صار قبرا للموتى مرات وعاد أرضا صلبا وهو ضاحك من تزاحم الاضداد وتواردهم عليه من مؤمن وكافر وصالح فى دينه وطالح يعنى كم من الامكنة ما دفن فيه أشخاص مختلفة الاحوال والمكان متعجب ضاحك من تباين أوصافهم واختلاف سمتهم أى أن الدهر قديم العهد طويل الامد

ودفين على بقايا دفين * فى طويل الازمان والآباد

آباد جمع أبد وهو الدهر أى وكم دفن ميت بعد ميت قبله فى قبره وقد بقى من آثار الميت الاول بقايا فى الازمان الطويلة والدهور الخالية وهذا تأكيد للبيت الذى قبله فى وصف قدم عهد الدهر وتطاوله

فاسأل الفرقدين عمن أحسا * من قبيل وآنسا من بلاد

أى ان جهلت قدم عهد الدهر وتطاول أمده فاسأل هذين الكوكبين ليخبراك عمن علما ووجدا من قبيل أى من جماعة وآنسا أى أبصرا من بلاد قد خربت ولم يبق منها ولا من الجماعات باقية

كم أقاما على زوال نهار * وأنارا لمدلج فى سواد

أى كم أقام الفرقدان ويتتابع زوال النهار وذهابه يعنى كم زال النهار وهما ثابتان لا يزولان وذلك انه ليس للفرقدين طلوع وأفول لانهما الكوكبان المضيآن من بنات نعش الكبرى وانما دورانهما حول القطب الشمالى لا يزايلانه وكم أضاآ فى سواد الليل للسائرين فى الظلام مهتدين بانارتهما

تعب كلها الحياة فما أعـ * ـجب الامن راغب فى ازدياد

أي ان الحياة الفانية كلها تعب وعناء فى لوازمها فلست أعجب الامن يرغب فى زيادة الحياة اذهو راغب فى زيادة التعب والتعنى

ان حزنا فى ساعة الموت أضعا * ف سرور فى ساعة الميلاد

أى السرور عند ولادة المولود لايفى بالحزن الحاصل عند موته يعنى اذا كانت الحياة بعرض الانقطاع والانقضاء والزوال وسرورها منغصا بحزن الموت فينبغى أن لايرغب فى الحياة ولايعتد بسرورها

خلق الناس للبقاء فضلت * أمة يحسبونهم للنفاد

أى ان الناس انما تفنى أجسادهم بالموت فاما ماهو خاصة الانسانية وهى النفس الناطقة المطمئنة فانها تبقى بعد مفارقة الجسد إما منعمة وإما معذبة وهذا هو المذهب الحق ولم يقل بفناء الارواح الا الدهريون يقول ان الناس خلقوا للبقاء فى الدار الآخرة دار الحياة والبقاء ومن ظن انهم خلقوا للفناء والنفاد فقد ضل

انما ينقلون من دار أعما * ل الى دار شقوة أو رشاد

أى ان الموت هو تبديل الدار والنقل من دار الابتلاء بالاعمال والتكاليف الى دار السعادة وهى الجنة أو الى دار الشقاوة وهى النار

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد

أى الضجعة بعد الموت فى البرزخ نوم يستريح فيها الجسم من كد لازم الحياة والعيش بعد البعث مثل الانتباه من النوم

أبنات الهديل أسعدن أو عد * ن قليل العزاء بالاسعاد

الهديل الذكر من الحمام والهديل اسم واحد من الحمام كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارح من جوارح الطير قالوا فليس من حمامة تهتف الا وهى تنوح عليه قال الشاعر

(ومامن تهتفين به لنصر * باسرع جابة لك من هديل)

يخاطب الحمامة ويسألها المساعدة اياه فى البكاء والنوح على المرثى أو الوعد اياه بالمساعدة يقول أسعدن فى النوح مصابا قليل العزاء أى الصبر والتسلى يعنى نفسه أو أبذلن الوعد بالاسعاد اياه

ايه لله در كن فانتن اللواتى تحسن حفظ الوداد

ايه أى هات وزد ينون ولا ينون فاذا نون كان نكرة نحو ايه أى هات حديثا ما واذا لم ينون كان معرفة نحو ايه أى هات الحديث يخاطب الحمام فى الموافقة فى النوح والبكاء يقول اهن زدن فى النوح والبكاء مساعدة لى أ كثر الله خيركن فانكن المعروفات بحسن حفظ حق الود وانما نسب الحمام الى الحفظ فى الود لنوحهن على الهديل مع قدم العهد به

مانسيتن هالكا فى الاوان الـ * خال أودى من قبل هلك اياد

هـذا تأكيد لحفظ الحمام الوداد أى لمحافظتكن على حق الوداد لم تنسين هالكا فيما مضى من الزمان هلك قبل هلاك ايادبن نزار بن معد بن عدنان اشارة الى بكاء الحمام على الهديل وقد هلك فى قديم الزمان قال نصيب

(فقلت أتبكى ذات طوق تذكرت * هديلا وقد أودى وما كان تبع)

وحذف الياء من الخالى وهو لغة عند الفراء وضرورة عند سيبويه

بيد أنى لا أرتضى ما فعلتن وأطواقكن فى الاجياد

أى وان كنتن لم تقصرن فى النوح وحفظ العهد غير أنى لا أرتضى فعلكن وأطواقكن فى اجيادكن أى كان من حق ثكلكن أن تنزعن الاطواق عن الاعناق لان التطوق من الزينة والثكلى لا يليق بها التزين

فتسلبن واستعرن جميعا * من قميص الدجى ثياب حداد

يقال تسلبت النائحة والثاكلة اذا نزعت ثيابها ولبست سوادا أمر الحمائم أن ينزعن أطواقهن لانها تعد زينة ويستعرن ثيابا سوداء تشبه لباس الليل المظلم سوادا وينحن على المرثى

ثم غردن فى المآتم واندبـ * ـن بشجو مع الغوانى الخراد

المآتم جمع مأتم وهو مجمع النساء للنياحة والتغريد ترجيع الصوت والشجو الحزن يأمر الحمام بترجيع الاصوات فى الندبة والنوح على المرثى مساعدة للنساء الحسان فى النياحة عليه حزنا وتفجعا

قصد الدهر من أبى حزة الاو * اب مولى حجى وخدن اقتصاد

الاواب الذى يرجع الى الله تعالى فى كل أحواله يوصف به الصالحون من الرجال أى قصد الدهر بأحداثه من هذا المرثى رجلا صاحب حجى أى عقل وحليف اقتصاد وهو الوقوف على القصد ومجانبة الاسراف

وفقيها أفكاره شدن للنعـ * ـمان مالم يشده شعر زياد

يقال شاد البناء اذا رفعه وأشاد بذكره اذا رفع قدره والنعمان اسم أبى حنيفة رضى الله عنه والنعمان بن المنذر ملك العرب كان ممدوحا لزياد وهو النابغة الذبيانى وكان هذا المرثى فقيها على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه والمعنى قصد الدهر من هذا المرثى رجلا فقيها ذهب مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه واستخرج منه دقائق المعانى بأفكاره وأورث أبا حنيفة صاحب مذهبه بذلك من الذكر والصيت وقوة المذهب مالم تورث مدائح النابغة للنعمان بن المنذر من المآثر والذكر

فالعراقى بعده للحجازى * قليل الخلاف سهل القياد

أراد بالعراقى أبا حنيفة رضى الله عنه لانه كوفى وبالحجازى الشافعى رضى الله عنه يقول ان المرثى قد أوضح الفقه ومهد القواعد واستخرج الادلة والمآخذ فقل بسببه الاختلاف فى الفروع وصارت الاقاويل المختلفة قريبا بعضها من بعض

وخطيبا لو قام بين وحوش * علم الضاريات بر النقاد

النقاد صغار الغنم أى وعهد الدهر بأحداثه رجلا ماهرا فى الخطابة والوعظ لو وعظ السباع الضارية علم الاسود والذئاب بر الصغار من الغنم فلا تتعرض لها بالافتراس لتأثير وعظه فى سباع الوحوش

راويا للحديث لم يحوج المعـ * ـروف من صدقه الى الاسناد

أى ورجلا محدثا يروى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم لصدق لهجته لا يطلب منه ذكر اسناد ما يرويه من الاحاديث

أنفق العمر ناسكا يطلب العلـ * ـم بكشف عن أصله وانتقاد

أى صرف أيام عمره الى طلب العلم وهو فى طلبه وتعلمه ناسك متعبد لا يشغله التعلم عن العبادة مجتهدا فى الكشف عن أصل العلوم والبحث عن الحقائق غير معرج على الظواهر منتقدا الاسانيد والروايات ينفى المدخول عنها

مستقى الكف من قليب زجاج * بغروب اليراع ماء مداد

قليب زجاج يعنى المحبرة كانه بئر من زجاج واليراع القصب واحدته يراعة والغرب الحد والغرب الدلو والبيت يحتمل الوجهين يجوز أنه لما جعل المحبرة قليبا جعل الاقلام غروبا أى دلاء يستقى بها ويجوز أن يكون المراد به حد الاقلام اى أنفق العمر فى طلب العلم كاتبا العلوم يستمد الحبر بغروب أقلامه وهى حدودها فأوهم معنى الدلاء بقرينة الاستقاء والقليب

ذا بنان لا تلمس الذهب الاحـ * ـمر زهدا فى العسجد المستفاد

أى صاحب أنامل لا تمس الذهب الاحمر زهدا أى لعدم رغبته فى اكتساب الذهب يصف زهده فى الدنيا

ودعا أيها الحفيان ذاك الشخص ان الوداع أيسر زاد

يخاطب صاحبين مبالغين فى العناية بأمر المرثى ويأمرهما بتوديع شخصه وتشييعه بالدعاء والكرامة اذ لا أقل من الوداع

واغسلاه بالدمع ان كان طهرا * وادفناه بين الحشى والفؤاد

واسفحا الدموع بكاء عليه مقدار ما يمكن أن تغسلاه به ان كان الدمع طاهرا ولا خلل ذلك فان الدموع المسفوحة عليه ممزوجة بالدماء لعظم المصاب وادفناه فى الاحشاء ابقاء عليه من التراب

واحبواه الاكفان من ورق المصـحف كبرا عن أنفس الابراد

أى انه لنزاهة نفسه يستحق التكفين بأشرف مايقدر عليه فكفناه بأوراق المصاحف اذ يكبر عن أن يكفن بالأبراد النفيسة فأثراه بورق المصحف ابانة لشرف قدره

واتلوا النعش بالقراءة والتسبيح لا بالنحيب والتعداد

أى وشيعا جنازته بقراءة القرآن والتسبيح لله تعالى والدعاء لا بالبكاء والنياحة لانه انما ينقل الى كرامة الله تعالى فلا يناسب حاله البكاء والتعداد تفعال من عددت المرأة اذا عدت محاسن الميت فى ندبتها عليه

أسف غير نافع واجتهاد * لا يؤدى الى غناء اجتهاد

أى الحزن على الميت لا ينفع الثاكل عن ثكله وكذلك الاجتهاد ومعالجة الحيل لا تغنى فى الفوت شيأ

طالما أخرج الحزين جوى الحز * ن الى غير لائق بالسداد

أى كثيرا قد حمل الحزن صاحبه على أن يتعاطى من الاقوال والافعال مالا يليق بالصواب

مثلما فاتت الصلاة سليما * ن فأنحى على رقاب الجياد

أى ربما يفعل الحزين فى حزنه مايخطئ الصواب كما أن سليمان عليه السلام لما عرض عليه الخيل اشتغل بها ففاتته صلاة العصر فحزن لذلك وغضب لله تعالى فقال ردوها على فطفق مسحا بالسوق والاعناق فجعل يضرب سوق الخيل وأعناقها لانها كانت سبب فوت صلاته ومثل هذا الفعل غير جائز لانه تعذيب من غير نفع ولا جناية وانما فعله سليمان عليه السلام لما علم أن الله تعالى أباح ذلك له لمصلحة له فيه أى الاسف على فوات الصلاة هو الذى حدا سليمان على ما فعل ويقال أنحى على حلقه بالسكين اذا عرضه عليه

وهو من سخرت له الانس والجن بما صح من شهادة صاد

أى أن سليمان عليه السلام هو الذى سخر الله تعالى له الانس والجن كما أخبر الله تعالى بقوله فى صورة ص فسخرنا له الريح تجرى بامره الآية

خاف غدر الانام فاستودع الريح سليلا تغذوه در العهاد

اشارة الى بعض قصة سليمان عليه السلام حيث ولد له ابن فلم يأمن عليه الناس واستودعه الريح لتحضنه فيكون أبعد من أن يتطرق اليه الآفات وتغذوه العهاد وهى الامطار التى تتبع بعضها بعضا

وتوخى له النجاة وقد أيـ * قن أن الحمام بالمرصاد

المرصاد والمرصد الطريق أى طلب سليمان عليه السلام النجاة لابنه حيث أودعه الريح لتحفظه وتدفع عنه الغوائل مع أنه قد علم يقينا أن الموت بالمرصاد أى عليه طريق كل حى لا يفوته أحد بل هو يرصد كل أحد

فرمته به على جانب الـكر * سى أم اللهيم أخت النآد

أم اللهيم واللهيم والنآد الداهية أى طلب سليمان نجاة ابنه تودبعه الريح فلم تدفع الريح عنه محتوم الحمام وذلك أن ابنه مات فالقت الريح جسده على كرسى سليمان فعلم أنه لا مرد لمحتوم القضاء وان الحذر لا يغنى عن القدر والى هذا التفسير صار بعضهم فى قوله تعالى ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب

كيف أصبحت فى محلك بعدى * ياجديرا منى بحسن افتقاد

يسأل المرثى عن حاله وانه كيف أصبح فى محل حاوله هل ارتضى المقام وكيف صادف المطلع ثم قال ان ما يجمعهما من أكيد الوداد يقتضى السؤال عنه والعناية بأمره والافتقاد طلب الانسان فى غيبته

قد أقر الطبيب عنك بعجز * وتقضى تردد العواد

أى قد اعترف الطبيب بعجزه عن معالجتك فان داء الموت لادواء له وانقطع عنك تردد من يعودك فى مرضك

وانتهى اليأس منك واستشعر الوجـد بان لا معاد حتى المعاد

أى بلغ اليأس منك نهايته فلم يبق مطمع فى بقائك وعلم من حزن بفقدك أن لا عود لك اليه حتى القيامه

هجد الساهرون حولك للتمـريض ويح لاعين الهجاد

أى طال ما سهر قومك حواليك يمرضونك أى يخدمونك فى مرضك فلما أيسوا منك وفقدوك ناموا بعد مقاساة السهر فى تمريضك ثم ترحم لاعين النائمين لطول ما كابدوا من السهر ممرضين

أنت من أسرة مضوا غير مغرو * رين من عيشة بذات ضماد

الضمد والضماد أن تتخذ المرأة خليلين فتصيب من هذا مرة ومن ذاك أخرى وأن يكون الرجل بينه وبين نساء أسباب قال أبوذؤيب

(تريدين كيما تضمديني وخالدا * وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد)

والضماد خصلة مذمومة تأباها نزاهة النفوس أى أن المرثى من معشر أذكياء لم يتدنسوا بعاهو دناءة وعيب ولم يغتروا بعيشة الدنيا وهى ذات ضماد تواصل كل واحد من بنيها ولا تخلص الوصال معه كالمرأة التى لها أخدان فانهم لا تغرهم بودادها ولا تفى لاحد بوجب الود

لا يغيركم اضـعيد وكونوا * فيه مثل السيوف فى الاغماد

يتأسف لهم أن يؤثر فيهم التراب ويغير أعراضهم الطاهرة بدفنهم فى الارض ويتمنى أن يكون مقامهم فى الارض والتراب مقام السيوف فى أغمادها

فعز يز علي خلط الليالى * رم أقدامكم برم الهوادى

الرم العظام البالية جمع رمة أى شديد على تأثير الايام والليالى فيكم بالابلاء والتغيير حتى تختلط عظام الاقدام البالية بعظام الاعناق أى بعم البلى فى الاجساد فيخالط بعض أجزائها بعضا

كنت خل الصبا فلما أراد البـ * ـين وافقت رأيه فى المراد

كان بين الرائى والمرثى صداقة ومخالة فى عهد الحداثة والصبا فجعله خليل الصبا أى خليل عهد الصبا فلما أراد الصبا أن يزول وافقه المرثى فى ارادته الزوال فزال الصبا والخليل فى عهده

ورأيت الوفاء للصاحب الا * ول من شيمة الكريم الجواد

أى ووفيت للصاحب الاول يعنى الصبا حيث وافقته فى الزيال فارتحلت لما ارتحل الصبا ورأيت الوفاء من أخلاق الكرام

وخلعت الشباب غضا فياليـ * ـتك أبليته مع الانداد

أى اخترمه المنون وهو فى طراءة الشباب فخلع برد الشباب طريا فليته عاش فيبليه مع الاقران

فاذهبا خير ذاهبين حقيقين بسقيا روائح وغواد

خاطب الصبا والمرثى وجعلهما خير الذاهبين اذ لانظير للمرثى يوازيه ولابدل للصبا فهما خير من ارتحل وولى وأحق وأولى بسقيا السحب الروائح التى تروح بالعشى والغوادى التى تغدو بالغداة أى هما أحق من يدعى له بالسقى

ومراث لو أنهن دموع * لمحون السطور فى الانشاد

التقدير حقيقين بسقيا روائح وغواد ومراث أى هما يستحقان ان يرثيا بمراث رقاق كالدموع فى الرقة والشعر يشبه بالماء فى الرقة والدمع أرق من الماء لانه بخار مصعد تصعيد ماء الورد والمصعد أرق ما يكون من السائلات أى يحق لهما مراث لو سالت مسيل الدموع وتجسمت رقتها لمحت سطور كتابتها متى أنشدت

زحل أشرف الكواكب دارا * من لقاء الردى على ميعاد

زحل مع انه أعلى الكواكب السيارة مكانا لانه فى الفلك السابع هو غير آمن من الهلاك بل هو موعود بملاقاة الردى فى قوله تعالى واذا الكواكب انتثرت وقوله واذا النجوم انكدرت اذ كل شئ هالك الا وجهه

ولنار المريخ من حدثان الدهر مطف وان علت فى اتقاد

المريخ كوكب أحمر كأنه نار تتقد وهو أحد السيارات السبع وهو فى الفلك الخامس يقول ان حدثان الدهر يطفئ نار المريخ اذا حان حينه وان علت ناره وانتهت النهاية فى التوقد والاشتعال

يعني لا تسلم نار المريخ من مطفئ من الردى يطفئها فلا أمان لها من الهلاك وخفف الهمزة في مطف اذ هو مهموز في الاصل

والثريا رهينة بافتراق الشمل حتى تعد في الافراد

الثريا منزل من منازل القمر وهو آخر الحمل وهو سبع كواكب مجتمعة واشتقاقها من الثراء وهو المال الكثير يقال رجل ثروان أي كثير المال وامرأة ثروى وتصغيرها ثريا يقول ان الثريا وان غبرت أحقابا ودهورا لا تحصى مجتمعا شملها فلا بد أن تبتلي بافتراق شملها حتى تبقى منفردة من ذويها

فليكن للمحسن الاجل الممـ * ـدود رغما لآنف الحساد

المحسن أخو الميت يدعو له بطول البقاء يقول ان مضى المرثي لسبيله فليمد أخوه في عمره رغما عن آنف حساده أي الصاقا لانوفهم بالرغام أي التراب أي مد الله في أجل الباقي على صغر وكره من الحساد

وليطب عن أخيه نفسا وابنا * ء أخيه جرائح الاكباد

أي وليرزق طيبة النفس في هذا الرزء عن أخيه المتوفى وأبناء أخيه الذين قد جرحت أكبادهم بالم هذه المصيبة

واذا البحر غاض عني ولم أر * و فلا ري بادخار الثماد

الثماد المياه القليلة واحدها ثمد جعل المرثي كالبحر وأبناءه كالثماد بالنسبة الى البحر أي اذا غاض البحر ولم امتع ببقائه ربما أشفي غلتي من مرآه والمصاحبة اياه فلا شفاء يرجى من المياه القليلة بعد أن غاض البحر

كل بيت للهدم ما تبتني الور * قاء والسيد الرفيع العماد

أي كل بيت صائر الى الانهدام الذي تبنيه الورقاء وهي الحمامة الضعيفة وبيتها واه لا إحكام له قال عبيد بن الابرص

(عيوا بأمرهم كما * عيت ببيضتها الحمامه)

(جعلت لها عودين من * بشم وآخر من ثمامه)

والذي يبنيه السيد الذي يرفع بناءه ويحكمه يعني كل بناء الى زوال لا يبقى شيء منه الواهي والمحكم

والفتى ظاعن ويكفيه ظل السـ * ـدر ضرب الاطناب والاوتاد

أي أن الانسان راحل عن الدنيا لا اقامة له بها والراحل المسافر يكفيه ظل الشجر ويغنيه ذلك عن ضرب الخيام فضلا عن تشييد الابنية

بان أمر الاله واختلف النا * س فداع الى ضلال وهاد

أى أمر الاله ظاهر فى تقديره وحكمه بالموت على العباد ولكن الناس مختلفون فنهم من يدعو بسيرته الفاسدة الى الضلال وهو أن يركن الى الدنيا ويحرص على جمع حطامها فيقتدى غيره به فيضل ومنهم من يزهد فى الدنيا فيدعو بزهده الى الهدى فيصير هاديا

والذى حارت البرية فيه * حيوان مستحدث من جماد

أى والذى تحير الناس فيه ولم يهتدوا بعقولهم لوجهه أمر الحيوان المخلوق من الجماد وهو الذى لا حياة فيه يعنى به آدم عليه السلام حيث خلق من التراب وهو جماد وقد تاهت العقول فى فطرته

واللبيب اللبيب من ليس يغتر بكون مصيره للفساد

أى والعاقل الكامل من لا يصير مغترا بالحياة الفانية وكونه فى دار عاقبتها زوال وفناء

(سقط الزند)

الباب التاسع فى الجغرافيه والتاريخ

(ذكر مذاهب أهل مصر ونحلهم منذ افتتح عمرو بن العاص رضى الله عنه أرض مصر الى أن صاروا الى اعتقاد مذاهب الائمة رحمهم الله تعالى وما كان من الاحداث فى ذلك)

اعلم أن الله عز وجل لما بعث نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا الى كافة الناس جميعا عربهم وعجمهم وهم كلهم أهل شرك وعبادة لغير الله تعالى الا بقايا من أهل الكتاب كان من أمره صلى الله عليه وسلم مع قريش ما كان حتى هاجر من مكة الى المدينة فكانت الصحابة رضوان الله عليهم حوله صلى الله عليه وسلم يجتمعون اليه فى كل وقت مع ما كانوا فيه من ضنك المعيشه وقلة القوت فنهم من كان يحترف فى الاسواق ومنهم من كان يقوم على نخله ويحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل وقت ومنهم طائفة عندما تجد أدنى فراغ مما هم بسبيله من طلب القوت فاذا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسألة أو حكم بحكم أو أمر بشئ أو فعل شيأ وعاه من حضر عنده من الصحابة وفات من غاب عنه علم ذلك الا ترى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد خفى عليه ما علمه حمل بن مالك بن النابغة رجل من الاعراب من هذيل فى دية الجنين وكان يفتى فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وأبو الدرداء وأبو موسى الاشعرى وسلمان الفارسى رضى الله عنهم فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه تفرقت الصحابة رضى الله عنهم فمنهم من خرج لقتال مسيلمة وأهل الردة ومنهم من خرج لقتال أهل الشام ومنهم من خرج لقتال أهل العراق وبقى من الصحابة

بالمدينة مع أبي بكر رضي الله عنه عدة فكانت القضية اذا نزلت بأبي بكر رضي الله عنه قضى فيها بما عنده من العلم بكتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان لم يكن عنده فيها علم من كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل من بحضرته من الصحابة رضي الله عنهم عن ذلك فان وجد عندهم علما رجع اليه والا اجتهد في الحكم ولما مات أبو بكر وولي أمر الامة من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتحت الامصار وزاد تفرق الصحابة رضي الله عنهم فيما افتتحوه من الاقطار فكانت الحكومة تنزل بالمدينة أو غيرها من البلاد فاذا كان عند الصحابة الحاضرين لها في ذلك أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم به والا اجتهد أمير تلك البلدة في ذلك وقد يكون في تلك القضية حكم عن النبي صلى الله عليه وسلم موجود عند صاحب آخر وقد حضر المدني مالم يحضر المصري وحضر المصري مالم يحضر الشامي وحضر الشامي مالم يحضر البصري وحضر البصري مالم يحضر الكوفي وحضر الكوفي مالم يحضر المدني كل هذا موجود في الآثار وفيما علم من مغيب بعض الصحابة عن مجلس النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الاوقات وحضور غيره ثم مغيب الذي حضر أمس وحضور الذي غاب فيدري كل واحد منهم ما حضر ويفوته ما غاب عنه فمضى الصحابة رضي الله عنهم على ماذكرنا ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم وكل طبقة من التابعين في البلاد التي تقدم ذكرها فانما تفقهوا مع من كان عندهم من الصحابة فكانوا لا يتعدون فتاويهم الا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة رضي الله عنهم كاتباع أهل المدينة في الاكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ثم أتى من بعد التابعين رضي الله عنهم فقهاء الامصار كأبي حنيفة وسفيان وابن أبي ليلى بالكوفة وابن جريج بمكة ومالك وابن الماجشون بالمدينة وعثمان البتي وسوار بالبصرة والاوزاعي بالشام والليث بن سعد بمصر فجروا على تلك الطريق من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده فيما كان عندهم واجتهادهم فيما لم يجدوا عندهم وهو موجود عند غيرهم (وأما مذهب أهل مصر) فقال أبو سعيد بن يونس بن عبيد ابن محمد المغافري يكنى أبا أمية رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم شهد فتح مصر روى عنه أبو قبيل يقال انه كان أول من أقرأ القرآن بمصر وذكر أبو عمر والكندي أن أبا ميسرة عبد الرحمن ابن ميسرة مولى الملامس الحضرمي كان فقيها عفيفا شريفا ولد سنة عشر ومائة وكان أول الناس اقراء بمصر بحرف نافع قبل الخمسين ومائة وتوفي سنة ثمان وثمانين ومائة وذكر عن أبي قبيل وغيره أن يزيد بن أبي حبيب أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام وفي رواية ابن يونس ومسائل الفقه وكانوا قبل ذلك انما يتحدثون في الفتن والترغيب وعن عون بن سليمان الحضرمي قال كان عمر ابن عبد العزيز قد جعل الفتيا بمصر الى ثلاثة رجال رجلان من الموالي ورجل من العرب

فاما العربى فجعفر بن ربيعة وأما الموليان فيزيد بن أبى حبيب وعبد الله بن أبى جعفر فكأن العرب أنكروا ذلك فقال عمر بن عبد العزيز ماذنبى ان كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون وعن ابن أبى قديد كانت البيعة اذا جاءت للخليفة أول من يبايع عبد الله بن أبى جعفر ويزيد بن أبى حبيب ثم الناس بعد وقال أبو سعيد بن يونس فى تاريخ مصر عن حيوة بن شريح قال دخلت على حسين بن شفى بن مانع الاصبحى وهو يقول فعل الله بفلان فقلت ماله فقال عمد الى كتابين كان شفى سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أحدهما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كذا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا والآخر ما يكون من الاحداث الى يوم القيامة فأخذهما فرمى بهما بين الخولة والرباب قال أبو سعيد بن يونس يعنى بقوله الخولة والرباب مركبين كبيرين من سفن الجسر كانا يكونان عند رأس الجسر مما يلى الفسطاط يجوز من تحتهما لكبرهما المراكب وذكر أبو عمر والكندى أن أبا سعيد عثمان بن عتيق مولى غافق أول من رحل من أهل مصر الى العراق فى طلب الحديث توفى سنة أربع وثمانين ومائة انتهى وكان حال أهل الاسلام من أهل مصر وغيرها من الامصار فى أحكام الشريعة على ما تقدم ذكره ثم كثر الترحل الى الآفاق وتداخل الناس والتقوا وانتدب أقوام لجمع الحديث النبوى وتقييده فكان أول من دون العلم محمد بن شهاب الزهرى وكان أول من صنف وبوب سعيد بن عروبة والربيع بن صبيح بالبصرة ومعمر بن راشد باليمن وابن جريج بمكة ثم سفيان الثورى بالكوفة وحماد بن سلمة بالبصرة والوليد ابن مسلم بالشام وجرير بن عبد الحميد بالرى وعبد الله بن المبارك بمرو وخراسان وهشيم بن بشير بواسط وتفرد بالكوفة أبو بكر بن أبى شيبة بتكثير الابواب وجودة التصنيف وحسن التأليف فوصلت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاد البعيدة الى من لم تكن عنده وقامت الحجة على من بلغه شئ منها وجمعت الاحاديث المبينة لصحة أحد التويلات المتأولة من الاحاديث وعرف الصحيح من السقيم وزيف الاجتهاد المؤدى الى خلاف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم والى ترك عمله وسقط العذر عن خالف ما بلغه من السنن ببلوغه اليه وقيام الحجة عليه وعلى هذا الطريق كان الصحابة رضى الله عنهم وكثير من التابعين يرحلون فى طلب الحديث الواحد الايام الكثيرة يعرف ذلك من نظر فى كتب الحديث وعرف سير الصحابة والتابعين فلما قام هارون الرشيد فى الخلافة وولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم أحد أصحاب أبى حنيفة رحمه الله تعالى بعد سنة سبعين ومائة فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر الا من أشار به القاضى أبو يوسف رحمه الله واعتنى به وكذلك لما قام بالاندلس الحكم المرتضى بن هشام بن عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بعد أبيه وتلقب بالمنتصر فى سنة ثمانين ومائة

اختص بيحيى بن يحيى بن كثير الاندلسى وكان قد حج وسمع الموطأ من مالك الا أبوابا وحمل عن ابن وهب وعن ابن القاسم وغيره علما كثيرا وعاد الى الاندلس فنال من الرياسة والحرمة مالم ينله غيره وعادت الفتيا اليه وانتهى السلطان والعامة الى بابه فلم يقلد فى سائر أعمال الاندلس قاض الا باشارته واعتنائه فصاروا على رأى مالك بعد ما كانوا على رأى الاوزاعى وقد كان مذهب الامام مالك أدخله الى الاندلس زياد بن عبد الرحمن الذى يقال له بسطور وقبل يحيى بن يحيى وهو أول من أدخل مذهب مالك الاندلس وكانت أفريقية الغالب عليها السنن والآثار الى أن قدم عبد الله بن فروح أبو محمد الفارسى بمذهب أبى حنيفة ثم غلب أسد بن الفرات بن سنان قاضى افريقية بمذهب أبى حنيفة ثم لما ولى سحنون بن سعيد التنوخى قضاء افريقيا بعد ذلك نشر فيهم مذهب مالك وصار القضاء فى أصحاب سحنون دولا يتصاولون على الدنيا تصاول الفحول على الشول الى أن تولى القضاء بها بنو هاشم وكانوا مالكية فتوارثوا القضاء كما تتوارث الضياع ثم ان المعز بن باديس حمل جميع أهل افريقية على التمسك بمذهب مالك وترك ما عداه من المذاهب فرجع أهل افريقية وأهل الاندلس كلهم الى مذهب مالك الى اليوم رغبة فيما عند السلطان وحرصا على طلب الدنيا اذا كان القضاء والافتاء فى جميع تلك المدن وسائر القرى لا يكون الا لمن تسمى بالفقه على مذهب مالك فاضطرت العامة الى أحكامهم وفتاواهم ففشا هذا المذهب هنالك فشوا طبق تلك الاقطار كما فشا مذهب أبى حنيفة ببلاد المشرق حيث ان أبا حامد الاسفراينى لما تمكن من الدولة فى أيام الخليفة القادر بالله أبى العباس أحمد قرر معه استخلاف أبى العباس أحمد بن محمد البارزى الشافعى عن أبى محمد الاكفانى الحنفى قاضى بغداد فأجيب اليه بغير رضى الاكفانى وكتب أبو حامد الى السلطان محمود بن سبكتكين وأهل خراسان أن الخليفة نقل القضاء عن الحنفية الى الشافعية فاشتهر ذلك بخراسان وصار أهل بغداد حزبين وقدم بعد ذلك أبو العلاء صاعد بن محمد قاضى نيسابور ورئيس الحنفية بخراسان فأتاه الحنفية فثارت بينهم وبين أصحاب أبى حامد فتنة ارتفع أمرها الى السلطان فجمع الخليفة القادر الاشراف والقضاة وأخرج اليهم رسالة تتضمن أن الاسفراينى أدخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح والشفقة والامانة وكانت على أصول الدخل والخيانة فلما تبين له أمره ووضح عنده خبث اعتقاده فيما سأل فيه من تقليد البارزى الحكم بالحضرة من الفساد والفتنة والعدول بأمير المؤمنين عما كان عليه أسلافه من ايثار الحنفية وتقليدهم واستعمالهم صرف البارزى وأعاد الامر الى حقه وأجراه على قديم رسمه وحمل الحنفيين على ما كانوا عليه من العناية والكرامة والحرمة والاعزاز وتقدم اليهم بأن لا يلقوا أبا حامد ولا يقضوا له حقا ولا يردوا عليه سلاما وخلع على أبى محمد الاكفانى وانقطع أبو حامد عن دار الخلافة

وظهر التسخط عليه والانحراف عنه وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة واتصل ببلاد الشام ومصر
(أول من قدم بعلم مالك) الى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح وكان فقيها روى عنه
الليث وابن وهب ورشـيد بن سعد وتوفى بالاسكندرية سـنة ثلاث وستين ومائة ثم نشره بمصر
عبد الرحمن بن القاسم فاشـتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر أصحاب مالك
بمصر ولم يكن مذهب أبى حنيفة رحمـه الله يعرف بمصر قال ابن يونس وقدم اسماعيل بن اليسع
الكوفى قاضيا بعد ابن لهيعة وكان من خير قضاتنا غير أنه كان يذهب الى قول أبى حنيفة ولم يكن
أهل مصر يعرفون مذهب أبى حنيفـة وكان مذهبه ابطال الاحباس فثقل أمره على أهل مصر
وسئموه ولم يزل مذهب مالك مشتهرا بمصر حتى قدم الشافعى محمد بن ادريس الى مصر مع عبد الله
ابن العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس فى سنة ثمان وتسعين
ومائة فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها كبنى عبد الحكم والربيع بن سليمان وأبى ابراهيم
اسماعيل بن يحيى المزنى وأبى يعقوب يوسف بن يحيى البويطى وكتبوا عن الشافعى ما ألفه وعملوا
بما ذهب اليه ولم يزل أمر مذهبه يقوى بمصر وذكره ينتشر قال أبو عمرو الكندى فى كتاب أمراء مصر
ولم يزل أهل مصر على الجهر بالبسملة فى الجامع العتيق الى سنة ثلاث وخمسين ومائتين قال ومنع
أرجون صاحب شرطة مزاحم بن خاقان أمير مصر من الجهر بالبسملة فى الصلوات بالمسجد الجامع
وأمر الحسين بن الربيع إمام المسجد الجامع بتركها وذلك فى رجب سـنة ثلاث وستين ومائتين
ولم يزل أهل مصر على الجهر بها فى المسجد الجامع منذ الاسلام الى أن منع منها أرجون قال وأمر
أن تصلى التراويح فى شهر رمضان خمس تراويح ولم يزل أهل مصر يصلون ست تراويح حتى جعلها
أرجون خمسا فى شهر رمضان سـنة ثلاث وخمسين ومائتين ومنع من التثويب وأمر بالأذان يوم
الجمعة فى مؤخر المسجد وأمر بالتغليس بصلاة الصبح وذلك أنهم أسفروا بها ومازال مذهب مالك
ومذهب الشافعى رحمهما الله يعمل بهـما أهل مصر ويولى القضاء من كان يذهب اليهـما أو الى
مذهب أبى حنيفة رحمه الله الى أن قدم القائد جوهر من بلاد أفريقيه فى سـنة ثمان وخمسـين
وثلثمائة بجيوش مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد وبنى مدينـة القاهرة فمن حينئذ فشا بديار مصر
مذهب الشيعة وعمل به فى القضاء والفتيا وأنـكر ما خالفه ولم يبق مذهب سواه وقد كان التشيع
بأرض مصر معروفا قبل ذلك قال أبو عمرو الكندى فى كتاب الموالى عن عبد الله بن لهيعة أنه قال
قال يزيد بن أبى حبيب نشأت بمصر وهى علوية فقلبتها عثمانية وكان ابتداء التشيع فى الاسلام
أن رجلا من اليهود فى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه أسـلم فقيل له عبد الله
ابن سبا وعرف بابن السوداء وصار ينتقل من الحجاز الى أمصار المسلمين يريد اضلالهم فلم يطق ذلك

فرجع الى كيد الاسلام وأهله ونزل البصرة فى سنة ثلاث وثلاثين فجعل يطرح على أهلها مسائل ولا يصرح فأقبل عليه جماعة ومالوا اليه وأعجبوا بقوله فبلغ ذلك عبد الله بن عامر وهو يومئذ على البصرة فأرسل اليه فلما حضر عنده سأله ما أنت فقال رجل من أهل الكتاب رغبت فى الاسلام وفى جوارك فقال ما شىء يبلغنى عنك أخرج عنى فخرج حتى نزل الكوفة فأخرج منها فسار الى مصر واستقر بها وقال فى الناس العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمدا يرجع وتحدث فى الرجعة حتى قبلت منه فقال بعد ذلك انه كان لكل نبى وصى وعلى بن أبى طالب وصى محمد صلى الله عليه وسلم فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن على بن أبى طالب وصيه فى الخلافة على أمته واعلموا أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق فانهضوا فى هذا الامر وأبدؤا بالطعن على أمرائكم فأظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا به الناس وبث دعاته وكاتب من مال اليه من أهل الامصار وكاتبوه ودعوا فى السر الى ما عليه رأيهم وصاروا يكتبون الى الامصار كتبا يضعونها فى عيب ولاتهم فكتب أهل كل مصر منهم الى أهل المصر الآخر بما يصنعون حتى ملؤا بذلك الارض اذاعة وجاء الى أهل المدينة من جميع الامصار فأتوا عثمان رضى الله عنه فى سنة خمس وثلاثين وأعلموه ما أرسل به أهل الامصار من شكوى عمالهم فبعث محمد بن مسلمة الى الكوفة وأسامة بن زيد الى البصرة وعمار بن ياسر الى مصر وعبد الله بن عمر الى الشام لكشف سير العمال فرجعوا الى عثمان الا عمارا وقالوا ما أنكرنا شيأ وتأخر عمار فورد الخبر الى المدينة بأنه قد استماله عبد الله بن السوداء فى جماعة فأمر عثمان عماله أن يوافوه بالموسم فقدموا عليه واستشاروه فكل أشار برأى ثم قدم المدينة بعد الموسم فكان بينه وبين على بن أبى طالب كلام فيه بعض الجفاء بسبب اعطائه أقاربه ورفعه لهم على من سواهم وكان المنحرفون عن عثمان قد تواعدوا يوما يخرجون فيه بأمصارهم اذا سار عنها الامراء فلم يتهيأ لهم الوثوب وعندما رجع الامراء من الموسم تكاتب المخالفون فى القدوم الى المدينة لينظروا فيما يريدون وكان أمير مصر من قبل عثمان رضى الله عنه عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى فلما خرج فى شهر رجب من مصر فى سنة خمس وثلاثين استخلف بعده عقبة بن عامر الجهنى فى قول الليث بن سعد وقال يزيد بن أبى حبيب بل استخلف على مصر السائب بن هشام العامرى وجعل على الخراج سليم بن عنز التجيبى فانتزى محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ابن عبد مناف فى شوال من السنة المذكورة وأخرج عقبة بن عامر من الفسطاط ودعا الى خلع عثمان رضى الله عنه وأسعر البلاد وحرض على عثمان بكل شىء يقدر عليه فكان يكتب الكتب على لسان أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأخذ الرواحل فيضمرها ويجعل رجالا على ظهور

البيوت ووجوههم الى وجه الشمس لتلوح وجوههم تلويح المسافر ثم يأمرهم أن يخرجوا الى طريق المدينة بمصر ثم يرسلون رسلا يخبرون بهم الناس ليلقوهم وقد أمرهم اذا لقيهم الناس أن يقولوا ليس عندنا خبر الخبر في الكتب فيجيء رسول أولئك الذين دس فيذكر مكانهم فيتلقاهم ابن أبي حذيفة والناس يقولون نتلقى رسل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا لقوهم قالوا لهم ما الخبر قالوا لا خبر عندنا عليكم بالمسجد ليقرأ عليكم كتاب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فيجتمع الناس في المسجد اجتماعا ليس فيه تقصير ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول انا نشكوا الى الله واليكم ما عمل في الاسلام وما صنع في الاسلام فيقوم أولئك الشيوخ من نواحي المسجد بالبكاء فيبكون ثم ينزل عن المنبر ويتفرق الناس بما قرئ عليهم فلما رأت ذلك شيعة عثمان رضي الله عنه اعتزلوا محمد بن أبي حذيفة ونابذوه وهم معاوية بن خديج وخارجة بن حذافة وبسر بن أرطاه ومسلمة بن مخلد وعمرو بن محزم الخولاني ومقسم بن بجرة وحمزة بن سرح بن كلال وأبو الكنود سعد بن مالك الازدي وخالد بن ثابت الفهمي في جمع كثير وبعثوا سلمة ابن مخرمة التجيبي الى عثمان ليخبره بأمرهم وبصنع ابن أبي حذيفة فبعث عثمان رضي الله عنه سعد ابن أبي وقاص ليصلح أمرهم فبلغ ذلك ابن أبي حذيفة فخطب الناس وقال ألا ان الكذا والكذا قد بعث اليكم سعد بن مالك ليفل جماعتكم ويشتت كلمتكم ويوقع التجادل بينكم فانفروا اليه فخرج منهم مائة أو نحوها وقد ضرب فسطاطه وهو قائل فقلبوا عليه فسطاطه وشجوه وسبوه فركب راحلته وعاد راجعا من حيث جاء وقال ضربكم الله بالذل والفرقة وشتت أمركم وجعل بأسكم بينكم ولا ارضاكم بأمير ولا أرضاه عنكم وأقبل عبد الله بن سعد حتى بلغ جسر القلزم فاذا بخيل لابن أبي حذيفة فمنعوه أن يدخل فقال ويلكم دعوني أدخل على جندي فأعلمهم بما جئت به فاني قد جئتهم بخير فأبوا أن يدعوه فقال والله لوددت أني دخلت عليهم وأعلمتهم بما جئت به ثم مت فانصرف الى عسقلان وأجمع محمد بن أبي حذيفة على بعث جيش الى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال من يتشرط في هذا البعث فكثر عليه من يتشرط فقال انما يكفينا منكم ستمائة رجل فتشرط من أهل مصر ستمائة رجل على كل مائة منهم رئيس وعلى جماعتهم عبد الرحمن بن عديس البلوي وهم كنانة بن بشر بن سلمان التجيبي وعروة بن سليم الليثي وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي وسودان بن رمان الاصبحي وذرع بن يشكر اليافعي وسجن رجال من أهل مصر في دورهم منهم بسر بن أرطاه ومعاوية بن خديج فبعث ابن أبي حذيفة الى معاوية بن خديج وهو أرمد ليكرهه على البيعة فلما بلغ ذلك كنانة بن بشر وكان رأس الشيعة الاولى دفع عن معاوية ما كره ثم قتل عثمان رضي الله عنه في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين فدخل الركب الى مصر وهم يرتجزون

خذها اليك واحذرن أبا الحسن * انا نمرّ الحرب امرار الرسن * بالسيف كي تخمد نيران الفتن
فلما دخلوا المسجد صاحوا انا لسنا قتلة عثمان ولكن الله قتله فلما رأى ذلك شيعة عثمان
قاموا وعقدوا لمعاوية بن حديج عليهم وبايعوه على الطلب بدم عثمان فسار بهم معاوية الى الصعيد
فبعث اليهم ابن أبي حذيفة فالتقوا بدقدناس من كورة البهنسا فهزم أصحاب ابن أبي حذيفة
ومضى معاوية حتى بلغ برقة ثم رجع الى الاسكندرية فبعث ابن أبي حذيفة بجيش آخر عليهم قيس
ابن حرمل فاقتتلوا بخربتا أول شهر رمضان سنة ست وثلاثين فقتل قيس وسار معاوية بن أبي سفيان
الى مصر فنزل سلمنت من كورة عين شمس في شوال فخرج اليه ابن أبي حذيفة في أهل مصر فمنعوه
أن يدخلها فبعث اليه معاوية انا لا نريد قتال أحد انما جئنا نسأل القود لعثمان ادفعوا الينا قاتليه
عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر وهما رأس القوم فامتنع ابن أبي حذيفة وقال لو طلبت منا
جديا أرطب السرة بعثمان ما دفعناه اليك فقال معاوية بن أبي سفيان لابن أبي حذيفة اجعل بيننا
وبينكم رهنا فلا يكون بيننا وبينكم حرب فقال ابن أبي حذيفة فاني أرضى بذلك فاستخلف
ابن أبي حذيفة على مصر الحكم بن الصلت بن مخرمة وخرج في الرهن هو وابن عيسى وكنانة بن بشر
وأبو شمر بن ابرهة وغيرهم من قتلة عثمان فلما بلغوا لدّا سجنهم بها معاوية وسار الى دمشق
فهربوا من السجن غير أبي شمر بن ابرهة فانه قال لا أدخله أسيرا وأخرج منه آبقا وتبعهم صاحب
فلسطين فقتلهم واتبع عبد الرحمن بن عديس رجل من الفرس فقال له عبد الرحمن بن عديس
اتق الله في دمي فاني بايعت النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة فقال له الشجر في الصحراء كثير
فقتله وقال محمد بن أبي حذيفة في الليلة التي قتل في صباحها عثمان فان يكن القصاص لعثمان
فسيقتل من الغد فقتل من الغد وكان قتل ابن أبي حذيفة وعبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر
ومن كان معهم من الرهن في ذي الحجة سنة ست وثلاثين فلما بلغ علي بن أبي طالب رضي الله عنه
مصاب ابن أبي حذيفة بعث قيس بن سعد بن عبادة الانصاري على مصر وجمع له الخراج والصلاة
فدخلها مستهل شهر ربيع الاول سنة سبع وثلاثين واستمال الخارجة بخربتا ودفع اليهم أعطياتهم
ووفد عليه وفدهم فأكرمهم وأحسن اليهم ومصر يومئذ من جيش علي رضي الله عنه الا أهل خربتا
الخارجين بها فلما ولى علي رضي الله عنه قيس بن سعد وكان من ذوي الرأي جهد معاوية بن أبي
سفيان وعمرو بن العاص على أن يخرجاه من مصر ليغلبا على أمرها فامتنع عليهما بالدهاء والمكايدة
فلم يقدرا على أن يلجا مصر حتى كاد معاوية قيسا من قبل علي رضي الله عنه فكان معاوية يحدث
رجالا من ذوي رأي قريش فيقول ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب الي من مكايدة كدت بها
قيس بن سعد حين امتنع مني قلت لاهل الشام لا تسبوا قيسا ولا تدعوا الى غزوه فان قيسا لنا شيعة

تأتينا كتبه ونصيحته سرا ألا ترون ماذا يفعل باخوانكم النازلين عنده يجريهم يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن الى كل راكب يأتيه منهم قال معاوية وطفقت اكتب بذلك الى شيعتى من أهل العراق فسمع بذلك جواسيس على بالعراق فأنهاه اليه محمد بن أبى بكر وعبد الله بن جعفر فاتهم قيسا فكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتا وبخربتا يومئذ عشرة آلاف فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب الى على رضى الله عنه أنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا منى بان أؤمن سربهم وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم وقد علمت أن هواهم معاوية فلست بكائدهم بأمر أهون على وعليك من الذى أفعل بهم وهم أسود العرب منهم بشر ابن أرطاة ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج فأبى عليه الا قتالهم فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب الى على رضى الله عنه ان كنت تتهمنى فاعزلنى وابعث غيرى وكتب معاوية رضى الله عنه الى بعض بنى أمية بالمدينة أن جزى الله قيس بن سعد خيرا فانه قد كف عن اخواننا من أهل مصر الذين قاتلوا فى دم عثمان واكتموا ذلك فانى أخاف أن يعزله على ان بلغه ما بينه وبين شيعتنا حتى بلغ عليا رضى الله عنه ذلك فقال من معه من رؤساء أهل العراق وأهل المدينة بدّل قيس وتحول فقال على ويحكم انه لم يفعل فدعونى قالوا لتعزلنه فانه قد بدّل فلم يزالوا به حتى كتب اليه انى قد احتجت الى قربك فاستخلف على عملك وأقدم فلما اقرأ الكتاب قال هذا من مكر معاوية ولولا الكذب لمكرت به مكرا يدخل عليه بيته فوليها قيس بن سعد الى أن عزل عنها أربعة أشهر وخمسة أيام وصرف لخمس خلون من رجب سنة سبع وثلاثين ثم وليها الاشتر مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعى من قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وذلك أن عبد الله بن جعفر كان اذا أراد أن لا يمنعه على شيأ قال له بحق جعفر فقال له أسألك بحق جعفر الا بعثت الاشتر الى مصر فان ظهرت فهو الذى تحب والا استرحت منه ويقال كان الاشتر قد ثقل على على رضى الله عنه وأبغضه وقلاه فولاه وبعثه فلما قدم قلزم مصر لقى بما يلقى العمال به هنالك فشرب شربة عسل فمات فلما أخبر على بذلك قال لليدين وللفم وسمع عمرو بن العاص بموت الاشتر فقال ان لله جنودا من عسل أو قال ان لله جنودا من العسل ثم وليها محمد بن أبى بكر الصديق من قبل على رضى الله عنهم وجمع له صلاتها وخراجها فدخلها للنصف من شهر رمضان سنة سبع وثلاثين فلقيه قيس بن سعد فقال انه لا يمنعنى نصحى لك عزله اياى ولقد عزلنى عن غير وهن ولا عجز فاحفظ ما أوصيك به يدم صلاح حالك دع معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد وبسر بن أرطاة ومن ضوى اليهم على ما هم عليه لا تكفهم عن رأيهم فان أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم وان تخلفوا عنك فلا تطلبهم وانظر هذا الحى من مضر فانت أولى بهم منى فألن لهم جناحك وقرب عليهم مكانك وارفع عنهم حجابك وانظر هذا الحى

من مدلج فدعهم وماغلبوا عليه يكفوا عنك شأنهم وأنزل الناس من بعد على قدر منازلهم فان استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل فان هذا لا ينقصك ولن تفعل انك والله ماعلمت لتظهر الخيلاء وتحب الرئاسة وتسارع الى ماهو ساقط عنك والله موفقك فعمل محمد بخلاف ماأوصاه به قيس فبعث الى ابن خديج والخارجة معه يدعوهم الى بيعته فلم يجيبوه فبعث الى دور الخارجة فهدمها ونهب أموالهم وسجن ذراريهم فنصبوا له الحرب وهموا بالنهوض اليه فلما علم أنه لاقوة له بهم أمسك عنهم ثم صالحهم على أن يسيرهم الى معاوية وأن ينصب لهم جسر أنتقيوس يجوزون عليه ولا يدخلون الفسطاط ففعلوا ولحقوا بمعاوية فلما أجمع على رضى الله عنه ومعاوية على الحكمين أغفل على أن يشترط على معاوية أن لا يقاتل أهل مصر فلما انصرف على الى العراق بعث معاوية رضى الله عنه عمرو بن العاص رضى الله عنه فى جيوش أهل الشام الى مصر فاقتتلوا قتالا شديدا انهزم فيه أهل مصر ودخل عمرو بأهل الشام الفسطاط وتغيب محمد بن أبى بكر فاقبل معاوية بن خديج فى رهط ممن يعينه على من كان يمشى فى قتل عثمان وطلب ابن أبى بكر فدلتهم عليه امرأة فقال احفظونى فى أبى بكر فقال معاوية بن خديج قتلت ثمانين رجلا من قومى فى عثمان وأتركك وأنت صاحبه فقتله ثم جعله فى جيفة حمار ميت فأحرقه بالنار فكانت ولاية محمد بن أبى بكر خمسة أشهر ومقتله لاربع عشرة خلت من صفر سنة ثمان وثلاثين ثم ولى عمرو بن العاص مصر من بعده فاستقبل بولايته هذه الثانية شهر ربيع الاول وجعل اليه الصلاة والخراج وكانت مصر قد جعلها معاوية له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة على مصلحتها ثم خرج الى الحكومة واستخلف على مصر ابنه عبد الله بن عمرو وقتل خارجة بن حذافة ورجع عمرو الى مصر فاقام بها وتعاقد بنو ملجم عبد الرحمن وقيس ويزيد على قتل على رضى الله عنه وعمرو ومعاوية رضى الله عنهما وتواعدوا على ليلة من رمضان سنة أربعين فمضى كل منهم الى صاحبه فلما قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه واستقر الامر لمعاوية كانت مصر جندها وأهل شوكتها عثمانية وكثير من أهلها علوية فلما مات معاوية ومات ابنه يزيد بن معاوية كان على مصر سعيد بن يزيد الازدى على صلاتها فلم يزل أهل مصر على الشنآن له والاعراض عنه والتكبر عليه منذ ولاه يزيد بن معاوية حتى مات يزيد فى سنة أربع وستين ودعا عبد الله بن الزبير الى نفسه فقامت الخوارج بمصر فى أمره وأظهروا دعوته وكانوا يحسبونه على مذهبهم وأوفدوا منهم وفدا اليه فسار منهم نحو الالفين من مصر وسألوه أن يبعث اليهم بامير يقومون معه ويوازرونه وكان كريب بن ابرهة الصباح وغيره من أشراف مصر يقولون ماذا نرى من العجب ان هذه الطائفة المكتمة تأمر فينا وتنهى ونحن لانستطيع أن نرد أمرهم ولحق بابن الزبير ناس كثير من أهل مصر

وكان أول من قدم مصر برأى الخوارج حجر بن الحارث بن قيس المذحجى وقيل حجر بن عمرو
ويكنى بأبى الورد وشهد مع على صفين ثم صار من الخوارج وحضر مع الحرورية النهروان فخرج
وصار الى مصر برأى الخوارج وأقام بها حتى خرج منها الى ابن الزبير فى امارة مسلمة بن مخلد
الانصارى على مصر فلما مات يزيد بن معاوية وبويع بن الزبير بعده بالخلافة بعث الى مصر
بعبد الرحمن بن جحدم الفهرى فقدمها فى طائفة من الخوارج فوثبوا على سعيد بن يزيد فاعتزلهم
واستمر ابن جحدم وكثرت الخوارج بمصر منها ومن قدم من مكة فاظهروا فى مصر التحكيم ودعوا
اليه فاستعظم الجند ذلك وبايعه الناس على غل فى قلوب ناس من شيعة بنى أمية منهم كريب
ابن ابرهة ومقسم بن بجره وزياد بن حناطة التجيبى وعابس بن سعيد وغيرهم فصار أهل مصر
حينئذ ثلاث طوائف علوية وعثمانية وخوارج فلما بويع مروان بن الحكم بالشام فى ذى القعدة
سنة أربع وستين كانت شيعة من أهل مصر مع ابن جحدم فكاتبوه سرا حتى أتى مصر
فى أشراف كثيرة وبعث ابنه عبد العزيز بن مروان فى جيش الى ايلة ليدخل من هنالك مصر
وأجمع ابن جحدم على حربه ومنعه فحفر الخندق فى شهر وهو الخندق الذى بالقرافة وبعث
بمراكب فى البحر ليخالف الى عمالات أهل الشام وقطع بعثا فى البر وجهز جيشا آخر الى ايلة لمنع
عبد العزيز من المسير منها فغرقت المراكب ونجا بعضها وانهزمت الجيوش ونزل مروان عين
شمس فخرج اليه ابن جحدم فى أهل مصر فتحاربوا واستحر القتل فقتل من الفريقين خلق كثير
ثم ان كريب بن ابرهة وعابس بن سعيد وزياد بن حناطة وعبد الرحمن بن موهب المغافرى دخلوا
فى الصلح بين أهل مصر وبين مروان فتم ودخل مروان الى الفسطاط لغرة جمادى الاولى سنة
خمس وستين فكانت ولاية ابن جحدم تسعة أشهر ووضع العطاء فبايعه الناس الا نفرا من المغافر
قالوا لانخلع بيعة ابن الزبير فقتل منهم ثمانين رجلا قدمهم رجلا رجلا فضرب أعناقهم وهم
يقولون انا قد بايعنا ابن الزبير طائعين فلم نكن ننكث بيعته وضرب عنق الاكدر بن حمام بن عامر
سيد لخم وشيخها وحضر هو وأبوه فتح مصر وكانا من ثار الى عثمان رضى الله عنه فتنادى الجند
قتل الاكدر فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه فحضر باب مروان منهم زيادة على ثلاثين ألفا وخشى
مروان وأغلق بابه حتى أتاه كريب بن ابرهة وألقى عليه رداءه وقال للجند انصرفوا أنا له جار فما
عطف أحد منهم وانصرفوا الى منازلهم وكان النصف من جمادى الآخرة ويومئذ مات عبد الله
ابن عمرو بن العاص فلم يستطع أحد أن يخرج بجنازته الى المقبرة لشغب الجند على مروان ومن
حينئذ غلبت العثمانية على مصر فتظاهروا فيها بسبب على رضى الله عنه وانكتمت السنة العلوية
والخوارج فلما كانت ولاية قرة بن شريك العبسى على مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فى سنة تسعين

خرج الى الاسكندرية فى سنة احدى وتسعين فتعاقدت السراة من الخوارج بالاسكندرية على القتل به وكانت عدتهم نحوا من مائة فعقدوا الرئيسهم المهاجر بن أبي المثنى التجيبى أحد بنى فهم عليهم عند منارة الاسكندرية وبالقرب منهم رجل يكنى أبا سليمان فبلغ قرة ما عزموا عليه فأتى لهم قبل أن يتفرقوا فأمر بحبسهم فى أصل منارة الاسكندرية وأحضر قرة وجوه الجند فسألهم فأقروا فقتلهم ومضى رجل ممن كان يرى رأيهم الى أبى سليمان فقتله فكان يزيد بن أبي حبيب اذا أراد أن يتكلم بشئ فيه تقية من السلطان تلفت وقال أخذوا أبا سليمان ثم قال الناس كلهم من ذلك اليوم أبو سليمان فلما قال عبد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق فى الحجاز على مروان ابن محمد الجعدى قدم الى مصر داعيته ودعا الناس فبايع له ناس من تجيب وغيرهم فبلغ ذلك حسان بن عتاهية صاحب الشرطة فاستخرجهم فقتلهم حوثرة بن سهيل الباهلى أمير مصر من قبل مروان بن محمد فلما قتل مروان وانقضت أيام بنى أمية ببنى العباس فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة خمدت جمرة أصحاب المذهب المروانى وهم الذين كانوا يسبون على بن أبى طالب ويتبرؤن منه وصار وامنذ ظهر بنو العباس يخافون القتل ويخشون أن يطلع عليهم أحد الا طائفة كانت بناحية الواحات وغيرها فانهم أقاموا على مذهب المروانية دهرا حتى فنوا ولم يبق لهم الآن بديار مصر وجود ألبتة فلما كان فى إمارة حميد بن قحطبة على مصر من قبل أبى جعفر المنصور قدم الى مصر على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب داعية لابيه وعمه فذكر ذلك لحميد فقال هذا كذب ودس اليه أن تغيب ثم بعث اليه من الغد فلم يجده فكتب بذلك الى أبى جعفر المنصور فعزل حميدا وسخط عليه فى ذى القعدة سنة أربع وأربعين ومائة وولى يزيد بن حاتم ابن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة فظهرت دعوة بنى حسن بن على بمصر وتكلم الناس بها وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله وهو أول علوى قدم مصر وقام بأمر دعوته خالد بن سعيد بن ربيعة ابن حبيش الصدفى وكان جده ربيعة بن حبيش من خاصة على بن أبى طالب وشيعته وحضر الدار فى قتل عثمان رضى الله عنه فاستشار خالد أصحابه الذين بايعوا له فأشار عليه بعضهم أن يبيت يزيد ابن حاتم فى العسكر وكان الامراء قد صاروا منذ قدمت عساكر بنى العباس ينزلون فى المعسكر الذى بنى خارج الفسطاط من شماليه وأشار عليه آخرون أن يحوز بيت المال وأن يكون خروجهم فى الجامع فكره خالد أن يبيت يزيد بن حاتم وخشى على اليمانية وخرج منهم رجل قد شهد أمرهم حتى أتى الى عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج وهو يومئذ على الفسطاط فخبره أنهم الليلة يخرجون فمضى عبد الله الى يزيد بن حاتم وهو بالعسكر فكان من أمرهم ما كان لعشر من شوال سنة ١٤٥ فانهزموا ثم قدمت الخطباء برأس ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين فى ذى الحجة

من السنة المذكورة الى مصر ونصبه فى المسجد الجامع وقامت الخطباء فذكروا أمره وحمل على بن
محمد الى أبى جعفر المنصور وقيل انه اختفى عند عسامة بن عمرو بقرية طره فقضى بها ومات فقبر هنالك
وحمل عسامة الى العراق فحبس الى أن رده المهدى محمد بن أبى جعفر الى مصر ومازالت شيعة على
بمصر الى أن ورد كتاب المتوكل على الله الى مصر يأمر فيه باخراج آل أبى طالب من مصر الى العراق
فأخرجهم اسحاق ابن يحيى الختلى أمير مصر وفرق فيهم الاموال ليتحملوا بها وأعطى كل رجل
٣٠ دينارا والمرأة ١٥ دينارا فخرجوا لعشر خلون من رجب سنة ٢٣٦ وقدموا العراق فأخرجوا
الى المدينة فى شوال منها واستتر من كان بمصر على رأى العلوية حتى ان يزيد بن عبد الله أمير مصر
ضرب رجلا من الجند فى شىء وجب عليه فأقسم عليه بحق الحسن والحسين الاعفاء عنه فزاده ٣٠
درة ورفع ذلك صاحب البريد الى المتوكل فورد الكتاب على يزيد بضرب ذلك الجندى مائة سوط
فضربها وحمل بعد ذلك الى العراق فى شوال سنة ثلاث وأربعين ومائتين وتتبع يزيد الروافض
فحملهم الى العراق ودل فى شعبان على رجل يقال له محمد بن على بن الحسن بن على بن الحسين
ابن على ابن أبى طالب انه بويع له فأحرق الموضع الذى كان به وأخذه فأقر على جمع من الناس بايعوه
فضرب بعضهم بالسياط وأخرج العلوى هو وجمع من آل أبى طالب الى العراق فى شهر رمضان
ومات المتوكل فى شوال فقام من بعده ابنه محمد المستنصر فورد كتابه الى مصر بأن لا يقبل علوى
ضيعة ولا يركب فرسا ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد
الا العبد الواحد ومن كان بينه وبين أحد من الطالبيين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه
ولم يطالب ببينة وكتب الى العمال بذلك ومات المستنصر فى ربيع الآخر وقام المستعين فأخرج يزيد
ستة رجال من الطالبيين الى العراق فى رمضان سنة خمسين ومائتين ثم أخرج ثمانية منهم فى رجب
سنة احدى وخمسين وخرج جابر بن الوليد المدلجى بأرض الاسكندرية فى ربيع الآخر
سنة اثنتين وخمسين واجتمع اليه كثير من بنى مدلج فبعث اليه محمد بن عبيد الله بن يزيد بجيش
من الاسكندرية فهزمهم وظفر بأمعهم وقوى أمره وأتاه الناس من كل ناحية وضوى اليه
كل من يومى اليه بشدة ونجدة فكان ممن أتاه عبد الله المريسى وكان لصا خبيثا ولحق به جريج
النصرانى وكان من شرار النصارى وأولى بأسهم ولحق به أبو حرملة فرج النوبى وكان فاتكا
فعقد له جابر على سنهور وسخا وشرقيون وبنا فمضى أبو حرملة فى جيش عظيم فأخرج العمال
وجبى الخراج ولحق به عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن على بن الحسين
ابن على بن أبى طالب الذى يقال له ابن الارقط فقوده أبو حرملة وضم اليه الاعراب وولاه بنا وبوصير
وسمنود فبعث يزيد أمير مصر بجمع من الاتراك فى جمادى الآخرة فقاتلهم ابن الارقط وقتل منهم

ثم ثبتوا له فانهزم وقتل من أصحابه كثير وأسر منهم كثير ولحق ابن الارقط بأبي حرملة في شرقيون فصار الى عسكر يزيد فانهزم أبو حرملة وقدم مزاحم بن خاقان من العراق في جيش فحارب أبا حرملة حتى أسر في رمضان واستأمن ابن الارقط فأخذ وأخرج الى العراق في ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين ومائتين ففر منهم ثم ظفر به وحبس ثم حمل الى العراق في صفر سنة خمس وخمسين ومائتين بكتاب ورد على أحمد بن طولون ومات أبو حرملة في السجن لاربع بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وأخذ جابر بعد حروب وحمل الى العراق في رجب سنة أربع وخمسين وخرج في امرة أرجون التركي رجل من العلويين يقال له بغا الاكبر وهو أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا ابن اسماعيل بن ابراهيم بن حسن بن حسين بن علي بالصعيد فحاربه أصحاب أرجون وفر منهم فمات ثم خرج بغا الاصغر وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا فيما بين الاسكندرية وبرقة في جمادى الاولى سنة خمس وخمسين ومائتين والامير يومئذ أحمد بن طولون وسار في جمع الى الصعيد فقتل في الحرب وأتي برأسه الى الفسطاط في شعبان وخرج ابن الصوفي العلوي بالصعيد وهو ابراهيم بن محمد بن يحيى ابن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ودخل اسنا في ذي القعدة سنة خمس وخمسين ونهبها وقتل أهلها فبعث اليه ابن طولون بجيش فحاربوه فهزمهم في ربيع الاول سنة ست وخمسين ثم قبعث ابن طولون اليه بجيش آخر فالتقيا باخميم في ربيع الآخر فانهزم ابن الصوفي وترك جميع ما معه وقتلت رجاله فاقام ابن الصوفي بالواح سنتين ثم خرج الى الاشمونيين في المحرم سنة تسع وخمسين وسار الى اسوان لمحاربة أبي عبد الرحمن العمري فظفر به العمري وبجميع جيشه وقتل منهم مقتلة عظيمة ولحق ابن الصوفي باسوان فقطع لاهلها ثلثمائة ألف نخلة فبعث اليه ابن طولون بعثا فاضطرب أمره مع أصحابه فتركهم ومضى الى عيذاب فركب البحر الى مكة فقبض عليه بها وحمل الى ابن طولون فسجنه ثم أطلقه فصار الى المدينة ومات بها وفي إمارة هارون بن خمارويه بن أحمد ابن طولون أنكر رجل من أهل مصر أن يكون أحد خيرا من أهل البيت فوثبت اليه العامة فضرب بالسياط يوم الجمعة في جمادى الاولى سنة خمس وثمانين ومائتين وفي امارة ذكا الاعور على مصر كتب على أبواب الجامع العتيق ذكر الصحابة والقرآن فرضيه جمع من الناس وكرهه آخرون فاجتمع الناس في رمضان سنة خمس وثلثمائة الى دار ذكا يتشكرونه على ما أذن لهم فيه فوثب الجند بالناس فنهب قوم وجرح آخرون ومحي ما كتب على أبواب الجامع ونهب الناس في المسجد والاسواق وأفطر الجند يومئذ ومازال أمر الشيعة يقوى بمصر الى أن دخلت سنة خمسين وثلثمائة ففي يوم عاشوراء كانت منازعة بين الجند وبين جماعة من الرعية عند قبر كلثوم العلوية بسبب ذكر السلف والنوح وقتل فيها جماعة من الفريقين وتعصب السودان على الرعية فكانوا اذا لقوا أحدا

قالوا له من خالك فان لم يقل معاويه والا بطشوا به وسطوه ثم كثر القول معاوية خال على وكان على باب الجامع العتيق شيخان من العامة يناديان فى كل يوم جمعة فى وجوه الناس من الخاص والعام معاويه خالى وخال المؤمنين وكاتب الوحى ورديف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان هذا أحسن مايقولونه والافقد كانوا يقولون معاويه خال على من هاهنا ويشيرون الى أصل الاذان ويلقون أبا جعفر مسلما الحسينى فيقولون له ذلك فى وجهه وكان بمصر أسود يصيح دائما معاويه خال على فقتل بتنيس أيام القائد جوهر ولما ورد الخبر بقيام بنى حسن بمكة ومحاربتهم الحاج ونهبهم خرج خلق من المصريين فى شوال فلقوا كافورا الاخشيدى بالميدان ظاهر مدينة مصر وضجوا وصاحوا معاويه خال على فقبل أن يبعث لنصرة الحاج على الطالبيين وفى شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة أخذ رجل يعرف بابن أبى الليث الملطى ينسب الى التشيع فضرب مائتى صوت ودرة ثم ضرب فى شوال خمسمائة سوط ودرة وجعل فى عنقه غل وحبس وكان يتفقد فى كل يوم لئلا يخفف عنه ويبصق فى وجهه فمات فى محبسه فحمل ليلا ودفن فمضت جماعة الى قبره لينبشوه وبلغوا الى القبر فمنعهم جماعة من الاخشيدى والكافورية فأبوا وقالوا هذا قبر رافضى فثارت فتنة وضرب جماعة ونهبوا كثيرا حتى تفرق الناس وفى سنة ست وخمسين كتب فى صفر على المساجد ذكر الصحابة والتفضيل فأمر الاستاذ كافور الاخشيدى بازالته فحدثه جماعة فى اعادة ذكر الصحابة على المساجد فقال ماأحدث فى أيامى مالم يكن وما كان فى أيام غيرى فلا أزيله وما كتب فى أيامى أزيله ثم أمر من طاف وأزاله من المساجد كلها ولما دخل جوهر القائد بعساكر المعز لدين الله الى مصر و بنى القاهرة أظهر مذهب الشيعة واذن فى جميع المساجد الجامعة وغيرها حى على خير العمل وأعلن بتفضيل على بن أبى طالب على غيره وجهر بالصلاة عليه وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم فشكا اليه جماعة من أهل المسجد الجامع أمر عجوز عمياء تنشد فى الطريق فأمر بها فحبست فسر الرعية بذلك ونادوا بذكر الصحابة ونادوا معاوية خال على وخال المؤمنين فأرسل جوهر حين بلغه ذلك رجلا الى الجامع فنادى أيها الناس أقلوا القول ودعوا الفضول فانما حبسنا العجوز صيانة لها فلا ينطق أحد الا حلت به العقوبة الموجعة ثم أطلق العجوز وفى ربيع الاول سنة اثنتين وستين عزر سليمان بن عروة المحتسب جماعة من الصيارفة فشغبوا وصاحوا معاوية خال على بن أبى طالب فهم جوهر أن يحرق رحبة الصيارفة لكن خشى على الجامع وأمر الامام بجامع مصر أن يجهر بالبسملة فى الصلاة وكانوا لا يفعلون ذلك وزيد فى صلاة الجمعة القنوت فى الركعة الثانية وأمر فى المواريث بالرد على ذوى الارحام وأن لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم ولا يرث مع الولد الذكر أو الانثى الا الزوج أو الزوجة والابوان والجدة

ولايرث مع الام الامن يرث مع الولد وخاطب أبو الطاهر محمد بن أحمد قاضى مصر القائد جوهرا فى بنت وأخ وانه كان قد حكم قديما للبنت بالنصف وللاخ بالباقى فقال لا أفعل فلما ألح عليه قال ياقاضى هذا عداوة لفاطمة عليها السلام فأمسك أبو الطاهر ولم يراجعه بعد فى ذلك وصار صوم شهر رمضان والفطر على حساب لهم فأشار الشهود على القاضى أبى الطاهر أن لا يطلب الهلال لان الصوم والفطر على الرؤية قد زال فانقطع طلب الهلال من مصر وصام القاضى وغيره مع القائد جوهر كما يصوم وافطروا كما يفطر ولما دخل المعز لدين الله الى مصر ونزل بقصره من القاهرة المعزية أمر فى رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة فكتب على سائر الاماكن بمدينة مصر خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام وفى صفر سنة خمس وستين وثلثمائة جلس على بن النعمان القاضى بجامع القاهرة المعروف بالجامع الازهر وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت ويعرف هذا المختصر بالاقتصار وكان جمعا عظيما وأثبت أسماء الحاضرين ولما تولى يعقوب بن كلس الوزارة للعزيز بالله نزار بن المعز رتب فى داره العلماء من الادباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأجرى لجميعهم الارزاق وألف كتابا فى الفقه ونصب له مجلسا وهو يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل وتجرى بينهم المناظرات وكان يجلس أيضا فى يوم الجمعة فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه ويحضر عنده القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وأصحاب الحديث ووجوه أهل العلم والشهود فاذا انقضى المجلس من القراءة قام الشعراء لانشاد مدائحهم فيه وجعل للفقهاء فى شهر رمضان الاطعمة وألف كتابا فى الفقه يتضمن ماسمعه من المعز لدين الله ومن ابنه العزيز بالله وهو مبوب على أبواب الفقه يكون قدره مثل نصف صحيح البخارى ملكته ووقفت عليه وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية وكان يجلس لقراءة هذا الكتاب على الناس بنفسه وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والفضلاء والادباء وأفتى الناس به ودرسوا فيه بالجامع العتيق وأجرى العزيز بالله لجماعة من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه أرزاقا تكفيهم فى كل شهر وأمر لهم ببناء دار الى جانب الجامع الازهر فاذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد الصلاة الى أن تصلى صلاة العصر وكان لهم من مال الوزير صلة فى كل سنة وعدتهم خمسة وثلاثون رجلا وخلع عليهم العزيز بالله فى يوم عيد الفطر وحملهم على بغال وفى سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة أمر العزيز بن المعز بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية وفى سنة احدى وثمانين وثلثمائة ضرب رجل بمصر وطيف به المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس رحمه الله وفى شهر ربيع الاول سنة خمس وثمانين وثلثمائة جلس القاضى محمد بن النعمان على كرسى بالقصر فى القاهرة

لقراءة علوم أهل البيت على الرسم المقدم له ولاخيه بمصر بالمغرب فمات فى الزحمة أحد عشر رجلا
وفى جمادى الاولى سنة احدى وتسعين وثلثمائة قبض على رجل من أهل الشام سئل عن أمير
المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال لا أعرفه فاعتقله قاضى القضاة الحسن بن النعمان
قاضى أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على القاهرة المعزية ومصر والشامات والحرمين والمغرب
وبعث اليه وهو فى السجن أربعة من الشهود وسألوه فأقر بالنبى صلى الله عليه وسلم وأنه نبى مرسل
وسئل عن على بن أبى طالب فقال لا أعرفه فأمر قائد القواد الحسين بن جوهر باحضاره فخلا به ورفق
فى القول له فلم يرجع عن انكاره معرفة على بن أبى طالب فطولع الحاكم بامره فأمر بضرب عنقه
فضرب عنقه وصلب وفى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة قبض على ثلاثة عشر رجلا وضربوا
وشهروا على الجمال وحبسوا ثلاثة أيام من أجل أنهم صلوا صلاة الضحى وفى سنة خمس وتسعين
وثلثمائة قرئ سجل فى الجوامع بمصر والقاهرة والجزيرة بان تلبس النصارى واليهود الغيار والزنار
وغيارهم السواد غيار العاصين العباسيين وأن يشدوا الزنار وفيه وقوع وفحش فى حق أبى بكر
وعمر رضى الله عنهما وقرئ سجل آخر فيه منع الناس من أكل الملوخيا المحببة كانت لمعاوية بن أبى
سفيان ومنعهم من أكل البقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة رضى الله عنها ومن المتوكلية
المنسوبة الى المتوكل والمنع من عجين الخبز بالرجل والمنع من أكل الدلينس ومن ذبح البقر الاذا
كانت ذات عاهة ماعدا أيام النحر فانه يذبح فيها البقر فقط والوعيد للنخاسين متى باعوا عبدا أو أمة لذمى وقرئ
سجل آخر بان يؤذن لصلاة الظهر فى أول الساعة السابعة ويؤذن لصلاة العصر فى أول الساعة
التاسعة وقرئ أيضا سجل بالمنع من عمل الفقاع وبيعه فى الاسواق لما يؤثر عن على بن أبى طالب
رضى الله عنه من كراهية شرب الفقاع وضرب فى الطرقات والاسواق بالجرس ونودى أن لا يدخل
أحد الحمام الا بمئزر ولا تكشف امرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج ولا يباع شئ
من السمك بغير قشر ولا يصطاده أحد من الصيادين وقبض على جماعة وجدوا فى الحمام بغير مئزر
فضربوا وشهروا وكتب فى صفر من هذه السنة على سائر المساجد وعلى الجامع العتيق بمصر
من ظاهره وباطنه من جميع جوانبه وعلى أبواب الحوانيت والحجر والمقابر والصحراء سب السلف
ولعنهم ونقش ذلك ولون بالاصباغ والذهب وعمل ذلك على أبواب الدور والقياسر وأكره الناس
على ذلك وتسارع الناس الى الدخول فى الدعوة فجلس لهم قاضى القضاة عبد العزيز بن محمد بن النعمان
فقدموا من سائر النواحى والضياع فكان للرجال يوم الاحد وللنساء يوم الاربعاء وللاشراف
وذوى الاقدار يوم الثلاثاء وازدحم الناس على الدخول فى الدعوة فمات عدة من الرجال والنساء
ولما وصلت قافلة الحاج هربهم من سب العامة وبطشهم مالا يوصف فانهم أرادوا حمل الحاج

على سب السلف فأبوا فحل بهم مكروه شديد وفى جمادى الآخرة من هذه السنة فتحت دار الحكمة
بالقاهرة وجلس فيها القراء وحملت الكتب اليها من خزائن القصور ودخل الناس اليها وجلس فيها
القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والاطباء وحصل فيها من الكتب فى سائر
العلوم مالم ير مثله مجتمعا وأجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الارزاق السنية وجعل فيها
ما يحتاج اليه من الحبر والاقلام والمحابر والورق وفى يوم عاشوراء من سنة ست وتسعين وثلثمائة
كان من اجتماع الناس ما جرت به العادة وأعلن بسب السلف فيه فقبض على رجل نودى عليه هذا
جزاء من سب عائشة وزوجها صلى الله عليه وسلم ومعه من الرعاع ما لا يقع عليه حصر وهم يسبون
السلف فلما تم النداء عليه ضرب عنقه واستهل شهر رجب من هذه السنة بيوم الاربعاء فخرج
أمر الحاكم بأمر الله أن يؤرخ بيوم الثلاثاء وفى سنة سبع وتسعين وثلثمائة قبض على جماعة
ممن يعمل الفقاع ومن السماكين ومن الطباخين وكبست الحمامات فأخذ عدة ممن وجدوا بغير مئزر
فضرب الجميع لمخالفتهم الامر وشهروا وفى تاسع ربيع الآخر أمر الحاكم بأمر الله بمحو ما كتب
على المساجد وغيرها من سب السلف وطاف متولى الشرطة وألزم كل أحد بمحو ما كتب على
المساجد من ذلك ثم قرئ سجل فى ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وثلثمائة بان لا يحمل شئ من
النبيذ والمزر ولا يتظاهر به ولا بشئ من الفقاع والدلينس والسمك الذى لا قشر له والترمس العفن
وقرئ سجل فى رمضان على سائر المنابر بأن يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ولا يعارض
أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون صلاة الخمس الدين فيما جاءهم فيها يصلون وصلاة الضحى
وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون
ولا يمنع من التربيع عليها المربعون يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ولا يؤذى من بها لا يؤذنون
ولا يسب أحد من السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف والخالف منهم بما حلف لكل
مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده والى ربه معاده عنده كتابه وعليه حسابه وفى صفر سنة أربعمائة شهر
جماعة بعد ما ضربوا بسبب بيع الفقاع والملوخيا والدلينس والترمس وفى تاسع عشر شهر شوال
أمر الحاكم بأمر الله برفع ما كان يؤخذ من الخمس والزكاة والفطرة والنجوى وأبطل قراءة مجالس
الحكمة فى القصر وأمر برد التثويب فى الاذان وأذن للناس فى صلاة الضحى وصلاة التراويح
وأمر المؤذنين بأسرهم فى الآذان بان لا يقولوا حى على خير العمل وأن يقولوا فى الاذان للفجر
الصلاة خير من النوم ثم أمر فى ثانى عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعمائة باعادة قول حى على خير
العمل فى الاذان وقطع التثويب وترك قولهم الصلاة خير من النوم ومنع من صلاة الضحى وصلاة
التراويح وفتح باب الدعوة وأعيدت قراءة المجالس بالقصر على ما كانت وكان بين المنع من ذلك

والأذن فيه خمسة أشهر وضرب في جمادى من هذه السنة جماعة وشهروا ببيع الملوخيا والسمك الذي لا قشر له وشرب المسكرات وتتبع السكارى فضيق عليهم وفي يوم الثلاثاء سابع عشري شعبان سنة احدى وأربعمائة وقع قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي الى سائر الشهود والامناء بخروج الامر المعظم بان يكون الصوم يوم الجمعة والعيد يوم الاحد وفي شعبان سنة اثنتين وأربعمائة قرئ سجل يشدد فيه النكير على بيع الملوخيا والفقاع والسمك الذي لا قشر له ومنع النساء من الاجتماع في المآتم ومن اتباع الجنائز وأحرق الحاكم بأمر الله في هذا الشهر الزبيب الذي وجد في مخازن التجار وأحرق ما وجد من الشطرنج وجمع صيادى السمك وحلفهم بالايمان المؤكدة ان لا يصطادوا سمكا بغير قشر ومن فعل ذلك ضربت عنقه وأحرق في خمسة عشر يوماً ألفين وثمانمائة وأربعين قطعة زبيب بلغ ثمن النفقة عليها خمسمائة دينار ومنع من بيع العنب الا أربعة أرطال فما دونها ومنع من اعتصاره وطرح عنبا كثيرا في الطرقات وأمر بدوسه فامتنع الناس من التظاهر بشئ من العنب في الاسواق واشتد الامر فيه وغرق منه ما حمل من النيل وأحصى ما بالجيزة من الكروم فقطف ما عليها من العنب وطرح ما جمعه من ذلك تحت أرجل البقر لتدوسه وفعل مثل ذلك في جهات كثيرة وختم على مخازن العسل وغرق منه في أربعة أيام خمسة آلاف جرة واحدى وخمسين جرة فيها العسل وغرق من عسل النحل قدر احدى وخمسين زيرا وفي جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة اشتد الانكار على الناس بسبب بيع الفقاع والزبيب والسمك الذي لا قشر له وقبض على جماعة وجد عندهم زبيب فضربت أعناقهم وسجنت عدة منهم وأطلقوا وفي شوال اعتقل رجل ثم شهر ونودى عليه هذا جزاء من سب أبا بكر وعمر ويثير الفتن فاجتمع خلق كثير بباب القصر فاستغاثوا لا طاقة لنا بمخالفة المصريين ولا بمخالفة الحشوية من العوام ولا صبر لنا على ما جرى وكتبوا قصصا فصرفوا ووعدوا بالمجئ في غد فبات كثير منهم بباب القصر واجتمعوا من الغد فصاحوا وضجوا فخرج اليهم قائد القواد غبن فنهاهم وأمرهم عن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن يمضوا الى معايشهم فانصرفوا الى قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي وشكوا اليه فتبرم من ذلك فضوا وفيهم من يسب السلف ويعرض بالناس فقرئ سجل بالقصر بالترحم على السلف من الصحابة والنهى عن الخوض في ذلك وركب مرة فرأى لوحا على قيسارية فيه سب السلف فأنكره وما زالوا قفا حتى قلع وضرب بالجرس في سائر طرقات مصر والقاهرة وقرئ سجل بتتبع الالواح المنصوبة على سائر أبواب القياسر والحوانيت والدور والخانات والارباع المشتملة على ذكر الصحابة والسلف الصالح رحمهم الله بالسب واللعن وقلع ذلك وكسره وتعفية أثره ومحوما على الحيطان من هذه الكتابة وازالة جميعها من سائر الجهات حتى لا يرى لها أثر في جدار ولا نقش في لوح وحذر فيه من المخالفة وهدد بالعقوبة

ثم انتقض ذلك كله وعاد الامر الى ما كان عليه الى أن قتل الخليفة الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور ابن المستعلي بالله أبي القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد وثار أبو علي أحمد الملقب كتيفات ابن الافضل شاهنشاه بن أمير الجيوش واستولى على الوزارة في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وسجن الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن الامير أبي القاسم محمد بن الخليفة المستنصر بالله وأعلن بمذهب الامامية والدعوة للامام المنتظر وضرب دراهم نقشها الله الصمد الامام محمد ورتب في سنة خمس وعشرين أربعة قضاة اثنان أحدهما امامي والآخر اسماعيلي واثنان أحدهما مالكي والآخر شافعي فحكم كل منهما بمذهبه وورث على مقتضاه وأسقط ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق وأبطل من الاذان حي على خير العمل وقولهم محمد وعلي خير البشر فلما قتل في المحرم سنة ست وعشرين عاد الامر الى ما كان عليه من مذهب الاسماعيلية ومابرح حتى قدمت عساكر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي من دمشق عليها أسد الدين شيركوه وولي وزارة مصر الخليفة العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن الامير يوسف بن الحافظ لدين الله ومات فقام في الوزارة بعده ابن أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وشرع في تغيير الدولة وازالتها وحجر على العاضد وأوقع بأمراء الدولة وعساكرها وأنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية ومدرسة للفقهاء المالكية وصرف قضاة مصر الشيعة كلهم وفوض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارانى الشافعي فلم يستنب عنه في اقليم مصر الا من كان شافعي المذهب فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعي واختفى مذهب الشيعة والاسماعيلية والامامية حتى فقد من أرض مصر كلها وكذلك كان السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن اق سنقر حنفيا فيه تعصب فنشر مذهب أبي حنيفة رحمه الله ببلاد الشام ومنه كثرت الحنفية بمصر وقدم اليها أيضا عدة من بلاد الشرق وبنى لهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة السيوفية بالقاهرة ومازال مذهبهم ينتشر ويقوى وفقهاؤهم تكثر بمصر والشام من حينئذ وأما العقائد فان السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن اسماعيل الاشعري تلميذ أبي علي الجبائي وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الامام الشافعي من القرافة والمدرسة الناصرية التي عرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر والمدرسة المعروفة بالقمحية بمصر وخانكاه سعيد السعداء بالقاهرة فاستمر الحال على عقيدة الاشعري بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضا لادخال محمد بن تومرت رأي الاشعري اليها حتى انه صار هذا الاعتقاد سائر هذه البلاد بحيث ان من خالفه ضرب عنقه والامر على ذلك الى اليوم ولم يكن في الدولة الايوبية بمصر

كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل ثم اشتهر مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل فى آخرها فلما كانت سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ولى بمصر والقاهرة أربعة قضاة وهم شافعى ومالكى وحنفى وحنبلى فاستمر ذلك من سنة خمس وستين وستمائة حتى لم يبق فى مجموع أمصار الاسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الاسلام سوى هذه المذاهب الاربعة وعقيدة الاشعرى وعملت لاهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط فى سائر ممالك الاسلام وعودى من تمذهب بغيرها وأنكر عليه ولم يول قاض ولاقبلت شهادة أحد ولاقدم للخطابة والامامة والتدريس أحد مالم يكن مقلدا لاحد هذه المذاهب وأفتى فقهاء هذه الامصار فى طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ماعداها والعمل على هذا الى اليوم (من المقريزى)

فى آراء القدماء فى حقيقة بحث جزيرة العرب

اعلم أن بلاد العرب ايالة واسعة مساحة سطحها تساوى ضعف سطح مملكة فرانسا تقريبا وقد قدر أهل هذا العصر من علماء أوروبا سطحها بمائة وستة وعشرين ألف فرسخ مربع يحيط بها الماء من ثلاث جهات وتتصل من الجهة الرابعة بافريقة وآسيا وهى منعزلة عنهما من الجهات الثلاث فى الجملة وحدودها من الشرق والجنوب والغرب الخليج الفارسى وبحر الهند والبحر الاحمر ومن الشمال الغربى برزخ السويس وأما خط نهايتها من الشمال فمبداه غزة وهى مدينة من اقاليم فلسطين على ساحل البحر الابيض المتوسط فيمر بجنوب بحيرة البحر الميت وبشرق نهر الاردن أى نهر الشريعة ثم يمتد ذلك الخط من دمشق الى نهر الفرات حتى ينتهى الى الخليج الفارسى (١) وكان القدماء لايعرفون وصف داخل بلاد العرب بل لم يكن لليونان والرومان ابدا دراية تامة بتقسيمها الى أقسام حتى ان المؤرخ هيرودوطوس اليونانى الذى ساح كثيرا فى البلاد وجمع كثيرا من الفوائد

---

(١) اذا أردت ان تعرف جغرافية جميع بلاد العرب فراجع كتاب كرل ريتر فقد ذكر فى المجلد الثالث عشر من مؤلفه المطول أسماء جميع المؤلفين الذين كتبوا قبله فى هذه المسئلة وكتاب نيابهر المتضمن تخطيط بلاد العرب ومقدمة المؤلف بوشنغ التى ذكرها الجغرافية قسم آسيا وكتاب كرلوس فرستر المؤلف بالانكليزية فى جغرافية بلاد العرب فى الازمان العتيقة والكتاب المسمى بالابحاث الجغرافية والتاريخية المتعلقة ببلاد العرب تأليف موسيو جومار (سنة ١٨٣٩ ميلادية بمدينة باريس) فانه يحتوى بغاية الدقة والضبط على تلخيص مؤلفات الافرنج فى هذا الزمان المتعلقة بجغرافية بلاد العرب

وراجع أيضا صحيفة ٢٤٨ من المجلد الثانى من ترجمة تأليف هميلد النمساوى الى اللغة الفرنساوية فى وصف القبموس أى العالم ٥٢

النافعة المتعلقة باخلاق قدماء كل من المصريين وأهل ازربيجان فقد اقتصر على ذكر عبارات قليلة في جزيرة العرب عند الكلام عليها ثم جاء بعده كل من ايرانستينس واغاترشيدس وبليناس وأريان بفتح الهمزة وكسر الراء مشددة واسترابون وديودور السيسيليانى فدونوا لنا فى شأنها فوائد أكثر مما ذكره ذلك المؤرخ ولكنهم عزوا فى غالب عباراتهم الى بلاد العرب ما يجلب اليها من محصولات الهندستان للتجارة

والظاهر أن بطليموس الفالوذى كان أعلم المؤلفين الاقدمين جميعا بحقيقة حال بلاد العرب ولعله تيسر له الوقوف على اخبار صحيحة فى شأنها من حيث ان قربها من ايالة مصر جعلها مفتوحة لمن أراد أن يعرف حقيقة حالها من سكان شواطئ النيل ومع ذلك فما وصل الينا من تقسيماته لها ليس الا اجتهاديا ولذلك لم يعتمد تقسيمه أحد من علماء الجغرافية من الغرب حيث قسم بلاد العرب الى ثلاثة أقطار كبار وهى الحجاز ونجد واليمن وهى ثلاثة أسماء تدل فى الواقع ونفس الامر دلالة كافية على طبيعة الاقطار المسماة بها بالنظر الى تخطيطها العام فاما القسم الاول وهو الحجاز فجعله شاملا للجزيرة التى بين الخليجين المتفرعين من البحر الاحمر فى نهايته الشماليه وأما الثانى وهو نجد فجعله ممتدا من شرقى هذين الخليجين الى حدود الشام وميزوبوتامية أى (جزيرة النهرين دجله والفرات) ومن الجهة الشرقيه من مبدأ طول الخليج الفارسى الى بحر الهند وأما ما عداهما أعنى الجزء الجنوبى من بلاد العرب فجعله عبارة عن بلاد اليمن وعد فيها فى زمانه ستة وخمسين قوما مختلفة ومائة وستا وستين ما بين مدن ومينات وقرى منها ست مدائن كبيرة وخمس مدائن ملوكية (١) ولم تتفق كلمة المؤلفين فى تحديد امتداد هذا القسم الثالث فقد بالغ بعضهم فى تقديره مبالغة خارجة عن حد القياس وحصره الآخرون بين الجبال المجاورة للاقيانوس الهندى (بحر الهند) وانه ليسهل على الانسان ادراك الاختلاف الذى بين هذين القولين بمجرد امعان الفكر والنظر فى تلك المسئلة من غير اعتبار ما قيل فيها انه الحق وأقول ان آراء العرب فى تقسيم تحديد تلك الجزيرة هو الاحسن فانها توافق جميع مادوّن من تواريخ العرب فى سائر الاعصر وتطابق شكل البلاد مطابقة تامة

فاما حدودها العامة فهى الحدود التى قد أسلفنا ذكرها غير أنها لا تشمل على رأيهم جزيرة طورسينا ولا صحارى كلده والشام كما يعلم من ترجمة جغرافية الادريسى (٢)

---

(١) لا بأس بأن تقابل ما ذكره بطليموس الفالوذى فى المقالة الخامسة والمقالة السادسة من جغرافيته بما ذكره استرابون فى المقالة السابعة عشر من جغرافيته اهـ

(٢) راجع صحيفتى ١٣٠ و ١٤٧ وما بعدهما من ترجمة الخواجه أميده يوبرت لكتاب جغرافية الادريسى اهـ

(فى ذكر ما اختاره العرب فى تقسيم بلادهم والكلام على جزيرة طور سينا وصحارى الشام وكلده وغيرهما وبلاد العرب الحقيقية)

أما جزيرة طور سينا فهى منحصرة ما بين خليج السويس وخليج ايلة وتمتد من جهة الشمال الى البحر الميت (أى بحيرة اسفلتيت) وكانت براريها الرحبة مسكنا للعبريين بعد خروجهم من مصر ثم صارت فيما بعد اقليما رومانيا يسمى بفلسطين الثالثه

وكانت مدينة بتره (١) كرسى حكومته وكانت جبال طور سينا وحوريب محال لجملة من الوقائع والحوادث العظيمة المذكورة فى التوراة وأما صحارى الشام والجزيرة وكلده (وتعرف المواضع الثلاثة الآن بصحارى دمشق وحلب وبغداد وبصرى) فانها تمنع سكان أناضولى (آسيا الصغرى) وبلاد الفرس (العجم) من الوصول الى جزيرة العرب وكان اقفار أرضها يقتضى زهادة الملوك الفاتحين فيها لولم يكن بها طريق للمارين بالمتاجر فان المرور من تلك المفاوز كان يختصر الطريق اختصارا كبيرا للتجار الناقلين لمحصولات الهندستان الى بلاد أوروبا وكذلك طريق التجار الناقلين الى الامم الشرقية محصولات بلاد اليونان وبلاد ايطاليا وبيان ذلك ان الانسان اذا سافر من مصب نهر الفرات على طريق مستقيم الى دمشق يصل من هناك بسهولة الى مينات البحر الابيض المتوسط بخلاف ما اذا سافر فى النهر المذكور صاعدا جهة جبال ارمينيه فانه يجبر على اجتيازها ولابد له أيضا من المرور بطول جميع الاناضول فتكون مصاريف ذلك السفر جسيمة جدا فهذا هو السبب الاكبر فى كون مدينة بلميرة أى (تدمر) المبنية فى تلك الصحراء عينها كانت فى سالف الزمان ذات أهمية عظيمة جدا فكانت تحمى القوافل التجاريه وتحقق الامنية للمنقولات من المتاجر ولما خربها الجيوش الرومانيه صارت العربان بالتدريج هم أصحاب الحكم على هاتيك الطرق الموصلة ما بين المشرق والمغرب ولما كانوا متعودين على المعيشة البدوية اى النزول والارتحال

---

(١) قد عثرنا على تخطيط عجيب الوصف جدا لمدينة بتره أو بطره فى ضمن تاريخ المماليك سلاطين مصر والشام الذى دونه العلامة المقريزى وترجمه الخواجه كترمير الى اللغة الفرنساوية فراجع من ترجمته صحيفة ٢٣٦ وما بعدها من القسم الثالث من المجلد الثانى وقد كانت بطره مفتاح الطريق المارة وسط صحراء بلاد العرب وكانت القوافل المسافرة من دمشق الى مكة أو الراجعة من مكة وسائر جموع التجار وجميع الجيوش التى كانت تسافر من تخت بلاد الشام الى تخت بلاد مصر لا بد لها قهرا عنها من المرور من جنب هذه المدينة أو من ضواحيها واذا كان رجل واحد يقعد وسط درب من الدروب التى فى تلك الاراضى المنقطعة كان يمكنه أن يقطع الدرب على مائة فارس فلا يستطيعون المرور به وراجع أيضا اذا أردت تخطيط هذه الولاية كتاب الخواجه بروكار المسمى تخطيط الارض المقدسة وكتاب ارباى وكتاب منجلس باللغة الانكليزية فى الكلام على مصر والنوبه وكتاب بركهرد المسمى بالسياحة فى بلاد الشام وغير ذلك من الكتب التى دونتها الافرنج

عارفين حقيقة قواهم الحربية صاروا ملوكا يتصرفون كما شاؤا فى تلك البقاع التى لم ينازعهم فيها أحد بعد ذلك ثم ظهر فى تلك الاقطار تدريجا مملكة الحيرة والانباط وقبيلة النبط (١) ذات الشوكة وقبائل غسان

وفى خلف تلك البرارى من جهة الجنوب بلاد العرب الحقيقية وتنقسم الى ثمانية أقاليم (الاول) اقليم الحجاز وهو فى الجنوب الشرقى من جزيرة طورسينا وبطول ساحل البحر الاحمر (الثانى) اقليم اليمن وهو فى جنوب الحجاز (الثالث) اقليم حضرموت وهو على ساحل البحر الهندى وفى شرق اليمن (الرابع) اقليم مهره وهو فى شرق حضرموت (الخامس) اقليم عمان ويتصل به من جهة الشمال الخليج الفارسى ومن الجنوب والشرق بحر الهند وحده من الجنوب الغربى اقليم مهرة (السادس) اقليم الحسا ويسمى أيضا اقليم البحرين بسبب أهمية الجزائر التى تجاوره ولامتداده بطول الخليج الفارسى من ابتداء اقليم عمان الى نهر الفرات (السابع) اقليم نجد وهو فى جنوب صحارى الشام وشاغل جميع الجزء الاوسط من جزيرة العرب أعنى ما بين الحجاز والحسا واقليم اليمامة أو العروض الذى كان به مدينة هجر وغالبه هضاب رمليه (الثامن) اقليم الاحقاف وهو بين عمان والحسا ونجد وحضرموت ومهرة وانا نعرف الآن وصف جميع هذه الاقاليم على حد سواء لان السياحين (٢) من الفرنج وان وصلوا الى تخطيط بعض تلك الاقاليم لم يجدوا سبيلا الى تخطيط البعض الآخر وهناك مانع أكبر من ذلك وهو ان التآليف والرسوم التى عملها الافرنج الى أيامنا هذه فى خصوص بلاد الحجاز واليمن اللذين تفرغوا لها أكثر من غيرهما لم تزل مشتملة على مواطن كثيرة خلية من التخطيط بل لم تبين حدودهما بالضبط والدقة الا بعد الجهد

---

(١) قد ذكر الخواجه كترمير فى تذكرته التى ضمنها الكلام على النبط (وطبعها وأشهرها سنة ١٨٣٥ ميلاديه) فوائد هى أكمل وأتم ما حكى فى شأن هؤلاء القوم وكان استمداده اياها من كلام المقريزى والمسعودى وابن خلدون وغيرهم

(٢) راجع صحيفة ٩٣ من كتاب الخواجه جومار المسمى بالابحاث الجغرافيـة وكتاب تخطيط بلاد العرب تأليف الخواجه بركهرد وقد ذكر الخواجه ابرييس فيما نثره من مطبوع ترجمته لكتاب بركهرد المذكور أكثر من ثلاثين سياحة وصحيفه لمؤلفين من الفرنج منها ما هو باللغة البرتغالية أو اللاطينية أو الفرنساوية ومنها ما هو بالالمانية أو الانكليزية وغير ذلك تتضمن تخطيط جزيرة العرب وأخبارها ويمكن أن نعد من هؤلاء السياحين المخاطرين بأنفسهم فى هذه الاعصر الاخيرة الخواجه سيتزان أكبر مخاطر حيث لم يخش من اظهاره الدخول فى دين الاسلام حتى توصل الى الجولان فى داخل البلاد العربية وكذلك القبطان سيرليه الذى سار من أحد خليجى بلاد العرب الى الخليج الآخر وكذلك موسيو ونسترو والخواجه باديه والخواجه بركهرد الذى سمى أولهم نفسه باسم الشيخ منصور والثانى باسم الشيخ على والثالث باسم الشيخ ابراهيم وغير ذلك من الفرنج المتنكرين لبلوغ مقصدهم وهى معرفة بلاد العرب حق المعرفة

حتى ان الفرنج كانوا يجهلون أيضا فى هذا العصر الاخير وجود بلاد رحبة تسمى عسيرا وهى متصلة بكل من الاقليمين المذكورين ويعمرها قوم أولو عزم واقدام (١) على الحرب فاذا كان هذا حال معرفتهم بسواحل البحر الاحمر الذى يسهل الدخول فيه بسبب وضعه الطبيعى فما بالك بداخل بلاد العرب الذى لم يطلع على جميع طوله الا افرنجى واحد وهو (الخواجه سيتزان) مرة واحدة حيث جابه من الخليج الغربى الى الخليج الشرقى أى من سواحلها الجنوبية والشرقية التى قد شرعت الانجليز الآن فى أخذ رسمها فى الجملة (٢)

فى تخطيط الحجاز

أقول ان وصف الحجاز يجذب النفوس ويشوقها اليه أكثر من غيره لاشتماله على أعظم مدائن بلاد العرب وهما مكة المشرفة والمدينة المنورة المسماة قديما يثرب فاما مكة وهى التى كان فيها مسقط رأس النبى محمد صلى الله عليه وسلم وكانت تسمى فى قديم الزمان مكوراية فانها من منذ عدة قرون كانت محلا تحج اليه الناس وتقصده للسجود فى هيكل الكعبة وأمام حجر اسود يقولون انه نزلت به ملائكة من السماء فى زمن ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأما المدينة المنورة فلا بد لها من أن تكون مقارنة لمكة ولما كان هاتان المدينتان منشأتين داخل تلك الاراضى لم يكن لهما من الارض المحيطة بهما ما يكفى فى قوت سكانهما فكانتا يستمدان ما يلزم لهما من المؤنة من مدينتين آخريين على البحر الاحمر كانتا مينتين لهما الاولى ينبع وهى المينا الموصلة الى المدينة والثانية جده وهى المينا الموصلة الى مكة ويتخلل أرض الحجاز كثبان رمال وآكام خصبة وهى المساكن المعتادة للقبائل وحولها قرى وضياع وفى تلك الآكام قلاع ذات ملجأ أمين عند هجوم الاعداء عليهم وينتج بمنحدراتها بعض حبوب وأثمار وكلأ للمواشى وعيون ماء نابعة وبقرب احدى تلك الآكام

---

(١) ان المسيو جومار هو الذى قد عرفنا ببلاد عسير فى كتابه المسمى بالابحاث الجغرافية وهو الذى صور خريطتها ولا بأس بأن يقابلها القارئ بالخريطة التى صورها الخواجه قلندين فى ضمن الاطلس الذى ضمه الى وصف سياحته فى المشرق وأن يراجع أيضا خريطة البحر الاحمر من فوق ثغر جدة تصوير مسيو مورسنياى الانكليزى وغير ذلك من الخرائط وكذلك تأليف مسيو تاميزيه المسمى بالسياحة فى بلاد العرب الذى اشتهر سنة ١٨٤٠ ميلاديه (الموافق سنة ١٢٥٦ هجريه)

(٢) راجع من الكتاب المسمى بجرنال جمعية الجغرافيين بمدينة لوندره كلا من المجلد الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع فقد ذكر فيها فوائد وأخبار مفيدة تتعلق بالاستكشافات التى فعلتها ضباط بحارة الدولة الانكليزية وانا لنرى التخطيط الذى ذكره القبطان استافرد بلز ورث هينس للسواحل الجنوبية من بلاد العرب أولها وأجلها فائدة وراجع أيضا سياحة الخواجه كروتندان من مدينة مخا الى مدينة صنعاء وسياحة الخواجه ولسند فى سواحل عمان وغير ذلك

مدينة الطائف وهي بستان مكة الذى لفوا كهه شهرة عظيمة ويلحق بالحجاز أرض تهامة وهى البلاد الممتدة من سفح الجبال الى البحر وفيها مدينة قنفده غير أن علماء الجغرافيا لايطلقون اسم تهامه الاعلى جميع الساحل لمقابلته بنجد الذى معناه المحل المرتفع المجوّن فى داخل الارض ويقولون ان تهامة الحجاز غير تهامة عسير وتهامة اليمن اللتين مبدؤهما من خولان الى عدن (١)

فى وصف اقليم اليمن

يطلق لفظ اليمن على الجزء الجنوبى من جزيرة العرب وانما يسمى بذلك لشهرته للبركة واليمن وفى شماله بلاد عسير ولما كانت سكانه تخالط على الدوام كلا من المصريين والاتيوبيين والفرس وجميع الامم التى تسافر سفنها فى بحر الهند سلكوا طريقة منتظمة فى حكومتهم من منذ احقاب وكان القدماء يسمونهم بنى حمير بكسر الحاء وسكون الميم وفتح المثناة التحتية ولم يكن لهم اشتغال بالفلاحة والتجارة ومع ذلك فلم يعثروا على محصول أرضهم الحقيقى الا فى آخر الزمان ألا وهو البن الذى قد عمت تجارته جميع أسواق الدنيا فلو كان عندهم مهارة أكثر مما هم عليه فى استعمال دواليب الفلاحة وآلاتها وكان لهم اختراع طريقة فى رى الارض وسقيها أحسن من الطريقة التى اعتادوها لامكنهم أن يزيدوا أيضا محصول البن الذى هو ينبوع غناهم فان اعتدال مزاج ذلك القطر وارتفاع أراضيه ورطوبتها تعين على نمو شجرة البن أكثر من نموها فى غيره من البلاد بل فيه الآن عدة مدن أصل رفاهيتها تجارة البن فقط وهى مخا وحديده ولديه وعدن وكان ينقل أيضا من مينات جزيرة العرب تبر ومواد عطرية زكية الرائحة الى البلاد الاجنبية ولكن العرب يستمدون من جزائر بحر الهند معظم المعادن النفيسة والبهارات الزكية التى يبعثون بها الى البلاد الاخر بواسطة الخليج العربى والخليج الفارسى وتعد أيضا فى جملة المدائن باليمن مدينة سبا المسماة أيضا مارب ومدينة صنعا التى كانت تنافس مكة مدة قرون عديدة فى الاختصاص بلقب تخت جزيرة العرب حتى ان الملوك الذين كانوا حاكمين على اليمن وهم التبابعة ومن خلفهم عليها من عمال الفرس والحبشة كانوا يتخذونها دار اقامتهم وهى الآن أيضا دار اقامة أقوى أمراء اليمن شوكة

---

(١) قد وصف لنا الانكليز مدينة عدن التى هم الآن مستولون عليها بانها قرية متهدمة ليس فيها من السكان الاستمائة نفس (كما صرح به الخواجه هينس فى الصحيفة ١٣ من كتابه) وان الانسان اذا طاف برأس مرتيج شاهدها على بعد وهى محاطة من جهة البر بآكام محدودة بالقلال والجزء الشرقى منها مطل على البحر وتجاهها على خط مستقيم جزيرة صخرية محصنة تسمى جزيرة سيره وهى الحامية والمانعة بتحصيناتها عن خليج أوجون عدن وان مدينة عدن متحكمة بوضعها على بغاز البحر الاحمر فما أحسن وضعها وانه ليسهل تجديد الاستحكامات القديمة التى كانت تحصن بها فى القرن السادس عشر بعد الميلاد لمنع البرتغاليين من الوصول الى مقاصدهم وراجع صحيفة ٤٨٤ من المجلد الاول وصحيفة ٧١ من المجلد الثانى من تأليف الخواجه لافيتو الذى سماه بتاريخ استكشافات البرتغاليين وفتوحاتهم وغير ذلك من الكتب

فى وصف اقليم حضرموت ومهرة وعمان والحسا والاحقاف ونجد

أما اقليم حضرموت الذى منه مدينتا ظفار وشيبان فانه يتصل باليمن ومزاج قطره كمزاجه تقريبا ويشترك معه فى مزاياه الطبيعية وكان القدماء يرغبون رغبة كبيرة فى العود القاقلى الذى ينتج فى ذلك الاقليم. وأما اقليم مهرة فانه أقل منه خصوبة فتستعير سكانه وسائل معيشتهم واحتياجاتهم من البلاد الاخر والبحر فى هذا المكان كثير السمك جدا حتى انه ليتحصل من سمكه ما تقتات به المواشى فضلا عما يقتات به الناس. وأما اقليم عمان فانه بالنظر لوضعه تجاه الهندستان كان يمكن أهله أن يستجلبوا منها جميع محصولاتها لو كان عندهم شئ يصلح للمقايضة به ولكن من سوء حظ الاقليم المذكور انه لا ينتج منه الاقليل من النحاس والاسرب والتمر وقليل من البقول ومن ثم لم يحظ بالمظهر التجارى العظيم الذى كان يكسبه له حسن وضعه بلا شك. وأما اقليم الحسا فيشمل جميع ساحل الخليج الفارسى من ابتداء أرض عمان الى بصرى ويبدو منه للمسافرين فى البحر تجاه سواحله أسوأ المناظر كآبة وخرابا غير أنه اذا جاء فصل غوص البحر لاخراج اللؤلؤ تغير جميع منظره وصار مركز تجارة عظيمة وسبب ذلك أن القبائل الساكنة عادة فى داخل البلاد تبادر فى ذلك الاوان بالمجئ الى سواحل البحر ليختلطوا ويتعاملوا مع سكان السواحل وسكان جزائر البحرين فينزل اذ ذاك ببلدة القطيف والحسا والقطا وجرين (بكسر الجيم وفتح الراء وتشديد المثناة التحتية) أفواج من ذوى الحاجات والهرج وقلة الانتظام بعد ان كانت قبل هذا الفصل خالية من السكان فاذا انقضى زمان غوص اللؤلؤ رحلت تلك القبائل وتركت تلك المدائن وذهب التجار بمتاجرهم الى أسواق الهندستان وبلاد الفرس ولا يصير اقليم الحسا بعد ذلك الا بلقعا رحبا (١)

والى هنا قد فرغنا من الكلام على الستة أقاليم البحرية من شبه جزيرة العرب وهى اقليم الحجاز واليمن وحضرموت ومهرة وعمان والحسا. وأما الاقليمان الباقيان فيمتدان فى داخلها الاول اقليم الاحقاف الذى هو ابالة مقفرة يلحق بها فى بعض الكتب أرض اليمامة وحاله مجهول بالكلية عند الافرنج والثانى اقليم نجد ونعرف انه يشتمل على عدد كثير من الواحات وأن فيه مراعى نفيسة وأن خيله وجماله مشهورة بالقوة الا أن هذه البلاد لم يصفها أحد فى الزمن السالف وصفا تاما (٢)

(غاية الارب فى تاريخ العرب)

---

(١) راجع صحيفة ٢٩٤ من كتاب نيابهر المسمى بتخطيط بلاد العرب ويمكن أن يطلع القارئ فى ذلك الكتاب على توضيحات كثيرة مفيدة تتعلق بمحصولات بلاد العرب وتجارتها

(٢) قد نص نيابهر فى صحيفة ٢٩٦ من كتابه على شهرة اقليم العروض ومدينة الدرعية فى بلاد نجد وعلى شهرة اقليم الخرج المنتهى الى بلاد اليمن والمشتمل على مدينة اليمامه

ذكر فتح مصر

قيل فى هذه السنة فتحت مصر فى قول بعضهم على يد عمرو بن العاص والاسكندرية أيضا وقيل فتحت الاسكندرية سنة خمس وعشرين وقيل فتحت مصر سنة ست عشرة فى ربيع الاول وبالجملة فينبغى أن يكون فتحها قبل عام الرماده لان عمرو بن العاص حمل الطعام فى بحر القلزم من مصر الى المدينة والله أعلم وقيل غير ذلك وأما فتحها فانه لما فتح عمر بيت المقدس وأقام به أياما وأمضى عمرو بن العاص الى مصر واتبعه الزبير بن العوام فأخذ المسلمون باب اليون وساروا الى مصر فلقيهم هنالك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الاسقف بعثه المقوقس لمنع بلادهم فلما نزل بهم عمرو قاتلوه فارسل اليهم لاتعجلونا حتى نعذر اليكم وليبرز الى أبو مريم وأبو مريام فكفوا وخرجا اليه فدعاهما الى الاسلام أو الجزية وأخبرهما بوصية النبى صلى الله عليه وسلم بأهل مصر بسبب هاجر أم اسماعيل عليه السلام فقالوا قرابة بعيدة لايصل مثلها الى الانبياء آمنا حتى نرجع اليك فقال عمرو مثلى لايخدع ولكنى أؤجلكما ثلاثا لتنظرا فقالا زدنا فزادهم يوما فرجعا الى المقوقس فأبى أرطبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم فقال لاهل مصر أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم فلم يفجأ عمرا الا البيات وهو على عدة فلقوه فقتل ارطبون وكثير ممن معه وانهزم الباقون وسار عمرو والزبير الى عين الشمس وبها جمعهم وبعث الى فرما أبرهة بن الصباح وبعث عوف بن مالك الى الاسكندرية فنزل عليها قيل وكان الاسكندر وفرما أخوين ونزل عمرو بعين الشمس فقال أهل مصر لملكهم ماتريد الا قتال قوم هزموا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم فلا تعرض لهم ولا تعرضنا وذلك فى اليوم الرابع وناهدوهم وقاتلوهم فلما التقى المسلمون والمقوقس بعين الشمس واقتتلوا جال المسلمون فذمرهم عمرو فقال لهم رجل من اليمن انا لم نخلق من حديد فقال له عمرو أسكت انما أنت كلب قال فأنت أمير الكلاب فنادى عمرو باصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فأجابوه فقال تقدموا فبكم ينصر الله فتقدموا وفيهم أبو بردة وأبو برزة وتبعهم الناس وفتح الله على المسلمين وظفروا وهزموا المشركين فارتقى الزبير بن العوام سورها فلما أحسوه فتحوا الباب لعمرو وخرجوا اليه مصالحين فقبل منهم ونزل الزبير عليهم عنوة حتى خرج على عمرو من الباب معهم فعقدوا صلحا بعدما أشرفوا على الهلكة فاجروا ما أخذوا عنوة مجرى الصلح فصاروا ذمة وأجروا من دخل فى صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر ومن اختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه واجتمعت خيول المسلمين بمصر وبنوا الفسطاط ونزلوه وجاء أبو مريم وأبو مريام الى عمرو وطلبا منه السبايا التى أصيبت بعد المعركة فطردهما فقالا كل شىء أصبتموه منذ فارقناكم الى أن رجعنا اليكم ففى ذمة فقال عمرو لهما أتغيرون علينا وتكونون فى ذمة قالا نعم فقسم عمرو بن العاص السبى على الناس

وتفرق فى بلدان العرب وبعث بالاخماس الى عمر بن الخطاب ومعها وفد فاخبروا عمر بن الخطاب
بحالهم كله وبما قال أبو مريم فرد عمر عليهم سبى من لم يقاتلهم فى تلك الايام الاربعة وترك سبى
من قاتلهم فردوهم وحضرت القبط باب عمرو وبلغ عمر أنهم يقولون ما أرث العرب ما رأينا مثلنا
دان لهم فخاف أن يطمعهم ذلك فأمر بجزور فطبخت ودعا أمراء الاجناد فاعلموا أصحابهم فحضروا
عنده وأكلوا أكلا عربيا اتشكوا وحشوا وهم فى العباء بغير سلاح فازداد طمعهم وأمر المسلمين
أن يحضروا الغد فى باب مصر واحديتهم ففعلوا وأذن لاهل مصر فرأوا شيأ غير ما رأوا بالامس
وقام عليهم القوام بألوان مصر فأكلوا أكل أهل مصر فارتاب القبط وبعث أيضا الى المسلمين
تسلحوا للعرض غدا وأذن لهم فعرضهم عليهم وقال لهم علمت حالكم حين رأيتم اقتصاد العرب
فخشيت أن تهلكوا فاحببت أن أركم حالهم فى أرضهم كيف كانت ثم حالهم فى أرضكم ثم حالهم
فى الحرب فقد رأيتم ظفرهم بكم وذلك عيشهم وقد كلبوا على بلادكم بما نالوا فى اليوم الثانى فأردت
أن تعلموا أن ما رأيتم فى اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثانى وراجع الى عيش اليوم الاول
فتفرقوا وهم يقولون لقد رمتكم العرب برجلهم وبلغ عمر ذلك فقال والله ان حربه لمنية مالها سطوة
ولا صورة كسورات الحروب من غيره ثم ان عمرا سار الى الاسكندريه وكان من بين الاسكندريه
والفسطاط من الروم والقبط قد تجمعوا له وقالوا نغزوه قبل أن يغزونا ويروم الاسكندريه فالتقوا
واقتتلوا فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وسار حتى بلغ الاسكندريه فوجد أهلها معدين لقتاله
فأرسل المقوقس الى عمرو يسأله الهدنة الى مدة فلم يجبه الى ذلك وقال لقد لقينا ملككم الاكبر
هرقل فكان منه ما بلغكم فقال المقوقس لاصحابه صدق فنحن أولى بالاذعان فاغلظوا له فى القول
وامتنعوا فقاتلهم المسلمون وحصروهم ثلاثة أشهر وفتحها عمرو عنوة وغنم ما فيها وجعلهم ذمة
وقيل ان المقوقس صالح عمرا على اثنى عشر ألف دينار على أن يخرج من الاسكندريه من أراد
الخروج ويقيم من أراد القيام وجعل فيها عمرو جندا ولما فتحت مصر غزوا النوبة فرجع المسلمون
بالجراحات وذهاب الحدق لجودة رميهم فسموهم رماة الحدق فلما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح
مصر أيام عثمان صالحهم على هدية عدة روس فى كل سنة ويهدى اليهم المسلمون كل سنة طعاما مسمى
وكسوة وأمضى ذلك الصلح عثمان ومن بعده من ولاة الامور وقيل ان المسلمين لما انتهوا الى بلهيب
وقد بلغت سباياهم الى اليمن أرسل صاحبهم الى عمرو انى كنت أخرج الجزية الى من هو أبغض
الى منكم فارس والروم فان أحببت الجزية على أن ترد ما سبيتم من أرضى فعلت فكتب عمرو
الى عمر يستأذنه فى ذلك ورفعوا الحرب الى أن يرد كتاب عمر فورد الجواب من عمر لعمرى جزية قائمة
أحب الينا من غنيمة تقسم ثم كأنها لم تكن وأما السبى فان أعطاك ملكهم الجزى على أن تخيروا

من في أيديكم منهم بين الاسلام ودين قومه فمن اختار الاسلام فهو من المسلمين ومن اختار دين قومه فضع عليه الجزية وأما من تفرق في البلدان فانا لانقدر على ردهم فافعل فعرض عمرو ذلك على صاحب الاسكندرية فاجاب اليه فجمع السبي واجتمعت النصارى وخير وهم واحدا واحدا فمن اختار المسلمين كبروا ومن اختار النصارى جزوا وصار عليه جزية حتى فرغوا وكان من السبي أبو مريم عبد الله بن عبد الرحمن فاختار الاسلام وصار عريف زبيد وكان ملوك بني أمية يقولون ان مصر دخلت عنوة وأهلها عبيدنا نديرعليهم كيف شئنا ولم يكن كذلك

(من تاريخ الكامل لابن الاثير)

ذكر فتوح الشام

قيل في سنة ثلاث عشرة وجه أبو بكر الجنود الى الشام بعد عوده من الحج فبعث خالد بن سعيد بن العاص وقيل انما سيره لما سير خالد بن الوليد الى العراق وكان أول لواء عقده الى الشام لواء خالد ثم عزله قبل أن يسير وكان سبب عزله أنه تربص ببيعة أبي بكر شهرين ولقى علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان فقال يا أبا الحسن يا بني عبد مناف أغلبتم عليها فقال علي أمغالبة ترى أم خلافة فأما أبو بكر فلم يحقدها عليه وأما عمر فاضطغنها عليه فلما ولاه أبو بكر لم يزل به عمر حتى عزله عن الامارة وجعله ردءا للمسلمين بتيماء وأمره أن لا يفارقها الا بأمره وأن يدعو من حوله من العرب الا من ارتد وأن لا يقاتل الا من قاتله فاجتمع اليه جموع كثيرة وبلغ خبره الروم فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام من بهرا وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام فكتب خالد بن سعيد الى أبي بكر بذلك فكتب اليه أبو بكر أقدم ولا تقتحمن فسار اليهم فلما دنا منهم تفرقوا فنزل منزلهم وكتب الى أبي بكر بذلك فأمره بالاقدام بحيث لا يؤتى من خلفه فسار حتى جازه قليلا ونزل فسار اليه بطريق الروم يدعى باهان فقاتله فهزمه وقتل من جنده فكتب خالد الى أبي بكر يستمده وكان قد قدم على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن وفيهم ذو الكلاع وقدم عكرمة ابن أبي جهل فيمن معه من تهامة وعمان والبحرين والسرو فكتب لهم أبو بكر الى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل فكله مستبدل فسمي جيش البدال وقدموا على خالد بن سعيد وعندها اهتم أبو بكر بالشام وعناه أمره وكان أبو بكر قد رد عمرو بن العاص الى عمله الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاه اياه من صدقات سعد هذيم وعذرة وغيرهم قبل ذهابه الى عمان ووعده أن يعيده الى عمله بعد عوده من عمان فأنجزله أبو بكر عدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما عزم على قصد الشام كتب له اني كنت قد رددتك على العمل الذي ولاك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة ووعدك به أخرى انجازا لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وليته وقد أحببت أن أفرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة

الأأن يكون الذى أنت فيه أحب اليك فكتب اليه عمرو انى سهم من سهام الاسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به فأمره وأمر الوليد بن عقبة وكان على بعض صدقات قضاعة أن يجمعا العرب ففعلا وأرسل أبو بكر الى عمرو بعض من اجتمع اليه وأمره بطريق سماها له الى فلسطين وأمر الوليد بالاردن وأمده ببعضهم وأمر يزيد بن أبى سفيان على جيش عظيم هو جمهور من انتدب اليه فيهم سهيل بن عمرو وفى أمثاله من أهل مكة وشيعه ماشيا وأوصاه وغيره من الامراء فكان مما قال ليزيد انى قد وليتك لابلوك وأجربك وأخرجك فان أحسنت رددتك الى عملك وزدتك وان أسأت عزلتك فعليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك مثل الذى من ظاهرك وان أولى الناس بالله أشدهم توليا له وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا اليه بعمله وقد وليتك عمل خالد فاياك وعبية الجاهلية فان الله يبغضها ويبغض أهلها واذا قدمت على جندك فاحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم اياه واذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضا واصلح نفسك يصلح لك الناس وصل الصلوات لاوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها واذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علمك وأنزلهم فى ثروة عسكرك وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم ولا تجعل سرك لعلانيتك فيختلط أمرك واذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الاخبار وتنكشف عندك الاستار وأكثر حرسك وبددهم فى عسكرك وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه فى غير افراط وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الاولى أطول من الاخيرة فانها أيسرهما لقربها من النهار ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجن فيها ولا تسرع اليها ولا تخذلها مدفعا ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ولا تجسس عليهم فتفضحهم ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم ولا تجالس العباثين وجالس أهل الصدق والوفاء واصدق اللقا ولا تجبن فيجبن الناس واجتنب الغلول فانه يقرب الفقر ويدفع النصر وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعا لولاة الامر ثم ان أبا بكر استعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع وأمره بحمص وسار أبو عبيدة على باب من البلقاء فقاتله أهله ثم صالحوه فكان أول صلح فى الشام واجتمع للروم جمع بالعربة من أرض فلسطين فوجه اليهم يزيد ابن أبى سفيان أبا أمامة الباهلى فهزمهم فكان أول قتال بالشام بعد سرية أسامة بن زيد ثم أتوا الداثن فهزمهم أبو أمامة أيضا ثم مرج الصفر استشهد فيها ابن خالد بن سعيد وقيل استشهد فيها خالد

أيضا وقيل بل سلم وانهزم على ما نذكره وذلك انه لما سمع توجيه الامراء بالجنود بادر بقتال الروم فاستطرد له باهان فاتبعه خالد ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد فنزل مرج الصفر فاجتمعت عليه مسالح باهان وأخذوا الطرق وخرج باهان فرأى ابن خالد بن سعيد فقتله ومن معه فسمع خالد فانهزم فوصل فى هزيمته الى ذى المروة قريب المدينة فأمره أبو بكر بالمقام بها وبقى عكرمة فى الناس ردءا للمسلمين يمنع من يطلبهم وكان قد قدم شرحبيل بن حسنة من عند خالد بن الوليد الى أبي بكر بالشام وندب معه الناس واستعمله على عمل الوليد بن عقبة فأتى شرحبيل على خالد بن سعيد ففصل عنه بعض أصحابه واجتمع الى أبي بكر ناس فأرسلهم مع معاوية بن أبي سفيان وأمره باللحاق بأخيه يزيد فلما مر بخالد فصل عنه بباقى أصحابه فأذن أبو بكر لخالد بدخول المدينة فلما وصل الامراء الى الشام نزل أبو عبيدة الجابية ونزل يزيد البلقاء ونزل شرحبيل الاردن وقيل بصرى ونزل عمرو ابن العاص العربة فبلغ الروم ذلك فكتبوا الى هرقل وكان بالقدس فقال أرى أن تصالحوا المسلمين فوالله لان تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب اليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم فتفرقوا عنه وعصوه فجمعهم وسار بهم الى حمص فنزلها وأعد الجنود والعساكر وأراد اشتغال كل طائفة من المسلمين بطائفة من عسكره لكثرة جنده لتضعف كل فرقة من المسلمين عمن بازائه فأرسل تذارق أخاه لابيه وأمه فى تسعين ألفا الى عمرو وأرسل جرجة بن توذر الى يزيد بن أبي سفيان وبعث القيقار بن نسطوس فى ستين ألفا الى أبي عبيدة ابن الجراح وبعث الدراقص نحو شرحبيل فهابهم المسلمون وكاتبوا عمرا ما الرأى فأجابهم ان الرأى لمثلنا الاجتماع فان مثلنا اذا اجتمعنا لا نغلب من قلة فان تفرقنا لا تقوم كل فرقة له بمن استقبلها لكثرة عدونا وكتبوا الى أبي بكر فأجابهم بمثل جواب عمرو وقال ان مثلكم لا يؤتى من قلة وانما يؤتى العشرة آلاف من الذنوب فاحترسوا منها فاجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل واحد منكم بأصحابه فاجتمع المسلمون باليرموك والروم أيضا وعليهم التذارق وعلى المقدمة جرجة وعلى المجنبة باهان ولم يكن وصل بعد اليهم والدرقص على الاخرى وعلى الحرب القيقار فنزل الروم وصار الوادى خندقا لهم وانما أرادوا أن يتأنس الروم بالمسلمين لترجع اليهم قلوبهم ونزل المسلمون على طريقهم ليس للروم طريق الا عليهم فقال عمرو أبشروا حصرت الروم وقلما جاء محصور بخير وأقاموا صفرا عليهم وشهرى ربيع لا يقدرون منهم على شئ من الوادى والخندق ولا يخرج الروم خرجة الا أديل عليهم المسلمون

ذكر فتح دمشـــــق

قيل ولما هزم الله أهل اليرموك استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب الحميرى وسار حتى نزل بالصفر فأتاه الخبر أن المنهزمين اجتمعوا بفحل وأتاه الخبر أيضا بان المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فكتب الى عمر فى ذلك فأجابه عمر يأمره بان يبدأ بدمشق فانها حصن الشام وبيت ملكهم وأن يشغل أهل فحل بخيل تكون بازائهم واذا فتح دمشق صار الى فحل فاذا فتحت عليهم سار هو وخالد الى حمص وترك شرحبيل بن حسنه وعمرا بالاردن وفلسطين فأرسل أبو عبيدة الى فحل طائفة من المسلمين فنزلوا قريبا منها وبثق الروم الماء حول فحل فوحلت الارض فنزل عليهم المسلمون فكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق وبعث أبو عبيدة جندا فنزلوا بين حمص ودمشق وأرسل جندا آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين وسار أبو عبيدة وخالد فقدموا على دمشق وعليها نسطاس فنزل أبو عبيـدة على ناحية وخالد على ناحية وعمرو على ناحية وكان هرقل قريب حمص فحصرهم المسلمون سبعين ليلة حصارا شديدا وقاتلوهم بالزحف والمجانيق وجاءت خيول هرقل مغيثة دمشق فمنعتها خيول المسلمين التى عند حمص فخذل أهل دمشـق وطمع فيهم المسلمون وولد للبطريق الذى على أهلها مولود فصنع طعاما فأكل القوم وشربوا وتركوا مواقفهم ولا يعلم بذلك أحد من المسلمين الا ما كان من خالد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليـه من أمورهم شئ وكان قد اتخذ حبالا كهيئة السلاليم وأوهاقا فلما أمسى ذلك اليوم نهض هو ومن معه من جنده الذين قدم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى وأمثاله وقالوا اذا سمعتم تكبيرا على السور فارقوا الينا واقصدوا الباب فلما وصـل هو وأصحابه الى السور ألقوا الحبال فعلق بالشرف منها حبلان فصعد فيهما القعقاع ومذعور وأثبتا الحبال بالشرف وكان ذلك المكان أحصن موضع بدمشق وأكثره ماء فصعد المسلمون ثم انحدر خالد وأصحابه وترك بذلك المكان من يحميه وأمرهم بالتكبير فكبروا فأتاهم المسلمون الى الباب والى الحبال وانتهى خالد الى من يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لا يدرون ما الحال وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم وفتح خالد الباب وقتل كل من عنـده من الروم فلما رأى الروم ذلك قصـدوا أبا عبيدة وبذلوا له الصلح فقبل منهم وفتحوا له الباب وقالوا له ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب ودخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة فالتقى خالد والقواد فى وسطها هذا قتلا ونهبا وهذا صفحا وتسكينا فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح وكان صـلحهم على المقاسمة وقسموا معهم للجنود التى عنـد فحل وعند حمص وغيرهم ممن هو ردء للمسلمين وأرسل أبو عبيدة الى عمر بالفتح فوصـل كتاب عمر الى أبى عبيدة يأمره بارسال جند العراق نحو العراق الى سعد بن أبى وقاص فأرسلهم وأمر عليهم هاشم بن عتبة المرقال

وكانوا قد قتل منهم فأرسل أبو عبيدة عوض من قتل وكان ممن أرسل الاشتر وغيره وسار أبو عبيدة الى فحل (من تاريخ الكامل لابن الاثير)

فصل فى بيان الطريقة التى سلكها الرومانيون لادخال جميع الامم تحت طاعتهم

كانت مشورة السنت برومة فى أثناء تلك السعود التى يحصل فيها اعادة الاهمال والفتور لم تزل على الحزم والتبصر ففى مدة ما كانت الجيوش الرومانية ترعب جميع أهل الارض كانت تلك المشورة تبقى من انخفض على انخفاضه ولا تتركه يرتفع

وبعد أن كانت مشورة استحالت الى محكمة يفصل فيها جميع دعاوى الامم وخصوماتهم فكانت فى اخر كل حرب هى التى تحكم بالثواب أو العقاب على مستحقه وتأخذ جزأ من أراضى الامة المغلوبة وتعطيه لمعاهديها وترتب على ذلك شيآن أحدهما أنها ربطت برومة ملوكا تأمن شرهم قليلا وترجو خيرهم كثيرا وثانيهما أنها أضعفت آخرين لا ترجو منهم خيرا وتخشى منهم شرا

وكانت تستعين بأمم تعاهدهم على محاربة العدو وكانت تبتدئ بما يضعف شوكة الملوك الذين يسعون فى تخريب الممالك فقد أغروا الايتوليين على فيلبش فهزموه ثم دمروا هذه الامة لكونها انضمت الى انطيوكوس واستعانوا باهل جزيرة رودس على هذا الملك فهزموه وبعد أن كافأوهم على ذلك مكافآت بينة عاملوهم بما أورثهم الذل والهوان الى الابد متعللين بانهم طلبوا الصلح من برشاوش ملك مقدونيا

وكانوا اذا تكاثرت عليهم جموع الاعداء فى آن واحد يهادنون الاضعف فيفرح بنيل هذا المرام ويرى تأخير دماره من أجل النعم عليه وكان من دأب تلك المشورة أنها حين اشتغال الرومانيين بحرب جسيم تغضى عما يصل اليها من أنواع الاساءة وتلازم الصمت منتظرة أوان العقوبة واذا أرسلت اليها أمة من الامم جماعة المذنبين امتنعت من عقابهم وآثرت على عقوبة هؤلاء المذنبين كونها تعد الامة التى منها هؤلاء الجماعة مذنبة حتى يأتى وقت يعود فيه الانتقام من تلك الامة بالمنفعة عليهم

ولما كانوا يضمرون لاعدائهم من الشر ما لا يطاق كان يندر التحزب عليهم وذلك لان من كان بعيدا عن الخطر لا يحب القرب منه

ولهذا كان لا يبتدؤهم أحد بالحرب الا نادرا وأما هم فكانوا دائما لا يقدمون عليه الا فى الوقت اللائق وعلى الوجه الملايم ومع من يليق بهم التصدى لحربه ومن الامم العديدة التى أغاروا عليها

قل من لا يتحمل منهم أنواع الاساءة لو أرادوا ابقاءه على الصلح وكانت عادة ملوك الرومانيين انهم يسلكون فى مخاطباتهم مع الامم الاجنبية مسلك السيادة عليهم فلذا كان سفراؤهم الى الامم التى لم تكن الى ذالك الوقت دخلت تحت طاعتهم ولم تذق طعم بطشهم وصولتهم مجز ومامن قبل باساءة معاملتهم فكان هذا وسيلة محققة للحرب معهم (ومن هذا القبيل حربهم مع الدلماشين)

وكانوا أيضا اذا عقدوا صلحا لا يعقدونه الا وهم مضمرون الخيانة والغدر فانهم لما كانوا مصممين على تعميم الاغارة والتغلب لم يكن عقدهم للصلح فى الحقيقة الا مجرد متاركات ومهادنات وكانوا دائما يشترطون فى عقودهما الصلحية شروطا تفضى بالدولة التى تقبلها الى الخراب والدمار فكانوا يشترطون اخراج المحافظين من الحصون والقلاع أو تقليل عدد العساكر البرية أو أخذ خيولهم أو فيلتهم واذا كان لهذه الامة المصالحة قوة بحرية جبروها على احراق سفنها بل ربما ألزموها بالسكنى فى داخل الاراضى للبعد عن السواحل

وكانوا بعد تدمير جيوش الملك الذى حاربوه يسعون أيضا فى نفاد خزائنه بضربهم عليه مغارم خارجة عن حد العادة أو خراجا مقررا متعللين بان ذلك الزام له بدفع ما أنفقوه فى مصاريف الحرب فكان هذا ضربا من الظلم يجبر ذلك الملك على ظلم رعيته واضرارهم الموجب لكراهتهم له وحقدهم عليه

وكانوا اذا منحوا الصلح لملك أخذوا أحد اخوته أو أولاده رهينة وكفالة على دوام الصلح فكان ذلك وسيلة لهم على اثارة الفتنة بمملكته متى أحبوا وذلك ان من أخذوه رهينة ان كان ولى عهد المملكة أرهبوا الملك به وأخافوه وان لم يكن ولى عهد بل كان من أقارب الملك غير الادنين جعلوه آلة فى تحريض الاهالى على العصيان والخروج عن الطاعة

وكان من خرج من الامراء والاهالى عن طاعة ملكه عاهدوه وأتحفوه بلقب معاهد الامة الرومانية فبهذا يجعلون له حرمة لا تهتك ويترتب على ذلك ان لا يأمن أحد من الملوك أيا ما كان فى العظم وعلو الدرجة على بقاء رعيته تحت طاعته بل ولا على عائلته وخاصته

ولقب معاهد الامة الرومانية مع كونه فى الواقع نوعا من الاستعباد كان مرغوبا للناس رغبة تامة (فمن ذلك ماذكره المؤرخ بوليبه من أن بعض الملوك قرب للآلهة قربانا شكرا لهم على اتحاف الرومانيين له بهذا اللقب) وذلك ان حليفهم كان يعلم ان لا أحد يتعدى عليه غيرهم وكان يقدم بنفسه مقتضيات توجب طمعه فى تخفيف الاساءة عنه حيث لم يكن هنالك خدمة للرومانيين لا يبادر الراغبون فى محالفتهم مسوقة وملوكا بالقيام بها ولا دناءة الا ارتكبوها رغبة فى هذا اللقب

وكان معاهد الرومانيين على ضروب مختلفة فنهم من كان منضما اليهم بمزايا وخصايص مقتسما معهم عظمهم وعلو شأنهم كالاطينيين والهرنيقيين ومنهم من كانت معاهدته باللحوق بهم

كالقبائل التابعة لهم ومنهم من كان بمجرد الاحسان والانعام عليه كالملك مسينيسنه وأومينه وأطالوس حيث كانوا سببا فى تأسيس ممالكهم واتساعها ومنهم من عاهدهم بالطوع والاختيار وهؤلاء كان يسترعيهم الرومانيون بتداول المحالفات عليهم كملوك مصر وبتنية وقبادوقه وأغلب مدن اليونان ومنهم من عاهدوهم بطريق القهر والغلبة وأجروا عليه قانون الاسترعاء كالملك فيليبش وانطيوكوس وذلك انهم كانوا لا يمنحون الصلح عدوهم بدون معاهدته بمعنى ثم انهم كانوا لا يدخلون أمة من الامم تحت طاعتهم الا و يجعلونها واسطة فى اضعاف أمة أخرى

وكانوا اذا ابقوا بعض المدائن على الحرية بادروا بايقاع الاختلاف بين أهلها وجعلهم حزبين أحدهما يقوم بمحاماة قوانين بلده وحريتها والآخر يتحزب للرومانيين ويحامى عن اطلاق تصرفهم وحيث كان هذا الحزب هو الاقوى دائما لم يكن فى هذه المدينة من الحرية الا مجرد الاسم

وكانوا فى بعض الاحيان يتغلبون على بعض ولايات متعللين بان لهم فيها حق الوراثة فمن ذلك انهم دخلوا بلاد آسيا وبتنية وليبيا بموجب وصية الملك اطالوس ونيقوميده بن فيلوباتور وابيون ووصلت اليهم حكومة مصر بوصية الملك القيروان

ولاجل جعل كبار الملوك دائما ضعافا كانوا يمنعونهم من معاهدة معاهديهم أى الرومانيين (كما وقع لانطيوكوس) ولما كانوا لا يأبون معاهدة من جاور من الامم ملكا قوى الشوكة كان ذلك الشرط المقرر فى معاهدتهم الصلحية وهو منع كبار الملوك من معاهدة معاهديهم لا يبقى لهذا الملك معاهدين

وكانوا أيضا اذا ظهروا على ملك من عظماء الملوك يشترطون عليه أنه لا يسوغ له أن يقدم على الحرب مع معاهديهم وهم فى الغالب مجاوروه اذا وقع منهم موجب ذلك بل يفوض للرومانيين فصل هذه الدعوى فيكونون حكما بينه وبين أخصامه فكان ذلك يفضى به الى التجرد عن القوة العسكرية

ولاجل أن تكون هذه القوة مقصورة عليهم كانوا يجردون عنها نفس معاهديهم فكانوا متى علموا أنه وقع لهؤلاء المعاهدين أدنى مشاجرة بعثوا اليهم رسلا يجبرونهم على الصلح ويتضح لك ذلك بالوقوف على ما وقع منهم فى كيفية انهائهم لحرب اطالوس ملك برغامه مع بروزياس ملك بتنيه

وكان اذا افتتح بعض الملوك فتوحا انفدت به كما هو الغالب قوته جاء اليه على حين غفلة سفير من الرومانيين ونزعه من يده وكثيرا ما وقع منهم ذلك ومنه طردهم لانطيوكوس من مصر بمجرد الكلام كما هو مقرر فى التواريخ ولما كانوا يعرفون حق المعرفة استعداد أمم أوروبا وصلاحيتهم للحرب جعلوا من الاصول أنه لا يسوغ لاى ملك من ملوك آسيا أن يدخل بلاد أوروبا ولا أن يسترعى أمة من أممها أيا ما كانت (وكان أول صدور هذا المنع لانطيوكوس قبل الحرب

حيث منعوه أن ينتقل الى أوروبا ثم صار منعا عاما لجميع الملوك) وكان أقوى باعث لهم على حرب متريدات أحد ملوك آسيا هو مخالفته لمانهواعنه واسترعاؤه لبعض المتبربرين بتلك البلاد وكانوا متى رأوا حربا بين أمتين من الامم ولو لم يكن لهم أدنى معاهدة أو مشاجرة مع احداهما بادروا بالدخول معهما فى ميدان الحرب وأخذوا ينا صرالاضعف منهما كطائفة الشوالرية الفرنساوية الرحالة النزالة سابقا وقد ذكر المؤرخ دينيس القرناصى أن من عادة الرومانيين قديما اغاثة من استغاث بهم أياما كان

ولم تكن هذه العوائد الرومانية مجرد حوادث جزئية حاصلة بالصدفة والاتفاق بل كانت بموجب أصول مستمرة ويظهر لك ذلك بمجرد التأمل فان ماسلكوا عليه من الاصول فى اضرار الممالك العظيمة هو فى الحقيقة عين الاصول التى جروا عليها فى مبدأ أمرهم واستعملوها فى اضرار ماجاورهم من المدن الصغيرة

فقد استعانوا بالملك أومينة ومسينيسة على استرعاء فيليبش وأنطيوكوس كما استعانوا باللاطينيين والهرنيقيين على الاستيلاء على الولسيين والطوسكانيين وجبروا القرطاجيين وملوك آسيا على التسليم فى سفنهم الحربية كما جبروا الملك أنطيوم على تسليم مراكبه التجارية لهم وقطعوا العلائق السياسية والروابط المدنية التى كانت بين الاجزاء الاربعة من مقدونيا كما قطعوا علائق الارتباط بين المدن اللاطينية الصغيرة وأبطلوا اتحادها وائتلافها كما ذكره تيتليوه فى الكتاب السابع من تاريخه

وكان أعظم الاصول عندهم قرارا وثباتا هو التفريق بين الامم وابطال اتحاد المدن فان جمهورية الاخائيين ببلاد مورة كانت متجمعة من عدة مدائن حرة فأمرت مشورة السنت بان كل مدينة من الآن فصاعدا تحكم نفسها بقوانينها الخاصة بها وأن لاتدخل تحت حكومة مشتركة

وكانت جمهورية البيوسيانيين أيضا بهذه المثابة لكن لما كان بعضهم فى حرب الرومانيين مع برشاوش مائلا الى حزب هذا الملك وبعضهم مائلا الى الحزب الرومانى قابل الرومانيون الفريق الذى انضم اليهم بالترحيب والاكرام على أن ينقض ما بينه وبين الفريق الآخر من الاتحاد والالتئام هذا ولو كان بعض ملوك عصرنا (هو لويز الرابع عشر ملك فرنسا) جرى على تلك الاصول الرومانية بان أعان بعض مجاوريه من الملوك (هو ياكس الثالث ملك الانكليز) حين خلع عن سرير ملكه وأمده بامدادات عظيمة ليثبت على ملكه وحصر حكومته فى الجزيرة التى بقيت على طاعته لكان تمزيق هذه المملكة التى كان فى وسعها تعطيل أغراضه ومصالحه يعود عليه بالمنافع الجمة ولترتب على مصائب معاهده من الفوائد العظيمة ما يجل عن الحصر (ويكون ذلك مصداق قول القائل مصائب قوم عند قوم فوائد)

وكان اذا حصلت مشاجرة فى دولة من الدول بادر الرومانيون بفصل الدعوى بين الخصمين فكانوا يتيقنون بذلك أنه لا يعاديهم الا الفريق المحكوم عليه بالعقاب فاذا كانت المشاجرة فى شأن الحكومة بين أميرين كلاهما من نخبة المملكة كانوا فى بعض الاحيان يقلدونهما جميعا تلك الحكومة (كما وقع ذلك لملك اريارطس وهولوفرنة فى مملكة قبادوقة) فاذا كان أحدهما قاصرا لم يبلغ رشده ولوه الحكومة وجعلوه تحت كفالتهم بوصف كونهم أرباب الزعامة لاهل الارض وذلك أنهم بلغوا مبلغ كونهم جعلوا جميع الامم سوقة ومملوكا رعية لهم من غير أن يعلم أحد على التحقيق بأى وصف من أوصاف الاستحقاق وصلوا الى هذه الدرجة فكان من الموقور فى الاذهان أن مجرد السماع بهم يكفى فى انقياد الامم اليهم

وكانوا لا يقدمون أبدا على محاربة دولة بعيدة عنهم الا اذا عثروا على معاهدة أمة قريبة من هذه الدولة التى يريدون محاربتها ليضموها الى العساكر المبعوثة من طرفهم لهذا الغرض وذلك أنهم لما كانوا لا يرسلون الى القتال الا جيشا قليلا من العساكر كانوا يحافظون على وضع جيش آخر فى الاقليم الاقرب الى بلاد العدو وابقاء جيش ثالث بمدينة رومة يكون مستعدا للنفير فكانوا بهذه الطريقة لا يعرضون الى القتال من عساكرهم الا القليل بخلاف العدو فكان يعرض جميع عساكره الى الخطر (وكان ذلك من العوايد الجارية عندهم فى الاقدام على الحروب كما هو مقرر فى التواريخ ويعرف ذلك بالوقوف على حربهم مع المقدونيين)

ولما كانت ألفاظهم بالتدقيق فيها تقبل التصرف والتأويل فى معانيها كانوا يحتجون بذلك فى مخالفة ظاهرها فقد خربوا مدينة قرطاجنة قائلين انا لم نعد الا بحفظ المدينة الداخلية دون المصر بتمامها وكذلك غروا رهم الاتيوليين حين قالوا فى المشارطة اتركوا أمركم الى امانة أعدائنا فغدروا بهم وأولوا ذلك قائلين ان معنى ترك الامر للعدو يشمل خسران جميع الاشياء والاشخاص والاراضى والمدن والهياكل بل والمقابر

وربما كانوا يؤولون شروط المعاهدة ويصرفونها عن معناها الاصلى بتأويلات اختيارية من عند أنفسهم فانهم لما أرادوا اضعاف أهل جزيرة رودس قالوا انا لم نعطهم مملكة ليقيا على سبيل الهبة وانما ذلك من قبيل الوديعة عند المحب والمعاهد

وكان اذا عقد بعض أمراء جيوشهم الصلح مع العدو لانقاذ جيشه الذى أشرف على الهلاك كانت مشورة السنت التى لا تضع على هذا الصلح صحتها تغتنم فرصته وتجعله وسيلة لاستمرار الحرب كما وقع ليوغورطة أحد ملوك العرب فانه حجز جيشا من الجيوش الرومانية ثم خلى سبيله بعقد معاهدة بينهم وبينه فنقضوها وعادوا الى قتاله ووجهوا اليه نفس العساكر الذين خلى سبيلهم

وكذلك النومنطيون فانهم لما أوقعوا عشرين ألفا من الرومانيين فى ورطة أشرفوا بها على الموت جوعا وحملتهم على طلب الصلح ونجوا به من تلك الشدة فسخ الرومانيون هذا الصلح بمدينة رومة وخانوا العهود العامة وهتكوا حرمة حقوق الدول حيث وجهوا لقتالهم القنصل الذى عقد ذلك الصلح ووضع امضاءه عليه (وقد سلكوا هذا المسلك أيضا مع عدة من الامم)

وربما كانوا يعقدون الصلح مع بعض الملوك على شروط صحيحة مقبولة حتى اذا وفى بها زادوا عليه شروطا أخرى صعبة يتعذر عليه الوفاء بها فيجبر بذلك على تجديد الحرب معهم فمن ذلك ما فعلوه مع الملك يوغورطة فانهم بعد أن شرطوا عليه أن يسلم لهم فيلته وخيوله وخزائنه والملتجئين اليه وسلم لهم ذلك طلبوا منه أن يسلم نفسه اليهم وحيث انه لم يبق للملك من المصائب ما هو فوق ذلك لم يبق ثم شرط للصلح

وقصارى أمرهم انهم صاروا يحكمون على الملوك بالعقوبات على صغائرهم وكبائرهم التى جنوها على أنفسهم ولا حق فيها للخلوق وانهم صاروا يقبلون الشكاوى من كل من كان له مشاجرة مع الملك فيلبيش ويبعثون وكلاء من طرفهم لاجل منع الظلم وابقاء الامن والاطمئنان بين رعاياه وأحضروا الملك برشاوش عندهم واتهموه بانه قتل بعض الناس وتشاجر مع أهل المدن المحالفة لهم ولما كان فخار الجنرلات عندهم على حسب ما يجلبونه اليهم من الذهب والفضة التى كانوا يغتنمونها عند النصرة كان هؤلاء الجنرلات اذا ظهروا على أمة من الامم لا يتركون لها شيأ من أموالها فبذلك كانت مدينة رومة تزداد دائما فى الغنى والثروة بحيث كان فى وسعها عقب كل حرب أن تشرع فى آخر

وكانت الامم المتحابة أو المتحالفة مع الرومانيين تبذل جميع أموالها فى الهدايا العظيمة التى كانت تهاديهم بها اما لبقاء جاهها وحظوتها عندهم أو لاجل ازدياد ذلك مع أنها لو حاربتهم لكفاها فى غلبتهم والظهور عليهم نصف ما بذلته اليهم (بخلاف ما كانت تهديه مشورة السنت الى ملوك هؤلاء الامم فانه كان واهيا تافها وذلك ككرسى أو قضيب من العاج أو خلعة من خلع الولاية)

ولما صاروا سادات الدنيا جعلوا لانفسهم الحق فى جميع أموالها فكان سلبهم للاموال عند الفتح والانتصار أقل فى الظلم من سلبهم لها بالاحكام ووضع القوانين ألا ترى أنهم لما علموا ثروة بطليموس ملك قبرص وكثرة خزائنه وضعوا قانونا اجابة لما عرضه عليهم أحد قضاتهم من محامى الامة وورثوا به هذا الملك وهو على قيد الحياة وضبطوا ملكه مع كونه حليفهم

فمما قليل طمع الآحاد استوعب ما أبقاه طمع الدولة وأنفذه فكان القضاة والحكام يبيعون للملوك الحيف والجور على الناس فمن ذلك أن اثنين متنافسين بذلا جميع أموالهما لشراء عناية الملك الغير محققة وأن يكون لهما ظهيرا على خصم آخر بقى من أمواله شئ لم يبذله فى شراء تلك العناية

لانه لم يكن عندهم من العدل ما يكون غالبا عند أرباب السلب والنهب مما يحملهم عادة على الرفق والتقوى فى صناعتهم وارتكاب ذنوبهم وبالجملة فكانت الحقوق على اختلافها شرعية أو غصبية لاتثبت الا بالرشوة فلذا كان الامراء يجردون اليها كل عن زينتها ويأخذون أموال أغنياء الاهالى لاجل تحصيل تلك الحقوق ويرتكبون ما يقدرون عليه من الذنوب والجنايات لاعطاء جميع أموال العالم للرومانيين

ومع أن ماذكر كان يزيد بأس الرومانيين لكن لم يكن ثم شئ أنفع لرومة فى اظهار بأسها من انطباع هيبتها فى قلوب أهل الارض وذلك انها بدأت باسكات الملوك والزامهم الصمت حتى صيرتهم كالبله ولم يكن بهم مهادرجة قوتهم وصولتهم بل كانت تقع فى أعراضهم فكان الملك منهم يخشى خطر الحرب معها واذا خاطر فقد عرض نفسه للاسر أو القتل أو عار الهزيمة فكان هؤلاء الملوك أولو العز والسودد ورغد العيش لايتجاسرون أن يشخصوا بابصارهم الى الامة الرومانية خلا منها ووجلا من بأسها فادى بهم ذلك الى فتور الهمة واضمحلال القوة وصاروا ينتظرون بصبرهم وذلهم وقتا ينقضى فيه ما لحقهم من المذلة والتعب (فكانوا يبذلون غاية جهدهم فى اخفاء شوكتهم وثروتهم عن الرومانيين كما ذكره المؤرخ ديون)

هذا وألتمس ممن اطلع على كتابى هذا أن يتأمل سلوك الرومانيين فى فتوحاتهم فانهم بعد أن هزموا أنطيوكوس صاروا ولاة أمر بلاد أفريقة وآسيا واليونان مع أنهم فى الحقيقة لم يأخذوا لانفسهم مدينة من مدنها فكأنهم ما كانوا يفتحون الممالك الا ليعطوها غيرهم ومع ذلك لم يزالوا ولاة متمكنين مما فتحوه بحيث كانوا اذا قصدوا لمحاربة ملك من الملوك حملوه أعباء الحرب مع أهل الدنيا حتى كأنهم أثقلوا ظهره بجميع أثقال الارض

وذلك أنه لم يكن حان لهم وقت الاستيلاء بانفسهم على البلاد التى فتحوها فانهم لو حفظوا المدن التى أخذوها من فيليبش لتعلقت بها آمال اليونان وتوجهت اليها أطماعهم ولو أخذوا بعد الحرب البونيقى الثانى مع القرطاجيين أو بعد حربهم مع أنطيوكوس أراضى من أفريقة أو آسيا لتعذر عليهم أن يحفظوا مثل هذه الفتوحات التى كانت يومئذ قليلة الثبات (فكانوا الا يعرضون فيها قبائلهم للخطر بل كانوا يؤثرون على ذلك ايقاع الغيرة المستمرة بين القرطاجيين وأهالى مسينيسه والاستعانة بكل منهما على قمع المقدونيين واليونان وادخالهم تحت الطاعة)

وانما كانوا ينتظرون وقتا تكون فيه جميع الامم متعودة على الطاعة والانقياد مع كونهم أحرارا أو حلفاء قبل أن يحكموهم بوصف كونهم رعايا ويدخلوهم بالتدريج تحت حكم الجمهورية الرومانية من غير أن يشعروا بذلك

ويدلك عليه مشارطتهم مع اللاطينيين بعد نصرتهم فى واقعة بحيرة ريجيلة فانها كانت من الاصول التى بنيت عليها شوكتهم وليس فيها كلمة تشعر بان لهم السلطة على اللاطينيين

ومثل هذه الطريقة بطيئة فى الفتح فكانوا اذا ظهروا على أمة لا يحكمون عليها من أول وهلة بل يقتصرون على إضعاف شوكتها باشتراطهم عليها شروطا تطفئ بهجتها وتضعف صولتها على وجه غير محسوس فاذا رأوا منها أنها آخذة فى الارتفاع خفضوها وبالغوا فى اذلالها فتصير بذلك من جملة رعاياهم من غير أن تشعر بالوقت الذى استرعوها فيه

فلم تكن مدينة رومة فى الحقيقة مونرخية ولا جمهورية وانما كانت بمنزلة رأس لجسم أعضاؤه جميع أمم الدنيا

هذا ولو نسج الاسبانيون على هذا المنوال بعد فتحهم لبلاد مكسيكه وبلاد بروبامريقه لما اضطروا الى تدمير ما فتحوه من الممالك فى حفظ جميع بلادهم دفعة واحده

ومن جنون الفاتحين كونهم يريدون أن جميع الامم التى استولوا عليها تمسك بقوانينهم وتتخلق بأخلاقهم وعوائدهم لان ذلك لا ثمرة فيه لان الانسان قابل للطاعة والانقياد على اختلاف أنواع الحكومة وليس اختلافها مانعا من ذلك

وهذا بخلاف ما كانت عليه مدينة رومه فانها ما كانت لا تضع قوانين عامة لجميع الامم بل كان لكل قانون يخصه كان لا يوجد بين هؤلاء الامم ما يوجب الخطر على الرومانيين من العلاقات والروابط التى يترتب عليها الفشل فى الحكومة فلم يكن يجمع تلك الامم الا مجرد الطاعة والانقياد للامة الرومانية وكان يطلق عليها اسم الرومانيين وان لم يكونوا من بلدة واحدة

فان قيل ان الممالك المؤسسة حكومتها على القوانين الالتزامية لم تثبت قط على حالة واحدة بل كانت دائما مضطربة لا شوكة لها ولا صولة فالجواب أن منهج الرومانيين فى حكومة الممالك كان مباينا لمنهج من عداهم بالكلية وقصارى الامر أن منهجهم منشؤه القوة والشجاعة بخلاف من عداهم فنشأ منهجهم الضعف وعدم الحزم وكان للرومانيين تشديد عجيب فى الاسترعاء والاستعباد كما أن الآخرين كان لهم افراط شديد فى الاستبداد والاستقلال فكانت حكومة البلاد التى فتحها الامم الجرمانية بيد أتباعهم ولم يكن للملك فيها الا مجرد الحق بخلاف الرومانيين فكان الامر بالعكس

(من كتاب برهان البيان وبيان البرهان)

فصل فى فتوحات الامبراطور يوستينيانوس وحكمه

لما كان الداخل فى الاقاليم الرومانية من أجناس الاقوام المتنوعة والامم المختلفة كثيرا بدون أن يكون ثم ما تمتاز به أمة منهم عن الاخرى أفضى بهم ذلك الى أن زاحم بعضهم بعضا وكان الغرض

البوليتيقى اذ ذاك من جانب الرومانيين تحريض هؤلاء الاغراب على الفشل وايقاع ذات البين فيما بينهم وكان الحصول على ذلك أقرب شئ لما كان قائما بهؤلاء الاقوام من الفظاظة والغلظ والطمع فأدى ذلك الى بوارهم بابادة بعضهم بعضا قبل تمكنهم من الاستيطان وصيرورتهم ملة وان استوطن منهم البعض فهو القليل النادر وهذا هو السبب فى كون الامبراطورية المشرقية بقيت بعد تبدد المغربية مدة من الزمان

وأيضا من جملة أسباب انقراض الامبراطورية المغربية قبل المشرقية أن الاقطار الشمالية لما نفدت بجلاء الاقوام عنها وقل أهلها صار لا يقدم على البلاد الرومانية من يتقوم منه الجند كما كان ذلك فى مبدأ الامر وذلك لانه عقب اغارة الغوطة والهونة لاسيما بعد موت ملكهم اتيلا كان حرب الرومانيين لهاتين الامتين ولمن جاء بعدهم بدون قوة حاسمة ولا شوكة قاصمة كأنها جند واحد وجيش طارد ثم تمزقت وتشتت شملها وتقسمت فرقا وأحزابا وملا متباينة تأبى ائتلافا بينها واستصحابا فبهذا داخلهم الضعف والاضمحلال وفقد البأس وحصول الاختلال حيث تفرقوا شغر بغر فى ولاياتهم التى افتتحوها وبلادهم التى للاستيطان استنجعوها فمن ثم صاروا هدفا للاغارات وغرضا لاستقبال الغارات بعد أن كانوا هم المغيرين ومغلوبين بعد أن كانوا غالبين فانتهز يومئذ الامبراطور يوستيانوس الفرصة فى أثناء ذلك وتصدى للتغلب على بلاد أفريقة وايطاليا وأعادها للطاعة وقد فعل الفرنساوية نظير ذلك مع الوزيغوطة والبرغونية واللومباردية والعرب حيث انتهزوا فرصة اختلالهم فحاربوهم وسلبوا البلاد من أيديهم وأعادوها لملكهم ولما كان هؤلاء الامم فى قبضة الرومان ودخل دين النصرانية عند الرومان وسرى اليهم منهم التنصر كان مذهب اريوس هو المتمسك به فى الحكومة الرومانية فأرسل الملك والنس من طرفه دعاة اريوسية الى هؤلاء الامم ليدعوهم الى التنصر ولم يكن أرسل اليهم غيرهم قبل ذلك ففى أثناء المدة بين تنصرهم واستيطانهم ألغى هذا المذهب عند الرومانيين وانتسخ وكاد أن لا يكون له أثر وعد هرطقة وخروجا واعتدالا ومع ذلك فلم تزل الامم المتبربرة متمسكة به ومجرية العمل على مقتضاه فبهذه الطريقة نفرت منهم نفوس الناس فلم يمكنهم أن يستميلوا قلب أحد اليهم من الاهالى حيث وجدوا جميع الاهالى على الدين الارثودكسى وهو الدين الاصلى الذى لا هرطقة فيه فلم ينجحوا فى الاغارات ولا فى استوعاء المخلوقات وأيضا لما لم يكن عندهم معرفة بفن المهاجمة على المدن الحصينة ولا المعاقل المثبتة بل ولا اقتدار على المدافعة ولا همة على الممانعة تركوا أسوار المدن الحصينة التى تحت أيديهم تتهدم ولم يحافظوا على استحكام بنائها المحكم فقد نص بروقوس فى تاريخه انه لما ذهب أمير الجيوش الرومانى المسمى بليزريس الى بلاد ايطاليا وجد أسوارها على هذا الحال

وكذلك أسوار مدن أفريقيه خربها الملك جنسريق كما هدم وتيزا فيما بعد أسوار مدن مملكة اسبانيا قاصدا بذلك اضعاف أهلها وتمكن استيلائه عليهم

ولما استوطن أغلب أمم الجهة الشمالية وهم الوندال فى الولايات الجنوبية من الامبراطورية كان مبدأ أمرهم أن ورثوا عن أهاها الرخاوة والجبن فعما قريب صاروا لا يقدرون على تحمل مشاق الحرب وحمل السلاح كيف لا وقد فترت همتهم وخمدت شوكتهم يومئذ بانهماكهم على اللذات وطوع أمر الشهوات التى صارت عندهم اذ ذاك من الضروريات الملازمتهم للرفاهة فى الاطعمة والمآكل واتباع الزخرفة فى الملابس الفاخرة والتزين بزى النساء والمداومة على التنعم فى الحمامات وسماع ألحان الآلات والتنزه فى المتنزهات والبساتين والتفرج فى الملاعب

قال المؤرخ ملكوس وأمن يومئذ الرومانيون من تعكير هؤلاء الامم عليهم وتضجرهم منهم حيث امتنعوا عن امداد الجنود العديدة الذين كانوا دائما فى زمن ملكهم جنسريق مستعدين لملتقى العدو وتداركه وبهم كان يعجب جميع العالم من سهولة فتوحاته وسرعة نجاح مشروعاته

وكان الفرق الكائن يومئذ بين فرسان الرومان وفرسان الغوطة والوندال هو أن الرومانيين كانوا ذوى مهارة جيدة فى الرمى بالنشاب والسهام لكثرة تمرنهم عليه بخلاف الوندال ومن معهم فكانوا لا يستعملون فى حروبهم الا السيف والرمح ولذلك كان يشق عليهم محاربة العدو وهم على البعد منه وكان ذلك الفرق سببا باعثا على بعض ما أعان الجنرال بليزيرس

وكان يحصل من الهونة مساعدة جيدة للرومان فى بعض فتوحاتهم عند الشدائد لاسيما فى عهد الامبراطور يوستيانوس كيف لا وقد تناسل منهم أمة البرث الذين ضاهوهم فى فن الحرب ودخلوا فى خدامة الرومان أعوانا لهم فى الحروب من وقت هزيمة قائد جيوشهم أتيلا وانحطاط شوكتهم ووقوع الفشل والشقاق فيما بين أغلب أولاده من بعده وكانوا يدخلون فى خدمة الرومانيين مساعدين لهم وكانوا يكونون عساكرهم الخيالة

وكانت تمتاز كل أمة من هؤلاء الامم الخشنية عما عداها بنوع من الحرب تختص به وتنوع أسلحتها المختلفة باختلاف أجناسها فكانت أسلحة الغوطة والوندال منحصرة فى السيف وكانوا لا يطاقون فى النزال متى كان السيف فى أيديهم وأما الهونة فكانوا أرباب نشاط عجيب فى الرمى بالنشاب وكانت الصوبة أعظم من غيرها فى البسادة وأما اللانيون فكانوا يحبون حمل كثير من الاسلحة وأما الهيرليون فكانوا اخفافا فى الحرب فكان الرومانيون يختارون من تلك الامم من وافق مقصودهم وغرضهم وبهذه الطريقة كانوا يحاربون كل أمة على حدتها مستعينين عليها بكثرة الامم وبمزاياها التى أسلفنا ذكرها

ومما يستوجب العجب أن أعظم الامم انتجاعا وقبائل فى خارج البلاد هم أضعفهم قوة واقتدارا وانه من أكبر الخطأ أن يستدل على قوتهم بكثرة فتوحاتهم فان الامم المتبربرين بل أفواج القبائل المتولدين منهم كانوا على طول هذه المدة المديدة من مستمر غاراتهم اما هازمين واما مهزومين كل على حسب الاطوار والوقائع وأنه بينما كانت أمة من ذوات الشوكة عظيمة فى تردد من عمل الحرب أو عازمة عليه كانت طائفة من الطفوش الرحالة النزالة اذا وجدوا بلدة خالصا لهم مجازها دخلوها فعثوا فيها الفساد وأنه أمكن لامة الغوطة الذين طالما ولوا الفرار أمام كثير من الامم لعدم لياقة أسلحتهم أنهم تغلبوا فيما بعد على بلاد ايطاليا والغولة واسبانيا ووطنوها وهاجر أمة الوندال من بلاد آسيا لضعف قوتهم فعبروا الى أفريقة وأسسوا لهم فيها مملكة عظيمة

ولم يتيسر ليوستنيانوس أن يجهز فى واقعة حرب هؤلاء الوندالة ببلاد أفريقة الا خمسين سفينة فقط حتى انه لما أرسى بهم القائد بيليزير على البر لم يجد باقيا معه من عدد العساكر سوى خمسة آلاف رجل لاغير فما أعظم جراءته كان فى هذا المشروع مع أن القيصر ليون كان قد أرسل عليهم قبل ذلك عمارة بحرية اشتملت على جميع سفن بلاد المشرق الرومية وكان فيها من العدة مائة ألف محارب وما قدر مع ذلك على أن يفتح بلاد أفريقة أبدا بل أسقط فى يديه أن قد أضاع المملكة هدرا

وهيهات أن تفلح أمثال تلك العمارات البحرية الجسيمة ولا تلك الجيوش البرية العظيمة فانها حيث كانت تذهب بكل عمارية الدولة وذخرتها كانوا اذا بعدت عليهم الشقة أو أصابهم بعض المصيبة لا يجدون من عدلهم يد الاعانة ولا ما يجبر بعد ذلك خللهم واذا فقد بعض الشئ فلا معول على ما بقى منه فان السفن الحربية وسفن الحمولة والخيالة والمشاة والذخائر وجميع المهمات الحربية كالشئ الواحد بحيث لو فقد منها البعض لاخل بالهيئة الاجتماعية الكلية ويبطل بذلك عملها وان تراخى الشروع فى الحرب لوقت فرصة للعدو دائما فى أن يكون على أهبة من القوة والاقتدار على ملتقى عدوه ومع أنه كان من النادر دائما أن يبتدئوا غزوة فى فصل معتدل كانت تغشاهم أيام الرواعد والمطر لانتظارهم كثيرا من اللوازم لم يتيسر تجهيزها الا بعد أشهر من تمام ميعادها فاستولى بيليزير على أفريقة والذى أعانه كثيرا على ذلك هو أنه قد تزود بجانب عظيم جدا من الذخائر من جزيرة صقليا بناء على مشارطة حصلت بينه وبين أمالازونطة ملكة الغوطة حتى انه لما ارسل هذا القائد من بعد ذلك للهجوم على بلاد ايطاليا وتبين له أن أمة الغوطة يستمدون مؤنتهم من جزيرة صقليا المذكورة كان أول مشروعه أنه تغلب عليها فأعوز هؤلاء الغوطة أعداءه وأجاعهم وصار هو فى سعة الرخاء من كل شئ أراده

وتغلب بليزير على كل من قرطاجة وروما وراوينة وبعث بملوك الغوطة والوندال فى حبائل الاسر الى مدينة القسطنطينية فشهرت فيها الذ ائة مواكب النصر وألوية الفخر بعد ان كان قد تنوسى عهدها وأفل طالع مجدها زمن اطويلا باضمحلال الدولة الرومية وذهاب بهجتها

ويمكن انتساب أقوى أسباب نجاح هذا الرجل العظيم وموجب فلاحه الى ما كان متصفا به من كريم الخلال وعظيم الخصال فان هـذا القائد حيث كان خبيرا بأصول الاولين من الرومانيين وطرائق سيرهم نشأ على يده جيش من العساكر على نسق الجنود الاولية الرومية عزما وانقيادا

وقد يطفئ ذل الاسر والاستعباد فى العادة دائما بهجة أعظم الفضائل فى الرجال أو يمحوها بالكلية منهم الا هذا البطل الجليل القدر فان حكومة القيصر يوستنيانوس الطاغيانية (أى المؤسسة على الظلم والجور) لم تكن لتخفض قدره العالى العظيم ولا تهضم عقله السامى الفخيم

وأعاد على شرف حكم هـذا الملك أيضا أغاى الحريم نرسيس فان هـذا المحارب حيث ربى فى داخل السراية كان أقرب الناس منزلة اليـه وأحظاهم بالامانة لديه لان الملوك من عاداتهم دائما أنهم يعدون جلساءهم وأولياء حضرتهم من أصدق الناس اليهم وأوفاهم ذماما اليهم

ولكن عدم استقامة يوستنيانوس واسرافه وغائلة نهبه وسيئ جوره وشدة ولوعه بالبناء والتغيير والتجديد وتبدل مقاصده وحكم قاس ثقل على الرعية عبؤه بكبر استطالت فيـه مدته كانت كل هـذه مصائب حقيقية ونوب حدثانية على الدولة الرومانية ممزوجة بنجاح لاطائل تحتـه وظاهر فخار باطل

وترتب على تلك الفتوحات التى لم يكن جل القصـد منها تقوية المملكة وتعضيد شوكتها بل لموجب أحوال خصوصية اقتضتها أنها ذهبت بكل ما هنالك فانه بينما كانت الجيوش الرومانية مشتغلة بتلك الفتوحات أتت أمة أجنبية فعبرت نهر طونه وخربت كلا من اقليم ايليريا ومقدونيا واليونان وشن أهل فارس الاغارة فى أربع مرات سواء على بلاد مشرق الرومان حتى لقد أمسوها بقروح مالدائها من دواء وكلما كانت تلك الفتوحات الرومية سريعة الحصول متيسرة كانت أوهى أساسا وأقل ثباتا فانه ما استتم فتوح بلاد ايطاليا وأفريقة حتى أغار عليها العدو ثانيا ولزم التصدى لمعاناة فتحها مرة أخرى

وتزوج يوستنيانوس من تياترو اللعب بامرأة طالما عرضت فيه نفسها النقيصة فكان لها عليـه السلطان البالغ وامرة ما ان لها من معادل فى كتب التواريخ وحيث كانت لاتزال دائما تشوب جد المصالح الميرية بما فيـه حظوظ نفسها وأهواء بنات جنسها أخلت برونق النصرات العظيمة وشانت أنجح المساعى السعيدة

وقد أباحوا فى كل عصر وأوان تعـدد الزوجات فى بلاد المشرق لاضـعاف ما للنساء على الرجال فى الديار الاوروباوية من السلطة والاقتدار ولكن شرع التزوج بواحدة الجارى اذ ذاك حكمه فى مدينة القسطنطينية قد جعل لهذا الجنس على الرجال سلطانا حتى كان ذلك فى بعض الاحيان سبب الضعف قوة الحكومة فى الدولة الرومية

وكان أهل مدينة القسطنطينية دائما وأبدا منقسمين الى حزبين حزب الزرق وحزب الخضر وذلك ناشئ ليس الا عن ميل بعض المتفرجين فى مناصب اللعب ومحافل الطرب الى بعض المقيمين دون بعض حتى كان لابسو الاخضر من سواقى العربيات يتنازعون مع لابسى الازرق منهم قصب السبق فى ميادين السـباق مغايرة بعضهم فى بعض ويفترض كل من الفريقين لذلك ويحتد الى شـدة التغيظ والغضب

وكان يعظم التفاقم والشقاق أو يقل بين هذين الحزبين المنتشرين اذ ذاك فى جميع مدن المملكة الرومانية بحسب أهمية المدن وصغرها أعنى تخلى جزء عظيم أو قليل من أبناء البلد فيها

ولكن هـذا التفرق والشـقاق بين الامة وان كان فى العادة لازما ضروريا للحكومة الجمهورية لحفظها وتأبيد بقائها لم يكن الا شؤما على الحكومة الملوكية حيث لا يترتب عليـه فى العادة دائما الا تغيير الحاكم لا لإقامة الشرائع وابطال الجور والتعدى

وحيث كان القيصر يوستنيانوس ينتصر دائما للزرق ويأبى كل انصاف وعدل للخضر أغرى هو نفسه كلا من الفريقين وبذلك قوى جاشهم وحرضهم على البغضاء بينهم

ولم يزل يومئذ ذلك دأبهم وهذا مساقهم الى أن عدلوا عن الشريعـة وأبوا حكم القضاة فى المدينة فأما الزرق فصاروا لا يخشون للشرائع واجبا لان الامبراطور كان يحميهم منها وبطل احترام الحزب الاخضر لها حيث عجزت عن حمايتها لهم كالسابق

وانتقضت اذ ذاك عما بينهم جميع روابط المحبـة والقرابة واتقى الواجب والشـكر وصارت العائلات يدمر بعضهم بعضا بأيديهم فكل سارق أو قاتل كان من حزب الزرق أو مقتول كان من حزب الخضر

وزاد على هذه الحكومة الخارجة عن حد التمييز والمعقوليـة انهـا كانت أشد قساوة وجورا فانه ما كفى الامبراطور يوستنيانوس ابتلاؤه جميع رعاياه بظلم عم الخاص والعام حيث كلفهم ما يعيى به المتحمل من الغرامات والبلص الخارجة عن الحد أن صار يقهرهم ويسـتوجب حسرهـم بجميع أنواع الجور والتعدى فى خصوص مصالحهم الذاتية

ولا أصدق بادئ الرأي ما ذكره بروكوب في تاريخه السرى من وصف هذا الملك لان ما ذكره هذا المؤرخ في مصنفاته الاخر من أعظم الثناء وأجل المدح فيه يضعف عندى سند تاريخه السرى المذكور اذ يصفه لمنافيه بأنه من أبلد الطغاة على الجور وأعتاهم حكما

ولكنني أعتمد أمرين يرجحان عندى صحة دليل التاريخ السرى على غيره الاول ملائمة نص هذا التاريخ أتم الملائمة لما تبدى على هذه المملكة من عظيم الضعف في أواخر أيام هذا الحكم وأحكام الملوك التي بعده والثاني وهو أثر باق لم يزل الى الآن بيننا قوانين هذا الامبراطور وشرائعه التي تغيرت فيها القواعد الفقهية في ظرف سنوات قلائل أكثر مما تغيرته في الثلثمائة سنة الاخيرة من حكومة الملوك الفرنساوية ببلاد أوروبا وتلك التغييرات حاصل أغلبها من أمور قليلة الاهمية جدا حتى لا يعلم ما السبب الذى حمل هذا الامبراطور المشرع على تغيير الحكم فيها اللهم الا أن يرجع في تأويل ذلك الى تاريخه السرى ويقال ان هذا القيصر كان يبيع بثمن المال كلا أوامره وأحكام شرائعه

ولكن الذى أضر كثيرا بقوام السياسة في الحكومة هو ما عزم عليه هذا القيصر من أن يصير جميع الناس على شرعة واحدة ورأى مشترك في أمر الديانة بصدد أحوال لا توافق مقتضى الحال اقتضت أن جل همته في ذلك صارت سدى ومحض اعتداء باطل

وذلك أن الرومانيين كانوا قد حصنوا مملكتهم وأيدوا جهتها بادخال جميع مذاهب الديانة وطرق العبادة فيها فلما أن أبطلوا اتباعا لهذا الامر جميع المذاهب غير الحاكمة فيها واحدا بعد واحد آل أمرها فيما بعد الى أن لا شئ من لازم الحصانة

وكانت اذ ذاك تلك المذاهب عبارة عن أمم كاملة فمنهم من يقوى على دينهم بعد فتح الرومانيين لهم كالسامرية واليهود وآخرون تفرقوا شيعا في بعض الولايات كأتباع مونتان في ولاية افريجية والمانوية والسباتية والاريانوسية في أقاليم أخر وما عدا هؤلاء حزب عظيم من أهل البادية لم يزالوا على عبادة الاوثان معاندين بدين لهم موافق لخشونة طباعهم

فلما محق يوستنيانوس تلك المذاهب سواء بسيفه أو بأحكام شرائعه وكان اجباره لهم على العصيان والخروج عليه اجبار اله على قطيعتهم وتبديد شملهم صير عدة أقاليم من بعدهم الى البوار وظن أنه بذلك قد أكثر عدد المؤمنين بدين المسيح على أنه أقل عداد الناس

وذكر المؤرخ بروكوب في تاريخه ما نصه انه بانقراض الامة السامرية صار اقليم فلسطين من بعدهم خلاء قفرا والذى يستوجب العجب في هذه الواقعة هو أنهم سعوا في اضعاف قوة الدولة غيرة على الدين في جهة من المملكة ساغ لجيش العرب بعد عدة دول الدخول منها لاشهار دين الاسلام فيها فهدموا قواعد دينهم ومزقوه

ومن الخلاف المغم أنه بينما كان الامبراطور يوستنيانوس يلتزم غاية التدقيق فى موافقة الحدود الدينية والعقائد اللاهوتية كان هو نفسه لا يتفق مع الامبراطورة زوجته فى أوجب المسائل التوحيدية فكان يعتمد فى ذلك على ما يقول به مجمع مدينة خلدونيا وكانت هى تنتصر للمناقضين لقولهم قال المؤرخ ابواجره سواء كانت مناقضتهم له باخلاص ذمة أو ابتغاء موافقتها

ومن قرأ تاريخ بروكوب واطلع على مبانى يوستنيانوس من الحصون والقلاع التى أنشأها هذا الملك فى جميع جهات المملكة خطر بباله البتة أن دولة هذا الملك كانت جليلة القدر عظيمة الشان بخلاف الواقع كلية

ودليل ذلك أن الرومانيين فى مبدأ الامر لم يكن عندهم شئ من تلك الحصون مطلقا فكانوا يجعلون جل اعتمادهم فى تحصين المملكة على عدة الجنود حيث كانوا يرتبونهم على طول شواطئ الانهار ويبنون عليها من مسافة الى أخرى أبراجا يسكن العساكر فيها للمحافظة

ولكنه لما صارت لوم جنودهم عاطلة وجمية جيوشهم باطلة أو لم يكن عندهم فى أغلب الاحيان عساكر أبدا وقصرت الثغور عن حماية الداخل احتاج الامر الى احكامها وتحصين مقامها فكثرت حينئذ عندهم الحصون وقلت الجنود وكثرت أماكن التحفظ وقل الامان وحيث تعذرت سكنى الخلاء الابجوار الاماكن الحصينة أشادوا حصونا فى جميع الجهات فكان مثل المملكة يومئذ كمثل بلاد فرانسا فى زمن الدولة النورمندية لم تضعف قط مثل ضعفها حين صارت جميع قراها محصنة بالاسوار

فليست حينئذ جريدة أسماء القلاع والحصون التى أسسها الامبراطور يوستنيانوس فى زمانه وملأ بها المؤرخ بروكوب صفحات كاملة من كتابه سوى مجرد أدلة شاهدة بضعف شوكة المملكة الرومانية يومئذ (من كتاب برهان البيان وبيان البرهان)

ذكر خلافة هرون الرشيد

بويع بالخلافة فى سنة سبعين ومائة كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم كان يحج سنة ويغزو سنة كذلك مدة خلافته الاسنين قليلة قالوا وكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة وحج ماشيا ولم يحج خليفة ماشيا غيره وكان اذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم واذا لم يحج أحج ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة وكان يتشبه فى أفعاله بالمنصور الا فى بذل المال فانه لم ير خليفة أسمح منه بالمال وكان لا يضيع عنده احسان محسن ولا يؤخر وكان يحب الشعر والشعراء ويميل الى أهل الادب والفقه ويكره المراء فى الدين وكان يحب المديح لاسيما من شاعر فصيح ويجزل العطاء عليه

وكان يتواضع للعلماء قال أبو معاوية الضرير وكان من علماء الناس أكلت مع الرشيد يوما فصب على يدى الماء رجل فقال لى يا أبا معاوية أتدرى من صب الماء على يدك فقلت لا يا أمير المؤمنين قال أنا فقلت يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا اجلالا للعلم قال نعم

فى أيامه خرج يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب

(شرح كيفية الحال فى ذلك) كان يحيى بن عبد الله قد خاف مما جرى على أخويه النفس الزكية وابراهيم قتيل باخمرى فمضى الى الديلم فاعتقدوا فيه استحقاق الامامة وبايعوه واجتمع اليه الناس من الامصار وقويت شوكته فاغتم الرشيد لذلك وندب اليه الفضل بن يحيى فى خمسين ألفا وولاه جرجان وطبرستان والرى وغير ذلك فتوجه الفضل بالجنود فلاطف يحيى بن عبد الله وحذره وخوفه ورغبه فمال يحيى الى الصلح وطلب أمانا بخط الرشيد وأن يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلة بنى هاشم فأجابه الرشيد الى ذلك وسر به وكتب له أمانا بليغا بخطه وشهد عليه فيه القضاة والفقهاء ومشايخ بنى هاشم وسير الامان مع هدايا وتحف فقدم يحيى مع الفضل فلقيه الرشيد فى أول الامر بكل ما أحب ثم حبسه عنده واستفتى الفقهاء فى نقض الامان فمنهم من أفتى بصحته فحاجه ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله ثم قتله بعد ظهور آية له عظيمة

شرح الآية التى ظهرت فى قضية يحيى بن عبد الله

حضر رجل من آل الزبير بن العوام عند الرشيد وسعى بيحيى وقال انه بعد الامان فعل وصنع ودعا الناس الى نفسه فاحضره الرشيد من محبسه وجمع بينه وبين الزبيرى وسأله عن ذلك فانكر فواقفه الزبيرى فقال له يحيى ان كنت صادقا فاحلف فقال الزبيرى والله الطالب الغالب وأراد أن يتمم اليمين فقال له يحيى دع هذه اليمين فان الله تعالى اذا مجده العبد لم يعجل عقوبته ولكن احلف لى بيمين البراءة وهى يمين عظمى صورتها أن يقول عن نفسه برئ من حول الله وقوته ودخل فى حول نفسه وقوتها ان كان كذا وكذا فلما سمع الزبيرى هذه اليمين ارتاع لها وقال ما هذه اليمين الغريبة وامتنع من الحلف بها فقال له الرشيد ما معنى امتناعك ان كنت صادقا فيما تقول فما خوفك من هذه اليمين فحلف بها فما خرج من المجلس حتى ضرب برجله ومات وقيل ما انقضى النهار حتى مات فحملوه الى القبر وحطوه فيه وأرادوا أن يطموا القبر بالتراب فكانوا كلما جعلوا التراب فيه ذهب التراب ولا ينطم القبر فعلموا أنها آية سماوية فسقفوا القبر وراحوا والى ذلك أشار أبو فراس بن حمدان فى ميميته بقوله

يا جاهـــدا فى مساويهم يكتمها * عذر الرشيد بيحيى كيف ينكتم
ذاق الزبيرى غب الحنث وانكشفت * عن ابن فاطمة الاقوال والتهـم

ومع ظهور مثل هـذه الآية العظيمة قتـل يحيى فى الحبس شر قتلة وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقارا ورونقا وخيرا وأوسعها رقعة مملكة جبى الرشيد معظم الدنيا وكان أحد عماله صاحب مصر ولم يجتمع على باب خليفـة من العلماء والشـعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه الى أعلى درجة وكان فاضلا شاعرا راوية للاخبار والآثار والاشعار صحيح الذوق والتمييز مهيبا عند الخاصة والعامة قبض على موسى بن جعفر عليهما السلام وأحضره فى قبة الى بغداد فحبسه بدار السندى بن شاهك ثم قتل وأظهر أنه مات حتف أنفه

(شرح كيفية الحال فى ذلك) كان بعض حساد موسى بن جعفر من أقاربه قد وشى به الى الرشـيد وقال له ان الناس يحملون الى موسى خمس أموالهم ويعتقدون أمامتـه وأنه على عزم الخروج عليك وأكثر فى القول فوقع ذلك عند الرشـيد بموقع أهمه وأقلقه ثم أعطى الواشى مالا أحاله به على البلاد فلم يتمتع به وما وصل المال من البلاد الا وقد مرض مرضة شديدة ومات فيها وأما الرشيد فانه حج فى تلك السـنة فلما ورد المدينة قبض على موسى بن جعفر وحمله فى قبة الى بغداد فحبسـه عند السندى بن شاهك وكان الرشـيد بالرقة فأمر بقتله فقتل قتلا خفيا ثم أدخلوا عليـه جماعة من العدول بالكرخ ليشاهدوه اظهارا أنه مات حتف أنفه صلوات الله عليه وسلامه ومات الرشيد بطوس وكان خرج الى خراسان لمحاربة رافع بن الليث بن نصر بن سـيار وكان هـذا رافع قد خرج وخلع الطاعة وتغلب على سمرقند وقتل عاملها وملكها وقويت شوكته فخرج الرشيد بنفسه اليه فمات بطوس فى سنة ثلاث وتسعين ومائة

شرح حال الوزارة فى أيامه

لما بويع بالخلافة استوزر كاتبه قبل الخلافة يحيى بن خالد بن برمك وظهرت دولة بنى برمك من حينئذ (شرح أحوال الدولة البرمكية وذكر مبدئها ومآلها) كانوا قديما على دين المجوس ثم أسلم من أسلم منهم وحسن اسلامهم وهـذه الدولة البرمكية كانت غرة فى جبهة الدهر وتاجا على مفرق العصر ضربت بمكارمها الامثال وشدت اليها الرحال ونيطت بها الامال وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ومنحتهما أوفر اسـعادها فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة والبحور زاخرة والسـيول واقعة

والغيوث ماطرة أسواق الآداب عندهم نافقة ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية والدنيا في أيامهم عامرة وأبهة المملكة ظاهرة وهم ملجأ اللهيف ومعتصم الطريد ولهم يقول أبو نواس

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم * بني برمك من رائحين وغاد

(ذكر وزارة يحيى بن خالد للرشيد) لما جلس الرشيد على سرير المملكة استوزر يحيى بن خالد بن برمك وكان كاتبه ونائبه ووزيره قبل الخلافة فنهض يحيى بن خالد بأعباء الدولة أتم نهوض وسد الثغور وتدارك الخلل وجبى الاموال وعمر الاطراف وأظهر رونق الخلافة وتصدى لمهمات المملكة وكان كاتبا بليغا لبيبا أديبا شديدا صائب الآراء حسن التدبير ضابطا لما تحت يده قويا على الامور جوادا يبارى الريح كرما وجودا ممدحا بكل لسان حليما عفيفا وقورا مهيبا وله يقول القائل

لا ترانى مصافحا كف يحيى * انى ان فعلت ضيعت مالى

لو يمس البخيل راحة يحيى * لسخت نفسه ببذل النوال

ومن آراء يحيى السديدة ما قاله للهادى وقد عزم على أن يخلع أخاه هرون من الخلافة ويبايع لابنه جعفر بن الهادى وكان يحيى كاتب الرشيد وهو يترجى ان يتولى هرون الخلافة فيصير هو وزير الدولة فخلا الهادى بيحيى ووهب له عشرين ألف دينار وحادثه في خلع هرون أخيه والمبايعة لجعفر ابنه فقال له يحيى يا أمير المؤمنين ان فعلت حملت الناس على نكث الايمان ونقض العهود وتجرأ الناس على مثل ذلك ولو تركت أخاك هرون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد فى بيعته فترك الهادى ذلك مدة ثم غلب عليه حب الولد فأحضر يحيى مرة ثانية وفاوضه فى ذلك فقال له يحيى يا أمير المؤمنين لو حدث بك حادث الموت وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ أفترى كانت خلافته تصح وكان مشايخ بنى هاشم يرضون ذلك ويسلمون الخلافة اليه قال لا قال يحيى فدع هذا الامر حتى تأتيه عفوا ولو لم يكن المهدى بايع لهرون لوجب أن تبايع أنت له لئلا تخرج الخلافة من بنى أبيك فصوب الهادى رأيه وكان الرشيد بعد ذلك يرى هذه من أعظم أيادى يحيى بن خالد عنده

ومن مكارمه قيل ان الرشيد لما نكب البرامكة واستأصل شأفتهم حرم على الشعراء أن يرثوهم وأمر بالمؤاخذة على ذلك فاجتاز بعض الحرس ببعض الخربات فرأى انسانا واقفا وفى يده رقعة فيها شعر يتضمن رثاء البرامكة وهو ينشده ويبكى فأخذه الحرس وأتى به الى الرشيد وقص عليه الصورة فاستحضره الرشيد وسأله عن ذلك فاعترف به فقال له الرشيد أما سمعت تحريمى لرثائهم لافعلن بك ولاصنعن فقال يا أمير المؤمنين ان أذنت لى فى حكاية حالى حكيتها ثم بعد ذلك أنت ورأيك قال قل

قال انى كنت من أصغر كتاب يحيى بن خالد وأرقهم حالا فقال لى يوما أريد أن تضيفنى فى دارك يوما فقلت يامولانا أنا دون ذلك وداري لا تصلح لهذا قال لابد من ذلك قلت فان كان لابد فأمهلنى مدة حتى أصلح شأنى ومنزلى ثم بعد ذلك أنت ورأيك قال كم أمهلك قلت سنة قال كثير قلت فشهورا قال نعم فضيت وشرعت فى اصلاح المنزل وتهيئة أسباب الدعوة فلما تهيأت الاسباب أعلمت الوزير بذلك فقال نحن غدا عندك فضيت وتهيأت فى الطعام والشراب وما يحتاج اليه فحضر الوزير فى غد ومعه ابناه جعفر والفضل وعدة يسيرة من خواص اتباعه فنزل عن دابته ونزل ولداه جعفر والفضل ومن معه وقال يافلان أنا جائع فعجل لى بشئ فقال لى الفضل ابنه الوزير يحب الفراريج المشوية فعجل منها ما حضر فدخلت وأحضرت شيأ فأكل الوزير ثم قام يتمشى فى الدار وقال يافلان فرجنا فى دارك فقلت يامولانا هذه هى دارى ليس لى غيرها قال بلى لك غيرها قلت والله ما أملك سواها فقال هاتوا بناء فلما حضر قال له افتح فى هذا الحائط بابا فضى ليفتح فقلت يامولانا كيف يجوز ان يفتح باب الى بيوت الجيران والله أوصى بحفظ الجار قال لا بأس فى ذلك ثم فتح الباب فقام الوزير وأبناؤه فدخلوا فيه وأنا معهم فخرج منه الى بستان حسن كثير الاشجار والماء يتدفق فيه وبه من المقاصير والمساكن ما يروق كل ناظر وفيه من الآلات والفرش والخدم والجوارى كل جميل بديع فقال هذا المنزل وجميع ما فيه لك فقبلت يده ودعوت له وتحققت القصة فاذا هو من يوم حادثنى فى معنى الدعوة قد أرسل واشترى الاملاك المجاورة لى وعمرها دارا حسنة ونقل اليها من كل شئ وأنا لا أعلم وكنت أرى العمارة وأحسبها لبعض الجيران فقال لابنه جعفر يا بنى هذا منزل وعيال فالمادة من أين تكون له قال جعفر قد أعطيته الضيعة الفلانية بما فيها وسأكتب له بذلك كتابا فالتفت الى ابنه الفضل وقال له يا بنى فمن الآن الى أن يدخل دخل هذه الضيعة ما الذى ينفق فقال الفضل على عشرة آلاف دينار أحملها اليه فقال فعجلا له ما قلتما فكتب لى جعفر بالضيعة وحمل الفضل الى المال فأثريت وارتفعت حالى وكسبت بعد ذلك معه مالا طائلا أنا أتقلب فيه الى اليوم فوالله يا أمير المؤمنين ما أجد فرصة أتمكن فيها من الثناء عليهم والدعاء لهم الا انتهزتها مكافأة لهم على احسانهم وان أقدر على مكافأته فان كنت قاتلى على ذلك فافعل ما بدا لك فرق الرشيد لذلك وأطلقه وأذن لجميع الناس فى رثائهم

قيل ان هرون الرشيد حج ومعه يحيى بن خالد بن برمك ومعه ولداه الفضل وجعفر فلما وصلوا الى المدينة جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطيا الناس وجلس الامين ومعه الفضل بن يحيى فأعطيا الناس وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس فأعطوا فى تلك السنة ثلاث أعطيات ضربت بكثرتها الامثال وكانوا يسمونه عام الاعطيات الثلاث وأثرى الناس بسبب ذلك وفى ذلك يقول الشاعر

أتانا بنو الآمال من آل برمك * فياطيب أخبار وياحسن منظر
لهم رحلة فى كل عام الى العدا * وأخرى الى البيت العتيق المستر
اذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت * بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى * بمكة ما تمحو ثلاثة أقمر
فما خلقت الا لجود أكفهم * وأقدامهم الا لاعواد منبر
اذا راض يحيى الامر ذلت صعابه * وناهيك من راع له ومدبر

كان يقول يحيى ما خاطبنى أحد الاهبته حتى يتكلم فاذا تكلم كان بين اثنتين اما أن تزيد هيبته أو تضمحل وكان يقول المواعيد شباك الكرام يصيدون بها محامد الاحرار كان يحيى اذا ركب يعد صررا فى كل صرة مائتا درهم يدفعها الى المتعرضين له

سيرة ولده الفضل بن يحيى

كان الفضل من كرام الدنيا وأجواد أهل عصره وكان قد أرضعته أم هرون الرشيد وأرضعت أمه الرشيد وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة

كفى لك فخرا ان أكرم حرة * غذتك بثدى والخليفة واحد
لقد زنت يحيى فى المشاهد كلها * كما زان يحيى خالدا فى المشاهد

ولاه الرشيد خراسان فخرج اليه أبو الهول الشاعر مادحا معتذرا من شعر كان هجاه به فانشده

سرى نحوه من غضبة الفضل عارض * له لجة فيها البوارق والرعد
وكيف ينام الليل ملق فراشه * على مدرج يعتاده الاسد الورد
ومالى الا الفضل بن يحيى بن خالد * من الجرم ما يخشى على مثله الحقد
فجد بالرضى لا أبتغى منك غيره * ورأيك فيما كنت عودتنى بعد

فقال له الفضل لا أحتمل تفريقك بين رضاى واحسانى وهما مقرونان فان أردتهما معا والا فدعهما معا ثم وصله ورضى عنه

حدث اسحق بن ابراهيم الموصلى قال كنت قد ربيت جارية وثقفتها وعلمتها حتى برعت ثم أهديتها الى الفضل بن يحيى فقال لى يا اسحق ان رسول صاحب مصر قد ورد الى يسألنى حاجة أقترحها عليه فدع هذه الجارية عندك فانى سأطلبها وأعلمه أنى أريدها فانه سوف يحضر اليك ويساومك فيها فلا تأخذ فيها أقل من خمسين ألف دينار قال اسحق فضيت بالجارية الى منزلى فجاء الى رسول صاحب مصر وسألنى عن الجارية فأخرجتها اليه فبذل فيها عشرة آلاف دينار فامتنعت فصعد الى عشرين ألف دينار فامتنعت فصعد الى ثلاثين ألفا فما ملكت نفسى حتى قلت له بعتك وسلمت الجارية اليه

وقبضت منه المال ثم انى أتيت من الغد الى الفضل بن يحيى فقال يا اسحق بكم بعت الجارية قلت بثلاثين ألف دينار قال ألم أقل لك لا تأخذ منه أقل من خمسين ألفا قلت فداك أبى وأمى والله ما ملكت نفسى منذ سمعت لفظة ثلاثين فتبسم ثم قال ان رسول صاحب الروم قد سألنى أيضا حاجة وسأقترح عليه هذه الجارية وأدله عليك فخذ جاريتك وانصرف الى منزلك فاذا ساومك فيها فلا تأخذ منه أقل من خمسين ألف دينار

فأخذت الجارية وانصرفت الى منزلى فأتانى رسول صاحب الروم وساومنى فى الجارية فطلبت خمسين ألفا فقال هذا كثير ولكن تأخذ منى ثلاثين ألفا فوالله ما ملكت نفسى منذ سمعت لفظة ثلاثين ألفا حتى قلت له بعتك ثم قبضت المال منه وسلمت الجارية اليه ومضيت من الغد الى الفضل ابن يحيى فقال ما صنعت وبكم بعت الجارية يا اسحق قلت بثلاثين ألفا قال سبحان الله ما أوصيتك أن لا تأخذ فيها أقل من خمسين ألفا قلت جعلت فداك والله انى لما سمعت قوله ثلاثين ألفا استرخت جميع أعضائى فضحك وقال خذ جاريتك واذهب الى منزلك ففى غد يجىء اليك رسول صاحب خراسان فقو نفسك ولا تأخذ منه أقل من خمسين ألفا قال اسحق فأخذت الجارية ومضيت الى منزلى فجاءنى رسول صاحب خراسان وساومنى فيها فطلبت خمسين ألفا فقال لى هذا كثير ولكن تأخذ ثلاثين ألفا فقويت نفسى وامتنعت فصعد معى الى أربعين ألف دينار فكاد عقلى يذهب من الفرح ولم أتمالك أن أقول له بعتك فأحضر المال وأقبضنيه وسلمت الجارية اليه ومضيت من الغد الى الفضل فقال لى بكم بعت الجارية قلت بأربعين ألفا والله لما سمعتها منه كاد عقلى يذهب وقد حصل عندى جعلت فداك مائة ألف دينار ولم يبق لى أمل فأحسن الله جزاءك فأمر بالجارية فأخرجت الى وقال يا اسحق خذ جاريتك وانصرف قال اسحق فقلت هذه الجارية والله أعظم الناس بركة فأعتقتها وتزوجتها فولدت لى أولادى

قيل ان محمد بن ابراهيم الامام ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس حضر يوما عند الفضل بن يحيى ومعه سفط فيه جوهر وقال له ان حاصلى قد قصر عما أحتاج اليه وقد علانى دين مبلغه ألف ألف درهم وانى أستحى أن أعلم أحدا بذلك وآنف أن أسأل أحدا من التجار أن يقرضنى ذلك وان كان معى رهن يفى بالقيمة وأنت أبقاك الله لك تجار يعاملونك وأنا أسألك أن تقترض لى من أحدهم هذا المبلغ وتعطيه هذا الرهن فقال له الفضل السمع والطاعة ولكن نجح هذه الحاجة أن تقيم عندى هذا اليوم فأقام عنده ثم أن الفضل أخذ السفط منه وهو مختوم بختمه وأرسل معه ألف ألف درهم ونفذ الدراهم والسفط الى منزله وأخذ خط وكيله بقبضه فأقام محمد فى دار الفضل الى آخر النهار ثم انصرف الى داره فوجد السفط ومعه ألف ألف درهم فسر بذلك سرورا عظيما فلما كان من الغد

بكر الى الفضل ليشكره على ذلك فوجده قد بكر الى دار الرشيد فمضى محمد الى دار الرشيد فلما علم الفضل به خرج من باب آخر ومضى الى دار أبيه فمضى محمد اليه واجتمع به وشكره على فعله وقال انى بكرت اليك لاشكرك على احسانك فقال له الفضل إنى فكرت فى أمرك فرأيت ان هذه الالف ألف التى حملتها أمس اليك تقضى بها دينك ثم تحتاج اليه فتقترض فبعد قليل يعاودك مثلها فبكرت اليوم الى أمير المؤمنين وعرضت عليه حالك وأخذت لك منه ألف ألف درهم أخرى فلما حضرت الى باب أمير المؤمنين خرجت أنا من باب آخر وكذلك فعلت لما حضرت الى باب أبي لانى ما كنت أوثر أن ألقاك حتى يحمل المال الى منزلك وقد حمل فقال له محمد بأى شئ أجازيك على هذا الاحسان ما عندى شئ أجازيك به الا أنى ألتزم بالايمان المؤكدة وبالطلاق والعتاق والحج انى ما أقف على باب غيرك ولا أسأل سواك قالوا وحلف محمد أيمانا مؤكدة وكتب بها خطه وأشهد به عليه أنه لا يقف بباب غير الفضل بن يحيى فلما ذهبت دولة البرامكة وتولى الفضل بن الربيع الوزارة بعدهم احتاج محمد فقالوا له لو ركبت الى الفضل بن الربيع فلم يفعل والتزم باليمين فلم يركب الى أحد ولم يقف على باب أحد حتى مات

سيرة جعفر بن يحيى البرمكى

كان جعفر بن يحيى فصيحا بليغا كافطنا كريما حليما وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل قال الرشيد يوما ليحيى يا أبى ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفر بذلك فقال يحيى لان الفضل يخلفنى قال فضم الى جعفر أعمالا كأعمال الفضل فقال يحيى ان خدمتك ومنادمتك تشغلانه عن ذلك فجعل اليه أمر دار الرشيد وسمى بالوزير الصغير أيضا

قال الرشيد يوما ليحيى قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى فاكتب أنت اليه فكتب يحيى الى الفضل قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك الى شمالك فأجابه الفضل قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين فى أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه فقال جعفر لله در أخى ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منة العقل عنده وأوسع فى البلاغة ذرعه

قيل ان جعفر بن يحيى البرمكى جلس يوما للشرب وأحب الخلوة فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم وجلس معهم وقد هيئ المجلس ولبسوا الثياب المصبغة وكانوا اذا جلسوا فى مجلس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر ثم ان جعفر بن يحيى تقدم الى الحاجب أن لا يأذن لاحد من خلق الله تعالى سوى رجل من الندماء كان قد تأخر عنهم اسمه عبد الملك بن صالح

ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات وخفقت العيدان وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس وكان شديد الوقار والدين والحشمة وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب معه وبذل له على ذلك أموالا جليلة فلم يفعل فاتفق أن هذا عبد الملك بن صالح حضر الى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه فى حوائج له فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح الذى تقدم جعفر بن يحيى بالاذن له وأن لا يدخل غيره فأذن الحاجب له فدخل عبد الملك بن صالح العباسى على جعفر بن يحيى فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء وفطن أن القضية قد اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم وفطن عبد الملك بن صالح أيضا القصة وظهر له الخجل فى وجه جعفر بن يحيى فانبسط عبد الملك وقال لا بأس عليكم أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيأ فأحضر له قميص مصبوغ فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه وقال اسقونى من شرابكم فسقوه رطلا وقال ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا ثم باسطهم ومازحهم وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال عنه انقباضه وحياؤه ففرح جعفر بذلك فرحا شديدا وقال له ما حاجتك قال جئت أصلحك الله فى ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفة فيها أولها أن على دينا مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه ثانيها أريد ولاية لابنى يشرف بها قدره وثالثها أريد أن تزوج ولدى بابنة الخليفة فانها بنت عمه وهو كفؤلها فقال جعفر بن يحيى قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث أما المال ففى هذه الساعة يحمل الى منزلك وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا فانصرف فى أمان الله فراح عبد الملك الى منزله فرأى المال قد سبقه ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وعرفه ما جرى وأنه قد ولاه مصر وزوج ابنه فعجب الرشيد من ذلك وأمضى العقد والولاية فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كتب له التقليد بمصر وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد

وقيل ان جعفر بن يحيى كان بينه وبين صاحب مصر عداوة ووحشة وكان كل منهما مجانبا للآخر فزور بعض الناس كتابا عن لسان جعفر بن يحيى الى صاحب مصر مضمونه أن حامل هذا الكتاب من أخص أصحابنا وقد آثر التفرج فى الديار المصرية فأريد أن تحسن الالتفات اليه وبالغ فى الوصية ثم أخذ الكتاب ومضى الى مصر وعرضه على صاحبها فلما وقف عليه تعجب منه وفرح به الا أنه حصل عنده ارتياب وشك فى الكتاب فأكرم الرجل وأنزله فى دار حسنة وأقام له ما يحتاج اليه وأخذ الكتاب منه وأرسله الى وكيله ببغداد وقال له قد وصل شخص من أصحاب الوزير بهذا الكتاب وقد ارتبت به فأريد أن تتفحص لى عن حقيقة الحال فى ذلك وهل هذا خط الوزير أم لا

وأرسل كتاب الوزير صحبة مكتوبه الى وكيله فجاء الوكيل الى وكيل الوزير وحدثه بالقصة وأراه الكتاب فأخذه وكيل الوزير ودخل الى الوزير وعرفه الحال فلما وقف جعفر بن يحيى على الكتاب علم أنه مزور عليه وكان عنده جماعة من ندمائه ونوابه فرمى الكتاب عليهم وقال لهم أهذا خطى فتأملوه وأنكروه كلهم وقالوا هذا مزور على الوزير فعرفهم صورة الحال وأن الذى زور هذا الكتاب موجود بمصر عند صاحبها وأنه ينتظر عود الجواب بتحقيق حاله وقال لهم ماترون وكيف ينبغى أن نفعل فى هذا فقال بعضهم ينبغى أن يقتل هذا الرجل حتى تنحسم هذه المادة ولا يرجع أحد يتجرأ على مثل هذا الفعل وقال آخر ينبغى أن تقطع يمينه التى زور بها هذا الخط وقال آخر ينبغى أن يوجع ضربا ويطلق حال سبيله وكان أحسنهم محضرا من قال ينبغى أن تكون عقوبته على هذا الفعل حرمانه وأن يعرف صاحب مصر بحاله ليحرمه فيكفيه من العقوبة أنه قد قطع هذه المسافة البعيدة من بغداد الى مصر ثم يرجع خائبا فلما فرغوا من حديثهم قال جعفر سبحان الله أليس فيكم رجل رشيد قد علمتم ما كان بينى وبين صاحب مصر من العداوة والمجانبة وان كل واحد منا كانت تمنعه عزة النفس أن يفتح باب الصلح فقد قيض الله لنا رجلا فتح بيننا باب المصالحة والمكاتبة وأزال بيننا تلك العداوة فكيف يكون جزاؤه ماذكرتم من الاساءة ثم أخذ القلم وكتب على ظاهر الكتاب الى صاحب مصر سبحان الله كيف حصل لك الشك فى خطى هذا خط يدى والرجل من أعز أصحابى وأريد أن تحسن اليه وتعيده الى سريعا فانى مشتاق اليه محتاج الى حضوره فلما وصل الكتاب وفى ظاهره خط الوزير الى صاحب مصر كاد يطير من الفرح وأحسن الى الرجل غاية الاحسان وواصله بمال كثير وتحف جميلة ثم ان الرجل رجع الى بغداد وهو أحسن الناس حالا فحضر الى مجلس جعفر ووقع يقبل الارض ويبكى فقال له جعفر من أنت أخى قال يامولانا أنا عبدك وصنيعتك المزور الكذاب المتجرئ فعرفه جعفر وبش به وأجلسه بين يديه وسأله عن حاله وقال له كم وصل اليك منه فقال مائة ألف دينار فاستقلها جعفر وقال لازمنا حتى نضاعفها لك فلازمه مدة فكسب معه مثلها

ومازالت دولة البرامكة فى علو وارتفاع وتزايد حتى انحرفت عنهم الدنيا أمارة تدل على انحراف دولتهم

حدث بختيشوع الطبيب قال دخلت يوما على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد من مدينة السلام وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر وبينهم وبينه عرض دجلة قال فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد فقال جزى الله يحيى خيرا تصدى للامور وأراحنى من الكد ووفر أوقاتى على اللذة ثم دخلت اليه بعد أوقات وقد شرع يتغير عليهم فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة فقال استبد يحيى بالامور دونى فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها الا اسمها قال فعلمت أنه سينكبهم ثم نكبهم عقيب ذلك

شرح السبب فى نكبة البرامكة وكيفية الحال فى ذلك

اختلف أصحاب السير والتواريخ فى ذلك فقيل كان سبب ذلك أن الرشيد كلف جعفر بن يحيى قتل رجل من آل أبى طالب فتحرج جعفر من ذلك وأطلق الطالبى وسعى الى الرشيد بجعفر فقال له مافعل الطالبى قال هو فى الحبس قال الرشيد بحياتى ففطن جعفر فقال لاوحياتك ولكن أطلقته لانى علمت أنه ليس عنده مكروه فقال له الرشيد نعم مافعلت فلما قام جعفر قال الرشيد قتلنى الله ان لم أقتلك ثم نكبهم

وقيل ان أعداء البرامكة مثل الفضل بن الربيع مازالوا يسعون بهم الى الرشيد ويذكرون له استبدادهم بالملك واحتجانهم للاموال حتى أوغروا صدره فاوقع بهم

وقيل ان جعفرا والفضل ابنى يحيى ظهر منهما من الادلال مالا يحتمله نفوس الملوك فنكبهم لذلك

وقيل ان يحيى بن خالد رئى وهو بمكة يطوف حول البيت ويقول اللهم ان كان رضاك فى أن تسلبنى أهلى ومالى وولدى فاسلبنى الا الفضل ولدى ثم ولى فلما مشى قليلا عاد وقال يارب انه سمج بمثلى أن يستثنى عليك اللهم والفضل فنكبهم الرشيد بعد قليل وقيل غير ذلك

شرح مقتل جعفر بن يحيى والقبض على أهله

كان الرشيد قد حج فلما عاد من الحج سار من الحيرة الى الانبار فى السفن وجعل يشرب وركب جعفر ابن يحيى الى الصيد وجعل يشرب تارة ويلهو أخرى وتحف الرشيد وهداياه تأتيه وعنده بختيشوع الطبيب وأبو زكار الاعمى يغنيه فلما أظل المساء دعا الرشيد مسرورا الخادم وكان مبغضا لجعفر وقال اذهب فجئنى برأس جعفر ولا تراجعنى فوافاه مسرور بغير اذن وهجم عليه وأبو زكار يغنيه

فلا تبعد فكل فتى سيأتى * عليه الموت يطرق أو يغادى

فلما دخل مسرور قال له جعفر بن يحيى لقد سررتنى بمجيئك وسوءتنى بدخولك على بغير اذن فقال الذى جئت به أعظم أجب أمير المؤمنين الى مايريد بك فوقع على رجليه فقبلهما وقال له عاود أمير المؤمنين فان الشراب قد حمله على ذلك وقال دعنى أدخل دارى فأوصى فقال الدخول لاسبيل اليه وأما الوصية فاوص بما بدا لك فاوصى ثم حمله الى منزل الرشيد وعدل به الى قبة وضرب عنقه وأتى برأسه على ترس الى الرشيد وبدنه فى نطع ووجه الرشيد فقبض على أبيه واخوته وأهله وأصحابه وحبسهم بالرقة واستأصل شأفتهم ومن ظريف ماوقع فى ذلك مارواه العمرانى المؤرخ قال حدث فلان قال دخلت الديوان فنظرت فى بعض تذاكر النوّاب فوجدت فيها أربعمائة ألف دينار

ثمن خلعة لجعفر بن يحيى الوزير ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرة قراريط ثمن نفط وبواري لاحراق جثة جعفر بن يحيى فعجبت من ذلك ثم استوزر الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع وكان حاجبه

وزارة أبي العباس الفضل بن الربيع

فكان حاجبا للمنصور والمهدي والهادي والرشيد فلما نكب الرشيد البرامكة استوزره بعدهم كان الفضل بن الربيع شهما خبيرا باحوال الملوك وآدابهم ولما ولي الوزارة تهوس بالادب وجمع اليه أهل العلم فحصل منه ما أراد في مدة يسيرة وكان أبو نواس من شعرائه المنقطعين اليه فمن شعره في آل الربيع

عباس عباس اذا اضطرم الوغى * والفضل فضل والربيع ربيع

ومازال الفضل بن الربيع على وزارته الى أن مات الرشيد بطوس فجمع الفضل العسكر ومافيه ورجع الى بغداد انتهى ذكر خلافة هرون الرشيد

(من كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية)

ذكر خلافة محمد الامين

وبويع محمد بن هارون في اليوم الذي مات فيه هارون الرشيد وهو يوم السبت لاربع ليال خلون من جمادى الاولى بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة وتقدم ببيعته رجا الخادم وكان القيم ببيعته الفضل بن الربيع وكان محمد يكنى بأبي موسى وأمه زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر وكان مولده بالرصافة وقتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وثلاثة عشر يوما ودفنت جثته ببغداد وحمل رأسه الى خراسان وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وكان أصغر من المأمون بستة أشهر وكانت أيامه من خلعه الى مقتله سنة ونصفا وثلاثة عشر يوما حبس فيها يومين

ونذكر جملا من أخباره وسيره ولمعا مما كان في أيامه

قبض الرشيد والمأمون بمرو وبعث صالح بن الرشيد رجا الخادم مولى محمد الامين الى محمد فأتاه بالخبر في اثني عشر يوما الى مدينة السلام يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة وذكر العتبي وغيره ان زبيدة رأت في المنام ليلة علقت بمحمد كأن ثلاث نسوة دخلن عليها وهي بمجلس فقعد اثنتان عن يمينها وواحدة عن يسارها فدنت احداهن فجعلت يدها على بطن أم جعفر ثم قالت ملك عظيم البذل ثقيل الحمل نكد الامر ثم فعلت الثانية كما فعلت الاولى وقالت ملك ناقص الجد

مفاول الحد ممذوق الود تجوز أحكامه وتخونه أيامه ثم فعلت الثالثة كما فعلت الثانية وقالت قصاف عظيم الايلاف كثير الخلاف قليل الانصاف قالت فاستيقظت وأنا فزعة فلما كان فى الليلة التى وضعت فيها محمدا دخلن على وأنا نائمة كما كن دخلن فقعدن عند رأسى ونظرن فى وجهى ثم قالت احداهن شجرة نضره وريحانة حسنة وروضة زاهرة ثم قالت الثانية عين غدقة قليل لبثها سريع فناؤها عجل ذهابها وقالت الثالثة عدو لنفسه ضعيف فى بطشه سريع الى غشه مزال عن عرشه فاستيقظت وأنا فزعة بذلك وأخبرت بذلك بعض قهارمتى فقالت بعض ما يطرق النائم ثم وعبث من عبث التوابع فلما تم فصاله أخذت مرقدى ومحمد أمامى فى مهده اذ بهن قد وقفن على رأسى وأقبلن على ولدى محمد فقالت احداهن ملك جبار متلاف مهدار بعيد الآثار سريع العثار ثم قالت الثانية ناطق مخصوم ومحارب مهزوم وراغب محروم وشقى مهموم وقالت الثالثة أحفروا قبره ثم شقوا لحده وقدموا أكفانه وأعدوا جهازه فان موته خير من حياته قالت فاستيقظت وأنا مضطربة وجلة وسألت مفسرى الاحلام والمنجمين فكل يخبرنى بسعادته وحياته وطول عمره وقلبى يأبى ذلك ثم زجرت نفسى وقلت هل يدفع القدر أو يقدر أحد أن يدفع عن أحبابه الاجل

ومات أبو بكر بن عياش الكوفى وهو ابن ثمان وتسعين سنة بعد موت الرشيد بثمانى عشرة ليلة ولما هم محمد بخلع المأمون شاور عبد الله بن حازم فقال له أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه واستخف بيمينه فقال أسكت لله أبوك فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رأيا حيث يقول لا يجتمع فحلان فى أجمة وجمع القواد وشاورهم فاتبعوه فى مراده الى أن بلغ الى هرثمة بن حازم فقال يا أمير المؤمنين ان ينصحك من كذبك ولن يغشك من صدقك ولا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك فان الغادر مخذول والناكث مغلول ودخل على بن عيسى بن ماهان فتبسم محمد وقال تكن شيخ هذه الدعوة وباب هذه الدولة لا يخالف امامه ولا يوهن طاعته ثم رفعه الى موضع ما رفعه اليه فيما مضى وكان على بن عيسى أول من أجاب الى خلع المأمون فسيره فى جيش عظيم نحو المأمون فلما قرب من الرى قيل له ان طاهر بن الحسين مقيم بها وقد كان يظن أن طاهرا لا يثبت له فقال ما طاهر الا شوكة من أغصانى وشرارة من نارى وما مثل طاهر يؤمر على جيش وما بينه وبين الامين الا أن تقع عينه على سوادكم فان السخال لا تقوى على نطاح الكباش والثعالب لا تقدر على لقاء الاسد فقال له ابنه ابعث طلائع وارتد موضعا العسكرك فقال ليس طاهر يستعد له بالمكايد والتحفظ ان حال طاهر يؤدى الى أمرين اما أن يتحصن بالرى فيثب به أهلها أو يكفونا مؤنته

أو يخليها و يدبر راجعا لو قد قربت حيوانا منه فقال له ابنه ان الشرارة ربما صارت ضراما فقال ان طاهرا ليس قرنا في هذا الموضع وانما يحترس الرجال من أقرانها وسار علي بن عيسى وبث عساكره من الري وتبين ما عليه طاهر من الجد وأهبة الحرب وضم الاطراف فعدل الى رستاق من رساتيق الري متياسرا عن الطريق فنزل وانبسطت عساكره وأقبل طاهر في نحو من أربعة آلاف فارس فاشرف على عساكر علي بن عيسى وتبين كثرتها وعدة ما فيها فعلم أن لا طاقة له بذلك الجيش فقال لخواصه ومن معه نجعلها خارجية وكردس خيله كراديس وصمد في نحو القلب في سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان وخرج اليه من القلب العباس بن الليث مولى العهد وكان فارسا فقصده طاهر وضم يديه على سيفه فأتى عليه وكان علي على برذون كميت أرجل وتما الأعلى رأسه الرجال وتنازعوا في خاتمه ورأسه فذبحه رجل يعرف بطاهر بن الراجي وقبض آخر على خصلة من شعر لحيته وآخر على خاتمه وكان سبب هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعا للعباس بن الليث وبذلك سمي طاهر ذا اليمينين لجمعه يديه على السيف

وذكر أحمد بن هشام وكان من وجوه القواد قال جئت الى مضرب طاهر وقد توهم أني قتلت في المعركة ومعي رأس علي فقال البشرى هذه خصلة من رأس علي مع غلامي في المخلاة فطرحه قدامه ثم أتى بجثته وقد شدت يداه ورجلاه كما يفعل بالدواب اذا ماتت فأمر به طاهر فألقي في بئر وكتب الى ذي الرياستين فكان في الكتاب أطال الله بقاءك وكبت أعداءك كتابي اليك ورأس علي بن عيسى بين يدي وخاتمه في أصبعي والحمد لله رب العالمين فسر المأمون بذلك وسلم عليه في ذلك الوقت بالخلافة

وقد كانت أم جعفر لا تعلق من الرشيد فشاور بعض مجالسيه من الحكماء وشكا ذلك اليه فاشار عليه بان يغيرها فان ابراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده سارة فلم تكن تعلق منه فلما وهبت له هاجر علقت منه باسماعيل فغارت سارة عند ذلك فعلقت باسحاق فاشترى الرشيد أم المأمون فاستخلاها فعلقت بالمأمون فغارت أم جعفر عند ذلك فعلقت بمحمد وقد قدمنا التنازع في ذلك أعني قصص ابراهيم واسماعيل واسحاق وقول من ذهب الى أن اسحاق هو المأمور بذبحه ومن قال بل اسماعيل وماذكر كل فريق منهم وقد تناظر في ذلك السلف والخلف فمن ذلك ما جرى بين عبد الله بن عباس وبين مولاه عكرمة وقد قال عكرمة من المأمور بذبحه فقال اسماعيل واحتج بقول الله عز وجل ومن وراء اسحاق يعقوب ألا ترى أنه بشر ابراهيم بولادة اسحاق فكيف يأمره بذبحه فقال له عكرمة أنا أوجدك ان الذبيح اسحاق من القرآن واحتج بقول الله عز وجل وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق فنعمته على ابراهيم أن نجاه من النار ونعمته على اسحاق أن فداه بالذبح

وكانت وفاة عكرمة مولى ابن العباس سنة خمس ومائة ويكنى أبا عبدالله ومات فى اليوم الذى مات فيه كثير عزة فقال الناس مات عظيم الفقهاء وكبير الشعراء وفيها كانت وفاة الشعبى

وذكر ابراهيم بن المهدى قال استأذنت على الامين يوما وقد اشتد الحصار عليه من كل وجه فأبوا أن يأذنوا لى بالدخول عليه الى أن كاثرت ودخلت فاذا هو قد تطلع الى دجلة بالشباك وكان فى وسط قصره بركة عظيمة لها مخترق الى الماء فى دجلة وفى المخترق شباك حديد فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والغلمان قد انتشروا الى تفتيش الماء وهو كالواله فقال لى وقد ثنيت بالسلام وكررت لا تؤذونى فقرطتى قد ذهبت فى البركة الى الدجلة والمقرطة سمكة كانت قد صيدت له وهى صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا در قال فخرجت وأنا مؤيس من فلاحه وقلت لو ارتدع من وقت لكان هذا الوقت وكان محمد فى نهاية الشدة والقوة والبطش والبهاء والجمال الا أنه كان عاجز الرأى ضعيف التدبير غير مفكر فى أمره

(وحكى) انه اصطبح يوما وقد كان خرج أصحاب اللبابيد والحراب على البغال وهم الذين كانوا يصطادون السباع الى سبع كان بلغهم خبره بناحية كوثى والقصر فاحتالوا فى السبع الى أن أتوا به فى قفص من خشب على جمل بختى فحط بباب القصر وأدخل فجعل فى صحن القصر والامين مصطبح فقال خلوا عنه وشيلوا باب القفص فقيل له يا أمير المؤمنين انه سبع هائل أسود وحش فقال خلوا عنه فشالوا باب القفص فخرج سبع أسود له شعر عظيم مثل الثور فزأر وضرب بذنبه الى الارض فتهارب الناس وغلقت الابواب فى وجهه وبقى الامين وحده جالسا موضعه غير مكترث بالاسد فقصده الاسد حتى دنا منه فضرب الامين بيده الى مرفقة ارمنية فامتنع منه بها ومد السبع يده اليه فجذبها الامين وقبض على أصل أذنيه وغمزه ثم هزه ودفع به الى خلف فوقع السبع ميتا على مؤخره وتبادر الناس الى الامين فاذا أصابعه ومفاصل يديه قد زالت عن مواضعها فأتى بجبير فرد عظام أصابعه الى مواضعها وجلس كأنه لم يعمل شيأ فشقوا بطن الاسد فاذا مرارته انشقت عن كبده

وحكى أن المنصور جلس ذات يوم ودخل اليه بنو هاشم من أهله فقال لهم وهو مستبشر أما علمتم أن محمدا المهدى ولد له البارحة ولد ذكر وقد سميناه موسى فلما سمع القوم ذلك وجموا وكأنما فقى فى وجوههم الرماد ولم يحيروا جوابا فنظر اليهم المنصور فقال لهم هذا موضع دعاء وتهنئة وأراكم قد سكتم ثم استرجع فقال كأنى بكم لما أخبرتكم بتسميتى اياه موسى اغتممتم به لان المولود المسمى بموسى بن محمد هو الذى على رأسه تختلف الكلمة وتنتهب الخزائن ويضطرب الملك ويقتل أبوه وهو المخلوع من الخلافة ليس هو ذاك ولا هذا زمانه والله ان جد هذا المولود يعنى هارون الرشيد

لم يولد بعد قال فدعوا الله وهنوه وهنوا المهدى وكان هذا موسى الهادى أخا الرشيد وكان العهد الذى كتبه الرشيد بين الامين والمأمون وأودعه الكعبة أن الغادر منهما خارج من الامر أيهما غدر بصاحبه والخلافة للمغدور به

(من كتاب مروج الذهب)

ذكر خلافة المعتصم

وبويع المعتصم فى اليوم الذى كانت فيه وفاة المأمون على عين البديدون وهو يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين واسمه محمد بن هارون ويكنى بأبى اسحاق وكان بينه وبين العباس بن المأمون فى ذلك الوقت تنازع فى المجلس ثم انقاد العباس الى بيعته والمعتصم يومئذ ابن ثمان وثلاثين سنة وشهرين وأمه أساحية اسمها مارية بنت شبيب وقيل انه بويع سنة تسع عشرة وتوفى بسر من رأى سنة سبع وعشرين وهو ابن ست وأربعين سنة وعشرة أشهر فكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر وقبره بالجوسق

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه

واستوزر المعتصم محمد بن عبد الملك الى آخر أيامه وغلب عليه ابن أبى دواد ولم يزل محمد بن عبد الملك فى أيام المعتصم والواثق الى أن ولى المتوكل وكان فى نفسه عليه شئ فقتله وكان المعتصم يحب العمارة ويقول ان فيها أمورا محمودة فاولها عمران الارض التى يحيى بها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش البهائم وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك اذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه وكان المعتصم ذا بأس وشدة فى قلبه فذكر أحمد بن أبى دواد وكان به انسا قال فلما أنكر المعتصم نفسه وقوته دخلت عليه يوما وعنده ابن ماسويه فقام المعتصم فقال لى لا تبرح حتى أخرج اليك فقلت ليحيى بن ماسويه ويحك انى أرى أمير المؤمنين قد حال لونه ونقصت قوته وذهبت سورته فكيف تراه أنت قال هو والله زبرة من زبر الحديد الا أن فى يده فاسا يضرب بها تلك الزبرة فقلت وكيف ذاك قال كان قبل ذلك اذا أكل السمك اتخذ له صباغا من الخل والكراويا والكمون والسداب والكرفس والخردل فأكله بذلك الصباغ فدفع أذى السمك واضراره بالعصب واذا أكل الرؤس اتخذت له أصباغ تدفع أذاها وتلطفها وكان فى أكثر أموره يلطف غذاءه ويكثر مشورتى فصار اليوم اذا أنكرت عليه شيأ خالفنى وقال أأكل هذا على رغم أنف ابن ماسويه قال وهو خلف الستر يسمع ما نحن فيه فقلت ويحك يا يحيى أدخل أصبعك فى عينيه

قال جعلت فداك ما أقدر أراده ولا أجترى عليه فى خلاف فلما فرغ من كلامه خرج علينا المعتصم فقال لى ما الذى كنت فيه مع ابن ماسويه قلت ناظرته يا أمير المؤمنين فى لونك الذى أراه حائلا وفى قلة طعامك الذى هد جوارحى وأنحل جسمى قال فما قال لك قلت شكا أنك كنت تقبل ما يشير به عليك وكنت ترى فى ذلك على ما يحب وانك الآن تخالفه قال فما قلت له أنت قال فجعلت أصرف الكلام قال فضحك وقال هذا بعد ما دخل فى عينى أو قبل ذلك قال فارفضضت عرقا وعلمت انه قد سمع ما كافيه ورأى ما قد داخلنى فقال يغفر لك يا أحمد لقد فرحت بما ظننت أنه أحزنك اذا سمعته وعلمت أنه نوع من أنواع الانبساط والبسط وكان المعتصم يأنس بعلى بن الجنيد الاسكافى وكان عجيب الصورة عجيب الحديث فيه سلامة أهل السواد فقال المعتصم يوما لمحمد بن حماد اذهب بالغداة الى على بن الجنيد فقل له يتهيأ حتى يزاملنى فأتاه فقال له ان أمير المؤمنين يأمرك أن تزامله فتهيأ للشروط من زمالة الخلفاء فقال على بن الجنيد وكيف أتهيأ أهى لى رأس غير رأسى أشترى لحية غير لحيتى أأزيد فى قامتى أناه تهيأ وفضله قال لست تدرى بعد ما شروط من زمالة الخلفاء ومعادلتهم فقال على بن الجنيد وماهى هات يا من تدرى قال له ابن حماد وكان أديبا ظريفا وكان برسم الحجاب شرط المعادلة الامتاع بالحديث والمذاكرة والمناولة وأن لا يبزق ولا يسعل ولا يتنحنح ولا يمخط وأن يتقدم الرئيس فى الركوب اشفاقا عليه من الميل وأن يتقدمه فى النزول فتى لم يفعل المعادل هذا كان سواء والمثقلة الرصاص التى تعدل بها القبة واحدا وليس له أن ينام وان نام الرئيس بل يأخذ نفسه بالتيقظ ومراعاة حال من هو معه وما هو راكبه لانهما اذا ناما جميعا فمال جانب لا يشعر بميله كان فى ذلك ما لا خفاء به وعلى ابن الجنيد ينظر اليه فلما أكثر عليه فى هذا الوصف والشروط قطع عليه كلامه وقال كما يقول أهل السواد آمخرها اذهب له فقل له ما ازاملك الامن أمه زانية وهو كشخان فرجع ابن حماد فقال للمعتصم ما قال فضحك المعتصم وقال جئنى به فجاءه فقال يا على أبعث اليك تزاملنى فلا تفعل فقال ان رسولك هذا الجاهل الازعر جاءنى بشروط حسان الشاشى وخالويه المحاكى فقال لا تبزق ولا تفعل كذا وافعل كذا وجعل يمخط فى كلامه ويترفع من صاداته ويشير بيديه ولا تسعل ولا تعطس وهذا لا يقوم لى ولا أقدر عليه فان رضيت أن أزاملك فان جاءنى الفساء فسوت عليك وضرطت واذا جاءك أنت فأده فافسو واضرط والافليس بينى وبينك عمل فضحك المعتصم حتى فحص برجليه وذهب به الضحك كل مذهب وقال نعم زاملنى على هذه الشريطة قال نعم وكرامة فزامله فى قبة على بغل فسارا ساعة وتوسطا البر فقال على يا أمير المؤمنين حضر ذلك المتاع فما ترى قال ذلك اليك اذا شئت قال تحضر ابن حماد فأمر المعتصم باحضاره فقال له على تعال حتى أسارك فلما دنا منه فسا وناوله كمه

وقال أجد بي بشئ في كمي فانظر ماهو فأدخل رأسه فشم رائحة الكنيف فقال ما أرى شيأ ولكني لم أعلم ان في جوف ثيابك كنيفا والمعتصم قد غطى فمه بكمه وقد ذهب به الضحك كل مذهب ثم جعل يفسو فساء متصلا ثم قال لابن حماد قلت لي لا تسعل ولا تبزق ولا تمخط فلم أفعل ولكني أخرا عليك قال فاتصل فساؤه والمعتصم يخرج رأسه من العمارية ثم قال للمعتصم قد نضجت القدر وأريد أخرى فقال المعتصم ورفع صوته حين كثر ذلك عليه ويلك يا غلام الارض الساعة أموت ودخل علي بن الجنيد الاسكافي يوما على المعتصم فقال له بعد أن ضاحكه وزهاه يا علي مالي لا أراك ويلك أنسيت الصحبة وما حفظت المودة فقال له حينئذ بالغ الكلام الذي أريد أن أقوله قلته أنت ما أنت الا ابليس فضحك ثم قال لا تحتشي قال آه كم أجيء فلا أصل أنت اليوم نبيل فكأنك من بني مارية وبنو مارية أناس من أهل السواد يضرب بهم أهل السواد الامثال لكبرهم في نفوسهم فقال له المعتصم هذا سندان التركي وأشار الى غلام على رأسه بيده مذبة وقال له يا سندان اذا حضر فأعلمني وان أعطاك رقعة فأوصلها الي وان حملك رسالة فأخبرني بها قال نعم يا سيدي وانصرف فأقام أياما ثم جاء يطلب سندان فقالوا هو نائم فانصرف ثم عاد فقالوا هو داخل ولا تصل اليه فانصرف وعاد فقالوا هو عند أمير المؤمنين فاحتال حتى دخل عند المعتصم من جهة أخرى فضاحكه ساعة وعاتبه وقال له يا علي ألك حاجة قال نعم يا أمير المؤمنين ان رأيت سندان التركي فاقرئه مني السلام فضحك وقال ما حاله قال حاله انك جعلت بيني وبينك انسانا ما رأيتك قبل ان أراه وقد اشتقت اليه فأسألك ان تبلغه مني السلام فغلب المعتصم الضحك وجمع بينه وبين سندان وأكد عليه في مراعاة أمره فكان لا يمنع منه وعبر المعتصم من سر من رأى من الجانب الغربي وذلك في يوم مطير وقد تبع ذلك ليلة مطيرة وانفرد من أصحابه واذا حمار قد زلق ورمى بما عليه من الشوك وهو الشوك الذي يوقد به التنانير بالعراق وصاحبه شيخ ضعيف واقف ينتظر انسانا يمر فيعينه على حمله فوقف عليه وقال مالك يا شيخ قال فديتك حماري وقع عنه هذا الحمل وقد بقيت أنظر انسانا يعينني على حمله فذهب المعتصم ليخرج الحمار من الطين فقال جعلت فداك تفسد ثيابك هذه وطيبك الذي أشمه من أجل حماري هذا قال لا عليك فنزل واحتمل الحمار بيد واحدة وأخرجه من الطين فبهت الشيخ وجعل ينظر اليه ويتعجب ويترك الشغل بحماره ثم شد عنان فرسه في وسطه وأهوى الى الشوك وهو حزمتان فحملهما فوضعهما على الحمار ثم دنا من غدير فغسل يديه واستوى على فرسه فقال الشيخ السوادي رضي الله عنك وقال بالنبطية اسعل فرمي باجوافنا وتفسير ذلك فديتك يا شاب وأقبلت الخيول فقال لبعض خاصته أعط هذا الشيخ أربعة آلاف درهم وكن معه حتى تجاوز به أصحاب المسالح وتبلغ به قريته وفي سنة تسع عشرة ومائتين

كانت وفاة أبي نعيم الفضل بن دكين مولى طلحة بن عبد الله بالكوفة وبشر بن غياث المريسي وعبد الله بن رجاء العراقي وفيها ضرب المعتصم احمد بن حنبل ثمانية وثلاثين سوطا ليقول بخلق القرآن وفي هذه السنة وهي سنة تسع عشرة ومائتين قبض محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وذلك لخمس خلون من ذي الحجة ودفن ببغداد في الجانب الغربي بمقابر قريش مع جده موسى بن جعفر وصلى عليه الواثق وقبض وهو ابن خمس وعشرين سنة وقبض أبوه علي بن موسى الرضا ومحمد ابن سبع سنين وثمانية أشهر وقيل غير ذلك وقيل ان أم الفضل بنت المأمون لما قدمت معه من المدينة الى المعتصم سمته وانما ذكرنا من أمره ما وصفنا لان أهل الامامة اختلفوا في مقدار سنه عند وفاة أبيه وفي سنة تسع عشرة ومائتين أخاف المعتصم محمد بن عبد القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمهم الله وكان بالكوفة من العبادة والزهد والورع ونهاية الوصف فلما خاف على نفسه هرب فصار الى خراسان فتنقل من مواضع كثيرة من كورها كمرو وسرخس والطالقان ونسا فكانت له هنالك حروب وكوائن وانقادا اليه والى امامته خلق كثير من الناس ثم حمله عبد الله بن طاهر الى المعتصم فحبسه في أزج اتخذه في بستان بسر من رأى وقد تنوزع في محمد بن القاسم فمن قائل يقول انه قتل بالسم ومنهم من يقول ان ناسا من شيعته من الطالقان أتوا ذلك البستان فتاقوا للخدمة فيه من غرس وزراعة واتخذوا سلالم من الحبال واللبود والطالقانية ونقبوا الازج وأخرجوه فذهبوا به فلم يعرف له خبر الى هذه الغاية وقد انقاد الى امامته خلق كثير من الزيدية الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ومنهم خلق كثير يزعمون أن محمدا لم يمت وأنه حي يرزق وأنه يخرج فيملأها عدلا كما ملئت جورا وأنه مهدي هذه الامة وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان وقول هؤلاء في محمد بن القاسم نحو قول رافضة الكيسانية في محمد بن الحنفية ونحو من قول الواقفية في موسى بن موسى بن جعفر وهم الممطورة بهذا تعرف هذه الطائفة من بين فرق الشيعة وكان المعتصم يحب جمع الاتراك وشراءهم من أيدي مواليهم فاجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزي عن سائر جنوده وقد كان اصطنع قوما من حوفي مصر من حوف اليمن وحوف قيس فسماهم المغاربة واستنقذ رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم من الاشروسنية فكثر جيشه وكانت الاتراك تؤذي العوام بمدينة السلام بجريها الخيول في الاسواق وماينال الضعفاء والصبيان من ذلك فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمته لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير فعزم المعتصم على النقلة منهم وأن ينزل في فضاء من الارض فنزل البردان على أربعة فراسخ من بغداد

فلم يستطب هواءها ولا اتسع له هواؤها فلم يزل ينتقل ويتقرى المواضع والاماكن الى دجلة وغيرها حتى انتهى الى الموضع المعروف بالقاطول فاستطاب الموضع وكان هنالك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول اخذا من دجلة فبنى هنالك قصرا وبنى الناس وانتقلوا عن مدينة السلام وخلت من السكان الا اليسير

ولما تأذى المعتصم بالموضع وتعذر البناء فيه خرج يتقرى المواضع فانتهى الى موضع سامرا وكان هنالك للنصارى دير عادى فسأل بعض أهل الدير عن اسم الموضع فقال يعرف بسامرا قال له المعتصم ومامعنى سامرا قال نجدها فى الكتب السالفة والامم الماضية انها مدينة سام بن نوح قال له المعتصم ومن أى بلاد هى وإلام تضاف قال من بلاد طيرهان واليها تضاف فنظر المعتصم الى فضاء واسع تسافر فيه الابصار وهواء طيب وأرض صحيحة فاستمرأها واستطاب هواءها وأقام هنالك ثلاثا يتصيد فى كل يوم فوجد نفسه تتوق الى الغذاء وتطلب الزيادة على العادة الجارية فعلم ان ذلك لتأثير الهواء والتربة فلما استطاب الموضع دعا بأهل الدير فاشترى منهم أرضهم بأربعة آلاف دينار وارتاد لبناء قصره موضعا فيها فأسس بنيانه وهو الموضع المعروف بالوزيرية بسر من رأى واليها يضاف التين الوزيرى وهو أعذب الاتيان وأرقها قشرا وأصغرها حبا لا يبلغه تين الشام ولا تين اهان وحلوان فارتفع البنيان وأحضر له الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الامصار ونقل اليها من سائر البقاع أنواع الغروس والاشجار وجعل للاتراك قطائع متحيزة وجاورهم بالفراعنة والاشروسنية وغيرهم من مدن خراسان على قدر قربهم منهم فى بلادهم وأقطع أشناس التركى وأصحابه من الاتراك الموضع المعروف بكرخ سامرا من الفراعنة من أنزلهم الموضع المعروف بالعمرى والجسر واختطت الخطط واقتطعت القطائع والشوارع والدروب وأفرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت الدور والقصور وكثرت العمارة واستنبطت المياه وجرت من دجلة وغيرها وتسامع الناس أن دار ملك قد اتخذت فقصدوها وجهزوا اليها من أنواع الامتعة وسائر ماينتفع به الناس وغيرهم من الحيوان وكثر العيش واتسع الرزق وشملهم الاحسان وعمهم العدل وكان بدء ماوصفنا فيها فعله المعتصم سنة احدى وعشرين ومائتين واشتد أمر بابك وسار عساكره نحو تلك الامصار فدق العساكر وكسر الجيوش فسير اليه المعتصم بالجيوش وعليها الافشين وكثرت حروبه واتصلت وضاق بابك فى بلاده حتى انفض جمعه وقتل رجاله وامتنع بالجبل المعروف بالبد من أرض الران وهى بلاد بابك وبه يعرف الى هذا الوقت فلما استشعر بابك نزل به وأشرف عليه هرب من موضعه وزال عن مكانه فتنكر هو وأخوه وولده وأهله ومن تبعه من خواصه وقد تزيا بزى السفر وأهل التجارة والقوافل فنزل موضعا من بلاد أرمينية

على بعض المياه وبالقرب منهم راعى غنم فابتاعوا منه شاة وساموا شراء شئ من الزاد لهم فمضى من فوره الى سهل بن سنباط فأخبره الخبر وقال هو بابك لا شك فيه وقد كان لافشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن جبله خشى أن يعتصم ببعض الجبال المنيعة أو يتحصن ببعض القلاع أو ينضاف الى بعض الامم القاطنة ببعض تلك الديار فيكثر جمعه وينضاف اليه فلال عسكره فيرجع الى ما كان من أمره فاخذ الطرق وكاتب البطارقة فى الحصون والمواضع من بلاد ارمينية واذربيجان والران والبيلقان وضمن فى ذلك الرغائب فلما سمع سهل بن سنباط من الراعى ما أخبره به سار من فوره فيمن حضر من عدده وأصحابه حتى أتى الموضع الذى به بابك فترجل له ودنا منه وسلم عليه بالملك وقال له أيها الملك قم الى قصرك الذى فيه وليك وموضع يمنعك فيه الله من عدوك فسار معه الى أن أتى قلعته وأجلسه على سريره ورفع منزلته ووطأ له منزله ومن معه وقدمت المائدة وقعد يأكل معه فقال له بابك بجهله وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع اليه أمثلك يأكل معى فقام سهل عن المائدة وقال أخطأت أيها الملك وأنت أحق من احتمل عبده اذ كانت منزلتى ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك وجاءه بحداد وقال له مد رجليك أيها الملك وأوقفه بالحديد فقال له بابك أغدرا يا سهل قال يا ابن الخبيثة انما أنت راعى غنم وبقر ما أنت والتدبير للملك ونظم السياسات وقيد من كان معه وأرسل الى الافشين يخبره الخبر وأن الرجل عنده فسرح اليه الافشين بأربعة آلاف فارس عليهم الحديد وعليهم خليفة يقال له بوماده فتسلمه ومن معه وأتى به الى الافشين ومعه ابن سنباط فرفع الافشين منزلة سهل وخلع عليه وحمله وتوجه وقاد بين يديه واسقط عنه الخراج فأطلقه وأطلقت الطيور الى المعتصم وكتب اليه بالفتح فلما وصل اليه ذلك ضج الناس بالتكبير وعمهم الفرح وأظهروا السرور وبثت الكتب الى الامصار بالفتح وقد كان أفنى عساكر السلطان فسار الافشين ببابك وتنقل بالعساكر حتى أتى سر من رأى وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين وتلقى الافشين هارون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة ونزل بالموضع المعروف بالقاطول على خمس فراسخ من سامرا وبعث اليه بالفيل الاشهب وكان قد حمله بعض ملوك الهند الى المأمون وكان فيلا عظيما قد جلل بالديباج الاحمر والاخضر وأنواع الحرير الملون ومعه ناقة عظيمة نجيبة قد جللت بما وصفنا وحمل الى الافشين دراعة من الديباج الاحمر منسوجة بالذهب قد رصع صدرها بأنواع الياقوت والجوهر ودراعة دونها وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بألوان مختلفة وقد نظم على القلنسوة كثير من اللؤلؤ والجوهر وألبس بابك الدراعة وألبس أخوه الاخرى وجعلت القلنسوة على رأس بابك وعلى رأس أخيه نحوها وقدم اليه الفيل والى أخيه الناقة فلما رأى صورة الفيل استعظمه وقال ما هذه الدابة العظيمة واستحسن الدراعة وقال هذه كرامة

ملك عظيم جليل الى أسير فقد العز ذليل أخطأته الاقدار و زالت عنه الجدود وتورطة المحن انه الفرحة تقتضى ترحه وضرب له المصاف صفين فى الخيل والرجل والسلاح والحديد والرايات والبنود من القاطول الى سامرا سددواحد متصل غير منفصل و بابك على الفيل وأخوه وراءه على الناقة والفيل يخطر بين الصفين به و بابك ينظر الى ذات اليمين وذات الشمال و يميز الرجال والعدد ويظهر الاسف والحنين على مافاته من سفك دمائهم غير مستعظم لما يرى من كثرتهم وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين ولم ير الناس مثل ذلك اليوم ولا مثل تلك الزينه ودخل الافشين على المعتصم فرفع منزلته وأعلى مكانه وأتى بابك فطوف بين يديه فقال له المعتصم أنت بابك فلم يجب وكررها عليه مرارا و بابك ساكت فمال اليه الافشين وقال الويل لك أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت فقال نعم أنا بابك فسجد المعتصم عند ذلك وأمر بقطع يديه ورجليه (من كتاب مروج الذهب)

ذكر خلافة المنتصر بالله

وبويع محمد بن جعفر المنتصر فى صبيحة الليلة التى قتل فيها المتوكل وهى ليلة الاربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين ويكنى بأبى جعفر وأمه أم ولد يقال لها حبشية رومية واستخلف وهو ابن خمس وعشرين سنة وكانت بيعته بالقصر المعروف بالجعفرى الذى أحدث بناءه المتوكل ومات سنة ثمان وأربعين ومائتين وكانت خلافته ستة أشهر

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه

كان الموضع الذى قتل فيه المتوكل هو الموضع الذى قتل فيه شيرويه أباه كسرى ابرويز وكان الموضع يعرف بالماخورة وكان مقام المنتصر بعد أبيه فى الماخورة سبعة أيام ثم انتقل عنه وأمر بتخريب ذلك الموضع وحكى عن أبى عباس محمد بن سهل قال كنت أكتب لعتاب بن عتاب على ديوان جيش الشاكرية فى خلافة المنتصر فدخلت الى بعض الاروقة فاذا هو مفروش ببساط سوسجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحمرة والزرقة وحول البساط دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية وكنت أحسن القراءة بالفارسية واذا عن يمين المصلى صورة ملك وعلى رأسه تاج كأنه ينطق فقرأت الكتابة فاذا هى صورة شيرويه القاتل لابيه ابرويز الملك ملك ستة أشهر ثم رأيت صور ملوك شتى ثم انتهى بى النظر الى صورة عن يسار المصلى عليها مكتوب صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ملك ستة أشهر فعجبت من ذلك واتفاقه عن يمين مقعد المنتصر وعن شماله فقلت لا أرى يدوم ملكه أكثر من ستة أشهر فكان والله كذلك فخرجت من الرواق

الى مجلس وصيف و بغا وهما فى الدار الثانية فقلت لوصيف أعجزهذا الفراش أن يفرش تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذى عليه صورة يزيد بن الوليد قاتل ابن عمه وصورة شيرويه قاتل أبيه ابرويز وعاشا ستة أشهر بعدما قتلا فجزع وصيف من ذلك وقال على بابوب بن سليمان النصرانى خازن الفرش فمثل بين يديه فقال له وصيف لم تجد ما يفرش فى هذا اليوم تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذى كان تحت المتوكل ليلة الحادثة وعليه صورة ملك الفرس وغيره وقد كان ناله آثار الدماء قال سألنى أمير المؤمنين المنتصر عنه وقال ما فعل البساط فقلت عليه آثار دماء فاحشة وقد عزمت أن لا أفرشه من ليلة الحادثة فقال لم لا تغسله وتطويه فقلت خشيت أن يشيع الخبر عند من يرى ذلك البساط من أثر الحادثة فقال ان الامر أشهر من ذلك يريد قتل الاتراك لابيه المتوكل فطويناه وبسطناه تحته فقال وصيف وبغا اذا قام أمير المؤمنين من مجلسه فخذه وأحرقه بالنار فلما قام حرق بحضرة وصيف وبغا فلما كان بعد أيام قال لى المنتصر افرش ذلك البساط الفلانى فقلت وأين ذلك البساط فقال وما الذى كان من أمره فقلت ان وصيفا وبغا أمرانى باحرافه قال فسكت ولم يعد فى أمره شيأ الى أن مات (من كتاب مروج الذهب)

ذكر خلافة الحاكم بأمر الله

الحاكم بأمر الله أبو على منصور بن العزيز نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد ولد بالقصر من القاهرة المعزية ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الاول سنة خمس وسبعين وثلثمائة فى الساعة التاسعة والطالع من برج السرطان سبع وعشرون درجة وسلم عليه بالخلافة فى مدينة بلبيس بعد الظهر من يوم الثلاثاء ثامن عشر من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة وسار الى القاهرة فى يوم الاربعاء بسائر أهل الدولة والعزيز فى قبة على ناقة بين يديه وعلى الحاكم دراعة مصمت وعمامة فيها الجوهر وبيده رمح وقد تقلد السيف ولم يفقد من جميع ما كان مع العساكر شئ ودخل القصر قبل صلاة المغرب وأخذ فى جهاز أبيه العزيز بالله ودفنه ثم بكر سائر أهل الدولة الى القصر يوم الخميس وقد نصب للحاكم سرير من ذهب عليه مرتبة مذهبة فى الايوان الكبير وخرج من قصره راكبا وعليه معممة الجوهر والناس وقوف فى صحن الايوان فقبلوا له الارض ومشوا بين يديه حتى جلس على السرير فوقف من رسمه الوقوف وجلس من له عادة ان يجلس وسلم الجميع عليه بالامامة واللقب الذى اختير له وهو الحاكم بأمر الله وكان سنه يومئذ احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام

فجعل أبا محمد الحسن بن عمار الكتامى واسطة ولقبه بأمين الدولة وأسقط مكوسا كانت بالساحل ورد الى الحسين بن جوهر القائد البريد والانشاء فكان يخلفه ابن سورين وأقر عيسى بن نسطورس

على ديوان الخاص وقلد سليمان بن جعفر بن فلاح الشام فخرج بجوتكين بدمشق وسار منها لمدافعة سليمان بن جعفر بن فلاح فبلغ الرملة وانضم اليه ابن الجراح الطائى فى كثير من العرب وواقع ابن فلاح فانهزم وفر ثم أسر وحمل الى القاهرة فاكرم واختلف أهل الدولة على ابن عمار ووقعت حروب آلت الى صرفه عن الوساطة وله فى النظر أحد عشر شهرا غير خمسة أيام فلزم داره وأطلقت له رسوم وجرايات وأقيم الطواشى برجوان الصقلبى مكانه فى الوساطة لثلاث بقين من رمضان سنة سبع وثمانين وثلثمائة فجعل كاتبه فهد بن ابراهيم يوقع عنه ولقبه بالرئيس وصرف سليمان بن فلاح عن الشام بجيش بن الصمصامة وقلد فحل بن اسماعيل الكتامى مدينة صور وقلد يانس الخادم برقة وميسورا الخادم طرابلس ويمنا الخادم غزة وعسقلان فواقع جيش الروم على فامية وقتل منهم خمسة آلاف رجل وغزا الى أن دخل مرعش وقلد وظيفة قضاء القضاة أبا عبد الله الحسين بن على بن النعمان فى صفر سنة تسع وثمانين بعد موت قاضى القضاة محمد ابن النعمان وقتل الاستاذ برجوان لاربع بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وثلثمائة وله فى النظر سنتان وثمانية أشهر غير يوم واحد

ورد النظر فى أمور الناس وتدبير المملكة والتوقيعات الى الحسين بن جوهر ولقب بقائد القواد فخلفه الرئيس فهد واتخذ الحاكم مجلسا فى الليل يحضر فيه عدة من أعيان الدولة ثم أبطله ومات جيش بن الصمصامة فى ربيع الآخر سنة تسعين وثلثمائة فوصل ابنه بتركته الى القاهرة ومعه درج بخط أبيه فيه وصية وثبت بما خلفه مفصلا وان ذلك جميعه لامير المؤمنين الحاكم بامر الله لايستحق أحد من أولاده منه درهما وكان مبلغ ذلك جميعه نحو المائتين ألف دينار ومابين عين ومتاع ودواب قد أوقف جميع ذلك تحت القصر فأخذ الحاكم الدرج ونظره ثم أعاده الى أولاد جيش وخلع عليهم وقال لهم بحضرة وجوه الدولة قد وقفت على وصية أبيكم رحمه الله وما أوصى به من عين ومتاع فخذوه هنيأ مباركا لكم فيه فانصرفوا بجميع التركة

ومنع الناس كافة من مخاطبته أحد ومكاتبته بسيدنا ومولانا الا أمير المؤمنين وحده وأبيح دم من خالف ذلك وفى شوال قتل ابن عمار وفى سنة احدى وتسعين واصل الحاكم الركوب فى الليل كل ليلة وكان يشق الشوارع والازقة وبالغ الناس فى الوقيد والزينة وأنفقوا الاموال الكثيرة على المآكل والمشارب والغناء واللهو وكثر تفرجهم على ذلك حتى خرجوا فيه عن الحد فمنع النساء من الخروج فى الليل ثم منع الرجال من الجلوس فى الحوانيت

وفى سنة خمس وتسعين أمر النصارى واليهود بشد الزنانير ولبس الغيار ومنع الناس من أكل الملوخيا والجرجير والمتوكلية والدلينس وذبح الابقار السليمة من العاهة الا فى أيام الاضحية

ومنع من بيع الفقاع وعمله البتة وأن لا يدخل أحد الحمام الا بمئزر وأن لا تكشف امرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج ولا يباع شيء من السمك بغير قشر ولا يصطاده أحد من الصيادين وتتبع الناس في ذلك كله وتشدد فيه وضرب جماعة بسبب مخالفتهم ما أمروا به ونهوا عنه مما ذكر وخرجت العساكر لقتال بني قرة من أهل البحيرة وكتب على أبواب المساجد وعلى الجامع بمصر وعلى أبواب الحوانيت والحجر والمقابر بسب السلف ولعنهم وأكره الناس على نقش ذلك وكتابته بالاصباغ في سائر المواضع وأقبل الناس من سائر المواضع فدخلوا في الدعوة وجعل لهم يومان في الاسبوع وكثر الازدحام على ذلك ومات فيه جماعة

ومنع الناس من الخروج بعد المغرب في الطرقات وأن لا يظهر أحد بها لبيع ولا شراء فخلت الطرق من المارة وكسرت أواني الخمور وأريقت من سائر الاماكن واشتد خوف الناس بأسرهم وقويت الشناعات وزاد الاضطراب فاجتمع كثير من الكتاب وغيرهم تحت القصر وضجوا يسألون العفو فكتبت عدة أمانات لجميع الطوائف من أهل الدولة وغيرهم من الباعة والرعية وأمر بقتل الكلاب فقتل منها ما لا يحصى حتى فقدت وفتحت دار الحكمة بمصر وحمل اليها الكتب ودخل اليها الناس واشتد الطلب على الركابية المستخدمين في الركاب وقتل منهم كثيرا ثم عفا عنهم وكتب لهم أمانات ومنع الناس كافة من الدخول من باب القاهرة وهم ركاب ومنع المكارين أن يدخلوا بحميرهم الى القاهرة ومنع الناس من المشي ملاصق القصر وقتل قاضي القضاة حسين بن النعمان وأحرق بالنار وقتل عدد من الناس كثير ضربت أعناقهم

وفي سنة ست وتسعين خرج أبو ركوة يدعو الى نفسه وادعى أنه من بني أمية فقام بأمره بنو قرة لكثرة ما أوقع بهم الحاكم وبايعوه واستجاب له لواته ومزاته وزناته وأخذ برقة وهزم جيوش الحاكم غير مرة وغنم ما معهم فخرج لقتاله القائد فضل بن صالح في ربيع الاول وواقعه فانهزم منه فضل واشتد الاضطراب بمصر وتزايدت الاسعار واشتد الاستعداد لمحاربة أبي ركوة ونزلت العساكر بالجيزة وسار أبو ركوة فواقعه القائد فضل وقتل عدة ممن معه فعظم الامر واشتد الخوف وخرج الناس فباتوا في الشوارع خوفا من هجوم عساكر أبي ركوة واستمرت الحروب فانهزم أبو ركوة في ثالث ذي الحجة على الفيوم وتبعه القائد فضل بعد أن بعث الى القاهرة ستة آلاف رأس ومائة أسير الى أن قبض عليه في بلاد النوبة وأحضر الى القاهرة فقتل بها وخلع على القائد فضل وسيرت البشائر بقتله في الاعمال

وفي سنة سبع وتسعين وثلثمائة أمر بمحو سب السلف فمحي سائر ما كتب من ذلك وغلت الاسعار لنقص النيل فانه بلغ ستة عشر أصبعا من سبعة عشر ذراعا ثم نقص ومات بنحو تكين في ذي الحجة

واشتد الغلاء فى ثمان وتسعين وولى على بن فلاح دمشق وقبض جميع ماهو محبس على الكنائس وجعل فى الديوان وأحرق عدة صلبان على باب الجامع بمصر وكتب الى سائر الاعمال بذلك وفى سادس عشر رجب قرر مالك بن سعيد الفارقى فى وظيفة قضاء القضاة وتسلم كتب الدعوة التى تقرأ بالقصر على الاولياء وصرف عبد العزيز بن النعمان عن ذلك

وتوقفت زيادة النيل واستسقى الناس مرتين وأمر بابطال عدة مكوس وتعذر وجود الخبز لغلائه وقلته وفتح الخليج فى رابع توت والماء على خمسة عشر ذراعا فاشتد الغلاء وفى تاسع محرم وهو نصف توت نقص ماء النيل ولم يوف ستة عشر ذراعا فمنع الناس كافة من التظاهر بالغناء ومن ركوب البحر للتفرج ومنع من بيع المسكرات ومنع كافة من الخروج قبل الفجر وبعد العشاء الى الطرقات واشتد الامر على الكافة لشدة ماداخلهم من الخوف مع شدة الغلاء وتزايد الامراض فى الناس والموت

وتزايدت الامراض وكثر الموت وعزت الادوية وأعيدت المكوس التى رفعت وهدمت كنائس كانت بطريق المقس وهدمت كنيسة بحارة الروم من القاهرة ونهب مافيها وقتل كثير من الخدام والكتاب والصقالبة بعد ماقطعت أيدى بعضهم من الكتاب بالساطور على خشبة من وسط الذراع وقتل القائد فضل بن صالح فى ذى القعدة وفى حادى عشر صفر صرف صالح بن على الروذبارى وقرر مكانه ابن عبدون النصرانى الكاتب ولقب بالكافى فوقع عن الحاكم ونظر وكتب بهدم كنيسة القمامة وجدد ديوانا يقال له الديوان المفرد برسم من يقبض ماله من المقتولين وغيرهم وكثرت الامراض وعزت الادوية وشهر جماعة وجد عندهم فقاع وملوخيا ودلنيس وترمس وضربوا وهدم دير القصر واشتد الامر على النصارى واليهود فى الزامهم لبس الغيار وكتب بابطال أخذ الخمس والنجاوى والفطرة وفر الحسين بن جوهر وأولاده وعبد العزيز بن النعمان وفر أبو القاسم الحسين بن المغربى وكتبت عدة أمانات لعدة طوائف من شدة خوفهم وقطعت قراءة مجالس الحكمة بالقصر ووقع التشديد فى المنع من المسكرات وقتل كثير من الكتاب والخدام والفراشين وقتل صالح بن على الروذبارى فى شوال

وفى رابع المحرم سنة احدى واربعمائة صرف الكافى بن عبدون عن النظر والتوقيع وقرر بدله أحمد بن محمد القشورى الكاتب فى الوساطة والسفارة وحضر حسين بن جوهر وعبد العزيز ابن النعمان الى القاهرة فأكرم ثم صرف ابن القشورى بعد عشرة أيام من استقراره وضرب عنقه وقرر بدله زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصرانى ولقب بالشافى ومنع الناس من ركوب المراكب فى الخليج وسدت أبواب الدور التى على الخليج والطاقات وأضيف الى قاضى القضاة

مالك بن سعيد النظر فى المظالم وأعيدت مجالس الحكمة وأخذ مال النحوى وقتل ابن عبدون وقبض ماله وضرب جماعة وشهروا من أجل بيعهم الملوخيا والسمك الذى لاقشر له وبسبب بيع النبيذ وقتل الحسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان فى جمادى الآخرة فى سنة احدى واربعمائة وأحيط بأموالهما وأبطلت عدة مكوس ومنع الناس من الغناء واللهو ومن بيع المغنيات ومن الاجتماع بالصحراء وفى هذه السنة خلع حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح طاعة الحاكم وأقام أبا الفتوح حسين بن جعفر الحسنى أمير مكة خليفة وبايعوه ودعا الناس الى مبايعته وقاتل عساكر الحاكم

وفى سنة اثنتين واربعمائة منع من بيع الزبيب وكتب بالمنع من حمله وألقى فى بحر النيل منه شئ كثير وأحرق منه كثير ومنع النساء من زيارة القبور فلم ير فى الاعياد بالمقابر امرأة واحدة ومنع من الاجتماع على شاطئ النيل للتفرج من بيع العنب الا أربعة أرطال فادونها ومنع من عصيره وطرح كثير منه وديس فى الطرقات وغرق كثير منه فى النيل ومنع من حمله وقطعت كروم الجيزة كلها وسير الى الجهات بذلك

وفى سنة ثلاث واربعمائة غلا السعر وازدحم الناس على الخبز وفى ثانى ربيع الاول منها هلك عيسى بن نسطورس فأمر النصارى بلبس السواد وتعليق الصلبان الخشب فى أعناقهم وأن يكون الصليب ذراعا فى مثلها وزنته خمسة أرطال وأن يكون مكشوفا بحيث يراه الناس ومنعوا من ركوب الخيل وأن يكون ركوبهم البغال والحمير بالسروج الخشب والسيور السود بغير حلية وان يشدوا الزنانير ولا يستخدموا مسلما ولا يشتروا عبدا ولا أمة وتتبعت آثارهم فى ذلك فاسلم منهم عدة وقرر حسين بن طاهر الوزان فى الوساطة والتوقيع عن الحاكم فى تاسع وعشرى ربيع الاول منها ولقب بأمين الامناء ونقش الحاكم على خاتمه بنصر الله العظيم العالى ينتصر الامام أبو على وضرب جماعة بسبب اللعب بالشطرنج وهدمت الكنائس وأخذ جميع ما فيها وما لها من الرباع وكتب بذلك الى الاعمال فهدمت بها وفيها لحق أبو الفتوح بمكة ودعا للحاكم وضرب السكة باسمه وأمر الحاكم أن لا يقبل أحد له الارض ولا يقبل ركابه ولا يده عند السلام عليه فى المواكب فان الانحناء الى الارض لمخلوق من صنيع الروم وان لا يزاد على قولهم السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ولا يصلى عليه أحد فى مكاتبته ولا مخاطبته ويقتصر فى مكاتبته على سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين ويدعى له بما يتفق من الدعاء فقط لاغير فلم يقل الخطباء يوم الجمعة سوى اللهم صلى على محمد المصطفى وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى اللهم وسلم على أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك ومنع من ضرب الطبول والابواق حول القصر فصاروا يطوفون بغير طبل ولا بوق وكثرت انعامات الحاكم فتوقف أمين الامناء حسين بن طاهر الوزان فى امضائها فكتب اليه الحاكم بخطه بعد البسملة

الحمد لله كما هو أهله

أصبحت لا أرجو ولا اتقى * الا الهى وله الفضل
جدى نبىّ وامامى أبى * ودينى الاخلاص والعدل

المال مال الله والخلق عباد الله ونحن امناؤه فى الارض اطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام
وركب الحاكم فى يوم عيد الفطر الى المصلى بغير زينة ولا جنائب ولا أبهة سوى عشرة أفراس تقاد بسروج ولجم محلاة بفضة خفيفة وبنود ساذجة ومظلة بيضاء بغير ذهب وعليه بياض بغير طراز ولا ذهب ولا جوهر فى عمامته ولم يفرش المنبر ومنع الناس من سب السلف وضرب فى ذلك وشهر وصلى صلاة عيد الفطر كما صلى صلاة الفطر من غير أبهة ونحر عنه عبد الرحيم بن الياس بن أحمد المهلبى وأكثر الحاكم من الركوب الى الصحراء بحذاء فى رجليه وفوطة على رأسه

وفى سنة أربع وأربعمائة ألزم اليهود أن يكون فى أعناقهم جرس اذا دخلوا الى الحمام وأن يكون فى عنق النصارى صلبان ومنع الناس من الكلام فى النجوم وأفنى المنجمون من الطرقات وطلبوا فتغيبوا ونفوا وكثرت هبات الحاكم وصدقاته وعتقه وأمر اليهود والنصارى بالخروج من مصر الى بلاد الروم وغيرها وأقيم عبد الرحيم بن الياس ولى العهد وأمر ان يقال فى السلام عليه السلام على ابن عم أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين وصار يجلس بمكان فى القصر وصار الحاكم يركب بدراعة صوف بيضاء ويتعمم بفوطة وفى رجليه حذاء عربى بقبالين وعبد الرحيم يتولى النظر فى أمور الدولة كلها وأفرط الحاكم فى العطاء ورد ما كان أخذ من الضياع والاملاك لاربابها

وفى ربيع الأول أمر بقطع يدى أبى القاسم الجرجرانى وكان يكتب للقائد عين ثم قطعت يد عين فصار مقطوع اليدين وبعث اليه الحاكم بعد قطع يديه بآلاف من الذهب والثياب ثم بعد ذلك أمر بقطع لسانه فقطع وأبطل عدة مكوس وقتل الكلاب كلها وأكثر من الركوب فى الليل ومنع النساء من المشى فى الطرقات فلم تر امرأة فى طريق البتة وأغلقت حماماتهن ومنع الاساكفة من عمل خفافهن وتعطلت حوانيتهم واشتدت الاشاعة بوقوع السيف فى الناس فتهاربوا وغلقت الاسواق فلم يبع شئ ودعى لعبد الرحيم بن الياس على المنابر وضربت السكة باسمه بولاية العهد
وفى سنة خمس وأربعمائة قتل مالك بن سعيد الفارقى فى ربيع الآخر وكانت مدة نظره فى قضاء القضاة ست سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام وبلغ اقطاعه فى السنة خمسة عشر آلاف دينار وتزايد ركوب الحاكم حتى كان يركب فى كل يوم عدة مرار واشترى الحمير وركبها بدل الخيل وفى جمادى الآخرة منها قتل الحسين بن طاهر الوزان فكانت مدة نظره فى الوساطة سنتين وشهرين وعشرين يوما فأمر أصحاب الدواوين بلزوم دواوينهم وصار الحاكم يركب حمارا بشاشية مكشوفة بغير عمامة

ثم أقام عبد الرحيم بن أبى السيد الكاتب وأخاه أبا عبد الله الحسين فى الوساطة والسفارة وأقر فى وظيفة قضاء القضاة أحمد بن محمد بن أبى العوام وخرج الحاكم عن الحد فى العطاء حتى أقطع نواتية المراكب والمشاعلية وبنى قرة فما أقطع الاسكندرية والبحيرة ونواحيها ثم قتل ابنى أبى السيد وكانت مدة نظرهما اثنين وستين يوما وقلد الوساطة فضل بن جعفر بن الضرات ثم قتله فى اليوم الخامس من ولايته وغلب بنو قرة على الاسكندرية وأعمالها وأكثر الحاكم من الركوب فى يوم ست مرات مرة على فرس ومرة على حمار ومرة فى محفة تحمل على الاعناق ومرة فى عشارى على النيل بغير عمامة وأكثر من اقطاع الجند والعبيد الاقطاعات وأقام ذا الرئاستين قطب الدولة أبا الحسن على بن جعفر بن فلاح فى الوساطة والسفارة وولى عبد الرحيم بن الياس دمشق فسار اليها فى جمادى الآخرة سنة تسع وأربعمائة فأقام فيها شهرين ثم هجم عليه قوم فقتلوا جماعة ممن عنده وأخذوه فى صندوق وحملوه الى مصر ثم أعيد الى دمشق فأقام بها الى ليلة عيد الفطر وأخرج منها

ولما كان الليلتين بقيتا من شوال سنة احدى عشرة وار بعمائة فقد الحاكم وقيل ان أخته قتلته وليس بصحيح وكان عمره ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر وكانت مدة خلافته خمسا وعشرين سنة وشهرا وكان جوادا سفاكا قتل عددا لا يحصون وكانت سيرته من أعجب السير وخطب له على منابر مصر والشام وأفريقية والحجاز وكان يشتغل بعلوم الاوائل ويتطرق فى النجوم وعمل رصدا واتخذ بيتا فى المقطم ينقطع فيه عن الناس لذلك ويقال انه كان يعتريه جفاف فى دماغه فلذلك كثر تناقضه وما أحسن ما قال فيه بعضهم كانت أفعاله لا تعلل ووساوسه لا تؤول

وقال المسبحى فى محرم سنة خمس عشرة وار بعمائة قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الاعلى فأقر أنه قتل الحاكم بأمر الله فى جملة أربعة أنفس تفرقوا فى البلاد وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التى كانت عليه فقيل له قتلته فأخرج سكينا ضرب بها فؤاده وقتل نفسه وقال هكذا قتلته وقطع رأسه وأنفذ به الى الحضرة مع ما وجد معه وهذا هو الصحيح فى خبر قتل الحاكم لا ما يحكيه المشارقة فى كتبهم من أن أخته قتلته والله أعلم

(من كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى)

ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها

فى هذه السنة سلخ ربيع الاول ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب دمشق وحمص وحماة وسببه أن شمس الدين بن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعى الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الى حلب ليكون مقامه بها فسار الملك الصالح الى حلب مع سعد الدين كمشتكين

ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين بن الداية واخوته وقبض على الرئيس ابن الخشاب واخوته وهو رئيس حلب واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح نخافه ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق فكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليملكوه عليهم فسار جريدة فى سبع مائة فارس ولم يلبث ووصل الى دمشق نخرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه ونزل بدار والده أيوب المعروفة بدار العقيقى وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستماله فسلم القلعة اليه فصعد اليهم صلاح الدين وأخذ مافيها من الاموال ولما ثبت قدمه وقرر أمر دمشق استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب وسار الى حمص مستهل جمادى الاولى

وكانت حمص وحماة وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة فى اقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفرانى فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين مسعودا المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فان قلاعها فيها ولاة لنور الدين وليس لفخر الدين معهم فى القلاع حكم الا بارين فان قلعتها كانت له أيضا ونزل صلاح الدين على حمص فى حادى عشر جمادى الاولى وملك المدينة وعصت عليه القلعة فنزل عليها من يضيق عليها ورحل الى حماة فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة وكان بقلعتها الامير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع فى القلعة فذكر له صلاح الدين انه ليس له غرض الا حفظ بلاد الملك الصالح عليه وانما هو نائبه وقصده من جرديك المسير الى حلب فى رسالة فاستحلفه جرديك على ذلك وسار جرديك الى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف فى قلعة حماة أخاه فلما وصل جرديك الى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة الى صلاح الدين فملكها

ثم سار صلاح الدين الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح فجمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب وأرسل سعد الدين كمشتكين الى سنان مقدم الاسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فارسل سنان جماعة ووثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه واستمر صلاح الدين محاصرا لحلب الى مستهل رجب ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص وساروا الى حمص فرحل الفرنج عنها ووصل صلاح الدين الى حمص وحصر قلعتها وملكها فى الحادى والعشرين من شعبان من السنة ثم سار الى بعلبك فملكها

ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح الى ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود زنكى وجعل مقدم الجيش أكبر أمرائه وهو عز الدين محمود ولقبه سلفنداز وطلب أخاه الاكبر

عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار يسير في النجدة أيضا فامتنع مضايعة لصلاح الدين فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلغندار الى حلب وانضم اليهم عسكر حلب وسار الى صلاح الدين فارسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة وأن يقر بيده دمشق ويكون فيها نائبا للملك الصالح فلم يجيبوا الى ذلك وساروا الى قتاله واقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم في حلب وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام وللملك الصالح ما بقي بيده منه فصالحهم على ذلك ورحل عن حلب في العشر الاول من شوال من هذه السنة وفي العشر الاخير من شوال ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني وكان فخر الدين المذكور من أكابر الامراء النورية

ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة وفيها عاشر شوال كان المصافة بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بتل السلطان فهرب سيف الدين غازي والعساكر التي كانت معه فانه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما وتمت على سيف الدين غازي الهزيمة حتى وصل الى الموصل مرعوبا وقصد الهروب منها الى بعض القلاع فثبته وزيره وأقام بالموصل واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم وغنم ما فيها ثم سار الى بزاعة وحصرها وتسلمها ثم سار الى منبج فحصرها في آخر شوال وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي شديد البغض لصلاح الدين وفتحها عنوة وأسر ينال وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه فسار ينال الى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة

ثم سار السلطان صلاح الدين الى عزاز ونازلها ثالث ذى القعدة وتسلمها حادى عشر ذى الحجة فوثب اسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضربه بسكين في رأسه فجرحه فأمسك صلاح الدين الاسماعيلي وبقي يضربه بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الاسماعيلي على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتل وثالث فقتل أيضا ونجا السلطان الى خيمته مذعورا وأعرض جنده وأبعد من أنكره منهم ولما ملك السلطان عزاز رحل عنها ونازل حلب في منتصف ذى الحجة وحصرها وبها الملك الصالح وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب فسألوه في الصلح فأجابهم اليه

وأخرجوا اليه بنتا صغيرة لنور الدين فأكرمها وأعطاها شيأ كثيرا وقال لها ما تؤمين فقالت أريد قلعة عزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها السلطان اليهم واستقر الصلح ورحل السلطان من حلب في العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين

(من كتاب التاريخ لأبي الفداء المعروف بصاحب حماة)

الباب الثامن في التراجم

أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور وقيل هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار والله أعلم

(٣٠٣ - ٣٥٤ هجريه)

هو من أهل الكوفة وقدم الشام في صباه وجال في أقطاره واشتغل بفنون الادب ومهر فيها وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها ولا يسأل عن شيء الا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر حتى قيل ان الشيخ أبا علي الفارسي صاحب الايضاح والتكملة قال له يوما كم لنا من الجموع على وزن فعلى فقال المتنبي في الحال حجلى وظربى قال الشيخ أبو علي فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا فلم أجد وحسبك من يقول في حقه أبو علي هذه المقالة وحجلى جمع حجل وهو الطائر الذي يسمى القبج والظربى جمع ظربان على مثال قطران وهي دويبة منتنة الرائحة وأما شعره فهو في النهاية ولا حاجة الى ذكر شيء منه لشهرته لكن الشيخ تاج الدين الكندي رحمه الله كان يروي له بيتين لا يوجدان في ديوانه وكانت روايته لهما بالاسناد الصحيح المتصل به فأحببت ذكرهما لغرابتهما وهما

أبعين مفتقر اليك نظرتني * فأهنتني وقذفتني من حالق
لست الملوم أنا الملوم لأنني * أنزلت آمالي بغير الخالق

ولما كان بمصر مرض وكان له صديق يغشاه في علته فلما أبل (١) انقطع عنه فكتب اليه وصلتني وصلك الله معتلا وقطعتني مبلا فان رأيت ان لا تحبب العلة الي ولا تكدر الصحة علي فعلت ان شاء الله تعالى والناس في شعره على طبقات فنهم من يرجحه على أبي تمام ومن بعده ومنهم من يرجح أبا تمام عليه وقال أبو العباس أحمد بن محمد النامي الشاعر كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي وكنت أشتهي أن أكون قد سبقته الى معنيين قالهما ما سبق اليهما أحدهما قوله

رماني الدهر بالارزاء حتى * فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا أصابتني سهام * تكسرت النصال على النصال

والآخر قوله في جحفل ستر العيون غباره * فكأنما يبصرن بالآذان

---

(١) ابل أي برئ من مرضه وحسنت حاله بعد الهزال كما يؤخذ من الصحاح والقاموس

واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه وقال لى أحد المشايخ الذين أخذت عنهم وقفت له على أكثر من أربعين شرحاما بين مطولات ومختصرات ولم يفعل هذا بديوان غيره ولا شك انه كان رجلا مسعودا ورزق فى شعره السعادة التامة وانما قيل له المتنبى لانه ادعى النبوة فى بادية السماوة وتبعه خلق كثير من بنى كلب وغيرهم فخرج اليه لؤلؤ أمير حمص نائب الاخشيدية فاسره وتفرق أصحابه وحبسه طويلا ثم استتابه وأطلقه وقيل غير ذلك وهذا أصح وقيل انه قال أنا أول من تنبأ بالشعر ثم التحق بالامير سيف الدولة ابن حمدان فى سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ثم فارقه ودخل مصر سنة ست وأربعين وثلثمائة ومدح كافور الاخشيدى وأنوجور بن الاخشيد وكان يقف بين يدى كافور وفى رجليه خفان وفى وسطه سيف ومنطقة ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق ولما لم يرضه هجاه وفارقه ليلة عيد النحر سنة خمسين وثلثمائة ووجه كافور خلفه رواحل الى جهات شتى فلم يلحق وكان كافور وعده بولاية بعض أعماله فلما رأى تعاليه فى شعره وسموه بنفسه خافه وعوتب فيه فقال ياقوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة مع كافور فحسبكم قال أبو الفتح بن جنى النحوى كنت قرأت ديوان أبى الطيب المتنبى عليه فقرأت عليه قوله فى كافور القصيدة التى أولها

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب * وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

حتى بلغت الى قوله

ألا ليت شعرى هل أقول قصيدة * ولا أشتكى فيها ولا أتعتب

وبى ما يذود الشعر عنى أقله * ولكن قلبى يا ابنة القوم قلب

فقلت له يعز على كيف يكون هذا الشعر فى ممدوح غير سيف الدولة فقال حذرناه وأنذرناه فما نفع ألست القائل فيه

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك * ولا تعطين الناس ما أنا قائل

فهو الذى أعطانى كافورا بسوء تدبيره وقلة تمييزه وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء كل ليلة فيتكلمون بحضرته فوقع بين المتنبى وبين ابن خالويه النحوى كلام فوثب ابن خالويه على المتنبى فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه وخرج ودمه يسيل على ثيابه فغضب وخرج الى مصر وامتدح كافورا ثم رحل عنه وقصد بلاد فارس ومدح عضد الدولة بن بويه الديلى فأجزل جائزته ولما رجع من عنده قاصدا بغداد ثم الى الكوفة فى شعبان لثمان خلون منه عرض له فاتك بن أبى الجهل الاسدى فى عدة من أصحابه وكان مع المتنبى أيضا جماعة من أصحابه فقاتلوهم فقتل المتنبى وابنه محسد وغلامه مفلح بالقرب من النعمانية فى موضع يقال له الصافية وقيل جبال الصافية

من الجانب الغربى من سواد بغداد عند دير العاقول بينهما مسافة ميلين وذكر ابن رشيق فى كتاب العمدة فى باب منافع الشعر ومضاره أن أبا الطيب لما فر حين رأى الغلبة قال له غلامه لا يتحدث الناس عنك بالفرار أبدا وأنت القائل

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى * والحرب والضرب والقرطاس والقلم

فكر راجعا حتى قتل وكان سبب قتله هذا البيت وذلك يوم الاربعاء لست بقين وقيل لثلاث بقين وقيل لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلثمائة وقيل ان قتله كان يوم الاثنين لثمان بقين من شهر رمضان وقيل لخمس بقين من شهر رمضان من السنة المذكورة ومولده فى سنة ثلاث وثلثمائة بالكوفة فى محلة تسمى كندة فنسب اليها وليس هو من كندة التى هى قبيلة بل هو جعفى القبيلة بضم الجيم وسكون العين المهملة وبعدها فاء وهو جعفى بن سعد العشيرة بن مذحج واسمه مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان وانما قيل له سعد العشيرة لانه كان يركب فيما قيل فى ثلثمائة من ولده وولد ولده فاذا قيل له من هؤلاء قال عشيرتى مخافة العين عليهم ويقال ان أبا المتنبى كان سقاء بالكوفة ثم انتقل الى الشام بولده ونشأ ولده بالشأم والى هذا أشار بعض الشعراء فى هجو المتنبى حيث قال

أى فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا
عاش حينا يبيع فى الكوفة الما * ء وحينا يبيع ماء المحيا

ولما قتل المتنبى رثاه أبو القاسم مظفر بن على الطبسى بقوله

لا رعى الله سرب هذا الزمان * اذ دهانا فى مثل ذاك اللسان
ما رأى الناس ثانى المتنبى * أى ثان يرى لبكر الزمان
كان من نفسه الكبيرة فى جيش وفى كبرياء ذى سلطان
هو فى شعره نبى ولكن * ظهرت معجزاته فى المعانى

والطبسى بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وبعدها سين مهملة هذه النسبة الى مدينة فى البرية بين نيسابور وأصبهان وكرمان يقال لها طبس ويحكى أن المعتمد بن عباد اللخمى صاحب قرطبة واشبيلية أنشد يوما فى مجلسه بيت المتنبى وهو من جملة قصيدته المشهورة

اذا ظفرت منك العيون بنظرة * أثاب بها معيى المطى ورازمه

وجعل يردده استحسانا له وفى مجلسه أبو محمد عبد الجليل بن وهبون الاندلسى فانشد ارتجالا

لئن جاد شعر ابن الحسين فانما * تجيد العطايا واللها تفتح اللها
تنبأ عجبا بالقريض ولو درى * بانك تروى شعره لتألها

وذكر الافليلي أن المتنبي أنشد سيف الدولة بن حمدان في الميدان قصيدته التي أولها

لكل امرئ من دهره ما تعودا * وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

فلما عاد سيف الدولة الى داره استعاده اياها فأنشدها قاعدا فقال بعض الحاضرين يريد أن يكيد أبا الطيب لو أنشدها قائما لاسمع فان أكثر الناس لا يسمعون فقال أبو الطيب أما سمعت أولها *لكل امرئ من دهره ما تعودا * وهذا من مستحسن الاجوبة وبالجملة فسمو نفسه وعلو همته وأخباره وما جريانه كثيرة والاختصار أولى واسم ولده محسد بضم الميم وفتح الحاء المهملة والسين المهملة المشددة وبعدها دال مهملة (من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

أبو العلا المعرى

(٣٦٣ - ٤٤٩ هجريه)

أبو العلا أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر ابن زياد بن ربيعة بن الحرث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النعمان بن عدى بن غطفان ابن عمرو بن بريح بن جذيمة بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف ابن قضاعة التنوخي المعرى اللغوى الشاعر

كان متضلعا من فنون الادب قرأ النحو واللغة على أبيه بالمعرة وعلى محمد بن عبد الله بن سعد النحوى بحلب وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل المأثورة وله من النظم لزوم ما لا يلزم وهو كبير يقع في خمسة أجزاء أو ما يقاربها وله سقط الزند أيضا وشرحه بنفسه وسماه ضوء السقط وبلغني ان له كتابا سماه الايك والغصون وهو المعروف بالهمزة والردف يقارب المائة جزء في الادب أيضا وحكى لى من وقف على المجلد الاول بعد المائة من كتاب الهمزة والردف وقال لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد وكان علامة عصره وأخذ عنه أبو القاسم على بن المحسن التنوخي والخطيب أبو زكريا التبريزى وغيرهما وكانت ولادته يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الاول سنة ثلاث وستين وثلثمائة بالمعرة وعمى من الجدرى أول سنة سبع وستين غشى يمنى عينيه بياض وذهبت اليسرى جملة قال الحافظ السلفي أخبرني أبو محمد عبد الله بن الوليد بن عزيب الايادى أنه دخل مع عمه على أبي العلاء يزوره فرآه قاعدا على سجادة لبد وهو شيخ قال فدعا لى ومسح على رأسى وكنت صبيا قال وكأني أنظر اليه الساعة والى عينيه احداهما نادرة والاخرى غائرة جدا وهو مجدر الوجه نحيف الجسم ولما فرغ من تصنيف كتاب اللامع العزيزى في شرح شعر المتنبي وقرئ عليه أخذ الجماعة في وصفه فقال أبو العلاء كأنما نظر المتنبي الى بلحظ الغيب حيث يقول

أنا الذى نظر الاعمى الى أدبى * وأسمعت كلماتى من به صمم

واختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه ذكرى حبيب وديوان البحتري وسماه عبث الوليد وديوان المتنبي وسماه معجز أحمد وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها وما أخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم وتولى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع عليهم والتوجيه في أماكن لخطئهم ودخل بغداد سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ودخلها ثانيا سنة تسع وتسعين وأقام بها سنة وسبعة أشهر ثم رجع الى المعرة ولزم منزله وشرع في التصنيف وأخذ عنه الناس وسار اليه الطلبة من الآفاق وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الاقدار وسمى نفسه رهين المحبسين للزومه منزله ولذهاب عينيه ومكث مدة خمس وأربعين سنة لا يأكل اللحم تدينا لانه كان يرى رأى الحكماء المتقدمين وهم لا يأكلونه كي لا يذبحوا الحيوان ففيه تعذيب له وهم لا يرون الايلام مطلقا في جميع الحيوانات وعمل الشعر وهو ابن احدى عشرة سنة ومن شعره في اللزوم قوله

لا تطلبن بآلة لك رتبة * قلم البليغ بغير جد مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما * هذا له رمح وهذا أعزل

توفي يوم الجمعة ثالث وقيل ثاني شهر ربيع الاول وقيل ثالث عشر سنة تسع وأربعين وأربعمائة بالمعرة وبلغني أنه أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

وهو أيضا متعلق باعتقاد الحكماء فانهم يقولون ايجاد الولد واخراجه الى هذا العالم جناية عليه لانه يتعرض للحوادث والآفات وكان مرضه ثلاثة أيام ومات في اليوم الرابع ولم يكن عنده غير بني عمه فقال لهم في اليوم الثالث اكتبوا عني فتناولوا الدوي والاقلام فأملى عليهم غير الصواب فقال القاضي أبو محمد عبد الله التنوخي أحسن الله عزاءكم في الشيخ فانه ميت فمات ثاني يوم ولما توفي رثاه تلميذه أبو الحسن علي بن همام بقوله

ان كنت لم ترق الدماء زهادة * فلقد أرقت اليوم من جفني دما
سيرت ذكرك في البلاد كأنه * مسك فسامعه تضمخ أوفما (1)
وأرى الحجيج اذا أرادوا ليلة * ذكراك أخرج فدية من أحرما

وقد أشار في البيت الاول الى ما كان يعتقده ويتدين به من عدم الذبح كما تقدم ذكره وقبره في ساحة من دور أهله وعلى الساحة باب صغير قديم وهو على غاية ما يكون من الاهمال وترك القيام بمصالحه وأهله لا يحتفلون به والتنوخي بفتح التاء المثناة من فوقها وضم النون المخففة وبعد الواو خاء معجمة وهذه النسبة الى تنوخ وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديما بالبحرين وتحالفوا على التناصر

(1) قوله مسك الى آخره في بعض النسخ * مسك يضمخ منه سمعا أوفما * ولعل ذلك أوفق تأمل

وأقاموا هنالك فسموا تنوخا والتنوخ الاقامة وهذه القبيلة احدى القبائل الثلاث التى هى نصارى العرب وهم بهراء وتنوخ وتغلب والمعرى بفتح الميم والعين المهملة وتشديد الراء نسبة الى معرة النعمان وهى بلدة صغيرة بالشام بالقرب من حماة وشيزر وهى منسوبة الى النعمان ابن بشير الانصارى رضى الله تعالى عنه فانه تديرها فنسبت اليه وأخذها الفرنج من المسلمين فى محرم سنة اثنتين وتسعين واربعمائة ولم تزل بأيدى الفرنج من يومئذ الى أن فتحها عماد الدين زنكى بن آق سنقر سنة تسع وعشرين وخمسمائة ومنّ على أهلها بأملاكهم

(من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

الاصبهانى صاحب كتاب الاغانى

(٢٨٤ - ٣٥٦ هجريه)

أبو الفرج على بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الله بن مروان ابن محمد بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الاموى الكاتب الاصبهانى

صاحب كتاب الاغانى وجده مروان بن محمد المذكور آخر خلفاء بنى أمية وهو اصبهانى الاصل بغدادى المنشأ كان من أعيان أدبائها وافراد مصنفيها روى عن عالم كثير من العلماء يطول تعدادهم وكان عالما بأيام الناس والانساب والسير قال التنوخى ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الاصبهانى كان يحفظ من الشعر والاغانى والاخبار والآثار والاحاديث المسندة والنسب مالم أر قط من يحفظ مثله ويحفظ دون ذلك من علوم أخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازى ومن آلة المنادمة شيأ كثيرا مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والاشربة وغير ذلك وله شعر يجمع اتقان العلماء واحسان الظرفاء الشعراء وله المصنفات المستملحة منها كتاب الاغانى الذى وقع الاتفاق على انه لم يعمل فى بابه مثله يقال انه جمعه فى خمسين سنة وحمله الى سيف الدولة بن حمدان فاعطاه ألف دينار واعتذر اليه وحكى عن الصاحب بن عباد أنه كان فى أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملا من كتب الادب ليطالعها فلما وصل اليه كتاب الاغانى لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه استغناء به عنها ومنها كتاب القيان وكتاب الاماء الشواعر وكتاب الديارات وكتاب دعوة الاطباء وكتاب مجرد الاغانى وكتاب أخبار جحظة البرمكى ومقاتل الطالبين وكتاب الحانات وادب الغرباء وحصل له ببلاد الاندلس كتب صنفها لبنى أمية ملوك الاندلس يومئذ وسيرها اليهم سرا وجاءه الانعام منهم سرا فمن ذلك كتاب نسب بنى عبد شمس وكتاب أيام العرب ألف وسبعمائة يوم وكتاب التعديل والانتصاف فى مآثر العرب ومثالبها

وكتاب جمهرة النسب وكتاب نسب بنى شيبان وكتاب نسب المهالبة وكتاب نسب بنى تغلب ونسب بنى كلاب وكتاب الغلمان المغنين وغير ذلك وكان منقطعا الى الوزير المهلبى وله فيه مدائح فمن ذلك قوله

ولما انتجعنا الائذين بظله * أعان وما عنى ومن وما منا
وردنا عليه مقترين فراشنا * وردنا نداه مجدبين فأخصبنا

وله من قصيدة يهنئه بمولود جاءه من سرية رومية

اسعد بمولود أتاك مباركا * كالبدر أشرق جنح ليل مقمر
سعد لوقت سعادة جاءت به * أم حصان من بنات الاصفر
متبجح فى ذروتى شرف العلا * بين المهلب منتماه وقيصر
شمس الضحى قرنت الى بدر الدجى * حتى اذا اجتمعا أتت بالمشترى

وكتب الى بعض الرؤساء وكان مريضا

أبا محمد المحمود يا حسن الاحسان والجود يا بحر الندى الطامى
حاشاك من عود عواد اليك ومن * دواء داء ومن المام آلام

وشعره كثير ومحاسنه شهيرة وكانت ولادته سنة أربع وثمانين ومائتين وفى هذه السنة مات البحترى الشاعر وتوفى يوم الاربعاء رابع عشر ذى الحجة سنة ست وخمسين وثلثمائة ببغداد وقيل سنة سبع وخمسين والاول أصح وكان قد خلط قبل أن يموت رحمه الله تعالى وهذه أى سنة ست وخمسين مات فيها عالمان كبيران وثلاثة ملوك كبار فالعالمان أبو الفرج المذكور وأبو على القالى والملوك الثلاثة سيف الدولة بن حمدان ومعز الدولة بن بويه وكافور الاخشيدى وهو مذكور فى ترجمة كل واحد

(من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى الشاعر المشهور

(٣١٦ - ٣٨٣ هجريه)

ويقال له الطبرخزى أيضا لان أباه من خوارزم وأمه من طبرستان فركب له من الاسمين نسبة كذا ذكره السمعانى وهو ابن أخت أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ وأبو بكر المذكور أحد الشعراء المجيدين الكبار المشاهير كان اماما فى اللغة والانساب أقام بالشام مدة وسكن بنواحى حلب وكان يشار اليه فى عصره ويحكى انه قصد حضرة الصاحب ابن عباد وهو بأرجان فلما وصل الى بابه قال لاحد حجابه قل للصاحب على الباب أحد الادباء وهو يستأذن فى الدخول فدخل الحاجب وأعلمه فقال الصاحب قل له قد ألزمت نفسى أن لا يدخل على من الادباء الا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك فقال له أبو بكر ارجع اليه

وقل له هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء فدخل الحاجب فاعاد عليه ما قال فقال الصاحب هذا يكون أبا بكر الخوارزمي فأذن له في الدخول فدخل عليه فعرفه وانبسط له وأبو بكر المذكور له ديوان رسائل وديوان شعر وقد ذكره الثعالبي في كتاب اليتيمة وذكر قطعة من نثره ثم أعقبها بشيء من نظمه فمن ذلك قوله

رأيتك أن أيسرت خيمت عندنا * مقيما وأن أعسرت زرت لماما
فما أنت الا البدر ان قل ضوءه * أغب وان زاد الضياء أقاما

ومن شعره أيضا

يامن يحاول صرف الراح يشربها * ولا يفك لما يلقاه قرطاسا
الكاس والكيس لم يقض امتلاؤهما * ففرغ الكيس حتى تملأ الكاسا

وفيه يقول أبو سعيد أحمد بن شهيب الخوارزمي

أبو بكر له أدب وفضل * ولكن لا يدوم على الوفاء
مودته اذا دامت لخل * فمن وقت الصباح الى المساء

وملحه ونوادره كثيرة ولما رجع من الشام سكن نيسابور ومات بها في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة وذكر شيخنا ابن الاثير في تاريخه انه توفي سنة ثلاث وتسعين والله أعلم رحمه الله تعالى وكان قد فارق الصاحب بن عباد غير راض فعمل فيه

لا تحمدن ابن عباد وان هطلت * يداه بالجود حتى أخجل الديما
فانه خطرات من وساوسه * يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

فبلغ ابن عباد ذلك فلما بلغه خبر موته أنشد

أقول لركب من خراسان قافل * أمات خوارزميكم قيل لي نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره * ألا لعن الرحمن من كفر النعم

قلت هكذا وجدت هذين البيتين منسوبين الى أبي بكر الخوارزمي المذكور في الصاحب ابن عباد ذكر ذلك جماعة من الادباء في مجاميعهم وفي مذاكراتهم ثم نظرت في كتاب معجم الشعراء تأليف المرزباني فوجدت في ترجمة أبي القاسم الاعمى واسمه معاوية بن سفيان وهو شاعر راوية بغدادي أحد غلمان الكسائي اتصل بالحسن بن سهل يؤدب أولاده فعتب عليه في شيء فقال يهجوه

لا تحمدن حسنا في الجود ان مطرت * كفاه غزرا ولا تذممه ان زرما
فليس يمنع ابقاء على نشب * ولا يجود لفضل الحمد مغتنما
لكنها خطرات من وساوسه * يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

والله أعلم بذلك وقد تقدم الكلام على الخوارزمى وطبرخزى بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الخاء المعجمة وبعدها زاى وقد سبق فى أول الترجمة الكلام على سبب هذه النسبة

(من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذانى الحافظ المعروف ببديع الزمان

(٣٥٣ - ٣٩٨ هجريه)

صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة وعلى منواله نسج الحريرى مقاماته واحتذى حذوه واقتفى أثره واعترف فى خطبته بفضله وانه الذى أرشده الى سلوك ذلك المنهج وهو أحد الفضلاء الفصحاء روى عن أبى الحسين أحمد بن فارس صاحب المجمل فى اللغة وعن غيره وله الرسائل البديعة والنظم المليح وسكن هراة من بلاد خراسان فمن رسائله الماء اذا طال مكثه ظهر خبثه واذا سكن متنه تحرك نتنه وكذلك الضيف يسمج لقاؤه اذا طال ثواؤه ويثقل ظله اذا انتهى محله والسلام ومن رسائله حضرته التى هى كعبة المحتاج لا كعبة الحجاج ومشعر الكرم لا مشعر الحرم ومنى الضيف لا منى الخيف وقبلة الصلات لا قبلة الصلاة وله من تعزية الموت خطب قد عظم حتى هان ومس قد خشن حتى لان والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها وجنت حتى صار أصغر ذنوبها فلتنظر يمنة هل ترى الا محنة ثم انظر يسرة هل ترى الا حسرة ومن شعره من جملة قصيدة طويلة

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكبا * لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت * والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

ومن شعره فى ذم همذان ثم وجدتهما لابى العلاء محمد بن حسول الهمذانى

همذان لى بلد أقول بفضله * لكنه من أقبح البلدان
صبيانه فى القبح مثل شيوخه * وشيوخه فى العقل كالصبيان

وله كل معنى مليح حسن من نظم ونثر وكانت وفاته سنة ثمان وتسعين وثلثمائة مسموما بمدينة هراة رحمه الله تعالى ثم وجدت فى آخر رسائله التى جمعها الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست ما مثاله هذا آخر الرسائل وتوفى رحمه الله تعالى بهراة يوم الجمعة الحادى عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلثمائة قال الحاكم المذكور وسمعت الثقاة يحكون انه مات من السكتة وعجل دفنه فأفاق فى قبره وسمع صوته بالليل وأنه نبش عنه فوجدوه قد قبض على لحيته ومات من هول القبر

(من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

ترجمة ابن خلكان

هو من بيت كبير بناحية اربل مدينة بالعراق على الشاطئ الشرقي من نهر دجلة بالقرب من الموصل من جهتها الشرقية وذكر ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية فيمن توفي من الاعيان سنة احدى وثمانين وستمائة فقال

ابن خلكان قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان الاربلي الشافعي أحد الائمة الفضلاء والسادة العلماء والصدور الرؤساء وهو أول من جدد في أيامه قضاة القضاة من بقية المذاهب فاستقلوا بالاحكام بعدما كانوا يكونون من نوابه وقد عزل بابن الصائغ ثم أعيد الى الحكم بعد سنين ثم أعيد ابن الصائغ وولي التدريس بعدة مدارس لم تجتمع لغيره ولم يبق معه في آخر وقته سوى الامينية وبيد ابنه كمال الدين موسى تدريس النجيبية وكانت وفاته بالمدرسة النجيبية المذكورة يوم السبت آخر النهار السادس والعشرين من رجب ودفن من الغد بسفح قاسيون عن ثلاث وسبعين سنة وقد كان له نظم حسن رائق ومحاضرته في غاية الحسن وله التاريخ المفيد الذي وسمه بوفيات الاعيان من أكبر المصنفات وقال المؤلف نفسه في ترجمة أم المؤيد النيسابورية مانصه ولنا منها اجازة كتبتها هي في بعض شهور سنة عشر وستمائة ومولدي يوم الخميس بعد صلاة العصر حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستمائة بمدينة اربل بمدرسة سلطانها الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين رحمهما الله وقال أيضا في ترجمة عبد الاول السجزي انه سمع صحيح البخاري سنة احدى وعشرين وستمائة بمدينة اربل على الشيخ الصالح ابن هبة الله الذي ذكر بعد أنه توفي في محرم أول السنة المذكورة وكان والد المؤلف متولي التدريس بمدرسة الملك المعظم المذكورة الى أن توفي سنة عشر وستمائة كما ذكره هو في ترجمة أحمد بن كمال الدين وخرج المؤلف من بلده اربل سنة ٦٢٦ كما ذكره هو في ترجمة عيسى بن سنجر ودخل حلب في أواخر السنة المذكورة وأقام فيها سنين وكان في سنة ٦٣٣ مقيما بدمشق وفي سنة ٦٣٧ كان مقيما بمصر كما ذكره في ترجمة أحمد بن قطان الاربلي وذكر أيضا بعض أحواله مع السلطان بيبرس في خاتمة هذا التأليف وبالجملة فمن تتبع كتابه هذا وتصفحه يعلم أحواله وأطواره وتنقلاته ثم رأيت ابن الكتبي صاحب كتاب فوات الوفيات المتوفى سنة ٧٦٤ ترجمه فقال

مولانا قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان الاربلي الشافعي تولى قضاء الشام ثم عزل عنه بابن الصائغ ثم عزل ابن الصائغ بعد سبع سنين وكان يوما مشهودا وجلس في منصب حكمه وتكلم الشعراء فقال الشيخ رشيد الدين الفارقي

أنت فى الشام مثل يوسف فى مصـ * ـر وعندى أن الكرام جناس
ولكل سبع شـــــدادو بعد السبع عام فيـه يغاث النـاس

وقال سعد الدين الفارقى

أذقت الشام سبع سنين جدبا * غداة هجرته هجرا جميــلا
فلما زرته من أرض مصـــر * مددت عليـه من كفيك نيلا

وقال نور الدين بن مصعب

رأيت أهـــل الشام طرا * ما فيهـــم قط غـير راض
نالهم الخير بعـــــد شر * فالوقت بسـط بلا انقباض
وعوضوا فرحة بحــزن * مذ أنصف الدهر فى التقاضى
وسرهـــم بعـــد طول غم * قدوم قاض وعزل قاض
فكلهم شاكـــر وشاك * بحـال مستقبل وماضى

وكان له ميل الى بعض أولاد الملوك وله فيه أشعار رائقة يقال انه أول ما زاره بسط له الراحة وقال له ماعندى أعز من هذه طأ عليها ولما فشا أمرهما وعلم به أهله منعوه الركوب فقال ابن خلكان

ياسادتى انى قنعت وحقكم * فى حبكم منكم بأيسر مطلب
ان لم تجودوا بالوصال تعطفا * ورأيتم هجرى وفرط تجنبى
لاتمنعوا عينى القريحة أن ترى * يوم الخميس جمالكم فى الموكب
لو كنت تعـلم ياحبيبى ما الذى * ألقاه من كمد اذا لم تركب
لرحمتنى ورثيت لى من حالة * لولاك لم يك حملها من مذهبى
ومن البليـــة والرزية أننى * أقضى وما تدرى الذى قد حل بى
قسما بوجهك وهو بدر طالع * وبليــل طرتك التى كالغيهب
وبقامة لك كالقضيب ركبت من * أخطارها فى الحب أعظم مركب
وبطيب مبسمك الشهى البارد الـ * ـعذب النميـــر اللؤلؤى الاشنب
لو لم أكن فى رتبـة أرعى لهـا الـ * ـعهد القديم صـيانة للمنصب
لهتكت سرى فى هواك ولذلى * خلع العـــذار ولو ألح مؤنبى
لكن خشيت بأن تقول عواذلى * قد جن هذا الشيخ فى هذا الصبى
فارحم فديتك حرقة قد قاربت * كشف القناع بحق ذيالك النبى
لاتفضحن بحبــك الصب الذى * جرعته فى الحب أكدر مشرب

قال القاضي جمال الدين عبد القاهر التبريزي كان الذي يهواه القاضي شمس الدين بن خلكان الملك المسعود بن المظفر صاحب حماة وكان قد تيمه حبه وكنت أنا عنده في العادلية فتحدثنا في بعض الليالي الى أن راح الناس من عنده فقال نم أنت ههنا وألقى على فروة وقام يدور حول البركة في بيت العادلية ويكرر هذين البيتين الى أن أصبح وتوضأنا وصلينا والبيتان المذكوران هما

أنا والله هالك * آيس من سلامتي

أو أرى القامة التي * قد أقامت قيامتي

ويقال انه سأل بعض أصحابه عما يقوله أهل دمشق فيه فاستعفاه فألح عليه فقال يقولون انك تكذب في نسبك وتأكل الحشيشة وتحب الصبيان فقال أما النسب والكذب فيه فاذا كان لابد منه كنت أنتسب الى العباس أو الى علي بن أبي طالب أو الى واحد من الصحابة وأما النسب الى قوم لم يبق لهم بقية وأصلهم قوم مجوس فما فيه فائدة وأما الحشيشة فالكل ارتكاب محرم واذا كان ولابد فكنت أشرب الخمر لانه ألذ وأما محبة الغلمان فاني قد أجيبك عن هذه المسئلة وذكره الصاحب كمال الدين بن العديم ونسبه الى البرامكة ومن شعره أيضا

وسرب ظباء في غدير تخالهم * بدورا بأفق الماء تبدو وتغرب

يقول عذولي والغرام مصاحبي * أما لك عن هذي الصبابة مذهب

وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى * فقلت له دعهم يخوضوا ويلعبوا

وقال أيضا مضمنا

كم قلت لما أطلعت وجناته * حول الشقيق الغض روضة آس

أعذاره الساري العجول بخده * ما في وقوفك ساعة من باس

وقال أيضا

لما بدا العارض في خده * بشرت قلبي بالسلو المقيم

وقلت هذا عارض ممطر * فجاءني فيه العذاب الاليم

وقال أيضا

وما سر قلبي منذ شطت بك النوى * نعيم ولا لهو ولا متصرف

ولا ذقت طعم الماء الا وجدته * سوى ذلك الماء الذي كنت أعرف

ولم أشهد اللذات الا تكلفا * وأي سرور يقتضيه التكلف

وقال أيضا

أحبابنا لو لقيتم في اقامتكم * من الصبابة ما لقيت في ظعني

لأصبح البحر من أنفاسكم يبسا * والبر من أدمعي ينشق بالسفن

وقال أيضا

تمثلتمولى والديار بعيـــدة * فخيل لى أن الفؤاد لكم مغنى
وناجاكم قلبى على البعد والنوى * فأوحشتمو لفظا وآنستم معنى

وقال أيضا

أنظر الى عارضـــه فوقه * لحاظه يرسل منها الحتوف
تعاين الجنـــة فى خده * لكنها تحت ظلال السيوف

وقال فى ملاح أربعة يلقب أحدهم بالسيف

ملائك بلدتنا بالحسن أربعـــة * بحسنهم فى جميع الخلق قد فتكوا
تملكوا مهج العشاق وافتتحوا * بالسيف قلبى ولولا السيف ما ملكوا

وقال أيضا

ألا يا سائرا فى فقـــد عمر * يقاسى فى السرى حزنا وسهلا
قطعت نقا المشيب وجزت عنه * وما بعد النقا الا المصـــلى

وقال أيضا

أى ليـــل على المحب أطاله * سائق الظعـــن يوم زم جماله
يزجر العيس طاويا يقطع المهـــمه عســـفا سهوله ورماله
أيها السائق المجـــد ترفق * بالمطايا فقد سئمن الرحاله
وأنخها هنيهـــة وأرحها * قد براها فرط السرى والكلاله
لا تطل سيرها العنيف فقد بـــرح بالصب فى سراها الاطاله
قد تركتم وراءكم حلف وجد * باديا فى محاكم اطـــلاله
يسأل الربع عن ظباء المصلى * ما على الربع لو أجاب سؤاله
ومحال من المحيـــل جواب * غير أن الوقوف فيها علاله
هذه ســـنة المحبين يبكو * ن على كل مـــنزل لا محاله
يا ديار الاحباب لا زالت الأد * مع فى ترب ساحتيك مذاله
وتمشى النســـيم وهو عليل * فى مغانيـــك ساحبا أذياله
أين عيش مضى لنا فيك ما أســـرع عنـــا ذهابه وزواله
حيث وجه الشباب طلق نضير * والتصابى غصـــونه ميـاله
ولنا فيك طيب أوقات أنس * ليتنا فى المنام نلـــقى مثاله
وبأرجاء جوك الرحب سرب * كل عـــين تراه تهوى جماله

من فتاة بديعة الحسن ترنو * من جفون لحاظها مقتاله
ورخيم الدلال حلو المغانى * تنثـــنى أعطافه مختاله
ذو قوام تودّ كل غصون البــان لو أنها تحاكى اعتـــداله
وجهـه فى الظلام بدر تمام * وعـــذاراه حوله كالهـاله
ظبيــة تبهر العيون جمالا * وغزال تغار منــه الغزاله
ياخليـلى اذا أتيت ربا الجز * عا وعاينت روضـه وظلاله
قف به ناشـدا فؤادى فلى ثم توار أخشى عليـه ضـلاله
وبأعلى الكثيب بيت أغض الطـرف عنــه مهابة وجلاله
كلما جئتـه لاسأل عنـــه * أظهر الغىّ غــيرة وتباله
أنا أدرى به ولكن صونا * أتعامى عنـه وأبدى جهاله
منزل حبــــه علىّ قديم * فى زمان الصبا وعصر البطاله
ياعريب الحمى اعذرونى فانى * ماتجنبت أرضكم عن ملاله
حاش لله غــيرأنى أخشى * من عدوّ يسـىءُ فينا المقاله
فتأخرت عنكم قانعا من * طيفكم فى المنام يهدى خياله
أتمنى فى النوم زور خيال * والأمانى اطماعها قتاله
ياأهيـل النقا وحق ليالى الـــوصل ماصبوتى عليكم ضلاله
لى مذ غبتمو عن العــين نار * ليس تخبو وأدمع هطاله
فصلونا ان شئتمو أو فصـدوا * لاعدمناكمو على كل حاله

وقال أيضا

يارب ان العبـد يخفى عيبـه * فاستر بحلمك مابدا من عيبه
ولقد أتاك وماله من شافع * لذنوبه فاقبل شفاعة شيبه

وقال أيضا

أعدمتنى بالجوى ياقاتر المقـل * فصح وجدى على مابى من العلل
وملت عنى الى الواشى فلا عجب * والغصن مازال مطبوعا على الميل
ياواحد الحسن عدنى زورة حلما * وهاىدى ان نومى قد جفا مقلى
ياجيرة بأعالى الخيف من أضم * خيبتمو بجفاكم فى الهوى أملى
وملتمو بجميل الصـبر عن دنف * أجـل مايتمنى سرعة الاجـل
تجرى عليـه متى غبتم مدامعه * وماعسى ينفع الباكى على طلل

وقال أيضا

أيا غادرا خانت مواثيق عهده * لقد جرت فى حكم الغرام على الصب
وأقصيته من بعد أنس وصحبة * وما هكذا فعل الاحبة والصحب
فلله أيام تقضت حميدة * بقربك واللذات فى المنزل الرحب
واذ أنت فى عينى ألذ من الكرى * وأشهى الى قلبى من البارد العذب
فلهفى على ذاك الزمان الذى غدت * عليه دموع العين دائمة السكب
ومذ صرت ترضينى بقول مملق * وتظهر لى سلما أشد من الحرب
ثنيت عنانى عن هواك زهادة * وان كنت فى أعلى المراتب من قلبى
لأنى رأيت القلب عندك ضائعا * تعذبه كيف اشتهيت بلا ذنب
ولم تحفظ الود الذى هو بيننا * ولم ترع أسباب المودة والحب
ولا أنت فى قيد المحب اذا غدا * تقلبه الاشواق جنبا الى جنب
ولا أنت ممن يرعوى لمقالتى * فاشفى قلبى بالشكية والعتب
ولا رمت منك القرب الا جفوتنى * وأبعدتنى حتى أيست من القرب
وأصغيت للواشى وصدقت قوله * وضيعت ما بينى وبينك بالكذب
فلم يبق لى والله فيك ارادة * كفانى الذى قاسيت فيك من الحب
ولا لى فى حبك ماعشت رغبة * أبى الله أن تسبى فؤادى أو تصبى
ومن ذا الذى يقوى على حمل بعض ما * تجرعته بالذل من خلقك الصعب
فلا ترج منى بعد ذا حسن صحبة * فحسبى سلوا بعض ما قلته حسبى
فلا تعتبنى قد قطعت مطامعى * وخففت حتى فى الرسائل والكتب

وقال فى المعنى

أيا معرضا عنى بغير جناية * أما تستحى من فرط تيهك والعجب
سلوتك فاصنع ما تشاء فانه * محا كثرة التقبيح حبك من قلبى

(من كتاب وفيات الاعيان)

ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) (١٣٣١ - ١٤٠٥ م)

هو محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي قاضي القضاة وينسب سلفه الى وائل بن حجر من عرب اليمن وكانوا نزلاء اشبيلية فعند الحادثة بالاندلس انتقلوا منها عن نباهة وشهرة واستقروا بتونس وأما المترجم له فهو رجل فاضل حسن الخلق جم الفضائل باهر الحصل رفيع القدر ظاهر الحياء أصيل المجد وقور المجلس خاصي الزي عالي الهمة عزوف عن الضيم صعب المقادة قوي الجاش طامح لقنن الرئاسة خاطب للحظ متقدم في فنون عقلية ونقلية متعدد المزايا سديد البحث كثير الحفظ صحيح التصور بارع الخط مغرى بالتجلة جواد حسن العشرة مبذول المشاركة مقيم لرسم التعين عاكف على رعي خلال الاصالة مفخر من مفاخر التخوم المغربية قرأ القرآن ببلده وتأدب بأبيه وانصرف من افريقية منشئه بعد أن تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة واقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة وعرف فضله وخطبه السلطان منفق سوق العلم والادب أبي عنان فارس بن علي بن عثمان واستحضره بمجلس المذاكرة فعرف حقه وأوجب فضله واستعمله على الكتابة أوائل عام ستة وخمسين ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده عن حسن التأني وشفوفه بثقوب الفهم وجودة الادراك فاغروا به السلطان فاصابته شدة تخلصه منها أجله الى أن أفضى الامر الى السعيد ولده فاعتبه قيم الملك لحينه وأعاده الى رسمه ودالت الدولة الى السلطان أبي سالم وكان له به الاتصال قبل تنوع المحنة بما أكد حظوته فقلده ديوان الانشاء مطلق الجرايات محرر السهام نبيه الرتبة الى آخر أيامه ولما ألقت الدولة مقادها بعده الى الوزير عمر بن عبد الله مدبر الامر وله اليه وسيلة وفي حليه شركة وعنده حق رابه تقصيره عما ارتمى اليه أمله فساء ما بينهما بما آل الى انفصاله عن الباب المريني وورد على الاندلس في أول ربيع الاول عام أربعة وستين وسبعمائة واهتزله السلطان وأركب خاصته لتلقيه وأكرم وفادته وخلع عليه وأجلسه بمجلسه ولم يدخر عنه برا وما كلة ومراكبة ومطايبة وله التاريخ الكبير الذي سماه ديوان العبر وكتاب المبتدا والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر وقد عرف في آخره بنفسه وأطال وذكر أنه لما كان بالاندلس وحظي عند السلطان أبي عبد الله شم من وزيره ابن الخطيب رائحة الانقباض فقوض الرحال ولم يرض من الاقامة بحال ولعب بكرته صوالجة الاقدار حتى حل بالقاهرة المعزية واتخذها خير دار وولي بها قضاء القضاة ثم قدم على تمرلنك فاكرمه غاية الاكرام وأعاده الى الديار المصرية ولقد كان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان وله من النظم والنثر ما يزري بعقود الجمان مع الهمة العلية والتبحر في العلوم النقلية والعقلية وكانت وفاته بالقاهرة

(من كتاب نفح الطيب للمقري)

تقي الدين المقريزي (٧٦٠ - ٨٤٥ هـ) (١٣٥٨ - ١٤٤١ م)

هو أحمد بن عبد الصمد الشيخ الامام العالم البارع عمدة المؤرخين وعين المحدثين تقي الدين المقريزي البعلبكي الاصل المصري الدار والوفاة نشأ بالقاهرة وتفقه على مذهب الحنفية ثم تحول شافعيا بعد مدة طويلة وتفقه وبرع وصنف التصانيف المفيدة النافعة الجامعة لكل علم وكان ضابطا مؤرخا مفننا محدثا معظما في الدول ولي حسبة القاهرة أول ولايته من قبل الملك الظاهر برقوق عوضا عن شمس الدين محمد البجانسي ثم عزل بالقاضي بدر الدين العينتابي ثم وليها عنه أيضا وولي عدة وظائف دينية وعرض عليه قضاء دمشق في أوائل الدولة الناصرية فأبى أن يقبل ذلك وكان اماما مفننا كتب الكتب الكثيرة بخطه وانتقى أشياء وحصل الفوائد واشتهر ذكره في حياته وبعد موته في التاريخ وغيره حتى صار به يضرب المثل وكان له محاسن شتى ومحاضرة جيدة الى الغاية لاسيما في ذكر السلف من العلماء والملوك وغير ذلك وكان منقطعا في داره ملازما للعبادة قل أن يتردد الى أحد الا لضرورة وقرأت عليه كثيرا من مصنفاته وانتفعت به واستفدت منه وكان كثير الكتابة والتصنيف وصنف كتبا كثيرة من ذلك إمتاع الاسماع في ستة مجلدات وهو كتاب نفيس وله كتاب الخبر عن البشر ذكر فيه القبائل في أربعة مجلدات وعمل له مقدمة في مجلد وكتاب السلوك في معرفة دول الملوك في عدة مجلدات يشتمل على ذكر ما وقع من الحوادث الى يوم وفاته وله تاريخه الكبير المقفى في تراجم أهل مصر والواردين اليها ولو كمل هذا التاريخ تجاوز الثمانين مجلدا وله كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار في عدة مجلدات وهو في غاية الحسن وكتاب مجمع الفوائد ومنبع العوائد كمل منه نحو الثمانين مجلدا كالتذكرة وكتاب شذور العقود وكتاب الاوزان والاكيال الشرعية وكتاب ازالة التعب العناء في معرفة الحال في الغناء وكتاب المقاصد السنية في الاجسام المعدنية وله عدة تصانيف أخر ولم يزل ضابطا حافظا للوقائع والتاريخ الى أن توفي ودفن بالقاهرة

(من كتاب المنهل الصافي لابي المحاسن)

(م)


Bibliotheca Alexandrina
0413450